تفسير القاسمي

المسمى

محاسن التأويل

تأليف

الإمام العلامة محمد جمال الدين القاسمي
المتوفى سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م

ضبطه وصححه وخرج آياته وأحاديثه
محمد باسل عيون السود

المحتوى

من أول سورة الكهف - إلى آخر سورة العنكبوت

الجزء السابع

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الثانية
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

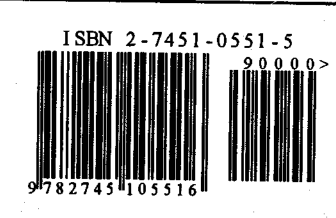
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

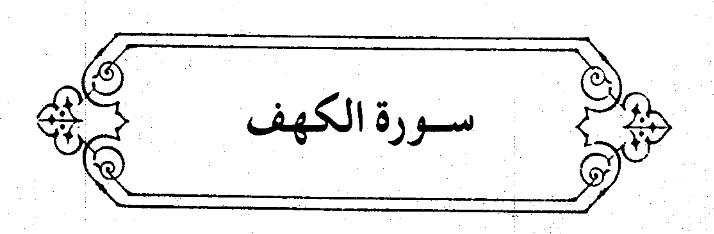
ISBN 2-7451-0551-5



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة الكهف

ويقال لها سورة أصحاب الكهف. قال المهايميّ: سميت بها لاشتمالها على قصة أصحابه الجامعة فوائد الإيمان بالله، من الأمن الكليّ عن الأعداء، والإغناء الكليّ عن الأشياء، والكرامات العجيبة، وهذا من أعظم مقاصد القرآن. وهي مكية، وقيل إلا أولها إلى قوله: ﴿ جُرُزاً ﴾ [الكهف:١– ٨]، وقوله: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ... ﴾ [الكهف:٢٨] الآية، و﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [الكهف:١٠٧–١١٠]، إلى آخر السورة. واختار الدانيّ أنها مكية كلها. وآيها مائة وعشرة، وقد روي في فضلها أحاديث كثيرة، ساقها الحافظ ابن كثير وغيره.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾

﴿ **الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزلَ عَلى عَبْدِه الْكِتَابَ** ﴾ قدَّمنا أن كثيراً ما تفتح السور وتختم بالحمد، إشارة إلى أنه المحمود على كل حال ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى والآخِرَةِ ﴾ [القصص: ٧٠]، وتعليماً للعباد أدب افتتاح كل أمر ذي بال واختتامه. وذلك بالثناء على الله تبارك وتعالى بنعمه العظمى ومننه الكبرى. وفي إيثار إنزال التنزيل من بين سائر نعوته العليّة، تنبيه على أنه أعظم نعمائه. فإنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد، والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد. ولا شيء في معناه يماثله. وفي ذكر الرسول ﷺ بعنوان العبودية، تنبيه على عظمة المنزَل والمنزَل عليه. كما تدل عليه الإضافة الاختصاصية، كما تقدم في سورة الإسراء. وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً للمرسِل لا كما زعمت النصارى في حق عيسى عليه السلام. وتعريفُ الكتاب للعهد. أي الكتاب الكامل الغنيّ عن الوصف بالكمال، المعروف بذلك من بين الكتب، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به. وهو عبارة عن جميع القرآن. أو عن جميع المنزل حينئذ. وتأخيره عن الجار والمجرور، مع أن حقه التقديم عليه، ليتصل به قوله سبحانه ﴿ **وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجاً** ﴾ أي شيئاً من العوج، باختلال في نظمه وتنافٍ في معانيه. أو زيغ وانحراف عن الدعوة إلى الحق. بل جعله مزيلاً للعوج؛ إذ جعله:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾

﴿ **قَيِّماً** ﴾ أي قيّماً بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع. فهو وصف له بأنه مكمل لهم، بعد وصفه بأنه كامل في نفسه. أو قيماً على الكتب السالفة،

مهيمناً عليها. أو متناهياً في الاستقامة والاعتدال. فيكون تأكيداً لما دل عليه نفي العوج. مع إفادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له، حسبما تنبئ عنه الصيغة. وانتصابه بمضمر تقديره (جعله) كما ذكرنا. على أنه جملة مستأنفة. وفيه وجوه أخر.

تنبيه:

ذهب القاشانيّ أن الضمير في (لَّهُ) وما بعده لقوله: ﴿عَبْدِهِ﴾ قال: أي لم يجعل لعبده زيغاً وميلاً. وجعله قيّماً، يعني مستقيماً، كما أُمِرَ بقوله ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢]، أو قيّماً بأمر العباد وهدايتهم، إذ التكميل يترتب على الكمال. لأنه، عليه الصلاة والسلام، لما فُرِغ من تقويم نفسه وتزكيتها، أقيمت نفوس أمته مقام نفسه. فأُمر بتقويمها وتزكيتها. ولهذا المعنى سمي إبراهيم، صلوات اللّه عليه، أمة. وهذه القيّميَّة أي القيام بهداية الناس، داخلة في الاستقامة المأمور هو بها في الحقيقة، انتهى.

والأظهر الوجه الأول.

وقوله تعالى ﴿لِيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ﴾ أي لينذر من خالفه ولم يؤمن به، عذاباً شديداً عاجلاً أو آجلاً. و (البأس): القهر والعذاب، وخصصه بقوله ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ إشارة إلى زيادة هَوْله. ولذلك عظمه بالتنكير. متعلق بـ (أَنزَلَ) أو بعامل (قيّماً) ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي به. وقال القاشاني: أي الموحدين، لكونهم في مقابلة المشركين، الذين قالوا اتخذ اللّه ولداً. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي من الخيرات والفضائل ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم، بمقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة ﴿أَجْراً حَسَناً﴾ وهو الجنة ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً﴾ وهم مشركو العرب في قولهم (الملائكة بنات اللّه) والنصارى في (دعواهم المسيح ابن اللّه) وخصهم بالذكر، وكرر الإنذار متعلقاً بهم، استعظاماً لكفرهم. وتركُ إجراء الموصول على الموصوف كما فعل في قوله تعالى ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ للإيذان بكفاية ما في حيز الصلة، في الكفر على أقبح الوجوه.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ﴿٥﴾

﴿**مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ**﴾ أي ما لهم بالولد، أو باتخاذه، أو بالقول، من علم. بل إنما يصدر عن جهل مفرط، وتوهم كاذب، وتقليد للآباء. لا عن علم يقين، ويقين. ويؤيده قوله: ﴿**كَبُرَتْ كَلِمَةً**﴾ أي ما أكبرها كلمة ﴿**تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**﴾ وذلك لأن الولد مستحيل لا معنى له. إذ العلم اليقيني يشهد أن الوجود الواجبي أحدي الذات، لا يماثله الوجود الممكن. والولد هو المماثل لوالده في النوع، المكافئ له في القوة. وجملة (تخرج من أفواههم) صفة لـ (كَلِمَةً) تفيد استعظام اجترائهم على إخراجها من أفواههم. قال الشهاب: لأن المعنى: كبر خروجها. أي عظمت بشاعته وقباحته، بمجرد التفوه. فما بالك باعتقاده ﴿**إنْ يَقُولُونَ إلاَّ كَذِباً**﴾ أي قولاً كذباً لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلاً. وذلك لتطابق الدليل القطعي، والوجدان الذوقي على إحالته.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾

﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ**﴾ أي مهلكٌ ﴿**نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إن لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ**﴾ يعني القرآن ﴿**أَسَفاً**﴾ أي لتأسف على توليهم وإعراضهم عنه. أو متأسفاً عليهم. و(الأسف) فرط الحزن والغضب. وفي (العناية): لعل للترجي. وهو الطمع في الوقوع أو الإشفاق منه. وهي هنا استعارة. أي وصلت إلى حالة يتوقع منك الناس ذلك. لما يشاهد من تأسفك على عدم إيمانهم. وفي النظم الكريم استعارة تمثيلية بتشبيه حاله معهم، وقد تولوا، وهو آسف من عدم هدايتهم، بحال من فارقته أحبته. فهمّ بقتل نفسه. أو كاد يهلك وجداً عليهم وتحسراً على آثارهم. وسر ذلك - كما قال القاشاني - أن الشفقة على خلق الله والرحمة عليهم من لوازم محبة الله ونتائجه. ولما كان ﷺ حبيب الله، ومن لوازم محبوبيته محبته لله لقوله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤]، وكلما كانت محبته للحق أقوى، كانت شفقته ورحمته على خلقه أكثر. لكون الشفقة عليهم ظل محبته لله، وأشد تعطفه عليهم. فإنهم كأولاده وأقاربه. بل كأعضائه وجوارحه في الشهود الحقيقيّ. فلذلك بالغ في التأسف عليهم، حتى كاد يهلك نفسه. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾

﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ** ﴾ أي من الحيوان والنبات والمعادن ﴿ **زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ أي ليظهر أيهم أقهر لشهواتها ودواعيها، وأعصى لهواها أي رضاي، وأقدر على مخالفتها لموافقتي.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

﴿ **وَ إِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً** ﴾ أي تراباً مستوياً لا نبات فيه. بعد ما كان يبهج النظار، لا شيء فيه يختلف، رُبىً ووهاداً. أي نفنيها وما عليها ولا نبالي. وفي الآية تسلية له صلوات الله عليه. كأنه قيل لا تحزنّ عليهم فإنه لا عليك أن يهلكوا جميعاً. لأنا نخرج جميع الأسباب من العدم إلى الوجود للابتلاء. ثم نفنيها، ولا حيف ولا نقص. أوْ لا تحزن فإنا مفنون ذلك ومجازون لهم بحسب أعمالهم، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾

﴿ **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً** ﴾ أي آية ذات عجب. على حذف مضاف. أو وصفاً بالمصدر مبالغة و﴿ **مِن آيَاتِنَا** ﴾ حال منه و﴿ **أَمْ** ﴾ للاستفهام التقريري بمعنى الهمزة. أي أنهم من بين آياتنا آية عجيبة. وجعلُها منقطعة مقدرة بـ (بل والهمزة، والاستفهام للإنكار) – أي إنكار حسبانهم آية عجيبة بالنسبة إلى آياته الكبرى – فيه بُعْدٌ. لأن سياق النظم الكريم، أعني سوقها مفصلة منوهاً بها، ما هو إلاّ لتقرير التعجب منها. و﴿ **الكهف** ﴾ الغار الواسع في الجبل. و﴿ **الرقيم** ﴾ اسم كلبهم. وقيل لوح رقيم فيه حديثهم، وجعل على باب الكهف. وقيل الجبل أو الوادي، أقوال.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

﴿ **إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ** ﴾ أي خوفاً من إيذاء الملك على ترك عبادة الأوثان

والذبح لها. وإيثارُ الإظهار على الإضمار لتحقيق حالهم بتغليبهم جانب اللّه على جانب أهويتهم في حال شبابهم ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا﴾ أي من ربانا بنعمة إيثار جانبه على جانب أنفسنا ﴿ءَاتِنَا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي من خزائنك وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وهو اختيار الكهف لمفارقة الكفار ﴿رَشَداً﴾ وهو توحيدك وعبادتك.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾ أي أنمناهم نومة ثقيلة لا ينبههم صفير الخبير، ولا دعوة الداعي الخبير، في الكهف سنين ذوات عدد. أي كثيرة أو معدودة. قال الشهاب: (ضربنا) مستعار استعارة تبعية لمعنى أَنَمْنَاهم إنامة لا ينتبه منها بالصياح. لأن النائم ينتبه من جهة سمعه. وهو إمّا من (ضربت القفل على الباب) أو (ضربت الخباء على ساكنه) شُبِّه، لاستغراقه في نومه حتى لا ينتبه بمنبه، بمن كان خلف حجب مانعة من وصول الأصوات إليه. وقيل إنه استعارة تمثيلية.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي أيقظناهم إيقاظاً يشبه بعث الموتى ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾ أي لنعلم واقعاً ما علمنا أنه سيقع. وهو أي الحزبين المختلفين في مدة لبثهم، أشد إحصاءً، أي إحاطةً وضبطاً لغاية مدة لبثهم فيعلموا قدر ما حفظهم اللّه بلا طعام ولا شراب، وأمنهم من العدوّ، فيتمّ لهم رشدهم في شكره، وتكون لهم آية تبعثهم على عبادته. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بالحَقِّ﴾ شروع في تمام بسط قصتهم وتفصيلها. و(الحق) الأمر المطابق للواقع ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي بوحدانيته إيماناً يقينياً علمياً على طريق الاستدلال، مع اتفاق قومهم على الشرك ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾ أي بترجيح جانب اللّه على جانب أنفسهم. قال ابن كثير: الفتية - وهم الشباب - أقبل

للحق وأهدى للسبيل، من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل. ولهذا كان أكثر المستجيبين للّه تعالى ولرسوله ﷺ شباباً. وأما عامة شيوخ قريش فاستمروا على ضلالهم ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً. وقد يروى عن هؤلاء الفتية روايات مضطربة. أوثقها أن هؤلاء، كان قدم إلى مدينتهم من يدعو إلى الإيمان باللّه تعالى، وبما جاء به عيسى عليه السلام. ممن كان على قدم الحواريين. فاستجاب لذلك الفتيةُ المنوه بهم. وخلعوا الوثنية التي عليها قومهم وفرّوا بدينهم خشية أن يفتنهم ملكهم عن دينهم أو يقتلهم. فاستخفوا عنه في الكهف. واعتزلوا فيه يعبدون اللّه تعالى وحده. ثم روي أن الملك طلبهم. فقيل: دخلوا هذا الكهف. فقال قومهم: لا نريد لهم عقوبة ولا عذاباً أشد من أن نردم عليهم هذا الكهف، فبنوه عليهم ثم ردموه. ثم إن اللّه بعث عليهم ملكاً على دين عيسى. فرفع ذلك البناء الذي كان ردم عليهم. فقال بعضهم لبعض: كم لبثتم؟ فقالوا: لبثنا يوماً أوبعض يوم حتى بلغ ﴿**فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ**﴾ وكان ورق ذلك الزمان لدولة أهله. فأرسلوا أحدهم يأتيهم بطعام. فلما ذهب ليخرج رأى على باب الكهف شيئاً أنكره فأراد أن يرجع. ثم مضى حتى دخل المدينة. فأنكر ما رأى. ثم أخرج درهماً فنظروا إليه فأنكروه وأنكروا الدرهم. وقالوا: من أين لك هذا؟ هذا من ورِق غير هذا الزمان.

واجتمعوا عليه يسألونه. فلم يزالوا به حتى انطلقوا به إلى ملكهم. فأخبره بأمره. فاستبشروا به وبأصحابه. وقيل له: انطلق فأرنا أصحابك. فانطلق وانطلقوا معه ليريهم. فدخل قبل القوم فضرب على آذانهم فـ ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ هذا ما أورده ابن جرير أولاً، وفيه كفاية عن غيره.

وسنذكر في آخر نبئهم ما عند أهل الكتاب النصارى من شأنهم.

وقد قيل إنهم كانوا في مدينة يقال لها (طرسوس) من أعمال طرابلس الشام. وفيها من الآثار القديمة العهد، في جبلٍ بها، ما يزعم أهلها زعماً متوارثاً، أنه لأصحاب الكهف. واللّه أعلم. ثم بين تعالى صبرهم على مخالفة قومهم، ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾

﴿**وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ**﴾ أي قويناها بالصبر على المجاهدة. وشجعناهم على

محاربة الشيطان والفرار بالدين إلى بعض الغيران. ومخالفة النفس وهجر المألوفات الجسمانية واللذات الحسية والقيام بكلمة التوحيد. وقيل جسّرناهم على القيام بكلمة التوحيد، وإظهار الدين القويم، والدعوة إلى الحق عند ملكهم الجبار. لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا﴾ أي بين يديه غير مبالين به. و(إذ) ظرف لـ (ربطنا). قال الشهاب: (الربط) على القلب مجاز عن الربط بمعنى الشدّ المعروف. أي استعارة منه. كما يقال، رابط الجاش. لأن القلق والخوف ينزعج به القلب من محله، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، فشبه القلب المطمئن لأمرٍ بالحيوان المربوط في محلٍّ. وعدَّى (ربط) بـ (على) وهو متعدٍّ بنفسه، لتنزيله منزلة اللازم ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا﴾ الذي نعبده ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ بحيث يدخل تحت ربوبيته كل معبود سواه ﴿لَن نَّدْعُوَاْ﴾ أي نعبد ﴿مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾ أي ذا بعدٍ عن الحق، مفرط في الظلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾

﴿هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ عملوا أو نحتوا لهم آلهة، فيفيد أنهم عبدوها. وفي الإشارة تحقير لهم ﴿لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على عبادتهم أو آلهيتهم أو تأثيرهم ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي حجة بينة وبرهان ظاهر. فإن الدين لا يؤخذ إلا به. قال القاشاني: دليل على فساد التقليد، وتبكيت بأن إقامة الحجة على إلهية غير الله، وتأثيره ووجوده، محال. كما قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، أي أسماء بلا مسميات، لكونها ليست بشيء ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي لا مساوي له في الظلم والكفر. إشارة إلى أنهم لا يأتون ببرهان. فهم ظالمون في حق الله، لافترائهم عليه بأن في رتبته العليا شركاء يساوونه فيها. ثم خاطب بعضهم بعضاً بقولهم:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُواْ إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي وإذ اعتزلتم القوم،

بترك متابعتهم، من إفراط ظلمهم، وهو موجب بغضهم. واعتزلتم معبوداتهم غير الله، فإنهم كانوا يعبدونهم صريحاً أو في ضمن عبادتهم له، فأووا إلى الكهف الذي لا يطلعون عليكم فيه، فلا يؤذونكم، ولا تخافوا، من الكون فيه، فواتَ الطعام والشراب، فإنكم إذا التجأتم إلى الله بعد ما دعوتموه بنشر الرحمة وتهيئة الرشد ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِن رَحْمَتِه﴾ أي ما يغني عن الطعام والشراب، بالإمدادات الملكوتية والتأييدات القدسية ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مَنْ أَمْرِكُمْ﴾ وهو اختيار جانبه على جانبكم ﴿مِرْفَقاً﴾ أي ما تنتفعون به. قال المهايمي: يرفق بنفوسكم فيعطيها من لذات عبادته ما ينسيها سائر اللذات. على أنها لذاتها لم تخل من أذية. وهذه خالية عن الأذيات كلها. وجَزْمهم بذلك لنصوع يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى.

تنبيه:

زعم قوم أن الآية تفيد مشروعية العزلة واستحبابها مطلقاً. وهو خطأ. فإنها تشير إلى التأسي بأهل الكهف في الاعتزال، إذا اضطُهد المرء في دينه وأريد على الشرك. وممن رد الاحتجاج بهذه الآية على تفضيل العزلة، الإمامُ الغزالي حيث قال في (إحيائه): وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضاً وهم مؤمنون. وإنما اعتزلوا الكفار. أي ولا ريب في مشروعيته فراراً من الفتن.

فقول السيوطي في (الإكليل): في الآية مشروعية العزلة والفرار من الظلمة وسكون الغيران والجبال عند فساد الزمان - كلام مجمل لا بد من التفصيل فيه. وأي عصر خلا من الفساد؟. وسياق الآية في الاضطهاد فحسبُ، فافهم ولا تَغْلُ. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ أي صعدت عند طلوعها ﴿تزاورُ﴾ أي تميل ﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ أي بابه ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي يمين الكهف. ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ﴾ أي هبطت للغروب ﴿تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَال﴾ أي تقطعهم وتعدل عن سمت رؤوسهم إلى جهة الشمال ﴿وهم فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أي سعة من الكهف يصل إليهم الهواء من كل جانب

دون أذى الشمس. وقد دلت الآية على أن باب ذلك الكهف كان مفتوحاً إلى جانب الشمال. فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف. وإذا غربت كانت على شماله. فيقع شعاعها على جانبيه. يحلل عفونته ويعدل هواءه. ولا يقع عليهم فيؤذيهم. قال الشهاب: (تقرضهم) من القرض بمعنى القطع. أي قطع الاتصال بهم لئلا تغبر أبدانهم. قولُ الفارسي إنه من قرض الدراهم، والمعنى أنها تعطيهم من تسخينها شيئاً ثم يزول بسرعة كالقرض المسترد - مردود، بأنه لم يسمع له ثلاثي.

وفي (الروض الآنف) تقرضهم كناية عن تعدل بهم. وقيل: تتجاوزهم شيئاً. من (القرض) وهو القطع. أي تقطع ما هنالك من الأرض. وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ أي إرشادهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، وشعاع الشمس والريح تدخل عليهم فيه، لتبقى أبدانهم، آية من آياته الدالة على عنايته وتوفيقه للمخلصين ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ﴾ أي إلى الحق بالتوفيق له ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي يخلق فيه الضلال لصرف اختياره إليه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً﴾ أي ناصراً يلي أمره فيحفظه من الضلال ﴿مُرْشِداً﴾ أي يهديه إلى ما ذكر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨)

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾ خطاب لكل أحد. أي تظنهم ، يا مخاطب، أيقاظاً لانفتاح أعينهم، وهم رقود مستغرقون في النوم، بحيث لا ينبههم الصوت. قال ابن كثير: ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى. فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها. وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً. ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد. كما قال الشاعر:

ينامُ بإحدى مقلتيه وَيَتَّقِي ... بأخرى الرزايا فهو يقظانُ نائمُ

و﴿أَيْقَاظاً﴾ جمع يَقِظُ ويقظان. و﴿رُقُودٌ﴾ جمع راقد. وما قيل إنه مصدر أطلق على الفاعل واستوى فيه القليل والكثير كركوع وقعود، لأن فاعلاً لا يجمع على فعول - مردود بما نص عليه النحاة كما صرّح به في (المفصّل) و(التسهيل).

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ أي في رقدتهم ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ أي لئلا تتلف الأرض أجسادهم ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ أي بفناء الكهف أو الباب. وقد شملت بركتُهم كلبَهم. فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، قال ابن كثير: وهذا فائدة صحبة الأخيار. فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن. وقد قيل إنه كان كلب صيد لهم، وهو الأشبه. واختلفوا في لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها. بل هي مما نهي عنه. فإن مستندها رجم بالغيب. ووجود الكلب على هذه الحالة من العناية بهم. فكما حفظهم بالتقليب عن إهلاك الأرض، حفظهم عن الأعداء بكلبٍ، ليهابوهم مع هيبةٍ ذاتية لهم. كما قال تعالى ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فنظرت إليهم، مع غاية قوتك في مكافحة الحروب ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾ أي خوفاً يملأ صدرك، لما ألبسوا من الهيبة. فلا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم وخافهم. وذلك - كما قال ابن كثير. لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس، حتى يبلغ الكتاب أجله وتنقضي رقدتهم التي شاءها تبارك وتعالى فيهم. لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أي وكما أنمناهم تلك النومة، بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من هيئاتهم وأحوالهم شيئاً، ادّكاراً بقدرته على الإنامة والبعث جميعاً. قال ابن كثير: وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين. وقوله تعالى ﴿ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ أي ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيعتبروا، ويستدلوا على عظم قدرة الله تعالى، ويزدادوا يقيناً، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرِّموا به. أفاده الزمخشري.

وبه يتبيّن أن البعث علة للتساؤل. ومن جعل اللام للعاقبة، لَحَظَ أن الغرض من فعله تعالى إظهار كمال قدرته ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ أي رقدتم. اعترافاً بجهل

نفسه أو طلباً للعلم من غيره، وإن لم يظهر كونه على اليقين ﴿**قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**﴾ قال ابن كثير: كأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهارٍ، واستيقاظهم كان في آخر نهار. ولهذا قالوا: أو بعض يوم. وقال المهايميّ: فمن نظر إلى أنهم دخلوا غدوة وانتبهوا عشية، ظن أنهم لبثوا يوماً، ومن نظر إلى أنه قد بقيت من النهار بقية، ظن أنهم لبثوا بعض يوم. فهم مع ما أعطوا من الكرامات يتكلمون بالظن. فالوليّ يجوز أن يتكلم بالظن فيما ليس من الأصول، ويجوز أن يخطئ. وقال الزمخشري: جوابٌ مبنيٌّ على غالب الظن. وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب. وأنه لا يكون كذباً. وإن جاز أن يكون خطأً.

﴿**قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ**﴾ إنكار عليهم من بعضهم، وأن اللّه أعلم بمدة لبثهم. كأن هؤلاء قد علموا بالأدلة، أو بإلهام من اللّه، أن المدة متطاولة، وأن مقدارها مبهم. فأحالوا تعيينها على ربهم. ﴿**فَابْعَثُواْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ**﴾ أي المأخوذة للتزود. و (الورِق) الفضة ﴿**إِلَى الْمَدِينَةِ**﴾ أي التي فررتم عنها ﴿**فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً**﴾ أي أطيب. ﴿**فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ**﴾ أي في المبايعة واختيار الطعام. أو في أمره بالتخفي، حتى لا يشعر بحالكم ودينكم ﴿**وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

﴿**إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ**﴾ يطلعوا على مكانكم ﴿**يَرْجُمُوكُمْ**﴾ أي يقتلوكم بالحجارة ﴿**أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ**﴾ أي يدخلوكم فيها بالإكراه العنيف ﴿**وَلَن تُفْلِحُواْ إِذاً أَبَداً**﴾ أي إذا صرتم إلى ملتهم. قال القاشانيّ: ظهور العوامّ، واستيلاء المقلدة والحشوية المحجوبين، وأهل الباطل المطبوعين، ورجمهم أهل الحق، ودعوتهم إياهم إلى ملتهم – ظاهر. كما كان في أوائل البعثة النبوية.

لطائف:

الأولى – قال الزمخشري: فإن قلت: كيف وصلوا قولهم (فَابْعَثُواْ) بتذاكر حديث المدة؟ قلت: كأنهم قالوا ربكم أعلم بذلك. لا طريق لكم في علمه. فخذوا في شيء آخر مما يهمكم. انتهى.

ورأى المهايمي أن قولهم ﴿فَابْعَثُواْ﴾ من تتمة حديث المدة. قصد به

تفحصها. كأنهم لما أحالوا تعيينها على الله تعالى بقوله: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ قالوا هذه الإحالة لا تمنع من طلب العلم بالمدة. ولو في ضمن أمرٍ آخر، فاطلبوه في ضمن حاجةٍ لنا. وهي أن تبعثوا أحدكم. بورقكم هذه لئلا نحوج إلى السؤال عن المدة. لا سيما في مكان يمنع من الإجابة إلى المسؤول به، فيفضي إلى الهلاك.

الثانية – قال في (الإكليل): قوله تعالى ﴿ فَابْعَثُواْ ﴾ الآية، أصل في الوكالة والنيابة. قال ابن العربي: وهي أقوى آية في ذلك.

قال الكيا: وفيها دليل على جواز خلط دراهم الجماعة والشراء بها والأكل من الطعام بينهم بالشركة، وإن تفاوتوا في الأكل.

الثالثة – دلّ قوله تعالى عنهم ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً ﴾ على مشروعية استجادة الطعام واستطابته بأقصى ما يمكن، لصيغة التفضيل. فإن الغذاء الأزكى المتوفر فيه الشروط الصحية يفيد الجسم ولا يتعبه ولا يكدره. ولذلك يجب طبّاً الاعتناء بجودته وتزكيته، كما فصّل في قوانين الصحة.

الرابعة – قال الرازي: (الرجم) بمعنى القتل، كثير في التنزيل كقوله ﴿ وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ [هود: ٩١]، وقوله: ﴿ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ [الدخان: ٢٠]، وأصله الرمي، أي بالرجام وهي الحجارة. ولا يبعد إرادة الحقيقة في موارده كلها، زيادة في التهويل. فإن الرجم أخبث أنواع القتل. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي كما أنمناهم وبعثناهم لما في ذلك من الحكمة، أطلعنا عليهم أهل المدينة حتى دخلها من بعثوه للطعام، وأخرج ورقهم المتقادمة العهد ﴿ لِيَعْلَمُواْ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم، أن وعد الله بالبعث حق. لأن حالهم في نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ ﴾ أي الموعود فيها بالبعث ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ إذ لا بد من الجزاء بمقتضى الحكمة. ثم أشار تعالى إلى ما كان من أمرهم بعد وفاتهم، وعناية قومهم بحفظ أجداثهم، بقوله سبحانه ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ابْنُواْ عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً ﴾ أي على

باب كهفهم بنياناً عظيماً. كالخانقاهات المشاهد والمزارات المبنية على الأنبياء وأتباعهم، و(إذْ) على ما يظهر لي، ظرف لـ (اذكر) مقدراً. والجملة مستأنفة لبيان ختم نبئهم بما جرى بعد مماتهم، إثْرَ ما أوجز من نبئهم بعد بعثهم والإعثار عليهم. وجعلُهُ ظرفاً لـ ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أو لغيره مما ذكروا - ليس فيه قوة ارتباط ولا دقة معنى.

وقوله تعالى ﴿فَقَالُواْ﴾ تفسير للمتنازع فيه. وقوله تعالى ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ جملة معترضة. إما من الله، ردّاً على الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين فيهم على عهده ﷺ من أهل الكتاب، أو هي من كلام المتنازعين في عهدهم. كأنهم تذاكروا أمرهم العجيب وتحاوروا في أحوالهم ومدة لبثهم. فلما لم يهتدوا أحالوا حقيقة نبئهم إليه تعالى ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ أي من المتنازعين، وهم أرباب الغلبة ونفوذ الكلمة ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾ أي نصلي فيه، تبركاً بهم وبمكانهم.

تنبيه:

قال ابن كثير: حكي في القائلين ذلك قولان (أحدهما) أنهم المسلمون منهم (والثاني) أنهم المشركون. والظاهر أنهم هم أصحاب النفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر. لأن النبيّ ﷺ قال[١]: (لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد) يحذّر ما فعلوا. انتهى.

وعجيب من تردده في كونهم غير محمودين، مع إيراده الحديث الصحيح بعده، المسجل بلعن فاعل ذلك. وهو أعظم ما عنون به على الغضب الإلهي والمقت الرباني. والسبب في ذلك أن البناء على قبر النبيّ والوليّ مدعاة للإقبال عليه والتضرع إليه. ففيه فتح لباب الشرك وتوسل إليه بأقرب وسيلة. وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك؟ كما قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ [نوح:٢٣]، قال: هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قومهم. فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم. فلما طال عليهم الأمد عبدوهم. فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى، قادهم ذلك إلى عبادة الأصنام. قال الإمام محمد بن عبد الهادي عليه الرحمة، في كتابه (الصارم المنكي) بعد إيراده ما تقدم: يوضحه أن الذين تكلموا في زيارة الموتى من أهل الشرك، صرّحوا بأن القصد

(١) أخرجه البخاري في: الصلاة، ٥٥- باب حدثنا أبو اليمان، حديث ٢٨٥و٢٨٦، عن عائشة وعبد الله بن عباس.
وأخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ١٩ و ٢٢.

هو انتفاع الزائر بالمزور. وقالوا: من تمام الزيارة أن يعلق همته وروحه بالميت وقبره. فإذا فاض على روح الميت من العلويات الأنوار، فاض منها على روح الزائر بواسطة ذلك التعلق والتوجه إلى الميت. كما ينعكس النور على الجسم الشفاف، بواسطة مقابلته.

وهذا المعنى بعينه، ذكره عباد الأصنام في زيارة القبور. وتلقّاه عنهم من تلقاه ممن لم يحط علماً بالشرك وأسبابه ووسائله. ومن هاهنا يظهر سر مقصود النبيّ ﷺ بنهيه عن تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها والسرج. ولعنه فاعل ذلك وإخباره بشدة غضب الله عليه. ونهيه عن الصلاة إليها، ونهيه عن اتخاذ قبره عيداً. وسؤاله ربه تعالى أن لا يجعل قبره وثناً يعبد. فهذا نهيه عن تعظيم القبور. وذلك تعليمه وإرشادة للزائر أن يقصد نفع الميت والدعاء له والإحسان إليه، لا الدعاء به ولا الدعاء عنده.

ثم قال عليه الرحمة: ومن ظن أن ذلك تعظيم لهم فهو غالط جاهل. فإن تعظيمهم إنما هو بطاعتهم واتباع أمرهم ومحبتهم وإجلالهم. فمن عظمهم بما هو عاص لهم به، لم يكن ذلك تعظيماً. بل هو ضد التعظيم. فإنه متضمن مخالفتهم ومعصيتهم. فلو سجد العبد لهم أو دعاهم من دون الله أو سبّحهم أو طاف بقبورهم واتخذ عليها المساجد والسرج، وأثبت لهم خصائص الربوبية، ونزههم عن لوازم العبودية، وادعى أن ذلك تعظيم لهم - كان من أجهل الناس وأضلهم. وهو من جنس تعظيم النصارى للمسيح حتى أخرجوه من العبودية. وكل من عظّم مخلوقاً بما يكرهه ذلك المعظَّم ويبغضه، ويمقت فاعله، فلم يعظمه في الحقيقة، بل عامله بضد تعظيمه. فتعظيم الرسول ﷺ أن تطاع أوامره وتصدق أخباره ولا يُقْدَم على ما جاء به غيره. فالتعظيم نوعان: أحدهما ما يحبه المعظَّم ويرضاه ويأمر به ويثني على فاعله، فهذا هو التعظيم في الحقيقة. والثاني ما يكرهه ويبغضه ويذم فاعله، فهذا ليس بتعظيم بل هو غلوّ مناف للتعظيم. ولهذا لم يكن الرافضة معظمين لعلي، بدعواهم الإلهية والنبوة أو العصمة ونحو ذلك. ولم يكن النصارى معظمين للمسيح. بدعواهم فيه ما ادعوا. والنبيّ ﷺ. قد أنكر على من عظمه بما لم يشرعه. فأنكر على معاذ سجوده له وهو محض التعظيم. وفي المسند[1] بإسناد صحيح على شرط مسلم عن أنس بن مالك أن رجلاً قال: يا محمد! يا سيدنا! وابن سيدنا!

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣ / ١٥٣.

وخيرنا! وابن خيرنا ! فقال رسول الله ﷺ (عليكم بتقواكم، ولا يستهوينكم الشيطان. أنا محمد بن عبد الله، عبدُ الله ورسولُه. ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزّ وجلّ). وقال ﷺ[١]: (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم. فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله) وكان يكره من أصحابه أن يقوموا له إذا رأوه. ونهاهم أن يصلوا خلفه قياماً وهو مريض. وقال[٢]: (إن كدتم آنفاً لتفعلون فعل فارس والروم. يقومون على ملوكهم) وكل هذا من التعظيم الذي يبغضه ويكرهه. ولقد غلا بعض الناس في تعظيم القبور حتى قال: إن البلاء يندفع عن أهل البلد أو الإقليم، بمن هو مدفون عندهم من الأنبياء والصالحين. وهو غلوّ مخالف لدين المسلمين، مخالف للكتاب والسنة والإجماع. وللبحث تتمة مهمة فانظره. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

﴿ **سَيَقُولُونَ** ﴾ أي الخائضون في قصتهم على عهد النبيّ ﷺ من أهل الكتاب الذين لا علم لهم بالحقيقة ﴿ **ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ** ﴾ أي بعض آخر منهم ﴿ **خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ** ﴾ أي رمياً وتلفظاً بالذي غاب عنهم. يعني ظنّاً خالياً عن اليقين. قال ابن كثير: كالذي يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد ﴿ **وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ** ﴾ حكاية لقول فريق آخر كان يرى عدتهم هذه ﴿ **قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ أي ممن أطلعه الله عليه ﴿ **فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً** ﴾ أي لا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف، إلا جدالاً ظاهراً ليناً غير متعمق فيه. وذلك على قدر ما تعرض له التنزيل الكريم من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الإجمالي، وتفويض العلم إلى الله سبحانه، من غير تجهيل لهم، ولا تعنيف بهم، في الرد عليهم كما قال

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/١٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في: الحدود، ٣١- باب رجم الحبلى في الزنى إذا أحصنت، حديث رقم ١٢١٤، عن عمر بن الخطاب.

وأخرجه مسلم في: الصلاة، حديث رقم ٨٤.

﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة. قيل: المماراة المجادلة. وقيل بالفرق. فالمجادلة المحاجّة مطلقاً. والمماراة المحاجة فيما فيه مرية أي تردد، لأنها من (مريت الناقة) إذا مسحت ضرعها للحليب ﴿وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِم مِنْهُمْ أَحَداً﴾ أي لا تسأل أحداً منهم عن نبئهم. لأن السؤال إما للاسترشاد، أو للتعنت والمحاورة. ولا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه رجماً بالغيب: من غير استناد إلى كلام معصوم. والتعنت للرد على الخصم وتزييف ما عنده، ينافي مكارم الأخلاق. والمعنى: جاءك الحق الذي لا مرية فيه، فهو المقدم الحاكم على ما تقدم من الكتب والأقوال.

تنبيهات:

الأول – ذهب أكثر المفسرين إلى أن قول الخائضين الأخير، وهو أنهم سبعة وثامنهم كلبهم، هو الحق. لأنه لم يوصف بكونه رجماً بالغيب كما وصف الأولان. ولتخصيصه بالواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ﴾ وهي الواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة، لإفادة تأكيد لصوق الصفة بالموصوف. والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر. وأنه لا عدد وراءه. كما قال ابن عباس: حين وقعت الواو انقطعت العدّة. وأقول: لا يخفى ضعف التمسك بهذين الوجهين لتقوية القول الأخير. فإن عدم وصفه بالرجم بالغيب إنما هو لدلالة ما قبله عليه. وفي إعادته إخلال بالبلاغة. ومسألة الواو أوهى من بيت العنكبوت. فإن مثل هذا النزاع لا يكتفى بحسمه بمثل هذا الإيماء الدقيق القريب من الإلغاز. كما لا يخفى على من تتبع مواقع حسم الشبه في الكتاب والسنة وكلام البلغاء. لاسيما والواو من المحكي لا من الحكاية. فيدل على ثبوته عند القائل لا عند الله، فلا يكون من الإيماء في شيء. وجوابُ بعضهم بأنه تعالى لما حكى قولهم قبل أن يقولوه هكذا، لقنهم أن يقولوه إذا أخبروا عنه بهذه العبارة، وبأنه لا مانع أن تكون من الحكاية – بعيدٌ غاية البعد، وتكلف ظاهر، وإغراب في القول.

ثم قيل: إن هذه الجملة لا تتعين للوصفية. لجواز كونها حالاً من النكرة، لأن اقترانها بالواو مسوّغ. ويجوز أن يكون خبراً عن المبتدأ المحذوف. لأنه يجوز في مثله إيراد الواو وتركها. على أنه إنما يتم ما ذكروه لو لم يُتبع قولهم بقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فإن في تأثره للأقوال المتقدمة كلها، برهاناً ظاهراً على أنهم لم يهتدوا لعدتهم، وإرشاداً إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام، ردّ العلم إليه تعالى.

وإشارةً إلى أنه لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم بيّن وبرهان نيّر. وإنه إذا أوقفنا على الفيصل قلنا به، وإلا وقفنا. وقد تأكد هذا بقوله سبحانه بعده ﴿**مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾ فإن فيه (دلالة على أنه يعلمهم البعض ممن لم يشأ الحق تعيينه). وهو إما نبيّ، أو من كان في مدتهم، أو من نقب عن نبئهم بإثارة صحيحة أو تلق عن المعصوم. وفيه إعلام بأنه لم يضرب على الناس بسدّ من جهالة شأنهم.

وبالجملة، فالنظم الكريم، بأسلوبه هذا، لا يدل على أن الأخير هو الحق كما علمت. وأما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله: أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل. كانوا سبعة - فهو من الموقوف عليه. ولو رفع إلى النبيّ ﷺ وصح سنده لقلنا به على أنه اختلف على ابن عباس في عدتهم. فروي عنه أنهم ثمانية، حكاه ابن إسحاق عن مجاهد عنه. وروي عنه سبعة. وهو حكاية قتادة وعكرمة عنه. ثم رأيت الرازيّ نقل عن القاضي أنه قال: إن كان - ابن عباس - قد عرفه ببيان الرسول، صح. وإن كان قد تعلق بحرف الواو فضعيف. انتهى. هذا ما ظهر لي الآن.

وبعد كتابتي لما تقدم بمدة، وقفت على نبئهم في (طبقات الشهداء المسيحيين) وأن عدتهم سبعة عندهم كما ستراه في آخر الآيات فيهم. فسنح لي أن ابن عباس إنما جزم بما جزم به، مما قوي عنده من إشارة الآية، كما ذكره أولئك الأكثرون، ومن تواتر عدتهم من قومهم وممن أثر عنهم. ثم حققه وصدقه عدم النكير فيه. وكذلك جزم بمثله الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله، حيث قال في (قاعدة له في التفسير): اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام - مقام حكاية الأقوال وتعليم ما ينبغي في مثل هذا. فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث. فدل على صحته. إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما. ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته. فيقال في مثل هذا ﴿**قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم**﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه. فبهذا قال ﴿**فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِراً**﴾ أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل. ويذكر فائدة الخلاف وثمرته، لئلا يقع النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فيشتغل به عن الأهم. فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها، فهو ناقص. إذ قد يكون الصواب في الذي تركه. أو

يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً. انتهى كلامه رحمه اللّه، وهو الفصل في هذا المقام.

الثاني – قال الرازيّ: ذكروا في فائدة الواو في قوله: ﴿ وَثَامِنُهُمْ ﴾ وجوهاً:

الأول – ما ذكروه أنه يدل على أن هذا القول أولى من سائر الأقوال. وقد عرفت ما فيه.

وثانيها – أن السبعة عند العرب أصل في المبالغة في العدد. وإذا كان كذلك، فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظاً يدل على الاستئناف، ، فقالوا: وثمانية. فجاء هذا الكلام على هذا القانون. قالوا: ويدل عليه نظيره في ثلاث آيات، وهي قوله: ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة:١١٢]، لأن هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدمة. وقوله: ﴿ حَتَّى إِذَاجَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر:٧٣]، لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة. وقوله: ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ [التحريم:٥]، لأن قوله: ﴿ وَأَبْكَاراً ﴾ هو العدد الثامن مما تقدم. والناس يسمون هذه الواو. (واوالثمانية) ومعناه ما ذكرناه.

قال القفّال: وهذا ليس بشيء والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٣]، ولم يذكر الواو في النعت الثامن. انتهى.

وقال في (الانتصاف): الصواب في الواو ما تقدم من كونها لتأكيد اللصوق. لا كمن يقول إنها واو الثمانية. فإن ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم. ويعدون مع هذه الواوَ في قوله في الجنة ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ قالوا لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وهب أن في اللغة واواً تصحب الثمانية فتختص بها، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن فتصحبه الواو؟ وربما عدوا من ذلك ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ وهو الثامن من قوله: ﴿ التَّائِبُونَ ﴾ وهذا أيضاً مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة لتربط بينها وبين الأولى التي هي ﴿ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ لما بينهما من التناسب والربط. ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرهما ومواردهما؟ كقوله: ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة:٧١]، وكقوله: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [لقمان:١٧]، وربما عدّ بعضهم من ذلك، الواوَ في قوله: ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ لأنه وجدها مع الثامن. وهذا غلط فاحش. فإن هذه واو التقسيم. ولو ذهبت تحذفها فتقول ﴿ ثَيِّبَاتٍ أَبْكَاراً ﴾ لم يستدّ الكلام. فقد وضح أن الواو في

جميع هذه المواضع المعدودة، واردة لغير ما زعمه هؤلاء. والله الموفق.. انتهى.

الثالث: حكي في (الإكليل) عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿**فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً**﴾ إلا بما أظهرنا لك. ومثله قول السدّيّ: إلا بما أوحي إليك. وإن فيه تحريم الجدل بغير علم وبلا حجة ظاهرة. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

﴿**وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ**﴾ في هذه الآية وجوه من المعاني. منها أن المعنى لا تقولن إلا وقت أن يشاء الله بأن يأذن لك في القول، فتكون قائلاً بمشيئته، فالمشيئة على هذا بمعنى الإذن. لأن وقت مشيئة الله لشيء لا تعلم إلا بإذنه فيه أي إعلامه به. ومنها لا تقولن لما عزمت عليه من فعل، إني فاعل ذلك غداً إلا قائلاً معه إن شاء الله تبرؤاً من لزوم التحكم على الله، ومن الفعل بإرادتك بل بإرادة الله، فتكون فاعلاً بمشيئته. ولئلا يلزم الكذب لو لم يشأه الله تعالى. ومنها أن المعنى لا تقولن ذلك قاطعاً بفعله وباتّاً له. لأنه ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً﴾ [لقمان: ٣٤]، فلا ينبغي الجزم والبت على فعل أمر مستقبل مجهول كونه. وقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ أي أن تقول ذلك القول البات نسياناً فحينئذ ارجع إلى ربك بذكره. ولذا قال: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ**﴾ وعلى هذه الوجوه كلها فَـ ﴿**لاَ تَقُولَنَّ**﴾ نهي معطوف على النهيين قبله. قال الجاحظ في كتاب (الحيوان): إنما ألزم جل وعلا عبده أن يقول: إن شاء الله، ليبقي عادة للمتألي، ولئلا يكون كلامه ولفظه يشبه لفظ المستبد والمستغني، وعلى أن يكون عبده ذاكراً لله. لأنه عبد مدبَّر، ومقلَّب ميسَّر، ومصرَّف مسخَّر.

وبقي وجه آخر. وهو أن المعنى لا تقولن ذلك إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول. والجملة خبرية قصد بها الإخبار عن سبق مشيئته تعالى لكل ما يعزم عليه ويقوله. كقوله تعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] وهذا المعنى هو الظاهر ببادئ الرأي كما قاله في (الانتصاف) وفي هذا المعنى تلويح بأنه صلوات الله عليه كان همّ بأمرٍ ما في نبأ هؤلاء الفتية، وعزم على أمر في غد المحاورة به. ولعله الاستفتاء عنهم. فلما نهى عنه أخبر بأن كل شيء كائن بمشيئته تعالى، ليدخل فيه ما كان قاله دخولاً أوليّاً. أي ما قلته وعزمت على فعله كان بمشيئة الله،

إذ شاء اللّه أن تقوله. فالآية بمثابة العناية به والتلطيف بالخطاب، إثْرَ ما يومئ إليه النهي إليها من رقيق العتاب ولذلك اعترضت بين سابق النهي عن استفتائهم، ولاحق الأمر بذكره تعالى إذا نسي، أي نسي ما وصّي به. وبما ذكرنا يعلم أن هذا المعنى له وجه وجيه.

فدعوى الناصر في (الانتصاف) أنه ليس هو الغرض، وأن الغرض النهي عن هذا القول إلا مقروناً بمشيئته تعالى – قصرٌ للآية على أحد معانيها، وذهاب إلى ما هو المشهور في تأويلها، وعدم تمعن في مثل هذا المعنى الدقيق، بل وفي بقية المعاني الأخر التي اللفظ الكريم يحتملها. وقد ظهر قوة المعنى الأخير لموافقته لآية ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، والقرآن يفسر بعضه بعضاً. واللّه تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِينَ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾ أي خيراً ومنفعة. والإشارة، للنبأ المتحاوَر فيه.

تنبيهات:

الأول – روي أنه صلوات اللّه عليه سُئل عن أصحاب الكهف والروح وذي القرنين، فقال: أجيبكم عنها غداً ولم يستثن. فاحتبس الوحي خمسة عشر يوماً، ثم نزلت ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ﴾ الآية. وقد زيف هذه الرواية القاضي – كما حكاه الرازيّ – من أوجه. والحق له. لأنها من مرويات ابن إسحاق عن شيخ مجهول. كما ساقه عنه ابن كثير وغيره، واللّه أعلم.

الثاني – يشير قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ الآية، إلى أن هذا النبأ ليس مما تنبغي العناية بتحقيقه وتدقيق أطرافه، وابتغاء الرشاد فيه، حتى يتكلف لفتوى أهل الكتاب فيه. العزم على فعل شيء مما يلابسه في المستقبل، لأنه من الأمور الغابرة التي حق الخائض فيها أن ينظر منها إلى وجه العبرة والفوائد التي حوتها، كما أحكمته آيات التنزيل في شأنها.

الثالث – اعترضت هذه الآداب أعني من قوله تعالى: ﴿فَلاَ تُمَارِ﴾ إلى هنا قبل تتميم نبئهم، مبادرة إلى الاهتمام بهذه الآداب والاحتفاظ بها، لتتمكن فضل تمكن، وترسخ في النفس أشد رسوخ. واللّه أعلم.

الرابع – روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾: إذا نسيت الاستثناء بالمشيئة ثم ذكرت فاستثن ، وذلك (كما قال القرطبيّ) لتدارك التبرك والتخلص عن الإثم.

وقال في (الانتصاف): أما ظاهر الآية فمقتضاه الأمر بتدارك المشيئة، متى ذكرت ولو بعد الطول. وأما حلُّها لليمين حينئذ فلا دليل عليه منها. انتهى.

ودعوى أنه الظاهر هو أحد الوجوه فيها، مفرعاً على أن المشيئة في الآية قبلها، مشيئة القول، وهو أحد معاني الآية. وقد حكي عن ابن عباس جواز الاستثناء وإن طال الزمان. ثم اختلف عنه. فقيل إلى شهر وقيل إلى سنة وقيل أبداً. وفي (حصول المأمول): ومن قال بأن هذه المقالة لم تصح عن ابن عباس، لعله لم يعلم بأنها ثابتة في (مستدرك الحاكم) وقال: صحيح على شرط الشيخين بلفظ: (إذا حلف الرجل على يمين فله أن يستثني إلا سنة) ومثله عند أبي موسى المديني وسعيد بن منصور وغيرهما من طرق. وبالجملة فالرواية عنه رضي الله عنه قد صحت، لكن الصواب خلاف ما قاله.

قال ابن القيّم في (مدارج السالكين) إن مراده أنه إذا قال شيئاً ولم يستثن، فله أن يستثني عند الذكر. وقد غلط عليه من لم يفهم كلامه. انتهى.

وهذا التأويل يدفعه ما تقدم عنه. والاستثناء بعد الفصل اليسير وعند التذكر، قد دلت عليه الأدلة الصحيحة. منها حديث أبي داود[١] وغيره (والله! لأغزونّ قريشاً) ثم سكت ثم قال (إن شاء الله). ومنها حديث[٢] (ولا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها) فقال العباس (إلا الإذخر). وهو في الصحيح. ومنها قوله ﷺ في صلح الحديبية (إلا سهل ابن بيضاء) انتهى. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۝٢٥ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۝٢٦﴾

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُواْ تِسْعاً قُلِ اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ حكاية

---

(١) أخرجه أبو داود في: الأيمان والنذور، ١٧- باب الاستثناء في اليمين بعد السكوت، حديث رقم ٣٢٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في: الجنائز، ٧٧- باب الإذخر والحشيش في القبر، حديث رقم ٧١٠، عن ابن عباس.
وأخرجه مسلم في: الحج، حديث رقم ٤٤٥.

لقول أهل الكتاب في عهده ﷺ، في مدة لبثهم نائمين في كهفهم الذي التجأوا إليه، ليتفرغوا لذكر الله وعبادته. وقد رد عليهم بقوله سبحانه ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ وإليه ذهب قتادة ومطرف بن عبد الله. وأيده قتادة بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه (وَقَالُواْ وَلَبِثُواْ) قيل: وعليه فيكون ضمير ﴿وَازْدَادُواْ﴾ لأهل الكتاب. وإنه يظهر فيه وجه العدول عن المتبادر وهو ثلاثمائة وتسع سنين. مع أنه أخصر وأظهر. وذلك لأن بعضهم قال: ثلاثمائة: وبعضهم قال أزيد بتسعة. ولا يخفى ركاكة ما ذكر، فإن الضمير للفتية. ووجه العدول موافقة رؤوس الآي المقطوعة بالحرف المنصوب. ودعوى الأخصرية تدقيق نحويّ لا تنهض بمثله البلاغة. وأما الأظهرية فيأباها ذوق الجملتين ذوقاً سليماً. فإن الوجدان العربي يجد بينهما في الطلاوة بعد المشرقين. ودعوى أن فيها إشارة إلى أنها ثلاثمائة بحساب أهل الكتاب بالأيام، واعتبار السنة الشمسية، وثلاثمائة وتسع بحساب العرب، واعتبار القمرية، بياناً للتفاوت بينهما، إذ التفاوت بينهما في كل مائة سنة ثلاث سنين - دعوى يتوقف تصحيحها على ثبوت أن أهل الكتاب ازدادوا بالسنة الشمسية وأنه قص علينا ما أرادوه بالسنة الهلالية، فلذلك قال: ﴿وَازْدَادُواْ تِسعاً﴾ لنقف على تحديد ما عنوه، ومن أين يثبت ذلك؟ وما الداعي لهذا التعمق المشوش؟ والآية جلية بنفسها في دعواهم مدة لبثهم. وقد يريدون السنة الشمسية أو الهلالية، وبأي منها قالوا: فقد رد عليهم بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ أي بمقدار لبثهم. فلا تَقْفُوا ما ليس لكم به علم، وما هو غيب يرد إليه سبحانه، كما قال: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ أي ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلهما، أي أنه هو وحده العالم به ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي ما أبصره لكل موجود! وأسمعه لكل مسموع لا يخفى عليه شيء ولا يحجب بصره وسمعه شيء.

قال الزمخشريّ: جاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها، كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها جرماً، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر.

لطيفة :

قال في (الإكليل): استدل بقوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ المنتخبُ على جواز إطلاق صيغة التعجب في صفات الله تعالى، كقولك: ما أعظم الله وما أجله. انتهى.

يعني أن يشتق من الصفات السمعية صيغة التعجب قياساً على ما في الآية. وقد يقال بالوقف. ينبغي التأمل.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُم﴾ أي أهل السموات والأرض في خلقه ﴿من دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ أي يتولى أمورهم ﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ﴾ أي قضائه ﴿أَحَداً﴾ أي من مكوناته العلوية والسفلية. بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم، وتدبيرهم وتصريفهم، فيما شاء وأحب.

قال المهايميّ: فيه إشارة إلى أن علمهم بهم إما من قبيل الغيب، فهو مختص بالله. أو من قبيل المسموع، فهو أسمع. أو من قبيل البصر، فهو أبصر. انتهى. وهو لطيف جداً. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي بتبليغ ما فيه. ومنه ما أوحي إليك من نبأ الفتية، فإنه الحق الذي لا يحتاج معه إلى استفتاء فيه.

قال القاشانيّ: يجوز أن تكون (من) لابتداء الغاية. و(الكتاب) هو اللوح الأول المشتمل على كل العلوم الذي منه أوحي إلى من أوحي إليه، وأن تكون بياناً لما أوحي ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي لا مغيّر لها ولا محرّف ولا مزيل.

قال القاشانيّ: (كلماته) التي هي أصول التوحيد والعد وأنواعهما.

وقصده دفع ما يرد من وقوع نسخ بعض الشرائع السابقة باللاحقة وتبديلها بها. فأشار إلى أن النسخ إنما هو في الفروع لا الأصول.

والأظهر في معنى الآية؛ أنه لا أحد سواه يبدل حكمه كقوله: ﴿لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد:٤١]، وأما هو سبحانه فهو فعّال لما يريد ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ أي ملجأ.

وذهب ابن جرير في تفسير هذه الآية مذهباً دقيقاً قال: يقول تعالى لنبيه واتبع ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا، ولا تتركنّ تلاوته واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه والعمل بحلاله وحرامه، فتكون من الهالكين. وذلك أن مصير من خالفه وترك اتباعه

يوم القيامة، إلى جهنم ﴿لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِه﴾ يقول لا مغير لما أوعد بكلماته التي أنزلها عليك، أهلَ معاصيه والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك. وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ يقول وإن أنت لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك فتتبعه وتأتمّ به، فنالك وعيد اللّه الذي أوعد فيه المخالفين حدوده، لن تجد من دون اللّه موئلاً تئل إليه، ومعدلاً تعدل عنه إليه. لأن قدرة اللّه محيطة بك وبجميع خلقه، لا يقدر أحد منهم على الهرب من أمرٍ أراد به. انتهى.

تنبيه:

لهؤلاء الفتية أصحاب الكهف ذكر في تواريخ المسيحيين، وعيد سنويّ يقام تذكاراً لهم، في اليوم السابع والعشرين من شهر تموز. لكونهم اضطهدوا من قبل الأمراء اليونانيين، لإيمانهم باللّه تعالى وحده ودخولهم في الملة المسيحية ورفضهم الوثنية التي كانت عليها اليونان. وقد رأيت في كتاب (الكنز الثمين في أخبار القديسين) ترجمة عن أحوالهم واسعة تحت عنوان (فيما يخص السبعة القديسين الشهداء الذين من أفسس) نقتطف منها ما يأتي، دحضاً لدعوى من يفتري أن نبأهم لا يعرف أصلاً، كما قرأته في بعض كتب الملحدين.

قال صاحب الترجمة: هؤلاء الشهداء السبعة كانوا إخوة بالجسد. وأسماؤهم: مكسيميانوس ومالخوس. ومرتينيانوس. وديونيسيوس. ويوحنا. وسارابيون. ثم قسطنطين. هؤلاء الشبان قربوا حياتهم ضحية من أجل الإيمان بالمسيح، بالقرب من مدينة أفسس، نحو سنة (٢٥٢) مسيحية. في زمن الاضطهاد القاسي الذي صنعه ضد المسيحيين، الملك داكيوس.

وقد أجَلّهم المسيحيون كشهداء حقيقين. فيقام لهم في الكنائس مدائح تنشر فيها صفاتهم الفاضلة يوم استشهادهم ثمة، في اليوم الرابع من شهر آب، المختص بتذكار الأعجوبة التي بواسطتها قد ظهرت أجسادهم المقدسة في المغارة القريبة من مدينة أفسس.

ثم قال: وأما نوع استشهادهم فليس بمعروف. لأن أعمالهم الجهادية في سبيل الإيمان لم توجد مدوّنة في التواريخ الكنائسية المدققة. بل إن المؤكد عنهم أن استشهادهم كان زمن الملك داكيوس، حذاء مدينة أفسس. حيث وجدت فيما بعد أجسادهم في مغارة ليست بعيدة من أهل هذه المدينة.

ثم قال: فالبعض من الكتبة الكنائسيين يرتؤون بأنه لما اختفى هؤلاء الفتية في

تلك المغارة هرباً من الاضطهاد، عرف أمرهم فأغلق عليهم باب المغارة بصخور عظيمة. وهكذا ماتوا فيها. وغيرهم يروون أنهم قتلوا من أجل الإيمان في مدينة أفسس. وبعد موتهم نقلت أجسادهم ودفنت في المغارة المذكورة. وآخرون يظنون أنهم حبسوا أنفسهم أحياء باختبائهم في المغارة المذكورة، ليموتوا برضاهم، هرباً من خطر أنواع العذاب القاسية التي كان يتكبدها المسيحيون في ذاك الاضطهاد الوحشيّ.

ثم قال: فكيفما كان نوع استشهاد هؤلاء السبعة، فقد تحقق أن اللّه أراد أن يكرمهم بإظهار أجسادهم بواسطة رؤيا سماوية. وذلك في ٤ آب سنة ٤٤٧ في زمن ولاية الملك (ثاوضوسيوش الصغير).

ثم قال: ودرج على أفواه الشعوب؛ أن هؤلاء الفتية، بعد أن أغلق عليهم باب المغارة بأمر داكيوس الملك، لم يموتوا ضمنها، لا موتاً طبيعياً ولا قسرياً. بل رقدوا رقاد النوم مدة، نحو مائتي سنة. ثم نهضوا من نومهم الطبيعيّ سنة (٤٤٧).

ثم قال: وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تأويل ما روي من رقادهم الطويل، بأنه لما ظهرت أجسادهم سالمة من البلَى، بعد أن دفنوا في ذلك الغار أحياءً أو أمواتاً، بواسطة خارقة مًّا، ونقلت من مدفنهم الذي كانوا فيه، اعتبرت تلك الأجساد كأنها صودفت مستيقظة من نوم لذيذ كانت راقدة فيه. إلا أن الذي يبطل هذا التأويل ما نقله بعدُ عن القنداق، من أنهم نهضوا بعد أن رقدوا عدة من السنين وانتصروا على ضلال أولئك الوثنيين. وبظهورهم كذلك أيّدوا حقيّة إيمانهم ووطدوا المؤمنين في رجاء القيامة في الحياة الأبدية.

هذا ما اقتطفناه من كتاب (الكنز الثمين) وبه تعلم ما لدى أهل الكتاب المسيحيين من الاختلاف فيهم، الذي أشار له القرآن الكريم. وقد جاء في (تاريخ الكنيسة): إن أقوال وأعمال الشهداء في المسيحية لم ينقل منها إلا القليل. لأن أكثرها أحرق بالنار مدة العشر سنوات. من سنة (٢٩٣ إلى ٣٠٣) وإن من القرن الثامن فصاعداً، اعتنى الروم واللاتيّون بجمع حياة الشهداء الأولين. غير أن الأكثر حذاقة، حتى الذين في حضن الكنيسة الرومانية، يسلّمون الآن بأن أكثر الأخبار أحاديث ملفقة، غراماً بالبلاغة. وجداول القديسين المسماة (أقوال الشهداء) ليست بأكثر ثقة. التي ألفها أناس جهلاء غير قادرين، أو دخلها منذئذ أكاذيب. فهذا القسم من تاريخ الكنيسة إذ ذاك مظلم خال من النور. انتهى كلامه بالحرف.

وفيه ميل إلى النصفة من عدم الثقة بما لديهم من هذا الخلاف الذي حسم مادته، واقتلعه من جذوره، القرآنُ الكريم.

قال الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ﴾ [الكهف: ٥٠]، الآية الآتية، معتذراً عما نقله، ما مثاله: روي في هذا آثار كثيرة عن السلف. وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها. والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه، لمخالفته للحق الذي بأيدينا. وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة. لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان. وقد وضع فيها أشياء كثيرة. وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين. كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء، والسادة والأتقياء، والجهابذة النقاد، والحفاظ الذي دونوا الحديث وحرروه، وبينوا صحيحه من حسنه ومنكره وموضوعه ومتروكه. وعرفوا الوضّاعين والكذابين والمجهولين من أصناف الرجال. كل ذلك صيانة للجناب النبويّ والمقام المحمديّ خاتم الرسل وسيد البشر، أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه. فرضي الله عنهم وأرضاهم. وجعل جنات الفردوس مأواهم. وقد فعل. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أي احبسها وثبتها ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أي مع أصحابك الذين يذكرونه سبحانه طرفي النهار، بملازمة الصلاة فيهما ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي ذاته طلباً لمرضاته وطاعته، لا عرضاً من أعراض الدنيا ﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي لا تجاوز نظرك إلى غيرهم بالإعراض عنهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء تألفاً لقلوبهم ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي جعلناه غافلاً لبطلان استعداده للذكر بالمرة. أو وجدناه غافلاً عنه. وذلك لئلا يؤديك إلى الغفلة عنه ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ أي متروكاً متهاوناً به مضيَّعاً. أو ندماً أو سرفاً. وفي التعبير عن المأمور بالصبر معهم والمنهيّ عن إطاعتهم، بالموصول، للإيذان بعلّية ما في حيز الصلة.

قال ابن جرير: إن قوماً من أشراف المشركين رأوا النبيّ ﷺ جالساً مع خبّاب وصهيب وبلال. فسألوه أن يُقيمهم عنه إذا حضروا . وفي رواية ابن زيد: أنهم قالوا له صلوات الله عليه: إنا نستحي أن نجالس فلاناً وفلاناً وفلاناً، فجانبْهم وجالس أشراف العرب، فنزلت الآية ﴿واصْبِرْ نفْسَكَ﴾. وروى مسلم[1] عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبيّ ﷺ ستة نفر. فقال المشركون للنبيّ ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان (نسيت اسميهما) فوقع في نفس رسول الله ﷺ ماشاء الله أن يقع. فحدّث نفسه. فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ولاَ تَطْرُدِ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية.

قال ابن كثير: انفرد بإخراجه مسلم دون البخاريّ. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ**﴾ أي جاء الحق وهو ما أوحي إليّ منه تعالى: ﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ إمّا من تمام المقول المأمور به، والفاء لترتب ما بعدها على ما قبلها، بطريق التهديد. أي عقيب تحقق أن ما أوحي إليّ حق لا ريب فيه، وأن ذلك الحق من جهة ربكم. فمن شاء أن يؤمن به، فليؤمن كسائر المؤمنين. ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل. ومن شاء أن يكفر به فليفعل. وفيه من التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم، وعدمِ المبالاة بهم وبإيمانهم، وجوداً وعدماً – ما لا يخفى. وإمّا تهديد من جهة الله تعالى، والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الأمر. والمعنى: قل لهم ذلك. وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليؤمن. ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفعل. أفاده أبو السعود. وفي (العناية): الأمر والتخيير ليس على حقيقته. فهو مجاز عن عدم المبالاة والاعتناء به. والأمر بالكفر غير مراد. فهو استعارة للخذلان والتخلية، بتشبيه حال من هو كذلك بحال المأمور بالمخالفة. ووجه الشبه عدم المبالاة والاعتناء به فيهما. وهذا كقوله: (أَسيئي بنا أو

---

(١) أخرجه مسلم في: فضائل الصحابة، حديث ٤٥ و ٤٦.

أَحْسِنِي لا مَلُومَةً) وهذا رد عليهم في دعائهم إلى طرد الفقراء المؤمنين ليجالسوه ويتبعوه. فقيل لهم: إيمانكم إنما يعود نفعه عليكم، فلا نبالي به حتى نطردهم لذلك، بعد ما تبين الحق وظهر. وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً**﴾ وعيد شديد، وتأكيد للتهديد وتعليل لما يفيده من الزجر عن الكفر. أو لما يفهم من ظاهر التخيير، من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه. فإن إعداد جزائه من دواعي الإملاء والإمهال. وعلى الوجه الأول، هو تعليل للأمر بما ذكر من التخيير التهديديّ. أي قل لهم ذلك ﴿**إنّا أعتدنا للظالمين**﴾ أي هيأنا للكافرين بالحق، بعد ما جاء من الله سبحانه. والتعبير عنه بـ (الظالمين) للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره، تجاوزٌ عن الحد ووضع للشيء في غير موضعه. أفاده أبو السعود. وقوله تعالى: ﴿**أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا**﴾ أي فسطاطها. وهي الخيمة. شبه به ما يحيط بهم من النار. فإن انتشار لهب النار في الجهات شبيه بالسرادق. ويطلق السرادق على الحظيرة حول الفسطاط للمنع من الوصول إليه. شبه ما يحيط بهم من جهنم، بها. يقال بيت مسردَق، ذو سرادق ﴿**وَإِن يَسْتَغِيثُواْ**﴾ أي من الظمأ لاحتراق أفئدتهم ﴿**يُغَاثُواْ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ**﴾ أي كالحديد المذاب وكعكر الزيت، وقال القاشانيّ: من جنس الغسَّاق والغسْلين، أي المياه المتعفنة التي تسيل من أبدان أهل النار، مسودّة يغاثون بها. أو غسالاتهم القذرة ويؤيده قوله تعالى ﴿وَيُسْقَى مِن مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ﴾ [إبراهيم:١٧]، ﴿**يَشْوِي الْوُجُوهَ**﴾ أي إذا قدم إليه ليشرب، من فرط حرارته.

﴿**وَسَاءَتْ**﴾ أي النار ﴿**مُرْتَفَقاً**﴾ أي متكأً. وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد. وذكره لمشاكلة قوله: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء. وقد يكون تهكماً، كقوله.

إني أَرِقْتُ فبتُّ الليلَ مرتفقاً　　　كأن عَيْني فيها الصَّابُ مَذْبُوحُ

والصاب: شجر مرّ يحرق ماؤه العينَ. ومذبوح: مشقوق. وفي كتاب (تنزيل الآيات) في الصحاح: بات فلان مرتفقاً، أي متكئاً على مرفق يده. وهو هيئة المتحزنين المتحسّرين. فعلى هذا لا يكون من المشاكلة ولا للتهكم، بل هو على حقيقته. كما يكون للتنعّم يكون للتحزن. وتعقبه في (العناية) فقال: وأما وضع اليد تحت الخدّ للتحزن والتحسر، فالظاهر أن العذاب يشغلهم عنه. فلا يتأتى منهم حتى يكون هذا حقيقة لا مشاكلة، فلذا لم يعرّجوا عليه. ثم علل الحث على الإيمان المفهوم من التخيير المتقدم، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

﴿إنَّ الَّذينَ ءامَنوا وعَمِلوا الصَّالحات إنَّا لا نُضيعُ أجْر مَنْ أحْسَن عَملاً أُولئكَ لَهُم جنَّاتُ عدْنٍ تجْري من تَحْتِهِمُ الأنْهار يُحلَّوْنَ فيهَا منْ أساوِرَ من ذَهَبٍ ويَلْبَسُون ثياباً خُضْراً من سُنْدُسٍ﴾ وهو ما رقّ من الديباج ﴿وإسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما كثف منه ﴿مُتَّكئين فيها على الأرَائك﴾ أي السرر على هيئة المتنعمين ﴿نِعْمَ الثَّوابُ﴾ أي الجنات المذكورة ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفقاً﴾ أي متكأً. وقيل المرتفق المنزل والمستقر، لآية ﴿إنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقاماً﴾ [الفرقان:٦٦] وآية، ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقاماً﴾ [الفرقان:٧٦].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾

﴿واضْرِبْ لَهُم مَثَلاً﴾ أي للمؤمن والكافر ﴿رجُلَيْنِ جعَلْنا لأحَدِهِمَا جنَّتَيْنِ منْ أعْناب وحَفَفْنَاهُمَا بنَخْلٍ﴾ وهي أعز ما يؤثره أولئك في تأزير كرومهم بالأشجار ﴿وجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ أي بين الجنتين، أو بين النخيل والأعناب ﴿زرْعاً﴾ أي فحصل منهما الفواكه والأقوات، فكانتا منشأ الثروة والجاه.

القول في تأويل قوله تعالى:

كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾

﴿كلْتَا الْجنَّتَيْنِ ءاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي ثمرها كاملة ﴿ولَمْ تظْلِم﴾ أي لم تنقص ﴿منْهُ شيْئاً وفَجَّرْنَا خلالَهُمَا﴾ أي فيما بينهما ﴿نهَراً﴾ أي يسقي الأشجار والزروع، ويزيد في بهجة مرآهما، تتميماً لحسنهما.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

﴿وكَانَ لَهُ﴾ أي لصاحب الجنتين ﴿ثَمرٌ﴾ أي أنواع من المال غير الجنتين. من (ثمَّرَ ماله) إذا كثّره ﴿فقَالَ لصَاحِبِه وهُوَ يُحاوِرُهُ﴾ أي يراجعه الكلام، تعييراً له بالفقر،

وفخراً عليه بالمال والجاه ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ أي أنصاراً وحشماً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ أي بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها. كما يدل عليه السياق ومحاورته له. وإفراد الجنة هنا مع أن له جنتين كما مر، إما لعدم تعلق الغرض بتعددها، وإما لاتصال إحداهما بالأخرى، وإما لأن الدخول يكون في واحدة فواحدة. قيل: الإضافة تأتي لمعنى اللام. فالمراد بها العموم والاستغراق. أي كل ما هو جنة له يتمتع بها. فيفيد ما أفادته التثنية مع زيادة. وهي الإشارة إلى أنه لا جنة له غير هذه ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي بما يوجب سلب النعمة، وهو الكفر والعجب. وفي (العناية) ظُلْمُهُ لها إما بمعنى تنقيصها وضررها، لتعريض نعمته للزوال ونفسه للهلاك، أو بمعنى وضع الشيء في غير موضعه. لأن مقتضى ما شاهده التواضع المبكي، لا العجب بها وظنها أنها لا تبيد أبداً. والكفر بإنكار البعث كما يدل عليه قوله: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أي تهلك وتفنى ﴿هَذِهِ﴾ أي الجنة ﴿أَبَداً﴾ لاعتقاده أبدية الدهر، وأن لا كون سوى ما تقع عليه مشاعره. ولذا قال:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي كائنةً آتية، وقوله: ﴿وَلَئِن رُدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً﴾ إقسام منه على أنه، إن رد إلى ربه، على سبيل الفرض والتقدير، كما يزعم صاحبه، ليجدن في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا، تطمعاً وتمنياً على الله، وادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده. وإنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئهاله. وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه. كقوله: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠]، ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾ [مريم: ٧٧]، و﴿مُنقَلَباً﴾ أي مرجعاً وعاقبة. أفاده الزمخشريّ.

قال المهايميّ: فكفر بالقول بقدم العالم ونفي حشر الأجساد واعتقد عكس الجزاء إذ قال: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً﴾ والقول بقدم العالم ينفي اختيار الصانع وإرادته. وبإنكار حشر الأجساد ينفي قدرته على الإعادة. وبعكس الجزاء ينفي

الحكمة الإلهية. ثم بيّن تعالى ما أجابه به صاحبه المؤمن، واعظاً له، وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾

﴿**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ**﴾ أي الذي عيّره بالفقر، تعبيراً له على كفره ﴿**وَهُوَ يُحَاوِرُهُ**﴾ أي يراجعه كلام التعيير على الكفر، محاورته كلام التعيير على الفقر، في ضمن النكر عليه ﴿**أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَاب ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ**﴾ أي يجعل التراب نباتاً ثم جعله غذاء يتولد منه النطفة ﴿**ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً**﴾ أي عدّلك وكملك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال. قال أبو السعود: والتعبير عنه تعالى بالموصول، للإشعار بعليّة ما في حيز الصلة، لإنكار الكفر. والتلويح بدليل البعث الذي نطق به قوله تعالى عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] الآية، وكما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] الآية. قال ابن كثير: أي كيف تجحدون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه. فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد. وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء. من المخلوقات، لأنه بمثابته. فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء. ولهذا قال صاحبه المؤمن:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾

﴿**لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً**﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل اعترف لله بالوحدانية والربوبية. ولا أشرك به أحداً معه من العلويات والسفليات. وقد قرأ ابن عامر ﴿**لكِنَّا**﴾ بإثبات الألف وصلاً ووقفاً. والباقون بحذفها وصلاً، وبإثباتها وقفاً. فالوقف وفاق. وأصله لكن أنا. وقرئ كذلك فحذفت الهمزة ثم أدغمت النون في مثلها فصار (لكن) ثم ألحق الألف إجراء للوصل مجرى الوقف. لأن الوقف على (أنا) بالألف، ولأن الألف تدل على أن الأصل (لكن أنا) وبغيرها يلزم الإلباس بينه وبين (لكن) المشددة. قال الزمخشريّ: ونحوه قول القائل:

وتَرْمِينَني بالطرفِ أيْ أنْتَ مُذْنِبٌ وتقلينني لكنَّ إيَّاكِ لا أَقْلي

أي لكن أنا لا أقليك. ويقرب منه قول الآخر:

ولو كنتَ ضبّياً عرفتَ قَرابتي ولكنّ زَنجيٌّ عظيم المَشَافِرِ

أي ولكنك. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

﴿وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ اي هلا قلت عند دخولها ذلك. قال الزمخشريّ. يجوز أن تكون (ما) موصولة مرفوعة المحل، على أنها خبر مبتدأ محذوف. تقديره (الأمر ما شاء الله) أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف بمعنى (أي شيء شاء الله كان) ونظيرها في حذف الجواب (لو) في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]، والمعنى: هلا قلت عند دخولها، والنظر إلى ما رزقك الله منها، الأمر ما شاء الله، اعترافاً بانها وكل خير فيها، إنما حصل بمشيئة الله وفضله. وأن أمرها بيده. إن شاء تركها عامرة، وإن شاء خربها. وقلت ﴿لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها، إنما هو بمعونته وتأييده. إذ لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده، إلا بالله تعالى. والقصد من الجملتين التبرؤ من الحول والقوة، إسناد ما أوتيه إلى مشيئة الله وقوته وحدَه. ثم أشار له صاحبه بأن تعييره إياه بالفقر، لا يبعد أن ينعكس فيه الأمر، بقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ﴾ أي في الدنيا أيضاً ﴿خَيْراً مِن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً﴾ أي مقداراً قدره الله وحسبه، وهو الحكم بتدميرها من صواعق وآفات علوية ﴿مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ اي تراباً أملس لا تثبت فيها قدم، لملاستها ﴿أَوْ﴾ يهلكها بآفة سفلية من جهة الأرض بان ﴿يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً﴾ اي غائراً في الأرض ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾ اي حيلة تدركه بها، بالحفر أو بغيره.

تنبيه:

كل من قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَنِ﴾ وقوله: ﴿أَنْ يُؤْتِيَنِ﴾ رسم بدون ياء. لأنها من ياءات الزوائد. وأما في النطق، فبعض السبعة يثبتها وبعضهم يحذفها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾

﴿وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أي بإهلاكه فلم يبق له فيها ثمرة. قال الزمخشريّ: (أحيط به) عبارة عن إهلاكه. وأصله من (من أحاط به العدو) لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه. ثم استعمل في كل إهلاك ومنه قوله تعالى ﴿إلاَّ أن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف:٦٦].

ومثله قولهم: (أتى عليه) إذا أهلكه. من (أتى عليهم العدو) إذا جاءهم مستعلياً عليهم. يعني إنه استعارة تمثيلية. شبه إهلاك جنتيه بما فيهما، بإهلاك قوم بجيش عدو أحاط بهم وأوقع بهم بحيث لم ينج أحد منهم. كما أن (أتى عليهم) بمعنى أهلكهم، استعارة أيضاً، من إتيان عدو غالب مستعل عليهم بالقهر ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أنفقَ فِيهَا﴾ أي فعيّر نفسه أكثر من تعييره صاحبه وتعيير صاحبه إياه. قال الزمخشريّ: تقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر. لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن. كما كني عن ذلك بعَضّ الكف، والسقوط في اليد. ولأنه في معنى الندم، عدّي تعديته بـ(على) كأنه قيل فاصبح يندم على ما أنفق فيها، أي في عمارتها. فيكون ظرفاً لغواً. ويجوز كونه ظرفاً مستقرّاً متعلقه خاص، وهو حال. أي متحسراً. والتحسر الحزن. وهو أخص من الندم. لأنه - كما قال الراغب - الغم على ما فات ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة عليها. و(العروش) جمع عرش وهو ما يصنع ليوضع عليه شيء. فإذا سقط سقط ما عليه. يعني أن كرومها المعروشة، سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الكروم، بحيث قاربت أن تصير صعيداً زلقاً ﴿وَيَقُولُ﴾ عطف على (يقلب) ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾ أي من الأوثان. وذلك أنه تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أُتِيَ من جهة شركه وطغيانه. فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾

﴿وَلَمْ تَكُن لَهُ فِئَةٌ﴾ أي منعة وقوم ﴿يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي يقدرون على نصرته من دون الله، كما افتخر بهم واستعز على صاحبه ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴾ أي ممتنعاً بنفسه وقوته عن انتقام الله.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

﴿**هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ**﴾ أي في ذلك المقام وتلك الحال التي وقع فيها الإهلاك. (الولاية) بفتح الواو، أي النصرة لله وحده، لا يقدر عليها أحد غيره. فالجملة مقررة ومؤكدة لقوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ﴾ لأنها بمعناها. أو ينصر فيها أولياءه المؤمنين على المشركين وينتقم لهم ويشفي صدورهم من أعدائهم، كما نصر على الكافر صاحبه المؤمن، وصدَّق قوله: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ﴾ ويعضده قوله تعالى: ﴿**هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيرٌ عُقْباً**﴾ أي لأوليائه. فلا ينقص لمؤمنٍ درجة، في الدنيا، ولا يترك لكافرٍ عقوبة لشرفه، بل يعاقبه بذنبه ويظهر فضل المؤمن عليه. وقرئ (الولاية) بكسر الواو بمعنى السلطان والملك. أي هنالك السلطان له والملك. لا يغلب ولا يمتنع منه. أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى اللّهَ ويؤمن به كلُّ مضطر. يعني أن ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾ [الكهف:٤٢]، كلمة ألجئ إليها فقالها، جزعاً مما دهاه من شؤم كفره. ولولا ذلك لم يقلها. كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر:٨٤].

وكقوله إخباراً عن فرعون ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩٠-٩١]، أو (هنالك) إشارة إلى الآخرة. أي في تلك الدار الولاية للّه. كقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] ويناسبه قوله: ﴿**هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً**﴾. و (هنالك) على الأوجه المتقدمة، خبر مقدم و(الولاية) مبتدأ مؤخر. والوقف على (منتصراً). وجوز بعضهم كون (هنالك) معمولاً لـ (منتصراً) وإن الوقف عليه. أي على (هنالك) وإن (الولاية للّه) جملة من مبتدأ وخبر مستأنفة. أي وما كان منتصراً في ذلك الوطن الذي حل به عذاب اللّه. فلم يكن منقذ له منه.

وأقول: هذا الثاني ركيك جداً، مفكك لرؤوس الآي في السورة. فإنها قطعت كلها بالاسم المنصوب. وشبهة قائله جوازه عربيةً. وما كل جائز عربية رقيق الحواشي بلاغة. ولذلك لم يعول عليه الزمخشريّ ومن تابعه. و(الحق) قرئ بالرفع صفة (للولاية) وبالنصب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة المنصوب بعامل مقدر.

وبالجر صفة للفظ الجلالة. (عقباً) قرئ بسكون القاف وضمها. وهما العاقبة كالعُسْر والعُسُر.

تنبيه:

يذكر كثير من المفسرين هنا وجهاً في هذا المثل. وهو أن الرجلين المذكورين فيه كانا موجودين ولهما قصة. ولا دليل في ذلك ولا اتجاه. فإن التمثيل بشيء لا يقتضي وجوده. وجوّز في هذا المثل أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية والتشبيه. وأن يكون المثل مستعاراً للحال الغريبة، بتقدير (اضرب) مثلاً، مثل رجلين، من غير تشبيه واستعارة. وقد عني بأن الرجلين في التمثيل، مشركو مكة، وما كانوا عليه من الفخر بأموالهم والبذخ بخولهم، وغمط المستضعفين من المؤمنين. وما آل إليه أمر الفريقين، مما طابق المثل الممثل، مطابقة طبقت الآفاق. مصداقاً لوعده تعالى، سيكون الأمر في الآخرة أعلى ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٢١].

ثم أشار تعالى إلى سرعة فناء ما يتمتعون به من الدنيا، ويختالون به بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ أي اذكر لهم ما تشبهه في زهرتها وسرعة زوالها ﴿**كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ**﴾ أي فالتفّ بسببه وتكاثف، حتى خالط بعضه بعضاً، فشبّ وحسن وعلاه الزهر والنوْر والنضرة ﴿**فَأَصْبَحَ**﴾ أي بعد ذلك الزّهو ﴿**هَشِيماً**﴾ أي جافّاً يابساً مكسوراً ﴿**تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ**﴾ أي تفرقه وتنسفه ذات اليمين وذات الشمال كأن لم يكن، وهكذا حال الدنيا وحال مجرميها، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذي حصل للنبات من شرف النموّ. ثم يزولون زوال النبات ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً**﴾ أي على كل من الإنشاء والإفناء كامل القدرة. ولما كان هذا المثل للحياة الدنيا من أبهج المُثُل وأبدعها، ضرب كثيراً في التنزيل، كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ به نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ...﴾ [يونس: ٢٤] الآية. وفي الزمر ﴿أَلَمْ تَرَ

أنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ. . ﴾ [الزمر:٢١] الآية. وفي الحديد ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ. . . ﴾ [الحديد: ٢٠] الآية. ثم بين تعالى شأن ما كانوا يفتخرون من محسنات الدنيا، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وذلك لإعانتهما فيها، ووجود الشرف بهما. ثم أشار إلى أنهما ليسا من أسباب الشرف الأخروي، إذ لا يحتاج فيها إليهما، بقوله: ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ أي والأعمال التي تبقى ثمراتها الأخروية، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات الكاملات، خير عند ربك من المال والبنين، في الجزاء والفائدة وخير مما يتعلق بهما من الأمل. فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية، أمرها إلى الزوال. وما ينال بالباقيات الصالحات من منازل القرب الربانيّ والنعيم الأبديّ، لا يزول ولا يحول.

لطائف:

١ - تقديم (المال) على (البنين) لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد. ولكون الحاجة إليه أمسّ. ولأنه زينة بدونهم، من غير عكس.

٢ - إفراد (الزينة) مع أنها مسندة إلى الاثنين، لما أنها مصدر في الأصل. أطلق على المفعول مبالغة. كأنها نفس الزينة. وإضافتها إلى الحياة اختصاصية، لأن زينتها مختصة بها.

٣ - إخراج بقاء الأعمال وصلاحها، مخرج الصفات المفروغ عنها، مع أن حقهما أن يكونا مقصودي الإفادة، لاسيما في مقابلة إثبات الفناء لما يقابلهما من المال والبنين على طريقة ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل:٩٦]، - للإيذان بأن بقاءها أمر محقق لا حاجة إلى بيانه. بل لفظ (الباقيات) اسم لها لا وصف. ولذلك لم يذكر الموصوف. وإنما الذي يحتاج إلى التعرض له خيريّتها.

٤ - تكرير (خير) للإشعار باختلاف حيثيتي الخيرية والمبالغة. كذا يستفاد من أبي السعود، مع زيادة.

٥ – وقع في كلام السلف تفسير (الباقيات الصالحات) بالصلوات وأعمال الحج والصدقات والصوم والجهاد والعتق وقوله (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) والكلام الطيب، وبغيرهما، مما روي مرفوعاً وموقوفاً. والمرفوع من ذلك كله لم يخرّج في الصحيحين. وكله على طريق التمثيل. وإن اللفظ الكريم يتناولها لكونها من أفراده.

ثم أشار تعالى إلى تحذير المشركين من أهوال القيامة، التي هي الوعد الحق والفيصل الصدق، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ أي اذكر يوم نقلعها من أماكنها ونسيّرها في الجوّ. كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]، أو نسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباءاً منبثّاً ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ لبروز ما تحت الجبال، أي ظهوره، بنسفها وبروز ما عداه بزوال الجبال والكثب. حتى تبدو للعيان سطحاً مستوياً، لا بناء ولا شجر ولا معلم ولا ما سوى ذلك ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ أي جمعناهم إلى موقف الحساب ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ أي نترك ﴿مِنْهُمْ أَحَداً﴾ أي لا صغيراً ولا كبيراً. كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩–٥٠]، وقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾

﴿وَعُرِضُواْ عَلَى رَبِّكَ صَفّاً﴾ أي مصطفّين مترتبين في المواقف، لا يحجب بعضهم بعضاً كل في رتبته، قاله القاشانيّ.

وقال أبو السعود: (صَفّاً) أي غير متفرقين ولا مختلطين. فلا تعرّض فيه لوحدة الصف وتعدّده.

قال الزمخشريّ: شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان،

مصطفين ظاهرين. يرى جماعتهم كما يرى كل واحد. لا يحجب أحدٌ أحداً ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي بلا مال ولا بنين. أو لقد بعثناكم كما أنشاناكم. والكلام على إضمار القول. أي وقلنا. تقريعاً للمنكرين للمعاد، وتوبيخاً لهم على رؤوس الأشهاد ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ أي بإنكاركم البعث ﴿أَلَن نَجْعَلَ لَكُم مَوْعِداً﴾ أي وقتاً لإنجاز ما وعدناكم من البعث والنشور والحساب والجزاء. فلم يعملوا لذلك أصلاً، بل عملوا ما يزدادون به افتضاحاً. و(بل) للخروج من قصة إلى أخرى. فالإضراب انتقالي، لا إبطالي.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي صحائف الأعمال بين يدي الله بحضرة الخلائق ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين أن يفتضحوا ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ أي من أعمالهم السيئة المسطرة ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ أي هلكتنا وحسرتنا على ما فرطنا في أعمارنا. قال القاشانيّ: يدعون الهلكة التي هلكوا بها، من أثر العقيدة الفاسدة والأعمال السيئة ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ أي أيُّ شأن حصل له، فلا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً إلا ضبطه وحفظه. والاستفهام مجاز عن التعجب في إحصائه كل المعاصي، وعدّه مقاديرها وأوصافها، وعدم تسامحه في شيء منها.

قال البقاعيّ عليه الرحمة إن لام الجر رسمت مفصولة (يعني في الرسم العثمانيّ)، إشارة إلى أنهم لشدة الكرب يقفون على بعض الكلمة. وهذا من لطائفه رحمه الله. ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً﴾ أي مكتوباً في الصحف تفصيلاً، من خير وشر. كما قال تعالى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾ [آل عمران: ٣٠] الآية. وقال ﴿يُنَبَّؤُاْ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ أي فيكتب عليه ما لم يعمله، أو يزيد في عقابه. ثم أشار تعالى إلى أن الكفر والعصيان مصدره طاعة الشيطان، وإيثاره على الرحمن. والشيطان أعدى الأعداء وأفسق الفساق. فلا يتولاه إلا من سفه نفسه، وحاد عن جادة الصواب، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ**﴾ أي العتاة المردة الشياطين ﴿**فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**﴾ أي خرج عن طاعته ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ**﴾ أي فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي، وهم لكم عدوّ يبغون بكم الغوائل ويوردونكم المهالك؟ وهذا تقريع وتوبيخ لمن آثر اتّباعه وإطاعته. ولهذا قال تعالى: ﴿**بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ**﴾ أي الواضعين الشيء في غير موضعه ﴿**بَدَلاً**﴾ بئس البدل من الله إبليس، لمن استبدله فأطاعه بدل طاعته. قال ابن كثير: وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين، السعداء والأشقياء، في سورة يس ﴿وَامْتَازُواْ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ إلى قوله ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس:٥٩-٦٢]، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾

﴿**مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ**﴾ استئناف مسوق لبيان عدم استحقاق إبليس وذريته، للاتخاذ المذكور في أنفسهم، بعد بيان الصوارف عن ذلك، من خباثة المحتد والفسق والعداوة. أي ما أحضرت إبليس وذريته خلق السماوات والأرض، حين خلقتهما ﴿**وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ**﴾ أي وما أشهدت بعضهم أيضاً خلق بعض منهم. ونفيُ الإشهاد كناية عن نفي الاعتضاد بهم والاستعانة على خلق ما ذكر - أبلغُ. إذ من لم يشهد فأنّى يستعان به؟ فأنى يصح جعله شريكاً؟ ولذلك قال سبحانه ﴿**وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً**﴾ أي وما كنت متخذهم أعواناً لخلق ما ذكر، بل تفردتُ بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير أي وإذا لم يكونوا عضداً في الخلق، فما لكم تتخذونهم شركاء في العبادة؟ واستحقاقُ العبادة من توابع الخالقية. والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها. والخالقية منفية عن غيره تعالى، فينتفي لازمها وهو استحقاق عبادة ذلك الغير، وهم المضلون، فلا يكونون أرباباً. إنما وضع (المضلين) موضع الضمير، ذمّاً لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال، وتأكيداً لما سبق

من إنكار اتخاذهم أولياء. ونحو هذه الآية قوله تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم من دُونِ اللّه لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ في السَّمٰوَاتِ وَلاَ في الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣] الآية. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي الحق تعالى: ﴿نَادُواْ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي في دار الدنيا، أنهم شركاء لينقذوكم مما أنتم فيه. يقال لهم ذلك على رؤوس الأشهاد تقريعاً وتوبيخاً لهم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي فنادوهم للإعانة، لبقاء اعتقاد شركهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ أي فلم يعينوهم، لعجزهم عن الجواب، فضلاً عن الإعانة. وفي إيراده، مع ظهوره، تهكم بهم وإيذان بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ أي بين الكفار وآلهتهم ﴿مَّوْبِقاً﴾ أي مهلكاً يشتركون فيه، وهو النار. أو عداوة هي في الشدة نفس الهلاك. كقول عمر رضي اللّه عنه (لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً)، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللّهِ ءَالِهَةً لِيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ [مريم: ٨١-٨٢]، قال ابن كثير: وأما إنْ جعل الضمير في قوله ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائداً إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد اللّه بن عمرو (إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به) - فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم:١٤]، وقال ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَامْتَازُواْ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

﴿ورَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ أي جهنم المحيطة بأنواع الهلاك ووضع المظهر مقام المضمر تصريحاً بإجرامهم، وذمّاً لهم بذلك ﴿فَظَنُّواْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي أيقنوا بأنهم

واقعون فيها ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً﴾ أي معدلاً ينصرفون إليه. إشارة إلى ما يعاجلهم من الهم والحزن، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه، عذاب ناجز.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي نوّعنا في هذا القرآن، الجامع للمهمات وأنواع السّعادات، لمصلحة الناس ومنفعتهم، من كل مثل، ينبه على مراقي السعادات ومهاوي الضلالات لينذروا به ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ أي مجادلة ومخاصمة ومعارضة للحق بالباطل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ أي أهل مكة الذين حكيت اباطيلهم وكل من شاكلهم ﴿أَن يُؤْمِنُواْ﴾ أي من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا الشرك ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ أي القرآن والحق الواضح النيّر ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ أي عن المعاصي السالفة ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ أي طلب إتيانها، أو انتظار إتيانها، وهي عذاب الاستئصال ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ أي يرونه عياناً ومواجهةً، وهو عذاب الآخرة. أو أعم. و (القبل) بضمتين بمعنى العيان كما في قراءة (قِبلاً) بكسر القاف وفتح الباء. أو (قُبُلاً) بمعنى: انواعاً متنوعة جمع (قبيل) وقرئ بفتحتين اي مستقبلاً. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي وما نرسلهم، قبل إنزال العذاب، إلا لتبشر من آمن بالزلفى والكرامة، وإنذار من كفر بأن تأتيه سنة من مضى ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالْبَاطِلِ﴾ كاقتراح الآيات ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ﴾ أي ليزيلوا بالجدال، الحقّ

الثابت عن مقره. وليس ذلك بحاصل لهم. وأصل (الإدحاض) إزلاق القدم وإزالتها عن موطئها. فاستعير من زلل القدم المحسوس، لإزالة الحق المعقول. قال الشهاب: ولك أن تقول: فيه تشبيه كلامهم بالوحل المستكره.

ثم أنشد لنفسه:

أتانا بوَحْلٍ لإنكارِهِ ليُزْلِقَ أقدامَ هَذي الحُجَجْ

﴿ وَاتَّخَذُواْ ءَايَاتِي وَمَا أُنذِرُواْ ﴾ أي وإنذارهم. أو والذي أنذروا به من العقاب ﴿ هُزُواً ﴾ أي استهزاءً وسخريةً وهو أشد التكذيب. وصف بالمصدر مبالغة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيَات رَبِّه فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ كناية عن عدم تدبرها والاتعاظ بها، بأبلغ أسلوب ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي ما عمله من الكفر والمعاصي، وصرف ما أنعم به، إلى غير ما خلقت له، فلم يتفكر في عاقبة ذلك ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أي جعلنا عليها حجباً وأغطيةً كثيرةً، كراهة أن يفقهوه، أي يقفوا على كنه ما خلقت النعم من أجله ﴿ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ أي وجعلنا فيها ثقلاً يمنعهم من استماعه. والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم، بأنهم مطبوع على قلوبهم. وذلك لإيثارهم الضلال على الهدى كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥].

﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُواْ إِذاً أَبَداً ﴾ أي فلا يكون منهم اهتداء، البتة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَهُم مَوْعِدٌ لَن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾.

الآيات في هذا المعنى كثيرة. كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦]، و﴿رَبُّكَ﴾ مبتدأ و﴿الْغَفُورُ﴾ خبره وتقديم الوصف بالمغفرة على الرحمة، لأنه أهم بحسب الحال. إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم، بعد استيجابهم لها. كما يعرب عنه قوله عز وجل: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾ والموعد المذكور هو يوم بدر. أو الفتح المشار إليه في كثير من الآيات. أو يوم القيامة. والكل لاحق بهم. و (الموئل) الملجأ والمنجى. أي ليس لهم عنه محيص ولا مفر. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ أي قرى عاد وثمود وأضرابهم ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ بالكفر والطغيان ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً﴾ أي وقتاً معيّناً لا محيد لهم عنه. وهذا استشهاد على ما فعل بقريش من تعيين الموعد، ليتنبهوا لذلك، ولا يغتروا بتأخر العذاب. ثم أشار تعالى إلى نبأ موسى من الخضر عليهما السلام، ذلك النبأ الذي تضمن من الفوائد والحكم وأعلام النبوة، ما لا يخفى على متبصر. كما ستقف على شذرات من ذلك.

فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾ أي اذكر وقت قول موسى لفتاه، لا أبرح، أي لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين. أي المكان الذي فيه ملتقى البحرين. فأجد فيه الخضر. أو أسير زماناً طويلاً إن لم أجده ثمة، فأتيقن فوات المطلب.

قال المهايميّ أي اذكر للذين إن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً، لتكبرهم عليك، إنكم لستم بأعلم من موسى ولا أرشد منه. ولستُ أقل من الخضر في الهداية بل أعظم. لأنها هداية في الظاهر والباطن. وهداية الخضر إنما هي في الباطن. ولا تحتاجون في تحصيله إلى تحمل المشاق، واحتاج إليه موسى. و(الفتى) الشاب. قال الشهاب: العرب تسمي الخادم فتى، لأن الغالب استخدام من

هو في سن الفتوّة. وكان يوشع خادم موسى عليه السلام ومحباً له، وذا غيرة على كرامته. ولذلك اختصه موسى رفيقاً له وخادماً. وصار خليفة من بعده على بني إسرائيل. وفتح عليه تعالى بيت المقدس ونصره على الجبارين. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

﴿**فلمّا بلَغا مَجْمعَ بَيْنِهِما**﴾ أي البحرين ﴿**نسِيا حوتَهُما**﴾ أي خبر حوتهما، وتفقد أمره، وكانا تزوداه.

﴿**فاتَّخذَ سَبِيلَهُ**﴾ أي طريقه ﴿**في الْبَحْرِ سَرباً**﴾ أي مثل السرب في الأرض، واضح المسلك، معجزة جعلت علامة للمطلوب.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾

﴿**فلمّا جاوزَا**﴾ أي مجمع بينهما، وهو المكان الذي نسيا فيه الحوت ﴿**قالَ لِفَتَاهُ ءاتِنا غداءَنا**﴾ أي ما نتغدى به ﴿**لَقَدْ لَقِينا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً**﴾ أي تعباً ومشقة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾

﴿**قَالَ أرَءَيْتَ إذْ أوَيْنَا إلَى الصَّخْرَةِ فإنّي نَسِيتُ الْحُوتَ**﴾ أي خبر الحوت. وإسناد النسيان إليهما، أولاً، إما بمعنى نسيان طلبه، والذهول عن تفقده، لعدم الحاجة إليه. وإما للتغليب، بناءً على أن الناسي إنما كان يوشع وحده. فإنه نسي أن يخبر موسى بشأنه العجيب، فيكون كقوله تعالى: ﴿**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ**﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من المالح ﴿**وَمَا أنسَانِيهُ إلاَّ الشَّيْطَانُ أنْ أذْكُرَهُ**﴾ أي لك. و(أن أذكره) بدل من الهاء في (أنسانيه) أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان. وقد قرأ حفص بضم الهاء من غير صلة وصلاً، والباقون بكسرها ﴿**واتَّخذَ سَبِيلَهُ في الْبَحْرِ عَجَباً**﴾ أي أمراً عَجيباً، إذ صار الماء عليه سرباً.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾

﴿قَالَ﴾ أي موسى ﴿ذَلِكَ﴾ أي المكان الذي اتخذ فيه سبيله هرباً ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي نطلب فيه الخضر. لأنه أمارة المطلوب. وقرئ في السبع بإثبات الياء بعد الغين، وصلاً لا وقفاً. وبإثباتها في الحالين. وبحذفها كذلك ﴿فَارْتَدَّا عَلَى ءَاثَارِهِمَا﴾ أي رجعا ماشيين على آثار أقدامهما يتبعانها ﴿قَصَصاً﴾ أي اتباعاً لئلا يفوتهما الموضع ثانياً.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

﴿فَوَجَدَا﴾ أي فأتيا الموضع المنسيّ فيه الحوت، فوجدا ﴿عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا﴾ التنكير للتفخيم، والإضافة فيه للتشريف. والجمهور على أنه الخضر. وسنتكلم على جملة من نبئه، بعونه تعالى، بعد تمام القصة ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا﴾ أي آتيناه رحمة لدنيّة، اختصصناه بها ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَدُنَّا عِلْماً﴾ أي علماً جليلاً آثرناه. وهو علم لدنّيّ يكون بتأييد ربانيّ. وسنذكر إن شاء اللّه تعالى العلم اللدنّيّ في آخر هذا النبأ.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أي أصحبك ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي من لدن ربك ﴿رُشْداً﴾ أي علماً ذا رشد. أي هدى وإصابة خير.

قال القاضي: وقد راعى في ذلك غاية التواضع والأدب. فاستجهل نفسه، واستأذن أن يكون تابعاً له، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه، بتعليم بعض ما أنعم اللّه عليه. أي وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ أي بوجه من الوجوه. ثم علل معتذراً بقوله

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ أي من أمور ستراها، إن صحبتني، ظواهرها مناكير وبواطنها لم يحط بها خبرك.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إن شاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ أي لا أخالفك في شيء.

قال الزمخشريّ: رجا موسى عليه السلام، لحرصه على العلم وازدياده، أن يستطيع معه صبراً، بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر. فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة اللّه. علماً منه بشدة الأمر وصعوبته، وإن الحمية التي تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق. هذا مع علمه أن النبيّ المعصوم، الذي أمره اللّه بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه، بريء من أن يباشر ما فيه غميزة في الدين. وأنه لا بد، لما يستسمج ظاهره، من باطن حسن جميل. فكيف إذا لم يعلم؟ انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ أي لا تفاتحني بالسؤال عن شيء أنكرته منّي، ولم تعلم وجه صحته، حتى أبتدئك ببيانه. وهذا من آداب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾

﴿فَانطَلَقَا﴾ أي على ساحل البحر يطلبان سفينة ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ أي عظيماً من إتلاف السفينة وقتل الجماعة الكثيرة بغير ذنب، وكفران نعمة الحمل بغير نول.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً﴾ ذكّره الخضر بما تقدم من الشرط.

يعني هذا الصنيع فعلته قصداً. وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليّ فيها. لأنك لم تحط بها خبراً إذ لها سر لا تعلمه أنت.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾

﴿**قَالَ**﴾ أي موسى ﴿**لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ**﴾ من الشرط. فإن المؤاخذةَ به تُفضي إلى العسر. والمراد التماس عدم المؤاخذة لقيام المانع وهو النسيان ﴿**وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً**﴾ أي لا تحمل عليّ من أمري، في تحصيل العلم منك، عسراً، لئلا يلجئني إلى تركه. أي لا تعسِّر عليَّ متابعتك، بل يسِّرها عليَّ، بالإغضاء وترك المناقشة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾

﴿**فَانطَلَقَا**﴾ أي بعد أن خرجا من السفينة إلى الساحل ﴿**حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ**﴾ أي أنها لم تَقتل نفساً فتُقتل. بل هي زكية طاهرة من موجبات القتل ﴿**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً**﴾ أي منكراً. أو أنكرَ من الأول. لأن ذلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسدّ، وهذا لا سبيل إلى تداركه بوجهٍ ما.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾

﴿**قَالَ أَلَمْ أَقُل لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً**﴾ تأكيد في التذكار بالشرط الأول. ونكتة زيادة ﴿**لَكَ**﴾ هو - كما قال الزمخشريّ - زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية. كما لو أتى إنسان بما نهيته عنه، فلمته وعنفته، ثم أتى به مرة أخرى فإنك تزيد في تعنيفه. قال في (المثل السائر): وهذا موضع تدق عن العثور عليه مبادرة النظر.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾

﴿**قَالَ**﴾ أي موسى ﴿**إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا**﴾ أي بعد هذه المرة ﴿**فَلاَ**

تُصاحِبْني قَدْ بَلَغتَ مِن لَدُنّي عُذْراً﴾ أي وجدت من جهتي عذراً. إذْ أعذرتَ إليّ مرة بعد مرة، فخالفتُك ثلاث مرات، بمقتضى طبع الاستعجال.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾

﴿فانطَلَقَا حتّى إذَا أتَيا أهْلَ قَرْيَةٍ﴾ اختلف في تسميتها.

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): الخلاف فيها كالخلاف في مجمع البحرين. ولا يوثق بشيء منه **﴿استَطْعَمَا أهْلَهَا فَأبَواْ أنْ يُضيِّفُوهُمَا﴾** أي امتنعوا من أن يطعموهما الطعام الذي هو حق ضيافتهما عليهم. وقرئ **﴿يُضيفُوهُمَا﴾** من الإضافة. يقال: ضافه إذا نزل به، وأضافه وضيّفه: أنزله ليطعمه في منزله، على وجه الإكرام **﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أن يَنقَضَّ﴾** أي ينهدم بقرب. من (انقض الطائر) إذا أسرع سقوطه. والإرادة مستعارة للمداناة والمشارفة. لما فيهما من الميل. استعارة تصريحية أو مكنية وتخييلية، أو هي مجاز لغويّ مرسل بعلاقة سبب الإرادة، لقرب الوقوع.

وقد أوسع الزمخشريّ، عليه الرحمة من الشواهد على مثل هذا المجاز. فانظره **﴿فَأقَامَهُ﴾** أي عمّره وأصلحه. **﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتُخِذْتَ عَلَيْهِ أجْراً﴾** أي لو طلبت على عملك جعلاً حتى تنتعش به. ففيه لوم على ترك الأجرة، مع مسيس الحاجة إليها.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

﴿قالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وبَيْنِكَ﴾ الإشارة إلى الفراق الموعود بقوله: **﴿فَلاَ تُصَاحِبْني﴾** أو إلى الاعتراض الثالث. أو إلى الوقت الحاضر. **﴿سأُنَبِّئُكَ بتأوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَلَيْهِ صَبْراً﴾** أي بمآل ما لم تصبر على ظاهره، وبعاقبته. وهو خلاص السفينة من اليد العادية، وخلاص أبوي الغلام من شرّه، مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراج اليتيمين للكنز. قال أبو السعود: وفي جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر، دون أن يقال (بتأويل ما فعلتُ) أو (بتأويل ما رأيتَ) ونحوهما، نوع تعريض به عليه السلام وعتاب. ثم أخذ الخضر في تفسير ما أشكل

أمره على موسى، وما كان أنكر ظاهره. وقد أظهر اللّه الخضر، عليه السلام، على باطنه. فقال:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

﴿ **أمَّا السَّفِينَةُ** ﴾ أي التي خرقتها ﴿ **فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ** ﴾ أي لفقراء يحترفون بالعمل في البحر، لنقل الناس من ساحل إلى آخر: ﴿ **فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً** ﴾ أي إنما خرقتها لأعيبها. لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلَمة، يأخذ كل سفينة سليمة جيدة، غصباً. فأردت أن أعيبها لأرده عنها، لعيبها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

﴿ **وأَمَّا الْغُلَامُ** ﴾ أي الذي قتلته ﴿ **فَكَانَ أَبوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا** ﴾ أي لو تركناه ﴿ **أن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً** ﴾ أي ينزل بهما طغيانه وكفره ويلحقه بهما. لكونه طبع على ذلك. فيخشى أن يعديهما بدائه ﴿ **فأَرَدْنَا** ﴾ أي بقتله ﴿ **أنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً** ﴾ أي طهارة عن الكفر والطغيان ﴿ **وأَقْرَبَ رُحْماً** ﴾ أي رحمة بأبويه، وبراً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

﴿ **وأَمَّا الْجِدَارُ فَكَان لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا** ﴾ أي قوتهما بالعقل وكمال الرأي ﴿ **وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا** ﴾ ليتصرفا فيه ﴿ **رَحْمَةً من رَبِّكَ** ﴾ أي تفضل بها عليهما.

و(رحمة) مفعول له. أو مصدر مؤكد لـ (أراد) فإن إرادة الخير رحمة ﴿ **وَمَا**

فَعَلْتُهُ﴾ أي ما رأيت مني ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ أي عن اجتهادي ورأيي، وإنما فعلته بأمر اللّه تعالى: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَلَيْهِ صَبْراً﴾ أي من الأمور التي رأيتها. أي مآله وعاقبته. قال أبو السعود (ذَلِكَ) إشارة إلى العواقب المنظومة في سلك البيان. وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجتها في الفخامة. و﴿تَسْطِع﴾ مخفف (تستطع) بحذف التاء.

تنبيهات:

في بعض ما اشتمل عليه هذا النبأ من الأحكام واللطائف والفوائد الساميات:

الأول – قال السيوطيّ في (الإكليل): في هذه الآيات أنه لا بأس بالاستخدام واتخاذ الرفيق والخادم في السفر. واستحباب الرحلة في طلب العلم. واستزادة العالم من العلم واتخاذ الزاد للسفر، وأنه لا ينافي التوكل. ونسبة النسيان، ونحوه من الأمور المكروهة، إلى الشيطان، مجازاً وتأدباً عن نسبتهما إلى اللّه تعالى. وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه ولو كان دونه في المرتبة. واعتذار العالم إلى من يريد الأخذ عنه في عدم تعليمه مما لا يحتمله طبعه. وتقديم المشيئة في الأمر، واشتراط المتبوع على التابع. وأنه يلزم الوفاء بالشروط. وأن النسيان غير مؤاخذ به. وأن (للثلاث) اعتباراً في التكرار ونحوه. وأنه لا بأس بطلب الغريب الطعام والضيافة. وأن صنع الجميل لا يترك ولو مع اللئام. وجواز أخذ الأجر على الأعمال. وأن المسكين لا يخرج عن المسكنة بكونه له سفينة أو آلة يكتسب بها، أو شيء لا يكفيه. وأن الغصب حرام. وأنه يجوز إتلاف بعض مال الغير، أو تعييبه، لوقاية باقيه، كمال المودع واليتيم. وإذا تعارض مفسدتان ارتكب الأخف. وأن الولد يحفظ بصلاح أبيه. وأنه تجب عمارة ما يخاف منه، ويحرم إهمالها إلى أن تخرب. وأنه يجوز دفن المال في الأرض. انتهى.

وقال البيضاويّ: ومن فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه. ولايبادر إنكار ما لم يستحسنه، فلعل فيه سراً لا يعرفه. وأن يداوم على التعلم، ويتذلل للمعلم، ويراعي الأدب في المقال. وأن ينبه المجرم على جرمه، ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره، ثم يهاجر عنه. انتهى.

ومن فوائد الآية – كما في (فتح الباري) – استحباب الحرص على لقاء العلماء وتجشم المشاق في ذلك. وإطلاق (الفتى) على التابع واستخدام الحرّ. وطواعية الخادم لمخدومه. وعذر الناسي. وجواز الإخبار بالتعب، ويلحق به الألم من مرض

ونحوه. ومحل ذلك إذا كان على غير سخط من المقدور. ومنها أن المتوجه إلى ربه يعان فلا يسرع إليه النصب. وفيها جواز طلب القوت. وطلب الضيافة. وقيام العذر بالمرة الواحدة، وقيام الحجة بالثانية. وفيها حسن الأدب مع الله وأن لا يضاف إليه ما يستهجن لفظه، وإن كان الكل بتقديره وخلقه، لقول الخضر عن السفينة ﴿فأردت أن أعيبها﴾ وعن الجدار ﴿فأراد ربك﴾ ومثل هذا قوله[1] ﷺ: «والخير بيديك والشر ليس إليك». انتهى.

ومن فوائدها إطلاق (القرية) على (المدينة) لقوله: ﴿أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ ثم قوله: ﴿لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾.

الثاني - ذكر الناصر في (الانتصاف): شذرات من لطائف بعض الآي المذكورة فنأثرها عنه.

قال عليه الرحمة: ورد في الحديث أن موسى عليه السلام لم ينصب، ولم يقل: لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، إلا منذ جاوز الموضع الذي حدّه الله تعالى له. فلعل الحكمة في إنساء يوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام، لمنة الله تعالى على المسافر في طاعةٍ وطلب علمٍ، بالتيسير عليه وحمل الأعباء عنه. وتلك سنة الله الجارية في حق من صحت له نية في عبادة من العبادات، أن ييسرها، ويحمل عنه مؤنتها، ويتكفل به ما دام على تلك الحالة. وموضع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته، بوناً بيّناً، والله أعلم وإن كان موسى عليه السلام متيقظاً لذلك، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، إذا قص عليهم القصة. فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه ليسمُر بها الناس، ولكن ليشمّر الخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها، عاجلاً وآجلاً. والله أعلم.

ثم قال عليه الرحمة: ومما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار، الالتهابُ والحميّة للحق، أنه قال حين خرق السفينة ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، ولم يقل (لتغرقنا) فنسي نفسه واشتغل بغيره، في الحالة التي كل أحد فيها يقول (نفسي نفسي) لا يلوي على مال ولا ولد. وتلك حالة الغرق. فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم. صلوات الله عليهم أجمعين، وسلامه.

---

(١) أخرجه مسلم في: صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ٢٠١.

ثم قال عليه الرحمة على قوله الزمخشريّ: فإن قلت قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ مسبب عن خوف الغصب عليها، فكان حقه أن يتأخر عن السبب، فلم قدم عليه؟ (قلت) النية به التأخير. وإنما قدم للعناية. ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده، ولكن مع كونها للمساكين. فكان بمنزلة قولك. (زيد ظني مقيم).

فقال عليه الرحمة: كأنه جعل السبب في إعابتها كونها لمساكين. ثم بين مناسبة هذا السبب للمسبب، بذكر عادة الملك في غصب السفن. وهذا هو حد الترتيب في التعليل أن يرتب الحكم على السبب، ثم يوضح المناسبة فيما بعد. فلا يحتاج إلى جعله مقدماً، والنية تأخيره. واللّهُ أعلم.

ثم قال: ولقد تأملت من فصاحة هذه الآي، والمخالفة بينها في الأسلوب عجباً. الا تراه في الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة بقوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وأسنده في الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه في قوله: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾، ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع اللّه تعالى، لأن المراد (ثم عبت) فتأدب بأن نسب الإعابة إلى نفسه. وأما إسناد الثاني إلى الضمير المذكور فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك (أمرنا بكذا أو دبرنا كذا) وإنما يعنون (أَمَرَ الملكُ ودَبَّرَ) ويدل على ذلك قوله في الثالثة: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ فانظر كيف تغايرت هذه الأساليب، ولم تأت على نمط واحد مكرر، يمجها السمع وينبو عنها، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المذكورة. فسبحان اللطيف الخبير.

الثالث – قال الخفاجيّ: في إعادة لفظ (الأهل) هنا، يعني في قوله تعالى: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ إثر قوله ﴿أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ سؤال مشهور. وقد نظمه الصلاح الصفديّ سائلاً عنه السبكيّ في قصيدة منها:

رأيت كتابَ اللّه أعظمَ معجزٍ ... لأفضل مَن يُهْدَى به الثَّقلاَنِ
ومن جملة الإعجاز كون اختصاره ... بإيجاز ألفاظ وبسط معاني
ولكنني في (الكهف) أبصرت آية ... بها الفكر، في طول الزمان عناني
وما هي إلا (استطعما أهلها) فقد ... نرى (استطعماهم) مثله ببيان
فما الحكمة الغراء في وضع ظاهر ... مكان ضمير؟ إن ذاك لِشان

يعني أنه عدل عن الظاهر بإعادة لفظ (أهل) ولم يقل (استطعماها) لأنه صفة

القرية. أو (استطعماهم) لأنه صفة (أهل) فلا بد له من وجه. وقد أجابوا عنه بأجوبة مطولة نظماً ونثراً. والذي تحرر فيه أنه ذكر (الأهل) أولاً ولم يحذف إيجازاً، سواء قدر أو تجوز في القرية، كقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢]، لأن الإتيان ينسب للمكان. نحو (أتيت عرفات) ولمن فيه نحو (أتيت بغداد) فلو لم يذكر كان فيه التباس مخلّ. فليس ما هنا نظير تلك الآية لامتناع سؤال نفس القرية، فلا يستعمل استعمالها. وأما (الأهل) الثاني فأعيد لأنه غير الأول. وليست كل معرفة أعيدت عينها كما بينوه. لأن المراد به بعضهم. إذ سؤالهم فرداً فرداً مستبعد. فلو لم يذكر، فُهِمَ غير المراد. أما لو قيل: (استطعماهم) فظاهر. وأما لو قيل (استطعماها) فإن النسبة إلى المحل تفيد الاستيعاب، كما أثبتوه في محله. وأما إتيان جميع القرية فهو حقيقة في الوصول إلى بعض منها. كما يقال: (زيد في البلد) أو (في الدار) وقيل: إن الأهل أعيد للتأكيد كقوله:

ليت الغرابَ غداة ينعبُ بيننا كان الغرابُ مقطَّعَ الأوداجِ

أو لكراهة اجتماع ضميرين متصلين، لبشاعته واستطالته، وثمة أجوبة أخرى.

الرابع – أبدى بعضهم سرّاً للتعبير أولاً (بتستطع) ثم أخيراً (بتسطع) بحذف التاء قال: لما أن فسر الخضر لموسى، وبين له تأويل ما لم يصبر معه، ووضحه وأزال المشكل، قال (تسطع) بحذف التاء. وقيل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً. فقال: ﴿سأنبئكَ بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف. كما قال: ﴿فَمَا اسْطَاعُواْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف:٩٧]، وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً﴾ وهو أشق من ذلك. فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى. انتهى.

وقال الشهاب: وإنما خص هذا بالتخفيف لأنه لما تكرر في القصة ناسب تخفيف الأخير منه. وأما كونه للإشارة إلى أنه خف على موسى ﷺ ما لقيه ببيان سببه – فيبعد أنه في الحكاية، لا المحكي. انتهى.

وما ألطف قول الشهاب في مثله: هذه زهرة لا تحتمل هذا الفرك.

الخامس – قال الإمام السبكيّ رحمه الله: ما فعله الخضر عليه الصلاة والسلام من قتل الغلام لكونه طبع كافراً، مخصوص به. لأنه أوحي إليه أن يعمل بالباطن، وخلاف الظاهر الموافق للحكمة. فلا إشكال فيه. وإن علم من الشريعة أنه لا يجوز قتل صغير لا سيما بين أبوين مؤمنين. ولو فرضنا أن الله أطلع بعض أوليائه، كما

أطلع الخضر عليه السلام، لم يجز له ذلك، وما ورد عن ابن عباس (لما كتب إليه نجدة الحروريّ: كيف قتله وقد نهى النبيّ ﷺ عن قتل الوالدان؟ فكتب إليه: إن كنت علمت من حال الولدان، ما علمه عالم موسى، فلك أن تقتل) فإنما قصد به ابن عباس المحاجّة والإحالة على ما لم يمكن قطعاً، لطمعه في الاحتجاج بقصة الخضر عليه الصلاة والسلام. وليس مقصوده أنه إن حصل ذلك يجوز. لأنه لا تقتضيه الشريعة. وكيف يقتل بسبب لم يحصل؟ والمولود لا يوصف بكفر حقيقي ولا إيمان حقيقي. وقصة الخضر تحمل على أنه كان شرعاً مستقلاً به. وهو نبيّ. وليس في شريعة موسى أيضاً، ولذا أنكره. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح): وأما من استدل به على جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما، فصحيح. لكن فيما لا يعارض منصوص الشرع. فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفساً كثيرة، قبل أن يتعاطى شيئاً من ذلك. وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع اللّه تعالى عليه.

وقال ابن بطال: قول الخضر (وَأَمَّا الغُلامُ فَكانَ كافراً) هو باعتبار ما يؤول إليه أمره أن لو عاش حتى يبلغ. واستحباب مثل هذا القتل لا يعلمه إلا اللّه. وللّه أن يحكم في خلقه بما يشاء قبل البلوغ وبعده.

أقول: مفاد الآية، أن إنكار موسى لقتل الغلام لكونه جناية بغير موجب. ولذا قال (بغير نفس) لا لكونه صغيراً لم يبلغ الحنث. لأن الآية لا تفيده. وقد يكون كبيراً. فقد قال اللغويون: الغلام الطارّ الشارب، أو من حين يولد إلى أن يشبّ، والكهل أيضاً. ومن الأخير قول موسى في قصة الإسراء عن النبيّ[1] ﷺ: «أبكي لأن غلاماً بعث بعدي». الخ نعم ربما يشعر بصغره حديث البخاريّ: وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً فذبحه قال موسى: أقتلت نفساً لم تعمل بالحنث. ولكن لا نصّ فيه، فتأمل.

السادس: أكثر العلماء على أن موسى المذكور في الآية، هو موسى بن عمران صاحب الآيات الشهيرة وصاحب التوراة. وذهب نوف البكاليّ - تابعي صدوق ابن امرأة كعب الأحبار أو ابن أخيه - إلى أنه ليس بموسى بن عمران كما في البخاريّ[2]. ووقع في رواية ابن إسحاق عن سعيد بن جبير، عند (النسائيّ) قال:

---

(١) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، ٦- باب ذكر الملائكة، حديث ١٥١٣، عن مالك بن صعصعة.

(٢) أخرجه البخاري في: العلم، ٤٤- باب مايستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم، فيكل العلم إلى اللّه، حديث رقم ٦٤، عن أبي بن كعب.

كنت عند ابن عباس وعنده قوم من أهل الكتاب، فقال بعضهم: يا أبا عباس! إن نوفاً يزعم عن كعب الأحبار أن موسى الذي طلب العلم إنما هو موسى بن منسا. أي ابن إفراثيم بن يوسف عليه السلام. فقال ابن عباس: أسمعت ذلك منه يا سعيد؟ قلت: نعم. قال: كذب نوف. وفي رواية البخاريّ: كذب عدو اللّه. وإنما قال ذلك مبالغة في الإنكار والتنفير من تصديق مقالته.

قال الرازيّ: كان ليوسف ولدان إفراثيم. ومنسا. فولد إفراثيم نون وولد نون يوشع صاحب موسى ووليّ عهده بعد وفاته. وأما ولد منسا، قيل إنه جاءته النبوة قبل موسى بن عمران. ويزعم أهل التوراة أنه هو الذي طلب هذا العلم ليتعلم. والخضرُ هو الذي خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار، وموسى بن منسا معه. هذا هو قول جمهور اليهود. واحتج القفال على صحة القول بأنه موسى صاحب التوراة أنه لم يذكر في القرآن وهو المراد. فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه. ولو كان المراد غيره لوجب تعريفه بصفة تميّزه وتزيل الاشتباه عنه، واللّه أعلم. انتهى.

وأما ابن عباس فكان سنده في ذلك، كما في البخاري، ما حدثه به أبيٌّ بن كعب ورفعه إلى النبيّ ﷺ؛ أن موسى سئل هل في الأرض أحد أعلم منك؟ فقال: لا. أو حدثته نفسه بذلك. فعتب اللّه عليه إذ لم يردّ العلم إليه. وأراد تعريفه أن من عباده في الأرض من هو أعلم منه، لئلا يحتم على ما لا علم له به. وإذا صح أن موسى هو صاحب التوراة، فيكون المراد بفتاه يوشع. وكان موسى اختصه برفقته لكونه صادقاً في خدمته، والغيرة على كرامته، والحب له. ولذا صار خليفته بعده، وفتح عليه بيت المقدس ونصر على الجبارين، كما هو معروف.

السابع: قال الأكثرون: إن صاحب موسى المعبر عنه بقوله تعالى ﴿عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا﴾ هو الخضر. قالوا: سمي بذلك لأنه ما جلس على الأرض إلا اخضرت. وقد صح عن ابن عباس أنه تمارى هو والحرّ بن قيس بن حصن الفزاريّ في صاحب موسى. فقال ابن عباس: هو خضر، فمرَّ أُبيٌّ بن كعب. فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا، في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيّه. فهل سمعت رسول اللّه ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: بينا موسى في ملأ من بني إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال: تعلم مكان أحد أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحى اللّه إلى موسى: بلى. عبدنا خضر. فسأل موسى السبيل إلى لقيّه، فجعل اللّه له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت فارجع فإنك ستلقاه. فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر. فقال موسى ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمَا قَصَصاً﴾

فوجدا خضراً. وكان من شأنهما ما قص اللّه في كتابه.

الثامن: اختلف أهل العلم في نسب الخضر وفي كونه نبيّاً وفي طول عمره وبقاء حياته على أقوال كثيرةً. فمن قائل بأنه ابن آدم لصلبه أو ابن قابيل أو ابن اليسع، أو غير ذلك، وكله مما ليس فيه أثارة من علم، وقد احتج من قال إنه نبيٌّ بقوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ لأن الظاهر من هذا أنه فعله بأمر اللّه. والأصل عدم الواسطة. وقيل: كان وليّاً. وقيل: مقامه دون النبوة وفوق الصِّديقيَّة فهو مقام برزخيّ، له وجه إلى النبوة ووجه إلى الولاية. وقيل: إنه ملك من الملائكة. وأما تعميره فيروى عن ابن عباس أنه أُنسئَ للخضر في أجله حتى يكذب الدجال.

قال النوويّ في (التهذيب) قال الأكثرون: هو حيّ موجود بين أظهرنا. وذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة. وحكاياتهم في رؤيته، والاجتماع به، والأخذ عنه، وسؤاله، ووجوده في المواضع الشريفة، أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تذكر.

وقال البخاري وطائفة من أهل الحديث: إنه مات.

وقال الحافظ أبو الخطاب بن دحية: وأما رواية اجتماعه مع النبيّ ﷺ وتعزيته لأهل البيت، فلا يصح من طرقها شيء. ولا يثبت اجتماعه مع أحد من الأنبياء، إلا مع موسى. وجميعُ ما ورد في حياته لا يصح منه شيء، باتفاق أهل النقل. وأما ما جاء من المشايخ فهو مما يتعجب منه. كيف يجوز لعاقل أن يلقى شيخاً لا يعرفه فيقول له: أنا فلان فيصدقه؟؟؟. انتهى كلامه ملخصاً.

وتمسك من قال بتعميره بقصة عين الحياة، واستند إلى ما وقع من ذكرها في صحيح البخاريّ وجامع الترمذيّ. ولكن لم يثبت ذلك مرفوعاً.

وقال أبو حيان في (تفسيره): الجمهور على أن الخضر مات. وبه قال ابن أبي الفضل المرسيّ. لأنه لو كان حياً لزمه المجيء إلى النبيّ ﷺ والإيمان به واتّباعه.

وقد روى عنه ﷺ أنه قال: لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلا اتباعي. وبذلك جزم ابن المناويّ وإبراهيم الحربيّ وأبو طاهر العباديّ. وممن جزم بأنه غير موجود الآن، أبو يعلى الحنبليّ وأبو الفضل بن ناصر والقاضي أبو بكر بن العربيّ، وأبو بكر بن النقاش وابن الجوزيّ. واستدل على ذلك بأدلة. منها قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء:٣٤]، قال أبو الحسين ابن المناوي: بحثت عن تعمير الخضر، وهل هو باق أم لا! فإذا أكثر المغفلين مفترون بأنه باق من أجل ما روي في

ذلك، والأحاديثُ المرفوعة في ذلك واهية. والسند إلى أهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم. وخبر مسلمة بن مصقلة كالخرافة. وخبر رياح كالريح. وما عدا ذلك من الأخبار، كلها واهية الصدر والأعجاز. لا يخلو حالها من أمرين: إما أن تكون أدخلت على الثقات استغفالاً، أو يكون بعضهم تعمد ذلك. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾.

قال صاحب (فتح البيان): والحق ما ذكرناه عن البخاريّ وأضرابه في ذلك. ولا حجة في قول أحد كائناً من كان إلا اللّه سبحانه ورسولهُ ﷺ. ولم يرد في ذلك نص مقطوع به، ولا حديث مرفوع إليه ﷺ، حتى يعمد عليه ويصار إليه. وظاهر الكتاب والسنة نفي الخلد، وطول التعمير لأحد من البشر. وهما قاضيان على غيرهما ولا يقضي غيرهما عليهما. ومن قال إنه نبيّ أو مرسل أو حيٌّ باق، لم يأت بحجةنيّرة ولا سلطان مبين. وإذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل. انتهى.

وقال تقيّ الدين بن تيمية عليه الرحمة والرضوان في بعض فتاويه، في ترائي الجن للإنس في بعض البلاد، ما مثاله: وفيه كثير من الجن وهم رجال الغيب الذين يرون أحياناً في هذه البقاع قال تعالى ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ [الجن:٦].

وكذلك الذين يرون الخضر أحياناً هو جنيٌّ رأوه. وقد رآه غير واحد ممن أعرفه وقال (إنني) وكان ذلك جنيّاً لبّس على المسلمين الذين رأوه. وإلا فالخضر الذي كان مع موسى عليه السلام مات. ولو كان حيّاً على عهد رسول اللّه ﷺ، لوجب عليه أن يأتي إلى النبيّ ﷺ ويؤمن به ويجاهد معه. فإن اللّه فرض على كل نبيّ أدرك محمداً، أن يؤمن به ويجاهد معه. كما قال اللّه تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُم مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١]. قال ابن عباس رضي اللّه عنه: لم يبعث اللّه نبياً إلا أخذ عليه الميثاق على أمته؛ لئن بُعثَ محمدٌ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه. ولم يذكر أحد من الصحابة أنه رأى الخضر، ولا أنه أتى إلى النبيّ ﷺ. فإن الصحابة كانوا أعلم وأجل قدراً، من أن يلبّس الشيطان عليهم. ولكن لبّس على كثير من بعدهم. فصار يتمثل لأحدهم في صورة النبيّ ويقول: أنا الخضر. وإنما هو شيطان. كما أن كثيراً من الناس يرى ميته خرج، وجاء إليه، وكلمه في أمور، وقضاء حوائج،

فيظنه الميت نفسه. وإنما هو شيطان. تصور بصور. انتهى.

التاسع – دل قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾، على أن من العلم علماً غيبيّاً وهو المسمى بالعلم اللدنّي. فالآية أصل فيه. وقد ألف حجة الإسلام الغزاليّ، عليه الرحمة، رسالة في إثبات هذا العلم. ردّ على من أنكر وجوده. وذكر عليه الرحمة أولاً طرفاً من مراتب العلوم الظاهرية المعروفة. ثم جوّد الكلام في إثباته. ولا بأس بإيراد شذرة مما قرره فيه. قال قدس سره. اعلم أن العلم الإنسانيّ يحصل من طريقين: أحدهما من التعليم الإنسانيّ والثاني من التعليم الربانيّ. أما الطريق الأول، وهو التعليم الإنسانيّ، فطريق معهود مسلوك محسوس.ويكون على وجهين: أحدهما من خارج وهو التحصيل بالتعلّم. والآخر من داخل وهو الاشتغال بالتفكر. والتفكر في الباطن بمنزلة التعليم في الظاهر. فإن التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئيّ. والتفكر استفادة النفس من النفس الكليّ. والنفس الكليّ أشد تأثيراً وأقوى تعليماً من جميع العقلاء والعلماء. والعلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوة. كالبذر في الأرض والجوهر في قعر البحر، أو في قلب المعدن. والتعلم هو طلب خروج ذلك الشيء الذي بالقوة إلى الفعل. والتعليم هو إخراجه من القوة إلى الفعل. فنفس المتعلم تتشبّه بنفس العالم وتتقرب إليه بالنسبة. فالعالم بالإفادة كالزارع. والمتعلم بالاستفادة كالأرض. والعلم الذي هو بالقوة كالبذر. والذي هو بالفعل، كالنبات. وإذا كملت نفس المتعلم يكون كالشجر المثمر أو كالجوهر الظاهر من قعر البحر. وإذا غلبت القوى البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلم في طول المدة. ويحمل التعب في طلب الفائدة، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحسّ يستغني الطالب بقليل التفكر عن كثير التعلم، فإن نفس العاقل تجد من الفوائد بتفكر ساعة، ما لا تجد نفس الجاهل بتعلم سنة. فإذن بعض الناس يحصلون العلم بالتعلم وبعضهم بالتفكر. ثم قال قدس سره: والطريق الثاني وهو التعليم الربانيّ. وذلك على وجهين: إلقاء الوحي وهو النفس إذا كملت بذاتها تزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل. وينفصل نظرها عن شهوات الدنيا وينقطع نسبها عن الأماني الفانية. وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها. وتتمسك بجود مبدعها. وتعتمد على إفادته وفيض نوره. فاللّه تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالاً كليّاً، وينظر إليها نظراً إلهيّاً، ويتخذ منها لوحاً، ومن النفس الكليّ قلماً وينقش فيها علومه. ويصير العقل الكليّ كالمعلم والنفس القدسيّ كالمتعلم. فتحصل جميع العلوم لتلك النفس وتنتقش فيها جميع الصور من غير تعلم وتفكر.

ومصداق هذا قول الله عز وجل لنبيّه ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:١١٣]، فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق. لأن محصوله عن الله تعالى بلا واسطة ووسيلة. وبيان هذه الكلمة يوجد في قصة آدم والملائكة عليهم الصلاة والسلام. فإنهم طول عمرهم حصلوا بفنون الطرق كثير العلوم. حتى صاروا أعلم المخلوقين وأعرف الموجودات. وآدم لما جاء، ما كان عالماً. لأنه ما تعلم ولا رأى معلماً. فتفاخرت الملائكة عليه وتجبروا وتكبروا وقالوا ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠]، ونعلم حقائق الأشياء. فرجع آدم إلى باب خالقه وأخرج قلبه عن جملة المكونات، وأقبل بالاستعانة على الرب تعالى، فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة:٣١]، أو صغر حالهم عند آدم وقلّ علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم، فغرقوا في بحر العجز: ﴿قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة:٣٢]، فقال تعالى: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة:٣٣]، فأنبأهم آدم عن مكنونات العلم ومستترات الأمر. فتقرر الأمر عند العقلاء؛ أن العلم الغيبيّ المتولد عن الوحي، أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة. صار علم الوحي إرث الأنبياء وحق الرسل، حتى أغلق الله باب الوحي في عهد سيدنا محمد ﷺ. فكان رسول الله خاتم النبيين، وكان أعلم الناس وأفصح العرب والعجم، وكان يقول: (أدبني ربي فأحسن تأديبي) وقال لقومه[1]: (أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله) وإنما كان علمه أكمل وأشرف وأقوى، لأنه حصل عن التعليم الربانيّ، وما اشتغل قط بالتعلم والتعليم الإنسانيّ فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم:٥].

والوجه الثاني - هو الإلهام. والإلهام تنبيه النفس الكليّ للنفس الجزئيّ على قدر صفاته وقبوله وقوته واستعداده. والإلهام أثر الوحي فإن الوحي هو تصريح الأمر الغيبيّ. والإلهام هو تعريضه. والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علماً نبويّاً. والذي عن الإلهام يسمى علماً لدنّياً. والعلم اللدّني هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري. وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف. وذلك أن العلوم كلها محصولة في جوهر النفس الكليّ الأوّليّ الذي هو من الجواهر المفارقة الأولية المحضة، بالنسبة إلى العقل الأول كنسبة حواء إلى آدم

(١) أخرجه البخاري في: النكاح، ١- باب الترغيب في النكاح، حديث رقم ٢٠٩٩، عن أنس بن مالك.

عليهما السلام. وقد تبين أن العقل الكليّ أشرف وأكمل وأقوى وأقرب إلى البارئ تعالى من النفس الكليّ. والنفس الكليّ أعز وألطف وأشرف من سائر المخلوقات. فمن إفاضة العقل الكليّ يتولد الإلهام. فالوحي حلية الأنبياء، والإلهام زينة الأولياء. فكما أن النفس دون العقل، فالوحي دون النبيّ. وكذلك الإلهام دون الوحي. فهو ضعيف بنسبة الوحي، قوى بإضافة الرؤيا. والإلهامُ علم الأنبياء والأولياء. فإنّ علم الوحي خاص بالرسل موقوف عليهم. كما كان لآدم وموسى وإبراهيم ومحمد وغيرهم من الرسل صلوات اللّه عليهم. وفرق بين الرسالة والنبوة. فالنبوة هي قبول النفس القدسيّ حقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر العقل الأول. والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والمتابعين. وربما يتفق القبول لنفس من النفوس، ولا يتأتى لها التبليغ لعذر من الأعذار وسبب من الأسباب. والعلم اللدني يكون لأهل النبوة والولاية، كما حصل للخضر عليه السلام حيث أخبر اللّه تعالى فقال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف:٦٥].

ثم قال عليه الرحمة: فإذا أراد اللّه بعبد خيراً رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس الكليّ الذي هو اللوح. فيظهر فيها أسرار بعض المكونات. وينتقش فيها معاني تلك المكونات. فيعبر النفس عنها كما يشاء إلى من يشاء من عباده.

وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدنيّ. وما لم تبلغ النفس هذه الرتبة لا يكون حكيماً. لأن الحكمة من مواهب اللّه تعالى: و﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾، من عباده ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩]، وهم الواصلون مرتبة العلم اللدنيّ، المستغنون عن كثيرة التحصيل وتعب التعلم. فيتعلمون قليلاً ويعلمون كثيراً، ويتعبون يسيراً ويستريحون طويلاً.

ثم قال عليه الرحمة: اعلم أن العلم اللدنيّ هو سريان نور الإلهام. والإلهام يكون بعد التسوية. كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس:٧]، والتسوية تصحيح النفس والرجوع إلى فطرتها. وهذا الرجوع يكون على ثلاثة أوجه: أحدها – تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها. والثاني – الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة. فإن النبيّ ﷺ أشار إلى هذه الحقيقة فقال: (من عمل بما علم، أورثه اللّه علم ما لم يعلم). والثالث – التفكر. فإن النفس، إذا تعلمت وارتاضت بالعلم والعمل، ثم أخذت تتفكر بمعلوماتها، بشرط التفكر، ينفتح عليه باب الغيب. كالتاجر الذي يتصرف في ماله بشرط التجارة، ينفتح عليه أبواب الربح. وإذا

سلك طريق الخطأ يقع في مهالك الخسران. فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوي الألباب، وتنفتح روزنة من عالم الغيب في قلبه فيصير عالماً كاملاً عاقلاً ملهماًمؤيداً. كما قال ﷺ: (تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة) انتهى ملخصاً.

وفي خلال كلامه عليه الرحمة، جمل من إشارات الصوفيه وعباراتهم. ولا يأباها العقل السليم ولا قواعد العلم الظاهر. لأنها في هذه المثابة بدرجة الاعتدال والتوسط. كذلك كان مشربه قدس اللّه سره. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ وهو الإسكندر الكبير المقدونيّ وسنذكر وجه تلقيبه بذلك ﴿ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْراً ﴾ أي نبأ مذكوراً معجزاً، أنزله اللّه عليّ.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ ﴾ أي بالقوة والرأي والتدبير والسعة في المال والاستظهار بالعدد وعظم الصيت وكبر الشهرة. ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾، أي طريقاً موصلاً إليه. والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ قرئَ بقطع الهمزة وسكون التاء. وقرئَ بهمزة الوصل وتشديد التاء. فقيل هما بمعنى ويتعديان لمفعول واحد. وقيل: (أَتْبَعَ) بالقطع يتعدى لاثنين. والتقدير: فاتبع سبباً سبباً آخر. أو فاتبع أمره سبباً كقوله: ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ [القصص:٤٢].

وقال أبو عبيدة: اتبع (بالوصل) في السير وأتبع (بالقطع) معناه اللحاق كقوله: ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات: ١٠]، وقال يونس: أتبع (بالقطع) للجد الحثيث في الطلب و(بالوصل) مجرد الانتقال. والفاء في قوله: (فاتبع) فاء

الفصيحة. أي فأراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً يوصله، لقوله: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي ذات حمأة وهو الطين الأسود، وقرئ (حامية) أي حارّة. وقد تكون جامعة للوصفين و (وَجَدَ) يكون بمعنى (رأى) لما ذكره الراغب ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً﴾ أي أمة. ثم أشار تعالى إلى أنه مكنه منهم، وأظهره بهم، وحكمه فيهم، وجعل له الخيرة في شأنهم، بقوله: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ﴾ أي بالقتل وغيره ﴿وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ بالعفو. ثم بين تعالى عدله وإنصافه، ليحتذى حذوه، بقوله سبحانه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي بالبغي والفساد في الأرض بالشرك والضلال والإضلال ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ﴾ أي في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً﴾ أي منكراً لم يعهد مثله.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ﴾ أي في الدارين ﴿جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ يقرأ بالرفع والإضافة. وهو مبتدأ، أو مرفوع بالظرف أي فله جزاء الخصلةالحسنى. ويقرأ بالرفع والتنوين و﴿الْحُسْنَى﴾ بدل أو خبر مبتدأ محذوف. ويقرأ بالنصب والتنوين. أي: فله الحسنى جزاءً. فهو مصدر في موضع الحال. أي مجزيّاً بها. أو هو مصدر على المعنى. أي يجزي بها جزاءً، أو تمييز. ويقرأ بالنصب من غير تنوين. وهو مثل المنون إلا أنه حذف التنوين لالتقاء الساكنين. أفاده أبو البقاء.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾ أي طريقاً راجعاً من مغرب الشمس، موصلاً إلى مشرقها

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَهُم مِن دُونِهَا سِتْراً ﴾ أي من المباني والجبال.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي أمر ذي القرنين كما وصفناه في رفعة المكان وبسطة الملك. أو أمره فيهم، كأمره في أهل المغرب من الحكم المتقدم. أو صفة مصدر محذوف لـ(وجد) أي وجدها تطلع وجداناً كوجدانها تغرب في عين حمئة. أو معمول (بلغ) أي بلغ مغربها كما بلغ مطلعها، ولا يحيط بما قاساه غير الله. أو صفة (قوم) أي على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم الشمس، في الكفر والحكم ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ أي علماً. نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه. لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أممهم وتقطّعت بهم الأرض. وفي التذييل بهذا، إشارة إلى كثرة ما لديه من العَدَد والعُدَد، بحيث لا يحيط بها إلا علمه تعالى.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أي طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ قرئ بفتح السين وضمها. أي بين الجبلين اللذين سدّ ما بينهما ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً ﴾ أي من ورائهما أمة من الناس ﴿ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ لكون لغتهم غريبة مجهولة، ولقلة فطنتهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾

﴿ قَالُواْ يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي في أرضنا بالقتل والإضرار ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً ﴾ أي جعلاً نخرجه من أموالنا. وقرئ (خراجاً) وهو بمعناه ﴿ عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴾ أي حاجزاً يمنع خروجهم علينا ﴿ قَالَ مَا

مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي ما جعلني فيه مكيناً من المال والمُلك، أجلُّ مما تريدون بذله. فلا حاجة بي إليه ﴿**فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ**﴾ أي بعَمَلَة وصنَّاع وآلات ﴿**أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً**﴾ أي حاجزاً حصيناً. وأصل معنى الردم سد الثلمة بالحجارة ونحوها.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

﴿**ءاتوني زُبَرَ الْحَدِيد**﴾ أي ناولوني قطعه ﴿**حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ**﴾ أي بين جانبي الجبلين ﴿**قَالَ انفُخُواْ**﴾ أي في الأكوار والحديد ﴿**حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ**﴾ أي المنفوخ فيه ﴿**نَاراً**﴾ أي كالنار بالإحماء ﴿**قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً**﴾ أي نحاساً مُذاباً ليلصق بالحديد، ويتدعم البناء به ويشتد ﴿**فَمَا اسْطَاعُواْ أَن يَظْهَرُوهُ**﴾ أي يعلوه بالصعود لارتفاعه وملاسته ﴿**وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً**﴾ لثخنه وصلابته ﴿**قَالَ هَذَا**﴾ أي السد ﴿**رَحْمَةٌ مِن رَبِّي**﴾ على القاطنين عنده. لأمنهم من شر من سدّ عليهم به، ورحمة على غيرهم، لسد الطريق عليهم ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي**﴾ بدحره وخرابه ﴿**جَعَلَهُ دَكَّاءَ**﴾ بالمد أي أرضاً مستوية، وقرئ (دكّاً) أي مدكوكاً مسوّاً بالأرض. ﴿**وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً**﴾ أي كائناً لا محالة. وهذا آخر حكاية قول ذي القرنين.

تنبيهات:

الأول: قدمنا أنه ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار. وإنما هي الآيات والعبر والأحكام والآداب تجلت في سياق الوقائع. ولذا يجب صرف العناية إلى وجوه تلك الفوائد والثمرات، وما يستنبط من تلك الآيات. وقد أشار نبأ ذي القرنين الإسكندر إلى فوائد شتى. نذكر ما فتح علينا منها، ونكل ما لم نحط به علماً إلى العليم الخبير.

فَمِنْ فَوَائِدِهَا: الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض. ورزقه من يشاء بغير حساب ملكاً ومالاً. لما له من خفيّ الحكم وباهر القدرة. فلا إله سواه.

ومنها: الإشارة إلى القيام بالأسباب، والجري وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل. وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر فإن ما قص عن الإسكندر من ضربه في الأرض إلى مغرب الشمس، ومطلعها وشمالها وعدم فتوره ووجدانه اللذة في

مواصلة الأسفار وتجشم الأخطار، وركوب الأوعار والبحار، ثم إحرازه ذلك الفخار، الذي لا يشق له غبار، أكبر عبرة لأولي الأبصار.

ومنها: تنشيط الهمم لرفع العوائق. وأنه ما تيسرت الأسباب، فلا ينبغي أن يعد ركوب البحر ولا اجتياز القفر، عذرا في الخمول والرضاء بالدون. بل ينبغي أن ينشط ويمثل في مرارته، حلاوة عقباه من الراحة والهناء. كما قضى الإسكندر عمره ولم يذق إلا حلاوة الظفر ولذة الانتصار: إذ لم يكن من الذين تقعدهم المصاعب عن نيل ما يبتغون.

ومنها: وجوب المبادرة لمعالي الأمور من الحداثة. إذ من الخطأ التسويف فيه إلى الاكتهال. فإن الإسكندر لما تبوأ ملك أبيه كان في حدود العشرين من عمره. وأتى ما أتى وهو في ريعان الشباب وقوة الفناء. فهاجم أعظم ملوك عصره وأكبر جيوشهم. كأنه القضاء المبرم. ولم يقف في وجه عدد ولا عُدد. وخاض غمرات الردى غير هياب ولا وجل. وأضاف كل العالم الشرقيّ إلى المملكة اليونانية وهو شاب. وقضى وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، كما دونه محققو المؤرخين.

ومنها: أن من قدر على أعدائه وتمكن منهم، فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال. بل يعامل المحسن بإحسانه والمسيء بقدر إساءته. فإن ما حكي عن الإسكندر من قوله ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ [الكهف:٨٧]، إلى آخره، نهاية في العدل وغاية الإنصاف.

ومنها: أن على الملك، إذا اشتكى إليه جور مجاورين،أن يبذل وسعه في الراحة والأمن، دفاعاً عن الوطن العزيز، وصيانة للحرية والتمدن، من مخالب التوحش والخراب، قياماً بفريضة دفع المعتدين وإمضاء العدل بين العالمين. كما لبّى الإسكندر دعوة الشاكين في بناء السد. وقد أطبق المؤرخون على أنه بنى عدة حصون وأسوار، لرد غارات البرابرة، وصد هجماتهم.

ومنها: أن على الملك التعفف عن أموال رعيته، والزهد في أخذ أجرة، في مقابلة عمل يأتيه، ما أغناه الله عنه، ففي ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بمحبته. كما تأبّى الإسكندر تفضلاً وتكرماً.

ومنها: التحدث بنعمة الله تعالى إذا اقتضاه المقام. كقوله الإسكندر في مقام تعففه عن أموالهم، والشفقة عليهم ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف:٩٥]، كقول سليمان ﴿فَمَا آتَانِ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُم﴾ [النمل:٣٦]، وقد قيل: إن دخل الإسكندر من البلاد التي فتحها كان نحو ستين مليون ليرة إنكليزية.

ومنها: تدعيم الأسوار والحصون في الثغور، وتقويتها بذوب الرصاص وبوضع صفائح النحاس، خلال الصخور الصم، صدقاً في العمل ونصحاً فيه. لينتفع به على تطاول الأجيال. فإن البناء غير الرصين لا ثمرة فيه.

ومنها: مشاطرة الملك العمال في الأعمال ومشارفتهم بنفسه إذا اقتضى الحال، تنشيطاً لهمتهم وتجزئة لهم وترويحاً لقلوبهم. وقد كان الإسكندر يقاسم الرجال الأتعاب، ويدير العمل بنفسه، كما بينه الذكر الحكيم في قوله: ﴿**آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً**﴾.

ومنها: تعريف الغير ثمرة العمل المهم، ليعرفوا قدره فيظهروا شكره. ولذا قال ﴿**هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَبِّي**﴾.

ومنها: الإعلام بالدور الأخرويّ، وانقضاء هذا الطور الأوليّ، لتبقى النفوس طامحة إلى ذلك العالم الباقي والنعيم السرمديّ. ولذا قال ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي**﴾.

ومنها: الاعتبار بتخليد جميل الثناء، وجليل الآثار. فإن من أنعم النظر فيما قص عنه في هذه الآيات الكريمة، يتضح له جليّاً حسن سجاياه وسمو مزاياه. من الشجاعة وعلوّ الهمة والعفة والعدل. ودأبه على توطيد الأمن وإثابته المحسنين وتأديبه للظالمين. والإحسان إلى النوع البشريّ، لا سيما في زمان كان فيه أكثر عوائد وأخلاق الأمم المتمدنة وغير المتمدنة، وحشية فاسدة.

ومنها: الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمماً متباينة. كما كان يرمي إليه سعى الإسكندر. فإنه دأب على توحيه الكلمة بين الشعوب ومزج تلك الأمم المختلفة ليربطها بصلات الحب والعوائد. وقد حكي أنه كان يجيّش من كل أمة استولى عليها، جيشاً عرمزماً، يضيفه إلى جيشه المكدونيّ اليونانيّ. ويأمر رجاله أن يتزوجوا من بناتهم، لتوثيق عرى المحبة والارتباط، وإزالة البغض والشحناء.

ومنها: الاعتبار بما يبلغه الإنسان، وما فيه من بليغ الاستعداد. يقضي على المرء أن يعيش أولاً طفلاً مرضَعاً. لا يعلم ما حوله ولا يطلب غير ما تحتاج إليه طبيعته الضعيفة، قياماً بما تقتضيه أسباب الحياة، وهو ملقى إذ ذاك لا إرادة له. وعرضة لأسقام تذيقه الآلام، وقد تجرعه كأس الحمام قبل أن يرى ويدرك شيئاً من هذا النظام. فإذا استظهرت فيه عوامل الحياة على دواعي الممات، وسرت بجسمه قوى الشبيبة، وصرف ما أنعم اللّه عليه، إلى ما خلق لأجله، ترعرع إنساناً عظيماً ظافراً بمنتهى أمله.

التنبيه الثاني – في ذي القرنين. اتفق المحققون على أن اسمه الإسكندر بن

فيليس، وقال ابن القيم في (إغاثة اللهفان) في الكلام على الفلاسفة: ومن ملوكهم الإسكندر المقدونيّ وهو ابن فيليس وليس بالإسكندر ذي القرنين الذي قص اللّه تعالى نبأه في القرآن بل بينهما قرون كثيرة وبينهما في الدين أعظم تباين. فذو القرنين كان رجلاً صالحاً موحداً للّه تعالى يؤمن باللّه تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وكان يغزو عبّاد الأصنام وبلغ مشارق الأرض ومغاربها. وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج. وأما هذا المقدونيّ، فكان مشركاً يعبد الأصنام هو وأهل مملكته. وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة. والنصارى تؤرخ له. وكان أرسطاطاليس وزيره. وكان مشركاً يعبد الأصنام. انتهى. كلامه.

وفيه نظر. فإن المرجع في ذلك هم أئمة التاريخ وقد أطبقوا على أنه الإسكندر الأكبر ابن فيليس باني الإسكندرية بتسعمائة وأربع وخمسين سنة قبل الهجرة، وثلاثمائة واثنين وثلاثين سنة قبل ميلاد عيسى عليه السلام. وقد أصبح ذلك من الأوليات عند علماء الجغرافيا. وأما دعوى أنه كان مشركاً يعبد الأصنام، فغير مسلم، وإن كان قومه وثنيين، لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس. وقد جاء في ترجمته - كما في طبقات الأطباء وغيرها - أنه كان لا يعظم الأصنام التي كانت تعبد في ذلك الوقت وأنه بسبب ذلك نسب إلى الكفر وأريد السعاية به إلى الملك. فلما أحس بذلك شخص عن أثينا. لأنه كره أن يبتلى أهلها بمثل ما ابتلوا به سقراطيس معلم أفلاطون. فإنه كان من عبادهم ومتألهيهم. وجاهرهم بمخالفتهم في عبادة الأصنام. وقابل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها. فثوّروا عليه العامة واضطروا الملك إلى قتله. فأودعه السجن ليكفهم عنه. ثم لم يرض المشركون إلا بقتله. فسقاه السم خوفاً من شرهم، بعد مناظرات طويلة جرت له معهم. كما في (طبقات الأطباء وتراجم الفلاسفة) فالوثنية، وإن كانت دين اليونانيين واعتقاد شعبهم، إلا أنه لا ينافي أن يكون الملك وخاصته على اعتقاد آخر يجاهرون به أو يكتمونه. كالنجاشيّ ملك الحبشة. فإنه جاهر بالإيمان بالنبيّ ﷺ. وشعبهُ وأهلُ مملكته كلهم نصارى. وهكذا كان الإسكندر وأستاذه والحكماء قبله. فإن الممعن في تراجمهم يرى أنهم على توحيد وإيمان بالمعاد. قال القاضي صاعد: كان فيثاغورس - أستاذ سقراط - بقول ببقاء النفس وكونها، فيما بعد، في ثواب أو عقاب. على رأي الحكماء الإلهيين. فتأمل قوله (على رأي الحكماء الإلهيين) يتحقق ما ذكرناه.

وأما قول الفخر الرازيّ: (إن في كون الإسكندر ذا القرنين إشكالاً قويّاً. وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه، فتعظيم اللّه إياه يوجب الحكم

بأن مذهب أرسطاطاليس حقّ وصدق. وذلك مما لا سبيل إليه) فلا يخفى دفع هذا اللزوم. فإن من كان تابعاً لمذهب فمدح لأمر مَا يوجب مدحه لأجله، فلا يلزم أن يكون المدح لأجل مذهبه ومتبوعه. إذ قد يقوم فيه من الخلال والمزايا ما لا يوجد في متبوعه. وقد يبدو له من الأنظار الصحيحة ما لا يكون في مذهبه الذي نشأ عليه مقلداً. أفلا يمكن أن يكون حرّاً في فكره ينبذ التقليد الأعمى ويعتنق الحق. ومن آتاه اللّه من الملك ما آتاه، أفيمتنع أن يؤتيه من تنور الفكر وحرية الضمير ونفوذ البصيرة ما يخالف به متبوعه. هذا على فرض أن متبوعه مذموم. وقد عرفت أن متبوعه (أعني أرسطاطاليس)، كان موحداً. وهو معروف في التاريخ لا سترة فيه. على أنه لو استلزمت الآية مدح مذهب أستاذه لكان ذلك في الأصول التي هي المقصودة بالذات، وكفى بها كمالاً. وللرازيّ فرض يغتنم بها التنويه بالحكماء والتعريف لمذهبهم، وهذه منها. وإن صبغها – سامحه اللّه – في هذا الأسلوب. عرف ذلك من عرف.

التنبيه الثالث: اختلف في سبب تلقيبه بذي القرنين. فقيل لأنه طاف قرني الدنيا. يعني جانبيها شرقها وغربها. أو لأنه كان له قرنان أي ضفيرتان. أو لأنه ملك الروم وفارس.

قال الزمخشريّ: ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته، كما يسمى الشجاع كبشاً لأنه ينطح أقرانه.

أقول: هذا اللقب من الكناية عن كل ذي قوة وبأس وسلطان. لأن ذا القرون من المواشي أقواها وأشدها. والكناية بالقرن عن القوة والسلطان معروفة عند اليهود، الذين هم السائلون. وقد وقع في توراتهم في نبوة دانيال عليه السلام قوله عن الملك: (فإذا أنا بكبش واقف عند النهر. وله قرنان) ثم قوله: (وبينما كنت متأملاً إذا بتيس معز قد أقبل من المغرب على وجه الأرض كلها. وللتيس قرن عجيب المنظر بين عينيه) قالوا: القرن هنا رمز إلى القوة والسلطان. والتيس رمز إلى مملكة اليونان. وقرنه رمز إلى أول ملك على هذه المملكة وهو الإسكندر الكبير. وما أشار إليه من سرعة مسير هذا التيس إيماء إلى كثرة ما دهم البلاد به من الغارات المتواصلة. قوله: (خرج من المغرب) إشارة إلى خروجه من مكدونية، التي هي إلى غرب فارس، وذلك حين تقدم على جيوش داريوس وكسره. وتعقبه إلى داخل مملكته. والقصد أن هذا اللقب (ذو القرنين) شهير وليس من أوضاع العرب خاصة. كما زعمه بعضهم. بل هو معروف عند العبرانيين أيضاً. وقد يظهر أنه من رموزهم الخاصة التي سرت إلى العرب. وأقرتهم عليها.

التنبيه الرابع – قال الرازيّ: اختلفوا في ذي القرنين. هل كان من الأنبياء أم لا؟ منهم من قال: إنه كان نبيّاً. واحتجوا عليه بوجوه:

الأول – قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ﴾ والأولى حمله على التمكين في الدين. والتمكين الكامل في الدين هو النبوة.

الثاني – قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ ومن جملة الأشياء النبوة. فمقتضى العموم في قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ هو أنه تعالى آتاه من النبوة سبباً.

الثالث – قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ والذي يتكلم الله معه لا بد وأن يكون نبيّاً.

ومنهم من قال إنه عبداً صالحاً وما كان نبيّاً. انتهى.

ثم قال الرازيّ بعدُ: يدلّ قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ على أنه تعالى تكلم معه من غير واسطة. وذلك يدل على أنه كان نبيّاً. وحملُ هذا اللفظ على أن المراد أنه خاطبه على ألسنة بعض الأنبياء –فهو عدول عن الظاهر. انتهى.

ولا يخفى ضعف الاستدلال بهذه الأدلة على نبوته. لأن مقام إثباتها يحتاج إلى تنصيص وتخصيص. وأما تعمق الجري وراء العمومات، لاستفادة مثل ذلك، فغير مقنع.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ فقدمنا أنه كناية عن تمكينه تعالى له منهم. لا أنه قول مشافهة. وإلا لو كان ذلك لكان مخيراً منه تعالى وملقناً ما يفعل بهم. فأنى يسوغ له نقضه باجتهاد آخر. ولا يقال إن الأصل في الإطلاق الحقيقة. لأنا نقول به، ما لم يمنع منه مانع، من نحو ما ذكرناه. وللتنزيل الكريم أسلوب خاص، عرفه من أنعم النظر في بديع بيانه. نعم. لو كان مراد القائل بنبوته أنه من الملهمين – ذهاباً في النبوة إلى المعنى الأعم من الإيحاء بشرع، ومن الإلهام، لكان قريباً. فتكون نبوته من القسم الثاني وهو الإلهام. ويطلق الصوفية على مثله الوارد. وجاء في الحديث تسمية صاحبه[1] محدَّثاً. وإطلاق النبوة عليه، وإن كان محظوراً في الإسلام، إلا أنه كان معروفاً قبله في العباد الأخيار.

---

(١) أخرجه البخاري في: الانبياء، ٥٤– باب حدثنا أبو اليمان، عن النبي ﷺ أنه قال: إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الامم محدثون، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم، فإنه عمر بن الخطاب.

التنبيه الخامس – حكي في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ قولان في أن السائلين هم اليهود أو غيرهم. ورجّح الأول من وجهين:

أولهما – أن للإسكندر عند اليهود شأناً وقدراً. وذلك لما حكي أنه لما فتح غزة ودنا من بيت المقدس، خرج إليه رئيس أحبارها وقدم إليه الطاعة. فدخلها إسكندر وسمع نبوة التوراة فسرَّ وأحسن إلى اليهود. وتعقب بعض المؤرخين هذه الرواية بأنها غير مأثورة في كتب اليونان، ولم يروها أحد من مؤرخيهم.

ثانيهما – أن عنوان (ذو القرنين) من رموز الإسرائيليين كما قدمناه عنهم.

التنبيه السادس – قالوا: المراد بـ (العين الحمئة) البحر المحيط. وتسميته عيناً لكونه بالنسبة لعظم قدرته تعالى، كقطرة. وإن عظم عندنا. قالوا: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر. وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه. وهي لا تفارق فلكها.

وللإمام ابن حزم عليه الرحمة – رأي آخر في الآية. ذكره في كتاب (الملل) في بحث كروية الأرض قال: ذو القرنين هو كان في العين الحمئة الحامية كما تقول (رأيتك في البحر) تريد أنك إذا رأيته كنت أنت في البحر. وبرهان هذا أن مغرب الشمس لا يجهل مقدار عظيم مساحته إلا جاهل. ومقدار ما بين أول مغربها الشتويّ إذا كانت من آخر رأس الجدي إلى آخر مغربها الصيفيّ إذا كانت من رأس السرطان – مرئيّ مشاهد. ومقداره ثمان وأربعون درجة من الفلك. وهو يوازي من الأرض كلها بالبرهان الهندسيّ أقل من مقدار السدس. يكون من الأميال نحو ثلاثة آلاف ميل ونيّف. وهذه المساحة لا يقع عليها في اللغة اسم (عين) البتة. لا سيما أن تكون (عيناً حمئةً) حاميةً. وباللغة العربية خوطبنا. فلما تيقنا أنها (عين) بإخبار الله عز وجل، الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، علمنا يقيناً أن ذا القرنين انتهى به السير في الجهة التي مشى فيها من المغارب إلى العين المذكورة. وانقطع له إمكان المشي بعدها لاعتراض البحار له هنالك. وقد علمنا بالضرورة أن ذا القرنين وغيره من الناس، ليس يشغل من الأرض إلا مقدار مساحة جسمه فقط. قائماً، أو قاعداً أو مضطجعاً. ومن هذه صفته، فلايجوز أن يحيط بصره من الأرض، بمقدار مكان المغارب كلها، لو كان مغيبها في عين من الأرض. كما يظن أهل الجهل. ولا بد من أن يَلْقَى خطُّ بصره من حدبة الأرض، ومن نشر من أنشازها، ما يمنع الخط من التمادي، إلا أن يقول قائل: إن تلك العين هي البحر فلا يجوز أن

يسمى البحر في اللغة (عيناً حمئةً) ولا حاميةً. وقد أخبر اللّه عز وجل أن الشمس تسبح في الفلك. وأنها إنما هي من الفلك سراج. وقول اللّه تعالى هو الصدق الذي لا يتناقض فلو غابت في عين من الأرض، كما يظن أهل الجهل، أو في البحر، لكانت الشمس قد زالت عن السماء وخرجت عن الفلك، وهذا هو الباطل. فصح يقيناً، بلا شك، أن ذا القرنين كان هو في العين الحمئة والحامية، حين انتهى إلى آخر البر في المغارب. لا سيما مع ما قام البرهان عليه، من أن جرم الشمس أكبر من جرم الأرض. وبرهان آخر قاطع وهو قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً﴾ فصح ضرورة أنه وجد القوم عند العين لا عند الشمس. انتهى كلام ابن حزم.

التنبيه السابع – قال الرازيّ: الأظهر أن موضع السّدين في ناحية الشمال. وقيل: جبلان بين أرمينية وأذربيجان. وقيل: هذا المكان في منقطع أرض الترك. وحكى محمد بن جريرالطبريّ في (تاريخه) أن صاحب أذربيجان، أيام فتحها، وجه إنساناً إليه من ناحية الخَزَر. فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع، وراء خندق عميق وثيق منيع.

وذكر ابن خرداد في كتاب (المسالك والممالك) أن الواثق باللّه رأى في المنام كأنه فتح هذا الردم، فبعث بعض الخدم إليه ليعاينوه. فخرجوا من باب الأبواب حتى وصلوا إليه وشاهدوه. فوصفوا أنه بناء من لبن من حديد، مشدود بالنحاس المذاب، وعليه باب مقفل. ثم إن ذلك الإنسان، لما حاول الرجوع، أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند.

قال أبو الريحان: مقتضى هذا أن موضعه في الربع الشماليّ الغربيّ من المعمورة. واللّه أعلم بحقيقة الحال. انتهى. كلام الرازيّ.

وقال الإمام ابن حزم في (الملل والنحل) جزء أول صحيفة (١٢٠) في تفنيد دعوى اليهود أن الجنة التي أهبط منها آدم في الأرض، ما مثاله. فإن قيل: ذكر في القرآن سد يأجوج ومأجوج. ولا يدرى مكانه ولا مكانهم. قلنا: مكانه معروف في أقصى الشمال في آخر المعمورة منه. وقد ذكر أمر يأجوج ومأجوج في كتب اليهود التي يؤمنون بها ويؤمن بها النصارى. وقد ذكر يأجوجَ ومأجوجَ والسدَّ أرسطاطاليسُ في كتابه في (الحيوان) عند كلامه على الغرانيق. وقد ذكر سد يأجوج ومأجوج بطليموس في كتابه المسمى (جغرافيا) وذكر طول بلادهم وعرضها. وقد بعث إليه الواثق أمير المؤمنين سلام الترجمان في جماعة معه حتى وقفوا عليه. ذكر ذلك

أحمد بن الطيّب السرخسيّ وغيره. وقد ذكره قدامة بن جعفر والناس. فهيهات خبر من خبر. وحتى لو خفي مكان يأجوج ومأجوج والسد، فلم يعرف في شيء من المعمور مكانه، لما ضر ذلك خبرنا شيئاً. لأنه كان يكون مكانه حينئذ خلف خط الاستواء حيث يكون ميل الشمس ورجوعها، وبعدها كما هو في الجهة الشمالية. بحيث تكون الآفاق كبعض آفاقنا المسكونة، والهواء كهواء بعض البلاد التي يوجد فيها النبات والتناسل. واعلموا أن كل ما كان في عنصر الإمكان، فأدخله مدخل في عنصر الامتناع بلا برهان – فهو كاذب مبطل جاهل، أو مجاهل. لا سيما إذا أخبر به من قد قام البرهان على صدق خبره. وإنما الشأن في المحال الممتنع الذي تكذبه الحواس والعيان أو بديهة العقل. فمن جاء بهذا فإنما جاء ببرهان قاطع على أنه كذاب مفتر. ونعوذ بالله من البلاء. انتهى كلام ابن حزم.

قال بعض المحققين: اعلم أنه كثيراً ما يحدث في الثورات البركانية أن تنخسف بعض البلاد أو ترتفع بعض الأراضي حتى تصير كالجبال. وهذا أمر مشاهد حتى في زمننا هذا. فإذا سلم أن سدّ ذي القرنين المذكور في هذه الآية غير موجود الآن، فربما كان ذلك ناشئاً من ثورة بركانية خسفت به وأزالت آثاره. ولا يوجد في القرآن ما يدل على بقائه إلى يوم القيامة. أما قوله تعالى: ﴿**هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ**﴾ فمعناه أن هذا السد رحمة من الله بالأمم القريبة منه. لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم، ولكن يجب عليهم أن يفهموا أن مع متانته وصلابته لا يمكن أن يقاوم مشيئة الله القويّ القدير، فإن بقاءه إنما هو بفضل الله. ولكن إذا قامت القيامة وأراد الله فناء هذا العالم، فلا هذا السدّ ولا غيره من الجبال الراسيات يمكنها أن تقف عثرة، لحظة واحدة أمام قدرة الله. بل يدكها جمعاء دكّاً في لمح البصر. فمراد ذي القرنين بهذا القول تنبيه تلك الأمم على عدم الاغترار بمناعة هذا السد، أو الإعجاب والغرور بقوتهم. فإنها لا شيء يذكر بجانب قوة الله. فلا يصح أن يستنتج من ذلك أن هذا السدّ يبقى إلى يوم القيامة، بل صريحه أنه إذا قامت القيامة في أي وقت كان، وكان هذا السدّ موجوداً، دكه الله دكاً. وأما إذا تأخرت فيجوز أن يدك قبلها بأسباب أخرى. كالزلازل إذا قدم عهده. وكالثورات البركانية كما قلنا. وليس في الآية ما ينافي ذلك. وأما قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ فالمراد منه خروجهم بكثرة وانتشارهم في الأرض، كما يخرج الشيء المحبوس أو المضغوط إذا انفجر. واستعمال لفظ (الفتح) مجازاً شائع في اللغة. ومنه قولك (فتحوا البلاد) وقوله تعالى ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فليس

للأشياء أبواب. وكذلك يأجوج ومأجُوج لا باب لهم. بل هم من كل حدب ينسلون. والغالب أن المراد بخروجهم هذا، خروج المغول التتار، وهم من نسل يأجوج ومأجوج وهو الغَزْو الذي حصل منهم للأمم في القرن السابع الهجريّ. وناهيك بما فعلوه إذ ذاك في الأرض، بعد أن انتشروا فيها، من الإفساد والنهب والقتل والسبي. والراجح أن السد كان موجوداً بإقليم داغستان التابع الآن لروسيا، بين مدينتي دربند وخوزار. فإنه يوجد بينهما مضيق شهير منذ القدم، يسمى عند كثير من الأمم القديمة والحديثة بـ(السُّد) وبه موضع يسمى (باب الحديد) وهو أثر سدّ حديديّ قديم بين جبلين من جبال القوقاز الشهيرة عند العرب (بجبل قاف) وقد كانوا يقولون إن فيه السد كغيرهم من الأمم. ويظنون أنه في نهاية الأرض. وذلك بحسب ما عرفوه منها. ومن ورائه قبيلتا يأجوج ومأجوج. انتهى.

وجاء في (صفوة الاعتبار) أن السور الذي وصلوا إليه أيام الواثق من بني العباس، هو سور الصين الذي هو إحدى عجائب مملكة الصين. فإن طوله نحو ألف ومائتين وخمسين ميلاً، وسمكه من الأسفل نحو خمسة وعشرين قدماً، ومن أعلاه نحو خمسة عشر قدماً. وارتفاعه ما بين خمسة عشر إلى عشرين قدماً. وفي أماكن منه حصون يبلغ ارتفاع بعضها إليه أربعين قدماً. بني لرد الهجمات على المملكة الصينية الأصلية، من المغول والقبائل الشمالية. والسور الآن خراب في جهات كثيرة. فإن كان هو المراد بالسد في الآية، لزم حمل الصفات المذكورة فيه، من كونه من زبر الحديد، ومفرغاً عليه النحاس، على بقاع من ذلك السور. والصدفان حينئذ طرفان من ذلك السور. كما تؤوّل صفات يأجوج ومأجوج، إلى ما يصح إطلاقها به على التتر والمنشورية. ويكون وعد الله الذي يدك فيه السد هو قرب الساعة. ولا شك أنها قربت بإعلام الشارع. وحينئذ يكون الفساد الموعود به في النصوص من أولئك القوم، هو ما وقع من التتر من الفساد في الممالك. كما في عهد جنكزخان، وما عثاه هو وأصحابه في الدنيا والله أعلم. انتهى.

وجاء في الجغرافية العمومية، في المقالة السابعة والأربعين في تخطيط آسيا، بلاد القوقاسيين أي أهالي كوه قاف، أي جبل قاف: إن في تلك الأقطار يمتد هذا الجبل كالسور العظيم، وفيه مجازان يسميان عند القدماء الأبواب القوقازية والأبواب الألبانية. فالمجاز الأول وهو الأبواب القوقازية هو الذي كان يخشى منه هجوم المتبربرين على كل من دولة الرومانيين والعجم. ثم إن الحصن الذي كان يسد هذا المجاز يسمى بأسماء مختلفة عند القدماء. وأما الأبواب الألبانية فأشهر الآراء فيها أنهم مجاز دربند. على امتداد بحر الخزر.

ثم قال: وهناك حكاية مشهورة بين أهالي (كوه قاف) تقتضي أن هذا الجبل كان مسدوداً بسد عظيم يمنع غارة المتبربرين وهذا السد العظيم تارة يعزى لإسكندر، وتارة لأنو شروان ويستدلون على ذلك بآثار موجودة إلى الآن، ترى لمن يروم ذلك.

التنبيه الثامن – قال أبو البقاء: يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان، لم ينصرفا للعجمة والتعريف. ويجوز همزهما وترك همزهما. وقيل: هما عربيان فـ (يأجوج) يفعول مثل يربوع. (ومأجوج) مفعول مثل معقول. وكلاهما من (أجّ الظليم) إذا أسرع. أو من (أجت النار) إذا التهبت. ولم ينصرفا للتعريف والتأنيث – أي للقبيلة كمجوس. فالكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق. وعلى العجمة، لا يتأتى تصريفه. ولا يعتبر وزنه إلا بتقدير كونه عربيّاً، كما في (تذكرة أبي علي).

قال الرازيّ: واختلفوا في أنهما من أي الأقوام؟ فقيل: إنهما من الترك. وقيل: يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم. ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة، انتهى.

وقال بعض المحققين: كان يوجد من وراء جبل من جبال القوقاز، المعروف عند العرب بـ (جبل قاف)، في إقليم داغستان، قبيلتان. تسمى إحداهما (آقوق)، والثانية (ماقوق) فعربهما العرب بـ (يأجوج ومأجوج) وهما معروفان عند كثير من الأمم وورد ذكرهما في كتب أهل الكتاب. ومنهما تناسل كثير من أمم الشمال والشرق في روسيا وآسيا.

التنبيه التاسع – توسع من لم يشترط الصحة ولا الحسن في مصنفاته من الرواة، في تخريج ما روي عن يأجوج ومأجوج. وكله إما من الإسرائيليات أو المنكرات أو الموضوعات. ومن ذلك حديث (إن يأجوج أمة ومأجوج أمة. كل أمة أربعمائة ألف أمة. لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر بين يديه من صلبه. كل قد حمل السلاح الخ) رواه ابن عديّ في (الضعفاء) عن حذيفة مرفوعاً. وقال: موضوع منكر، ومحمد بن إسحاق العكاشيّ كذاب يضع، وقد أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه.

وقال الحافظ ابن جرير ههنا، عن وهب بن منبه، أثراً طويلاً عجيباً، في سير ذي القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له. وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم.

وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك، أحاديث غريبة لا تصح أسانيدها. انتهى.

فجزى اللّه البخاريّ أحسن الجزاء، على نبذه تلك الروايات، واشتراطه الصحة في المرويات، فقد جنت الآثار المنكرة على الأمة أنكر الآثار. ومن طالع مقدمة صحيح مسلم صدق قوله: «أن راوي الضعاف غاش آثم مضلّ» وباللّه المستعان.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

﴿**وتركْنا بعْضَهُمْ يوْمَئذٍ يمُوجُ في بعْضٍ ونُفِخَ في الصُّورِ فجمَعْناهُمْ جمْعاً**﴾ أي نفخ فيه للبعث في النشأة الثانية. فجمعناهم للجزاء والحساب جمعاً عجيباً لا يكتنه كنهه.

قال إمام: النفخ في الصور تمثيل لبعث اللّه الناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة في بوق، فإذا هم قيام ينظرون. وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ في الصور، وليس علينا أن نعلم ما هي حقيقة ذلك الصور. والبحثُ وراء هذا عبث لا يسوغ للمسلم. أي لأنه من عالم الغيب، أي الأمور المغيّبة عنا، التي لم نكلف بالبحث عن حقائقها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾

﴿**وعَرَضْنَا جهَنَّمَ**﴾ أي أظهرناها وأبرزناها ﴿**يوْمَئذٍ**﴾ أي يوم إذْ جمعنا الخلائق كافة ﴿**للْكَافرِينَ**﴾ أي منهم. حيث جعلناهم بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً ﴿**عرْضاً**﴾ أي فظيعاً هائلاً لا يقادر قدره. قال أبو السعود: وتخصيص العرض بهم، مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة، لأن ذلك لأجلهم خاصة. وفي عرضها وإراءتهم ما فيها من العذاب والنكال، قبل دخولها، مزيد غضب عليهم ونكاية. لكونه أبلغ في تعجيل الهم والحزن. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾

﴿**الّذينَ كانَتْ أعْيُنُهُمْ في غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وكَانُوا لاَ يسْتَطِيعُونَ سمْعاً**﴾ تمثيل

لتعاميهم عن الآيات الدالة على توحيده، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها. ولتصامِّهم عن الحق واتباع الهدى. وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾ أبلغ من (وكانوا صماً) لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به. وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع. أفاده الزمخشريّ. وفي توصيفهم بالجملتين نكتة أخرى، بها تعلم أنه لا يستغنى بالثانية عن الأولى، كما زعم، وذلك - كما حققه الشهاب - إن قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾ لما أفاد أنهم كفاقدي حاسة السمع، ومن هو كذلك إنما يعرف الذكر بإشارة أو كتابة أو نحوهما، مما يدرك بالنظر، وذكر أن أعينهم محجوبة عن النظر فيما يدل عليه أيضاً. فهم لا سبيل لهم إلى معرفة ذكره أصلاً. وهذا من البلاغة بمكان.

قال أبو السعود: والموصول يعني (الذين) نعت للكافرين، أو بدل أو بيان جيءَ به لذمهم بما في حيز الصلة، وللإشعار بعليته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم. فإن ذلك إنما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم في الدنيا من الآيات، وإعراضهم عنها، مع كونها أسباباً منجية عما ابتلوا به في الآخرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ هذا رجوع إلى طليعة السورة في قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ [الكهف:٤]، فهو من باب رد العجز على الصدر المقرر في البديع، جيءَ بالاستفهام الإنكاريّ، إنكاراً لما وقع منهم وتوبيخاً لهم. ومفعول (حسب) الثاني محذوف. أي أفحسبوا اتخاذهم نافعاً لهم؟ ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً﴾ [مريم:٨٢]، كما قالوا ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ:٤١]، ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي هيأنا ﴿جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ أي شيئاً يتمتعون به عند ورودهم. و(النزُلُ) ما يقام للنزيل أي الضعيف. وفيه استعارة تهكمية. إذ جعل ما يعذبون به في جهنم كالزقوم والغسلين، ضيافة لهم.

وقال أبو السعود: وفيه تخطئة لهم في حسبانهم، وتهكم بهم. حيث كان اتخاذهم إياهم أولياء، من قبيل إعتاد العتاد، وإعداد الزاد، ليوم المعاد. فكأنه قيل: إنا أعتدنا لهم، مكان ما أعدوا لأنفسهم، من العدة والذخر، جهنم عدة. وفي إيراد (النزل) إيماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أنموذج له. أي لأن الضيف لا

يستقر في منزل الضيافة. وينتقل إلى ما هو إهناء له في دار إقامته. فكان تنبيهاً على أنهم سيذوقون ما هو أشد.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الْحَياة الدُّنْيا ﴾ أي ضاع وبطل ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بآيَات رَبِّهِمْ ﴾ أي التي جاءت بالعمل بها رسلهم ﴿ وَلِقَائه ﴾ أي بالبعث والحساب والجزاء ﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ لكفرهم المذكور ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَة وَزْناً ﴾ أي فنزدريهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً، لأن مداره الأعمال الصالحة، وقد حبطت بالمرة ﴿ ذَلكَ ﴾ أي الأمر ذلك. وقوله: ﴿ جَزاؤُهُم جَهَنَّمُ ﴾ جملة مبينة له، أو (ذلك) مبتدأ، والجملة خبره، والعائد محذوف. أي جزاؤهم به. أو (جزاؤهم) خبر و (جهنم) عطف بيان له ﴿ بِمَا كَفَرُواْ وَاتَّخذُواْ ءاياتي وَرُسُلِي هُزُواً ﴾ أي مهزوءاً بهما. وذلك موجب لشدة المقت والغضب والنكال. ثم بين ما لمقابلهم من الحسنى بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

﴿ إِنَّ الَّذينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالحات كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾. أي تحولاً، لبلوغهم الكمال في نعيمها. فلا شوق لهم فيما وراءها. وفيه تنبيه على شدة رغبتهم فيها، وحبهم لها. مع أنه قد يتوهم، فيمن هم مقيم في مكان دائماً، أنه يسأمه أو يمله. فأخبر أنهم، مع هذا الدوام والخلود السرمديّ، لا يختارون عن مقامهم متحوَّلاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

﴿ قُل لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ أي لكتابتها ﴿ لَنَفِدَ الْبَحْرُ ﴾ أي مع كثرته

ولم يبق منه شيء ﴿قَبْلَ أن تنفدَ كلماتُ ربِّي﴾ أي لكونها غير متناهية، فلا تنفد نفاد المتناهي.

قال أبو السعود. وفي إضافة (الكلمات) إلى اسم الرب، المضاف إلى ضميره ﷺ في الموضعين، من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى. وإظهارُ (البحر) و(الكلمات) في موضع الإضمار، لزيادة التقرير. وقوله تعالى: ﴿ولَوْ جئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ أي بمثل البحر عوناً وزيادة، لنفد أيضاً.

قال أبو السعود: كلام من جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقن، جيء به لتحقيق مضمونه، وتصديق مدلوله، مع زيادة مبالغة وتأكيد، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ، إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧].

تنبيه:

دلت الآية على أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء وكما شاء. وأن كلماته لا نهاية لها. وقد قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره من الأئمة: لم يزل الله متكلماً إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء. وهو مذهب سلف الأمة، وأئمة السنة، وكثير من أهل الكلام، كالهشامية والكرامية وأصحاب أبي معاذ. وطوائف غير هؤلاء يقولون: إن الكلام صفة ذات وفعل، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته. وهذا هو المعقول من صفة الكلام لكل متكلم. فكل حيّ وصف بالكلام كالملائكة والبشر والجن وغيرهم، فكلامهم لا بد أن يقوم بأنفسهم، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم، والكلام صفة كمال لا صفة نقص. ومن تكلم بمشيئة أكمل ممن لا يتكلم بمشيئة. فكيف يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق؟ وأما الجهمية والمعتزلة فيقولون: ليس له كلام قائم بذاته. بل كلامه مخلوق منفصل عنه. والكلابية يقولون: هو متكلم بكلام ليس له عليه قدرة، ولا يكون بمشيئته. والأشعرية يقولون: إن الكلام معنى واحد لا يتبعض ولا يتعدد. وكل هذه أقوال باطلة مخالفة للكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة. مبتدعة مبنية على أصل واحد. وهو قولهم إن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية. فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته. وهو أصل باطل مخالف للنقل والعقل. والقرآن الكريم يدل على بطلانه في أكثر من مائة موضع. وأما الأحاديث الصحيحة فلا يمكن ضبطها في هذا الباب. والصواب في هذا الباب وغيره، هو مذهب سلف الأمة وأئمتها؟ أنه سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته. وأن كلماته لا نهاية لها. وأنه

نادى موسى بصوت سمعه موسى. وإنما ناداه حين أتى، لم يناده قبل ذلك. وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد، كما أن علمه لا يماثل علمهم وقدرته لا تماثل قدرتهم. وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته. ليس في مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته. ولا في ذاته شيء من مخلوقاته. وأن أقوال أهل التعطيل والاتحاد، الذين عطلوا الذات والصفات أو الكلام أو الأفعال، باطلة. وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول في الذات والصفات، باطلة. هذا ما أفاده تقي الدين ابن تيمية عليه الرحمة والرضوان.

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿**قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي**﴾ الآية: كلمات الله لا نهاية لها. وهذا تسلسل، جائز كالتسلسل في المستقبل. فإن نعيم الجنة دائم لا نفاد له. فما من شيء إلا وبعده شيء بلا نهاية.

القول في تأويل قوله تعالى:

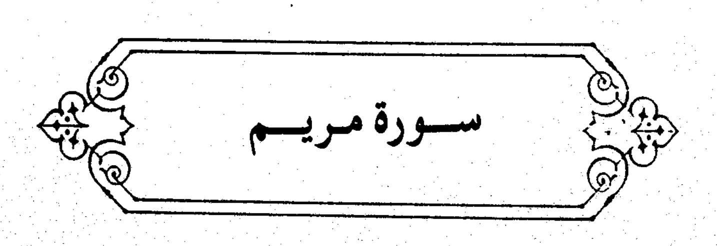
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾

﴿**قُلْ**﴾ أي لهؤلاء المشركين والكافرين من أهل الكتاب ﴿**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ أي خصصت بالوحي وتميّزت عنكم به. ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّه**﴾ أي يخاف المصير إليه، أو يأمل لقاءه ورؤيته، أو جزاءه الصالح وثوابه ﴿**فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً**﴾ أي في نفسه، لائقاً بذلك المرجوّ، وهو ما كان موافقاً لشرع الله ﴿**وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّه أَحَداً**﴾ أي من خلقه إشراكاً جليّاً. كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه. ولا إشراكاً خفيّاً. كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به أجراً من المدح وتحصيل المال والجاه.

قال أبو السعود: وإيثارُ وضع المظهر موضع المضمر في الموضعين، مع التعرض لعنوان الربوبية، لزيادة التقرير، وللإشعار بعلية العنوان للأمر والنهي، ووجوب الامتثال فعلاً وتركاً.

ودلت الآية - كما قال ابن كثير - على أن للعمل المتقبَّل ركنين: كونه موافقاً شرع الله المنزل، ومخلصاً أريد به وجه تعالى، لا يخلط به غيره. وتسمية الرياء شركاً أصغر، ثبت في السنة، وصح فيها حبوط العمل بالرياء. ودخول الرياء في الآية، باعتبار عموم معناها، وإن كان السياق في الشرك الجليّ، للخطاب مع الجاحدين. والله تعالى هو الموفق والمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم



سميت بها لاشتمالها على نبئها الخارق. وقال المهايميّ: لأن قصتها تشير إلى أن من اعتزل من أهله لعبادة الله، وطلب بها إشراق نوره، يرجى أن يكشف له عن صفات الحق وعن عالم الملكوت، وتظهر له الكرامات العجيبة. وهذا من أعظم مقاصد القرآن. وهي مكية النزول. واستثنى بعضهم منها آية السجدة [مريم:٥٨]، وآية ﴿ وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم:٧١].

وقد روى محمد بن إسحاق، في السيرة، من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة، أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشيّ وأصحابه. وآياتها ثمان وتسعون.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾

﴿كٓهيعٓصٓ﴾ سلف في أول سورة البقرة الكلام على هذه الأحرف، المبتدأ بها. وأولى الأقوال بالصواب أنها أسماء للسورة المبتدأ بها. وكونها خبر مبتدأ محذوف. أي: هذا ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ أي مسمى به، وقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ مبتدأ خبره محذوف. أي فيما يتلى عليك. أو خبر محذوف. أي هذا المتلوّ ذكرها. و(زكريا) والد يحيى عليهما السلام. بدل من (عبده) أو عطف بيان له. قال المهايميّ: أي ذكر الله لنا ما رحم به زكريا عليه السلام بمقتضى كمال ربوبيته. فاعطاه ولداً كاملاً في باب النبوة. فبشره بنفسه تارة وبملائكته أخرى. وتولى تسميته ولم يشرك فيها من تقدمه. وذكرُها لنا كبير هبة لنا، في تعريف مقام النبوة، وقدرة الله وعنايته بصفوته. ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً﴾ ظرف لـ (رحمة) أو بدل اشتمال من (زكريا) والنداء في الأصل رفع الصوت وظهوره. والمراد به الدعاء. وقد راعى أدب الدعاء، وهو إخفاؤه، لكونه أبعد عن الرياء، وأدخل في الإخلاص. ثم فسر الدعاء بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي ضعف. قال الزمخشريّ: وإنما ذكر العَظْم لأنه عمود البدن. وبه قوامه، وهو أصل بنائه. فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته. ولأنه أشد ما فيه وأصلبه. فإذا وهن كان ما وراءَه أوهن. ووحّده، لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، المنبئة عن شمول الوهن بكل فرد من أفراده. وقرئ ﴿وَهُنَ﴾ بكسر

الهاء وضمها ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ قال الزمخشريّ: شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته، وانتشاره في الشعر وفشوه فيه، وأخذه منه كل مأخذ - باشتعال النار. ثم أخرجه مخرج الاستعارة. ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس. وأخرج الشيب مميزاً ولم يضف الرأس اكتفاءً بعلم المخاطب أنه رأس زكريا. فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة. وظاهره أن فيه استعارتين مبنيتين على تشبيهين: أولاهما تصريحية تبعية في (اشتعل) بتشبيه انتشار المبيضّ في المسودّ باشتعال النار، كما قال ابن دريد في (مقصورته).

إمَّا تَرَىْ رَأْسِيَ حَاكَى لَوْنُهُ طرّةَ صبحٍ تَحْتَ أذيَال الدجا
واشتعل المبيضُّ في مسودِّهِ مثلَ اشتعالِ النَّارِ في جَزْلِ الغضَا

والثانية مكنية. بتشبيه الشيب، في بياضه وإنارته، باللهب. وهذا بناء على أن المكنية قد تنفك عن التخييلية، وعليه المحققون من أهل المعاني. وقيل: إن الاستعارة هنا تمثيلية. فشبه حال الشيب بحال النار، في بياضه وانتشاره ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾ أي ولم أكن بدعائي إياك خائباً في وقت لم أعوّد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردَّني قط. وهذا توسل منه إلى الله تعالى بما سلف له معه من الاستجابة، إثر تمهيد ما يستدعي الرحمة ويستجلب الرأفة، من كبر السن وضعف الحال. فإنه تعالى بعد ما عوَّد عبده بالإجابة دهراً طويلاً: لا يكاد يخيبه أبداً. لا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره.

تنبيه:

استفيد من هذه الآيات آداب الاعاء وما يستحبّ فيه. فمنها الإسرار بالدعاء، لقوله (خَفِيّاً) ومنها استحباب الخضوع في الدعاء وإظهار الذل والمسكنة والضعف لقوله: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ ومنها التوسل إلى الله تعالى بنعمه وعوائده الجميلة لقوله: ﴿وَلَمْ أَكُن﴾ الخ كما قدمنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَاءِي﴾ أي الذين يلون أمر رهطي من بعد موتي، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفني في القيام بما كنت أقوم به، من الإرشاد ووعظ

العباد، وحفظ آداب الدين. والتمسك بهديه المتين ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾ أي لا تلد من حين شبابها ﴿فَهَبْ لِي مِن لَدُنكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي هب لي ولداً، يلي من الأمر ما كنت إليه وارثاً، لي ولآل يعقوب، في العلم والنبوة. وفي قوله ﴿مِن لَدُنكَ﴾ إعلام بأنه من محض الفضل وخرق العادة. لعدم صلاحية زوجه للحمل. وتنويه به لكونه مضافاً إلى الله تعالى، وصادراً من عنده. و(آل يعقوب) أولاده الأنبياء، عليهم السلام. ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ أي مرضيّاً عندك قولاً وفعلاً.

ثم بيّن تعالى استجابة دعاء زكريا بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً﴾ أي مثلاً وشبيهاً. وعن ابن عباس: لم تلد العواقر قبله مثله. وروي أنه لم يعص، ولم يهمّ بمعصية قط.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾ أي حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها. وقيل: إلى رياضته. وهي الحال المشار إليها بقول الشاعر:

* ومن العناء رياضة الهرم *

قال الراغب.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ أي من إنسان ونطفة وعلقة وعناصر، ثم وجدت.

قال الزمخشريّ: فإن قلت: لِمَ طلب أولاً، وهو وامرأته على صفة العتيّ والعقر،

فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب؟ قلت: ليجاب بما أجيب به، فيزداد المؤمنون إيقاناً، ويرتدع المبطلون. وإلا فمعتقد زكريّا أولاً وآخراً، كان على منهاج واحد، في أن الله غنيٌ عن الأسباب. انتهى.

وقال أبو السعود: إنما قاله عليه السلام، مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله، لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آل عمران، استعظاماً لقدرة الله تعالى، وتعجيباً منها، واعتداداً بنعمته تعالى عليه في ذلك، بإظهار أنه من محض لطف الله عز وعلا وفضله. مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلة عادة، لا استبعاداً له. وقيل: كان ذلك منه استفهاماً عن كيفية حدوثه. أي: أيكون الولد ونحن كذلك؟ فقيل: كذلك. أي يكون الولد وأنتما كذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي ءَايَةً﴾ أي علامة تدلني على تحقق المسؤول ووقوع الحمل، ليطمئن قلبي ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾ أي: أن لا تقدر على تكليمهم، حال كونك سوياً، بلا مرض في بدنك، ولا في لسانك.

لطيفة:

إنما ذكر (الليالي) هنا، و (الأيام) في آل عمران، للدلالة على أنه استمر عليه المنع من كلام الناس، والتجرد للذكر والشكر ثلاثة أيام بلياليها. والعرب تتجوز أو تكتفي بأحدهما عن الآخر. والنكتة في الاكتفاء بـ (الليالي) هنا وبـ (الأيام) ثمَّ، أن هذه السورة مكية سابقة النزول. وتلك مدنية. والليالي عندهم سابقة على الأيام. لأن شهورهم وسنيّهم قمرية، إنما تعرف بالأهلة. ولذلك اعتبروها، في التاريخ، كما ذكره النحاة، فأعطي السابق للسابق.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي مصلاه أو غرفته ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي أشار إليهم رمزاً ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ أي صلوا لله طرفي النهار، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ (١٢)

﴿ **يَا يَحْيَى** ﴾ استئناف، طوى قبله جمل كثيرة، مسارعة إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم. وهو وجود هذا الغلام المبشّر به، وتعليمه التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النّبيّون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً. فلهذا نوه بذكره، وبما أنعم عليه وعلى والديه. أي: قلنا (يا يحيى) ﴿ **خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ** ﴾ أي تعلم التوراة بجدّ وحرص واجتهاد. ﴿ **وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً** ﴾ أي الحكمة وفهم التوراة والعلم والاجتهاد في الخير، وهو صبيٌّ، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا (١٣) وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ (١٤)

﴿ **وَحَنَاناً مِن لَدُنَّا** ﴾ أي وآتيناه حناناً: وهو التحنن والتعطف والشفقة. وتنوينه للتفخيم. أي رحمة عظيمة يشفق بها على الخلق. أو حناناً من اللّه عليه ﴿ **وَزَكَاةً** ﴾ أي طهارة من الذنوب، وعصمة بليغة منها ﴿ **وَكَانَ تَقِيّاً وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً** ﴾ أي متكبراً عاقّاً لهما، أو عاصياً لربه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ (١٥)

﴿ **وَسَلامٌ عَلَيْهِ** ﴾ أي من اللّه ﴿ **يَوْمَ وَلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً** ﴾ أي ليستقبل النعيم الأبديّ. و(السلام) بمعنى السلامة والأمان من الآفات. وفيه معنى التحية والتشريف. وفي ذكر الأحوال الثلاث، زيادة في العناية به، صلوات اللّه وسلامه عليه. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ (١٦)

﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ** ﴾ أي القرآن ﴿ **مَرْيَمَ** ﴾ أي نبأها ﴿ **إِذِ انتَبَذَتْ** ﴾ أي اعتزلت وانفردت ﴿ **مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً** ﴾ أي شرقيّ بيت المقدس. لئلا يشغلوها عن العبادة.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾

﴿**فاتَّخذَتْ من دُونهِمْ حِجَاباً**﴾ أي لئلاّ تحجبها رؤية الخلق عن أنوار الحق ﴿**فأرْسلْنا إليْها رُوحَنا**﴾ أي جبريل المنسوب إلى مقام عظمتنا، لغاية كماله، لينفخ فيها ﴿**فَتَمثَّلَ لَهَا**﴾ أي فتصور لرؤيتها ﴿**بَشَراً سَوِيّاً**﴾ أي سويّ الخلق، كامل الصورة.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾

﴿**قَالَتْ إنّي أعُوذُ بالرَّحْمنِ منكَ**﴾ أي أعتصم به منك. إنما خافته لانفرادها في خلوتها، وظنها أنه يريدها على نفسها. وفي ذلك من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه ﴿**إن كُنتَ تَقيّاً**﴾ أي تتقي اللّه تعالى، وتبالي بالاستعاذة به. وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه. أي فإني عائذة به. أو فلا تتعرض لي. وإنّما ذكّرته باللّه تعالى، لأن المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل. فخوفته أولاً باللّه عز وجل.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾

﴿**قَالَ إنَّمَا أنَا رَسُولُ ربِّكِ**﴾ أي لا تخافي ولا تتوقعي ما توهمت. فإني رسول ربك الذي استعذت به، بعثني إليك ﴿**لأهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً**﴾ أي لأكون سبباً في هبته. و (الزكيّ) الطاهر من الذنوب أو النامي على الخير.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

﴿**قَالَتْ أنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أكُ بَغِيّاً**﴾ أي تعجبت من هذا وقالت: كيف يكون لي غلام، أي على أي صفة يوجد مني، ولست بذات زوج ولا يتصور مني الفجور؟

قال الزمخشريّ: جعل المس عبارة عن النكاح الحلال، لأنه كناية عنه. كقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٧]، ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء:

٤٣] و [المائدة:٦]، والزنى ليس كذلك. إنما يقال فيه (فَجَرَ بهَا، وخبث بها) وما أشبه ذلك. وليس بقَمنٍ أن تراعى فيه الكنايات والآداب. وإنما اقتصر في سورة آل عمران على قوله ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران:٤٧]، لكون هذه السورة متقدمة النزول عليها. فهي محل التفصيل. بخلاف تلك. فلذا حسن الاكتفاء فيها. وقيل: جعل المس ثَمَّ، كناية عنهما، على سبيل التغليب. و(البغيُّ) الفاجرة التي تبغي الرجال. ووزنه (فعول) ولذا لم تلحقه التاء، لأنه يستوي فيه المذكر والمؤنث، وإن كان بمعنى فاعل كصبور. أو فعيل بمعنى فاعل، ولم تلحقه التاء لأنه للمبالغة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

﴿**قَالَ**﴾ أي الملك ﴿**كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِلنَّاسِ**﴾ أي برهاناً يستدلون به على كمال قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع خلقهم. فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى. وخلق حواء من ذكر بلا أنثى. وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر. فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ﴿**وَرَحْمَةً مِنَّا**﴾ أي عليك بهذه الكرامة، وعلى قومك بالهداية والدعاء إلى عبادة اللّه وتوحيده، فيهتدون بهديه ويسترشدون بإرشاده. وقوله ﴿**وَكَانَ أَمْراً مَقْضِياً**﴾ من تتمة كلام جبريل لمريم. يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم اللّه تعالى وقدره ومشيئته. أو من خبره تعالى لنبيه صلوات اللّه عليه. وأنه كنى به عن النفخ في فرجها. كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فيه من رُوحِنَا﴾ [التحريم:١٢]، وقال ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١].

القول في تأويل قوله تعالى:

فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾

﴿**فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ به مَكَاناً قَصِياً**﴾ أي لما صارت حاملاً به، اعتزلت بسببه مكاناً بعيداً من قومها، فراراً من القالة. وقد روي عن السلف أن جبريل لما قال لها، عن اللّه تعالى، ما قال، مما تقدم، استسلمت لقضاء اللّه تعالى فاطمأنت إلى قوله. فدنا منها فنفخ في جيب درعها. فسرت النفخة حتى ولجت في الفرج، فحملت بإذن اللّه تعالى.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي: فالجأها ألم الولادة إلى الاستناد بالجذع لتعتمد عليه وتستتر به. و(أجاء) – قال الزمخشريّ – منقول من (جاء) إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء. وقرئ (المخاض) بكسر الميم وكلاهما مصدر (مخضت المرأة) إذا تحرك الولد في بطنها للخروج ﴿قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ أي الحمل ﴿وَكُنتُ نَسْياً مَنسِياً﴾ أي شيئاً تافهاً، شأنه أن ينسى ولا يعتد به. منسياً لا يخطر على بال أحد. وهو نعت للمبالغة. وإنما قالت ذلك، لما عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود، الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد. فلحقها فرط الحياء وخوف اللائمة إذا بهتوها وهي عارفة ببراءة الساحة، وبضد ما قرفت به، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام – قال الزمخشريّ – لأنه مقام دحض، قلما تثبت عليه الأقدام، أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر، تستحق به المدح وتستوجب التعظيم، ثم تراه عند الناس لجهلهم به – عيباً يعاب به ويعنف بسببه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي من مكان أسفل منها، تحت أكمة، وهو جبريل. وقيل: هو عيسى، وقرئ (مَنْ) بفتح الميم موصولة ﴿إِلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾ أي سيداً نبيلاً رفيعاً، وقيل: نهراً يسري.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ أي حضر أوانُ اجتنائه. قال الزمخشريّ: فإن قلت: ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلّى بالسريّ والرطب! قلت: لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب، ولكن من حيث إنهما معجزتان تُريان الناس أنها من أهل العصمة، والبعد من الريبة، وأمن مثلها، مما

قرفوها به، بمعزل. وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات، خارقة لما ألفوا واعتادوا، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

﴿**فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً**﴾ أي بالكمال والولد المبارك، الموجود بالقدرة، الموهوب بالعناية. قال الزمخشريّ: أي جمعنا لك في السريّ والرطب فائدتين: إحداهما الأكل والشرب والثانية سلوة الصدر، لكونهما معجزتين. وهو معنى قوله ﴿**فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً**﴾ أي وطيبي نفساً ولا تغتمي. وارفضي عنك ما أحزنك وأهمك ﴿**فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً**﴾ أي من المحجوبين عن الحقائق بظواهر الأسباب، الذين لا يفهمون قولك ولا يصدقون بحالك. لوقوفهم مع العادة واحتجابهم عن نور الحق. فإذا سألوك ﴿**فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً**﴾ أي لا تكلميهم في أمرك شيئاً. ولا تماديهم فيما لا يمكنهم قبوله. وإنما أمرتْ بذلك لكراهة مجادلة السفهاء، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام. فإنه نص قاطع في براءة ساحتها، فقوله: ﴿**صَوْماً**﴾. أي صمتاً. وقوله: ﴿**فَلَنْ أُكَلِّمَ**﴾ الخ تفسير للنذر بذكر صيغته.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾

﴿**فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُواْ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً**﴾ أي عظيماً منكراً.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

﴿**يا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً**﴾ استئناف لتجديد التعبير، وتأكيد التوبيخ، وتقرير لكون ما جاءت به فرياً. و(هارون) هو النبيّ الشهير، صلوات الله عليه يعنون أنها مثله في الصلاح. لأن الأخ والأخت يستعمل بمعنى (المشابه) كثيراً.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ، قَالُوا﴾ منكرين لجوابها ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾ ولم يعهد تكليم عاقل لصبيّ في المهد.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أنطقه الله بذلك. أولاً تحقيقاً للحق في شأنه وتنزيهاً لله تعالى عن الولد، ردّاً على من يزعم ربوبيته ونبوَّته ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ أي الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي كثير الخير حيثما وجدت. أبلغ وحي ربي لتقويم النفوس وكبح الشهوات والأخذ بما هو مناط السعادات. والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة، إما باعتبار ما سبق في القضاء المحتوم، أو جعل الآتي، لا محالة، كأنه وجد ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾ أي أمرني بالعبادة وإنفاق المال مدة حياتي.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾ أي مستكبراً عن طاعته وأمره ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ذَلِكَ﴾ أي الذي فصلت نعوته الجليلة وخصائصه الباهرة ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي لا ما يصفه به النصارى. وهو تكذيب لهم، فيما يزعمونه، على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهانيّ. حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: ومَن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟

وهذا كقوله تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عندَ اللّه كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٠]، ثم أشار إلى تتمة كلام عيسى من الأمر بعبادته تعالى وحده، بقوله سبحانه ﴿**وَإِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾ أي قويم. من اتبعه رشد وهدى. ومن خالفه ضلَّ وغوى.

تنبيهات في فوائد هذه القصة:

الأول - لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته، ولداً زكيّاً طاهراً مباركاً، عطف بذكر قصة مريم في إيجاد ولدها عيسى عليهما السلام منها من غير أب. فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة. ولهذا ذكرهما في آل عمران، وههنا، وفي سورة الأنبياء. يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه. وأنه على ما يشاء قدير. و(مريم) هي بنت عمران. من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل. وقد ذكر تعالى ولادة أمها لها في سورة آل عمران. وأنها نذرتها محررة للعبادة. وأنه تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً فنشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة. فكانت إحدى الناسكات المتبتلات. وكانت في كفالة زكريا ورأى لها من الكرامات ما بهره فقد كان يجد عندها كلما دخل عليها المحراب رزقاً. كما تقدم في سورة آل عمران.

الثاني - استدل بقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، من قال بنبوة مريم. واستُدل بقوله تعالى عنها ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم: ٢٣]، على جواز تمني المنون لمثل تلك الحال. وبقوله تعالى ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥] على التسبب في الرزق، وتكلف الكسب وإليه أشار القائل:

ألم تر أنَّ اللّهَ قال لمريمٍ ... وهُزِّي إليك الجذْعَ يَسَّاقَط الرطَبْ
ولو شاء أحنى الجذعَ من غير هزِّهِ ... إليها، ولكن كلُّ شيء لَهُ سَبَبْ

في الآية أصل لما يقوله الأطباء، إن الرطب ينفع النساء. واستدل بقوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ بعدَ ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾ على أن الحالف (لا يتكلم أو لا يكلم فلاناً) لا يحنث بالإشارة. وعلى أن السكوت عن السفيه واجب، كما استنبطه الزمخشري، قال: ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافهاً. وفي قوله تعالى ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ معنى قولهم في المثل: من أشبه أباه فما ظلم. وفيه أيضاً تنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش.

الثالث - نقل الرازيّ عن القاضي في قوله تعالى: ﴿وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ﴾

[مريم:٣٣]، الخ أن السلام عبارة عما يحصل به الأمان. ومنه السلامة في النعم وزوال الآفات. فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر اللّه تعالى فعله بيحيي. ولا بد في الأنبياء من أن يكونوا مستجابي الدعوة. وأعظم أحوال الإنسان احتياجاً إلى السلامة هي هذه الأحوال الثلاثة: وهي يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث. فجميع الأحوال التي يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى، طلبها ليكون مصوناً عن الآفات والمخافات في كل الأحوال.

الرابع – قال القاشانيّ: وإنما تمثل لها بشراً سويّ الخلق حسن الصورة، لتتأثر نفسها به وتستأنس. فتتحرك على مقتضى الجبلة. ويسري الأثر من الخيال في الطبيعة. فتتحرك شهوتها فتنزل كما يقع في المنام من الاحتلام وتنقذف نطفتها في الرحم فيتخلق منه الولد. وقد مرّ أن الوحي قريب من المنامات الصادقة، لهدء القوة البدنية وتعطلها عن أفعالها عنده كما في النوم. فكل ما يرى في الخيال من الأحوال الواردة على النفس الناطقة المسماة في اصطلاحنا (قلباً) والاتصالات التي لها بالأرواح القدسية، يسري في النفس الحيوانية والطبيعية وينفعل منه البدن. وإنما أمكن تولد الولد من نطفة واحدة. لأنه ثبت في العلوم الطبيعية أن منيّ الذكر في تكوّن الولد، بمنزلة الإنفحة في الجبن. ومنيّ الأنثى بمنزلة اللبن، أي العقد من منيّ الذكر والانعقاد من منيّ الأنثى. لا على معنى أن منيّ الذكر ينفرد بالقوة العاقدة ومنيّ الأنثى بالقوة المنعقدة، بل على معنى أن القوة العاقدة في منيّ الذكر أقوى. والمنعقدة في منيّ الأنثى أقوى. وإلا لم يمكن أن يتحدا شيئاً واحداً. ولم ينعقد منيّ الذكر حتى يصير جزءاً من الولد. فعلى هذا إذا كان مزاج الأنثى قوياً ذكورياً، كما تكون أمزجة النساء الشريفة النفس القويّة القوى، وكان مزاج كبدها حارّاً، كان المنيُّ المنفصل عن كليتها اليمنى أحرّ كثيراً من الذي ينفصل من كليتها اليسرى. فإذا اجتمعا في الرحم، كان مزاج الرحم قويّاً في الإمساك والجذب، قام المنفصل في الكلية اليمنى، مقام الذكر في شدة قوة العقد. والمنفصل من الكلية اليسرى مقام منيّ الأنثى في قوة الانعقاد، فيتخلق الولدَ هذا. وخصوصاً إذا كانت النفس متأيدة بروح القدس، متقوية، يسري أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن، ويغير المزاج ويمد جميع القوى في أفعالها بالمدّ الروحانيّ، فيصير أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس. واللّه أعلم.

ثم قال في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾ في اللوح مقدراً في الأزل. وعن

ابن عباس: فاطمأنت إليه بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً﴾ فدنا منها فنفخ في جيب الدرع، أي البدن، وهو سبب إنزالها على ما ذكرنا. كالغلمة مثلاً والمعانقة التي كثيراً ما تصير سبباً للإنزال. وقيل: إن الروح المتمثل لها هو روح عيسى عليه السلام عند نزوله واتصالها بها وتعلقه بنطفتها. والحق أنه روح القدس. لأنه كان السبب الفاعليّ لوجوده كما قال: ﴿لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً﴾. واتصال روح عيسى بالنطفة إنما يكون بعد حصول النطفة في الرحم، واستقرارها فيه، ريثما تمتزج وتتحد وتقبل مزاجاً صالحاً لقبول الروح. انتهى.

الخامس - التمثّل مشتق من المثل. ومعناه التصور. وفيه دليل على أن الملَك يتشكل بشكل البشر.

قال إمام الحرمين: تمثلُ جبريل معناه أن اللّه أفنى الزائد من خلقه أو أزاله عنه. ثم يعيده إليه بعدُ.

وجزم ابن عبد السلام: بالإزالة دون الفناء وقرر ذلك بأنه لا يلزم أن يكون انتقالها موجباً لموته، بل يجوز أن يبقى في الجسد حيّاً. لأن موت الجسد بمفارقة الروح ليس بواجب عقلاً، بل بعادة أجراها اللّه تعالى في بعض خلقه، ونظيره انتقال أرواح الشهداء إلى أجواف طيور خضر تسرح في الجنة.

وقال البلقينيّ: ما ذكره إمام الحرمين لا ينحصر الحال فيه. بل يجوز أن يكون الآتي جبريل بشكله الأصليّ. إلا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل. وإذا ترك ذلك عاد إلى هيئته. ومثال ذلك القطن، إذا جمع بعد أن كان منتفشاً. فإنه بالنفش يحصل له صورة كبيرة، وذاته لم تتغير. وهذا على سبيل التقريب. والحق أن تمثل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيساً لمن يخاطبه. والظاهر أيضاً أن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى، بل يخفى على الرائي فقط. واللّه أعلم. كذا قال ابن حجر في فتح الباري.

ولا يخفى أن هذا البحث من الرجم بالغيب، واقتفاء ما لم يحط بكنهه. فالخوض فيه عبث ينتهي خائضه إلى حيث ابتدأ. لأنه من عالم الغيب الذي لا يصل علمنا إليه ولن يصل إليه بمجرد العقل. ولم يرد عن المعصوم ﷺ فيه نص قاطع. وكل ما كان كذلك فليس من شأننا أن نبحث فيه. فاعرف ذلك فإنه ينفعك في مواضع عديدة.

السادس - قال بعضهم: أصل كلمة (عيسى) يسوع. فحرفه اليهود إلى (عيسو) تهكماً فحوله العرب إلى (عيسى) تشبهاً باسم موسى. ولبدل الواو بالألف سبب مبنيّ على قواعد اللغة العبرانية، بل والعربية. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿**فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ**﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى، بعد بيان أمره ووضوح حاله. وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. فأصرت اليهود منهم على بهت أمه وقرفه بالسحر. وانقسمت النصارى في أمره انقساماً يفوت الحصر. وكله ضلال وشرك وكفر. وقد هدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه. وهذا من فضله تعالى ومنّه ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ يعني بالذين كفروا، المختلفين. عبّر عنهم بالموصول إيذاناً بكفرهم جميعاً وإشعاراً بعلة الحكم. وفي (مَشْهَدِ) ستة أوجه. لأنه مصدر ميميّ أو اسم زمان أو مكان. وعلى كل فهو إما من (الشهود) أي الحضور أو (الشهادة). وهذا معنى قول الزمخشريّ: أي في شهودهم هول الحساب والجزاء إلى يوم القيامة. أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف. أو من وقت الشهود. أو من شهادة ذلك اليوم عليهم، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال. أو من مكان الشهادة أو وقتها.

وقيل: معناه ما شهدوا به في عيسى وأمه فعظمه لعظم ما فيه أيضاً. كقوله ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف:٥]، وفيه وعيد لهم وتهديد شديد. وذلك لأنه لا أظلم ممن كذب بالحق لما جاءه. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿**أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا**﴾ تعجب من حدة سمعهم وأبصارهم يومئذ. ومعناه أن أسماعهم وأبصارهم يوم يأتوننا للحساب والجزاء جدير بأن يتعجب منهما بعد أن كانوا في الدنيا صماً عمياً. والآية كقوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة:١٢] الآية، أي يقولون

ذلك حين لا يجدي عنهم شيئاً. ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لأجدى ﴿**لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ**﴾ أي في الدنيا ﴿**فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ لإغفالهم الاستماع والنظر. فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون. قال الزمخشريّ: أوقع الظاهر أعني (الظالمين) موقع الضمير، إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم، حيث أغفلوا الاستماع والنظر، حين يجدي عليهم ويسعدهم.

تنبيه:

إنما أوِّل التعجب في الآية بما ذكر، وأنه مصروف للعباد الذين يصدر منهم التعجب، لأن صدوره من الله تعالى محال. إذ هو كيفية نفسانية تنشأ عن استعظام ما لا يدرى سببه. ولذا قيل: إذا ظهر السبب بطل العجب. والمعنى تعجبوا من سمعهم وأبصارهم حيث لا ينفعهم ذلك. فهي كقوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]، أفاده الشهاب.

وهذه طريقة المتكلمين في تأويل ما يشترك في الإضافة إليه تعالى وإلى خلقه من الصفات المروية. وطريقةُ السلف المحققين إثباتُ ما ورد به السمع مع نفي التشبيه. إذ لا اتحاد بين صفات الخالق وصفات المخلوق. فما يضاف إليه تعالى هو على النحو الذي يجب أن يكون عليه جل جلاله. فما يقدر في حق المخلوقين من الصفات مستلزماً للمحال، لا يجب أن يكون في حقه تعالى مستلزماً لذلك. كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا، يستلزم النقص والحاجة، ما يجب تنزيه الله عنه. وكذلك الوجود والقيام بالنفس فينا، يستلزم احتياجاً إلى خالق يجعلنا موجودين. والله منزه في وجوده عما يحتاج إليه وجودنا. فنحن وصفاتنا وأفعالنا. مقرونون بالحاجة إلى الغير. والحاجة لنا أمر ذاتيّ لا يمكن أن يخلو عنه. وهو سبحانه، الغِنَى له أمر ذاتيّ لا يمكن أن يخلو عنه. فهو بنفسه حيّ قيوم واجب الوجود، ونحن بأنفسنا محتاجون فقراء. فإذا كانت ذاتنا وصفاتنا وأفعالنا وما اتصفنا به من الكمال، من العلم والقدرة وغير ذلك، هو مقرون بالحاجة والحدوث والإمكان، لم يجب أن لا يكون لله ذات ولا صفات ولا أفعال، وأن لا يقدر ولا يعلم. لكون ذلك ملازماً للحاجة فينا. فكذلك كل ما جاء به السمع من الصفات، إذا قدر أنه في حقنا ملازم لحاجة وضعف، لم يجب أن يكون في حق الله تعالى ملازماً لذلك. هذا ما قرره الإمام تقيّ الدين بن تيمية في خلال بعض فتاويه. وكلامه هذا بمثابة القاعدة الكلية لأمثال هذا الموضوع. فاحفظه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي فرغ من الحساب وفصل بين أهل الجنة والنار، وصار كلٌّ إلى ما صار إليه مخلداً فيه ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي وهم اليوم مستغرقون في غفلة عما يفعل بهم في الآخرة ﴿وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون به اليوم وسيعاينونه. ثم أمر تعالى رسوله أن يتلو عليهم نبأ إبراهيم لكونهم ينتمون إليه فيعتبروا في توحيده الخالص، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً﴾ بليغ التصديق بما يجب لله من الوحدانية والتنزيه ﴿نَبِيّاً إِذْ قَالَ لأَبِيهِ﴾ أي مُتَلَطِّفاً في دعوته إلى التوحيد ونهيه عن عبادة الأصنام ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً﴾ أي فلا يدفع ضراً ولا يجلب نفعاً.

قال أبو السعود: ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج، وأقوم سبيل. واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل. لئلا يركب متن المكابرة والعناد. ولا ينكب، بالكلية، عن محجة الرشاد. حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل، من عالم وجاهل ويأبى الركون إليه، فضلاً عن عبادته التي هي الغاية القاصية من التعظيم. مع أنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام، والإنعام العام. الخالق الرازق المحيي المميت المثيب المعاقب. ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل، لداعية صحيحة وغرض صحيح. والشيء لو كان حيّاً مميزاً سميعاً بصيراً، قادراً على النفع والضر، مطيقاً بإيصال الخير والشر، لكن كان ممكناً، لاستنكف العقل السليم عن عبادته. وإن كان أشرف الخلائق. لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة. فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر، ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر؟.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾

﴿يا أبَتِ إنّي قَدْ جاءَني مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يأْتكَ﴾ أي وحق القاصر اتباع الإنسان الكامل ﴿فاتَّبِعْني أهْدِكَ صِراطاً سَوِيّاً﴾ أي معتدلاً لا إفراط فيه بعبادة من لا يستحق، ولا تفريط بترك عبادة من يستحق، وكذا في باب الأخلاق والأعمال. قال المهايميّ: أي وإن كان حق الابن اتباع الأب في العرف، لكنه باطل. لأن الحق اتباع الصواب.

قال الزمخشريّ: ثَنّى عليه السلام بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً. فلم يسِمْ أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق. ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك، وذلك علِم الدلالة على الطريق السويّ. فلا تستنكف. وهب أني وإياك في مسير، وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾

﴿يا أبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ، إنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيّاً﴾.

ثلّث عليه السلام بتثبيطه ونهيه عما كان عليه، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل، ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة، مستجلب لضرر عظيم، فإنه في الحقيقة عبادة الشيطان. لما أنه الآمر به والمسوّل له، وقوله: ﴿إنَّ الشَّيْطانَ﴾ الخ تعليل لموجب النهي وتأكيد له، ببيان أنه مستعص على ربك الذي أنعم عليك بفنون النعم. ولا ريب في أن المطيع للعاصي عاص. والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير. والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته، لأنه ملاكها. والتعرض لعنوان الرحمانية، لإظهار كمال شناعة عصيانه. أفاده أبو السعود.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾

﴿يا أبَتِ إنّي أخافُ أن يَمسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ لكونك عصيته وواليت عدوّه، فيقطع رحمته عنك، كما قطعها عن الشيطان ﴿فتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيّاً﴾ أي مقارناً له ومشاركاً معه في عذابه.

قال الزمخشريّ: ربَّعَ عليه السلام بتخويفه سوء العاقبة، وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال. ولم يخل ذلك من حسن الأدب، حيث لم يصرّح بأن العقاب لاحق له، وأن العذاب لاصق به، ولكنه قال ﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ فذكر الخوف والمس ونكّر العذاب. وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه، أكبر من العذاب. وصدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله ﴿يا أبَتِ﴾ توسلاً إليه واستعطافاً. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾

﴿قَالَ﴾ أي أبوه، مصراً على عناده لفرط غلوّه في الضلال ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إبراهيمُ﴾ أي: أمعرض ومنصرف أنت عنها. وإنما قدم الخبر على المبتدأ، لأنه كان أهم عنده. وصدّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة، على ضرب من التعجب. كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل، فضلاً عن ترغيب الغير عنها. وفيه تسلية للرسول صلوات الله عليه، عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه.

وقوله ﴿لَئِن لَمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ﴾ تهديد متناه. أي لئن لم تنته عن القول فيها، وعن نصحك، لأرجمنك بالحجارة ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ أي تباعد عني زماناً طويلاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾

﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾ أي مبالغاً في اللطف بي. وفي جوابه بقوله عليه السلام ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾ مقابلة السيئة بالحسنة. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً﴾ [الفرقان:٦٣]، أي لا أصيبك بمكروه بعدُ. ولكن سأدعو ربي أن يغفر لك. كما قال: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي﴾ [الشعراء:٨٦]، قال الزمخشريّ: وفي الآية دليل على جواز متاركة المنصوح، والحال هذه. ويجوز أن يكون دعا له بالسلامة، استمالة له. ألا ترى أنه وعده بالاستغفار؟

وفي (الإكليل): استدل بعضهم بالآية على جواز ابتداء الكافر بالسلام.

وقال ابن كثير: قد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام. وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق في قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِر

لِي ولِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١]، وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام. وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك. حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[الممتحنة:٤]، يعني إلا في هذا القول، فلا تتأسّوا به. ثم بيّن تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه، فقال تعالى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣-١١٤]، وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أي أتباعد عنك وعن قومك بالهجرة **﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾** أي من أصنامكم.

قال الزمخشريّ: المراد بالدعاء العبادة، لأنه منها ومن وسائطها. ومنه قوله ﷺ(١): الدعاء هو العبادة. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم:٤٩]، **﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي﴾** أي أعبده وحده **﴿عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾** أي خائباً ضائع السعي. وفيه تعريض بشقاوتهم بدعاء آلهتم، مع التواضع لله بكلمة **﴿عَسَى﴾**، وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة بطريق التفضل منه تعالى.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وذلك بالمهاجرة إلى الشام **﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيّاً﴾** أي جعلنا له بنين وحفدة، أنبياء قرّت عينه بهم في حياته. بدلَ من فارقهم من أقربائه الكفرة الفجرة. وقوله تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٢- سورة البقرة، ١٦- حدثنا هناد، عن النعمان بن بشير.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

﴿ووَهَبْنَا لَهُم من رَحْمَتنا﴾ أي ما عُرف فيهم من النبوّة والذرية وسعة الرزق وحوزة الأرض المقدسة ﴿وَجعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً﴾ أي ثناءً حسناً. عبّر بـ(اللسان) عما يوجد باللسان. كما عبّر بـ (اليد) عما يطلق باليد وهي العطية. وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلوّ، للدلالة على أنهم أحقاء بما يثني عليهم، وأن مجاهدتهم لا تخفى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً﴾ بكسر اللام أي أخلص العبادة عن الشرك، وأسلم وجهه للّه. وقرئ بفتحه. أي أخلصه اللّه، أي اصطفاه، كما قال ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلى النَّاسِ﴾ [الأعراف:١٤٤]، ﴿وكَان رَسُولاً نبِيّاً وَنَادَيْنَاهُ من جَانِبِ الطُّورِ الأيْمَنِ﴾ أي من جانبه الأيمن من موسى، حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة، فرآها تلوح فقصدها فوجدها ثمة. فنودي عندها ﴿وقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾ أي مناجياً، أي كليما. إذ كلمناه بلا واسطة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

﴿ووَهَبْنَا لَهُ من رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾ ليشد أزره في أداء الرسالة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ وهو ابن إبراهيم عليهما السلام. وإنما فَصَل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه، لإبراز كمال الاعتناء بأمره، بإيراده مستقلاً. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ صادِقَ الْوَعْدِ﴾ تعليل للأمر. وإيرادُه عليه السلام بهذا الوصف، وإن شاركه فيه

بقية الأنبياء، تشريفاً له وإكراماً. ولأنه المشهور من خصاله. وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر على الذبح، فوفّى به حيث قال: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وهذا أعظم ما يتصور فيه. وفيه تنبيه بعظم هذه الخلة. ولذا كان ضدها نفاقاً، كما صرّحت به الأخبار. ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ أي كان يبدأ أهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم. ولأنهم أولى من سائر الناس ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ ﴾ [طه: ١٣٢]، ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ [التحريم: ٦]، الا ترى أنهم أحق بالتصدق عليهم؟ فالإحسان الدينيّ أولى. أفاده الزمخشريّ. ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ أي لاتصافه بالنعوت الجليلة التي منها ما ذكر. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ هو شرف النبوّة والزلفى عند اللّه تعالى. فالعلوّ معنويّ. أو رفعه بجسده حيّاً إلى السماء. قال الشهاب: قيل: والثاني أقرب لأن الرفعة المقترنة بالمكان لا تكون معنوية، وفيه نظر لأنه ورد مثله بل ما هو أظهر منه، كقوله:

وكن في مَكان إِذَا مَا سَقَطْتَ ... تَقُومُ وَرِجْلاكَ فِي عَافِيَهْ

انتهى. ومما يؤيد الثاني ما روي في الصحيحين[١] عن أنس في حديث المعراج؛ أنه صلوات اللّه عليه رأى إدريس في السماء الرابعة. وإدريس هو إلياس الآتي ذكره في سورة الصافات. ويسمى في التوراة إيليا. ولرفعه إلى السماء فيها نبأ عجيب، قد يكون التنزيل الكريم في هذه الآية أشار إليه واللّه أعلم. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)

---

(١) أخرجه البخاري في: مناقب الأنصار، ٤٢- باب المعراج، حديث رقم ١٥١٣، عن مالك بن صعصعة.

وأخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ٢٦٤.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس عليه السلام. وما فيه من معنى البعد، للإشعار بعلوّ رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل. وقوله تعالى ﴿الَّذين أنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أي بفنون النعم الدينية والدنيوية ﴿مِنَ النَّبِيِّين من ذُرِّيَّةِ ءادَمَ وَممَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّة إبْراهِيمَ وَإسْرائيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنا﴾ أي هديناهم للحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة ﴿إذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ أي إذا سمعوا كلام اللّه المتضمن حججه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة. مع ما لهم من علوّ الرتبة. وسموّ الزلفى عنده تعالى. وفي الآية استحباب السجود والبكاء عند سماع التلاوة.

قال ابن كثير: أجمع العلماء على مشروعية السجود ههنا، اقتداء بهم، واتباعاً لمنوالهم. وروى ابن جرير[1] وابن أبي حاتم: أن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قرأ سورة مريم فسجد. وقال: هذا السجود فأين البُكي.

ولما ذكر تعالى حزب السعداء، وهم الأنبياء ومن اتبعهم من القائمين بحدود اللّه وأوامره ذكر من نبذ دعوتهم ممن خلفهم، وما سينالهم، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾

﴿فَخَلَفَ من بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أضَاعُوا الصَّلاةَ﴾ وقرئ (الصلوات) بالجمع أي المتضمنة للسجود والأذكار، المستدعية للبكاء. وإذا أضاعوها، فهم لما سواها من الواجبات أضيع. لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد ﴿واتَّبَعُوا الشَّهَوَات﴾ أي فأتوا بما ينافي البكاء والأمور المرضية من الأخلاق والأعمال، من الانهماك في المعاصي التي هي بريد الكفر ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ أي شرّاً. قال الزمخشريّ: كل شر عند العرب غيّ، وكل خير رشاد. قال المرقش:

فمن يلقَ خيراً يحمَدِ الناسُ أمرَهُ ومن يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغيّ لائمَا

أي من يفعل خيراً، يحمد الناس أمره. ومن يفعل الشر لا يعدم اللوائم على فعله. وقيل: أراد الشاعر بالخير المال. وبالغي الفقر أي ومن يفتقر. ومنه القائل:

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي. ولأمّ المخطئ الهَبَلُ

أي الثكل. ويجوز أن يكون المعنى جزاء غيّ. كقوله تعالى: ﴿يَلْقَ أثَاماً﴾ [الفرقان:٦٨]، أي شرّاً وعقاباً. فأطلق عليه كما أطلق الغيّ على مجازاته المسببة

عنه، مجازاً. أو ﴿غيّاً﴾ ضلالاً عن طريق الجنة. فهو بمعناه المشهور.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾

﴿**إلاَّ مَن تَابَ**﴾ أي عن ترك الصلوات واتباع الشهوات ﴿**وَءامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظلَمُونَ شَيْئاً جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ**﴾ متعلق بمضمر العائد إلى الجنات. أو من (عباده) أي وعدها إياهم ملتبسة أو ملتبسين بالغيب. أي غائبة عنهم غير حاضرة. أو غائبين عنها لا يرونها، وإنما آمنوا بها بمجرد الأخبار. أو بمضمر هو سبب للوعد أي وعدها إياهم بسبب إيمانهم، أفاده أبو السعود ﴿**إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً**﴾ أي لا يخلفه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

﴿**لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إلاَّ سَلاَماً**﴾ أي لا يسمعون فيها فضول كلام لا طائل تحته. وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها. قال الزمخشريّ رحمه الله: فيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه. حيث نزه الله عنه الدار التي لا تكليف فيها. وما أحسن قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً﴾ [الفرقان: ٧٢]، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا.

ومعنى ﴿**إلاَّ سَلاَماً**﴾ أي تسليماً. تسليم الملائكة عليهم، أو بعضهم على بعض، على الاستثناء المنقطع كما قال: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]، ﴿**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً**﴾ وهم المتصفون بشعب الإيمان، المسرودة في مواضع شتى من آي القرآن. ولما قص سبحانه من أنباء الأنبياء عليهم السلام ما قص، مثبتاً له، وعقبه بما أحدثه الخلف، وذكر جزاءهم - عقبه بحكاية نزول جبريل عليه

السلام، رداً لما زعمه المشركون من أنه كان يقلوه فلا يزوره، تسلية له ﷺ، وإعلاماً بأن الحال ليس على ما زعمه هؤلاء الخلف. فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً**﴾ أي ينسى شيئاً ما، بل لا يفيض علماً ولا ينزل ملكاً إلا لحكمة يستعد لها الحال، أي فليس عدم النزول إلا لعدم الأمر به، ولم يكن لتركه تعالى لك وتوديعه إياك. وفي إعادة اسم (الرب) المعرب عن التبليغ إلى الكمال اللائق، مضافاً إلى ضميره عليه السلام، من تشريفه والإشعار بعلة الحكم، ما لا يخفى. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

﴿**رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**﴾ أي من التوابع والنجيمات والسحب وغير ذلك.

قال بعض علماء الفلك: الآية تدل على أن السموات أكثر من سبع. وأن ذكر السبع ليس للحصر كما قدمناه في البقرة، من أن السموات عني بها الكواكب، والأرض كوكب منها. قال أبو السعود: الآية بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى. فإن من بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما، كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحاته الغفلة والنسيان. وهو خبر محذوف. أو بدل من (ربك). ﴿**فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ**﴾ أي اثبت لها على الدوام. وقوله ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً**﴾ أي مثلاً وكفؤاً، فتلتفت إليه وتقبل بوجهك نحوه، فيفيض عليك مطلوبك. والجملة تقرير لوجوب عبادته وحده. أي إذا صح أن لا مثل له، ولا يستحق العبادة غيره، لم يكن بدٌّ من التسليم لأمره، والقيام بعبادته، والاصطبار على مشاقّها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَقُولُ الْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾

﴿**وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَءِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً**﴾ أي يقول بطريق الإنكار والاستبعاد: أأخرج حياً بعد ما لبثت في القبر مدة.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾

﴿ أَوَ لاَ يَذْكُرُ الإنسانُ أنَّا خلقْناهُ مِن قَبْلُ ولَمْ يكُ شيْئاً ﴾ أي قبل جعله تراباً ونطفة. وكان عدماً صرفاً لا وجود له في الأعيان. فلا تبعد إعادته.

قال أبو السعود: وفي الإظهار موضع الإضمار، زيادة التقرير بأن الإنسانية من دواعي التفكر فيما جرى عليه من شؤون التكوين المنخية بالقلع عن القول المذكور. وهو السرّ في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان. أي ما أعجب الإنسان في إنكاره وعدم تذكره لما ذكر، وهو الذي أعطى العقل لينظر في العواقب، وأنعم عليه بخلق السموات والأرض وما بينهما، ليعرف المنعم فيشكره، ويعبده فيجازى على فعله.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾

﴿ فوربِّكَ لنحْشُرَنَّهمْ والشَّياطِينَ ﴾ أي لنحشرن المنكرين للبعث مع الشياطين الذين أغووهم وأضلوهم عن الحق ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جهنَّمَ جثِيّاً ﴾ جمع (جاث). من (جثا) إذا قعد على ركبتيه. وذلك لهول المطلع. فلا يستطيعون قياماً. كقوله تعالى ﴿ وتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً ﴾ [الجاثية:٢٨].

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾

﴿ ثُمَّ لَننزِعَنَّ مِن كُلِّ شيعةٍ أَيُّهمْ أشدُّ على الرَّحْمَنِ عِتياً ﴾ أي لنخرجن إلى النار، من كل فرقة، الذي هو أشد على الرحمن، الذي رحمه بإنزال الكتاب وإرسال الرسول وتعريف مضار الشهوات بالعقل والنقل، ﴿ عِتياً ﴾ أي جراءة بإيثار الشهوات على أمره وعدم مبالاته به.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾

﴿ ثُمَّ لَنحْنُ أعْلَمُ بالَّذِينَ هُمْ أوْلَى بِهَا صِلِياً ﴾ وهم المنتزعون. فإنهم أولى الشيع.

إذ ضلوا وأضلوا، لأجل لذّات الدنيا وشهواتها. فصاروا أولى بالصليّ بها. فيخصّون بعذاب مضاعف.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾

﴿ وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ أي ليس أحد منكم، من برّ وفاجر، إلا وهو يَرِدُها. ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِياً ﴾ أي حكماً جزماً مقطوعاً به.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

﴿ ثُمَّ ﴾ أي بعد الورود والإحضار للتعريف ﴿ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً ﴾ أي لا يمكنهم التجاوز عنها.

قال الزمخشريّ: فيه دليل على أن المراد بالورود، الجثوّ حواليها. وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة، بعد تجاثيهم. وتبقى الكفرة في مكانهم جاثين.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءايَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً ﴾ أي موضعاً ومكاناً ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ أي مجتمعاً للقوم، والمعنى أن هؤلاء الكفرة إذا تليت عليهم آياته تعالى بينة الحجة واضحة البرهان على مقاصدها، أعرضوا وأخذوا يحتجون على فضل ما هم عليه بكونهم أوفر حظاً من الدنيا، لكونهم أحسن منازل وأرفع دوراً وأعمر نادياً وأكثر طارقاً وواردأً، أي فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون في دار الأرقم بن أبي الأرقم على الحق؟ كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف:١١]، وقال قوم نوح ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء:١١١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُواْ أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِن بَيْنِنَا، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾. [الأنعام:٥٣].

وكذلك رد عليهم شبهتهم بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم من قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً﴾ أي متاعاً ﴿وَرِءْياً﴾ أي منظراً وهيئة، من عظم الجاه، فما أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً. كما قال تعالى عن قوم فرعون المغرقين ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٦]، و ﴿رِءْياً﴾ فِعل بمعنى مفعول كالطِّحن.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً﴾ أي من كان مغموراً بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور. وهم المذكورون قبلُ، ومن شاكلهم، ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ أي يمدّ له ويمهله بطول العمر وإعطاء المال. وإخراجُه على صيغة الأمر للإيذان بأن ذلك مما ينبغي أن يفعل بموجب الحكمة، لقطع المعاذير. كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَا يَتَذَكَّرُ فيه مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر:٣٧]، أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقيل المراد به الدعاء بالمد والتنفيس والإمهال. أي فأمهله الله فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضي أجله، إما بعذاب يصيبه، وإما الساعة بغتة. وقد بيّن سبحانه غاية المد بقوله:

﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً﴾ أي فئة وأنصاراً.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أي الأعمال التي تبقى

فوائدها ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً﴾ أي مرجعاً. وتكرير (الخير) لمزيد الاعتناء ببيانه.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾

﴿أَفَرَءيْتَ الَّذِي كَفَرَ بَآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ﴾ أي في الآخرة ﴿مَالاً وَوَلَداً﴾ أي انظر إلى هذا القائل المجترئ على الغيب، ما أكفره!

القول في تأويل قوله تعالى:

أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ أي بذلك، لأنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

﴿كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي نحفظه عليه للمُؤاخَذَة به ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً﴾ بمضاعفته له، جزاءً لاستهزائه ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي ننزع عنه ما آتيناه من مال وولد، فلا يبقيان له حتى يمكنها قطع العذاب عنه ﴿وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾ أي في الحشر، لا يصحبه مال ولا ولد. فما يجدي عليه تمنّيه وتألّيه.

وقد روى البخاري[1]: عن خباب رضي الله عنه، قال: كنت قيناً - حدّاداً - في الجاهلية بمكة. فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أتقاضاه فقال: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. قلت: لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث. قال. فذرني حتى أموت، ثم أبعث فسوف أوتَى مالاً وولداً فأقضيك. فنزلت الآية. قال ابن عباس: فضرب الله مثله في القرآن.

(١) أخرجه البخاري في: البيوع، ٢٩- باب ذكر القين والحداد، حديث رقم ١٠٦٠.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾

﴿وَاتَّخَذُوا من دُونِ اللَّهِ ءالِهَةً لِيكُونُواْ لَهُمْ عِزاً﴾ أي ليتعززوا بهم، بأن يكونوا لهم وصلة إليه عزّ وجلّ، وشفعاء عنده.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾

﴿كَلاَّ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، ولا يكون ما طمعوا ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي ستجحد الآلهة استحقاقهم للعبادة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً﴾ أي يريدون إهلاكهم، إذ أوقعوهم في هلاك دعوى الشرك، كما قال تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ، فَأَلْقَواْ إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل:٨٦]، قيل: المراد بالآلهة من عُبِدَ من ذوي العلم. لإطلاق ضمير العقلاء عليهم ونطقهم. وقيل: الأصنام. بأن يخلق الله فيهم قوة النطق، فيطلق عليهم ما يطلق على العقلاء. وقيل: الأعم منهما، وهو الأظهر.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي بان سلّطناهم عليهم ومكّنّاهم من إضلالهم. أو قيضناهم لهم يغلبون عليهم ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزاً﴾ أي تغريزهم وتهيجهم على المعاصي، بالتسويلات وتحبيب الشهوات، تهيجاً شديداً.

قال الزمخشريّ: الأز والهز والاستفزاز أخوات. ومعناها التهييج وشدة الإزعاج والمراد تعجيب رسول الله ﷺ، بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار، وأقاويلهم وملاحاتهم ومعاندتهم للرسل، واستهزاؤهم واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشك عنه، وانهماكهم لذلك في اتباع الشياطين وما تسوّل لهم. فهذه الآية كالتذييل لما قبلها وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾

﴿فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي بوقوع العذاب بهم لتطهر الأرض منهم. و(الفاء) للإشعار بكون ما قبلها مظنة لوقوع المنهيّ عنه، محوجة إلى النهي. يقال: عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾ تعليل لموجب النهي، ببيان اقتراب هلاكهم. أي إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَعْجِل لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِن نَهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

قال الشهاب: العدّ كناية عن القلة. وقلته لتقضّيه وفنائه، كما قال المأمون (ما كان ذا عدد، ليس له مدد، فما أسرع ما نفد) ولا ينافي هذا ما مرَّ من أنه يمد لمن كان في الضلالة. أي يطوّل. لأنه بالنسبة لظاهر الحال عندهم. وهو قليل باعتبار عاقبته وعند الله. ولله در القائل:

إن الحبيبَ من الأحباب مختلَسُ ... لا يمنع الموتَ بوّابٌ ولا حَرَسُ
وكيف يفرحُ بالدنيا ولذّتِها ... فتى يُعَدّ عليه اللفظُ والنَّفَسُ

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً﴾ أي وافدين عليه. وأصل الوفود القدوم على العظماء للعطايا والاسترفاد. ففيه إشارة إلى تبجيلهم وتعظيمهم، المزورِ والزائرِ.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ اي عطاشاً. وفي ذكرهم بالسَّوْق إشعار بإهانتهم واستخفافهم. كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء. والورد: الذهاب إلى الماء، ويطلق على الذاهبين إليه. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ الضمير لأصنامهم المتقدم

ذكرها في قوله: ﴿ وَاتَّخَذُواْ من دُونِ اللَّه ءَالِهَةً ﴾ [مريم: ٨١]، ردٌّ على عابديهم في دعواهم أنهم شفعاؤهم عند اللّه. واتخاذ العهد هو الإيمان والعمل الصالح. أي لكن من آمن وعمل صالحاً فإنه يشفع للعصاة على ما وعد اللّه تعالى. وجوز أن يكون (العهد) بمعنى الإذن والأمر. يقال: أخذت الإذن في كذا واتخذته بمعنى. من باب (عهد الأمير إلى فلان بكذا) إذا أمره به. أي لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة، المأذون له فيها. وتعضده مواضع في التنزيل ﴿ وكَم من مَلَكٍ في السَّموَات لاَ تُغْني شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ من بَعْد أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لمَن يَشاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم: ٢٦]، ﴿ ولاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عندَهُ إِلاَّ لمَنْ أَذنَ لَهُ ﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿ يَوْمَئذ لاَ تنفعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ورَضيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ [طه: ١٠٩]، ونحو هذه الآية قوله تعالى ﴿ وَلاَ يَمْلكُ الَّذينَ يَدْعُونَ من دُونه الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهدَ بالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦]، ولما قرر تعالى في هذه السورة عبودية عيسى عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، عطف عليه حكاية جنايتهم من دعوى البنوّة له، مهولاً لأمرها. وكذا جناية أمثالهم من اليهود والعرب ممن يسمي بعض المخلوقات ابناً أو بنتاً له، تعالى وتقدّس - عطف قصته على قصته بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾

﴿ **وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئتُمْ شَيْئاً إدّاً** ﴾ أي عظيماً منكراً. وفي رد مقالتهم وتهويل أمرها بطريق الالتفات، إشعار بشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع، والتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجراءة والجهل. ثم وصف شدة شأن مقولهم بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾

﴿ **تَكَادُ السَّموَاتُ يَتفطَّرنَ منْهُ** ﴾ أي يتشقّقن ﴿ **وَتَنشقُّ الأَرْضُ وَتَخرُّ الْجِبَالُ هَدّاً أن** ﴾ أي لأن ﴿ **دَعوْاْ للرَّحْمَنِ وَلَداً** ﴾ وذلك لغيرتها على المقام الربانيّ الأحديّ أن ينسب له ما ينزه عنه ويشعر بحاجته ووجود كفء له وفنائه. وذلك لأن الولادة إنما

تكون من الحيّ الذي له مزاج. وما له مزاج فهو مركب ونهايته إلى انحلال وفناء، وهو سبحانه تنزه عن ذلك، كما قال: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ أي مملوكاً له يأوي إليه بالعبودية والذل.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَداً﴾ أي حصرهم وأحاط بهم إحاطة لا يخرج بها أحد عن حيطة علمه وقبضة قدرته ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ أي منفرداً مجرداً من الأتباع والأنصار، وعمن زعم أن له من الشفعاء. فإنهم منهم برآء. ولما فصل مساوئ الكفرة، تأثره بمحاسن البررة، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ أي يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة، من غير تعرض للأسباب التي تكسب الود. كذا قالوا في تأويله. وقال أبو مسلم: معناه أنه يهب لهم ما يحبون. قال: والود والمحبة سواء. آتيت فلاناً محبته. وجعل لهم ما يحبون وجعلت له وده. ومن كلامهم: وددت لو كان كذا. أي أحببت. فمعناه سيعطيهم الرحمن ودهم أي محبوبهم في الجنة. ثم قال أبو مسلم: وهذا القول الثاني أولى لوجوه: أحدها ـ كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم المتقي يبغضه الكفار وقد يبغضه كثير من المسلمين؟ وثانيها ـ أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر، فكيف يمكن جعله إنعاماً في حق المؤمنين؟ وثالثها ـ أن محبتهم في قلوبهم من فعلهم. فكان حمل الآية على إعطاء المنافع الأخروية أولى. انتهى. وقد حاول الرازيّ التمويه في اختيار الأول والجواب عن الثاني. والحق أحق. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي سهلنا هذا القرآن بلغتك ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أي الذين اتقوا عقاب الله، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، بالجنة ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾

أي تخوف بهذا القرآن عذاب الله قومك من بني قريش. فإنهم أهل لدد وجدل بالباطل، لا يقبلون الحق (واللدد) شدة الخصومة. والباء في قوله ﴿بِلِسَانِكَ﴾ بمعنى (على). أي على لغتك. أو ضمّن (التيسير) معنى (الإنزال) أي يسرنا القرآن، منزلين له بلغتك، ليسهل تبليغه وفهمه وحفظه.

قال الزمخشريّ: هذه خاتمة السورة ومقطعها. فكأنه قال: بلّغ هذا المنزل، أو بشر به وأنذر، فإنما أنزلناه الخ، أي فالفاء لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم.

وقال الرازيّ: بيّن به بهذا، عظيم موقع هذه السورة، لما فيها من التوحيد والنبوّة، والحشر والنشر، والرد على فرق المضلين المبطلين. وأنه يسَّر ذلك لتبشير المتقين وإنذار من خالفهم، وقد ذكرهم بأبلغ وصف سَيِّء وهو اللدد. لأن الألد الذي يتمسك بالباطل ويجادل فيه.

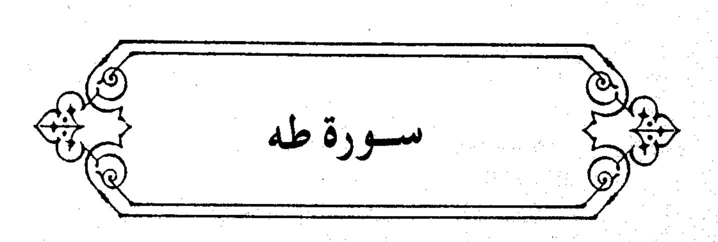
ثم إنه تعالى ختم هذه السورة بموعظة بليغة، فقال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ﴾ أي قوم لُدٌّ، مثل هؤلاء، إهلاكاً عظيماً ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ أي تشعر به وتراه ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ أي صوتاً خفياً. والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم دورهم وأوحشت منهم منازلهم. وكذلك هؤلاء صائرون إلى ما صار إليه أولئك، إن لم يتداركوا بالتوبة.

بسم الله الرحمن الرحيم



وهي مكية. وقيل: إلاَّ قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [طه:١٣٠] الآية. وقوله: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه:١٣١] الآية، وآياتها مائة وخمس وثلاثون.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾

﴿طه﴾ قدمنا أن الحق في هذه الحروف التي افتتحت بها سورها، أنها أسماء لها. وفيه إشارة إلى أنها مؤلفة منها. ومع ذلك ففي عجزهم عن محاكاتها أبلغ آية على صدقها. ونبه الإمام ابن القيم رحمه الله على نكتة أخرى في (الكافية الشافية) بقوله:

وانظر إلى السور التي افتتحت بأحْـ	رفها ترى سراً عظيم الشان
لم يأت قط بسورة إلا أتى	في إثرها خبر عن القرآن
إذ كان إخباراً به عنها. وفي	هذا الشفاءُ لطالب الإيمان
ويدل أن كلامه هو نفسها	لا غيرها، والحق ذو تبيان
فانظر إلى مبدا الكتاب وبعدها الـ	أعراف ثم كذا إلى لقمان
مع تلوها أيضاً ومع حَمَ مع	يسَ وافهم مقتضى الفرقان

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى﴾ أي لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسرك على أن يؤمنوا و(الشقاء) في معنى التعب. ومنه المثل: أشقى من رائض مهر.

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ أي تذكيراً له. أي ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ﴾ لتتعب بتبليغه، ولكن تذكرة لمن في قلبه خشية ورقة يتأثر بالإنذار. والقصد أنه ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة. وقد جرت السنة الإلهية في خطاب الرسول في مواضع من التنزيل، أن ينهاه عن الحزن عليهم وضيق الصدر بهم، كقوله تعالى: ﴿فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ [الأعراف:٢]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ﴾ [الكهف:٦]، ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [آل عمران:١٧٦]، وهذه الآية من هذا الباب أيضاً.

وفي ذلك كله من تكريم الرسول صلوات الله عليه، وحسن العناية به والرأفة، ما لا يخفى. ثم أشار إلى تضخيم شأن هذا المنزل الكريم، لنسبته إلى المتفرد بصفاته وأفعاله، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾

﴿ **تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ** ﴾ قرئ بالرفع على المدح. أي هو الرحمن. وبالجر على أنه صفة للموصول. وقوله ﴿ **عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾ أي علا وارتفع. قاله ابن جرير. وقدذهب الخلف إلى جعل ذلك مجازاً عن الملك والسلطان. كقولهم (استوى فلان على سرير الملك) وإن لم يقعد على السرير أصلاً.

وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضاً.

قال ابن كثير: والمسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف، من إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة، من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل.

وقد أسلفنا ما حققته أئمة الفلك الحديث؛ من أن العرش جرم حقيقيّ موجود. وأنه مركز العوالم كلها. أي مركز الجذب والتدبير والتأثير والنظام.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾

﴿ **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى** ﴾.

بيان لشمول قهره وملكته للكل. أي كلها تحت ملكته وقهره وسلطنته وتأثيره. لا توجد ولا تتحرك ولا تسكن ولا تتغير ولا تثبت إلا بأمره.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾

﴿ **وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى** ﴾.

بيان لكمال لطفه. أي علمه نافذ في الكل. يعلم ظواهرها وبواطنها والسر وسر السر. فكذلك إن تجهر وإن تخفت، فيعلمه بجهر وخفت.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

﴿**اللَّهُ**﴾ أي ذلك المُنْزل الموصوف بهذه الصفات هو اللّه ﴿**لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ أي الفضلى، لدلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسن. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾

﴿**وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسَى**﴾ من عطف القصة أو استئناف. والقصد تقرير أمر التوحيد الذي انتهى إليه الآية قبله، ببيان أنه دعوى كل نبيّ لا سيما أشهرهم نبأ، وهو موسى عليه السلام. فقد خوطب بقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ [طه:١٤] وبه ختم تعالى نبأه في هذه السورة بقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [طه:٩٨]، أو تقرير لسعة علمه المبين في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ [طه:٧] الخ لقوله بعدُ ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [طه:٩٨]، أو لهما معاً. أو لحمله، صلوات اللّه عليه، على التأسي بموسى في الصبر والثبات. لكونه ابتلي بأعظم من هذا فصبر، وكانت العاقبة له. وقد أشير في طليعة نبأ موسى عليه السلام، إلى كيفية ابتداء الوحي إليه، وتكليمه تعالى إياه. وذلك بعد أن قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم. وصار بأهله قاصداً بلاد مصر، بعد ما طالت غيبته عنها ومعه زوجته. فأضلّ الطريق. وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء. وبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً، كما قصه تعالى بقوله: ﴿**إِذْ رَءَا نَاراً فَقَالَ لأَهْلِه امْكُثُواْ إِنِّي ءانَسْتُ نَاراً**﴾ أي أبصرتها إبصاراً بيّناً لا شبهة فيه ﴿**لَعَلِّي ءاتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ**﴾ أي بشعلة مقتبسة تصطلون بها: ﴿**أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً**﴾ أي هادياً يدلني على الطريق.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾

﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا**﴾ أي النار ﴿**نُودِيَ يَامُوسَى إِنِّي أَنَاْ رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ**

﴿الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾ أي فيجب فيه رعاية الأدب، بتعظيمه واحترامه لتجلي الحق فيه، كما يراعى أدب القيام عند الملوك (وطُوىً) اسم للوادي.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ أي اصطفيتك للنبوة ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ أي للذي يوحي. أو للوحي. ثم بينه بقوله ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدْنِي﴾ أي خصني بالعبادة ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ أي لتذكرني فيها بقلبك ولسانك وسائر جوارحك، بأن تجعل حركاتها دالة على ما في القلب واللسان. قال أبو السعود: خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالأمر بالعبادة، لفضلها وإنافتها على سائر العبادات، بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره. وذلك قوله تعالى ﴿لِذِكْرِي﴾ أي لتذكرني. فإن ذكري كما ينبغي لا يتحقق إلا في ضمن العبادة والصلاة. أو لتذكرني فيها لاشتمالها على الأذكار. أو لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري. أو لإخلاص ذكري وابتغاء وجهي. لا ترائي بها، ولا تقصد بها غرضاً آخر. أو لتكون ذاكراً لي، غير ناس. انتهى.

ثم أشار إلى وجوب إفراده بالعبادة وإقامة الصلاة لذكره، بقوله ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ أي واقعة لا محالة ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ أي بسعيها عن اختيار منها. واللام متعلقة بـ (آتية). ولما كان خفاء الساعة من اليقينيات وفي (كاد) معنى القرب من ذلك، لعدم وضعها للجزم بالفعل، تأولوا الآية على وجوه:

أحدها – أن (كَادَ) منه تعالى واجب. والمعنى أنا أخفيها عن الخلق. كقوله ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ [الإسراء: ٥١]، أي هو قريب.

ثانيها – قال أبو مسلم: (أَكَادُ) بمعنى أريد كقوله: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦].

ومن أمثالهم المتداولة (لا أفعل ذلك ولا أكاد) أي ولا أريد أن افعله. قال الشهاب: تفسير (أَكَادُ) بـ (أريد) هو أحد معانيها. كما نقله ابن جني في (المحتسب) عن الأخفش. واستدلوا عليه بقوله.

كادتْ وكدتُ وتلك خيرُ إرادةٍ لو عاد من لَهْوِ الصَّبابةِ مَا مَضَى

بمعنى أرادت. لقوله (تلك خير إرادة).

ثالثها - ان (أَكَادُ) صلة في الكلام. قال زيد الخيل.

سريعٌ إلى الهيجاء شاكٍ سلاحُهُ فما إنْ يَكَادُ قِرْنُهُ يَتَنَفَّسُ

رابعها - أن المعنى أكاد أخفيها فلا أذكرها إجمالاً ولا أقول هي آتية. وذلك لفرط إرادته تعالى إخفاءها. إلا أن في إجمال ذكرها حكمة، وهي اللطف بالمؤمنين، لحثهم على الأعمال الصالحة، وقطع أعذار غيرهم حتى لا يعتذروا بعدم العلم. وثمة وجوه أخر لا تخلو من تكلف، وإن اتسع اللفظ لها. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾

﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أي عن تصديق الساعة ﴿مَن لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي ما تهواه نفسه من الشهوات وترك النظر والاستدلال. ﴿فَتَرْدَى﴾ أي فتهلك.

قال الزمخشريّ: يعني أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير. إذ لا شيء أطمّ على الكفرة، ولا هم أشد له نكيراً من البعث. فلا يهولنك وفور دهمائهم، ولا عظم سوادهم. ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك. واعلم أنهم، وإن كثروا تلك الكثرة، فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى واتباعه. لا البرهان وتدابره. وفي هذا حث عظيم على العلم بالدليل، وزجر بليغ عن التقليد، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ شروع فيما سيؤتيه تعالى من البرهان الباهر. وفي الاستفهام إيقاظ له وتنبيه على ما سيبدو له من عجائب الصنع ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ أي أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفتُ على رأس القطيع وعند الطفرة ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ أي أخبط بها الورق وأسقطه عليها لتأكله ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ أي حاجات أخر.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ (٢١)

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾ أي هيئتها الأولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع من قبل. أي ليس القصد تخويفك، بل إظهار ما فيها من استعداد قبول الحياة، ومشاهدة معجزة وبرهان لك.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى (٢٣)

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ أي إبطك **﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾** أي نيِّرة **﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾** أي قبيح وعيب كبياض البرص مما ينفر عنه. واعتمد الزمخشريّ؛ أن قوله تعالى **﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾** كناية عن البرص. كما كني عن العورة بالسوأة، قال: والبرص أبغض شيء إلى العرب، وبهم عنه نفرة عظيمة. وأسماعهم لاسمه مجّاجة. فكان جديراً بأن يكنى عنه. ولا ترى أحسن ولا الطف ولا أحرّ للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه. انتهى. **﴿ءَايَةً أُخْرَى﴾** أي معجزة أخرى غير العصا **﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى﴾** متعلق بمضمر ينساق إليه النظم الكريم. أي أريناك ما أريناك الآن، مع أن حقهما أن يظهرا بعد التحدي والمناظرة، لنريك أولاً بعض آياتنا الكبرى، فيقوى قلبك على مناظرة الطغاة. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤)

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ تخلص إلى ما هو المقصود من تمهيد المقدمات السالفة. فُصِل عما قبله من الأوامر إيذاناً بأصالته. أي اذهب إليه بما رأيتَه من الآيات الكبرى، وادعه إلى عبادتي وحذره نقمتي. أفاده أبو السعود.

وقوله تعالى: **﴿إِنَّهُ طَغَى﴾** أي جاوز الحد في التكبّر والعتوّ، حتى تجاسر على

العظيمة التي هي دعوى الربوبية. فلا بد من تنبيهه على طغيانه بالدلائل العقلية، التي صدقتها المعجزات.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ إنما سأل ذلك، لما كان يتخوفه من آل فرعون في القتيل. ولما بعث به من صدع جبار عنيد، أطغى الملوك وأبلغهم تمرداً وكفراً، مما يحوج إلى عناية ربانية. وسأل أن يُمَدّ بمنطق فصيح، لما في لسانه من عقدة كانت تمنعه من كثير من الكلام كما قال ﴿وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً﴾ [القصص:٣٤]، وقول فرعون ﴿وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢]، ثم سأل عليه السلام ربه أن يعينه بأخيه هارون، ليكون له رِدْءاً، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾

﴿وَاجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي أشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ أي قَوِّ به ظهري.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ أي كي نتعاون على تسبيحك وذكرك. لأن التعاون - لأنه مهيج الرغبات - يتزايد به الخير ويتكاثر ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾ أي عالماً بأحوالنا، وبأن المدعوّ به مما يفيدنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ أي أجيب دعاؤك. وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله، وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول، ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة

دعاء منه وطلب، فَلأَنْ ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداعٍ، أولى وأحرى. وتصديره بالقسم، لكمال الاعتناء بذلك. أفاده أبو السعود.

وقوله تعالى: ﴿مَرَّةً أُخْرَى﴾ أي في وقت آخر.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا﴾ أي ألقينا بطريق الإلهام ﴿إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ أي الصندوق ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي البحر، متوكلةً على خالقه ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي﴾ لدعواه الألوهية ﴿وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ لدعوته إلى نبذ ما يدعيه.

قال الزمخشريّ: لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته – أن لا تخطئ جرية اليم، الوصولَ به إلى الساحل، وإلقاءه إليه – سلك في ذلك سبيل المجاز وجعل اليم كأنه ذو تمييز أُمر بذلك، ليطيع الأمر ويمتثل رسمه. فقيل: ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ أي على سبيل الاستعارة بالكناية. بتشبيه اليم بمأمور منقاد. وإثبات الأمر تخييل، وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ أي: واقعة مني، زرعتها في قلب من يراك. ولذلك أحبك فرعون ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أي ولتربَّى بيد العدوّ على نظري بالحفظ والعناية. فـ(على عيني) استعارة تمثيلية للحفظ والصون، لأن المصون يجعل بمرأى. قيل: و(على) بمعنى الباء لأنه بمعنى بمرأى مني، في الأصل.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ﴾ أي يضمن حضانته ورضاعته.

فقبلوا قولها. وذلك لأنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع فأباها كما قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصص:١٢]، فجاءت أخته فقالت ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص:١٢]،

فجاءت بأمه كما قال ﴿فرجعناك إلى أمك﴾ أي مع كونك بيد العدوّ ﴿كي تقرَّ عينُها﴾ أي برؤيتك ﴿ولا تحزَنَ﴾ أي بفراقك. فهذه منن زائدة على النجاة من القتل.

ثم أشار إلى ما منّ عليه بالنجاة من القتل الذي لا يدفع بتلبيس، بقوله ﴿وقتلْتَ نفْساً﴾ أي من آل فرعون، وهو القبطيّ الذي استغاثه عليه الإسرائيليّ، إذ وكزه موسى فقضى عليه. أي: فاغتممت للقصاص ﴿فنجّيْناك من الغمِّ﴾ أي غم القتل بأن صرفنا عنك ماتخشاه. وذلك أنه عليه السلام فرَّ من آل فرعون حتى ورد ماء مدين. وقال له ذلك الرجل الصالح ﴿لا تخفْ نجوْتَ من الْقوْم الظّالمينَ﴾ [القصص:٢٥]، ﴿وفتنَّاكَ فُتُوناً﴾ أي ابتليناك ابتلاءً. على أن (الفتون) مصدر كالشكور، أو ضروباً من الفتن على أنه جمع (فتنة) أي فجعلنا لك فرجاً ومخرجاً منها. وهو إجمال لما سبق ذكره.

﴿فلَبِثْتَ سنِينَ فِي أهْلِ مدْيَنَ﴾ أي معزز الجانب مكفيّ المؤونة في عشرة أتقى رجل منهم وأصلحهم، وهو نبيّهم عليه السلام ﴿ثُمَّ جِئْتَ على قدَرٍ يا مُوسَى﴾ أي بعد أن قضيت الأجل المضروب بينك وبين شعيب من الإجارة، جئت بأهلك على وفق ما سبق في قضائي وقدري؛ أن أكلمك وأستنبئك في وقت يعينه قد وقّته لذلك. فما جئت إلا على ذلك القدر، غير مستقدم ولا مستأخر. فالأمر له تعالى. وهو المسيّر عباده وخلقه فيما يشاء.

قال أبو السعود: وقوله تعالى ﴿يا مُوسَى﴾ تشريف له عليه الصلاة والسلام، وتنبيه على انتهاء الحكاية التي هي تفصيل المرة الأخرى التي وقعت قبل المرة المحكية أولاً. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾

﴿واصْطَنَعْتُكَ لنفْسِي﴾ تذكير لقوله تعالى: ﴿وأنَا اختَرْتُكَ﴾ وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤيداً بأخيه و(الاصطناع) افتعال من (الصنع) بمعنى الصنيعة. يقال: اصطنع الأمير فلاناً لنفسه، أي جعله محلاً لإكرامه باختياره وتقريبه منه، بجعله من خواص نفسه وندمائه، فاستعير استعارة تمثيلية من ذلك المعنى المشبه به إلى المشبه. وهو جعله نبيّاً مكرماً كليماً منعماً عليه بجلائل النعم. قال أبو السعود: والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى: ﴿وفتَنَّاكَ﴾ ونظيريه السابقين، تمهيد لإفراد لفظ (النفس) اللائق بالمقام، فإنه أدخل في تحقيق معنى

(الاصطناع) و (الاستخلاص). ثم بيّن ما هو المقصود بـ (الاصطناع) بقوله سبحانه ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ أي بمعجزاتي. كالعصا وبياض اليد وحل العقدة، مع ما استظهره على يده ﴿وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تَفْتُرا ولا تقصّرا في ذكري بما يليق بي من النعوت الجليلة، عند تبليغ رسالتي والدعاء إليّ.

القول في تأويل قوله تعالى:

اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِناً لَعَلَّهُ يَتذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ أي عقابي. فإن تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة، ويلين عريكة الطغاة. وقد بيّن ذلك في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَكَ إِلَى أَن تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٨-١٩]، وبمثل ذلك أمر نبينا صلوات الله عليه في قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وظاهر أن الرجاء في (لعله) إنما هو منهما، لا من الله. فإنه لا يصح منه. ولذا قال القاضي: أي باشرا الأمر على رجائكما وطمعكما أنه يثمر ولا يخيب سعيكما. فإن الراجي، مجتهد والآيس متكلف. والفائدة في إرسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد – مع علمه بأنه لا يؤمن – إلزام الحجة، وقطع المعذرة، وإظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦)

﴿قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ أي يبادرنا بالعقوبة ﴿أَوْ أَن يَطْغَى﴾ أي يزداد طغياناً بالعناد، في دفع حججنا، ثم يأمر بقتلنا، أو بالتخطي إلى أن يقول في شانك ما لا ينبغي، لجرأته وقسوة قلبه. واقتصر على الثاني الزمخشريّ. وأفاد أن في المجيء به هكذا على الإطلاق، وعلى سبيل الرمز، باباً من حسن الأدب، وتحاشياً عن التفوه بالعظيمة: ﴿قَالَ لاَ تَخَافَا﴾ أي من فرطه وطغيانه ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ أي بالحفظ والنصرة ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أي ما يجري بينكما وبينه. فأرعاكما بالحفظ. فالمفعول محذوف للقرينة، أو نزل منزلة اللازم تتميماً لما يستقل به الحفظ. كأنه قيل: أنا حافظ لكما وناصر، سامع وبصير. وإذا كان الحافظ كذلك، تمّ الحفظ والتأييد، وذهبت المبالاة بالعدوّ.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧)﴾

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَئِيلَ﴾ أي بإطلاقهم من الأسر والعبودية. وتسريحهم معنا إلى وطننا فلسطين ﴿وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي بإبقائهم على ما هم عليه من التسخير والتذليل في الأمور الشاقة ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِن رَبِّكَ﴾ أي تحقق رسالتي إليك منه تعالى بذلك ﴿وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ أي فصدق بآيات الله المبينة للحق. وفيه من ترغيبه في اتباعهما، على ألطف وجه، ما لا يخفى.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)﴾

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ أي من ربنا ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ﴾ أي بآياته تعالى ﴿وَتَوَلَّى﴾ أي أعرض عنها. وفيه من التلطيف في الوعيد، حيث لم يصرح بحلول العذاب به، ما لا مزيد عليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾

﴿قَالَ﴾ أي فرعون ﴿فَمَن رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ أي منح كل شيء من الأنفس البشرية، صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، فسواه بها وعدّله، ثم هداه بأن وهبه العقل الذي يميز بين الخير والشر. وهذه الآية في معناها كآية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧-٨] وآية، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢)﴾

﴿قَالَ﴾ أي فرعون ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ أي ما حال القرون السالفة وما جرى عليهم؟ وهذا السؤال إما لصرف موسى عليه السلام عما يدعوه إليه أمام ملئه، وإشغاله بما لا يعني ما أرسل به، وإما

لتوهم أن الرسول يعلم الغيب، فأراد أن يقف على نبأ ما مضى، ويفتح باباً للتخطئة والتكذيب، بالعناد واللجاج. فأجابه موسى عليه السلام بأن هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر اللّه به. فلا يعلمه إلا هو. وليس من وظيفة الرسالة. وإنما علمها مكتوب في اللوح المحفوظ، محصى غير منسي. ويجوز أن يكون ﴿فِي كِتَابٍ﴾ تمثيلاً لتمكنه وتقريره في علم اللّه عزَّ وجلَّ، بما استحفظه العالم وقيده بالكتبة. قال في العناية: فيشبه علمه تعالى بها علماً ثابتاً لا يتغير، بمن علم شيئاً وكتبه في جريدته، حتى لا يذهب أصلاً، فيكون قوله ﴿لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ ترشيحاً للتمثيل، واحتراساً أيضاً. لأن من يفعل ذلك إنما يفعله لخوف النسيان. واللّه تعالى منزه عنه. فـ(الكتاب) على هذا بمعناه اللغويّ. وهو الدفتر، لا اللوح المحفوظ. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾

﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً**﴾ أي فراشاً ﴿**وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَجاً مِن نَبَاتٍ شَتَّى**﴾ أي أصنافاً من نبات مختلفة الأجناس، في الطعم والرائحة والشكل والنفع.

لطيفة:

جعل الزمخشري قوله تعالى: ﴿**فَأَخْرَجْنَا**﴾ من باب الالتفات. وناقشه الناصر؛ بأن الالتفات إنما يكون في كلام المتكلم الواحد. يصرّف كلامه على وجوه شتى. وما نحن فيه ليس كذلك. فإن اللّه تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون ﴿**عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى**﴾ ثم قوله: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً**﴾ إلى قوله: ﴿**فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِن نَبَاتٍ شَتَّى**﴾ فإما أن يجعل من قول موسى، فيكون باب قول خواص الملك (أمرنا وعمرنا) وإنما يريدون الملك، وليس هذا بالتفات. وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله: ﴿وَلاَ يَنسَى﴾ ثم ابتدأ اللّه تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه، فليس التفاتاً أيضاً. وإنما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب. وعلى هذا التأويل ينبغي للقارئ أن يقف وُقَيْفَة عند قوله ﴿وَلاَ يَنسَى﴾ ليستقر بانتهاء الحكاية. ويحتمل وجهاً آخر وهو؛ أن موسى وصف اللّه تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة. فقال ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً**

وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ فلما حكاه الله تعالى عنه، أسند الضمير إلى ذاته. لأن الحاكي هو المحكي في كلام موسى. فمرجع الضميرين واحد. وهذا الوجه وجه حسن رقيق الحاشية. وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات. لكن الزمخشريّ لم يعنه. والله أعلم. انتهى كلام الناصر. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

﴿كُلُواْ وَارْعَوْاْ أَنْعَامَكُمْ﴾ حال من ضمير (فَأَخْرَجْنَا) على إرادة القول **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُوْلِي النُّهَى مِنْهَا﴾** أي من الأرض **﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾** أي خلقنا أصلكم وهو آدم. أو خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة عن الأغذية، والمتولدة من الأرض بوسائط **﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾** أي بالإماتة إعادة البذر إلى الأرض **﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾** أي بردّهم كما كانوا، أحياء. ثم أشار تعالى إلى عتوّ فرعون وعناده، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ أي من العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين **﴿فَكَذَّبَ وَأَبَى قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَاناً سُوىً﴾** أي مستوياً واضحاً يجمعنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وهو يوم مشتهر عندهم باجتماع الناس فيه **﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً﴾** أي ضحوة النهار ليكون الأمر مكشوفاً لا سترة فيه **﴿فَتَوَلَّى**

﴿فِرْعَوْنُ﴾ أي انصرف عن المجلس ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي ما يكيد به موسى، من السحرة وأدواتهم ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ أي الموعد ومعه ما جمعه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣)﴾

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى﴾ أي مقدماً لهم النصح والإنذار، لينقطع عذرهم ﴿وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي لا تخيلوا للناس بأعمالكم، إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة. فتكونوا قد كذبتم على اللّه تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ أي يستأصلكم ﴿بِعَذَاب﴾ أي هائل لغضبه عليكم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى فَتَنَازَعُواْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى قَالُواْ﴾ أي بطريق التناجي والإسرار ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ أي بمذهبكم الأفضل. وهو ما كانوا عليه. يعنون أن قصد موسى وهارون هو عزل فرعون عن ملكه، يجعله عبداً لغيره، واستقرارهما في مكانه، وجعل قومهما مكانكم. وإلجائكم إلى مبارحة أرضكم، وإبطال طريقتكم بسحرهما الذي يريدان إعجازكم به. و﴿الْمُثْلَى﴾ تأنيث الأمثل، بمعنى الأفضل. ودعواهم ذلك، لأن كل حزب بما لديهم فرحون.

لطيفة:

في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ قراءات:

الأولى – ﴿إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ﴾ بتشديد النون من (إنَّ) و (هَذَيْنِ) بالياء وهي قراءة أبي عمرو، وهي جارية على السَّنَنِ المشهور في عمل (إنَّ).

الثانية – ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ بتخفيف (إنَّ) وإهمالها عن العمل، كما هو الأكثر فيها إذا خففت. وما بعدها مرفوع بالابتداء والخبر. واللام لام الابتداء فرقاً بينها وبين النافية. ويرى الكوفيون أن اللام هذه بمعنى (إلاّ) و (إنْ) قبلها نافية، واستدلوا على مجيء اللام للاستثناء بقوله:

أمس أبانُ ذليلاً بعد عزّته ... وما أبانُ لَمِنْ أعلاج سُودَان

والثالثة – ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ بتشديد (إنَّ) و(هذان) بالألف. وخرّجت على أوجه:

أحدها – موافقة لغة من يأتي في المثنى بالألف في أحواله الثلاث. وهم بنو الحارث بن كعب وخثعم وزُبَيْد وكنانة وآخرون. قال قائلهم:

* تَزَوَّدَ مِنّا بين أُذْنَاهُ طَعْنَةً *

وقال آخر:

إنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا   قد بلَغَا في الْمَجْدِ غَايَتَاهَا

ثانيها – إنَّ (إنَّ) بمعنى (نعم) حكاه المبرد. واستدل بقول الراجز:

يا عمر الخيرِ جُزِيتَ الجَنَّهْ   اكسُ بُنَيَّاتي وَأُمَّهُنَّهْ

وَقُلْ لَهُنَّ: إنَّ أَنَّ إِنَّهْ   أُقْسِمُ باللَّهِ لَتَفْعَلَنَّهْ

وقول عبد اللّه بن قيس الرُّقَيَّات:

ويَقُلْنَ شيب قد علا   ك وقد كَبِرْتَ فقلتُ إِنَّهْ

وردَّ على المبرد أبوعلي الفارسي، بأنه لم يتقدم ما يجاب بـ (نعم) وأجاب الشمنّي، بأن التنازع فيما بينهم، وإسرار النجوى، يتضمن استخبار بعضهم من بعض. فهو جواب للاستخبار الضمنيّ. ولا يخفى بعده. فإن إسرار النجوى فيما بينهم ليس في الاستخبار عن كونهما ساحرين، بل هم جزموا بالسحر فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾ [طه:٥٧]، ثم أسروا النجوى فيما يغلبان به موسى. إلاّ أن يقال: محطّ الجواب قوله: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ الخ، وما قبله توطئة. وقد رد في (المغني) هذا التخريج ؛ بأن مجيء (نعم) شاذ حتى نفاه بعضهم. ومنعه الدمامينيّ؛ بأن سيبويه والحذّاق حكوه عن الفصحاء. وعليه، فاللام في ﴿لَسَاحِرانِ﴾ لام الابتداء، زحلقت للخبر. وأبى البصريون دخولها على الخبر. وزعموا أنها في مثله داخلة على مبتدأ محذوف، أو زائدة، أو دخلت مع (إن) التي بمعنى (نعم) لشبهها بالمؤكدة لفظاً.

وأقول: فيه تكلف. والشواهد على اقتران الخبر باللام كثيرة.

وثالثها – أنه لما كان الإعراب لا يظهر في الواحد، وهو (هذا) جعل كذلك في التثنية، ليكون المثنى كالمفرد. لأنه فرع عليه. واختار هذا القول الإمام العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه اللّه تعالى، وزعم أن بناء المثنى، إذا كان مفرده مبنيّاً، أفصح من إعرابه. قال: وقد تفطن لذلك غير واحد من حذاق النحاة. ثم اعترض بأمرين:

أحدهما - أن السبعة أجمعوا على الياء في قوله تعالى: ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ [القصص: ٢٧]، مع أن هاتين تثنية (هاتا) وهو مبني.

والثاني - أن (الذي) مبني وقد قالوا في تثنيته (اللَّذَيْنِ) في الجر والنصب. وهي لغة القرآن، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضلاَّنَا﴾ [فصلت: ٢٩]، وأجاب الأول؛ بأنه إنما جاء (هاتين) بالياء على لغة الإعراب لمناسبة (ابنتيّ) قال: فالإعراب هنا أفصح من البناء، لأجل المناسبة. كما أن البناء في ﴿إِنّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ أفصح من الإعراب لمناسبة الألف في (هذان) للألف في (ساحران). وأجاب عن الثاني بالفرق بين (اللذان) و(هذان) بأن (اللّذان) تثنية اسم ثلاثي، فهو شبيه (بالزيدان) و(هذان) تثنية اسم على حرفين. فهو عريق في البناء لشبهه بالحروف. قال رحمه اللّه: وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ (إنّ هذان) لحن وإن عثمان رضي اللّه عنه قال (إن في المصحف لحناً وستقيمه العرب بألسنتها) وهذا خبر باطل لا يصح من وجوه.

أحدها - إن الصحابة كانوا يتسارعون إلى إنكار أدنى المنكرات، فكيف يقرّون اللحن في القرآن، مع أنهم لا كلفة عليهم في إزالته؟.

والثاني - أن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقباح في الكلام، فكيف لا يستقبحون بقاءه في الصحف؟.

والثالث - أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم. لأن المصحف الكريم يقف عليه العربي والعجمي.

والرابع - أنه قد ثبت في الصحيح أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب (التابوت) بالهاء على لغة الأنصار، فمنعوه من ذلك ورفعوه إلى عثمان رضي اللّه عنهم. فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش. ولما بلغ عمر رضي اللّه عنه أن ابن مسعود رضي اللّه عنه قرأ: عَتَّى حِين، على لغة هذيل، أنكر ذلك عليه وقال: أقرئ الناس بلغة قريش. فإن اللّه تعالى إنما أنزله بلغتهم، ولم ينزله بلغة هذيل. انتهى كلام تقي الدين مخلصاً.

هذا حاصل ما في (المغني) و(الشذور) و(حواشيهما) وفي الآية وجوه أخرى استقصتها المطولات. وما ذكرناه أرقها. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ تصريح بالمطلوب، إثر تمهيد المقدمات. والفاء فصيحة.

أي إذا كان الأمر كما ذكر، من كونهما ساحرين، يريدان بكم ما ذكر من الإخراج، والإذهاب، فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعاً عليه، بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم. أفاده أبو السعود. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي مصطفين، ليكون أهيب في صدور الرائين ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ﴾ أي فاز بالإنعامات العظيمة من فرعون وملئه ﴿الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ أي علا وغلب.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾﴾

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ أي التي ألقوها ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ أي حيّات تسعى على بطونها.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾﴾

﴿فَأَوْجَسَ﴾ أي أحس ﴿فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ وذلك لما جُبلَ عليه الإنسان من النفرة من الحيات. أو خاف من توهم الخلق المعارضة، بأن لهم من حبالهم وعصيهم حيات. كما أن له من عصاه حيَّة ﴿قُلْنَا لاَ تَخف إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى وأَلْقِ مَا فِي يَمِينكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُواْ﴾ أي تلتقطه بفمها ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سَاحِرٍ﴾ في مقابلة آية ربانية ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ أي لا يفوز بمطلوبه، أيَّ مكانٍ جاءَ لدفع الحق.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾﴾

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً﴾ أي فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا فأُلقيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً، تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر، وإنما هي آية ربانية ﴿قَالُواْ آمَنَّا

برب هارون وموسى قال ﴿ أي فرعون ﴿**آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر**﴾ أي فاتفقتم معه ليكون لكم الملك ﴿**فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف**﴾ أي من جانبين متخالفين ﴿**ولأصلبنكم في جذوع النخل**﴾ أي التي هي أقوى الأخشاب وأخشنها ﴿**ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى**﴾ يعني أنكم إنما آمنتم برب موسى خوفاً من شدة عذابه. أو من تخليده في العذاب ﴿**ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى**﴾ فإن رب موسى لم يقطع من أحد يده ورجله من خلاف، ولم يصلبه في جذوع النخل، ولم يبقه مصلوباً، قاله المهايميّ. وضعّفه الزمخشري بأن فرعون يريد نفسه وموسى عليه السلام، بدليل قوله: ﴿**آمنتم له**﴾ أي لموسى. واللام مع الإيمان، في كتاب الله، لغير الله تعالى كقوله تعالى: ﴿**يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين**﴾ وقصده إظهار اقتداره وبطشه، وما ضرى به من تعذيب الناس بأنواع العذاب. وتوضيع موسى عليه السلام واستضعافه مع الهزء به، لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾

﴿**قالوا لن نؤثرك**﴾ أي نختارك بالإيمان والاتباع ﴿**على ما جاءنا**﴾ أي من الله على يد موسى ﴿**من البينات والذي فطرنا**﴾ أي وعلى الذي خلقنا. واختيارُ هذا الوصف للإشعار بعلة الحكم. فإن خالقيته تعالى لهم، وكون فرعون من جملة مخلوقاته، مما يوجب عدم إيثارهم له عليه، سبحانه وتعالى. وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله ﴿آمنتم له﴾ وقيل هو قسم محذوف الجواب ﴿**فاقض ما أنت قاض**﴾ أي اصنع ما أنت صانعه. وهذا جواب عن تهديده بقوله ﴿**لأقطعن**﴾ الخ ﴿**إنما تقضي هذه الحياة الدنيا**﴾ أي فيها وهي لا بقاء لها، ولا سلطان لك بعدها. وإنما البغية الآخرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾

﴿**إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى**﴾ أي ثواباً.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا﴾ أي فينقضي عذابه ﴿وَلاَ يَحْيَى﴾ أي حياة طيبة.

القول في تأول قوله تعالى:

وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾

﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أي المنازل الرفيعة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح.

القول في تأويل قوله تعالى:

جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ أي تطهر من دنس الكفر والمعاصي، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة.

لطائف:

من (الكشاف) و(حواشيه للناصر).

الأولى - في تخيير السحرة بين إلقاء موسى وإلقائهم، استعمال أدب حسن معه، وتواضع له وخفض جناح. وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم. وكأن الله عزّ وعلا ألهمهم ذلك، وعلم موسى - صلوات الله عليه - اختيار إلقائهم، أوّلاً، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب، حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر، ويستنفدوا أقصى طرقهم ومجهودهم. فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه، وقذف بالحق على الباطل فدمغه، وسلط المعجزة على السحر فمحقته، وكانت آية نيرة للناظرين. وعبرة بينة للمعتبرين. وقبل ذلك تأدبوا معه بقولهم ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَّ نُخْلِفُهُ﴾ ففوضوا ضرب الموعد إليه، وكما ألهم الله عزَّ وجلَّ موسى ها هنا، أن يجعلهم مبتدئين بما معهم، ليكون إلقاؤه العصا، بعدُ، قذفاً بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، كذلك ألهمه من الأول، أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم، ليكون الحق أبلج على رؤوس الأشهاد، فيكون أفضح لكيدهم وأهتك لستر حرمهم.

الثانية – جوز في إيثار قوله تعالى: ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ على ﴿عَصَاكَ﴾ وجهان: أحدهما – أن يكون تعظيماً لها. أي لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة. فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها. وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده. فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها. وثانيهما – أن يكون تصغيراً لها أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم. وألق العُوَيْد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك. فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها، وصغره وعظمها. وإنما المقصود بتحقيرها في جنب القدرة، تحقير كيد السحرة بطريق الأولى. لأنها إذا كانت أعظمُ مُنَّةً وهي حقيرة في جانب قدرة الله تعالى، فما الظن بكيدهم وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة؟.

ولأصحاب البلاغة طريق في علوّ المدح بتعظيم جيش عدوّ الممدوح، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح وقد قهره واستولى عليه. فصغر الله أمر العصا، ليلزم منه كيد السحرة الداحض بها في طرفة عين.

واعلم أنه لا بد من نكتة تناسب الأمرين – التعظيم والتحقير – وتلك، والله أعلم، هي إرادة المذكور مبهماً، لأن ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أبهم مِنْ ﴿عَصَاكَ﴾ وللعرب مذهب في التنكير والإبهام، والإجمال، تسلكه مرة لتحقير شأن ما أبهمته، وأنه عند الناطق به أهون من أن يخصه ويوضحه. ومره لتعظيم شأنه، وليؤذن أنه من عناية المتكلم والسامع بمكان، يغني في الرمز والإشارة. فهذا هو الوجه في إسعاده بهما جميعاً.

ثم قال الناصر: وعندي في الآية وجه سوى قصد التعظيم والتحقير. والله أعلم. وهو؛ أن موسى عليه السلام، أول ما علم أن العصا آية من الله تعالى، عندما سأله عنها بقوله تعالى ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ ثم أظهر له تعالى آيتها، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها، قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذي قال الله تعالى له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ وقد أظهر له آيتها، فيكون ذلك تنبيهاً له وتأنيساً، حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها. وذلك مقام يناسب التأنيس والتثبيت. الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾ ؟ انتهى.

ولأبي حيان نكتة أخرى. وهي ما في اليمين من الإشعار باليمن والبركة. ولا يقال جاء في سورة الأعراف ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ والقصة واحدة. لأنه يجاب بأنه مانع من

رعاية هذه النكتة فيما وقع هنا، وحكاية ما جاء بالمعنى.

هذا وقال الشهاب الخفاجي: فيما ذكروه نظر لأنه إنما يتم إذا كان الخطاب بلفظ عربي أو مرادفٍ له، يجري فيه ما يجري فيه. والأول خلاف الواقع. والثاني دونه خرط القتاد، فتأمل.

أقول إنما استبعد الثاني، لتوهم أن لا بلاغة ولا نكات إلا في اللغة العربية. مع أن الأمر ليس كذلك. وحينئذ فيتعين الثاني. وهو ظاهر. وبه تستعاد تللك اللطائف. ثم أشار تعالى إلى عنايته بموسى وقومه، من إنجائهم وإهلاك عدوهم، وقد طوى هنا ما فصل في آيات أخر، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي سر بهم من مصر ليلاً ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً﴾ أي يابساً. فضرب موسى بعصاه البحر فانفلق وجاوزه إلى ساحله ﴿لاَّ تَخَافُ دَرَكاً﴾ أي لا تخاف من فرعون وجنوده أن يدركوك من ورائك ﴿وَلاَ تَخْشَى﴾ أي غرقاً من بين يديك، ووحلاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ لأنه ندم على الإذن بتسريحهم من مصر، وأنهم قهروه على قلتهم كما قال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤-٥٥]، فتبعهم ومعه جنوده حتى لحقوهم، ونزلوا في الطريق الذي سلكوه. ففاجأهم الموج كما قال تعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي علاهم منه وغمرهم، ما لا يحاط بهوله ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ أي أوردهم الهلاك، بعتوّه وعناده في الدنيا والآخرة. وما هداهم سبيل الرشاد.

ثم ذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل ومننه الكبرى، وما وصاهم من المحافظة على شكرها، وحذرهم من التعرض لغضبه بكفرها، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ۝٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ۝٨١﴾

﴿يَا بَنِي إِسْرَائيل قَدْ أنجيْناكم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ وهو فرعون وقومه. فقد كانوا يسومونكم سوء العذاب. يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم. وذلك بأن أقر أعينكم منهم، بإغراقهم، وأنتم تنظرون. ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ أي بمناجاة موسى وإنزال التوراة عليه. واليهود السامرية تزعم أن هذا الجبل في (نابلس) ويسمونه (جبل الطور) ويذكر في الجغرافيا بلفظ (عيبال) ولهم عيد سنوي فيه يصعدون إليه، ويقربون فيه القرابين. والله أعلم.

قال الزمخشري: وإنما عدّى المواعدة إليهم، لأنها لابستهم واتصلت بهم، حيث كانت لنبيهم ونقبائهم. وإليهم رجعت منافعها التي قام بهم دينهم وشرعهم، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه..

و (جانب) مفعول فيه، أو مفعول به على الاتساع. أو بتقدير مضاف. أي إتيان جانب. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي من لذائذه. فإن المن كالعسل. والسلوى من الطيور الجيد لحمها ﴿وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي فيما رزقناكم، بأن يتعدى فيه حدود الله، ويخالف ما أمر به ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ أي هلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ۝٨٢﴾

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي تاب عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق، وعمل صالحاً بجوارحه، ثم اهتدى، أي استقام وثبت على الهدى المذكور. وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] و [الأحقاف: ١٣]، وفي الآية ترغيب لمن وقع في وهدة الطغيان.، ببيان المخرج له منه، كي لا ييأس. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (٨٣)

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ أي أيُّ شيء عجّل بك عنهم، على سبيل الإنكار، وكان قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور، على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه ورضاه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾ (٨٤)

﴿ قَالَ هُمْ أُولاَءِ عَلَى أَثَرِي ﴾ أي قادمون ينزلون بالطور، وإنما سبقتهم بما ظننت أنه خير. ولذا قال: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ أي عني، بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك. واعتنائي بالوفاء بعهدك. وزيادة (رَبِّ) لمزيد الضراعة والابتهال، رغبةً في قبول العذر. أفاده أبو السعود.

فإن قيل: كان مقتضى جواب السؤال من موسى أن يقول (طلبُ زيادة رضاك أو الشوقُ إلى كلامك) فالجوابُ. أن هذا من الغفلة عن سرِّ الإنكار. وذلك لأن الإنكار بالذات إنما هو للبعد والانفصال عنهم. فهو منصبٌّ على القيد. كما عرف في أمثاله. فالسؤال في المعنى عن الانفصال الذي يتضمنه (أعجلك) المتعدي بـ (من). وإنكار العجلة لأنها وسيلة له. فالجواب ﴿ هُمْ أُوْلَاءِ عَلَى أَثَرِي ﴾. وقوله ﴿ وَعَجِلْتُ ﴾ الخ تتميم. وقيل الجواب إنما هو قوله: ﴿ وَعَجِلْتُ ﴾ الخ، وما قبله تمهيد له.

وقال الناصر: إنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة، وهو أعلم، أن يعلم موسى أدب السفر. وهو أنه ينبغي تأخُّر رئيس القوم عنهم في المسير، ليكون نظره محيطاً بطائفته، ونافذاً فيهم، ومهيمناً عليهم. وهذا المعنى لا يحصل في تقدمه عليهم، ألا ترى الله عزّ وجلّ كيف علم هذا الأدب، لوطا، فقال: ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ [الحجر: ٦٥]، فأمره أن يكون أخيرهم. على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر مبادرة إلى رضاء الله عزَّ وجلَّ، ومسارعة إلى الميعاد. وذلك شأن الموعود بما يسره، يود لو ركب إليه أجنحة الطير. ولا أسرَّ من مواعدة الله تعالى له ﷺ. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ (٨٥)

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ أي ابتليناهم بعد ذهابك للمناجاة ﴿ وَأَضَلَّهُمْ

السَّامِرِيُّ﴾ يعني اليهوديّ الذي وسوس لهم أن يعبدوا عجلاً يتخذوه إلهاً، لما طالت عليهم غيبة موسى ويئسوا من رجوعه. و (السامري) في لغة العرب، بمعني اليهودي. وقد قال بالظن، من ادعى تسميته أو حاول تعيينه. وأما الطائفة السامرية الآن فهم فئة من اليهود في (نابلس) قليلة العدد تخالف بقية اليهود في جلّ عاداتها.

وقد تضمنت هذه الجملة - أعني إخباره تعالى لموسى بالفتنة - الأمر - برجوعه لقومه، وإصلاحه ما فسد من حالهم، كما قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً﴾ أي حزيناً ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً﴾ أي بإنزال التوراة عليّ، ورجوعي بها إليكم ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أي زمان الإنجاز، أو مجيئي ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ أي وعدكم إياي بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ قرئ بالحركات الثلاث على الميم.

قال الزمخشري: أي ما أخلفنا موعدك، بأن ملكنا أمرنا. أي لو ملكنا أمرنا، وخلينا وراءنا، لما أخلفناه. ولكن غلبنا من جهة السامريّ وكيده ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا﴾ بفتح الحاء مخففاً، وبضمها وكسر الميم مشدداً ﴿أَوْزَاراً﴾ أي أثقالاً وأحمالاً ﴿مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ أي من حلي القبط، قوم فرعون، وهو حليُّ نسائهم ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ أي في النار لسبكها ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أي كان إلقاؤه ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ أي من تلك الحليّ المذابة ﴿عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ﴾ أي صوت عجل. وقد قيل: إنه صار حيّاً، وخار

كما يخور العجل. وقيل: لم تحلّه الحياة وإنما جعل فيه منافذ ومخارق، بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل. أفاده الرازي.

وقوله: ﴿فَقَالُواْ﴾ أي السامريُّ ومن افتتنوا به ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ أي غفل عنه وذهب يطلبه في الطور. ثم أنكر تعالى على من ضل بهذا العجل وأضل. مسفهاً لهم فيما أقدموا عليه، مما لا يشتبه بطلانه على أحد، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ﴾ أي العجل ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾ أي لا يردد لهم جواباً ﴿وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَراً وَلاَ نَفْعاً﴾ أي دفع ضرّ ولا جلب نفع، أي فكيف يتخذ إلهاً؟.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل رجوع موسى إليهم ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ أي ضللتم بعبادته ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُواْ أَمْرِي﴾ في عبادته سبحانه، ونبذ العجل.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى قَالَ﴾ أي موسى ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّواْ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ﴾ أي في الغضب لله، وشدة الزجر عن الكفر. و(لا) مزيدة. أو المعنى ما حملك على أن لا تتبعني، بحمل النقيض على النقيض. فإن المنع عن الشيء مستلزم للحمل على مقابله. أو ما منعك أن تلحقني وتخبرني بضلالهم، فتكون مفارقتك مزجرة لهم ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ وهو ما أمره به من أن يخلفه في قومه، ويصلح ما يراه فاسداً.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾

﴿قَالَ﴾ أي هارون ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ بكسر الميم وفتحها. أراد (أمي) وذكرُها أعطف لقلبه ﴿لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي ولاَ برأْسِيَ﴾ أي بشعره. وكان قبض عليهما يجره إليه من شدة غضبه: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَئِيلَ﴾ أي بتركهم لا راعي لهم ﴿ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أي لم تراعه في الاستخلاف والوجود بين ظهرانيهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ أي ثم أقبل على السامري وقال له منكراً: ما شأنك فيما صنعت؟ وما دعاك إليه؟.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ﴾ أي فطنت لما لم يفطنوا له ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ أي في الحلي المذاب حتى حَيَّ ﴿وكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي حسَّنته وزينته ﴿قَالَ فاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاة أَنْ تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ﴾ أي لعذابك ﴿مَوْعِداً لَن تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْه عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾ أي لنطيّرنّه رماداً في البحر، بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر.

تنبيهات:

الأول – اعلم أن هارون عليه السلام، سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه. لأنه زجرهم عن الباطل، أولاً بقوله ﴿إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ﴾ ثم دعاهم لمعرفة اللّه تعالى ثانياً بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله تعالى:

﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ وهذا هو الترتيب الجيّد. لأنه لا بد قبل كل شيء في إماطة الأذى عن الطريق، وهو إزالة الشبهات. ثم معرفة اللّه تعالى، فإنها هي الأصل. ثم النبوة ثم الشريعة. فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه. أفاده الرازي.

وقد برأ اللّه تعالى بهذه الآيات البينات، هارون عليه السلام مما افتراه عليه كتبة التوراة، من أنه هو السامري الذي اتخذ العجل وأمر بعبادته، كما هو موجود عندهم. وهو من أعظم الفرى، بلا امترا.

الثاني - عامة المفسرين قالوا: المراد بالرسول في قوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ هو جبريل عليه السلام. وأراد بأثره، التراب الذي أخذه من موضع حافر دابته. ثم اختلفوا: أن السامري متى رآه؟ فقيل: إنما رآه يوم فلق البحر. وقيل: وقت ذهابه بموسى إلى الطور.

واختلفوا أيضاً في: أن السامري كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام، ومعرفته من بين سائر الناس؟ فقيل إنما عرفه لأنه رآه في صغره، وحفظه من قتل آل فرعون له، وكان ممن رباه. وكل هذا ليس عليه أثارة من علم ولا يدل عليه التنزيل الكريم. ولذا قال أبو مسلم الأصفهاني: ليس في القرآن تصريح بهذا الذي ذكره المفسرون. فههنا وجه آخر وهو: أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام. وبأثره سنته ورسمه الذي أمر به، فقد يقول الرجل: فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره، إذا كان يمتثل رسمه. والتقدير، أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامري باللوم، والمسألة عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم في باب العجل، فقال (بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ﴾ أي عرفت أن الذي أنتم عليه ليس بحق، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول، أي شيئاً من سنتك ودينك . فقذفته، أي طرحته. فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب في الدنيا والآخرة. وإنما أورد بلفظ الإخبار عن غائب، كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له: ما يقول الأمير في كذا؟ وبماذا يأمر الأمير؟.

وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولاً، مع جحده وكفره، فعلى مثل مذهب من حكى اللّه تعالى عنه قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وإن لم يؤمنوا بالإنزال. انتهى.

قال الرازي: ما ذكره أبو مسلم أقرب إلى التحقيق مما ذكره المفسرون، لوجوه:

أحدها – أن جبريل عليه السلام ليس بمشهور باسم الرسول. ولم يجر له فيما تقدم ذكر، حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه. فإطلاق لفظ (الرسول) لإرادة جبريل عليه السلام، كأنه تكليف بعلم الغيب.

وثانيها – أنه لا بد فيه من الإضمار. وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول. والإضمار خلاف الأصل.

وثالثها – أنه لا بد من التعسف في بيان أن السامري كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته؟ ثم كيف عرف أن لِتُرَابِ حافر فرسه هذا الأثر؟ والذي ذكروه من أن جبريل عليه السلام هو الذي رباه، فبعيد. لأن السامري، إن عرف جبريل حال كمال عقله، عرف قطعاً أن موسى عليه السلام نبيّ صادق. فكيف يحاول الإضلال؟ وإن كان ما عرفه حال البلوغ، فأيّ منفعة لكون جبريل عليه السلام مربياً له حال الطفولية، في حصول تلك المعرفة؟ انتهى.

التنبيه الثالث في قوله ﴿**لاَ مِسَاسَ**﴾ وجوه:

أحدها – إني لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ.

وثانيها – المراد المنع من أن يخالط أحداً أو يخالطه أحد، عقوبة له.

ثالثها – ما ذكره أبو مسلم من أنه يجوز في حمله (ما أريد مسي النساءَ) فيكون من تعذيب اللّه إياه انقطاع نسله. فلا يكون له ولد يؤنسه، فيخليه اللّه تعالى من زينتي الدنيا اللتين ذكرهما بقوله: ﴿وَالْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، أي لأن المسّ يكنى به عن النكاح كما في آية ﴿مِن قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، واللّه أعلم.

ولما فرغ موسى عليه السلام من إبطال ما دعا إليه السامري، عاد إلى بيان الدين الحق، فقال:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٩٨)

﴿**إِنَّمَا إِلَهُكُمُ**﴾ أي المستحق للعبادة والتعظيم ﴿**اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً**﴾ أي أحاط علمه كل شيء. ثم أشار تعالى إلى فضله، فيما قصه على خاتم رسله صلوات اللّه عليه، من أنباء الأنبياء، تنويهاً بشأنه، وزيادة في معجزاته، وتكثيراً للاعتبار والاستبصار في آياته، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾

﴿**كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ، وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً**﴾ أي كتاباً عظيماً جامعاً لكل كمال، وسمي القرآن ﴿**ذِكْراً**﴾ لما فيه من ذكر ما يحتاج إلى الناس من أمر دينهم ودنياهم، ومن ذكر آلاء اللّه ونعمائه. ففيه التذكير والمواعظ، ولما فيه من الذكر والشرف له صلوات اللّه عليه ولقومه.

قال الرازي: وقد سمى تعالى كل كتبه (ذكراً) فقال ﴿**فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ**﴾ [النحل:٤٣]، ثم، كما بيّن تعالى نعمته بذلك، بيّن شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾

﴿**مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً**﴾ أي إثماً. يعني عقوبة ثقيلة. شبهت بالحمل الثقيل لثقلها على المعاقَب وصعوبة احتمالها ﴿**خَالِدِينَ فِيهِ**﴾ أي في احتماله المستمر ﴿**وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةَ حِمْلاً**﴾. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾

﴿**يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ**﴾ بدل من يوم القيامة أو منصوب بمحذوف. والنفخ في الصور تمثيل لبعث اللّه للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة في بوق ﴿**فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾ [الزمر: ٦٨]، وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ في الصور. وليس علينا أن نعلم ما هي حقيقة ذلك الصور. والبحث وراء هذا، عبث لا يسوغ للمسلم. أفاده بعض المحققين.

﴿**وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ**﴾ أي نسوقهم إلى جهنم ﴿**يَوْمَئِذٍ زُرْقاً**﴾ أي زرق الوجوه. الزرقة تقرب من السواد. فهو بمعنى آية ﴿**وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾. [آل عمران: ١٠٦].

وقال أبو مسلم: المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم. والأزرق شاخص، لأنه لضعف بصره، يكون محدقاً نحو الشيء يريد أن يتبينه. وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره. وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَومٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، نقله الرازي. والأول أظهر. ﴿يتخافتون بينهم﴾ أي يتسارّون من الرعب والهول، أو من الضعف، قائلين ﴿إن لبثتم﴾ أي في الدنيا ﴿إلاَّ عشراً﴾ أي عشر ليال. قال الزمخشري: يستقصرون مدة لبثم في الدنيا، إما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور، فيتأسّفون عليها ويصفونها بالقصر. لأن أيام السرور قصار. وإما لأنها ذهبت عنهم وتَقَضَّتْ. والذاهب، وإن طالت مدته، قصير بالانتهاء. ومنه توقيع عبد اللّه بن المعتز تحت: أطال اللّه بقاءك (كفى بالانتهاء قصراً). وإما لاستطالتهم الآخرة، وأنها أبد سرمد، يستقصر إليها عمر الدنيا، ويتقالّ لبث أهلها فيها، بالقياس إلى لبثهم في الآخرة. وقد استرجح اللّه قول من يكون أشد تقالاً منهم، في قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

﴿نَحْنَ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي أعدلهم رأياً ﴿إِن لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾ ونحوه قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٣]، انتهى.

قال أبو السعود: ونسبة هذا القول إلى أمثلهم، استرجاع منه تعالى له، لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق، بل لكونه أدلّ على شدة الهول. أي: ولكونه منتهى الأعداد القليلة. وكذلك لبثهم بالنسبة إلى الخلود السرمديّ، وإلى تقضي الغائب الذي كأن لم يكن. ولا ينافي هذا ماجاء في آية ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، لأن المراد بالساعة الحصة من الزمان القليل، فتصدق باليوم. كما أن المراد باليوم مطلق الوقت. ولذلك نكر، تقليلاً له وتحقيراً.

قال الشهاب: ليس المراد بحكاية قول من قال (عَشْراً) أو (يَوْماً) أو (سَاعَةً) حقيقة اختلافهم في مدة اللبث، ولا الشك في تعيينه. بل المراد أنه لسرعة زواله، عبّر عن قلّته بما ذكر. فتفنن في الحكاية، وأتى في كل مقام بما يليق به.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾

﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي هل تبقى يوم القيامة أو تزول ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾ أي يزيلها عن مقارّها. فيسيّرها مقذوفة في الفضاء. وقد تمرّ على الرؤوس مرّ السحاب. حتى تتساوى مع سطح الأرض. كما قال ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي فيذر مقارّها ومراكزها. أو الأرض المدلول عليها بقرينة الحال ﴿قَاعاً﴾ أي سهلاً مستوياً ﴿صَفْصَفاً﴾ أي أملس ﴿لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾ أي نتوءاً يسيراً.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ أي يُجيبون الداعي إلى المحشر، فينقلبون من كل صوب إليه ﴿لاَ عِوَجَ لَهُ﴾ أي لا يعوج له مدعوّ، ولا ينحرف عنه. بل يستوون إليه. متبعين لصوته، سائرين بسيره.

في شروح (الكشاف): هذا كما يقال (لا عصيان له) أي لا يعصى. و(لاظلم له) أي لا يظلم. وضمير (له) للداعي. وقيل: للمصدر. أي لا عوج لذلك الاتباع ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي انخفضت لهيبته ولهول الفزع ﴿فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾ أي صوتاً خفيّاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾

﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ أي قَبِل قوله. والمعنى: يومئذ لا يستطيع أحد أن يشفع لأحد، إلا إذا أذن اللّه له. ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب.

قال بعض المحققين: وإنما يكون الكلام ضرباً من التكريم، لمن يأذن اللّه له به، يختص به من يشاء. ولا أثر له فيما أراد اللّه البتة.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾

﴿ يَعْلَمُ مَابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ أي بمعلوماته، أو بذاته العلية.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ أي ذلت وخضعت خضوع العناة، أي الأسارى. لأنها في أسر مملكته وذلّ قهره وقدرته. لا تحيا ولا تقوم إلا به.

ولما كانت الوجوه يومئذ، منها الظالمة لنفسها ومنها الصالحة، أشار إلى ما يجزي به الكل، بقوله سبحانه ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ أي خسر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً ﴾ أي نقص ثواب ﴿ وَلاَ هَضْماً ﴾ أي ولا كسراً منه، بعدم توفيته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ﴾ أي بعبارات شتى، تصريحاً وتلويحاً، وضروب أمثال، وإقامة براهين ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي الكفر والمعاصي بالفعل ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ أي اتعاظاً واعتباراً، يؤول بهم إلى التقوى.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ أي تناهى في العلوّ والعظمة، بحيث لا يقدر قدره،

ولا يغدر أمره في ملكه الذي يعلو كل شيء، ويصرفه بمقتضى إرادته وقدرته. وفي عدله الذي يوفي كل أحد حقه بموجب حكمته ﴿**وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ**﴾ أي: بل أنصت. فإذا فرغ المَلَك من قراءته فاقرأه بعده. وقد كان رسول اللّه ﷺ إذا لقَّنه جبريل الوحيَ، يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة، لكمال اعتنائه بالتلقي والحفظ. فأرشد إلى أن لا يساوقه في قراءته، وأن يتأنَّى عليه ريثما يسمعه ويفهمه. ثم ليقبل عليه بالحفظ بعد ذلك. ونحوه قوله تعالى ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءانَه فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءانَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٦-١٩]، ثم أمره تعالى باستفاضة العلم واستزادته منه بقوله: ﴿**وَقُلْ رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾ أي سله زيادة العلم. فإن مدده غير متناه.

وهذا - كما قال الزمخشري - متضمن للتواضع للّه تعالى والشكر له، عندما علم من ترتيب التعلم. أي علمتني يارب لطيفة في باب التعلم، وأدباً جميلاً ماكان عندي، فزدني علماً إلى علم. فإن لك في كل شيء حكمة وعلماً. قيل: ما أمر اللّه رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

ثم أشار تعالى إلى أخذه العهد على بني آدم، من اتّباعهم كل هدى يأتيهم منه سبحانه، وترتب الفوز عليه. وإلى أن الإعراض عنه من وسوسة الشيطان، العدوّ لهم ولأبيهم قبلهم. وترتب الشقاء عليه، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾

﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِن قَبْلُ**﴾ أي من قبل هذا الزمان، أن لا يقرب من الشجرة ﴿**فَنَسِيَ**﴾ أي العهد ﴿**وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً**﴾ أي تصميماً في حفظه. إذ لو كان كذلك، لما أزلّه الشيطان ولما استطاع أن يغرّه. كما بيّنه اللّه تعالى بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾

﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**﴾ أي بالابتلاء. وإسناد الشقاء إليه خاصة،

لأصالته في الأمور، واستلزام شقائه بشقائها. فاختصر الكلام لذلك، مع المحافظة على الفاصلة.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾

﴿**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى**﴾ اي لا تتصوّن من حرّ الشمس.

قال أبو السعود: هذا تعليل لما يُوجبه النهي. فإن اجتماع أسباب الراحة فيها. مما يوجب المبالغة في الاهتمام بتحصيل مبادئ البقاء فيها. والجدّ في الانتهاء عما يؤدي إلى الخروج عنها. والعدولُ عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعماً بفنون النعم. من المآكل والمشارب، وتمتعاً بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية، مع أن فيه من الترغيب في البقاء فيها، ما لا يخفى. إلى ما ذكر من نفي نقائضها التي هي الجوع والعطش والعري والضحو، لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التي حذره عنها، ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدي إليها. انتهى.

لطيفة:

قال الناصر: في الآية سر بديع من البلاغة، يسمى قطع النظير عن النظير. وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع، والضحو عن الكسوة، مع ما بينهما من التناسب. والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها: ولو قرن كلاً بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة. وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً، فقال الكندي الأول:

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً لِلَذَّةٍ ولم أَتَبَطَّنْ كاعباً ذَاتَ خَلْخَال
ولم أسبأ الزّقّ الرويّ ولم أَقُلْ لخيليَ: كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إجْفَالِ

فقطع ركوب الجواد عن قوله (لخيلي كري كرة) وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكاس، مع التناسب. وغرضه أن يعدّد ملاذَّه ومفاخره ويكثرها.

على أن هذه الآية سرّاً لذلك، زائداً على ما ذكر، وهو قصد تناسب الفواصل. ولو قرن الظمأ بالجوع فقيل: إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ، لانتثر سلك رؤوس الآي. وأحسنْ به منتظماً. انتهى. وهذا السرّ الذي سمّاه (قطع النظير عن النظير)

يسمى بالوصل الخفي. ومما قيل في وجه القطع: أن فيه التنبيه على أن الأولين، أعني الشبع والكسوة أصلان. وأن الأخيرين متممان. فالامتنان على هذا أظهر. ولذا فرّق بين القرينتين. فقيل (إنَّ لَكَ) و (أَنَّكَ) وأيضاً روعي مناسبة الشبع والكسوة. لأن الأول يكسو العظام لحماً. وأما الظمأ والضحى فمن وادٍ واحد. وقيل: إن الغرض تعديد هذه النعم. ولو قرن كل بما يشاكله، لتوهم المقرونان نعمة واحدة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾

﴿**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ**﴾ أي من أكل منها خلد ولم يمت ﴿**وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا**﴾ أي يلزقان ﴿**مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ**﴾ أي فحصل لهما هذا الخزي، بدل عزّ الملك المخلد. وهذه الأوراق الفانية، بدل نفائس الملابس الخالدة ﴿**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ**﴾ أي بارتكاب النهي، وترك العزم في حفظ العهد ﴿**فَغَوَى**﴾ أي عن المأمور به. حيث اعتز بقول العدوّ.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

﴿**ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ**﴾ أي اصطفاه ووفقّه للإنابة ﴿**فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ**﴾ أي بعد قبول توبته ﴿**اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً**﴾ أي انزلا من الجنة إلى الأرض ﴿**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ أي متعادين.

قال المهايمي: فالمرأة عدوّة الزوج، في إلجائه إلى تحصيل الحرام. والزوج عدوّها في إنفاقه عليها. وإبليس يوقع الفتنة بينهما، ويدعوهما إلى أنواع المفاسد التي لا ترتفع إلا باتباع الأمر السماويّ. ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً**﴾ أي من كتاب ورسول. ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى**﴾ أي لا في الدنيا ولا الآخرة. قال أبو السعود: ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله (هُدَايَ) مع الإضافة إلى ضميره

تعالى، لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتباعه. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَة أعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّه وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ اعلم أنه لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه في معاشه ومعاده، أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه، من شقائه في الدنيا والآخرة. وهذا الشقاء بقسميه، هو نوع من أفانين العذاب اللاحقة لمن تولى عن هدى الله الذي بعث به خاتم أنبيائه، ولم يقبله ولم يستجب له، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمرَ ربه.

وفي الآية مسائل:

الأولى – قال الرازي في قوله تعالى: ﴿عَن ذِكْرِي﴾: الذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى. ويحتمل أن يراد به الأدلة. وقال ابن القيّم في (مفتاح دار السعادة): أي عن الذكر الذي أنزلته. و (الذكر) هنا مصدر مضاف إلى الفاعل. كـ (قيامي وقراءتي) لا إلى المفعول. وليس المعنى: ومن أعرض عن أن يذكرني. بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر. وأحسن من هذا الوجه أن يقال: الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء، لا إضافة المصادر إلى معمولاتها. والمعنى: ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه، فإن القرآن يسمى ذكراً. قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [فصلت: ٤١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١]، وعلى هذا فإضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله. ونظيره في إضافة اسم الفاعل ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل

المتجدد، وإنما قصد الوصف الثابت اللازم. ولذلك جرت أوصافاً على أعرف المعارف، وهو اسم اللّه تعالى في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنبِ﴾ [غافر: ٢-٣] الآية.

الثانية - قرئ (ضَنكاً) بالتنوين على أنه مصدر وصف به، ولذا لم يؤنث لاستوائه في القبيلين. كما قال ابن مالك:

وَنَعَتُوا بمصدرٍ كثيراً فالتَزَمُوا الإفرادَ والتذكِيرَا

وفي القاموس: الضنك الضيق في كل شيء، للذكر والأنثى. يقال: ضَنُكَ ككرم، ضنكاً وضناكة وضنوكة، ضاق. وقال السمين: (ضنكاً) صفة معيشة. وأصله المصدر فلذلك لم يؤنث. ويقع للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ واحد. وقرأ الجمهور (ضنكاً) بالتنوين وصلاً، وإبداله ألفاً وقفاً، كسائر المعربات. وقرأت فرقة (ضنكي) بألف كسكري. وفي هذه الألف احتمالان: فإما أن تكون بدلاً من التنوين، وإنما أجرى الوصل مجرى الوقف، وإما أن تكون ألف التأنيث بني المصدر على (فعلى) نحو دعوى.

الثالثة - ذكروا في هذه المعيشة الضنك التي للكافر أقوالاً: إنها في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة أو في الدين. والأظهر الأول لمقابلته بالوعيد الأخروي. قال ابن كثير: أي ضنكاً في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره. بل صدره ضيّق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك. فلا يزال في ريبه يتردد. فهذا من ضنك المعيشة. انتهى.

وذلك لأن الاعتقاد بالدين الحق واليقين الصحيح لراحة الضمائر والأنفس، فوق كل الأهواء والذات والمآرب. فالضنك المعنيّ بها، إذن هو الضنك الحيويّ والقلق الدنيوي، من اضطراب القلب وعدم سكون النفس إلى الاعتقاد الحق والإيمان بالدين القيّم الذي هو دين الإسلام. فكل من لم يؤمن به فهو في ضيق صدر وهموم ومحابس، لا يجد منها مخارج إلا به ولا يرتاب في ذلك إلا من كابر حسه وناقض وجدانه. فإن دين الإسلام هو دين الفطرة. دين اليسر. دين العقل. دين النور الذي تنشرح به الصدور وتطمئن به القلوب وتشفى به الأنفس من أدوائها، وتهتدي به من ضلالها وحيرتها، وتستنير به من ظلماتها. ولذلك سمي هدىً ونوراً وشفاءً ورحمةً. ألق نظرك على الأديان كلها، وقابل بينها وبينه، لتدرك ذلك.

هذه اليهودية، يرى في اشتراعها في الآصار والأغلال والتكاليف الشاقة في المعيشة الحيوية ما لا يطاق. قيود في المأكل والمشرب. وحجر في المنكح والمبيت والمعاشرة. وضغط على الأنفس بتقسيمها إلى طاهرين يحضرون الاحتفالات، ونجسين مبعدين لا يَلْمسون ولا يُلْمسون. دغ عنك خرافات الاعتقادات والافتراء بالأهواء في التشريعات وتشعبها في الأهواء إلى شعب تتباين في العبادات.

وهذه النصرانية، الذي أساسها تعديل الشرعة الموسوية قام رهبانها بعد رفع المسيح، ومضي عصر الحواريين. فأطلقوا لأتباعهم كل قيد في اليهودية. وأمروهم بنبذ أحكام التوراة نكاية لليهود. وأخذوا يشرعون للناس ما لا ينطبق على أصل التوراة ولا بعثة عيسى. فإنه عليه السلام قال (ما جئت لأهدم الناموس – التوراة – بل لأتممه): فترى ما أحدث من طقوس الكنيسة وتعاليمها، اعتقاداً وعبادة وسلطة وسيطرة جائرة على العقل والفكر، وربط الأمور بأيدي الكهنة حلاً وإبراماً، تبعاً لرغائب الأنفس والشهوات، مما يتضجر منه كل مسيحّي ذاق جوهر الدين المسيحي حقّاً. إذ جوهره مع ابتداعهم على طرفي نقيض، فأنّى لا يضيق ذرعه ولا تضنك معيشته! لذلك لما استقر سلطان الإسلام بالأندلس، واحتك النصارى بالمسلمين في الحروب الصليبية، واستمدوا من معارف الإسلام وعلومه ماقلد جيدهم مناً لا تنكر؛ أخذُوا يقاومون الكنيسة في حظرها على المعارف والفنون، ومعاداتها للعلوم. وجرى بإغراء الكهنة، من الدماء المسفوكة ما اسودت به صحف التاريخ. ثم كان الفوز لدعاة الإصلاح. وتفرقوا أحزاباً. ولا يزالون يتقربون إلى الإسلام، بنبذهم سخائف ما ورثوه. ولذا تراهم في عيشة ضنك يسعون لأرقى مما هم عليه، علماً بأن الدخائل والبدع في دينهم، أفسدت عليهم ما أفسدت. ولن يتسنى لهم الرقي إلا بالرجوع إلى دين الفطرة. وهم يسعون إليه، وإن كانوا لا يشعرون، أو يشعرون ويتجاهلون. هذه رشحات من المعيشة الضنك لأمتين عظيمتين، وهما تنتميان إلى كتابين منزلين.. فما ظنك بالمجوس والوثنيين وفرقهم التي لا تحصى. ولا يزال عقلاؤهم يطلبون التملص منها، لكثرة خرافاتها وضررها، نفساً ومالاً وعرضاً. فأهلها في شقاء وعذاب لا يشاكله عذاب. ومن نجا من ويلاتها بالإسلام، لا يعد ولا يحصى. وقس على هؤلاء، الطائفة المسماة بالماديين. وهم الدهريون والطبيعيون. فإنهم بلا ريب أضيق صدراً وأضنك معيشة وأشد اضطراباً وأعظم فرقة. فلا يمكن أن يوجد اثنان على رأي واحد. بل يتصور كل منهم إلهه كما يهوى وكما تخيِّلُهُ له رغائبه وشهواته. قال بعضهم: هؤلاء الذين يحصرون دينهم في أن يعرف الإنسان اللّه، ويكون مستقيماً في أعماله، إذا سئلوا: ما هو الدين الطبيعي الذي تعترفون به؟ فيجيبون إنما هو الذي

يرشد إليه العقل عريّاً عن الوحي. فيقال لهم: العقل، من حيث هو، ضعيف متغيّر قاصر. يرى اليوم صوباً ما يراه في الغد خطأً. ويحكم اليوم على أمر أنه حلال مباح، ويرى غداً أنه حرام لا يجوز إتيانه. تحمله أغراضه على استحلال ما يلذّ له وتجعله مستنفراً مما يضادّ أهواءه، فكيف يكون صاحبه مستقيماً في أعماله؟ وما هي القاعدة المطردة الثابتة للاستقامة عند هؤلاء؟ وكلٌّ يرى نفسه ويخيّل له أنه مستقيم!! فالصيني مثلاً يرى نفسه مستقيماً ولو باع أو قتل أولاده. والهندي يرى هذه الاستقامة في نفسه، ولو أحرق المرأة على جثة رجلها. والوثني يرى نفسه مستقيماً، ولو ارتكب الفحشاء تكرمة للزهرة.

هذا، وإن أكبر الفلاسفة ضلّوا في موادّ ما يشرعون. ولم يهتدوا لجادّة الاستقامة الحقة. فأنّى يمكن لعامة الناس أن يكون لكل منهم دين طبيعي يقلبه كيف شاء، ويجعله كشيء مرن، يمده إلى ما طاب له، ويقصره عن كل ما عافه. فيختلف هذا الدين باختلاف العقول والأهواء فيهم. وكيف نسمي شريعة ثابتة عامة، ما كان وقفاً على إرادة كل فرد وأهوائه؟ وإذا سلمنا، مجاراة، أنه يوجد من كان ميّالاً طبعاً إلى الاستقامة والعدل والعفة، فيحمله طبعه على ذلك، فماذا نقول فيمن كان بالطبع محبّاً للانتقام والاعتداء والشهوات. لا سيما والعقل ضعيف والنفس أمّارة بالسوء، فأنَّى يكون العقل وحده وازعاً عن ارتكاب المعاصي والجرائم. فما قضى سبحانه بشريعته لمخلوقاته رحمة منه بهم، إلا لضعفهم وميلهم إلى الشر. وضعف الإنسان وانحرافه يقضي بإلزامه شريعة يخضع لها. فهي ضرورية له ضرورة نظام الأجرام الفلكية لها. وملازمة له ملازمة النطق والإدراك والحرية، ولزوم الامتداد والثقل والجذب والدفع للأجرام الجامدة. وأول بينة على ملازمة الشريعة طبعَ الإنسان، ما يجده في نفسه ووجدانه من انغراسها فيه انغراساً نظريّاً. حتى لا يمكنه أن يجرّد نفسه. مثلاً، كيف يمكن للإنسان، ولو مهما تعامى في الشر، أن يجرّد نفسه عن تصور أنه خاضع لشريعة تنهاه عن القتل واختلاس مال غيره والاعتداء عليه بأيّ نوع كان؟ فالشريعة مكتوبة على قلوبنا في ألواح لحمية. ومن بحث عن عموم سكان البسيطة، وجد إجماع القبائل والشعوب قاطبة على شرائع، وإن اختلفت في بعض موادها. والحرية التي منحت للإنسان إنما قيدت محاسنها بالشرائع والخضوع لها. وإلا فهي دمار لنظام العالم، وجائحة للأدب، وآفة لما غرس البارئ في عقول الناس أجمعين، من عهد آدم إلى يومنا هذا. وذلك لاستلزامها إفساد الطبع الإنساني، والإجحاف بالشرائع الأدبية. لأن الإنسان متى علم أن ليس له إله يثيب على الخير

ويعاقب على الشر، أطلق لنفسه عنان الفساد، واطّرح العذار في مضمار الشهوات وإحراز الرغائب، قضاءً لما يحسبه من سعادته، واعتقاد أن نفسه ليست خالدة. وليس لسعادته موضوع خارج عن هذه العاجلة. ولاستلزامها أيضاً هدم الاجتماع الإنسانيّ والذهاب بشأفته. إذ لا ترعى بعد اللّه ذمة بين الملأ، ولا حرمة للسنن والشرائع، ولا برٌّ بالملوك، ولا عدل بالرعية، ولا محبة ولا صدق ولا وفاء ولا نحو ذلك مما هو ضروريّ بالذات لقيام الألفة البشرية ونظام العمران.

وبالجملة، فلا يظنن أحد أن العالم يدوم أو يبقى فيه شيء من النظام أو الهيئة الاجتماعية، إذا لم يكن الناس مقيّدين بشريعة إلهية، تصدّ الفاجر عن الفجور. فكما أن الهواء ضروريّ للحياة الطبيعية، فكذا الشريعة ضرورية للحياة الأدبية. فلا حياة للموجودات الحية دون هواء، فكذا لا انتظام ولا هيئة في العالم دون الشريعة. انتهى.

وقال إمام مدقق، في بحث تصحيح الاعتقاد وضرورته لطمأنينة النفس وسعادتها، ما مثاله: إنا نرى أمام أعيننا بعضاً من الناس قد رزقوا صحة عظيمة وثروة جسمية وتهذبوا بأنواع العلوم والمعارف، ولكنهم كثيرو الضجر شديدو الحيرة. لا يكادون يشعرون بالراحة ولا يلتذون بملذة. كأن لهم في لذة ألماً، وبإزاء كل فرح ترحاً، يحسّون بكآبة قد رانت على صدورهم: فلا يعلمون سببها ولا يعرفون موجبها. كآبة لا تزايلهم إلا بزوال عقولهم عنهم، بكأس من الرحيق. فلذلك تراهم شديدي الكلف به كثيري التحرق لفقدانه، لأنه دواؤهم الوحيد. ما سر هذا الأرق والضجر، مع هذه الصحة الجسمية وتلك الثروة المالية، وهما الأمران اللذان عليهما، كما يزعمون، مدار السعادة الإنسانية؟ ما هذه الحيرة الوجدانية والوحشة الضميرية، مع تهذبهم بأنواع العلم، وهو كما يزعمون، الشافي للناس من نزعات الوسواس؟.

أما يدلنا هذا الضجر السري على أن النفس تائقة لأمر ما، إن غاب على الإنسان علمه، فقد دله عليه أثره. وإن ذلك الأمر ليس هو صحة البدن ولا وفرة المال ولا كثرة البنين، ولا سكنى القصور، ولا أكل الصنوف، ولا سماعٍ العيدان، ولا مغازلة الغيد. بل هو أمر آخر لا تعد هذه الملاذ بالنسبة له إلا هباء، ولا الأكوان بجانبه إلا فناءً.. ما هو هذا الأمر السامي الذي لو حصلت عليه النفس اطمأنت وسكنت، وهامت به وسكرت، ورضيت به وقنعت. هو لا شك صحة المعتقد، وإليك الدليل:

ليست النفس من طبيعة هذه الأجسام الصماء. ولا من طينة هذه المادة العمياء، حتى تأنس إلى شيء من أشياء هذه الأرض الحقيرة، أو تهتم بملاذها مهما

كانت كبيرة. بل هي من طبيعة نورانية محضة. فلا تأنس إلا لنور يجلي عنها ظلمات الأشياء الأرضية الكثيفة، لتشرف على حضرة القدس المنيفة، وتطل على حظائرها الشريفة. النفس أجلّ من أن تقنع بالمشتهيات الجسمانية، وأكبر من أن ترضى بملاذها المموهة الفانية. فمهما غالط الإنسان نفسه، بجمع المال ورفاهة الحال، ليرتاح سره ويسكن اضطرابه، فإن النفس لا تفتأ تقيم عليه الحجة بعد الحجة، ليهتدي إلى وَضَحِ المحجة. فإن تبصر في أمره، واكتنه حقيقة سره، وأنال نفسه بغيتها من إبلاغها نورها المرجوّ لها، سكن فؤاده وآب إليه رشاده. ولو كان جسمه بين القنا والقنابل. وحاله من الفقر في أخس المنازل. فما هو السبيل إلى إبلاغ هذه النفس الهائمة أمنيتها، وإمتاعها بطلبتها، من صحة العقيدة؟ السبيل لذلك هو العقل السليم. العقل في النوع الإنسانيّ خصيصة من أجلّ خصائصه، ومنحة من أفضل منح اللّه عليه، لو استعمل فيما وضع له، واعتنى بصحته واعتداله. بالعقل يسبر الإنسان غور هذا الوجود العظيم، على ضخامة أجزائه وعظم أبعاده، ويستكنه سير النواميس السائدة عليه، فيستدل بها على وجود الخالق عزَّ وجلَّ، وعلى تنزه أفعاله عن العبث، وصنائعه عن اللهو. كما يستدل به على علمه وتدبيره ورحمته وحكمته، استدلالاً محسوساً لا يقبل شبهة ولا يداخله ريبة. بالعقل يدرس الإنسان أحوال الجمعيات البشرية. فيرى نواميس رقيّها وهبوطها، وأسباب رفعتها وضعتها. ويتبصر في أحوال الأنبياء الذين أرسلهم اللّه إلى خلقه هادين مرشدين. فيستدل بالتدقيق فيما جاؤوا به، وفي الآثار التي تركوها، على معنى النبوّة وضرورتها للبشر. وحكمة اللّه تعالى في اختلاف المدارك والإحساسات، وفي تباين الملل والديانات. بالعقل يميز الإنسان بين أحوال الماضي والحال. فيفرق تبعاً لذلك بين الديانات الخاصة وبين الديانات العامة. ويعثر بتعضيد العلم والبدائه، على الديانة التي يجب أن تكون خاتمة الأديان كلها، وباقية بقاء النوع الإنسانيّ، وهي شريعةِ خاتم النبيين صلوات اللّه عليه وسلامه.

الرابعة - رأيت للإمام ابن القيّم، رحمه اللّه، كلاماً على هذه الآية في كتابيه: (الجواب الكافي) و (مفتاح دار السعادة) فأحببت نقله هنا لفوائده وللعناية بهذه الآية، فإنها جديرة بذلك. قال في (الجواب الكافي) في فصل أبان فيه العقوبات المترتبة على المعاصي: ومنها المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة. قال: وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر. ولا ريب أنه من المعيشة الضنك. والآية تتناول ما هو أعمّ منه، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات، فإن عمومها من حيث المعنى. فإنه سبحانه رتّب المعيشة الضنك على الإعراض عن

ذكره. فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأوصاف النعم، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب، والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر. فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر. فإنه يفيق صاحبه، ويصحو. وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر في عسكر الأموات. فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر اللّه الذي أنزله على رسوله ﷺ في الدنيا وفي البرزخ ويوم المعاد. ولا تقرّ العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل، فمن قرت عينه باللّه، قرت به كل عين. ومن لم تقر عينه باللّه، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. واللّه تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن باللّه وعمل صالحاً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح، الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة، والحسنى يوم القيامة. فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]، ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة، هو النعيم على الحقيقة. ولا نسبة لنعيم البدن إليه، فقد كان بعض من ذاق هذه اللذة يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف. وقال آخر: إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيّب. وقال آخر: إن في الدنيا جنة، هي في الدنيا كالجنة في الآخرة. من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقد[١] أشار النبيّ ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر. وقال[٢]: ما بين بيتي ومنبري روضة من

(١) أخرجه الترمذي في: الدعوات، ٨٢- باب حدثنا يوسف بن حماد البصري.

(٢) أخرجه البخاري في: الصلاة في مسجد مكة والمدينة، ٥- باب فضل ما بين القبر والمنبر، حديث ٦٤٨، عن عبد اللّه بن زيد المازني.

رياض الجنة) ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]، يختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة. وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة. وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته؟ وهل عيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟ وقد أثنى اللّه تعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣-٨٤]، وقال حاكياً عنه أنه قال: ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة. فسلم من كل آفة تبعده من اللّه، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره. وسلم من كل إرادة تزاحم مراده. وسلم من كل قاطع يقطعه عن اللّه. فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد انتهى ملخصاً.

وقال رحمه اللّه في (مفتاح دار السعادة): فَسَّرَ غير واحد من السلف قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ بعذاب القبر. وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر. ولهذا قال ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ أي تترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا. فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار، ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً﴾ [غافر: ٤٦]، فهذا في البرزخ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ فهذا في القيامة الكبرى. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فقول الملائكة ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ المراد به عذاب البرزخ الذي أوله يوم القبض والموت. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، فهذه الإذاقة في البرزخ. وأولها حين الوفاة، فإنه معطوف على قوله ﴿يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ وهو من القول المحذوف لدلالة الكلام عليه كنظائره. وكلاهما واقع وقت الوفاة.

وفي الصحيح[1]، عن البراء بن عازب في قوله ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، قال: نزلت في عذاب القبر. والأحاديث في عذاب القبر تكاد تبلغ حد التواتر. والمقصود أن اللّه سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى، بأن له معيشة ضنكاً، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحيه حياة طيبة ويجزيه أجره في الآخرة فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعده علماً وعملاً في العاجلة بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء. وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ، ونسيانه في العذاب في الآخرة. وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧]، فأخبر سبحانه أن ابتلاءه بقرينه من الشياطين وضلاله به، إنما كان لسبب إعراضه وعشوّه عن ذكره الذي أنزله على رسوله. فكان عقوبة هذا الإعراض، أن قيض له شيطاناً يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه. وهو يحسب أنه مهتد. حتى إذا وافى ربه يوم القيامة من قرينه، وعاين هلاكه وإفلاسه قال: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨]، وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر اللّه، فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة.

فإن قيل: فهل لهذا عذر في ضلاله، إذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى: ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧]؟ قيل: لا عذر لهذا وأمثاله في الضلال، الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول. ولو ظن أنه مهتد، فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى. فإذا ضل فإنما أُتي من تفريطه وإعراضه. وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة، وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكم آخر.

والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول. وأما الثاني فإن اللّه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ١٤- سورة إبراهيم، ٢- باب ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، حديث ٧٢٥.

الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى في أهل النار: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٩]، وهذا كثير في القرآن.

الخامسة – قال ابن القيم: اختلف في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى﴾ هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر؟ والذين قالوا هو من عمى البصيرة، إنما حملهم على ذلك قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦-٧]، ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة لقوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣-١٥]، وقوله: ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

والذين رجحوا أنه من عمى البصر، قالوا: السياق يدل عليه لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً﴾ وهو لم يكن بصيراً في كفره قط، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق. فكيف يقول ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً﴾ وكيف يجاب بقوله ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾؟ بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمي البصر وأنه جوزي من جنس عمله. فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته، أعمى الله به بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب، كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة. وعلى تركه ذكره، تركه في العذاب. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقد قيل في هذه الآية أيضاً: إنهم عمي وبكم وصم عن الهدى. كما قيل في هذه الآية قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون.

ومن نَصَرَ أنه العمى والبكم والصمم، المضادّ للبصر والسمع والنطق، قال: هو

عمي وصمم وبكم مقيد لا مطلق. فهو عمي عن رؤية ما يسرهم وسماعه. وهذا قد روي عن ابن عباس قال: لا يرون شيئاً يسرهم. وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة، يخرجون من الدنيا كذلك. فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك. ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد. وهذا مروي عن الحسن.

وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها، سلبوا الأسماع والأبصار والنطق، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى: ﴿ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فَيُبْصَرُونَ بأجمعهم، عمياً بكماً صمّاً، لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون. ولا يسمع فيها بعدها إلا الزفير والشهيق. وهذا منقول عن مقاتل.

والذين قالوا: المراد به العمي عن الحجة، إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حُجَّةً، هم عُمْيٌ عنها، بل هم عُمْيٌ عن الهدى كما كانوا في الدنيا. فإن العبد يموت على ما عاش عليه. ويبعث على ما مات عليه. وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر، وأنه عمي البصر. وأن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً، ويقرّ بما كان يجحد في الدنيا. فليس هو أعمى عن الحق يومئذ.

وفصل الخطاب؛ أن الحشر هو الضم والجمع. ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة، لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم[1] (إنكم محشورون إليّ حفاة عُراة) وكقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير: ٥]، وكقوله تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ [الكهف: ٤٧]، ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر. فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة. وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار. لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿ يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصافات: ٢٠-٢١]، ثم قال تعالى: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ... ﴾ [الصافات: ٢٢]، الآية وهذا الحشر الثاني. وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثاني، يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون، وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً. ولكل موقف حال يليق به، ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته. فالقرآن يصدق بعضه بعضاً ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ [النساء: ٨٢]. انتهى.

---

(١) أخرجه البخاري في: الأنبياء، ٨- باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾، حديث ١٥٨٥ عن ابن عباس.

السادسة – قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ أي لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها. كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ [الأعراف: ٥١]، فإن الجزاء من جنس العمل. فالنسيان مجاز عن الترك.

قال ابن كثير: فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه، والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص. وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى. فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك.

روى الإمام أحمد عن سعد بن عبادة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال[1]: «ما من رجل قرأ القرآن فنسيه، إلا لقي الله يوم يلقاه، وهو أجذم»؛.

السابعة – قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ... ﴾ الآية، أي وهكذا نجزي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة. وعذاب الآخرة أشد وأبقى، من ضنك العيش في الدنيا. لكونه دائماً. ثم أشار تعالى إلى تقرير ما تقدم من لحوق العذاب، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾

﴿ **أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ** ﴾ أي لهؤلاء المكذبين ﴿ **كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ** ﴾ أي الأمم المكذبة للرسل ﴿ **يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ** ﴾ يريد قريشاً، أي يتقلّبون في بلاد عاد وثمود ولوط ويعاينون آثار هلاكهم، وأن ليس لهم باقية ولا عين ولا أثر ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى** ﴾ أي العقول السليمة. كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾

﴿ **وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمّىً** ﴾ بيان لحكمة تأخير عذابهم مع إشعار قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ... ﴾ الآية، بإهلاكهم مثل هلاك (أولئك)

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥ / ٢٨٤ .

والكلمة السابقة، قال القاشانيّ: هو القضاء السابق أن لا يستأصل هذه الأمة بالدمار والعذاب في الدنيا، لكون نبيّهم نبيّ الرحمة. وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقال الزمخشري: الكلمة السابقة هي العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة. يقول: لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وثموداً لازماً لهؤلاء الكفرة. و(اللزام) إما مصدر (لازم) كالخصام، وصف به مبالغة. أو اسم آلة لأنها تبنى عليه كحزام وركاب، واسمُ الآلة يوصف به مبالغة أيضاً، كقولهم: مِسْعَرُ حَرْبٍ، ولِزَازُ خَصْمٍ بمعنى مُلِحّ علَى خَصمه. من (لَزَّ) بمعنى ضيق عليه.

وجوز أبو البقاء فيه كونه جمع (لازم). كقيام جمع قائم.

وقوله تعالى: ﴿وأَجَلٌ مُسَمّىً﴾ عطف على (كلمة) أي ولولا أجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم، وهو يوم القيامة أو يوم بدر، لما تأخرعذابهم أصلاً.

قال أبو السعود: وفصله عما عطف عليه، للإشعار باستقلال كل منهما، بنفي لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآية الكريمة.

وقد جوز عطفه على المستكن في (كان) العائد إلى الأخذ العاجل، المفهوم من السياق، تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد. لكان الأخذ العاجل، وأجل مسمى لازمين لهم، كدأب عاد وثمود وأضرابهم. ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِن ءَانَاءِ الَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ أي إذا كان تأخير عذابهم ليس بإهمال بل إمهال، فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر، فالفاء سببية. والمراد بالصبر عدم الاضطراب لما صدر منهم، لا ترك القتال حتى تكون الآية منسوخة. وفي التسبيح المامور به وجهان:

الأول – أنه التنزيه. والمعنى: ونزه ربك عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائص، حامداً له على ما ميَّزك بالهدى، معترفاً بانه المولى للنعم كلها. ومن صيغه

المأثورة (سبحان الله وبحمده). وعليه فسرُ تخصيص هذه الأوقات الإشارة إلى الدوام، مع أن لبعض الأوقات مزية يفضل بها غيرها.

الثاني - أنه الصلاة وهو الأقرب لآية ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالْصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، والآيات يفسر بعضها بعضاً. والمعنى: صلّ وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه، قبل طلوع الشمس، يعني صلاة الفجر. وقبل غروبها، يعني صلاة الظهر والعصر، لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار، بين زوال الشمس وغروبها ﴿وَمِنْ ءَانَاءِى الَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي من ساعاته، يعني المغرب والعشاء. وإنما قدم الوقت فيهما، لاختصاصهما بمزيد الفضل. وذلك لأن أفضل الذكر ما كان بالليل لاجتماع القلب وهدوءِ الرِّجْلِ والخلوِّ بالرب تعالى. ولأن الليل وقت السكون والراحة، فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق، وللبدن أتعب وأنصب، فكانت أفضل عند الله وأقرب.

قوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ تكرير لصلاة الفجر والمغرب، إيذاناً باختصاصهما بمزيد مزية. ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس، والمرجح مشاكلته لـ ﴿ءانَاءِى اللَّيْلِ﴾ أو أمر بصلاة الظهر. فإنه نهاية النصف الأول من النهار، وبداية النصف الأخير. وجمعه باعتبار النصفين. أو لأن النهار جنس فيشمل كل نهار، أو أمر بالتطوع في أجزاء النهار.

وقال الرازي: إنما أمر، عقيب الصبر، بالتسبيح، لأن ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة. إذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى. قلت: وقد أشير إلى حكمة الأمر بالصبر والتسبيح بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ أي رجاء أن تنال ما به ترضى نفسك، من رفع ذكرك. ونقهرك على عدوك وبلوغ أمنيتك من ظهور توحيد ربك وهذا كقوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

ثم أشار تعالى إلى أن ما متع به الكفار من الزخارف، إنما هو فتنة لهم فلا ينبغي الرغبة فيه، وإن ما أويته أجل وأسمى، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾

﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ﴾ أي أصنافاً من الكفرة ﴿زَهْرَةَ

﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي زينتها. منصوب على البدلية من ﴿أَزْوَاجاً﴾ أو بـ ﴿مَتَّعْنَا﴾ على تضمينه معنى: أعطينا وخولنا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم فيما متعناهم به من ذلك ونبتليهم. فإن ذلك فانٍ وزائل وغرور وخدع تضمحل.

قال أبو السعود: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿مَتَّعْنَا﴾ جيء به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلاً، إثر إظهار بهجته حالاً. أي لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه. أو لنعذبهم في الآخرة بسببه ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي ثوابه الأخرويّ خير في نفسه مما متعوا به وأدوم، كقوله تعالى: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ [القصص: ٨٠]، أو المعنى ما أوتيت من النبوة والهدى، خير مما فتنوا به وأبقى، لأنه لا مناسبة بين الهدى الذي تتبعه السعادة في الدارين، وبين زهرة يتمتع بها مدة ثم تذبل وتفنى. وفي التعبير بـ (الزهرة) إشارة لسرعة الاضمحلال، فإن أجلها قريب. ومن لطائف الآية ما قاله الزمخشريّ رحمه الله، ونصه: مد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحساناً للمنظور إليه، وإعجاباً به وتمنياً أن يكون له. كما فعل نظارة قارون حين قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّه لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]، حتى واجههم أولو العلم والإيمان بـ ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ [القصص: ٨٠].

وفيه: أن النظر غير الممدود معفوّ عنه. وذلك مثل نظر من بَادَهَ الشيء بالنظر ثم غض الطرف. ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز في الطباع، وإن من أبصر منها شيئاً أحب أن يمد إليه نظره ويملأ منه عينيه، قيل: ولا تمدنّ عينيك. أي لا تفعل ما أنت معتاد له وضارٍ به. ولقد شدد العلماء من أهل التقوى في وجب غض البصر عن أبنية الظلمة، وعُدَد الفسقة في اللباس والمراكب وغير ذلك، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة، فالناظر إليها محصل لغرضهم، وكالمغري لهم على اتخاذها. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ﴾ يعني (بأهله) أهل بيته أو التابعين له. أي مرهم بإقامتها لتجذب قلوبهم إلى خشية الله ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي على أدائها، لترسخ بالصبر عليها ملكة الثبات على العبادة، والخشوع والمراقبة، التي ينتج عنها كل خير. ثم أشار تعالى إلى أن الأمر بها، إنما هو لفلاح المأمور ومنفعته، ولا يعود على

الآمر بها نفع مَّا، لتعاليه وتنزهه بقوله ﴿لاَ نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي لا نسألك مالاً. بل نكلفك عملاً ببدنك نؤتيك عليه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً. ومعنى: نحن نرزقك، أي نحن نعطيك المال ونكسبك ولا نسألكه. قاله ابن جرير.

وقال أبو مسلم: المعنى أنه تعالى إنما يريد منه ومنهم العبادة. ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج. وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونَ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦–٥٧]، وقال بعض المفسرين: معنى الآية. أقبل مع أهلك على الصلاة واستعينوا بها على خصاصتكم. ولا تهتموا بأمر الرزق والمعيشة، فإن رزقك مكفي من عندنا، ونحن رازقوك. وهذا المعنى لا تدل عليه الآية منطوقاً ولا مفهوماً. وفيه حض على القعود عن الكسب، ومستند للكسالى القانعين بسكنى المساجد عن السعي المأمور به. وقد قال تعالى: في وصف المتقين ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، إشارة إلى جمعهم بين الفضيلتين. ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١].

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي والعاقبة الحسنة من عمل كل عامل، لأهل التقوى والخشية من الله، دون من لا يخاف له عقاباً ولا يرجو له ثواباً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾

﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ يعنون ما تعنتوا في اقتراحه مما تقدم، في سورة بني إسرائيل، من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ...﴾[الإسراء: ٩٠–٩١] الآية.

وقول تعالى: ﴿أَوَ لَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ أي: أو لم يأتهم بيان ما في الكتب التي قبل هذا الكتاب، من أنباء الأمم من قبلهم، التي أهلكناهم لما سألوا الآيات، فكفروا بها لما أتتهم، كيف عجلنا لهم العذاب، وأنزلنا بهم بأسنا بكفرهم بها. يقول: فماذا يؤمنهم إن أتتهم الآية، أن يكون حالهم حال أولئك. هذا ما قاله ابن جرير.

وذهب غيره إلى أن المعنى: أو لم يأتهم آية هي أم الآيات وأعظمها، وهي معجزة القرآن المبينة لما في الكتب الأولى من التوراة والإنجيل والزبور. مع أن الآتي

بها أمّيٌّ لم يرها ولم يتعلم ممن علمها. فنقب منها على الصحيح من أنبائها فصدقه، وعلى الباطل المحرف فَفَنَّدَهُ. وفيه إشعار بكفاية التنزيل في الإعجاز والبرهان كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّه، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّه وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١]، ولذلك قال أحد حكماء الإسلام. إن الخارق للعادة الذي يعتمد عليه الإسلام في دعوته إلى التصديق برسالة النبيّ ﷺ هو الخارق الذي تواتر خبره ولم ينقطع أثره. وهو الدليل وحده. وما عداه مما ورد في الأخبار، سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وهي، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين. فإذا أورد في مقام الاستدلال، فهو على سبيل التقوية للعقد لمن حصل أصله، وفضلٌ من التاكيد لمن سلمه من أهله. ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين، هو القرآن وحده. والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة، تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر، هو أنه جاء على لسان أميّ لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم، وقد نزل على وتيرة واحدة هادياً للضال مقوماً للمعوج كافلاً بنظام عام لحياة من يهتدي به من الأمم، منقذاً لهم من خسران كانوا فيه. وهلاك كانوا أشرفوا عليه. وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق إليه كلام سواه، حتى لقد دعي الفصحاء والبلغاء، أن يعارضوه بشيء من مثل، فعجزوا ولجأوا إلى المجالدة بالسيوف، وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به، إلى أن الجاؤهم إلى الدفاع عن حقهم، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الإسلام تمد عالمها باضوائها، وتنشر أنوارها في جوائها. وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم. وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما تنتهي إليه قوتهم، فإما وجدوا طريقاً لإبطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلاً على المدعي، فعليهم أن يأتوا به، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِه﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّه لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [النساء: ٨٢]، وقال غير ذلك، مما هو مطالبة بمقاومة الحجة بالحجة. ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رَغْمٍ من العقل.

معجزة القرآن جامع من القول والعلم. وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم. فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها، واطلقت له حق النظر في أحنائها. ونشر ما انطوى في أثنائها. وله منها حظه الذي لا ينتقص. فهي معجزة

أعجزت كل طوق أن يأتي بمثلها. ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها. أما معجزة موت حيّ بلا سبب معروف للموت، أو حياة ميت أو إخراج شيطان من جسم، أو شفاء علة من بدن، فهي مما ينقطع عنده العقل ويجمد لديه الفهم. وإنما يأتي بها اللّه على يد رسله لإسكات أقوام غلبهم الوهم ولم تضئ عقولهم بنور العلم. وهكذا يقيم اللّه بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات.

وقال فاضل آخر: قضت مراحم اللّه جلّ شأنه أن يكوّن الأكوان في الطبيعة على ترتيب محكم. ينطق بلسان الصمت للمتبصر، ويظهر بلباس الوضوح للمتفكر، ويحبب إليه الانتقال منه إلى غيره بدون أن يشعر بملل ولا سآمة، ولا يؤوب من استبصاره بندامة، بدون هذا الاعتبار بالعقل، لا ياتي للنفس أن تصح عقيدتها، ولا يتأتى لها تبعاً لذلك أن تسكن من اضطرابها. هذا، ولا ننكر أنه قد مضى على النوع الإنساني زمن كان فيه العقل في دور الطفولية. وكان يكفيه في الإيمان أن يندهش لأمر خارق للطبيعة، يعطل من سير نواميسها وقتاً مّا. وكان اللّه سبحانه وتعالى يرأف بعباده فيرسل إليهم رسلاً يمتعهم بخصائص تعجز عن اكتناه سرها عقولهم. وتندهش لها الباب‍هم، فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه، وأما الآن، حيث بلغ العقل أشده، والنوع الإنسانيّ رشده، فلا تجدي فيه معجزة، ولا تنفع فيه غريبة. لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة الموادّ العلمية. فإن حدث حادث من هذا القبيل رموا فاعله بالتدليس أوّلاً، ثم إذا ظهر لهم براءته منه أخذوا يعللون معجزته بكل أنواع التعليلات. هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإن طائفة الاسبيريت الروحيين في أوربا تعمل الآن من الأعمال المدهشة الخارقة لنواميس الطبيعة، مالو رآه الجهلاء لظنوا به أنه من أكبر المعجزات، من أن القوم لا يدّعون النبوة، ولا يزعمون الرسالة. نعم، لا ننكر أن أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولكنه بدون شك، يقلل من أهميتها في نظر الذين يقفون مع ظواهر الأشياء.

ومما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات، تكذيب علماء أوربا بكل المعجزات السابقة. وهو، وإن كان تهوراً منهم، إلا أنهم مصيبون في قولهم إننا في زمان لا يجدي فيه الاعتقاد إلا النور العقلي والدليل العلمي. لهذه الأسباب جاءت الشريعة الإسلامية تدعو إلى السبيل الحق، ببدائه العقل، وقواعد العلم. صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات. لعلم اللّه سبحانه وتعالى بأنه سيأتي زمان تؤثر فيه المقررات العلمية على القوة العقلية، ما لا تؤثر عليها الخوارق للنواميس الطبيعية. انتهى.

ثم أشار تعالى إلى منته في إرسال الرسول صلوات الله عليه، والإعذار ببعثته، بقوله سبحانه:

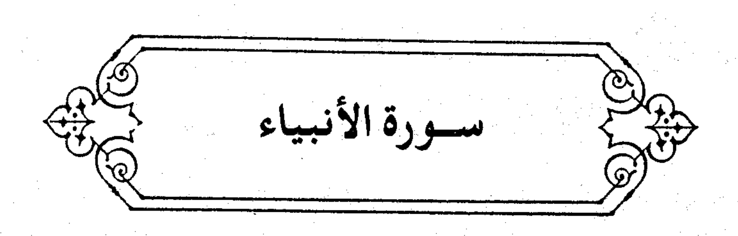
القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل إتيان البينة، أو محمد عليه السلام ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتك مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ أي بالعذاب الدنيويّ ﴿وَنَخْزَى﴾ أي بالعذاب الأخرويّ. أي ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها. فانقطعت معذرتهم. فعند ذلك، قالوا: بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ﴿قُلْ﴾ أي لأولئك الكفرة المتمردين ﴿كُلٌّ﴾ أي منا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ﴾ أي عن قرب ﴿مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي المستقيم ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ أي من الزيغ والضلالة. أي هل هو النبيّ وأتباعه، أم هم وأتباعهم.

وقد حقّق الله وعده. ونصر عبده. وأعز جنده. وهزم الأحزاب وحده. فله الحمد في الأولى والآخرة.

بسم الله الرحمن الرحيم



سميت بذلك لاشتمالها على فضائل جليلة، لجماعة منهم عليهم السلام. وهي مكية واستثنى منها بعضهم آية ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٤]، وهي مائة واثنتا عشرة آية. وروى البخاريّ عن عبد اللّه ابن مسعود قال: بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلادي.

قال ابن الأثير: أي من أول ما أخذته وتعلمته بمكة. والتالد: المال القديم الذي ولد عندك، وهو نقيض الطارف.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ أي دنا لأهل مكة ما وعدوا به في الكتاب من الحساب الأخرويّ وهو عذابهم ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ أي عما يراد بهم ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي مكذّبون به. وإنما كان مقترباً لأن كل آت وإن طالت أوقات استقباله وترقبه، قريب. وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يرونَهُ بَعيداً ونَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [المعارج: ٦-٧]، وقال تعالى ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧]، ولا يخفى ما في عموم (الناس) من الترهيب البليغ. وإن حق الناس أن ينتبهوا لدنو الساعة، ليتلافوا تفريطهم بالتوبة والندم. كما أن في تسمية يوم القيامة، بيوم الحساب زيادة إيقاظ، لأن الحساب هو الكاشف عن حال المرء، ففي العنوان ما يرهب منه، ولو قيل بأن الحساب أعم من الدنيويّ والأخرويّ لم يبعد، ويكون فيه إشارة إلى قرب محاسبة مشركي مكة بالانتصاف منهم والانتصار عليهم، كما أشير إليه في آية ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾ [المائدة: ٥٢]، ووعد به النبيّ وصحبه في آيات كثيرة. إلا أن شهرة الحساب فيما بعد البعث الأخرويّ، حمل المفسرين على قصر الآية عليه. و الله أعلم. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ تقريع لهم على مكافحة الحكمة بنقيضها. وتسجيل عليهم بالجهل الفاضح. فإن من حق ما يذكر أكمل تذكير، وينبه على الغفلة أتم تنبيه، أن تخشع له القلوب وتستخذي له الأنفس.

قال الزمخشريّ: بعد أن وصفهم بالغفلة مع الإعراض، قرر إعراضهم عن تنبيه

المنبه وإيقاظ الموقظ، فان اللّه يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً. ويحدث لهم الآية بعد الآية، والسورة بعد السورة، ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة، لعلهم يتعظون. فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر، التي هي أحق الحق وأجد الجد، إلا لعباً وتلهياً واستسخاراً. و(الذكر) هو الطائفة النازلة من القرآن. انتهى.

تنبيه:

استدل بهذه الآية من ذهب إلى حدوث كلامه تعالى المسموع. وهم المعتزلة والكرامية والأشعرية. فأما المعتزلة فقالوا إنما كان القرآن حادثاً لكونه مؤلفاً من أصوات وحروف. فهو قائم بغيره وقالوا: معنى كونه متكلماً، أنه موجد لتلك الحروف والأصوات في الجسم. كاللوح المحفوظ أو كجبريل أو النبيّ عليه الصلاة والسلام، أو غيرهم كشجرة موسى.

وأما الكرامية، فلما رأوا ما التزمه المعتزلة مخالفاً للعرف واللغة، ذهبوا إلى أن كلامه صفة له مؤلفة من الحروف والأصوات الحادثة القائمة بذاته تعالى. فذهبوا إلى حدوث الدالّ والمدلول. وجوزوا كونه تعالى محلاً للحوادث.

والأشعرية قالوا: إن الكلام المتلوّ دال على الصفة القديمة النفسية، التي هي الكلام عندهم حقيقة.

قالوا: فما نزل على الأنبياء من الحروف والأصوات، وسمعوها وبلّغوها إلى أممهم، هو محدث موصوف بالتغير والتكثر والنزول. لا مدلولها التي هي تلك الصفة القديمة. والمسألة شهيرٌ ما للعلماء فيها. والقصد أن الآية المذكورة رآها من ذكر، حجة فيما ذهب إليه. وقد عدّ الإمام ابن تيمية، عليه الرحمة والرضوان، هذا الاحتجاج من الأغلاط، وعبارته في كتابه (مطابقة المنقول للمعقول):

احتج من يقول بان القرآن أو عبارة القرآن مخلوقة، بهذه الآية، مع أن دلالة الآية على نقيض قولهم، أقوى منها على قولهم. فإنها تدل غلى أن بعض الذكر محدث، وبعضه ليس بمحدث، وهو ضد قولهم. والحدوث في لغة العرب العام ليس هو الحدوث في اصطلاح أهل الكلام. فإن العرب يسمون ما تجدد حادثاً، وما تقدم على غيره قديماً. وإن كان بعد أن لم يكن كقوله تعالى: ﴿ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٩]، وقوله تعالى عن إخوة يوسف ﴿ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف: ٩٥]، وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف:

١١]، وقوله تعالى عن إبراهيم ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٦]، انتهى.

وقال العارف ابن عربيّ في الباب التاسع والستين والثلاثمائة من (فتوحاته) في هذه الآية: المراد أنه محدث الإتيان، لا محدث العين. فحدث علمه عندهم حين سمعوه. وهذا كما تقول حدث اليوم عندنا ضيف، ومعلوم أنه كان موجوداً قبل أن يأتي. وكذلك القرآن جاء في مواد حادثة تعلق السمع بها. فلم يتعلق الفهم بما دلت عليه الكلمات. فله الحدوث من وجه والقدم من وجه.

فإن قلت: فإن الكلام للّه والترجمة للمتكلم. فالجواب نعم. وهو كذلك بدليل قوله تعالى مقسماً (إِنَّهُ) يعني القرآن: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠] فأضاف الكلام إلى الواسطة والمترجم، كما أضافه تعالى إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فإذا تلي علينا القرآن فقد سمعنا كلام اللّه تعالى. وموسى لما كلمه ربه سمع كلام اللّه. ولكن بين السماعين بعد المشرقين. فإن الذي يدركه من يسمع كلام اللّه بلا واسطة، لا يساويه من يسمعه بالوسائط. انتهى.

وبالجملة فالمذهب المأثور عن أهل السنة والجماعة أئمة الحديث والسلف، كما قاله ابن تيمية في (منهاج السنة) أن اللّه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء بكلام يقوم به. وهو متكلم بصوت يسمع. وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يجعل نفس الصوت المعيّن قديماً.

وبعبارة أخرى: أنه تعالى لم يزل متصفاً بالكلام. يقول بمشيئته وقدرته شيئاً فشيئاً. فكلامه حادث الآحاد، قديم النوع.

ثم قال رحمه اللّه: فإن قيل لنا: فقد قلتم بقيام الحوادث بالرب. قلنا نعم. وهذا قولنا الذي دل عليه الشرع والعقل ومن لم يقل إن البارئ يتكلم ويريد ويحب ويبغض ويرضى ويأتي ويجيء - فقد ناقض كتاب اللّه. ومن قال: إنه لم يزل ينادي موسى في الأزل فقد خالف كلام اللّه مع مكابرة العقل. لأن اللّه تعالى يقول: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ﴾ [النمل: ٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرادَ شَيْئاً أن يَقُول لهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فاتى بالحروف الدالة على الاستقبال.

ثم قال رحمه اللّه: قالوا - يعني أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعيّ وأحمد وغيرهما - وبالجملة فكل ما يحتج به المعتزلة والشيعة مما يدل

على أن كلامه متعلق بمشيئته وقدرته، وأنه يتكلم إذا شاء وأنه يتكلم شيئاً بعد شيء، فنحن نقول به. وما يقول به من يقول: إن كلام اللّه قائم بذاته، وأنه صفة له، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف، فنحن نقول به. وقد أخذنا بما في قول كل من الطائفتين من الصواب، وعَدَلْنَا عما يردّه الشرع والعقل من قول كل منهما. فإذا قالوا لنا: فهذا يلزم منه أن تكون الحوادث قامت به، قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل. وهو قول لازم لجميع الطوائف: ومن أنكره فلم يعرف لوازمه وملزوماته. ولفظ (الحوادث) مجمل فقد يراد به الأعراض والنقائص، واللّه منزه عن ذلك. ولكن يقوم به ما شاءه ويقدر عليه من كلامه وأفعاله ونحو ذلك، مما دل عليه الكتاب والسنة.

ثم قال: والقول بدوام كونه متكلماً ودوام كونه فاعلاً بمشيئته، منقول عن السلف وأئمة المسلمين من أهل البيت وغيرهم. كابن المبارك وأحمد بن حنبل والبخاريّ وعثمان بن سعيد الدارميّ وغيرهم.

ثم قال فنحن قلنا بما يوافق العقل والنقل من كمال قدرته ومشيئته: وإنه قادر على الفعل بنفسه كيف شاء. وقلنا إنه لم يزل موصوفاً بصفات الكمال متكلماً ذاتاً. فلا نقول إن كلامه مخلوق منفصل عنه، فإن حقيقة هذا القول أنه لا يتكلم. ولا نقول إنه شيء واحد، أمر ونهـي وخبر. فإن هذا مكابرة للعقل. ولا نقول إنه أصوات منقطعة متضادة أزلية، فإن الأصوات لا تبقى زمانين. وأيضاً فلو قلنا بهذا القول والذي قبله، لزم أن يكون تكليم اللّه للملائكة ولموسى ولخلقه يوم القيامة، ليس إلا مجرد خلق الإدراك لهم، لَمَا كان أزليًّا لم يزل ومعلوم أن النصوص دلت على ضد ذلك. ولا نقول إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً. فإنه وصف له بالكمال بعد النقص وإنه صار محلاً للحوادث التي كمل بها بعد نقصه. ثم حدوث ذلك الكمال لا بد له من سبب. والقول في الثاني كالقول في الأول. ففيه تجدد جلاله ودوام أفعاله. انتهى ملخصاً.

ثم بين تعالى ما كانوا يتناجون به من ضلالهم، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي أسروا

هذا الحديث ليصدوا عن سبيل الله. و (الذين) بدل من واو (أسروا) أو مبتدأ خبره (أسروا) أو منصوب على الذم ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ أي تنقادون له وتتبعونه. وقوله ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ حال مؤكدة للإنكار والاستبعاد. قال الزمخشريّ رحمه الله: اعتقدوا أن رسول الله لا يكون إلا ملَكاً، وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر، ومعجزته سحره. فلذلك قالوا على سبيل الإنكار: أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر.

قال أبو السعود: وزلّ عنهم أن إرسال البشر إلى عامة البشر، هو الذي تقتضيه الحكمة التشريعية. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّي﴾ حكاية لقول رسول الله ﷺ لهم. وقرئ (قُلْ) على الأمر له صلوات الله عليه ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ أي لما أسروه ﴿الْعَلِيمُ﴾ أي به فيجازيهم. ثم بين خوضهم في فنون الاضطراب وعدم اقتصارهم على ما تقدم من دعوى السحر، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ أي أخلاط يراها في النوم ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ أي اختلقه ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي ما أتى به شعر يخيل للناس معاني لا حقيقة لها. وهكذا شأن المبطل المحجوج، لا يزال يتردد بين باطل وأبطل، ويتذبذب بين فاسد وأفسد ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ أي مثل الآية التي أرسل بها الأولون. أي حتى نُؤْمِنَ له. ثم أشار تعالى إلى كذبهم في دعوى الإيمان بمجيء الآية، كما يشير إليه طلبهم لها، بقوله سبحانه وتعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿مَاءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لم تؤمن أمة من الأمم

المهلَكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات. أفهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سألوا، وأعطوا ما اقترحوا، مع كونهم أعتى منهم وأطغى. وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم. إذ لو أتى به ولم يؤمنوا، استوجبوا عذاب الاستئصال، كمن قبلهم. وقدمنا أن رقيّ النوع البشري في العهد النبويّ، اقتضى أن تكون الآية عقلية، لا كونية. فتذكر.

ثم أوضح جواب شبهتهم في منافاة البشرية للرسالة، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾

﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ**﴾ أي لا ملائكة. وقرئ بالياء وفتح الحاء ﴿**فَسْـئَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ**﴾ أي العلماء بالتوراة والإنجيل ﴿**إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ أي أن الرسل بشر، فيعلموكم إن المرسلين لم يكونوا ملائكة. وفي الآية دليل على جواز الإستظهار بأقوال أهل الكتاب ومروياتهم، لحجّ الخصم وإقناعه.

تنبيه:

قال الرازيّ: فأما ما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية، في أن للعاميّ أن يرجع إلى فتيا العلماء، وفي أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر – فبعيد. لأن هذه الآية خطاب مشافهة. وهي واردة في هذه الواقعة المخصوصة. ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين.انتهى.

ثم بيّن تعالى كون الرسل كسائر الناس، في أحكام الطبيعة البشرية، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾

﴿**وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ**﴾ أي جسداً مستغنياً عن الطعام، بل محتاجاً إلى ذلك لجبر ما فات بالتحليل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وفي هذا التعريف الربانيّ عن حال المرسل، أكبر رادع لأولئك المنزوين عن الناس المتصيدين

به قلوب الرعاع والعامة والحمقى ومن لا يزن عند ربه جناح بعوضة. إذ يرون تناول الطعام في المحافل وتكثير سواد الناس في المجامع والخروج للأسواق لقضاء الحاجات، من أعظم الهوادم لصروح الاعتقاد فيهم. فتراهم يأنفون من شراء حوائجهم بأيديهم، وهو السنة. ومن المشي بالأسواق، وهو المأذون فيه. ومن إجابة الدعوة، وهي واجبة، لأوهام في أنفسهم شيدوها. ومحافظة على السمعة حموا جانبها. فتبّاً لهم من قوم مبتدعين، يعبدون قلوب الخلق ولا يعبدون اللّه. ويريدون حالة فوق ما عليه رسل اللّه. وما ذلك إلا للّه. فما أجراهم على منازعة الجبار! وما أصبرهم على النار! وقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أي في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء:٣٤]، وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من اللّه عزّ وجلّ. تنزل عليهم الملائكة بما يحكمه في خلقه مما يأمر به وينهى عنه. وكونهم بشراً في تمام النعمة الإلهية. وذلك ليتمكن المرسل إليهم من الأخذ عنهم والانتفاع بهم. إذ الجنس أميل إلى الجنس.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أي في غلبتهم على أعدائهم ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة:١٢]، ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ أي من أتباعهم ومن قضت الحكمة بإبقائه ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أي المجاوزين الحدود في الكفر. ثم نبه تعالى على شرف القرآن، محرضاً لهم على معرفة قدره، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي شرفكم وحديثكم الذي تذكرون به فوق شرف الأشراف ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي هذه النعمة وتتلقونها بالقبول كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ، وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقيل: معنى ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ موعظتكم فالذكر بمعنى التذكير مضاف للمفعول. قال أبو السعود: وهو الأنسب بسباق النظم الكريم وسياقه. فإن قوله تعالى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إنكار توبيخيّ، فيه بعث لهم على التدبر في أمر الكتاب، والتأمل فيما في تضاعيفه من فنون المواعظ

والزواجر، التي من جملتها القوارع السابقة واللاحقة. ثم أشار تعالى إلى نوع تفصيلٍ لإجمال هلاك المسرفين المتقدم له، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وكَمْ قَصَمْنَا من قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً ءَاخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّواْ بَأْسَنَا﴾ أي عذابنا النازل بهم **﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾** أي يهربون مسرعين. ثم قيل لهم استهزاءً بلسان الحال أو المقال **﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيه﴾** أي من التنعم والتلذذ و(في) ظرفية أو سببية **﴿وَمَسَاكِنِكُمْ﴾** أي التي كثر فيها إسرافكم **﴿لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾** أي تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾

﴿قَالُوا﴾ أي لما أيقنوا بنزول العذاب **﴿يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾** أي تلك الكلمة وهي (يا ويلنا) دعوتهم فلا تختص بوقت الدهشة، بل تدوم عليهم ما أمكنهم النطق **﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً﴾** أي كنبات محصود **﴿خَامِدِينَ﴾** أي هالكين بإخماد نار أرواحهم **﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُما لَاعِبِينَ﴾** أي بل للإنعام عليهم. وما أنعمنا عليهم بذلك إلا ليقوموا بشكرها وينصرفوا إلى ما خلقوا له. قال الزمخشريّ عليه الرحمة: أي وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق، مشحونة بضروب البدائع والعجائب، كما تسوي الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم، للَّهو واللَّعب. وإنما سويناها للفوائد الدينية، والحكم الربانية، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعد والمرافق التي لا تحصى. وقال أبو السعود: في هذه الآية إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم وإبداع بني آدم، مؤسس على قواعد الحكم البالغة، المستتبعة للغايات الجليلة. وتنبيه على

أن ما حكي من العذاب الهائل والعقاب النازل بأهل القرى، من مقتضيات تلك الحكم، ومتفرعاتها. عن حسب اقتضاء أعمالهم إياه. وإن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوباً مثل ذنوبهم. أي ما خلقناهما وما بينهما على هذا النمط البديع والأسلوب المنيع، خالية عن الحكم والمصالح. وإما عبر عن ذلك باللعب واللهو، حيث قيل ﴿لاعِبِينَ﴾ لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالي عن الحكمة. بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحد في استحالة صدوره عنه تعالى. بل إنما خلقناهما وما بينهما لتكون مبدأً لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه. ودليلاً يقوده إلى تحصيل معرفتنا التي هي الغاية القصوى، بواسطة طاعتنا وعبادتنا. كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾

﴿**لَوْ أَرَدْنَا أَن نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِن لَدُنَّا إن كُنَّا فاعِلِينَ**﴾ استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو. أي لو أردنا أن نتخذ ما يتلهى به ويلعب لاتخذناه من عندنا. كديدن الجبابرة في رفع العروش وتحسينها، وتسوية الفروش وتزيينها. لكن يستحيل إرادتنا له لمنافاته الحكمة. فيستحيل اتخاذنا له قطعاً. وقوله تعالى: ﴿**إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ جوابه محذوف دل عليه ما قبله. أي لاتخذناه. وقيل: إنَّ (إن) نافية. أي ما كنا فاعلين. أي لا تخاذ اللهو، لعدم إرادتنا إياه. فيكون بياناً لانتفاء التالي، لانتفاء المقدم.

القول في تأويل قوله تعالى:

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

﴿**بَلْ نَقْذِفُ بالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ**﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو بل عن إرادته. وتنزيه منه لذاته العلية كأنه قال: سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب أو نريده، بل من شأننا أن ندحض الباطل بالحق ﴿**فَيَدْمَغُهُ**﴾ أي يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكية ﴿**فإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾ أي هالك بالكلية. وقد استعير لإرسال الحق على الباطل (القذف) الذي هو الرمي الشديد بالجرم الصلب كالصخرة. ولمحقه للباطل (الدمغ) الذي هو

كسر الشيء الرخو الأجوف. وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدي إلى زهوق الروح، استعارة تصريحية تبعية. ويصح أن يكون تمثيلاً لغلبة الحق على الباطل حتى يذهبه، برمي جرم صلب على رأس دماغها رخو ليشقه، وذكر ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ لترشيح المجاز. لأن من رمى فدمغ تزهق روحه. فهو من لوازمه. قال أبو السعود: وفي (إذا) الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان، ما لا يخفى. فكأنه زاهق من الأصل وفي الآية إيماء إلى علوّ الحق وتسفل الباطل. وأن جانب الأول باقٍ والثاني فانٍ ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي مما تصفونه به من اتخاذ الولد ونحوه، مما تتنزه عظمته عنه. ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً، وبراءتهم من البُنُوَّة المفتراة عليهم، إثر إخباره عن ملكه للخلق كافة، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماوَات والأرْض﴾ أي ملكاً وتدبيراً ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ وهم الملائكة ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ولاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا يعْيَونَ ولا يتعبون منها.

القول في تأويل قوله تعالى:

يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ والنَّهارَ لاَ يفْتُرُونَ﴾ أي من تنزيهه وعبادته، ثم أشار تعالى إلى تقرير وحدانيته في ألوهيته ونفي الأنداد، إثر تقريره أمر الرسالة - فإن ما سلف من أول السورة كان في تحقيق شأن النبوة بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾

﴿أم اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي يبعثون الموتى ويخرجونهم من العدم إلى الوجود.

أي بل اتخذوا آلهة من الأرض هم مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى. كلا فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك. فكيف جعلوها لله نداً، وعبدوها معه؟

قال الزمخشريّ: رحمه الله: فإن قلت: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر، وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم؟ كيف، وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى؟ وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم لله عزّ وجلّ بأنه خالق السموات والأرض ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى، منكرين للبعث. ويقولون: ﴿مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمَ﴾ [يس: ٨٧]، وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر كثاني القديم. فكيف يدّعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة رأساً؟.

قلت: الأمر كما ذكرت. ولكنهم بادعائهم لها الإلهية، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار. لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور. والإنشار من جملة المقدورات. انتهى.

قال في (الانتصاف): فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها. وهو أبلغ في الإنكار.

ثم قال الزمخشريّ: وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل وإشعار بأن ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده، لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة. انتهى.

لطيفة:

سر قوله تعالى ﴿مِن الأَرْضِ﴾ هو التحقير، أي تحقير الأصنام بأنها أرضية سفلية. وجوز إرادة التخصيص. أي الآلهة التي من جنس الأرض. لأنها إما أن تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من بعض جواهر الأرض. وإنما خصص الإنكار بها، لأن ما هو أرضيّ مصنوع بأيديهم كيف يدعي ألوهيته؟ ثم بيّن تعالى بطلان تعدد الآلهة بإقامة البرهان على انتفائه، بل على استحالته، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ أي يتصرف في السموات والأرض ﴿ءَالِهَةٌ إلاَّ اللَّهُ﴾ أي غيره ﴿لَفَسَدَتَا﴾ أي لبطلتا بما فيهما جميعاً، واختل نظامهما المشاهد، كما قال تعالى في سورة (المؤمنون) ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ، إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، قال أبو السعود: وحيث انتفى التالي، علم

انتفاء المقدم قطعاً. بيان الملازمة؛ أن الإلهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق تغييراً وتبديلاً، وإيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتة. فبقاؤهما على ما هما عليه إما بتأثير كل منها، وهو محال لاستحالة وقوع المعلول المعين بعلل متعددة. وإما بتأثير واحد منها، فالبواقي بمعزل من الإلهية قطعاً. واعلم أن جعل التالي فسادهما بعد وجودهما، لما أنه اعتبر في المقدم تعداد الآلهة فيهما. وإلافالبرهان يقضي باستحالة التعدد على الإطلاق. فإنه لو تعدد الإله، فإن توافق الكل في المراد، تطاردت عليه القدر، وإن تخالفت تعاوقت. فلا يوجد موجوداً أصلاً. وحيث انتفاء التالي تعين انتفاء المقدم. انتهى.

وتفصيله كما في (المقاصد) أنه لو وجد إلهان بصفات الألوهية، فإذا أراد أحدهما أمراً كحركة جسم مثلا، فإما أن يتمكن الآخر من إرادة ضده أوْلاً. وكلاهما محال. أما الأول فلأنه لو فرض تعلق إرادته بذلك الضد، فإما أن يقع مرادهما وهو محال، لاستلزامه اجتماع الضدين. أوْ لا يقع مراد واحد منهما، وهو محال لاستلزامه عجز الإلهين الموصوفين بكمال القدرة على ما هو المفروض، ولاستلزامه ارتفاع الضدين المفروض امتناع خلوّ المحل عنهما، كحركة جسم وسكونه في زمان معين، أو يقع مراد أحدهما دون الآخر وهو محال. لاستلزامه الترجيح بلا مرجح، وعجز من فرض قادراً حيث لم يقع مراده. وهذا البرهان يسمى برهان التمانع. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ فإن أريد بالفساد عدم التكوّن، فتقريره أنه لو تعدد الإله لم تتكون السماء والأرض. لأن تكونهما إما بمجموع القدرتين أو بكل منهما أو بأحدهما. والكل باطل. أما الأول فلأن من شأن الإله كمال القدرة. وأما الآخران فلما مرّ. وإن أريد بالفساد الخروج عما هما عليه من النظام، فتقريره أنه لو تعدد الإله لكان بينهما التنازع والتغالب. وتميز صنع كلٍّ عن صنع الآخر، بحكم اللزوم العاديّ. فلم يحصل بين أجزاء العالم هذا الالتئام، الذي باعتباره صار الكل بمنزلة شخص واحد. ويختل الانتظام الذي به بقاء الأنواع. وترتب الآثار، انتهى.

هذا وقد قيل: إن المطلب هنا برهانيّ، والمشار إليه في الآية إقناعيّ. ولا يفيد العلم اليقينيّ فلا يصح الاستدلال بها على هذا المطلب، وممن فصل ذلك التفتازانيّ في (شرح العقائد النسفية) قادحاً لما أشار إليه نفسه في (شرح المقاصد) من كون الآية برهاناً، كما ذكرناه عنه. وملخص كلامه أن مجرد التعدد لا يستلزم الفساد بالفعل، لجواز الاتفاق على هذا النظام، أي بالاشتراك أو بتفويض أحدهما إلى الآخر

فلا يستلزم التعددُ التمانعَ بالفعل بل بالإمكان. والإمكان لا يستلزم الوقوع، فيجوز أن لا يقع بينهما ذلك التمانع بل يتفقان على إيجادهما. ورد عليه بأن إمكان التمانع يستلزم التمانع بالفعل في كل مصنوع بطريق إرادة الإيجاد بالاستقلال. وكلما لزم التمانع لم يوجد مصنوع أصلاً. فإنه لو وجد على تقدير التمانع المذكور اللازم للتعدد فإما بمجموع القدرتين، فيلزم عجزهما. أو بكل منهما فيلزم التوارد. أو بأحدهما فيلزم الرجحان من غير مرجح، لاستواء نسبة كل ممكن إلى قدرة كل من الإلهين والكل محال ضرورة، وحاصل الاستدلال أنه لو تعدد الآلهة لم يتكون مصنوع لأن التعدد مستلزم لإمكان التخالف المستلزم للتوارد أو العجز. فظهر أن الآية حجة قطعية لكون الملازمة فيها قطعية. وحقق بعضهم قطعية الملازمة بالعادة القاضية التي لم يوجد أخرمها قط في ملكين مقتدرين في مدينة واحدة، أن يطلب كلٌّ الانفرادَ بالملك والعلوّ على الآخر وقهره، فكيف بالإلهين والإله يوصف بأقصى غايات التكبر، فكيف لايطلب الانفراد بالملك كما أخبر سبحانه بقوله ﴿وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؟ وهذا إذا تؤمل لا تكاد النفس تخطر نقيضه بالبال، فضلاً عن إخطار فرضه، مع الجزم بأن الواقع هو الآخر. فعلى هذا التقدير، فالملازمة علم قطعيّ. هذا ملخص ما جاء في رد مقالة السعد في الحواشي. وقد شنع عليه في مقالته المتقدمة غير واحد. وبالغ معاصره عبد اللطيف الكرمانيّ في الانتقاد.

قال العلامة المرجانيّ: وقد سبقه في هذا أبو المعين النسفيّ في كتابه (التبصرة) وتابعه صاحب (الكشف) حيث شنع على أبي هاشم الجبائيّ تشنيعاً بليغاً. حتى نسبه إلى الكفر بقدحه في دلالة الآية قطعاً على هذا المدعي، ولا يخفى أن الأفهام لا تقف عند حد. ولا تزال تتباين وتتخالف ما اختلفت الصور والألوان، ولا تكفير ولا تضليل، ما دام المرء على سواء السبيل.

وقد أوضح بيان هذه الملازمة مفتي مصر في رساله (التوحيد) إيضاحاً ما عليه من مزيد، وعبارته: ومما يجب له تعالى صفة الوحدة ذاتاً ووصفاً ووجوداً وفعلاً. أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفي التركيب في ذاته خارجاً وعقلاً. وأما الوحدة في الصفة، أي أنه لا يساويه في صفاته الثابتة له موجود، فلما بيَّنا من أن الصة تابعة لمرتبة الوجود، وليس في الموجودات ما يساوي واجب الوجود في مرتبة الوجود. فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات. وأما الوحدة في الوجود وفي الفعل، ونعني بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من إيجاد المكنات، فهي ثابتة، لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر

بالضرورة. وإلا لم يتحصل معنى التعدد. وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة، لأن الصفة إنما تتعين وتنال تحققها الخاص بها، بتعين ما يثبت له بالبداهة. فيختلف العلم والإرادة باختلاف الذوات الواجبة. إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها. هذا التخالف ذاتيّ، لأن علم الواجب وإرادته لا زمان لذاته من ذاته لا لأمر خارج. فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق. وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته، فيكون فعلُ كلٍّ صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية. فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإراداتهم. وهو خلاف يستحيل معه الوفاق. وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات، له السلطة على الإيجاد في عامة الممكنات. فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وإرادته. ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى. فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وإرادتهم، فيفسد نظام الكون، بل يستحيل أن يكون له نظام، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات. لأن كل ممكن لا بد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة. فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال فـ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ لكن الفساد ممتنع بالبداهة. فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله. انتهى.

وأشار حجة الإسلام الغزاليّ في كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) في بحث الوحدة، إلى أن هذه الآية لا أبين منها في برهان التوحيد، وأنه لا مزيد على بيان القرآن. قال الكلنبويّ: الفساد المذكور في هذه الآية إما بمعنى خروج السماء والأرض عن هذا النظام المشاهد من بقاء الأنواع وترتيب الآثار كما هو الظاهر. وإما بمعنى عدم تكونهما في الأصل كما قالوا. ثم إن كل من يخاطب بها يعرف أن منشأ الفساد هو تعدد الإله. فهي بعبارتها تنفي آلهة متعددة غير الواجب تعالى، وبدلالتها تنفي تعدد الآلهة. انتهى.

وقوله تعالى ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي من وجود شرك له فيهما والفاء لترتب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالدليل المتقدم. أي فسبحوه سبحانه اللائق به، ونزهوه عما يفترون. وفيه تعجب ممن يشرك مع المعبود الأعظم البارئ لأعظم المكونات وهو العرش، غيره ممن لا يقدر على شيء البتة.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾

﴿**لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ**﴾ أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه وعلوه وحكمته وعدله ولطفه ﴿**وَهُمْ يُسْئَلُونَ**﴾ الضمير للعباد. أي يسئلون عما يفعلون كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

قال الزمخشريّ: إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم، تهيباً وإجلالاً، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم، كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم، أولى بأن لا يُسأل عن أفعاله، مع ما علم واستقر في العقول من أن ما يفعله كله مفعول بحكمة، ولا يجوز عليه خطأ، ثم قال ﴿**وَهُمْ يُسألُونَ**﴾ أي هم مملوكون مستعبدون خطاءُون. فما أخلقهم بأن يقال لهم: لم فعلتم؟ في كل شيء فعلوه. انتهى.

قال ابن كثير: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

تنبيه:

قال الإمام الغزاليّ في (المضنون به على غير أهله): وأما معنى قول الله تعالى (**لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ**﴾، وقوله تعالى: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وقدْ كُنتُ بَصِيراً﴾ [طه: ١٢٥]، فالسؤال قد يطلق ويراد به الإلزام. يقال: ناظر فلان فلاناً وتوجه عليه سؤاله. وقد يطلق ويراد به الاستخبار، كما يسأل التلميذ أستاذه. والله تعالى لا يتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام. وهو المعنيّ بقوله ﴿**لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ**﴾ إذ لا يقال (لِمَ) قول إلزام. فأما أن لا يستخبر ولا يستفهم، فليس كذلك. وهو المراد بقوله: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى﴾. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

﴿**أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً**﴾ كرره استعظاماً لكفرهم، وإظهاراً لجهلهم، وانتقالاً

إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة، مع خلوها عن خصائص الإلهية. وتبكيتهم بإقامة البرهان على دعواهم. ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي دليلكم على ما تفترون. أما من جهة العقل والنقل، فإنه لا صحة لقول لا برهان له ولا دليل عليه.

قال أبو السعود: وما في إضافة البرهان إلى ضميرهم من الإشعار بأن لهم برهاناً، ضرب من التهكم بهم. وقوله تعالى ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِي وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ إنارة لبرهانه، وإشارة إلى أنه مما نطقت له الكتب الإلهية قاطبة، وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة. وزيادة تهييج لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم. أي هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد، المتضمن للبرهان القاطع العقليّ، ذكر أمتي أي عظتهم، وذكر الأمم السالفة قد أقمته فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم. انتهى.

ثم أشار تعالى أنه لا ينجع فيهم المحاجّة بتحقيق الحق وإبطال الباطل بقوله سبحانه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي عن النظر الموصل إلى الهدى. ثم بين تعالى أن التوحيد دعوى كل نبيّ، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْه﴾ وقرئ (يُوحَى) بالياء وفتح الحاء ﴿أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فاعْبُدُون﴾. كما قال: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رُّسُلنَا أَجَعَلْنَا من دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبيّ بعثه اللّه يدعو إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له. والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم وحجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد. ثم بين تعالى بطلان ما يفتريه بعض المشركين من أن الملائكة بناته، تعالى علواً كبيراً، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي مقربون ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي يتبعون قوله، فلا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به كما هو

شأن العبيد المؤدبين ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ فلا يعصونه في أمر. إشارة إلى مراعاتهم في أدب العبودية في الأفعال أيضاً، كالأقوال.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي مما قدموا وأخروا. فهو المحيط بهم علماً ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فكيف يخرجون عن عبوديته؟ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ أي أن يشفَع له، مهابة منه تعالى.

قال المهايميّ: كيف يخرجون عن عبوديته ولا يقدرون على أدنى وجوه معارضته. لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى. إذا الشفاعة لغير المرتضى نوع معارضة معه. وكيف يعارضونه ﴿وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي قهره ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي خائفون.

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾، كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، في آيات كثيرة في معنى ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ الضمير في (منهم) للملائكة. لتقدم ذكرهم واقتضاء السياق، وكونه أبلغ في الرد والتهديد.

قال الزمخشريّ: رحمه الله: وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده، وأثنى عليهم، وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية، فاجأ بالوعيد الشديد. وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم. إن كان ذلك على سبيل الفرض والتمثيل، مع إحاطة علمه بأنه لا يكون كما قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، قصد بذلك تفظيع أمر الشرك، وتعظيم شأن التوحيد. انتهى.

وفي قوله ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ إشعار بظلم من يقول تلك العظيمة. كيف لا؟ وقد استهان برتبة الإلهية وجاوز بها مقامها الأسمى.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾.

هذا شروع في آياته الكونية، الدالة على وحدته في ألوهيته، التي عمي عنها المشركون، فلم يروها رؤية اعتبار وتدبر. ومعنى قوله: ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ أي لا تمطر ولا تنبت ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ أي بالمطر والنبات. فالفتق والرتق استعارة. ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ [الطارق: ١١-١٢]، و (الرجع) لغة هو الماء و (الصدع) هو النبات لأنه يصدع الأرض أي يشقها. وقوله تعالى ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ [عبس: ٢٤]، أي كيف انفردنا في إحداثه وتهيئته ليقيم بنيته ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ﴾ [عبس: ٢٥]، أي من المزن بعد أن لم يكن ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً ﴾ [عبس: ٢٦]، أي ثم بعد أن كانت الأرض رتقاً متماسكة الأجزاء، شققناها شقّاً مرئيّاً مشهوداً، كما تراه في الأرض بعد الريّ. أو شقّاً بالنبات.

وقال أبو مسلم الأصفهانيّ: يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار كقوله تعالى ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٤]، وكقوله: ﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ [الأنبياء: ٥٦]، فأخبر عن الإيجاد بلفظ (الفتق) وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ (الرتق).

قال الرازيّ: وتحقيقه أن العدم نفي محض. فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة. بل كأنه أمر واحد متصل متشابه. فإذا وجدت الحقائق، فعند الوجود والتكوين يتميز بعضها عن بعض، وينفصل بعضها عن بعض. فهذا الطريق حسن. جعل (الرتق) مجازاً عن العدم و (الفتق) عن الوجود. انتهى.

وقال بعض علماء الفلك: معنى قوله تعالى ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ أي شيئاً واحداً. ومعنى ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ فصلنا بعضهما عن بعض.

قال: فتدل الآية على أن الأرض خلقت كباقي الكواكب السيارة من كل وجه.

أي أنها إحدى هذه السيارات. وهي مثلها في المادة وكيفية الخلق وكونها تسير حول الشمس وتستمد النور والحرارة منها. وكونها مسكونة بحيوانات كالكواكب الأخرى. وكونها كروية الشكل. فالسيارات أو السماوات هي متماثلة من جميع الوجوه، كلها مخلوقة من مادة واحدة، وهي مادة الشمس. وعلى طريقة واحدة. كلامه.

وقد يرجح الوجه الأول في تفسير الآية لقوله تعالى بعده ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾ فإن ذلك مما يبين أن لسابقه تعلقاً بالماء. وعلى هذا فالرؤية في قوله تعالى ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ** ﴾ بصرية. وعلى قول أبي مسلم وما بعده، علمية. على حد قوله تعالى لنبيّه صلوات اللّه عليه ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ** ﴾ [الفيل: ١]، مع أنه لم يشاهد الحادثة، بل ولد بعدها. وإنما تيقنها بالأخبار الصادقة. وكذلك ما هنا من الفتق والرتق، بمعنييه الأخيرين، مما أخبر به الحق تعالى على لسان من قامت الحجة على صدقه وعصمته. فكان مما يسهل عليهم تصديقه فعلمُه.

ومعنى قوله تعالى ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾ صيّرنا كل شيء حيّ بسبب من الماء، لا يحيا دونه. فيدخل فيه النبات والشجر. لأنه من الماء صار نامياً. وصار فيه الرطوبة والخضرة والنُّور والثمر. وإسناده الحياة إلى ظهور النبات معروف في آيات شتى. كقوله تعالى ﴿ **وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ [الروم: ١٩]، وخص بعضهم الشيء بالحيوان، لآية ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ** ﴾ [النور: ٤٥]، ولا ضرورة إليه. بل العموم أدل على القدرة، وأعظم في العبرة، وأبلغ في الخطاب، والطف في المعنى.

وقوله تعالى: ﴿ **أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ** ﴾ إنكار لعدم إيمانهم باللّه تعالى وحده، مع ظهور ما يوجبه حتماً من الآيات الظاهرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١)

﴿ **وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ** ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿ **أَن تَمِيدَ بِهِمْ** ﴾ أي لئلا تتحرك وتضطرب بهم. فلولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب مما في جوفها من المواد الدائمة الجيشان.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُم يَهْتَدُونَ﴾ الضمير في (فيها) للأرض. وتكرير الفعل لاختلاف المجعولين، ولتوفية مقام الامتنان حقه. أو للرواسي لأنها المحتاجة إلى الطرق. وعلى الثاني اقتصر ابن كثير. قال: فقد يشاهد جبل هائل بين بلدين، وإذا فيه فجوة يسلك الناس فيها، رحمة منه تعالى ﴿وَسُبُلاً﴾ بَدَل من ﴿فِجَاجاً﴾ أشير به إلى أنه مع السعة نافذ مسلوك، وأنه خلق ووسع لأجل السابلة، ومعنى ﴿يهتدون﴾ أي إلى مصالحهم. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ٣٢﴾

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً﴾ أي على الأرض كالقبة عليها ﴿مَّحْفُوظاً﴾ أي عالياً محروساً أن ينال أو محفوظاً من التغير بالمؤثرات، مهما تطاول الزمان. كقوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً﴾ [النبأ: ١٢]، ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِها مُعْرِضُونَ﴾. أي عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر، بالشمس والقمر وسائر النيرات، ومسايرها وطلوعها وغروبها، على الحساب القويم. والترتيب العجيب، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة. وأي جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم، ودبرها ونصبها هذه النصبة، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو، عَزَّت قدرته ولطف علمه؟؟.

وقرئ (عن آيتها) على التوحيد، اكتفاء بالواحدة في الدلالة على الجنس، أيْ هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمريها والاهتداء بكواكبها، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها. وهم عن كونها آية بينة على الخالق، معرضون. أفاده الزمخشريّ.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ٣٣﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ﴾ أي ليسكنوا فيه ﴿وَالنَّهارَ﴾ ليتحركوا لمعاشهم وينشطوا لأعمالهم ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي ضياء وحسباناً ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي كل واحد منهما يجري في الفلك، كالسابح في الماء. و (الفلك) في اللغة كل شيء دائر.

قال بعض علماء الفلك: تشير الآية إلى حركة هذه الكواكب كآية ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ [التكوير: ١٥-١٦]، وهما تدلان على أن حركة الكواكب ذاتية. لا كما كان يقول القدماء من أن الكواكب مركوزة في أفلاكها التي تدور بها، وبدورانها تتحرك الكواكب. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾

﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ، أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ** ﴾ نزلت حين قالوا (نتربص به ريب المنون) فكانوا يقدّرون أنه سيموت، فيشمتون بموته، لما يأملون ذهاب الدعوة النبوية، وتبدد نظامها، بفقد واسطة عقدها. فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذه الآية، بما قضى أنه لا يخلد في الدنيا بشراً، لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية. وأعلم بحفظ تنزيله وحراسته من المؤثرات ما بقيت الدنيا بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

قال ابن كثير: فقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات، وليس بحيٍّ إلى الآن. لأنه بشر سواء كان وليّاً، أو نبيّاً أو رسولاً. انتهى.

وتقدم بسط ذلك في سورة الكهف فتذكر. وفي معنى الآية قول عروة الصحابيّ رضي الله عنه:

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ كَلاكِلَهُ أَنَاخَ بآخرينَا
فقل للشَّامتينَ بنا: أفيقُوا سيلقى الشامِتُونَ كما لقِينَا

وقول الشافعيّ:

تَمَنَّى أُنَاسٌ أَنْ أَموتَ، وَإِنْ أَمُتْ فَتلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ
فقل للَّذي يَبْغي خلافَ الَّذي مضى: تَهَيَّأْ لأُخْرَى مِثْلِهَا، وكَأَنْ قَدِ

القول في تأويل قوله تعالى:

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ** ﴾ أي نختبركم بما يجب فيه الصبر من المصائب، وما يجب فيه الشكر من النعم ﴿ **فِتْنَةً** ﴾ أي اختباراً. وهو مصدر

مؤكد لـ (لنبلوكم) من غير لفظه ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر،

قال الزمخشريّ: وإنما سمى ذلك ابتلاءً، وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم، لأنه في صورة الاختبار، أي فهو استعارة تمثيلية. قال القاضي: وفي الآية إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب تقريراً لما سبق. وقدم الشر لأنه اللائق بالمنكر عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ عنى بهذه الآية مستهزئو قريش، كأبي جهل وأضرابه ممن كان يسخر من رسالته صلوات الله عليه، ويتغيظ لسبّ آلتهم وتسفيه أحلامهم. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤١-٤٢]، وإضافة ذكر (للرحمن) من إضافة المصدر لمفعوله أي بتوحيده. أو للفاعل، أي بإرشاده الخلق ببعث الرسل وإنزال الكتب رحمة عليهم. أو بالقرآن. هم كافرون، أي فهم أحق أن يهزأ بهم. وتكرير الضمير للتأكيد والتخصيص. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١]، جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه. كقولك (خلق زيد من الكرم) تنزيلاً لما طبع عليه من الأخلاق، منزلة ما طبع هو منه من الأركان، إيذاناً بغاية لزومه له، وعدم انفكاكه عنه فالآية استعارة مكنية، بتشبيه العجل لكونه مطبوعاً عليه، بمادته. و يجوز أن تكون تصريحية. والمراد بالإنسان الجنس. ومن (عجلته) مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي نقماتي في الدنيا كوقعة بدر. وفي الآخرة عذاب النار ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي بالإتيان بها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ أي الموعود من العذاب الأخرويّ، بطريق الاستهزاء والإنكار، لا لتعيين وقته ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في إتيانه. قال الزمخشريّ: كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار. فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم. فقدم أولاً ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها. ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا. فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم. ثم بين هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه، وأن عجلتهم لجهلهم بمغبته، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ أي لا يدفعونها عن أشرف أعضائهم وأقواها. فتقديم الوجه لشرفه، ولكون الدفع عنه أهم من غيره أيضاً ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي بدفع أحد عنهم. وجواب (لو) محذوف أي: لما استعجلوا. وقيل (لو) للتمني. لا جواب لها ﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أي فجأة فتحيّرهم. لأنهم إن أرادوا الصبر عليها لم يقدروا عليه. وإن أرادوا ردّها ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ أي بسبب من الأسباب ﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي يمهلون ليستريحوا طرفة عين لتمام مدة الإنظار قبله. ثم أشار إلى تسليته عليه الصلاة والسلام عن استهزائهم، في ضمن وعيد لهم، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ ﴾ أي نزل ﴿ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا به

يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي عذابه أو جزاؤه، على وضع السبب موضع المسبب، إيذاناً بكمال الملابسة بينهما، أو عين استهزائهم، إن أريد بذلك العذاب الأخرويّ، بناءً على تجسم الأعمال. فإن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصورة عرضية، تبرز في النشأة الأخرى بصور جوهرية، مناسبة لها في الحسن والقبح. أفاده أبو السعود.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)

﴿**قُلْ مَن يَكْلَؤُكُمْ**﴾ أي يحفظكم ﴿**بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ**﴾ أي من بأسه أي يفجأكم. وتقديم (الليل) لما أن الدواهي فيه أكثر وقوعاً وأشد وقعاً. وفي لفظ (الرحمن) تنبيه على أنه لا حفظ لهم إلا برحمته، وتلقين للجواب. وقيل إنه إيماء إلى شدته. كغضب الحليم. وتنديم لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته. ودلالة على شدة خبثهم. قال المهايميّ: ولا يمنع من ذلك عموم رحمته. إذ بتعذيبكم يعتبر أهل عصركم ومَن بعدهم. فيكون لإصلاح أمورهم الموجب لرحمته عليهم، ولا يغترون في ذلك بعموم رحمته حتى يرجى منعها عن ذلك ﴿**بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ**﴾ أي لا يخطرونه ببالهم، فضلاً أن يخافوا بأسه، ويعدوا ما هم عليه من الأمن والدعة حفظاً وكلاءة، حتى يُسْألُوا عن الكالئ ﴿**أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلاَ هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ**﴾ أي لهؤلاء المستعجلي ربهم بالعذاب آلهة تمنعهم، إن نحن أحللنا بهم عذابنا وأنزلنا بهم بأسنا، من دوننا. ومعناه: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم منا. ثم وصف جل ثناؤه تلك الآلهة بالضعف والمهانة وما هي به من صفتها. ومعناه: كيف تستطيع آلهتهم التي يدعونها من دوننا أن تمنعهم منا، وهي لا تستطيع نصر أنفسها ولا هي بمصحوبة منا بالنصر والتأييد. أفاده ابن جرير. فـ (فيصحبون) بمعنى يجارون يقال (صحبك الله) أي أجارك وسلمك، كما في (الأساس). قال ابن جرير: أي لا يصحبون بالجوار لأن العرب محكيٌّ عنها (أنا لك جار من فلان وصاحب) بمعنى أجيرك وأمنعك. وهم إذا لم يصحبوا بالجوار لم يكن لهم مانع من عذاب الله، مع سخطه عليهم، فلم يصحبوا بخير ولم ينصروا.

القول في تأويل قوله تعالى:

بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

﴿ **بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ** ﴾ إضراب عما توهموا، ببيان أن الداعي إلى غيهم وعنادهم هو ما متعوا به في الحياة الدنيا ونعّموا به هم ومن قبلهم حتى طال عليهم الأمد. لاتاتيهم واعظة من عذاب ولا زاجرة من عقاب حتى حسبوا أنهم على شيء وأنهم لا يغلبون ﴿ **أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** ﴾ أي ننقص أرض الكفر فنخربها من نواحيها بقهرنا أهلها وغلبتنا لهم وإجلائهم عنها وقتلهم بالسيوف، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به ويحذروا منا أن ننزل من بأسنا بهم نحو الذي قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف. أفاده ابن جرير. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ **أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ أي أفهؤلاء المشركون المستعجلون بالعذاب، الغالبون لنا، وقد رأوا قهرنا مَن أحللنا بساحته بأسنا في أطراف الأرض؟

وفي التعريف تعريض بأنه تعالى هو الغالب المعروف بالقهر.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾

﴿ **قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ** ﴾ أي تنزيل الله الذي يوحيه إليّ من عنده وأخوفكم به بأسه، لا بالإتيان بما تستعجلون، لأن ذلك ليس إليّ، على ما فيه من الحكمة في هذه البعثة التي بنيت على البراهين العقلية، لا الخارقات الحسية كما قدمنا. ثم أشار إلى كمال جهلهم وعنادهم، بأن هذا الإنذار لا يجديهم، بقوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ** ﴾ أي فهم لا يصغون بسمع قلوبهم إلى تذكر مافي وحي الله من المواعظ والذكرى، فيتذكرون بها ويعتبرون فينزجرون إذا تلي عليهم، بل يعرضون عن الاعتبار به والتفكير فيه، فعل الأصم الذي لا يسمع ما يقال له فيعمل به. وتقييد تصامهم بقوله ﴿ **إِذَا مَا يُنذَرُونَ** ﴾ مع أنهم لا يسمعون نذارة ولا بشارة، إما لأن المقام مقام إنذار، أو لأن من لا يسمع إذا خوف، كيف يسمع في غيره، فهو أبلغ.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾

﴿**وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ أي ولئن أصابهم شيء أدنى من عقوبته تعالى، لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم في التصامّ والإعراض وعبادة تلك الآلهة وتركهم عبادة من خلقهم.

لطيفة:

في صدر الآية مبالغات. ذكر المس. وما في النفحة من معنى القلة. فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء. والبناء الدال على المرة. والتنكير. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ بيان لما سيقع عند إتيان ما أنذروه. أي نقيم الموازين العادلة الحقيقية التي توزن بها صحائف الأعمال. وقيل: وضع الموازين تمثيل لإرصاد الحساب السويّ والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة، من غير أن يظلم مثقال ذرة. وإنما وصفت الموازين بالقسط وهو مفرد، لأنه مصدر وصف به للمبالغة، كأنها في نفسها قسط. أو على حذف المضاف أي ذوات القسط. وقيل إنه مفعول له. واللام في (ليوم القيامة) للتعليل أو بمعنى (في) أي لجزاء يوم القيامة أو لأهله أو فيه ﴿**فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً**﴾ أي من حقوقها. أي شيئاً ما من الظلم. بل يوفى كل ذي حق حقه ﴿**وَإِنْ كَانَ**﴾ العمل أو الظلم ﴿**مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا**﴾ أي أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل. للوزن. وأنث لإضافته إلى الحبة ﴿**وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ أي وحسب من شهد ذلك الموقف بنا حاسبين. لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم، وما سلف في الدنيا من صالح أو سيء، منا. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾

﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ شروع في قصص

الأنبياء، تسلية له صلوات اللّه عليه وعليهم، فيما يناله من أذى قومه، وتقوية لفؤاده على أداء الرسالة، والصبر على كل عارض دونها. قال أبو السعود: نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾، إلى قوله ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٧-٩]، وإشارة إلى كيفية إنجائهم وإهلاك أعدائهم. وتصديره بالتوكيد القسميّ لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه. والمراد بـ (الفرقان) التوراة وكذا بـ (الضياء) و (الذكر). أي وباللّه لقد آتيناهما وحياً ساطعاً وكتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل. وضياءً يستضاء به في ظلمات الجهل وذكراً يتعظ به الناس. وتخصيص (المتقين) بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره. انتهى. ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي يخافون عذابه، وهو غير مشاهد لهم. وفيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون في الإنذار، ما لم يشاهدوا ما أنذروه ﴿وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي وجلون أن تأتي الساعة التي تقوم فيها القيامة فيردوا على ربهم، قد فرّطوا في الواجب عليهم للّه، فيعاقبهم بما لا قبل لهم به.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وَهَذَا﴾ أي القرآن الكريم ﴿ذِكْرٌ﴾ أي يتذكر به من يتذكر ﴿مُّبَارَكٌ﴾ أي كثير الخير والنفع ﴿أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ أي مع ظهور كون إنزاله كإيتاء التوراة. وفي الاستفهام الإنكاريّ توبيخ لهم بأنه لا ينبغي لهم إنكاره وهم عارفون بمزايا إعجازه. وتقديم (لَهُ) للفاصلة أو للحصر. لأنهم معترفون بغيره مما في أيدي أهل الكتاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ أي هدايته للحق وهو التوحيد الخالص ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل موسى وهارون ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أي علمنا أنه أهل لما آتيناه. أو علمنا أنه جامع لمكارم الأخلاق التي آتيناه إياها، فأهّلناه لخلتنا وأخلصناه لاصطفائنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عاكِفُونَ﴾ أي ما هذه الصور

الحقيرة التي عكفتم على عبادتها. استفهام تحقير لها وتوبيخ على العكوف على عبادتها، بأنها تماثيل صور بلا روح، مصنوعة لا تضر ولا تنفع، فكيف تعبد؟.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾

﴿قَالُواْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ أي فقلدناهم وتأسينا بهم. ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي لا يخفى على عاقل لعدم استناد الفريقين إلى دليل، بل إلى هَوىً متَّبَع وشيطان مطاع. وفي الإتيان بـ (في) الظرفية دلالة على تمكنهم في ضلالهم، وأنه ضلال قديم موروث. فهو أبلغ من (ضالين).

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي بالجد في دعوى الرسالة ونسبتنا إلى الضلال ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمواتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَاْ عَلَى ذَلِكُمْ مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال الزمخشريّ رحمه الله: الضمير في (فَطَرَهُنَّ) للسموات والأرض أو للتماثيل. وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم. أي لدلالته صراحة على كونها مخلوقة غير صالحة للألوهية، بخلاف الأول، وجوابه عليه السلام إما إضراب عما بنوا عليه مقالتهم في اعتقاد كونها أرباباً لهم، كما يفصح عنه قولهم ﴿نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينْ﴾ [الشعراء: ٧١]، كأنه قيل ليس الأمر كذلك بل ﴿رَبُّكُمْ...﴾ الآية. أو إضراب عن كونه لاعباً بإقامة البرهان على ما ادعاه. وقوله ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي المبرهنين عليه بالحجة، لا لقولكم العاطل منها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

﴿وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ لأحتالن لفضيحتها بإظهار عجزها ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ أي عنها بفراغكم من عبادتها.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً﴾ أي قطعاً مكسرة، بعد أن ولوا عنها، ليعلموا أنها لا تتحلم إلى هذا الحدّ. فهو عجزهم في الدفع عن أنفسهم. فتوقعُ عابدهم الدفع عن نفسه غاية السفه ﴿إلاَّ كَبيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي فيسالونه: لم فعل بآلهتهم؟ فإذا ظهر عجزه عن النطق، فمن دونه أعجز منه في ذلك. فضلاً عن الدفع للذي أظهر عجزهم فيه. فرجعوا فأتوا بيت الأصنام فوجدوها جذاذاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَذَا﴾ أي هذا الفعل الفظيع ﴿بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمينَ﴾ أي لجراته على إهانتها وهي الجديرة عندهم بالتعظيم. أو لإفراطه في التجذيذ والحطم، وتماديه في الاستهانة بها. أو بتعريض نفسه للهلكة. والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿قالُواْ سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبْرَاهِيمُ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي يحضرون عقوبته.

قال ابن كثير: وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام، أن يبين في هذا المحفل العظيم كثيرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضراً ولا تملك لها نصراً. فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿قَالُواْ ءأَنتَ فَعَلْتَ هَذا بآلِهَتِنَا يَا إِبْرَهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذَا﴾ يعني الذي

تركه لم يكسره. فإن ترددتم أنه فعلي أو فعله ﴿فَسْئَلُوهُمْ﴾ أي يجيبوكم ﴿إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ أي والأظهر عجزهم الكليّ المانع من القول بإلهيتها. والقول فيه، أن قصد إبراهيم صلوات اللّه عليه، لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم. وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضيّ يبلغ فيه غرضه عن إلزامهم الحجة، وتبكيتهم. ولقائل أن يقول: عاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة. وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد، لما رأى من زيادة تعظيمهم له. فأسند الفعل إليه لأنه هو الذي متسبب لاستهانته بها وحطمه لها والفعل كما يسند إلى مباشره، يسند إلى الحامل عليه. فيكون تمثيلاً أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب اللّه تعالى عليهم، لإشراكهم بعبادته الأصنام. ويحكى أنه قال: فعله كبيرهم هذا، غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها. فكأنه قيل: فعله ذلك الكبير على مقتضى مذهبكم، والقضية ممكنة. وأظهر هذه الأوجه هو الأول. وعليه اقتصر الإمام ابن حزم في كتابه (الفصل) في الرد على من جوز على الأنبياء المعاصي، وعبارته: وأما قوله عليه السلام ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ فإنما هو تقريع لهم وتوبيخ كما قال تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وهو في الحقيقة مهان ذليل مهين معذب في النار. فكلا القولين توبيخ لمن قيلا له، على ظنهم أن الأصنام تفعل الخير والشر. وعلى ظن المعذب في نفسه في الدنيا أنه عزيز كريم. ولم يقل إبراهيم هذا على أنه محقق لأن كبيرهم فعله. إذ الكذب، إنما هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه، و قصداً إلى تحقيق ذلك. وجليٌّ أن مراده عليه السلام، على كلٍّ، إنما هو توجيههم نحو التأمل في أحوال أصنامهم كما ينبئ عنه قوله ﴿فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ أي إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا. قال أبو السعود: وإنما لم يقل عليه السلام (إن كانوا يسمعون أو يعقلون) مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً، لما أن نتيجة السؤال هو الجواب، وأنَّ عدم نطقهم أظهر، وتبكيتهم بذلك أدخل. وقد حصل ذلك أولاً حسبما نطق به قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٦٤﴾

﴿فَرَجَعُواْ إِلَى أَنفُسِهِمْ﴾ أي فراجعوا عقولهم، ومراجعة العقل مجاز عن التفكير والتدبر، والمراد بالنفس النفس الناطقة، والرجوع إليها عبارة عما ذكر ﴿فَقَالُواْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي بهذا السؤال أو بعبادة من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع، لا مَن

كسرها، فَلِمَ تنسبوه إلى الظلم بقولكم ﴿إِنَّهُ لِمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أي حياءً من نقصهم، وخضوعاً وانفعالاً من إبراهيم، قائلين ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ أي ليس من شأنهم النطق، فكيف تأمرنا بسؤلهم؟.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ، مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أي قبح صنيعكم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع.

تنبيه:

ذكر في الكشاف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ أربعة أوجه. وحاصله كما في العناية – أن التنكيس قلب الشيء بجعل أعلاه أسفله. فإما أن يستعار للرجوع عن الفكرة المستقيمة في تظليم أنفسهم، إلى الفكرة الفاسدة في تجويز عبادتها، مع عجزها فضلاً عن كونها في معرض الألوهية. فقوله ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ معناه لم يخف علينا وعليك أنها كذلك وأنا اتخذناها آلهة مع العلم به. والدليل عليه قوله ﴿أَفَتَعْبُدُونَ﴾ الخ، أو أن التنكيس الرجوع عن الجدال الباطل إلى الحق في قولهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ لأنه نفي لقدرتها واعتراف بأنها لا تصلح للألوهية، وسمي (نكساً) وإن كان حقاً، لأنه ما أفادهم مع الإصرار. ولكنه نكس بالنسبة لما كانوا عليه من الباطل. أو النكس مبالغة في إطرقهم خجلاً وقولهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ لحيرتهم أتوا بما هو حجة عليهم. أو النكس مبالغة في الحيرة وانقطاع الحجة. ﴿أُفٌ﴾ صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر. وفيه لغات كثيرة كما في كتب اللغة. قال الزمخشري: أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل، فتافف بهم. ولما عجزوا عن المحاجّة أخذوا في المضارّة، شأن المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة لم يكن أحد أبغض إليه من المحقّ، ولم يبق له مفزع إلا مناصبته.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾

﴿**قَالُواْ حَرِّقُوهُ**﴾ أي لأنه استحق أشد العقاب عندهم، والنار أهول ما يعاقب به ﴿**وَانصُرُواْ ءَالِهَتَكُمْ**﴾ أي بالانتقام لها ﴿**إن كُنْتُمْ فاعِلين**﴾ أي به شيئاً من السياسة، فلا يليق به غيرها.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾

﴿**قُلْنَا**﴾ أي تعجيزاً لهم ولأصنامهم، وعناية بمن أرسلناه، وتصديقاً له في إنجاء من آمن به ﴿**يَا نَارُ كُونِي بَرْداً**﴾ أي باردة على إبراهيم، مع كونك محرقة للحطب ﴿**وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾ أي ولا تنتهي في البرد إلى حيث يهلكه، بل كوني غير ضارة. وجوز كون سلاماً منصوباً بفعله. والأمر مجاز عن التسخير، كما في قوله ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾ [البقرة:٦٥]، ففيه استعارة بالكناية بتشبيهها بمأمور مطيع، وتخييلها الأمر والنداء، ولذا قال أبو مسلم: المعنى أنه سبحانه وتعالى جعل النار برداً وسلاماً، لا أن هناك كلاماً، كقوله ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، أي فيكونه. فإن النار جماد ولا يجوز خطابه. وهو ظاهر.

تنبيه:

قال الرازي: لهم في كيفية برودة النار ثلاثة أقوال: أحدها – أن اللّه تعالى أزال عنها ما فيها من الحرّ والاحتراق، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق. واللّه على كل شيء قدير.

وثانيها – أن اللّه تعالى خلق في جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه. كما يفعل بخزنة جهنم في الآخرة. وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة. وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث في النار

ثالثها – أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلاً يمنع من وصول أثر النار إليه.

قال المحققون: والأول أولى لأن ظاهر قوله: ﴿**يَا نَارُ كُونِي بَرْداً**﴾ أن نفس النار صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها، لا أن النار بقيت كما كانت.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ۝٧١

﴿وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ أي أرادوا أن يكيدوه بالإضرار، فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين. قال الزمخشري: غالبوه بالجدال فغلّبه الله ولقنه بالمبكّت. وفزعوا إلى القوة والجبروت فنصره وقوّاه ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً﴾ أي لأنه هاجر معه ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وهي أرض الشام. بورك فيها بكثرة الأنبياء وإنزال الشرائع التي هي طريق السعادتين. وبكثرة النعم والخصب والثمار وطيب عيش الغنيّ والفقير. وقد نزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين، ولوط عليه السلام بسدوم. ثم بين بركته تعالى على إبراهيم بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ أي بدعوته ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي زيادة وفضلاً من غير سؤال. ثم أشار إلى أن منشأ البركة فيهما الصلاح بقوله: ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ بالاستقامة والتمكين في الهداية.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝٧٣

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي قدوة يقتدى بهم في أمور الدين، إجابة لدعائه عليه السلام بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي يهدون الناس إلى الحق بأمرنا لهم بذلك وإذننا. قال الزمخشريّ: فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله، فالهداية محتومة عليه، مأمور هو بها، من جهة الله. ليس له أن يخلّ بها ويتثاقل عنها. وأول ذلك أن يهتدي بنفسه، لأن الانتفاع بهداه أعم، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدي أميل ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ أي أن تفعل الخيرات، مما يختص بالقلوب أو الجوارح ﴿وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُواْ لَنَا عَابِدِينَ﴾ أي بالتوحيد الخالص والعمل الصالح.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

﴿ **وَلُوطاً ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً** ﴾ أي حكمة. وهو ما يجب فعله ﴿ **وَعِلْماً** ﴾ أي بما ينبغي علمه للأنبياء. وقد بعثه اللّه تعالى إلى سدوم فكذبه أهلُها وخالفوه فأهلكهم اللّه ودمر عليهم ما قص خبرهم في غير ما موضع في كتابه العزيز، وقد أشار إلى ذلك في ضمن بيان عنايته به وكرامته له بقوله: ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ** ﴾ أي من عذابها ﴿ **الَّتِي كَانَت تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ** ﴾ يعني اللواطة، وكانت أشنع أفعالهم. وبها استحقوا الإهلاك. ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى رمي اللوطي منكساً من مكان عال، وطرح الحجارة عليه، كما فعل بهم ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا** ﴾ أي في أهلها ﴿ **إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ أي العاملين بالعلم، الثابتين على الاستقامة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

﴿ **وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ** ﴾ أي دعا ربه في إهلاك قومه لما كذبوه بقوله: ﴿ **أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ** ﴾ [القمر: ١٠]، ﴿ **رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً** ﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ** ﴾ وهو الطوفان، أو من الشدة والتكذيب والأذى. فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى اللّه عزّ وجلّ فلم يؤمن به إلا القليل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

﴿ **وَنَصرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ** ﴾ أي نصرناه نصراً مستتبعاً للانتصار والانتقام من قومه ﴿ **الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ أي فلم يبق منهم أحد كما دعا نبيّهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾ أي الزرع ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ أي رعته ليلاً ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ أي لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما، عالمين.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا ﴾ أي الفتوى أو الحكومة المفهومين من السياق ﴿ سُلَيْمَانَ ﴾ أي فكان القضاء فيها قضاءه، لا قضاء أبيه. روي عن ابن عباس أن غنماً أفسدت زرعاً بالليل، فقضى داود بالغنم لأصحاب الحرث، فقال سليمان: بل تؤخذ الغنم فتدفع إلى أصحاب الزرع فيكون لهم أولادها وألبانها ومنافعها. ويبذر أصحاب الغنم لأهل الزرع مثل زرعهم فيعمروه ويصلحوه، فإذا بلغ الزرع الذي كان عليه، ليلة نفشت فيه الغنم، أخذه أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها. وكذا روي عن ابن مسعود موقوفاً لا مرفوعاً. والله أعلم بالحقيقة. وقوله تعالى: ﴿ وَكُلاً ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ أي وكل واحد منهما آتيناه حكمة وعلماً كثيراً، لا سليمان وحده. ففيه دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهم، من عدم كون حكم داوُد عليه السلام حكماً شرعياً.

تنبيهات:

الأول – استدل بالآية على أن خطأ المجتهد مغفور له، وعكس بعضهم، فاستدل بالآية على أن كل مجتهد مصيب.

قال: لأنها تدل بظاهرها على أنه لا حكم لله في هذه المسألة قبل الاجتهاد. وأن الحق ليس بواحد. فكذا غيرها إذ لا قائل بالفصل. إذ لو كان له فيها حكم تعين. وهذا مذهب المعتزلة، كما بيّن في الأصول. وردّ بأن مفهوم قوله: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ لتخصيصه بالفهم دون داود عليه السلام، يدل على أنه المصيب للحق

عند اللّه. ولولاه لما كان لتخصيصه بالفهم معنى. والمستدلون يقولون: إن اللّه لما لم يخطئه، دل على أن كلاً منهما مصيب. وتخصيصه بالفهم لا يدل على خطأ داوُد عليه السلام، لجواز كون كلٍّ مصيباً. ولكن هذا أرفق وذاك أوفق، بالتحريض على التحفظ من ضرر الغير. فلذلك استدل بهذه الآية كلٌّ. فكما لم يعلم حكم اللّه فيها، لم يعلم تعين دلالتها. كذا في (العناية).

وجاء في (فتح البيان) ما مثاله: لا شك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ، وأما كون كل واحد منهما مصيباً فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها، بل صرح الحديث المتفق عليه في الصحيحين[1] وغيرهما أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر. فسماه النبيّ ﷺ مخطئاً. فكيف يقال إنه مصيب لحكم اللّه موافق له؟ فإن حكم اللّه سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين. وإلا لَزم توقف حكمه عزَّ وجلَّ على اجتهادات المجتهدين، واللازم باطل فالملزوم مثله. وأيضاً يستلزم أن تكون العين التي اختلف فيها اجتهاد المجتهدين، بالحلّ والحرمة، حلالاً وحراماً في حكم اللّه سبحانه. وهذا اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله. وأيضاً يلزم أن حكم اللّه سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد، له اجتهاد في تلك الحادثة، ولا ينقطع ما يريده اللّه سبحانه وتعالى فيها إلا بانقطاع المجتهدين. واللازم باطل فالملزوم مثله. والحاصل أن المجتهدين لا يقدرون على إصابة الحق في كل حادثة. لكن لا يصرون على الخطأ. كما رجع داود هنا إلى حكم سليمان، لما ظهر له أنه الصواب.

قال الحسن: لولا هذه الآية، لرأيت الحكام قد هلكوا. ولكن اللّه حمد هذا بصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده.

الثاني – دلت هذه الآية على جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام. وهو مذهب الجمهور. ومنعه بعضهم. ولا مستند له. لأن قضاء داود لو كان بوحي لما أوثر قضاء ابنه سليمان عليه. ومما يدل على وقوعه دلالة ظاهرة قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، فعاتبه على ما وقع منه. ولو كان ذلك بالوحي لم يعاتبه. ومنه ما صح عنه صلوات اللّه عليه من قوله[2]: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت

---

(١) أخرجه البخاري في: الاعتصام، ٢١- باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ. الحديث رقم ٢٥٩٣، عن عمرو بن العاص.
وأخرجه مسلم في: الأقضية، حديث رقم ١٥.

(٢) أخرجه البخاري في: الحج، ٨١- باب تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت، حديث ٨٢٦، عن جابر بن عبد اللّه. وأخرجه مسلم في: الحج، حديث رقم ١٤١.

لما سقت الهدْي) ومثل ذلك لا يكون فيما عمله بالوحي، ونظائر ذلك كثيرة في الكتاب والسنة. وأيضاً، فالاستنباط أرفع درجات العلماء. فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل. وإلا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه في هذا الباب.

قال الرازي: إذا غلب على ظن نبيٍ أن الحكم في الأصل معلل بمعنى، ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى في صورة أخرى، فلا بد وأن يغلب على ظنه أن حكم اللّه تعالى في هذه الصورة مثل ما في الأصل. وعنده مقدمة يقينية، وهي أن مخالفة حكم اللّه تعالى سبب لاستحقاق العقاب. فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون. وعند هذا، إما أن يقدم على الفعل والترك معاً، وهو محال، لاستحالة الجمع بين النقيضين. أو يتركهما وهو محال، لاستحالة الخلوّ عن النقيضين. أو يرجح المرجوح على الراجح وهو باطل ببديهة العقل، أو يرجح الراجح على المرجوح، وذلك هو العمل بالقياس – وهذه النكتة هي التي عليها التعويل في العمل بالقياس. وهي قائمة أيضاً في حق الأنبياء عليهم السلام. انتهى.

الثالث – قال السيوطي في (الإكليل): استدل بها على جواز الاجتهاد في الأحكام ووقوعه للأنبياء. وقد ذكرناه قبل. وأن المجتهد قد يخطئ، وأنه مأجور مع الخطأ غير آثم، لأنه تعالى أخبر بأن إدراك الحق مع سليمان، ثم أثنى عليهما. وقد تقدم أولاً. واستدل بها من قال برجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاد إلى أرجح منه. وفيها تضمين أرباب المواشي ما أفسدت بالليل دون النهار. لأن النفش لا يكون إلا بالليل، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن شريح والزهري وقتادة. ومن عمم الضمان فسره بالرعي مطلقاً. وذهب قوم منهم الحسن إلى أن صاحب الزرع تدفع إليه الماشية، ينتفع بدرّها وصوفها حتى يعود الزرع كما كان. كما حكم به سليمان في هذه الواقعة. إذ لم يرد في شرعنا ناسخ مقطوع به عندهم. انتهى.

الرابع: روى ابن جرير عن عامر قال: جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما: إن شياه هذا قطعت غزلاً لي. فقال شريحٌ: نهاراً أم ليلاً؟ فإن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشياه. وإن كان ليلاً فقد ضمن، ثم قرأ هذه الآية.

قال ابن كثير: وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه[1] الإمام أحمد وأبو داود[2]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٤٣٦.

(٢) أخرجه أبو داود في: البيوع، ٩٠– باب المواشي تفسد زرع قوم، حديث رقم ٣٥٧٠.

وابن ماجة[١] من حديث الليث بن سعد عن الزهري عن حرام بن محيّصة، أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً. فأفسدت فيه. فقضى رسول اللّه ﷺ على أهل الحوائط، حفظها بالنهار. وما أفسد المواشي بالليل ضامن على أهلها. وقد عُلّل هذا الحديث. وروى ابن أبي حاتم أن إياس بن معاوية، لما استقضى أتاه الحسن، فبكى. فقال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد! بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار. ورجل مال به الهوى فهو في النار. ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصريّ: إن فيما قصّ اللّه من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء، حكماً يردّ قول هؤلاء الناس عن قولهم. قال اللّه تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ...﴾ الآية. فأثنى اللّه على سليمان، ولم يذمّ داود.

ثم قال (يعني الحسن): إن اللّه اتخذ على الحكماء ثلاثاً: لا يشتروا به ثمناً قليلاً. ولا يتبعوا فيه الهوى. ولا يخشوا فيه أحداً. ثم تلا ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال: ﴿فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ [البقرة: ٤١].

ثم قال ابن كثير: وقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال. قال رسول اللّه ﷺ (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران. وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر) فهذا الحديث يردّ نصاً ما توهمه إياس من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار.

وفي السنن[٢]: (القضاة ثلاثة: قاضٍ في الجنة وقاضيان في النار. رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة. ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار).

ثم بيّن سبحانه ما خص كلاً من داودَ وسليمان من كراماته، إثر بيان كرامته العامة لهما، بقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي سخرنا

---

(١) أخرجه ابن ماجة في: الأحكام، ١٣- باب الحكم فيما أفسدت المواشي، حديث رقم ٢٣٣٢.

(٢) أخرجه أبو داود في: الأقضية، ٢- باب في القاضي يخطئ، حديث رقم ٣٥٧٣، عن بُرَيْدة.

وأخرجه ابن ماجة في: الأحكام، ٣- باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق، حديث رقم٢٣١٥.

الجبال والطير يقدسن الله معه، بصوت يتمثل له أو يُخْلَقُ فيها. قال ابن كثير: وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه (الزبور) وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه. وترد عليه الجبال تأويباً، ولهذا لما مرّ[1] النبيّ ﷺ على أبي موسى الأشعريّ وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيّب جداً، فوقف واستمع لقراءته وقال: لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود. قال: يارسول الله! لو علمت أنك تسمع لحبَّرته لك تحبيراً.

قال أبو عثمان الهنديّ: ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبي موسى رضي الله عنه. انتهى.

وتقديم الجبال على الطير، لأن تسبيحها أعجب وأدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز، لأنها جماد. والتذييل بقوله ﴿وكُنَّا فاعِلينَ﴾ إشارة إلى أنه ليس ببدع في جانب القدرة الإلهية، وإن كان عند المخاطبين عجيباً. وهذه الآية كقوله تعالى في سورة (ص) ﴿واذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ والطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧-١٩].

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (٨٠)

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ أي عمل الدروع الملبوسة. قيل كانت الدروع قبله صفائح، فحلقها وسردها. أي جعلها حلقاً وأدخل بعضها في بعض كما قال تعالى: ﴿وأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠-١١]، أي لا توسع الحلقة فتقلق المسمار. ولا تغلظ المسمار فتقدّ الحلقة. ولهذا قال ﴿لِتُحْصِنَكُمْ مِن بَأْسِكُمْ﴾ أي لتحفظكم من جراحات قتالكم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أي لنعم الله عليكم، لما ألهم عبده داود فعلّمه ذلك رحمة بكم فيما يحفظ عليكم في المعامع حياتكم. وفي إيراد الأمر بالشكر على صورة الاستفهام، مبالغة في التقريع والتوبيخ، لما فيه من الإيماء إلى التقصير في الشكر.

---

(١) أخرجه البخاري في: فضائل القرآن، ٣١- باب حسن الصوت بالقراءة، حديث رقم ٢٠٩٧.
وأخرجه مسلم في: صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ٢٣٦.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً** ﴾ أي سخرناها له ﴿ **تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** ﴾ وهي بيت المقدس ﴿ **وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ** ﴾ أي ما تقتضيه الحكمة البالغة فيه. وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص: ٣٦].

قال الزمخشري رحمه الله: فإن قلت: وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى، فما التوفيق بينهما؟ قلت: كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم. فإذا مرت بكرسيّه أبعدت به في مدة يسيرة على ما قال: ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ: ١٢]، فكان جمعها بين الأمرين، أن تكون رخاء في نفسها، وعاصفة في عملها، مع طاعتها لسليمان، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم، آية إلى اية، ومعجزة إلى معجزة.

قال في (الانتصاف): وهذا كما ورد في وصف عصا موسى تارة بأنها جانّ وتارة بأنها ثعبان. والجانّ الرقيق من الحيات والثعبان العظيم الجافي منها. ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين فكانت في خفتها وفي سرعة حركتها كالجانّ، وكانت في عظم خلقها كالثعبان، ففي كل واحد من الريح والعصا، على هذا التقرير، معجزتان. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

﴿ **وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ** ﴾ أي في البحر لاستخراج نفائسه، تكميلاً لخزائنه وتزييناً لقومه ﴿ **وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ** ﴾ أي غير ذلك كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿ **وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ** ﴾ أي مؤيدين ومعينين.

تنبيه:

الشياطين المذكورون، إما مردة الإنس وأشداؤهم، وإما مردة الجن لظاهر

اللفظ. وعليه قال الجبائيّ: كيف يتهيأ لهم هذه الأعمال وأجسامهم رقيقة لا يقدرون على عمل الثقيل؟ وإنما يمكنهم الوسوسة. وأجاب بأنه تعالى كثّف أجسامهم خاصة وقواهم، وزاد في عظمهم ليكون ذلك معجزاً لسليمان عليه السلام. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾.

أي اذكر أيوب وما أصابه من البلاء ودعاءه ربه في كشف ما نزل به، واستجابته تعالى دعاءَه وما امتن به عليه في رفع البلاء. وما ضاعف له بعد صبره من النعماء، لتعلم أن النصر مع الصبر، وأن عاقبة العسر اليسر. وأن لك الأسوة بمثل هذا النبيّ الصبور، فيما ينزل أحياناً بك من ضرّ. وأن البلاء لم ينج منه الأنبياء. بل هم أشد الناس ابتلاءً. كما في الحديث[1] (أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل).

وإن من أسباب الفرج دعاءه تعالى والابتهال إليه والتضرع له، وذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العليا. وإن البلاء لا يدل على الهوان والشقاء. فإن السعادة والشقاء في هذا العالم لا يترتبان على صالح الأعمال وسيئها. لأن الدنيا ليست دار جزاء. وإن عاقبة الصدق في الصبر، هي توفية الأجر ومضاعفة البر. وقد روي أن أيوب عليه السلام، لما امتحن بما فقد معه أرزاقه وهلك به جميع آل بيته، وبما لبث يعاني من قروح جسده آلاماً، وصبر وشكر، رحمه مولاه فعادت له صحة بدنه وأوتي أضعاف ما فقده. ورزق عدة أولاد، وعاش عمراً طويلاً أبصر أولاد أولاده إلى الجيل الرابع. ولذا قال تعالى: ﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ أي تذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر، حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة. وبالجملة فالسر هو تثبيت قلوب المؤمنين

---

(١) أخرجه الترمذي في: الزهد، ٥٧- باب ما جاء في الصبر على البلاء، عن سعد.

وحملهم على الصبر في المجاهدة في سبيل الحق. وقد روى المفسرون ههنا في بلاء أيوب روايات مختلفات، بأسانيد واهيات، لا يقام لها عند أئمة الأثر وزن. ولا تُعَارُ من الثقة أدنى نظر. نعم يوجد في التوراة سفر لأيوب فيه من شرح ضره، بفقد كل مقتنياته ومواشيه وآل بيته، وبنزول مرض شديد به، عدم معه الراحة ولذة الحياة، غرائب. إلا أنها مما لايوثق بها جميعها. لما داخلها من المزيج، وتوسع بها في الدخيل، حتى اختلط الحابل بالنابل. وإن كان يؤخذ من مجموعها بلاء فادح وضر مدهش. ولو علم الله خيراً في أكثر مما أجمله في تنزيله الحكيم، لتفضل علينا بتفصيله. ولذا يوقف عند إجماله فيما أجمل، وتفصيله فيما فصّل.

تنبيه:

قال بعضهم: أكثر المحققين على أن أيوب كان بعد زمن إبراهيم عليهما السلام. وأنه كان غنيّاً من أرباب العقار والماشية. وكان أميراً في قومه. وأن أملاكه ومنزله في أرض خصيبة رائعة التربة كثيرة المياه المتسلسلة في الجنوب الشرقي من البحر الميت. ومن جبل سعير بين بلاد أدوم وصحراء العربية. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ، كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي على القيام بأمر الله، وعلى شدائد النوب، وعلى احتمال الأذى في نصرة دينه تعالى، ففيهم أعظم أسوة ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي في النبوة أو في نعمة الآخرة ﴿إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي الكاملين في الصلاح.

قال ابن كثير: أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام. وقد تقدم ذكره في سورة مريم. وكذا إدريس عليه السلام. وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبيّ.

وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم.

وذهب بعض المحققين إلى أن ذا الكفل هو حزقيل عليه السلام.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أي اذكر ذا النون يعني صاحب الحوت، وهو يونس عليه السلام، وصبره على ما أصابه، ثم إنابته ونجاته، ليتثبت في نبئه فؤادك ويقوى على الصبر على ما يقوله الطغاة جنانك. وهذه القصة مذكورة ههنا وفي سورة (الصافات) وفي سورة (ن). وذلك أن يونس بن متى عليه السلام، أمره الله أن ينطلق إلى أهل نينوى – من أرض الموصل، كرسي سلطنة الأشوريين ليدعوهم إلى الإيمان به تعالى وحده، وإلى إقامة القسط ونشر العدل وحسن السيرة. وكانوا على الضد من ذلك، تعاظم كفرهم وتزايد شرهم. فخشي أن لا يتم له الأمر معهم، فأبق من بيت المقدس إلى يافا. ونزل في سفينة سائرة إلى ترشيش ليقيم فيها. فأرسل الله ريحاً شديدة على البحر أشرفت السفينة معه على الغرق. فتخفف الركاب من أمتعتهم فلم يفد، فوقع في أنفسهم أن في السفينة شخصاً سيهلكون بسببه، فاقترعوا لينظروا من هو فخرجت القرعة على يونس، فقذفوه في البحر وسكن جيشانه وتموجه. وهيأ الله حوتاً ليونس فابتلعه، فمكث في جوف الحوت ثلاثة أيام. ثم دعا ربه فاستجاب له، وألقاه الحوت على الساحل. ثم أوحي الله إلى يونس ثانية بالمسير إلى نينوى، ودعوتها إلى الله تعالى، فوصلها ونادى فيهم بالتوحيد والتوبة. وتوعدهم إن لم يؤمنوا أن تنقلب بهم نينوى، فلما تحققوا ذلك آمنوا. فرفع الله عنهم العذاب، قال تعالى ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

تنبيهات:

الأول – يونس عليه السلام يسمى في التوراة (يونان) وهو عبراني. ويقال إنه من جَت حافَر وهي قرية في سبط زبولون، في شمال الأرض المقدسة. وإنه نُبِّئَ قبل المسيح بنحو ثمانمائة سنة. والله أعلم.

الثاني - أكثر المفسرين (كما حكاه الرازي) على أن يونس ذهب مغاضباً لربه. وأنه ظن بإباقه إلى الفلك، وتركه المسير إلى نينوى أولاً، أن يترك ولا يقاصّ. قال بعض المحققين: إنما خالف يونس أولاً الأمر الإلهي وترخص فيه، مخافة أن يظن أنه نبيّ كاذب إذا تاب أهل نينوى وعفا اللّه عن جرمهم. وإيثار صيغة المبالغة في (مغاضباً) للمبالغة. لأن أصله يكون بين اثنين، يجهد كل منهما في غلبة الآخر. فيقتضي بذل المقدور والتناهي. فاستعمل في لازمه للمبالغة، دون قصد (مفاعلة) وقد استدل بظاهر هذه الآية وأمثالها، من ذهب إلى جواز صدور الخطأ من الأنبياء، إلا الكذب في التبليغ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ فيه، لأنه حجة اللّه على عباده. وإلا ما يجري مجرى بيان الوحي، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ في حال بيان المشروع. وهو قول الكرامية في المرجئة (كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد) وقول الباقلاني من الأشعرية: (على ما حكاه ابن حزم في الملل). وأما الجمهور المانعون من ذلك، فلهم في هذه الآية وأشباهها تأويلات. ونحن نؤثر ما قاله ابن حزم في هذا المقام، لأنه أطلق لساناً، قال رحمه اللّه (بعد أن حكى مذهب الكرامية المذكور): وذهب أهل السنة والمعتزلة والنجاريّة والخوارج والشيعة إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبيّ معصية بعمد لا صغيرة ولا كبيرة.

ثم قال: وهذا القول الذي ندين اللّه تعالى به. ولا يحل لأحد أن يدين بسواه. ونقول: إنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد. ويقع منهم أيضاً قصد الشيء يريدون به وجه اللّه تعالى، والتقرب به منه. فيوافق خلاف مراد اللّه تعالى. إلا أنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذين الوجهين أصلاً، بل ينبههم على ذلك ولا بد، إثر وقوعه منهم. وربما يبغض المكروه في الدنيا، كالذي أصاب آدم ويونس والأنبياء عليهم السلام، بخلافنا في هذا. فإننا غير مؤاخذين بما سهونا فيه، ولا بما قصدنا به وجه اللّه عزّ وجلّ، فلم يصادف مراده تعالى. بل نحن مأجورون على هذا الوجه أجراً واحداً.

ثم قال (في الكلام على يونس عليه السلام): وأما إخبار اللّه تعالى أن يونس ذهب مغاضباً، فلم يغاضب ربه قط، ولا قال اللّه تعالى إنه غاضب ربه. فمن زاد هذه الزيادة كان قائلاً على اللّه الكذب، وزائداً في القرآن ما ليس فيه. هذا لا يحل ولا يجوز أن يظن بمن له أدنى مسكة من عقل، أنه يغاضب ربه تعالى. فكيف أن يفعل ذلك نبيٌّ من الأنبياء؟ فعلمنا يقيناً أنه إنما غاضب قومه، ولم يوافق ذلك مراد اللّه عزّ وجلّ، فعوقب بذلك. وإن كان يونس عليه السلام لم يقصد بذلك إلا رضاء اللّه عزّ

وجلّ. وأما قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ فليس على ما ظنوه من الظن السخيف الذي لا يجوز أن يظن بضعيفة من النساء أو بضعيف من الرجال. إلا أن يكون قد بلغ الغاية من الجهل. فكيف بنبيّ مفضل على الناس في العلم ؟ ومن المحال المتيقن أن يكون نبيّ يظن أن اللّه تعالى الذي أرسله بدينه لا يقدر عليه. وهو يرى أن آدمياً مثله يقدر عليه. ولا شك في أن من نسب هذا للنبيّ ﷺ الفاضل، فإنه يشتد غضبه لو نسب ذلك إليه أو إلى ابنه. فكيف إلى يونس بن متى الذي يقول فيه رسول اللّه ﷺ[1] (لا تفضلوني على يونس بن متى)؟ فقد بطل ظنهم بلا شك، وصح أن معنى قوله ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي لن نضيق عليه كما قال تعالى ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الفجر: ١٦]، أي ضيق عليه. فظن يونس عليه السلام أن اللّه تعالى لا يضيق عليه في مغاضبته لقومه، إذ ظن أنه محسن في فعله ذلك: وإنما نهى اللّه عزَّ وجلَّ، محمداً ﷺ عن أن يكون كصاحب الحوت، فنعم، نهاه اللّه عزَّ وجلَّ عن مغاضبة قومه، وأمره بالصبر على أذاهم وبالمطاولة لهم. وأما قوله تعالى: أنه استحق الذم والملامة، لولا النعمة التي تداركه بها، للبث معاقباً في بطن الحوت، فهذا نفس ما قلناه من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون في الدنيا على ما فعلوه، مما يظنونه خيراً وقربة إلى اللّه عزَّ وجلَّ، إذا لم يوافق مراد ربهم. وعلى هذا الوجه أقر على نفسه بأنه كان من الظالمين. والظلم وضع الشيء في غير موضعه. فلما وضع النبيّ ﷺ المغاضبة في غير موضعها، اعترف في ذلك بالظلم. لاعلى أنه قصده وهو يدري أنه ظلم. انتهى كلام ابن حزم.

وأقول: إن الذي يفتح باب الإشكالات هو التعمق في الألفاظ. والتنطع في شرحها وتوليد معاني ولوازم لها، والتوسع في وجوهها توسعاً يميت رونق التركيب ونصاعة بلاغته. ومعلوم أن التنزيل الكريم فاق سائر أساليب الكلام المعهودة بأسلوبه البديع. ولذا كانت آية تأخذ بمجامع القلوب رقة وانسجاماً. وبلاغة وانتظاماً. فلا ترى في كلمه إلا المختارات لطفاً، ولا في جمله إلا الفخيمات تركيباً، ولا في إشاراته إلا الأقوى رمزاً، ولا في كناياته إلا الأعلى مغزى. ومن ذلك سنته في الملام والوعيد من إفراغ القول في أبلغ قالب شديد، مما يؤخذ منه شدة الخطب، وقوة العتب وذلك لعزة الجناب الإلهي والمقام الرباني. فالعربيّ البليغ طبعاً، الذائق جبلة،

---

(١) أخرجه البخاري في: الأنبياء، ٣٥- باب قول اللّه تعالى: ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾، حديث رقم ١٦٠٠، عن ابن عباس، ونصه: ماينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متى.

إذا تلي عليه مجمل نبأ يونس عليه السلام في هذه الآية، يدهش لما ترمي إليه من قوة العتب والملام، وأنه بإباقه غاضب مولاه، غضباً لا يماثل الغضب على العصاة. فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين. وأنه ظن أن يُنسى فلا يؤاخذ. ويفلت فلا يحصر. فأتاه ما لم يكن على بال. ووقع في شرك قدرة المتعال، ثم تداركته النعمة، ولحقته الرحمة. هذا مجمل ما يفهم من الآية منطوقاً ومفهوماً. فافهم ما ذكرته لك. فإنه يبلغك من التحقيق أملك.

الثالث: عدَّ بعض الملاحدة ابتلاع الحوت يونس مُحالاً. فكتب بعض المحققين مجيباً بأن هذا إنكار لقدرة اللّه فاطر السموات والأرض. الذي له في خلقه غرائب. ومنها الحيتان المتنوعة الهائلة الجثث، التي لم يزل يصطاد منها في هذا العصر، وفي بطونها أجساد الناس بملابسهم. وكتب آخر: لم يتعرض لتعيين نوع الحوت الذي ابتلع يونس. ولعله فيما قال قوم من المحققين. من النوع المعروف عند بعضهم (بالزفا) وهو من كبار الحيتان يكون في بحر الروم، واسع الحلقوم، حتى أنه ليبتلع الرجل برمته، دون أن يشدخه أو يجرحه. حتى يبقى في الإمكان أن يخرج منه وهو حيّ: ومع ذلك فلم يكن بغير معجزة بقاؤه ثلاثة أيام في جوف هذا الحوت، ولبث مالكاً رشده متمكناً من التسبيح والدعاء. انتهى.

الرابع: الجمع في قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ إما على حقيقته، وهي ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل. وقد روي ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما. أو مجاز، يجعل الظلمة لشدتها وتكاثفها في بطن الحوت كأنها ظلمات. والمراد منها أحد المذكورات، أو بطن الحوت. وقدمه الزمخشري ونظره بآية ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ [البقرة: ١٧].

الخامس: قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي دعاؤه ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ يعني بأن قذفه الحوت إلى الساحل، قيل لم يقل (فنجيناه) كما قال في قصة أيوب عليه السلام ﴿فَكَشَفْنَا﴾ [الأنبياء: ٨٤]، لأنه دعا بالخلاص من الضر، فالكشف المذكور يترتب على استجابته. ويونس عليه السلام لم يدع، فلم يوجد وجه الترتيب في استجابته. وردّ بأن (الفاء) في قصة أيوب تفسيرية. والعطف هنا أيضاً تفسيري. والتفنن طريقة مسلوكة في علم البلاغة. ثم لا نسلم أن يونس لم يدع بالخلاص ولو لم يكن دعاء لم تتحقق الاستجابة. واستظهر الشهاب في سر الإتيان بالفاء ثمة. والواو هنا غير التفنن المذكور. أن يقال: إن الأول دعاء بكشف الضر وتلطف في السؤال.

فلما أجمل في الاستجابة، وكان السؤال بطريق الإيماء، ناسب أن يؤتى بالفاء التفصيلية. وأما هنا، فإنه لما هاجر من غير أمر، على خلاف معتاد الأنبياء عليهم السلام. كان ذلك ذنباً. كما أشار إليه بقوله: ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فما أومأ إليه هو الدعاء بعدم مؤاخذته بما صدر منه من سيئات الأبرار. فالاستجابة عبارة عن قبول توبته وعدم مؤاخذته: وليس ما بعده تفسيراً له، بل زيادة إحسان على مطلوبه. ولذا عطف بالواو. انتهى.

السادس: قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إذا كانوا في غموم، وأخلصوا في أدعيتهم منيبين، لاسيما بهذا الدعاء: وقد روي في الترغيب آثار: منها عند أحمد والترمذي (دعوة [1] ذي النون، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط، إلا استجاب له). وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾

﴿وَزَكَرِيَّا﴾ أي واذكر خبره ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي حين طلب أن يهبه ربه ولداً يكون من بعده نبياً، ولايتركه فرداً وحيداً بلا وارث، وقد تقدمت القصة مبسوطة في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضاً. وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ثناء مناسب للمسألة. قال الغزالي في (شرح الأسماء الحسنى): الوارث هو الذي ترجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك. وذلك هو الله سبحانه، إذ هو الباقي بعد فناء خلقه، وإليه مرجع كل شيء ومصيره. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي دعاءَهُ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي أصلحناها للولادة بعد عقرها، معجزة وكرامة له. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١ / ١٧٠، والحديث رقم ١٤٦٢.
وأخرجه الترمذي في: الدعوات، ٨١- باب حدثنا محمد بن يحيى.

﴿الْخَيْرَاتِ﴾ تعليل لما فصّل من فنون إحسانه تعالى، المتعلقة بالأنبياء المذكورين، أي كانوا يبادرون في كل باب من الخير. وإيثارُ (في) على (إلى) للإشارة إلى ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير. لأن (إلى) تدل على الخروج عن الشيء والتوجه إليه ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ أي ذوي رغب ورهب، أو راغبين في الثواب راجين للإجابة ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي مخبتين متضرعين. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي اذكر نبأ التي أحصنته إحصاناً كلياً، عن الحلال والحرام جميعاً. كما قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] و[مريم: ٢٠]. والتعبير عنها بالموصول، لتفخيم شأنها، وتنزيهها عما زعموه في حقها، بادئ بدء ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أي نفخنا الروح في عيسى فيها. أي أحييناه في جوفها. فنزّل نفخ الروح في عيسى، لكونه في جوف مريم، منزلة نفخ الروح فيها. ونفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه. وقيل: المعنى فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام، أي أمرناه فنفخ. أو فنفخنا فيها بعض روحنا، أي بعض الأرواح المخلوقة لنا. وذلك البعض هو روح عيسى، لأنها وصلت في الهواء الذي نفخه في رحمها ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا﴾ أي نبأهما ﴿ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي في كمال قدرته واختصاصه من شاء بما شاء. وقد كان من آيتهما إتيان الرزق لمريم في غير أوانه. وتثمير النخل اليابس. وإجراء العين، ونطق ابنها في المهد. وإحياء الموتى. وإبراء الأكمه والأبرص.

قال الزمخشري: فإن قلت: هلا قيل ﴿ءَايَتَيْنِ﴾ كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢]؟ قلت: لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة. وهي ولادتها إياه من غير فحل. انتهى. وقيل: المعنى (وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً وَابْنَهَا آيَةً). فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها. ولما أنهى ما ذكر تعالى من شأن جماعة من الأنبياء صلوات الله عليهم، أشار إلى أن عقائدهم وأصول دينهم واحدة، بقوله سبحانه وتعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾

﴿**إنَّ هَذِهِ**﴾ أي علة التوحيد والإستسلام لمعبود واحد لا شريك له ﴿**أُمَّتُكُمْ**﴾ أي ملتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها. والخطاب للناس كافة ﴿**أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ أي غير مختلفة. بل هي ملة واحدة. أي أن جميع الأنبياء ورسل الله على ملة واحدة ودين واحد. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّه الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿**وأَنَا رَبُّكُمْ**﴾ أي لا إله لكم غيري ﴿**فَاعْبُدُونِ**﴾ أي ولا تشركوا بي شيئاً.

تنبيه:

قلنا: إن الأمة هنا بمعنى الملة، وهو الدين المجتمع عليه، كما في قوله ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣]، أي على دين يجتمع عليه. والأمة بهذا المعنى هو ما رجحه كثير من المفسرين في هذه الآية، وفي آية ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَات وَاعْمَلُواْ صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٢]، وتطلق (الأمة) بمعنى الجماعة. كما هي في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِه يَعْدِلُونَ﴾ أي جماعة. [الأعراف: ١٨١]. وكما في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوف وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ولا تكون بمعنى الجماعة مطلقاً، وإنما هي بمعنى الجماعة الذين تربطهم رابطة اجتماع، يعتبرون بها واحداً، وتسوغ أن يطلق عليهم اسم واحد كاسم الأمة. وتطلق الأمة بمعنى السنين كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨]، وفي قوله ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، وبمعنى الإمام الذي يقتدى به، كما في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّه﴾ [النحل: ١٢٠]، وبمعنى إحدى الأمم المعروفة كما في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهذا المعنى الأخير لا يخرج عن معنى الجماعة، على ما ذكرنا. وإنما خصصه العرف تخصيصاً. كذا حققه العلامة محمد عبده رحمه الله في تفسير آية ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣].

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣﴾

﴿**وتَقطَّعُواْ أَمْرَهُم بَينَهُمْ، كُلٌ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ**﴾ أي تفرق الناس في دينهم الذي

أمرهم الله به، ودعاهم إليه، فصاروا فيه أحزاباً ومللاً.

قال الزمخشري رحمه الله: والأصل (وتقطعتم) إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات. كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه، إلى آخرين، ويقبح عندهم فعلهم، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله؟ والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً، كما يتورع الجماعة الشيء ويقتسمونه. فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب، تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى. ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة، إليه يرجعون. فهو محاسبهم ومجازيهم، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾

﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ** ﴾ أي فمن عمل من هؤلاء، الذين تفرقوا في دينهم، بما أمر الله به من العمل الصالح، وأطاعه في أمره ونهيه، وهو مقر بواحدانية الله، مصدق وعده ووعيده، متبرئ من الأنداد والآلهة، فلا كفران لسعيه، بل يشكر الله عمله هذا، ويثيبه ثواب أهل طاعته. وقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّا لَهُ** ﴾ أي لسعيه المشكور ﴿ **كَاتِبُونَ** ﴾ أي مثبتوه في صحيفة أعماله، ولا نضيعه.

تنبيه:

الكفران مصدر من (كفر فلان النعمة كُفراً وكفراناً) وأوثر (لا كفران) على (لا نكفر) للمبالغة. لأن نفي الجنس مستلزم له وأبلغ في التنزيه بعمومه. وعبر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به. والآية كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإسراء: ١٩].

ثم أشار إلى مقابل هؤلاء، وهم من أعرض عن ذكره تعالى، بلحوق الوعيد لهم، لما جرت به سنته تعالى، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾

﴿ **وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ** ﴾ أي وحرام على أهل قرية فسقوا عن

أمر ربهم، فأهلكهم بذنوبهم، أن يرجعوا إلى أهلهم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [يس:٣١]، وقوله: ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس:٥٠]، وزيادة (لا) هنا لتأكيد معنى النفي من (حرام) وهذا من أساليب التنزيل البديعة البالغة النهاية في الدقة. وسر الإخبار بعدم الرجوع مع وضوحه، هوالصدع بما يزعجهم ويؤسفهم ويلوّعهم من الهلاك المؤبد، وفوات أمنيتهم الكبرى، وهي حياتهم الدنيا. وجعل أبو مسلم هذه الآية من تتمة ما قبلها، و(لا) فيها على بابها. وهي مع (حرام) من قبيل نفي النفي. فيدل على الإثبات. والمعنى: وحرام على القرية المهلكة، عدم رجوعها إلى الآخرة. بل واجب رجوعها للجزاء. فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث. وتحقيق ما تقدم أنه لا كفران لسعي أحد. وأنه سبحانه سيحييه، وبعمله يجزيه. واللفظ الكريم يحتمله ويتضح فيه. إلا أن الأول لرعاية النظائر من الآي أولى. وأما ما ذكر سواهما، فلا يدل عليه السياق ولا النظير. وفيه ما يخل بالبلاغة من التعقيد وفوات سلاسة التعبير.

ثم أشار إلى تحقق نصر الرسل وغلبتهم، وكثرة أتباعهم حتى يحيطوا بأعدائهم من كل جانب، وينزلوا بهم ما تشخص لهم أبصارهم، يورثهم طول الندامة، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ علم لكل أمة كثيرة العدد مختلطة من أجْناسٍ شتى ﴿وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أي من كل نشز من الأرض يسرعون، متجندين لقهر أعدائهم، تحت راية نبيهم أو أميره أو خليفته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ أي طلعت طلائع النصر والقهر، ودحر الباطل والكفر ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لهول ما حل بساحتهم والدهشة منه، قائلين ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أي لم نعلم أنه حق ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي

لأنفسنا، بالإخلال بالنظر والإباء والعناد. ثم أشار إلى شأنهم في الآخرة بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ من دُون اللَّه** ﴾ أي من الأوثان والأصنام ﴿ **حَصَبُ جهَنَّمَ** ﴾ أي ما يرمى به إليها ﴿ **أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُون لَوْ كَانَ هؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وكُلٌ فِيهَا خَالدُونَ** ﴾ أي فلا منجى لهم منها.

قال الزمخشري: فإن قلت: لمَ قرنوا بآلهتهم؟ قلت: لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة. حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر إلى وجه العدوّ باب من العذاب. ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم في الآخرة، ويستنفعون بشفاعتهم. فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا، لم يكن شيء أبغض إليهم منهم ﴿ **لَهُمْ فيهَا زَفِيرٌ** ﴾ أي ترديد نفس تنتفخ منه الضلوع ﴿ **وَهُمْ فيهَا لاَ يَسْمَعُونَ** ﴾ أي من الهول وشدة العذاب. ثم بيّن تعالى حال المؤمنين إثر حال الكافرين، حسبما جرت به سنة التنزيل، من شفع الوعد بالوعيد، وإيراد الترغيب مع الترهيب، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿ **إنَّ الَّذينَ سَبقَتْ لَهُمْ منَّا الْحُسْنَى** ﴾ أي الخصلة الحسنى، وهي السعادة أو التوفيق ﴿ **أُولَٰئكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** ﴾ لأنهم في غرفات الجنان آمنون. إذ وقاهم ربهم عذاب السعير ﴿ **لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا** ﴾ أي صوتاً يحس به منها، لبعدهم عنها وعما يفزعهم ﴿ **وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالدُونَ لا يَحْزُنُهُمُ الْفزَعُ الأَكْبَرُ** ﴾ أي للحشر كما قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّور فَفَزِعَ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴾ [النمل: ٨٧]، ﴿ **وَتَتلَقَّاهُمُ المَلاَئكَةُ** ﴾ أي تستقبلهم مهنئين لهم قائلين ﴿ **هَذا يَوْمُكُم**

﴿الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي في الدنيا، وتبشرون بنيل المثوبة الحسنى فيه. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ أي اذكره. أو ظرف لـ ﴿لايحزنهم﴾ أو لـ ﴿تتلقاهم﴾. والطيّ ضد النشر. وقوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي كما يطوى السجل وهوالكتاب. واللام في (للكتب) لام التبيين. ولذلك قرئ (الكتاب) بالإفراد. أو بمعنى (من) وفيه قرب من الأول، أو (الكتب) بمعنى المكتوب. أي كطي الصحيفة على مكتوبها. فاللام بمعنى (على) وهو ما اختاره ابن جرير.

تنبيه:

ما نقل عن ابن عباس أن السجل اسم رجل كان يكتب للنبيّ صلوات الله عليه، كما رواه أبو داود والنسائي وغيرهما، فاثر منكر لا يصح.

قال ابن كثير: وقد صرح بوضعه جماعة من الحفاظ، وإن كان في سنن أبي داود. منهم شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي.

وكذلك تقدم في رده الإمام ابن جرير وقال: لا يعرف في الصحابة أحد اسمه السجل. وكُتَّابُ النبيّ صلوات الله عليه، معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السجل.

وصدق رحمه الله في ذلك. وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث.

وأما من ذكره في أسماء الصحابة، فإنما اعتمد على هذا الحديث. والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة. انتهى.

وهذه الآية كآية ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وطي السماء كناية عن انكدار نجومها، ومحو رسومها، بفساد تركيبها واختلال نظامها. فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ما نراه اليوم. فيخرب العالم بأسره ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي منجزين إياه. ثم أشار إلى تحقيق

مصداقه، بإعزاز المنبئ عنه، وإيراثه ملك جاحده بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أي العاملون بطاعته. المنتهون إلى أمره ونهيه. دون العاملين منهم بمعصيته، المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته. و(الزبور) علم على كتاب داود عليه السلام، ويقال: المراد به كل كتاب منزل. والذكر – قالوا – التوراة أو أم الكتاب. يعني اللوح الذي كتب فيه كل شيء قبل الخلق، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَومٍ عَابِدِينَ﴾ إشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة. أو إلى العبرة في إيراث الأرض الصالحين ودحر المجرمين. و (البلاغ) الكفاية. وقوله ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي يعبدون الله، بما شرعه وأحبه ورضيه. ويؤثرون طاعته على طاعة الشياطين وشهوات النفس ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي وما أرسلناك بهذه الحنيفية والدين الفطريّ، إلا حال كونك رحمة للخلق، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين. وفي جعله نفس الرحمة مبالغة جلية. وجوز كون (رحمة) مفعولاً له. أي للرحمة، فهو نبيّ الرحمة.

تنبيه:

قال الرازي: إنه عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا. أما في الدين فلأنه بعث والناس في جاهلية وضلالة وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم، لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم. فبعث الله تعالى محمداً ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب. فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام. ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق، فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار، وكان التوفيق قريناً له. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤]، وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب، ونصروا ببركة دينه. انتهى.

وقد أشرت إلى وجه الرحمة في بعثته صلوات الله عليه، في (الشذرة) التي جمعتها في سيرته الزكية، في بيان افتقار الناس جميعاً إلى رسالته، فقلت: كل من لحظ بعين الحكمة والاعتبار، ونفذت بصيرته إلى مكنون الأسرار، علم حاجة البشر كافة إلى رسالة خاتم النبيين، وأكبر منة الله به على العالمين، فقد بعث صلوات الله عليه وسلامه على حين فترة من الرسل، وإخافة للسبل، وانتشار من الأهواء، وتفرق

من الملل، ما بين مشبه للّه بخلقه، وملحد في اسمه، ومشير إلى غيره، كفر بواح، وشرك صراح، وفساد عام، وانتهاب للأموال والأرواح واغتصاب للحقوق، وشن للغارات، ووأد للبنات وأكل للدماء والميتات، وقطع للأرحام، وإعلان بالسفاح، وتحريف للكتب المنزلة، واعتقاد لأضاليل المتكهنة. وتأليه للأحبار والرهبان، وسيطرة من جبابرة الجور وزعماء الفتن وقادة الغرور، ظلمات بعضها فوق بعض، وطامات طبقت أكناف الأرض، استمرت الأمم على هذه الحال، الأجيال الطوال، حتى دعا داعي الفلاح، وأذن اللّه تعالى بالإصلاح. فأحدث بعد ذلك أمراً، وجعل بعد عسر يسراً. فإن النوائب إذا تناهت انتهت، وإذا توالت تولّت. وذلك أن اللّه تعالى أرسل إلى البشر رسولاً ليعتقهم من أسر الأوثان، ويخرجهم من ظلمة الكفر وعمى التقليد إلى نور الإيمان، وينقذهم من النار والعار، ويرفع عنهم الآصار، ويطهرهم من مساوئ الأخلاق والأعمال، ويرشدهم إلى صراط الحق. قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، انتهى. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

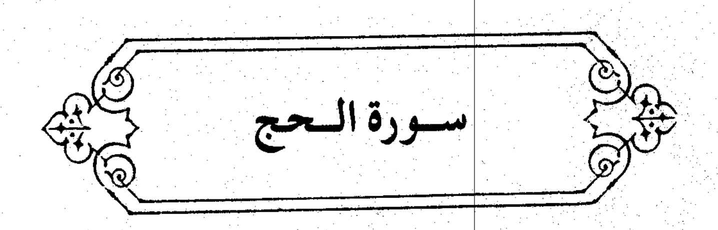
قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

﴿**قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ أي ما يوحى إليّ، إلاّ استئثاره تعالى بالوحدانية في الألوهية. ومعنى القصر على ذلك، أنه الأصل الأصيل، وما عداه راجع إليه وغير منظور إليه في جنبه. فهو قصر دعائي ﴿**فَهَلْ أَنْتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ أي منقادون لما يوحى من التوحيد، مستسلمون له ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا**﴾ أي عن التوحيد ﴿**فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ**﴾ أي أعلمتكُمْ وهديتكم على كلمة سواء بيننا وبينكم، نؤمن بها ونجني ثمرات سعادتها في الدارين. أو المعنى دللتكم على صراط مستقيم، وبلغتكم الأمر به. فإن آمنتم به فقد سعدتم، وإلا فإن وعد الجاحدين آتيكم، وليس بمصروف

عنكم. وإن كنت لا أدري متى يكون ذلك، لأن الله تعالى لم يعلمني علمه، ولم يطلعني عليه كما قال: ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ أي وما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي من الفتح عليكم، وإيراث أرضكم غيركم، ولحوق الذل والصغار بعصيانكم ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي فسيجزيكم على ذلك ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي وما أدري لعلل تأخير جزائكم استدراج لكم، وزيادة في افتتانكم، أو ابتلاء لينظر كيف تعملون. فـ (الفتنة) إما مجاز عن الاستدراج بذكر السبب وإرادة المسبب، أو هو بمعناه الأصليّ. فهو استعارة مصرحة. وقول تعالى: ﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي تمتيع لكم إلى أجل مقدور. والتمتيع بمعنى الإبقاء والتأخير ﴿قَالَ﴾ وقرئ (قُل) ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي افصل بيننا وبينهم بالحق. وذلك بنصر من آمن بما أنزلت، على من كفر به، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي من الكذب والافتراء على الله ورسوله. بنصر أوليائه، وقهر أعدائه. وقد أجاب سبحانه دعوته، وأظهر كلمته، فله الحمد في الأولى والآخرة، إنه حميد مجيد.

قال الرازي: قال القاضي: إنما ختم الله هذه السورة بقوله: ﴿قُلْ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ لأنه عليه السلام كان قد بلغ في البيان لهم الغاية، وبلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه. فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسليةً له وتعريفاً أن المقصود مصلحتهم. فإذا أبوا إلا التمادي في كفرهم، فعليك بالانقطاع إلى ربك، ليحكم بينك وبينهم بالحق. إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره. وإما بتأخير ذلك. فإن أمرهم، وإن تأخر فما هو كائن قريب. وما روي أنه عليه السلام كان يقول ذلك في حروبه، كالدلالة على أنه تعالى أمره أن يقول هذا القول، كالاستعجال للأمر بمجاهدتهم. وبالله التوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة الحج

سميت به لاشتمالها على أصل وجوبه والمقصود من أركانه، وهو الطواف، إذ الإحرام نية، والوقوف بعرفات من استعداده، والسعي من تتمته، والحلْق خروج عنه. وذكر فيها منافعه وتعظيم شعائره وغير ذلك، مما يشير إلى فوائده وأسراره. أفاده المهايميّ.

وعن مجاهد، عن ابن عباس: أنها مكية سوى ثلاث آيات ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الحج:١٩-٢٢]، إلى تمام الآيات الثلاث، فإنهن نزلن بالمدينة، وفي آثار أخرى أنها كلها مدنية، كما في الإتقان وآياتها ثمان وسبعون آية.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾ يأمر تعالى عباده بِتَقْوَاهُ التي هي من جوامع الكلم، في فعل المأمورات واجتناب المنهيات.

قال المهايمي: أي احفظوا تربيته عليكم، بصرف نعمه إلى ما خلقها لأجله، لئلا تقعوا في الكفران الموجب لانقلاب التربية عليكم، بالانتقام منكم. انتهى.

أي فالتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية، مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين، لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به ترغيباً وترهيباً. أي احذروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم، وقوله تعالى ﴿**إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾ تعليل لموجب الأمر، بذكر بعض عقوباته الهائلة. فإن ملاحظة عظمها وهولها، وفظاعة ما هي من مبادئه ومقدماته، من الأحوال والأهوال، التي لا ملجأ منها سوى التدرع بلباس التقوى، مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالة. و (الزلزلة) التحريك الشديد والإزعاج العنيف، بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء من مقارّها ويخرجها عن مراكزها. وإضافتُها للساعة، من إضافة المصدر إلى فاعله مجازاً، كأنها هي التي تزلزل. أو إلى ظرفه، وهي الزلزلة المذكورة في قوله تعالى: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا**﴾ [الزلزلة: ١]، وفي التعبير عنها بـ (الشيء)، إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها، والعبارة لا تحيط بها إلا على وجه الإبهام. أفاده أبو السعود.

وقد وصف عظمها في كثير من السور والآيات. كسورة التكوير وسورة الانفطار وسورة الانشقاق وسورة الزلزال وغيرها. وقد أشير إلى شيء من بليغ هولها بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

﴿**يوْمَ ترونْهَا تذْهَلُ كُلُّ مُرْضعَةٍ عمَّا أَرْضَعَتْ**﴾ أي عن إرضاعها. أو عن الذي أرضعته وهو الطفل ﴿**وَتضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حمْلَهَا**﴾ أي ما في بطنها لغير تمام ﴿**وترى النَّاسَ سُكَارَى**﴾ أي كأنهم سكارى ﴿**ومَا هُمْ بِسُكَارى**﴾ أي على التحقيق ﴿**ولَكِنَّ عَذَابَ اللّه شَدِيدٌ**﴾ أي ولكن ما رهقهم من خوف عذاب اللّه، هو الذي أذهب عقولهم، وطيّر تمييزهم، وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه. قاله الزمخشريّ.

لطيفة:

قال الناصر في (الانتصاف): العلماءُ يقولون: إن من أدلة المجاز صدق نقيضه، كقولك (زيد حمار) إذا وصفته بالبلادة. ثم يصدق أن تقول (وَما هُو بحمار) فتنفي عنه الحقيقة. فكذلك الآية. بعد أن أثبت السكر المجازيّ نفي الحقيقيّ أبلغ نفي مؤكّد بالباء. والسر في تأكيده التنبيه على أن هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة، ليس من المعهود في شيء، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله. والاستدراك بقوله: ﴿**ولَكِنَّ عذابَ اللّه شَديدٌ**﴾ راجع إلى قوله ﴿**وَمَا هُمْ بِسُكَارَى**﴾ كأنه تعليل لإثبات السكر المجازيّ. كأنه قيل إذا لم يكونوا سكارى من الخمر، وهو السكر المعهود، فما هذا السكر الغريب وما سببه؟ فقال: سببه شدة عذاب اللّه تعالى. انتهى.

ثم أشير لحال المنكرين للساعة، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾

﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادلُ فِي اللّهِ بغَيرِ علْمٍ**﴾ أي يخاصم في شأنه تعالى بغير علم. فيزعم أنه غير قادر على إحياء من قد بلي وصار تراباً، ونحو ذلك من الأباطيل ﴿**ويَتَّبِعُ**﴾ أي في جداله ﴿**كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ**﴾ أي عات متمرد. كرؤساء الكفر الصادّين

عن الحق. ثم أشار لوصف آخر لهذا الشيطان المتبع، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

﴿ **كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ أي قضى على الشيطان أنه يضل من تولاه بأن اتخذه ولياً، وتبعه، ولا يهديه إلى الحق، بل يسوقه إلى عذاب جهنم الموقدة. وسوقُه إياه إليه، بدعائه إلى طاعته ومعصية الرحمن.

تنبيه:

قيل: نزلت الآية في النضر بن الحارث، وكان جدلاً

قال الزمخشريّ: وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز، من الصفات والأفعال. ولا يرجع إلى علم، ولا يعض فيه بضرس قاطع. وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة فهو يخبط خبط عشواء، غير فارق بين الحق والباطل. انتهى.

ثم بين تعالى الحجة القاطعة لما يجادلون فيه، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ** ﴾ أي من إمكانه وكونه مقدوراً له تعالى. أو من وقوعه ﴿ **فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ** ﴾ أي خلقنا أول آبائكم، أو أول موادّكم، وهو المنيّ، من تراب. إذ خلق من أغذية متولدة منه. وغاية أمر البعث أنه خلق من التراب ﴿ **ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ** ﴾ أي تولدت من الأغذية الترابية ﴿ **ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ** ﴾ أي قطعة من الدم جامدة ﴿ **ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ** ﴾ أي قطعة من اللحم بقدر ما يمضغ ﴿ **مُخَلَّقَةٍ**

﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي مصورة وغير مصورة والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولاً قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء. ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي بهذا التدريج، قدرتنا وحكمتنا، وأن ما قَبلَ التغير والفساد والتكوّن مرة، قَبلَها أخرى. وأن من قدر على تغييره وتصويره أولاً، قدر على ذلك ثانياً. ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وهو وقت الوضع.

قال أبو السعود: استئناف مسوق لبيان حالهم، بعد تمام خلقهم. وعدم نظم هذا وما عطف عليه في سلك الخلق المعلل بالتبيين، مع كونهما من متمماته، ومن مبادئ التبيين أيضاً. لما أن دلالة الأول على كمال قدرته تعالى على جميع المقدورات، التي من جملتها البعث المبحوث عنه، أجلى وأظهر. أي ونحن نقر في الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقره فيها إلى أجل مسمى.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي كمال قوتكم وعقلكم. قال أبو السعود علة لـ ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ معطوفة على علة أخرى مناصبة لها. كأنه قيل: ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً. ثم لتبلغوا كمالكم في القوة والتمييز ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ أي بعد بلوغ الأشد أو قبله ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وهوالهرم والخرف. والأرذل الأردأ ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي من بعد علم كثير، شيئاً من الأشياء، أو شيئاً من العلم، مبالغة في انتقاص علمه وانتكاس حاله واللام لام العاقبة.

قال البيضاويّ: والآية - يعني ﴿ثم نخرجكم﴾ الخ - استدلال ثان على إمكان البعث، بما يعتري الإنسان في أسنانه من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة. فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره.

ثم أشار تعالى إلى حجة أخرى على صحة البعث، بقوله ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي ميتة يابسة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ أي المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أي تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ أي انتفخت وعلت، لما يتداخلها من الماء ويعلو من نباتها ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ أي حسن رائق يسر ناظره وهذه الحجة الثالثة، لظهورها وكونها مشاهدة معاينة، يكررها الله تعالى في كتابه الكريم.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي ذلك الذي ذكر من خلق الإنسان على أطوار

مختلفة، وتصريفه في أحوال متباينة، وإحياء الأرض بعد موتها، حاصل بسبب أن الله هو الحق وحده في ذاته وصفاته وأفعاله. المحقق لما سواه من الأشياء، فهي من آثار الوهيته وشؤونه الذاتية وحده؛ وما سواه مما يبعد باطل، لا يقدر على شيء من ذلك ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي يقدر على إحيائها، إذ أحيى النطفة والأرض الميتة ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإن القدرة التي جعل بها هذه الأشياء العجيبة، لا يمتنع عليها شيء ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أيْ لاقتضاء الحكمة إياها. فهي في وضوح دلائلها التكوينية، بحيث ليس فيها مظنة أن يرتاب في إتيانها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي من الأموات، أحياء إلى موقف الحساب.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي يجادل في شأنه تعالى من غير تمسك بعلم ضروريّ، ولا باستدلال ونظر صحيح، يهدي إلى المعرفة. ولا بوحي مظهر للحق. أي بل بمجرد الرأي والهوى، وهذه الآية في حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر المقلدين - بفتح اللام - كما أن ما قبلها في حال الضُّلّال الجهال المقلدين - بكسر اللام - فلا تكرار أو أنهما في الدعاة المضلين واعتبر تغاير أوصافهم فيها، فلا تكرار أيضاً.

قال في (الكشف): والأول أظهر وأوفق بالمقام. وكذا اختاره أبو مسلم فيما نقله عنه الرازيّ، ثم قال: فإن قيل كيف يصح ما قلتم، والمقلد لا يكون مجادلاً؟ قلنا: قد يجادل تصويباً لتقليده وقد يورد الشبهة الظاهرة إذا تمكن منها، وإن كان معتمده الأصليّ هو التقليد.

وقوله ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ حال من فاعل (يجادل) أي عاطفاً لجانبه إعراضاً واستكباراً عن الحق، إذا دعي إليه.

قال الزمخشريّ: ثنى العطف عبارة عن الكبر والخيلاء. كتصعير الخدّ وليّ الجيد.

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ليصد عن دينه وشرعه، متعلق بـ (يجادل)

علة له ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي إهانة ومذلة، كما أصابه يوم بدر من الصغار والفشل ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي النار المحرقة ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ على الالتفات، أو إرادة القول. أي: يقال له يوم القيامة: ذلك الخزي والتعذيب بسبب ما اقترفته من الكفر والضلال والإضلال. وإسناده إلى (يديه)، لما أن الاكتساب عادة يكون بالأيدي. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي بل هو العدل في معاقبة الفجار، وإثابة الصالحين.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ شروع في حال المذبذبين، إثر بيان حال المجاهرين. أي ومنهم من يعبده تعالى على طرف من الدين، لا في وسطه وقلبه. وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة. كالذي ينحرف إلى طرف الجيش. فإن أحسّ بظفر وغنيمة قرّ وإلاّ فرّ ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ أي دنيويّ من صحة وسعة ﴿اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي ثبت على ما كان عليه ظاهراً ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي ما يفتتن به من مكروه ينزل به ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي رجع إلى ما كان عليه من الكفر ﴿خَسِرَ﴾ أي بهذا الانقلاب ﴿الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ أي ضيّعهما بذهاب عصمته، وحبوط عمله، بالارتداد ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي الواضح الذي لا يخفى على ذي بصيرة.

تنبيه:

قال ابن جرير: يعني جل ذكره بقوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الخ أعراباً كانوا يقدمون على رسول الله صلّى الله عليه وسلم، مهاجرين من باديتهم. فإن نالوا رخاء، من عيش بعد الهجرة، والدخول في الإسلام، أقاموا على الإسلام. وإلا ارتدوا على أعقابهم. وبنحو الذي قلنا قال أهل التأويل. ثم أسنده من طرق.

وهذا مما يؤيد أن السورة مدنية كما قاله جمع. وتقدم ذلك. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢)﴾

﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنْفَعُهُ﴾ أي حال ثابتة من فاعل (انقلب)

والأولى (خسر) ولذلك قرئ (خاسر) أي ارتد عن دين اللّه يدعو من دونه آلهة لا تضره، إن لم يعبدها في الدنيا، ولا تنفعه في الآخرة إن عبدها - وقال أبو السعود (يدعو) استئناف مبين لعظيم الخسران ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي عن الحق والهدى. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

﴿يَدْعُو﴾ أي هذا المنقلب على وجهه، إذا أصابته فتنة ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَفْعِهِ﴾ أي وثناً أو صنماً، ضره في الدنيا بالذل والخزي وفي الآخرة بالعذاب، أسرع إليه من نفعه الذي يتوقعه بعبادته، وهو الشفاعة والتوسل به إلى اللّه تعالى. فاللام زائدة في المفعول به، وهو (مَنْ) كما زيدت في قوله تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢]، في وجه. وذكر أن ابن مسعود كان يقرؤه ﴿يَدْعُو مَنْ ضَرُّهُ﴾ بغير لام. وهي مؤيدة للزيادة. و(ضره) مبتدأ، و(أقرب) خبر. وفي الآية وجوه كثيرة هذا أظهرها. وإثبات الضرر له هنا، باعتبار معبوديته. ونفيُه قبلُ، باعتبار نفسه. والآية بمثابة الاستدراك أو الإضراب عما قبلها، بإثبات ضر محقق لاحق لعابده، تسفيهاً وتجهيلاً لاعتقاده فيه أنه يستنفع به حين يستشفع به وإيراد صيغة التفضيل، مع خلوه عن النفع بالمرة، للمبالغة في تقبيح حاله، والإمعان في ذمه ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ أي الناصر له ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أي المصاحب له.

ولما بين سوء حال الكفرة من المجاهرين والمذبذبين، أعقبه بكمال حسن حال المؤمنين، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي من الأفعال المبنيّة على الحكمة، التي من جملتها إثابة من أطاعه وتعذيب من عصاه.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخرَة فَلْيَمْدُدْ بسبَب إِلَى السَّمَاء﴾ أي بحبل إلى ما يعلوه ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي ليختنق ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغيظُ﴾ أي غيظه. والمعنى من استبطأ نصر الله وطلبه عاجلاً، فليقتل نفسه. لأن له وقتاً لا يقع إلا فيه. فالآية في قوم من المسلمين استبطؤوا نصر الله، لاستعجالهم وشدة غيظهم، وحنقهم على المشركين. وجوز أن تكون في قوم من المشركين، والضمير في (ينصره) للنبيّ صلّى الله عليه وسلم. والمعنى: من كان منهم يظن أن لن ينصر الله نبيه، فليختنق وليهلك نفسه، ثم لينظر في نفسه، هل يذهبن احتياله هذا في المضارّة والمضادّة، ما يغيظه من النصرة؟ كلا. فإن الله ناصر رسوله لا محالة. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الحياة الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

﴿وكَذَلكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ءايَات بَيِّنَات وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدي مَنْ يُريدُ إنَّ الَّذينَ ءامَنُوا وَالَّذين هَادُوا وَالصَّابئين وَالنَّصارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذين أَشْرَكُوا إنَّ اللَّهَ يَفْصلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقيَامَة إنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهيدٌ﴾ يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة، أنه يقضي بينهم في الآخرة بالعدل. فيدخل من آمن منهم به وعمل صالحاً، الجنة. ومن كفر به، النار. فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم وما تكنه ضمائرهم. وتقدم في سورة البقرة التعريف بـ (الصابئين) والمراد بـ (الذين) أشركوا كفار العرب خاصة. لأن المشركين في إطلاق التنزيل، بمثابة العلَم لهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ بيان لعظمته تعالى وانفراده بألوهيته وربوبيته. بانقياد هذه العوالم العظمى له، وجريها على وفق أمره وتدبيره. فالسجود فيها مستعار من معناه المتعارف، لمطاوعة الأشياء له تعالى، فيما يحدث فيها من أفعاله، ويجريها عليه من تدبيره وتسخيره لها. ووجه الشبه الحصول على وفق الإرادة من غير امتناع منها فيهما. وقوله **﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾** إما معطوف على ما قبله، إن جوز استعمال اللفظ المشترك في مفهوميه جميعاً، فيكون السجود في الجمادات الإنقياد، وفي العقلاء العبادة. أو مبتدأ خبره محذوف. أو فاعل لمضمر، إن لم يجوز ذلك. وقوله تعالى:

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي من الناس. أي بكفره واستعصائه **﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ﴾** أي بأن كتب عليه الشقاوة حسبما علمه من صرف اختياره إلى الشر **﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾** أي يكرمه بالسعادة **﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾**.

القول في تأويل قوله تعالى:

هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ يعني فريق المؤمنين وفريق الكافرين المنقسم إلى الفرق الخمس المبينة في الآية قبل. و (الخصم) في الأصل مصدر. ولذا يوحّد وينكر غالباً. ويستوي فيه الواحد المذكر وغيره ومعنى (اختصموا في ربهم) أي في دينه وعبادته. والاختصام يشمل ما وقع أحياناً من التحاور الحقيقيّ بين أهل الأديان المذكورة، والمعنويّ. فإن اعتقاد كل من الفريقين بحقيّة ما هو عليه، وبطلان ما عليه صاحبه، وبناء أقواله وأفعاله عليه، خصومة للفريق الآخر. وإن لم يجز بينهما التحاور والخصام. ثم أشار إلى فصل خصومتهم المذكور في قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** بقوله سبحانه:

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ﴾ أي قدرت ﴿لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ أي الماء الحارّ.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿يُصْهَرُ﴾ أي يذاب ﴿بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ أي من الأمعاء والأحشاء ﴿وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعُ﴾ أي سياط يضربون بها ﴿مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾ [يونس:١٠] و[إبراهيم:٢٣]، وقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر:٧٤]، ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أي المحمود، وهو الجنة. أو الحق تعالى، المستحق لغاية الحمد.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي مكة ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ﴾ أي المقيم ﴿فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أي الطارئ ﴿وَمَنْ يُرِدْ بِإِلْحَادٍ﴾ أي بميل عن القصد ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي بغير حق ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي جزاء على هتكه حرمته. ويشمل الإلحاد الإشراك ومنع الناس من عمارته، واقتراف الآثام. وتدل الآية على أن الواجب على من كان فيه، أن يضبط نفسه، ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهمّ به ويقصده. وقد ذهب بعض السلف إلى أن السيئة في الحرم أعظم منها في غيره، وأنها تضاعف فيه. وأن همّ بها فيه أخذ بها. ومفعول

(يرد) إما محذوف، أي يرد شيئاً أو مراداً ما، والباء للملابسة. أو هي زائدة و(إلحاداً) مفعوله. أو للتعدية لتضمينه معنى (يتلبس). و (بظلم) حال مرادفة. أو بدل مما قبله ، بإعادة الجار. أو صلة له. أي ملحداً بسبب الظلم. وعلى كلّ، فهو مؤكد لما قبله. ومن قوله ﴿نُذِقْهُ﴾ الخ يؤخذ خبر (إنَّ) ويكون مقدراً بعد قوله ﴿وَالْبَادِ﴾ مدلولاً عليه بآخر الآية، كما ارتضى ذلك أبو حيان في (البحر). ثم أشار تعالى إلى تقريع وتوبيخ من عبد غيره وأشرك به في البقعة المباركة، التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾

﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ**﴾ أي واذكر إذ عيّناه وجعلناه له مباءة، أي منزلاً ومرجعاً لعبادته تعالى وحده فـ (أنْ) في قوله تعالى ﴿**أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً**﴾ مفسرة لـ﴿**بَوَّأْنَا**﴾ من حيث إنه متضمن لمعنى (تعبدنا) لأن التبوئة للعبادة. أي فعلنا ذلك لئلا تشرك بي شيئاً ﴿**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ**﴾ أي من الأصنام والأوثان والأقذار ﴿**لِلطَّائِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾ أي لمن يطوف به ويقيم ويصلّي. أو المراد بالقائمين وما بعده (المصلين)، ويكون عبّر عن الصلاة بأركانها، للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك، فكيف وقد اجتمعت؟.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾

﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ**﴾ أي نادِ فيهم به، قال الزمخشريّ: والنداء بالحج أن يقول: حجّوا، أو عليكم الحج ﴿**يَأْتُوكَ رِجَالاً**﴾ أي مشاة، جمع (راجل) ﴿**وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ**﴾ أي ركباناً على كل بعير مهزول، اتعبه بُعد الشقة فهزله. والعدول عن (ركباناً) الأخصر، للدلالة على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة، وقوله تعالى: ﴿**يَأْتِينَ**﴾ صفة لكل ضامر، لأنه في معنى الجمع. وقرئ (يأتون) صفة للرجال

والركبان. أو استئناف، فيكون الضمير للناس ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي طريق واسع بعيد ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أي ليحصروا منافع لهم دينية ودنيوية ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي على ما ملكهم منها، وذلّلها لهم، ليجعلوها هدياً وضحايا. قال الزمخشريّ: كنى عن البحر والذبح، بذكر اسم الله. لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمة إذا نحروا أو ذبحوا. وفيه تنبيه على أن الغرض الأصليّ فيما يتقرب به إلى الله أن يذكر اسمه - زاد الرازيّ - وأن يخالَف المشركون في ذلك. فإنهم كانوا يذبحونها للنصُب والأوثان، قال القفال: وكأن المتقرب بها وبإراقة دمائها متصوّر بصورة من يفدي نفسه بما يعادلها. فكأنه يبذل تلك الشاة بدل مهجته، طلباً لمرضاة الله تعالى، واعترافاً بأن تقصيره كاد يستحق مهجته. والأيام المعلومات أيام العشر. أو يوم النحر وثلاثة أيام أويومان بعده. أو يوم عرفة والنحر ويوم بعده. أقوال للأئمة.

قال ابن كثير: ويعضد الثاني والثالث قوله تعالى ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعني به ذكر الله عند ذبحها. انتهى.

أقول - لا يبعد أن تكون (على) تعليلية، والمعنى: ليذكروا اسم الله وحده في تلك الأيام بحمده وشكره وتسبيحه، لأجل ما رزقهم من تلك البهم. فإنه هو الرزاق لها وحده والمتفضل عليهم بها: ولو شاء لحظرها عليهم ولجعلها أوابد متوحشة. وقد امتن عليهم بها في غير موضع من تنزيله الكريم. كقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٢]

والسر في إفراده هذه النعمة، والتذكير بها دون غيرها من نعمه وأياديه، أن بها حياة العرب وقوام معاشهم. إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخباؤهم وركوبهم وجَمالهم. فلولا تفضله تعالى عليهم بتذليلها لهم، لما قامت لهم قائمة. لأن أرضهم ليست بذات زرع، وما هم بأهل صناعة مشهورة، ولا جزيرتهم متحضرة متمدنة. ومن كانوا كذلك، فيجدر بهم أن يذكروا المتفضل عليهم بما يبقيهم، ويشكروه ويعرفوا له حقه. من عبادته وحده وتعظيم حرماته وشعائره. فالاعتبار بها من ذلك، موجب للاستكانة لرازقها، والخضوع له والخشية منه. نظير الآية - على ما ظهر لنا - قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤]، هذا أولاً. وثانياً قد يقال: إنما أفردت لتتبع بما هو البر

الأعظم والخير الأجزل. وهو مواساة البؤساء منها. فإن ذلك من أجلّ ما يرضيه تعالى، ويثيب عليه. والله أعلم.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي من لحومها. والأمر للندب. وإزاحة ما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه. وقد ثبت[1] أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم لما نحر هديه، أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها.

وعن إبراهيم قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم. فرخص للمسلمين. فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل.

قال في (الإكليل): والأمر للاستحباب حيث لم يكن الدم واجباً بإطعام الفقراء. وأباح مالك الأكل من الهدى الواجب، إلا جزاء الصيد والأذى والنذر، وأباحه أحمد، إلا من جزاء الصيد والنذر. وأباح الحسن الأكل من الجميع تمسكاً بعموم الآية. وذهب قوم إلى أن الأكل من الأضحية واجب، لظاهر الأمر. وقومٌ إلى أن التصدق منها ندب، وحملوا الأمر عليه. ولا تحديد فيما يؤكل أو يتصدق به، لإطلاق الآية. انتهى.

﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ﴾ أي الذي أصابه بؤس أي شدة ﴿الْفَقِيرَ﴾ أي الذي أضعفه الإعسار، والأمر هنا للوجوب. وقد قيل به في الأول أيضاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)

﴿ثُمَّ﴾ أي بعد الذبح ﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي ليؤدوا إزالة وسخهم من الإحرام، بالحق والتقصير وقصّ الأظفار ولبس الثياب ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أي ما ينذرونه من أعمال البر في حجهم ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي طواف الإفاضة. وهو طواف

---

(١) أخرجه مسلم في: الحج، حديث ١٤٧، عن جابر بن عبد الله.

الزيارة الذي هو من أركان الحج. ويقع به تمام التحلل. و (العتيق) القديم. لأنه أول بيت وضع للناس. أو المعتق من تسلط الجبابرة ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر محذوف. أي الأمر ذلك. وهو وأمثاله من أسماء الإشارة، تطلق للفصل بين الكلامين، أو بين وجهي كلام واحد.

قال الشهاب: والمشهور في الفصل (هَذَا) كقوله: ﴿هَٰذَا، وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥]، واختيار (ذلك) هنا لدلالته على تعظيم الأمر وبعد منزلته. وهو من الاقتضاب القريب من التخلص، لملائمة ما بعده لما قبله، كما هنا ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ أي أحكامه. أو الحرم وما يتعلق بالحج من المناسك. و (الحرمات) جمع حرمة وهو ما لا يحل هتكه، بل يحترم شرعاً ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي ثواباً. و(خير) اسم تفضيل حذف متعلقة. أي من غيره، أو ليس المراد به التفضيل فلا يحتاج لتقديره، قاله الشهاب. والثاني هو الأظهر، لأنه أسلوب التنزيل في مواضع لا يظهر التفاضل فيها. وإيثاره، مع ذلك، لرقة لفظه، وجمعه بين الحسن والروعة ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي آية تحريمه. وذلك قوله في سورة المائدة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ [المائدة: ٣]، والمعنى: أن اللّه قد أحل لكم الأنعام كلها، إلا ما استثناه في كتابه. فحافظوا على حدوده. وإياكم أن تحرموا مما أحل لكم شيئاً. كتحريم عبدة الأوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك. وأن تحلوا مما حرم اللّه. كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك. أفاده الزمخشري. ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ تفريع على ما سبق من تعظيم حرماته تعالى. فإن ترك الشرك واجتناب الأوثان من أعظم المحافظة على حدوده تعالى. و(من) بيانية. أي فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، كما تجتنب الأنجاس. وهو غاية المبالغة في النهي عن تعظيمها والتنفير عن عبادتها. قال الزمخشريّ: سمى الأوثان رجساً وكذلك الخمر والميسر والأزلام، على طريق التشبيه. يعني أنكم، كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة. ونبه على هذا المعنى بقوله ﴿رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، جعل العلة في اجتنابه أنه رجس، والرجس مجتنب. وقوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ تعميم بعد تخصيص. فإن عبادة الأوثان رأس الزور. كأنه لما حث على تعظيم الحرمات، أتبعه ذلك، ردّاً لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب. وتعظيم الأوثان والافتراء على اللّه تعالى بأنه حكم بذلك، وإعلاماً بأن توحيد اللّه ونفي الشركاء عنه، وصدق القول، أعظم الحرمات وأسبقها خطواً ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له الدين،

منحرفين عن الباطل إلى الحق ﴿**غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ**﴾ أي شيئاً من الأشياء. ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى، فقال تعالى ﴿**وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ**﴾ أي سقط منها فقطعته الطيور في الهواء ﴿**أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ**﴾ أي تقدمه ﴿**فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ أي بعيد مهلك لمن هوى فيه. و(أو) للتخيير أو التنويع. قال الزمخشريّ: يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق. فإن كان تشبيهاً مركباً، فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية. بأن صور حاله بصورة حالِ مَنْ خَرَّ من السماء فاختطفته الطير، فتفرق مزعاً في حواصلها. أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة. وإن كان مفرقاً، فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله، بالساقط من السماء. والأهواء التي تتوزع أفكاره، بالطير المختطفة. والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة، بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة. فكتب الناصر عليه: أما على تقدير أن يكون مفرّقاً فيحتاج تأيل تشبيه المشرك بالهاوي من السماء، إلى التنبيه على أحد أمرين: إما أن يكون الإشراك المراد ردَّته، فإنه حينئذ كمن علا إلى السماء بإيمانه ثم هبط بارتداده وإما أن يكون الإشراك أصلياً، فيكون قد عدّ تمكن المشرك من الإيمان ومن العلوّ به ثم عدوله عنه اختياراً، بمنزلة من علا إلى السماء ثم هبط كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فعدهم مخرجين من النور وما دخلوه قط، ولكن كانوا متمكنين منه. وفي تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر، بالطير المختطفة، وفي تشبيه تطويح الشيطان بالهوي مع الريح في مكان سحيق – نظر. لأن الأمرين ذكرا في سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين. فإذا جعل الأول مثلاً لاختلاف الأهواء والأفكار، والثاني مثلاً لنزغ الشيطان، فقد جعلهما شيئاً واحداً. لأن توزع الأفكار واختلاف الأهواء، مضاف إلى نزغ الشيطان، فلا يتحقق التقسيم المقصود. والذي يظهر في تقرير التشبيهين غير ذلك. فنقول: لما انقسمت حال الكفر إلى قسمين لا مزيد عليهما، الأول منهما المتذبذب والمتمادي على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة. فهذا القسم من المشركين مشبه بمن اختطفته الطير وتوزعته، فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر، وذلك حال المذبذب. لا يلوح له خيال إلا اتَّبعه ونزل عما كان عليه. والثاني مشرك مصمم على معتقد باطل. لو نشر بالمنشار لم يكع ولم يرجع. لا سبيل إلى تشكيكه، ولا مطمع في نقله عما هو عليه، فهو فرح مبتهج بضلالته.

فهذا مشبه في إقراره على كفره، باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل فاستقرّ فيه. ويظهر تشبيهه بالاستقرار في الوادي السحيق، الذي هو أبعد الأحياء عن السماء، وصف ضلاله بالبعد في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣]، و﴿ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ١٦٧]، أي صمموا على ضلالهم فبَعُد رجوعهم إلى الحق فهذا تحقيق القسمين والله أعلم. انتهى كلامه.

ولا يخفى أن في النظم الكريم مساغاً له. إلا أنه لا قاطع به. نعم، هو من بديع الاستنباط، ورقيق الاستخراج. فرحم الله ناسجه.

قال ابن كثير: وقد ضرب تعالى للمشركين مثلاً آخر في سورة الأنعام. وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٧١] الآية.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾

﴿**ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ**﴾ أي علائم هدايته، وهو الدين. أو معالم الحج ومناسكه. أو الهدايا خاصة، لأنها من معالم الحج وشعائره تعالى. كما تنبئ عنه آية ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٦]، وهو الأوفق لما بعده. وتعظيمُها أن يختارها عظام الأجرام حساناً سماناً، غالية الأثمان. ويترك المكاس في شرائها. فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون المكاس فيهن: الهدي والأضحية والرقبة.

وعن سهل[١]: كنا نسمن الأضحية في المدينة وكان المسلمون يسمنون. رواه البخاريّ.

وعن أنس[٢]: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين. رواه البخاريّ

(١) أخرجه البخاري في: الأضاحي، ٧- باب في أضحية النبي ﷺ، بكبشين أقرنين.
(٢) أخرجه البخاري في: الأضاحي، ٧- باب في أضحية النبي ﷺ، بكبشين أقرنين. حديث رقم ٢٢١١. وأخرجه مسلم في: الأضاحي، حديث رقم ١٧.

وعن البراء[١] مرفوعاً. أربع لا تجوز في الأضاحي، العوراء البيّن عورها، والمريضة البيّن مرضها، والعرجاء البيّن ظلعها، والكسيرة التي لا تُنْقِي: رواه أحمد وأهل السنن. ﴿ فَإِنَّهَا ﴾ أي فإن تعظيمها ﴿ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ أي من أفعال ذوي التقوى. والإضافة إلى القلوب، لأن التقوى وضدها تنشأ منها.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ (٣٣)

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ أي لكم في الهدايا منافع دَرِّها ونسلها وصوفها وظهرها إلى وقت نحرها. وقد روي في الصحيحين[٢] عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال: اركبها. قال: إنها بدنة قال: أركبها، ويحك. في الثانية أو الثالثة. وقوله: ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا ﴾ أي محل الهدايا وانتهاؤها إلى البيت العتيق وهو الكعبة كما قال تعالى: ﴿ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال: ﴿ والْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ [الفتح: ٢٥].

قال في (الإكليل): فيه أن الهدي لا يذبح إلا بالحرم. وقيل: المعنى: محل هذه الشعائر كلها الطواف بالبيت العتيق. فيقتضي أن الحاج بعد طواف الإفاضة. يحل له كل شيء. وكذا روي عن ابن عباس: ما طاف أحد بالبيت إلا حل، لهذه الآية. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ (٣٤)

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَارَزَقَهُمْ مِن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾.

أي شرعنا لكل أمة أن ينسكوا. أي يذبحوا لوجهه تعالى، على وجه التقرب. وجعل العلة، أن يذكر اسمه. تقدست أسماؤه. على النسائك. فـ (منسكاً) مصدر

---

(١) أخرجه النسائي في: الضحايا ٥- باب ما هي عنه من الأضاحي.

(٢) أخرجه البخاري في: الحج، ١٠٣- باب ركوب البدن، حديث رقم ٨٧٨.

وأخرجه مسلم في: الحج، حديث رقم ٣٧٣.

ميميّ على أصله. أو بمعنى المفعول. وفي الآية تنبيه على أن القربان يجب أن يكون نعماً.

﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي أخلصوا له الذكر خاصة، لا تشوبوه بإشراك. ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت لتأثرهم عند ذكره مزيد تأثر ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في ذبحها تضحية ﴿خَيْرٌ﴾ من المنافع الدينية والدنيوية ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن. وعن ابن عباس: قياماً على ثلاث قوائم، معقولة يدها اليسرى. يقول: بسم الله، والله أكبر، لا إله إلا الله: اللهم منك ولك. وفي الصحيحين[1] عن ابن عمر؛ أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها. فقال: ابعثها قياماً مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ: وفي صحيح مسلم[2] عن جابر في صفة حجة الوداع، قال فيه: فنحر رسول ﷺ بيده ثلاثاً وستين بدنة. جعل يطعنها بحربة في يده ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سقطت على الأرض، وهو كناية عن الموت ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾ أي السائل ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي المتعرض بغير سؤال. أو القانع الراضي بما عنده وبما يعطي من غير سؤال، والمعتر المتعرض بسؤال وقد استنبط من الآية أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء: فيأكل ثلثاً ويهدي ثلثاً ويتصدق بثلث.

---

(١) أخرجه البخاري في: الحج، ١١٨ – باب نحر الإبل مقيدة، حديث ٨٨٥.
وأخرجه مسلم في: الحج، حديث ٣٥٨.

(٢) أخرجه مسلم في: الحج، حديث رقم ١٤٧.

﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ذللناها لكم، لتشكروا إنعامنا، والشكر صرف العبد ما أنعم عليه، إلى ما خلق لأجله.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ أي لن يصيب رضاءه لحومها المتصدق بها، ولا دماؤها المهراقة، من حيث أنها لحوم ودماء. ولكن بمراعاة النية والإخلاص، ابتغاء وجهه الأعلى، ويقرب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٧]، إلى آخرها ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَنَاهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي لتعرفوا عظمته فتوحدوه بالعبادة على ما أرشدكم إلى طريق تسخيرها، وكيفية التقرب بها على لسان أكرم رسله المبعوث بسعادة الدارين. وإنما كرره تذكيراً للنعمة وتعليلاً بما بعده. وفي التعليل المذكور شاهد لما قدمناه أولاً في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج:٢٨]، فتذكر. وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي المخلصين في أعمالهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كلام مستأنف، مسوق لتوطين قلوب المؤمنين، ببيان أن اللّه تعالى ناصرهم على أعدائهم، بحيث لا يقدرون على صدهم عن الحج، ليتفرغوا إلى أداء مناسكه. كذا قاله أبو السعود. وسبقه الرازي إليه. والأوْلى أن يقال: إنه طليعة لما بعده من الإذن بالقتال، مبشرة بغاية النصرة والحفظ والكلاءة والعاقبة للمؤمنين. تشجيعاً لهم على قتال من ظلمهم، وتشويقاً إلى استخلاص بيته الحرام، ليتسنى لهم إقامة شعائره وأداء مناسكه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ أي في أمانة اللّه ﴿كَفُورٍ﴾ أي لنعمته بعبادته غيره، فلا يرتضي فعلهم ولا ينصرهم. وصيغة المبالغة فيهما، لأنه في حق المشركين، وهم كذلك ولأن خيانة أمانة اللّه وكفران نعمته لا يكون حقيراً، بل هو أمر عظيم.

القول في تأويل قوله تعالى:

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

﴿**أذِنَ للَّذينَ يُقاتَلونَ**﴾ أي يقاتلهم المشركون. والمأذون فيه محذوف، لدلالة المذكور عليه. وقرئ بكسر التاء. ﴿**بأنَّهُمْ ظُلِمُوا وإنَّ اللّهَ على نصرِهِمْ لَقَديرٌ الَّذينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إلاَّ أنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللّهُ**﴾ أي بغير حق سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتمكين، لا موجب الإخراج والتسيير. ومثله ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلاَّ أَنْ ءامَنَّا باللّهِ﴾ [المائدة: ٥٩]، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم.

﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللّهِ كَثِيراً**﴾ أي لولا كفه تعالى المشركين بالمسلمين، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين، لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم، وعلى متعبداتهم فهدموها.

قال ابن جرير: ومنه كفه تعالى ببعضهم التظالم. كالسلطان الذي كف به رعيته عن التظالم بينهم ومنه كفه تعالى لمن أجاز شهادته بينهم ببعضهم عن الذهاب بحق من له قبله حق. ونحو ذلك. وكل ذلك دفع منه الناس بعضهم عن بعض. لولا ذلك لتظالموا. فهدم القاهرون صوامع المقهورين وبيعهم، وما سمى جل ثناؤه. و(الصوامع) مباني الرهبانية لخلوتهم. (والبيع) معابد النصارى. و(الصلوات) روي عن ابن عباس أنه عنى بها كنائس اليهود. سميت بها لأنها محلها. وقيل هي بمعناها الحقيقي. و (هدمت) بمعنى عطلت. أو فيه مضاف مقدر ﴿**وَلَيَنْصُرَنَّ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ**﴾ أي ينصر دينه وأولياءه.

قال القاضي: وقد أنجز الله وعده، بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم، وأورثهم أرضهم وديارهم. ﴿**إنَّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ أي مرجعها إلى حكمه وتقديره. وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم. ثم أشار تعالى إلى تسلية نبيّه ﷺ، عما يناله من أذى المشركين، وحاضاً له على الصبر على ما يلحقه منهم من التكذيب، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

﴿**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ**﴾ وهم قوم هود ﴿**وَثَمُودُ**﴾ وهم قوم صالح ﴿**وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ**﴾ وهم قوم شعيب ﴿**وَكُذِّبَ مُوسَى**﴾ وإنما لم يقل (وقوم موسى) كسابقه، لأن موسى ما كذبه قومه بنوا إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط. وفيه شيء آخر كأنه قيل، بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم ﴿**وَكُذِّبَ مُوسَى**﴾ مع وضوح آياته وعظم معجزاته، فما ظنك بغيره؟ أفاده الزمخشري.

قال الناصر: ويحتمل عندي، والله أعلم، أنه لما صدّر الكلام بحكاية تكذيبهم، ثم عدّد أصناف المكذبين وطوائفهم، ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام، حسن تكريره لِيَلي قوله ﴿**فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ**﴾ فيتصل المسبب بالسبب، كما قال في آية (ق) بعد تعديدهم ﴿**كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ**﴾ [ق: ١٤]، فربط العقاب والوعيد، ووصلهما بالتكذيب، بعد أن جدد ذكره، والله أعلم.

وإيراد من زعم بأن موسى كذبه قومه بعبادة العجل، إيراد من لم يفهم معنى التكذيب الذي هو ردّ دعوة النبيّ وعدم الإيمان به والإصرار على الكفر بوحيه، والقيام في وجهه وصد الناس عن اتباعه. وما وقع من قوم موسى هو تخليط، وخطأ اجتهاد، وتعنت ولجاج مع الاستظلال بظل دعوته، والانتظام في سلك إجابته. وقوله

تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي أمهلتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي بالعقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري عليهم بالإهلاك.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾

﴿فَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ﴾ أي فكم من أهالي قرية ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي بالعذاب ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي مشركة كافرة ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي ساقطة ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي سقوفها ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ أي وكم من بئر متروكة لا يستقى منها، لهلاك أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أي مرفوع. من (شاد البناء) رفعه. أو معناه مطليٌّ ومعمول بالشيد، بالكسر، وهو الجص، أي مجصص، أخليناه عن ساكنيه، ومن شواهد الأول قول عديّ بن زيد:

شَادَهُ مَرْمَراً وَجَلَّلَهُ كِلْـ ـساً، فللطير في ذُرَاهُ وُكُورُ

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أي أهل مكة في تجارتهم ﴿فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ﴾ أي بما يشاهدونه من مواد الاعتبار ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أي ما يجب أن يعقل من التوحيد ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي ما يجب أن يسمع من الوحي والتخويف ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الضمير في (فإنها) للقصة. أو مبهم يفسره (الأبصار). والمعنى: ليس الخلل في مشاعرهم، وإنما هو في عقولهم باتباع الهوى والانهماك في الغفلة. وفائدة ذكر (الصدور) هو التأكيد مثل ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، و ﴿طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، إلا أنه لتقرير معنى الحقيقة، وهنا لتقرير معنى المجاز.

وقال الزمخشري: الفائدة زيادة التصوير والتعريف وعبارته: الذي قد تعورف واعتقد؛ أن العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها. واستعماله في القلب استعارة ومثل. فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة، ونفيه عن الأبصار، احتاج هذا التصوير إلى زيادة

تعيين وفضل تعريف، ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار. كما تقول (ليس المضاء للسيف، ولكنه للسانك الذي بين فكيك)، فقولك (الذي بين فكيك) تقرير لما ادعيته للسانه، وتثبيت. لأن محل المضاء هو هو لاغير. وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف. وأثبته للسانك، فلتة ولا سهواً مني، ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ**﴾ أي المبيّن في آية ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿**وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ**﴾ أي فيصيبهم ما أوعدهم به، ولو بعد حين ﴿**وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾ أي هو تعالى حليم لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه، كيوم واحد عنده، بالنسبة إلى حلمه. لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء. وإن أنظر وأملى. ولهذا قال بعده:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا**﴾ أي أمهلتها ﴿**وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾ إلى حكمي مرجع الكل فأجزيهم بأعمالهم. فتأثرُ هذه الآية ما قبلها صريح في بيان خطئهم في الاستعجال المذكور، ببيان كمال سعة حلمه تعالى، وإظهار غاية ضيق عطنهم، المستتبع لكون المدة القصيرة عنده تعالى، مُدداً طوالاً عندهم، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ [المعارج: ٦-٧]، ولذلك يرون مجيئه بعيداً، ويتخذونه ذريعة إلى إنكاره، ويجترؤون على الاستعجال به، ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها، وقوعاً وإخباراً، ما عنده تعالى من المقدار. أفاده ابن كثير وأبو السعود.

وفي (العناية): لما ذكر استعجالهم، وبيّن أنه لا يتخلف ما استعجلوه، وإنما أخر حلماً، لأن اليوم ألف سنة عنده. فما استطالوه ليس بطويل بالنسبة إليه، بل هو أقصر من يوم. فلا يقال: إن المناسب حينئذ أن ألف سنة كيوم، والقلب لا وجه له.

وقال الرازي: لما حكى تعالى من عظم ما هم عليه من التكذيب، أنهم يستهزؤون باستعجال العذاب، بيّن أن العاقل لا ينبغي أن يستعجل عذاب الآخرة فقال: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يعني فيما ينالهم من العذاب وشدته ﴿ كألف سنة ﴾ لو عُدّ في كثرة الآلام وشدتها. فبيّن سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة، وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه.

قال الرازي: وهذا قول أبي مسلم، وهو أولى الوجوه. انتهى.

وقد حكاه الزمخشريّ بقوله :وقيل معناه: كيف يستعجلون بعذابِ مَنْ يومٌ واحد من أيام عذابه، في طول ألف سنة من سنيكم. لأن أيام الشدائد مستطالة، أي تعدّ طويلة كما قيل:

تمتعْ بأيام السرورِ فإنَّها قِصارٌ. وأيامُ الهُمُومِ طِوَالُ

أو كان ذلك اليوم الواحد، لشدة عذابه، كألف سنة من سني العذاب. انتهى.

واعتمد الوجه الأول أبو السعود. وناقش فيما بعده؛ بأنه لا يساعده سياق النظم الجليل ولا سياقه. فإن كلاً منهما ناطق بأن المراد هو العذاب الدنيوي. وأن الزمان الممتد هو الذي مرّ عليهم قبل حلوله بطريق الإملاء والإمهال. لا الزمان المقارن له. ألا يرى إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ الخ، فإنه صريح في أن المراد هو الأخذ العاجل الشديد، بعد الإملاء المديد. انتهى. وفيه قوة. فالله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ وهي الجنة ﴿ **وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ أي والذين سعوا في ردّ آياتنا، وصدّ الناس عنها مشاقّين. فالمعاجزة مستعارة للمشاقة مع المؤمنين ومعارضتهم. فكلما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله. كما يقال (جاراه في كذا). قال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ [العنكبوت: ٤]، وقرئ (معجّزين) بتشديد الجيم. بمعنى أنهم عجّزوا الناس

وثبطوهم عن اتباع رسول الله ﷺ، والإيمان بالقرآن. وكلتا القراءتين متقاربة المعنى. وذلك أن من عجّز عن آيات الله، فقد عاجز الله. ومن معاجزة الله التعجيز عن آيات الله، والعمل بمعاصيه، وخلاف أمره. وكان من صفة القوم الذين نزلت فيهم الآيات أنهم كانوا يبطّئون الناس عن الإيمان بالله واتباع رسوله. ويغالبون رسول الله ﷺ، يحسبون أنهم يعجزونه ويغلبونه. وقد ضمن الله له نصره عليهم. فكان ذلك معاجزتهم الله. كذا في الشهاب وابن جرير. ثم أشار تعالى إلى تسلية رسوله صلوات الله عليه، عما كان يلاقيه من صدّ شياطين قومه عن سبيل الله، بأن تلك سنة كل رسول وأن العاقبة له، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى** ﴾ أي رغب في انتشار دعوته، وسرعة علوّ شرعته ﴿ **أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ** ﴾ أي بما يصدّ عنها، ويصرف المدعوّين عن إجابتها ﴿ **فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ** ﴾ أي يبطله ويمحقه ﴿ **ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ** ﴾ أي يثبتها ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧]، ﴿ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ** ﴾ يعلم الإلقاءات الشيطانية، وطريق نسخها من وجه وحيه. ﴿ **حَكِيمٌ** ﴾ يحكم آياته بحكمته. ثم أشار إلى أن من مقتضيات حكمته أنه يجعل الإلقاء الشيطانيّ فتنة للشاكّين المنافقين والقاسية قلوبهم عن قبول الحق، ابتلاء لهم ليزدادوا إثماً. ورحمة للمؤمنين ليزدادوا ثباتاً واستقامة، فقال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

﴿ **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** ﴾ أي شك وارتياب ﴿ **وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ** ﴾ وهم العتاة المتمردون ﴿ **وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ** ﴾ أي خلاف للحق ﴿ **بَعِيدٍ** ﴾ عن موافقته جداً، بسبب ظلمهم وشركهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّه الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِه فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي بالانقياد، والخشية. والضمير للقرآن أو للّه تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي إلى طريق الحق والاستقامة، فلا تزلّ أقدامهم بقبول ما يلقي الشيطان، ولا تقبل قلوبهم إلا ما يلقي الرحمن، لصفائها. هذا هو الصواب في تفسير الآية. ولها نظائر تظهر المراد منها كما أشرنا إليه، لو احتاجت إلى نظير. ولكنها بيّنة بنفسها، غنية عن التطويل في التأويل، لولا ما أحوج المحققين إلى ردّ ما دسه بعض الرواة هنا من الأباطيل. ونحن نسوق ما قيل فيها من ذلك، ثم نتبعه بنقد المحققين، لئلا يبقى في نفس الواقف حاجة.

قال ابن جرير الطبري: قيل: إن السبب الذي من أجله أنزلت هذه الآية على رسول اللّه ﷺ، أن الشيطان كان ألقى على لسانه، في بعض ما يتلوه مما أنزل اللّه عليه من القرآن، ما لم ينزل اللّه عليه. فاشتد ذلك على رسول اللّه ﷺ واغتم به، فسلاّه اللّه مما به من ذلك، بهذه الآيات. ثم ذكر من قال ذلك. فأسند عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس وغيرهما؛ أن رسول اللّه ﷺ جلس في ناد من أندية قريش، كثير أهله، فتمنى يومئذ ألا يأتيه من اللّه شيء فينفروا عنه. فأنزل اللّه عليه ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ١-٢]، فقرأها رسول اللّه ﷺ حتى إذا بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم: ١٩-٢٠]، ألقى عليه الشيطان كلمتين (تللك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) فتكلم بها، ثم مضى فقرأ السورة كلها. فسجد في آخر السورة وسجد القوم جميعاً معه، ورضوا بما تكلم به.

قالا: فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة. فلما بلغ الكلمتين المذكورتين قال: ما جئتك بهاتين. فحزن رسول اللّه ﷺ. فأنزل اللّه تبارك وتعالى عليه يعزيه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية.

وقال القاضي عياض في (الشفا): اعلم أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: أحدهما في توهين أصله، والثاني على تسليمه.

أما المأخذ الأول، فيكفيك أن هذا لم يخرّجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل. وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم. وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفاسير. وتعلق بذلك

الملحدون مع ضعف بعض نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته. ومن حكيت عنه هذه الحكاية من المفسرين والتابعين، لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب. وأكثر الطرق عنهم فيها، واهية ضعيفة، والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب (الشك في الحديث) أن النبيّ ﷺ كان بمكة، وذكر القصة.

قال أبو بكر البزّار: هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبيّ ﷺ بإسناد متصل، يجوز ذكره إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد. وغيره يرسله عن سعيد ابن جبير. وإنما يعرف عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا. وفيه من الضعف ما نبه عليه، مع وقوع الشك فيما ذكرناه، الذي لايوثق به ولا حقيقة معه. وأما حديث الكلبي فما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره، لقوة ضعفه وكذبه، كما أشار إليه البزار رحمه الله: والذي منه في الصحيح؛ أن النبيّ ﷺ قرأ سورة (النجم) وهو بمكة. فسجد معه المسلمون والمشركون والإنس والجن.

هذا توهينه من طريق النقل.

وأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته عليه السلام، ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة. إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح غير الله وهو كفر، أو أن يتسوّر عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه، حتى ينبهه عليه جبريل عليهما السلام. وذلك كله ممتنع في حقه عليه السلام. أو يقول ذلك النبيّ ﷺ من قبل نفسه عمداً، وذلك كفر. أو سهواً وهو معصوم من هذا كله. ووجه ثان - وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً. وذلك أن الكلام، لو كان كما رُوِيَ، بعيد الالتئام، متناقض الأقسام ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف. ولَمَا كان النبيّ ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين، ممن يخفى عليه ذلك، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل. فكيف بمن رجح حلمه، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه؟ووجه ثالث - أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندي المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين، نفورهم من أول وهلة، وتخليط العدوّ على النبيّ ﷺ لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين والشمّات بهم الفينة بعد الفينة. وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة. ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل.ولو كان

ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة. ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة. كما فعلوه مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردّة. وكذلك ما روي في قصة القضية. ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت. ولا تشغيب للمعادي حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت. فما روي عن معاند فيها كلمة. ولا عن مسلم بسببها بنت شفة. فدل على بظلها، واجتثاث أصلها. ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس والجن، على بعض مغفلي المحدثين، ليلبس به على ضعفاء المسلمين.

ووجه رابع – ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] الآيتين. وهاتان الآيتان تردّان الخبر الذي رووه. لأن اللّه تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري، وأنه لولا أن ثبّته لكاد يركن إليهم. فمضمون هذا ومفهومه، أن اللّه تعالى عصمه من أن يفتري، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً، فكيف كثيراً؟ وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم. وهذا ضد مفهوم الآية، ويضعّف الحديث، لو صح، فكيف ولا صحة له؟ وأما المأخذ الثاني فهو مبنيّ على تسليم الحديث، لو صح. وقد أعاذنا اللّه من صحته. ولكن على كل حال فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغث والسمين. فمنها ما رواه قتادة ومقاتل أن النبيّ ﷺ أصابته سنة عند قراءة هذه السورة. فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم. وهذا لا يصح. إذ لا يجوز على النبيّ ﷺ مثله في حالة من أحواله. ولا يخلقه اللّه على لسانه ولا يستولي الشيطان عليه في نوم ولا يقظة، لعصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو. وقد قال عليه السلام[1] (إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي). وفي حديث الكلبي؛ أن النبيّ ﷺ حدّث نفسه، فقال ذلك الشيطان على لسانه. وفي رواية ابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن قال: ومنها لما أخبر بذلك قال: إنما ذلك من الشيطان. وكل هذا لا يصح أن يقوله عليه السلام لا سهواً ولا قصداً. ولا يتقوّله الشيطان على لسانه. وقيل: لعلّ النبيّ ﷺ قاله أثناء تلاوته، على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار. كقول إبراهيم ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧]، على أحد التأويلات. وكقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ

---

(١) أخرجه البخاري في: التهجد، ١٦- باب قيام النبي ﷺ بالليل في رمضان وغيره، حديث رقم ٦٣١، عن عائشة.

وأخرجه مسلم في: صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ١٢٥.

كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين. ثم رجع إلى تلاوته. وهذا ممكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد، وأنه ليس من المتلوّ. وهو أحد ما ذكره القاضي أبو بكر.

ومما يظهر في تأويله، إن سلمنا القصة، أن يراد بالغرانيق الملائكة. ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح. فلما تأوّله المشركون على أن المراد بها آلهتهم، ولبّس عليهم الشيطان ذلك وزيَّنه في قلوبهم، وألقاه إليهم، نسخ اللّه ماألقى الشيطان وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللفظتين. انتهى كلام القاضي ملخصاً.

وقال أبو بكر الباقلاني: وقيل: كان ﷺ يرتل القرآن، فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات. ونطق بتلك الكلمات، محاكياً نغمته، بحيث سمعه من دنا إليه، فظنها من قوله تعالى وأشاعها.

قال: وهذا أحسن الوجوه. ويؤيده ما روي عن ابن عباس من تفسير (تمنى) بـ (تلا) وكذا استحسن ابن العربي هذا التأويل. وقال قبله: إن هذه الآية نص في براءة النبيّ ﷺ مما نسب إليه، وأن الشيطان زاده في قوله صلوات اللّه عليه، لا أنه عليه السلام قاله.

قال: وقد سبق إلى ذلك الطبري فصوب هذا المعنى وحوّم عليه. واستحسان ابن العربي ذلك، على فرض صحة القصة، وإلا فقد قال: ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها. وقال تقي الدين بن تيمية: في الآية قولان والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك. والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة في سورة النجم بقوله (تِلْكَ الْغَرَانِيق الْعُلَى وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرتَجَى) وقالوا: إن هذا لم يثبت. ومن علم أنه ثبت قال: هذا ألقاه الشيطان في مسامعهم، ولم يلفظ به الرسول ﷺ. ولكن السؤال وارد على هذا التقدير أيضاً.

وقالوا في قوله: ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾: هو حديث النفس وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف، فقالوا: هذا منقول نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه وقالوا: الآثار في تفسير هذه الآية معروفة ثابتة في كتب التفسير والحديث. والقرآن يوافق ذلك. فإن نسخ اللّه لما يلقي الشيطان، وإحكامه آياته، إنما يكون لرفع ما وقع في آياته، وتمييز الحق عن الباطل حتى لا تختلط آياته بغيرها. وجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، إنما يكون ذلك ظاهراً يسمعه الناس، لا باطناً في النفس. والفتنة التي تحصل بهذا النوع من النسخ، من جنس

الفتنة التي تحصل بالنوع الآخر من النسخ. وهذا النوع أدلّ على صدق الرسول ﷺ، وبعده عن الهوى، من ذلك النوع. فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند اللّه، وهو مصدق في ذلك، فإذا قال عن نفسه أن الثاني هو الذي من عند اللّه وهو الناسخ، وإن ذلك المرفوع الذي نسخه اللّه ليس كذلك، كان أدل على اعتماده للصدق وقول الحق. وهذا كما قالت عائشة[1] رضي اللّه عنها: لو كان محمد كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ الا ترى أن الذي يعظم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله ولو كان خطأ. فبيان الرسول ﷺ أن اللّه أحكم آياته ونسخ ما ألقاه الشيطان، هو أدل على تحريه للصدق وبراءته من الكذب. وهذا هو المقصود بالرسالة. فإنه الصادق المصدوق ﷺ تسليماً. انتهى.

وفي كلامه رحمه اللّه نظر من وجوه:

أولاً - دعواه أن المأثور يوافق القرآن. فإنه ذهاب إلى أن الإلقاء إلقاء في الآيات. ولا تدل الآية عليه، لا مطابقة ولا التزاماً. بل القول بذلك ينافي التنزيل والوحي منافاة النار للماء، كما ستراه.

وثانياً - دعواه أن تلك الرواية نقلها ثابت لا يمكن القدح فيه. فقد قدح فيها من لا يحصى من المتقدمين والمتأخرين. ويكفي أن تلميذه الحافظ ابن كثير قال: قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق. وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظناً منهم أن مشركي قريش أسلموا. ولكنها من طرق كلها مرسلة. ولم أرها مسندة من وجه صحيح. وتعداد طرقها، بعد ضعف أصلها، لا يفيد. وهذه شبهة يعتمدها كثير من الواقفين مع الروايات. يظنون أن الضعيف بكثرة طرقه يقوى. والحال أن الضعيف ضعيف كيفما جاء. وقد سرت هذه الشبهة للحافظ ابن حجر. فأخذ يقوي بعض طرقها ويصححها من جهة الإسناد. كما ستمر بك مناقشته. ولو كان لها أدنى رائحة من الصحة لأخرجها البخاري معلقة أو موقوفة، أو أرباب السنن.

وثالثاً - اعترافه بأن السؤال وارد على تقدير ثبوتها، وإلقاء الشيطان ذلك في مسامعهم، مما يبرهن أن فيها مغامز تنبذها العقول، كما نبذتها صحة النقول.

---

(١) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٣٣- سورة الأحزاب، حدثنا علي بن حجر.

فصل

وقال الفخر الرازي في (تفسيره): هذه الرواية باطلة موضوعة، عند أهل التحقيق. واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول. أما القرآن فوجوه:

أحدها - قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

وثانيها - قوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

وثالثها - قوله ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣-٤].

ورابعها - قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ، وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٣]، وكلمة (كاد) عند بعضهم معناها أنه لم يحصل.

وخامسها - قوله: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤]، وكلمة (لولا) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره. فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل.

وسادسها - قوله: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

وسابعها - قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦].

وأما السنة فهي ما روي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة، أنه سئل عن هذه القصة فقال: هذا وضع من الزنادقة. وصنف فيه كتاباً.

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل. ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم. وأيضاً فقد روى البخاري[١] في صحيحه أن النبيّ عليه السلام قرأ سورة (النجم) وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن. وليس فيه حديث الغرانيق. وروي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتة حديث الغرانيق.

وأما المعقول فمن وجوه:

أحدها - أن من جوّز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان، فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان.

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٣٥- سورة النجم، ٤- باب فاسجدوا لله واعبدوا، حديث رقم ٥٩٠.

وثانيها – أنه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلي ويقرأ القرآن عند الكعبة آمناً أذى المشركين له. حتى كانوا ربما مدّوا أيديهم إليه. وإنما كان يصلي، إذا لم يحضروها، ليلاً، أو في أوقات خلوة. وذلك يبطل قولهم.

وثالثها – أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة، دون أن يقفوا على حقيقة الأمر. فكيف أجمعوا على أنه عظّم آلهتهم حتى خروا سجداً؟ مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم.

ورابعها – قوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللّهُ ءايَاتِه﴾ وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول، أقوى من نسخة بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها. فإذا أراد اللّه إحكام الآيات، لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآناً، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلاً، أولى.

وخامسها – وهو أقوى الوجوه، أنا لو جوّزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه. وجوّزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك، ويبطل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي، وبين الزيادة فيه. فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال، أن هذه القصة موضوعة.

أكثر ما في الباب أن جمعاً من المفسرين ذكرها. لكنهم ما بلغوا حد التواتر. وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة.

ثم أطال الرازي في تفصيل المباحث. ونقل عن أبي مسلم الأصفهاني ما توسع به البحث فانظره إن شئت.

فصل

وكتب الأستاذ الإمام مفتي مصر، الشيخ محمد عبدة رحمه اللّه في هذه الآية مقالة بديعة، نقتبس منها شذرات.

قال: يعلم كل ناظر في كتابنا الإلهيّ (القرآن) ما رفع الإسلام من شأن الأنبياء والمرسلين، والمنزلة التي أحلهم من حيث هم حملة الوحي وقدوة البشر، في الفضائل وصالح الأعمال. وتنزيهه إياهم عما رماهم به أعداؤهم وما نسبه إليهم المعتقدون بأديانهم. ولا يخفى على أحد من أهل النظر، في هذا الدين القويم، أنه

قد قرر عصمة الرسل كافة من الزلل في التبليغ، والزيغ عن الوجهة التي وجه الله وجوههم نحوها من قول أو عمل. وخص خاتمهم محمداً ﷺ فوق ذلك بمزايا فصلت في ثنايا الكتاب العزيز. وعصمة الرسل في التبليغ عن الله، أصل من أصول الإسلام. شهد به الكتاب وأيدته السنة، وأجمعت عليه الأمة. وما خالف فيه بعض الفرق، فإنما هو في غير الإخبار عن الله وإبلاغ وحيه إلى خلقه. ذلك الأصل الذي اعتمدت عليه الأديان، حق لا يرتاب فيه مِلّيٌّ يفهم ما معنى الدين. ومع ذلك لم يعدم الباطل فيه أعواناً يعملون على هدمه وتوهين ركنه. أولئك عشاق الرواة وعبدة النقل. نظروا نظرة في قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾ الآية وفيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن (تمنى) بمعنى (قرأ) و(الأمنية القراءة) فعمي عليهم وجه التأويل، على فرض صحة الرواية عن ابن عباس، فذهبوا يطلبون ما به يصح التأويل في زعمهم. فقيض لهم من يروي في ذلك أحاديث تختلف طرقها وتتباين ألفاظها وتتفق في أن النبيّ ﷺ عندما بلغ منه أذى المشركين ما بلغ، وأعرضوا عنه، وجفاه قومه وعشيرته، لعيبه أصنامهم وزرايته على آلهتهم، أخذه الضجر من إعراضهم. ولحرصه على إسلامهم تمنى ألا ينزل عليه ما ينفرهم، لعله يتخذ ذلك طريقاً إلى استمالتهم. فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة (النجم) إلى آخر ما رواه ابن جرير أولاً. وقد شايعه عليه كثير من المفسرين، وفي طباع الناس إلْف الغريب، والتهافت على العجيب. فولعوا بهذه التفاسير، ونسوا ما رآه جمهور المحققين في تأويلها. وذهب إليه الأئمة في بيانها.

جاء في صحيح البخاري[1]: وقال ابن عباس في ﴿إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إذا حدث ألقي الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته. ويقال (أمنيته قراءته) ﴿إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ يقرؤون ولا يكتبون. انتهى.

فتراه حكى تفسر الأمنية بالقراءة بلفظ (يقال) بعدما فسرها بالحديث رواية عن ابن عباس. وهذا يدل على المغايرة بين التفسيرين. فما يدعيه الشراح أن الحديث في رأي ابن عباس بمعنى التلاوة يخالف ظاهر العبارة. ثم حكاية تفسير الأمنية بمعنى القراءة بلفظ (يقال) يفيد أنه غير معتبر عنده. وسيأتي أن المراد بالحديث حديث النفس.

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٢٢– سورة الحج، في الترجمة.

وقال صاحب الإبريز: إن تفسير (تمنى) بمعنى (قرأ) و(الأمنية) بمعنى (القراءة) مروي عن ابن عباس في نسخة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. ورواها عليّ بن صالح كاتب الليث عن معاوية بن صالح عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقد علم ما للناس في ابن أبي صالح كاتب الليث، وأن المحققين على تضعيفه. انتهى.

وهذا ما في الرواية عن ابن عباس وهي أصل هذه الفتنة وقد رأيت أن المحققين يضعفون راويها. وأما قصة الغرانيق، فمع ما فيها من الاختلاف، فقد طعن فيها غير واحد من الأئمة، حتى قال ابن إسحاق: إنها من وضع الزنادقة. كما تقدم عن الرازيّ، ونحوه عن القاضي عياض رحمه الله، من وهنها وسقوطها من عدة أوجه.

وأما ما ذكره ابن حجر من أن القصة رويت مرسلة من طرق على شرط الصحيح، وأنه يحتج بها من يرى الاحتجاج بالمرسل، فقد ذهب عليه كما قال في الإبريز؛ أن العصمة من العقائد التي يطلب فيها اليقين. فالحديث الذي يريد خرمها ونقضها، لايقبل على أي وجه جاء. وقد عدّ الأصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة، من الأخبار التي يجب القطع بكذبها. هذا لو فرض اتصال الحديث، فما ظنك بالمراسيل؟ وإنما الخلاف في الاحتجاج بالمرسل وعدم الاحتجاج به، فيما هو من قبيل الأعمال وفروع الأحكام، لا في أصول العقائد ومعاقد الإيمان بالمرسل وما جاءوا به. فهي هفوة من ابن حجر يغفرها الله له.

هذا ما قاله الأئمة، جزاهم الله خيراً، في بيان فساد هذه القصة، وأنها لا أصل لها. ولا عبرة برأى من خالفهم. فلا يعتد بذكرها في بعض كتب التفسير، وإن بلغ أربابها من الشهرة ما بلغوا. وشهرة المبطل في بطله، لا تنفخ القوة في قوله. ولا تحمل على الأخذ برأيه.

ثم قال الأستاذ رحمه الله: والآن أرجع إلى تفسير الآيات على الوجه الذي تحتملها ألفاظها وتدل عليه عباراتها. والله أعلم:

لا يخفى على كل من يفهم اللغة العربية، وقرأ شيئاً من القرآن، أن قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾ الآيات، يحكي قَدَراً قُدِّر للمرسلين كافة، لا يَعْدُونه ولا يقفون دونه. ويصف شنشنة عرفت فيهم، وفي أممهم. فلو صح ما قال أولئك المفسرون لكان المعنى: أن جميع الأنبياء والمرسلين قد سلط الشيطان عليهم فخلط في الوحي المنزل إليهم. ولكنه بعد هذا الخلط ينسخ الله كلام

الشيطان ويحكم الله آياته الخ، وهذا من أقبح ما يتصور متصور في اختصاص الله تعالى لأنبيائه، واختيارهم من خاصة أوليائه! فلندع هذا الهذيان، ولنعد إلى ما نحن بصدده.

ذكر الله لنبيه حالاً من أحوال الأنبياء والمرسلين قبله، ليبين له سنته فيهم. وذلك بعد أن قال: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ [الحج: ٤٢]، إلى آخر الآيات ثم قال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَاأَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٤٩-٥٢]، الخ، فالقصص السابق كان في تكذيب الأمم لأنبيائهم. ثم تبعه الأمر الإلهيّ بأن يقول النبي ﷺ لقومه: إنني لم أرسل إليكم إلا لأنذركم بعاقبة ما أنتم عليه، ولأبشر المؤمنين بالنعيم. وأما الذين يسعون في الآيات والأدلة التي أقيمها على الهدى وطرق السعادة، ليحوّلوا عنها الأنظار ويحجبوها عن الأبصار، ويفسدوا أثرها الذي أقيمت لأجله، ويعاجزوا بذلك النبيّ ﷺ والمؤمنين، أي يسابقوهم ليعجزوهم ويسكتوهم عن القول بذلك. وذلك بلعبهم بالألفاظ وتحويلها عن مقصد قائلها، كما يقع عادة من أهل الجدل والمماحكة - هؤلاء الضالون المضلون هم أصحاب الجحيم. وأعقب ذلك بما يفيد أن ما ابتُلي به النبيّ ﷺ من المعاجزة في الآيات، قد ابتلي به الأنبياء السابقون. فلم يبعث نبي في أمة إلا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف، ويضادّون أمانيه، ويحولون بينه وبين ما يبتغي، بما يلقون في سبيله من العثرات. فعلى هذا المعنى الذي يتفق مع ما لقيه الأنبياء جميعاً، يجب أن تفسر الآية. وذلك يكون على وجهين:

الأول - أن يكون (تمنَّى) بمعنى (قرأ) و (الأمنية) بمعنى (القراءة) وهو معنى قد يصح. وقد ورد استعمال اللفظ فيه؛ قال حسان بن ثابت في عثمان رضي الله عنهما:

تَمَنَّى كتابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ... وآخِرَه لاَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

وقال آخر:

تَمَنَّى كَتابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ... تَمنِّيَ داودَ الزبورَ على رِسْلِ

غير أن الإلقاء لا يكون على المعنى الذي ذكروه، بل على المعنى المفهوم من قولك (ألقيتُ في حديث فلان) إذا أدخلت فيه ما ربما يحتمله لفظه، ولا يكون قد أراده. أو نسبت إليه ما لم يقله تعللاً بأن ذلك الحديث يؤدي إليه. وذلك من عمل

المعاجزين الذين ينصبون أنفسهم لمحاربة الحق، يتبعون الشبهة، ويسعون وراء الريبة، فالإلقاء بهذا المعنى دأبهم، ونسبة الإلقاء إلى الشيطان لأنه مثير الشبهات بوساوسه، مفسد القلوب بدسائسه، وكل ما يصدر من أهل الضلال يصح أن ينسب إليه. ويكون المعنى: وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا حدّث قومه عن ربّه، أو تلا وحياً أنزل إليه في هدى لهم، قام في وجهه مشاغبون، يحوّلون ما يتلوه عليهم عن المراد منه. ويتقوّلون عليه ما لم يقله، وينشرون ذلك بين الناس، ليبعدوهم عنه، ويعدلوا بهم عن سبيله، ثم يحق اللّه الحق ويبطل الباطل. ومازال الأنبياء يصبرون على ماكذّبوا وأوذوا، ويجاهدون في الحق، ولا يعتدّون بتعجيز المعجّزين، ولا بهزء المستهزئين إلى أن يظهر الحق بالمجاهدة، وينتصر على الباطل بالمجالدة. فينسخ اللّه تلك الشبه ويجتثها من أصولها، ويثبت آياته ويقررها. وقد وضع اللّه هذه السنّة في الناس ليتميز الخبيث من الطيب، فيفتتن الذين في قلوبهم مرض، وهم ضعفاء العقول، بتلك الشبه والوساوس، فينطلقون وراءها. ويفتتن بها القاسية قلوبهم من أهل العناد والمجاحدة، فيتخذونها سنداً يعتمدون عليها في جدلهم. ثم يتمحص الحق عند الذين أوتوا العلم، ويخلص لهم بعد ورود كل شبهة عليه، فيعلمون أنه الحق من ربك فيصدقون به، فتخبت وتطمئن له قلوبهم. والذين أوتوا العلم هم الذين رزقوا قوة التمييز بين البرهان القاطع الذي يستقرّ بالعقل في قرارة اليقين. وبين المغالطات وضروب السفسطة التي تطيش بالفهم، وتطير به مع الوهم، وتأخذ بالعقل تارة ذات الشمال وأخرى ذات اليمين. وسواء أرجعت الضمير في (أنه الحق) إلى ما جاءت به الآيات المحكمات من الهدى الإلهيّ أو إلى القرآن، وهو أجلّها، فالمعنى من الصحة على ما يراه أهل التمكين. هؤلاء الذين أوتوا العلم هم الذين آمنوا. وهم الذين هداهم اللّه إلى الصراط المستقيم. ولم يجعل للوهم عليها سلطاناً، فيحيد بهم عن ذلك النهج القويم. وأما الذين كفروا وهم ضعفاء العقول ومرضى القلوب، أو أهل العناد وزعماء الباطل وقساة الطباع، الذين لاتلين أفئدتهم ولا تبش للحق قلوبهم، فأولئك لا يزالون في ريب في الحق أو الكتاب. لا تستقر عقولهم عليه، ولا يرجعون في متصرفات شؤونهم إليه. حتى تأتي ساعة هلاكهم بغتة، فيلاقوا حسابهم عند ربهم. أو إن امتد بهم الزمن، ومادّهم الأجل، فسيصيبهم عذاب يوم عقيم. يوم حرب يسامون فيه سوء العذاب، القتل أو الأسر. ويقذفون إلى مطارح الذل وقرارات الشر. فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة، بل يسلبون ما كان لديهم ويساقون إلى مصارع الهلكة. وهذا هو العقم في أتم معانيه وأشأم درجاته. ما أقرب هذه الآيات في

مغازيها، إلى قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، وقد قال بعد ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١١٦]، ثم قال: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢]، الخ الآيات. وكان إحدى الطائفتين من القرآن شرح للأخرى. فالذين في قلوبهم زيغ هم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم. والراسخون في العلم هم الذين أوتوا العلم، وهؤلاء هم الذين يعلمون أنه الحق من ربهم. فيقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا، فتخبت له قلوبهم، وإن الله لهاديهم إلى صراط مستقيم. وأولئك هم الذين يفتتنون بالتأويل، ويشتغلون بقال وقيل بما يلقي إليهم الشيطان، ويصرفهم عن مرامي البيان، ويميل بهم عن محجة الفرقان. وما يتكئون عليه من الأموال والأولاد، لن يغني عنهم من الله شيئاً. فستوافيهم آجالهم، وتستقبلهم أعمالهم. فإن لم يوافهم الأجل على فراشهم. فسيغلبون في هراشهم. وهذه سنة جميع الأنبياء مع أممهم، وسبيل الحق مع الباطل من يوم أن رفع الله الإنسان إلى منزلة يميز فيها بين سعادته وشقائه، وبين ما يحفظه وما يذهب ببقائه. وكما لا مدخل لقصة الغرانيق في آيات آل عمران، لا مدخل لها في آيات سورة الحج، هذا هو الوجه الأول في تفسير الآيات ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ إلى آخرها، على تقدير أن (تمنَّى) بمعنى (قرأ) وأن (الأمنية) بمعنى (القراءة) والله أعلم.

الوجه الثاني في تفسير الآيات ـ أن التمني على معناه المعروف. وكذلك الأمنية. وهي أفعولة بمعنى المُنْية. وجمعها. أمانيّ كما هو مشهور. قال أبو العباس أحمد بن يحيى: التمني حديث النفس بما يكون وبما لا يكون. قال: والتمني سؤال الرب. وفي الحديث (إذا تمنى أحدكم فليتكثر فإنما يسأل ربه) وفي رواية (فليكثر) قال ابن الأثير: (التمني) تشهّي حصول الأمر المرغوب فيه، وحديث النفس بما يكون وبما لا يكون. وقال أبو بكر: تمنيت الشيْء إذا قدرته وأحببت أن يصير إليّ. وكل ما قيل في معنى التمني على هذا الوجه، فهو يرجع إلى ما ذكرناه ويتبعه معنى الأمنية. ما أرسل الله من رسول ولا نبيّ ليدعو قوماً إلى هَدْي جديد، أو شرع سابق شرعه لهم، ويحملهم على التصديق بكتاب جاء به نفسه إن كان رسولاً،

أو جاء به غيره إن كان نبياً بُعث ليحمل الناس على اتباع من سبقه، إلا وله أمنية في قومه. وهي أن يتبعوه وينحازوا إلى ما يدعوهم إليه، ويستشفوا من دائهم بدوائه، ويعصوا أهواءهم بإجابة ندائه. وما من رسول أرسل إلا وقد كان أحرص على إيمان أمته. وتصديقهم برسالته، منه على طعامه الذي يطعم، وشرابه الذي يشرب، وسكنه الذي يسكن إليه. ويغدو عنه ويروح علينا. وقد كان نبينا ﷺ من ذلك في المقام الأعلى، والمكان الأسمى. قال الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ [الكهف: ٦]، وقال ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وفي الآيات ما يطول سرده، مما يدل على أمانيه ﷺ المتعلقة بهداية قومه، وإخراجهم من ظلمات ما كانوا فيه، إلى نور ما جاء به. وما من رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنى هذه الأمنية السامية، ألقى الشيطان في سبيله العثرات، وأقام بينه وبين مقصده العقبات. ووسوس في صدور الناس. وسلبهم الانتفاع بما وهبوا من قوة العقل والإحساس، فثاروا في وجهه، وصدوه عن قصده، وعاجزوه حتى لقد يعجزونه، وجادلوه بالسلاح والقول حتى لقد يقهرونه. فإذا ظهروا عليه، والدعوة في بدايتها، وسهل عليهم إيذاؤه وهو قليل الأتباع ضعيف الأنصار، ظنوا الحق من جانبهم، وكان فيما ألقوه من العوائق بينه وبين ما عمد إليه، فتنة لهم.

غلبت سنة الله في أن يكون الرسل من أواسط قومهم، أو من المستضعفين فيهم، ليكون العامل في الإذعان بالحق محض الدليل وقوة البرهان. وليكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن يدعى إليه على قبوله. ولكيلا يشارك الحق الباطل في وسائله، أو يشاركه في نصب شراكه وحبائله. أنصار الباطل في كل زمان، هم أهل الأنفة والقوة والجاه والاعتزاز بالأموال والأولاد والعشيرة والأعوان، والغرور بالزخارف. والزهو بكثرة المعارف. وتلك الخصال إنما تجتمع كلها أو بعضها في الرؤساء وذوي المكانة من الناس فتذهلهم عن أنفسهم، وتصرف نظرهم عن سبيل رشدهم. فإذا دعا إلى الحق داع، عرفته القلوب النقية من أوضار هذه الفواتن، وفزعت إليه النفوس الصافية والعقول المستعدة لقبوله، بخلوصها من هذه الشواغل. وقلما توجد إلا عند الضعفاء وأهل المسكنة فإذا التف هؤلاء حول الداعي وظافروه على دعوته، قام أولئك المغرورون يقولون ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، فإذا استدرجهم الله على سنته، وجعل الجدال بينهم وبين المؤمنين سجالاً، افتتن الذين

في قلوبهم مرض من أشياعهم، وافتتنوا هم بما أصابوا من الظفر في دفاعهم. ولكن اللّه غالب على أمره. فيمحق ما ألقاه الشيطان من هذه الشبهات، ويرفع هذه الموانع وتلك العقبات، ويهب السلطان لآياته فيحكمها ويثبت دعائمها، وينشئ من ضعف أنصارها قوة، ويخلف لهم من ذلتهم عزة، وتكون كلمة اللّه هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، وفي حكاية هذه السنة الإلهية التي أقام عليها الأنبياء والمرسلين، تسلية لنبينا ﷺ عما كان يلاقي من قومه، ووعد له بأنه سيكمل له دينه، ويتم عليه وعلى المؤمنين نعمته، مع استلفاتهم إلى سيرة من سبقهم ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٢]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُمْ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ، أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

هذا هو التأويل الثاني في معنى الآية. يدل عليه ما سبق من الآيات، ويرشد إلى سياق القصص السابق في قوله ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الحج: ٤٢]، الخ. وأنت ترى أن قصة الغرانيق لا تتفق مع هذا المعنى الصحيح.

وهناك تأويل ثالث ذكره صاحب الإبريز. وإني أنقله بحروفه، وما هو بالبعيد عن هذا بكثير. قال (بعد ذكر أمانيّ الأنبياء في أممهم، وطمعهم في إيمانهم، وشأن نبينا ﷺ في ذلك، على نحو يقرب مما ذكرناه في الوجه الثاني):

ثم إن الأمة تختلف كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فأما من كفر فقد ألقى إليه الشيطان الوساوس القادحة له في الرسالة، الموجبة لكفره. وكذا المؤمن أيضاً لا يخلو أيضاً من وساوس، لأنها لازمة للإيمان بالغيب في الغالب، وإن كانت تختلف في الناس بالقلة والكثرة، وبحسب المتعلقات إذا تقرر هذا فمعنى (تمنى) أنه يتمنى لهم الإيمان ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح، فهذه أمنية كل رسول ونبيّ. وإلقاء الشيطان فيها، يكون بما يلقيه في قلوب أمة الدعوة من الوساوس الموجبة لكفْر بعضهم، ويرحم اللّه المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم، ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة، ويبقي ذلك عزّ وجل في قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به. فخرج من

هذا أن الوساوس تلقى أولاً في قلوب الفريقين معاً، غير أنها لا تدوم على المؤمنين، وتدوم على الكافرين. انتهى.

وأنت إذا نظرت بين هذا التفسير وبين ما سبقه، تتبين الأحق بالترجيح. ولو صح ما قاله نقلة قصة الغرانيق لارتفعت الثقة بالوحي وانتقض الاعتماد عليه، كما قاله القاضي البيضاويّ وغيره. ولكان الكلام في الناسخ كالكلام في المنسوخ. يجوز أن يلقي فيه الشيطان ما يشاء، ولانهدم أعظم ركن للشرائع الإلهية وهو العصمة. وما يقال في المخرج عن ذلك، ينفر منه الذوق ولا ينظر إليه العقل على أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق العلي لم يرد لا في نظمهم ولا في خطبهم. ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم. إلا ماجاء في معجم ياقوت غير مسند ولا معروف بطريق صحيح. وهذا يدل على أن القصة من اختراع الزنادقة، كما قال ابن إسحاق. وربما كانت منشأ ما أورده ياقوت. ولا يخفى أن الغرنوق والغرنيق لم يعرف في اللغة إلا اسماً لطائر مائي أسود أو أبيض. أو هو اسم الكركيّ أو طائر يشبهه والغرنيق (بالضم وكزنبور وقنديل وَسَمَوْأَل وفردوس وقرطاس وعُلاَبط) معناه الشاب الأبيض الجميل. وتسمى الخصلة من الشعر المفتلة (الغرنوق) كما يسمى به ضرب من الشجر. ويطلق الغرنوق والغرانيق على ما يكون في أصل العوسج اللين النبات. ويقال (لمة غرانقة) و (غرانقية) أي ناعمة تفيئها الريح. أو الغرنوق الناعم المستتر من النبات الخ. ولا شيء في هذه المعاني يلائم الآلهة والأصنام، حتى يطلق عليها في فصيح القول الذي يعرض على ملوك البلاغة وأمراء الكلام. فلا أظنك تعتقد إلا أنها من مفتريات الأعاجم ومختلقات الملبسين، ممن لا يميز بين حر الكلام، وما استعبد منه لضعفاء الأحلام. فراج ذلك على من يذهله الولوع بالرواية، عما تقتضيه الدراية ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨]. انتهى كلام الأستاذ رحمه الله.

وممن جزم بوضع هذه القصة جزماً باتّاً، الإمام ابن حزم رحمه الله، حيث قال في كتابه (الملل) في الرد على من لم يوجب العصمة على الأنبياء ما مثاله: استدلوا بالحديث الكاذب الذي لم يصح قط في قراءته عليه السلام في ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ وذكروا تلك الزيادة المفتراة التي تشبه مَنْ وَضَعَهَا من قولهم (وإنها لهي الغرانيق العلى وإن شفاعتها لترتجى) ثم قال بعد: وأما الحديث الذي فيه (الغرانيق) فكذب بحت موضوع. لأنه لم يصح قط من طريق النقل، ولا معنى للاشتغال به، إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد. وأما قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ

إلاَّ إذَا تَمَنَّى أَلْقى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِه﴾ الآية، فلا حجة لهم فيها. لأن الأمانيّ الواقعة في النفس لا معنى لها. وقد تمنى النبيّ صلى الله عليه وسلم إسلام عمه أبي طالب، ولم يرد الله عزّ وجلّ كون ذلك. فهذه الأمانيّ التي ذكرها الله عزّ وجلّ لا سواها، وحاشا لله أن يتمنى نبيّ معصية. وبالله تعالى التوفيق.

وهذا الذي قلنا هو ظاهر الآية دون مزيد تكلف، ولا يحل خلاف الظاهر إلا بظاهر آخر وبالله تعالى التوفيق. انتهى، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾

﴿**وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ**﴾ أي في شك وجدال من التنزيل الكريم، لما طبع على قلوبهم ﴿**حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ**﴾ أي القيامة ﴿**بَغْتَةً**﴾ أي فجاة ﴿**أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ**﴾ أي يوم لا يوم بعده. كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيماً. والمراد به الساعة أيضاً. كأنه قيل (أو يأتيهم عذابها) فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل. أفاده أبو السعود. أي لأنه بمعنى (شديد) لا مثل له في شدته. وتقدم فيما نقلنا وجه آخر وهو أن المعنى: لا يزال الذين كفروا في ريب من الحق أو الكتاب، لا تستقر عقولهم عليه حتى تأتي ساعة هلاكهم بغتة، فيلاقون حسابهم عند ربهم. أو إن امتد بهم الزمن، ومادّهم الأجل، فسيصيبهم عذاب يوم عقيم. يوم حرب يسامون فيه سوء عذاب القتل أو الأسر. فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة. بل يسلبون ما كان لديهم، ويساقون إلى مصارع الهلكة، وهذا هو العقم في أتم معانيه وأشأم درجاته. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿**الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ**﴾ أي يوم تزول مريتهم ﴿**لِلّهِ**﴾ أي وحده، بحيث لا يكون لأحد تصرف لا حقيقة ولا صورة ﴿**يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ**﴾ أي بالمجازاة، ثم فسر الحكم

بقوله تعالى ﴿ فَالَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا ﴾ أي في الجهاد ﴿ أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ أي من الجنة ونعيمها ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾.

قال في الإكليل: استدل بقوله تعالى ﴿ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا ﴾ فَضَالَةُ بن عبيد الأنصاري الصحابيّ على أن المقتول والميت في سبيل اللّه سواء في الفضل. أخرجه ابن أبي حاتم وهو رأي قاله جماعة. وخالفه آخرون ففضلوا المقتول وأخرجه ابن أبي حاتم عن سليمان قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول: (فمن مات مرابطاً أجرى اللّه عليه مثل ذلك الأمر، وأجرى عليه الرزق، وأمن من الفتانين. واقرءوا ما شئتم ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ إلى ﴿ حَلِيمٌ ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ أي ومن جازى ظالماً بمقدار ظلمه، ولم يزد في الاقتصاص منه، ثم تعدى عليه الظالم ثانياً، لينصرن اللّه ذلك المظلوم. وإنما سمي الابتداء بالعقاب، الذي هو الجزاء، للازدواج والمشاكلة. أو لأنه سبب الجزاء وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ تعريض بالحث على العفو والمغفرة. فإنه تعالى مع كمال قدرته، لمّا كان يعفو ويغفر، فغيره أولى بذلك. وتنبيه على قدرته على النصر. إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده. فظهر سر مطابقة (العفوّ الغفور) لهذا الموضع.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

﴿**ذَلكَ بأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ**﴾ أي ذلك النصر بسبب أنه قادر. ومن آيات قدرته البالغة، إيلاج أحد الملوين في الآخر، بزيادته في أحدهما ما ينقص من ساعات الآخر ﴿**وأَنَّ اللهَ سَميعٌ بَصيرٌ ذَلكَ بأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِه هُوَ الْباطِلُ وأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبيرُ**﴾ أي ذلك الصنع الباهر بأنه المعبود الحق الذي لا مثل له ولا ندّ، وأن الذي يدعوه المشركون هو الباطل الذي لا يقدر على صنعة شيء. بل هو المصنوع. أي فتتركون عبادة من منه النفع وبيده الضر، وتعبدون الباطل الذي لا تنفعكم عبادته. وأن اللّه هو ذو العلوّ على كل شيء، والعظيم الذي كل شيء دون عظمته، فلا أعلى منه ولا أكبر. ثم أشار إلى آية من آيات صنعه الباهر، تقريراً لألوهيته، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾

﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماء ماءً فَتُصبحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إنَّ اللهَ لَطيفٌ خَبيرٌ لَهُ ما في السَّمَوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ وَإنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنيُّ الْحَميدُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما في الأَرْضِ**﴾ أي جعلها معدّة لمنافعكم ﴿**وَالْفُلْكَ**﴾ أي وسخر لكم البحر، حتى أن الفلك ﴿**تَجْري في الْبَحْرِ بأَمْرِه**﴾ أي بتيسيره لمنافعكم ﴿**وَيُمْسكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إلاَّ بإذْنه**﴾ أي بمشيئته وقدرته. أي ما يمسكها ويحفظها إلا ذلك، رحمة بكم، فاشكروا آلاءه وحده ﴿**إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحيمٌ**﴾ أي في آلائه وآياته المذكورة، وما أبان فيها من طرق الاستدلال على وحدانيته، لا إله إلا هو. وكذلك من آيات ألوهيته ما تضمنه قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي جحود للنعم، بعبادة غير بارئها. أو إشراكه معه، مع أنه هو الخالق لكل ذلك، والقادر عليه، وغيره لا يملك شيئاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا﴾ أي وضعنا ﴿مَنْسَكاً﴾ أي شريعة ومتعبداً ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾ أي في ذلك الجعل والوضع والحوار في تنوعه في كل أمة، وعدم وحدته، أو في أمر ما جئتهم به، زعماً بأنه يستغني عنه بما شرع قبله. لأنه جهل بحكمته تعالى في تكوين الأمم وتربيتها بالشرائع المناسبة لزمنها ومكانها، وحياتها ومنشئها. ولذلك كانت هذه الشريعة أهدى الشرائع للامتنان بها، حينما بلغ الإنسان أعلى طور الرشد ولذلك وجبت الدعوة إليها خاصة كما قال سبحانه ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾ أي اثبت على دينك ثباتاً لا يطمعون أن يخدعوك عنه. أو معناه: ثابر على الدعوة إلى ما أمرت به. فلا تضرك منازعتهم. وعلى الكل اتباعك وعدم مخالفتك، لاستقرار الأمر على شرعتك. لأنها الطريق القويم.

هذا، وقال ابن جرير: أصل المنسك في كلام العرب، الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه، لخير أو شر. يقال (إن لفلان منسكاً يعتاده) يراد مكاناً يغشاه ويألفه لخير أو شر. وقد اختلف أهل التأويل في معنى (النسك) هنا، فقيل: عيداً. وقيل: إراقة الدم (ثم استظهر) أن المعنى إراقة الدم أيام النحر بمنى. لأن المناسك التي كان المشركون جادلوا فيها رسول الله ﷺ، كانت إراقة الدم في هذه الأيام، أي فلا ينازعك هؤلاء المشركون في ذبحك ومنسكك بقولهم (أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله)؟ انتهى.

وعليه، فيكون المراد بالجعل في قوله تعالى ﴿جَعَلْنَا﴾ الجعل القدريّ لا التشريعيّ. كما قال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ٤٨]، أي هؤلاء إنما

يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته. فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ [القصص:٨٧]، أشار له ابن كثير. ونقل الرازيّ عن ابن عباس، في رواية عطاء، أن المراد بالمنسك الشريعة والمنهاج. قال: وهو اختيار القفال، لقوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة:٤٨]، وهو الذي آثرناه أولاً لظهوره فيه. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾

﴿ **وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ أي من أمر الدين ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** ﴾ أي حجة ﴿ **وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ أي من ضرورة العقل أو استدلاله ﴿ **وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ** ﴾ أي يدفع عنهم ما يراد بهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

﴿ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ** ﴾ أي حال كونها واضحة الدلالة على حقيقتها وما تضمنته ﴿ **تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ** ﴾ أي الإنكار أو الفظيع من التهجم

والبسور. أو الشر الذي يقصدونه بظهور مخايله ﴿**يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا**﴾ أي يبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب. قال في (فتح البيان): وكذلك أهل البدع المضلة، إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليه، من آيات الكتاب العزيز أو من السنة الصحيحة، مخالفاً لما اعتقده من الباطل، رأيت في وجهه من المنكر، ما لو تمكن من أن يسطو بذلك لفعل به ما لا يفعله بالمشركين والله يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴿**قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمْ، النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ**﴾ «أي بُيِّنَ» ﴿**مَثَلٌ**﴾ أي حال مستغرب ﴿**فَاسْتَمِعُوا لَهُ**﴾ أي تدبروه حق تدبره. فإن الاستماع بلا تدبر وتعقل لا ينفع ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ يعني الأصنام ﴿**لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ**﴾ أي لخلقه متعاونين. وتخصيصه الذباب، لمهانته وضعفه واستقذاره. وهذا من أبلغ ما أنزل في تجهيل المشركين. حيث وصفوا بالإلهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها، صوراً وتماثيل، يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله، ولو اجتمعوا لذلك ﴿**وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ**﴾ أي هذا الخلق الأقل الأذل، لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه، لم يقدروا ﴿**ضَعُفَ الطَّالِبُ**﴾ أي الصنم يطلب ما سلب منه ﴿**وَالْمَطْلُوبُ**﴾ أي الذباب بما سلب. وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف. ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف. فإن الذباب حيوان وهو جماد. وهو غالب وذلك مغلوب. وجوز أن يراد بالطالب عابد الصنم، وبالمطلوب معبوده. قيل: وهو أنسب بالسياق لأنه لتجهيلهم وتحقير معبوداتهم. فناسب إرادتهم والأصنام من هذا التذييل. واختار الوجه الأول الزمخشريّ. لما فيه من التهكم، بجعل الصنم طالباً على الفرض تهكماً وأنه أضعف من الذباب لأنه مسلوب وجماد، وذلك حيوان بخلافه.

وهذه الجملة التذييلية إخبار أو تعجب. وقوله تعالى ﴿**مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ أي ما عرفوه حق معرفته، حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ أي قادر وغالب. فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهاً به. أو لقويّ بنصر أوليائه، عزيز ينتقم من أعدائه.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي﴾ أي يختار ﴿مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي فلا نكران لاصطفائه من البشر من شاء لرسالته. ولا وجه لقولهم: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]، قال أبو السعود: كأنه تعالى. لما قرر وحدانيته، في الألوهية، ونفى أن يشاركه فيها شيء من الأشياء بيّن أن له عباداً مصطفيْن للرسالة، يتوسل بإجابتهم والاقتداء بهم، إلى عبادته عزّ وجلّ. وتقدمه بنحوه البيضاويّ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي ما عملوه وما سيعملونه ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ أي لأنه مالكها. فلا يُسأل عما يفعل، من الاصطفاء وغيره، وهم يسألون.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي صلّوا. وعبر عن الصلاة بهما، لأنهما أعظم أركانها. أو اخضعوا له تعالى، وخروا له سجداً، لا لغيره ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ أي تحرّوه. كصلة الأرحام ومواساة الأيتام والحض على الإطعام والاتصاف بمكارم الأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة.

تنبيهات:

الأول – لم يختلف العلماء في السجدة الأولى من هذه السورة. واختلفوا في السجدة الثانية – هذه – فروي عن عمر وعليّ وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأبي الدرداء وأبي موسى؛ أنهم قالوا: في الحج سجدتان. وبه قال ابن المبارك والشافعيّ وأحمد وإسحاق، يدل عليه ما روي[١] عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله أفي الحج سجدتان؟ قال: نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما. أخرجه الترمذيّ وأبو داود. وعن عمر بن الخطاب[٢] أنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين وقال: إن هذه السورة فضلت بسجدتين. أخرجه مالك في (الموطأ) وذهب قوم إلى أن في الحج سجدة واحدة، وهي الأولى، وليست هذه بسجدة وهو قول الحسن وسعيد بن

---

(١) أخرجه أبو داود في: سجود القرآن، ١– باب تفريع أبواب السجود، وكم سجدة في القرآن، حديث رقم ١٤٠٢.
وأخرجه الترمذي في: الجمعة، ٥٤– باب ما جاء في السجدة في الحج.

(٢) أخرجه في الموطأ في: ١٥– باب الأمر بالوضوء لمن مسّ القرآن، حديث رقم ١٣.

المسيب وسعيد بن جبير وسفيان الثوريّ وأبي حنيفة ومالك. بدليل أنه قرن السجود بالركوع. فدل ذلك أنه سجدة صلاة، لاسجدة تلاوة - كذا في (لباب التأويل) أي لأن المعهود في مثله من كل آية، قرن الأمر بالسجود فيها بالركوع، كونه أمراً بما هو ركن للصلاة، بالاستقراء نحو ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي﴾ [آل عمران:٤٣]، وإذا جاء الاحتمال سقط الاستدلال.

وما روي من الحديث المذكور، قال الترمذيّ رحمه الله: إسناده ليس بالقويّ. وكذا قال غيره كما في (شرح الهداية) لابن الهمام.

قال الخفاجيّ: لكن يرد عليه ما في (الكشف) أن الحق أن السجود حيث ثبت، ليس من مقتضى خصوص في تلك الآية، لأن دلالة الآية غير مقيدة بحال التلاوة البتة. بل إنما ذلك بفعل رسول الله ﷺ أو قوله. فلا مانع من كون الآية دالة على فرضية سجود الصلاة. ومع ذلك يشرع السجود عند تلاوتها، لما ثبت من الرواية فيه.

الثاني - قال في (اللباب) اختلف العلماء في عدّة سجود التلاوة. فذهب الشافعي وأحمد وأكثر أهل العلم إلى أنها أربع عشرة سجدة. لكن الشافعي قال: في الحج سجدتان. وأسقط سجدة (ص). وقال أبو حنيفة في الحج سجدة. وأثبت سجدة (ص) وبه قال أحمد، في إحدى الروايتين عنه. فعنده أن السجدات خمس عشرة سجدة. وذهب قوم إلى أن المفصل ليس فيه سجود. يروى ذلك عن أبيّ بن كعب وابن عباس. وبه قال مالك.

فعلى هذا يكون سجود القرآن إحدى عشرة سجدة. يدل عليه ما روي عن أبي الدرداء[1]؛ أن النبيّ ﷺ قال: في القرآن إحدى عشرة سجدة. أخرجه أبو داود وقال: إسناده واه. ودليل من قال (في القرآن خمس عشرة سجدة) ما روي عن عمرو بن العاص قال: أقرأني رسول الله ﷺ في القرآن خمس عشرة سجدة. منها ثلاث في المفصل. وفي سورة الحج سجدتان أخرجه أبو داود[2]. وصح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿اقرأ﴾ و ﴿إذا السماء انشقت﴾ أخرجه مسلم[3]. انتهى.

---

(١) أخرجه الترمذي في: الجمعة، ٤٧- باب ما جاء في سجود القرآن.

(٢) أخرجه في: السجود، ١- باب تفريع أبواب السجود، وكم سجدة في القرآن، حديث رقم ١٤٠١.

(٣) أخرجه الترمذي في: الجمعة، ٥٠- باب ما جاء في السجدة في ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ و﴿إذا السماء انشقت﴾.

والخمس عشرة: في الأعراف، والرعد، والنحل، والإسراء، ومريم، والحج، والفرقان، والنمل، والم تنزيل، وص، وحم، السجدة، والنجم، والانشقاق، واقرأ.

والمفصل من سورة الحجرات إلى آخرالقرآن، في أصح الأقوال. سمي مفصلاً لكثرة الفصل بين سوره.

الثالث - سجود التلاوة سنة للقارى والمستمع. وبه قال مالك والشافعي وأحمد. لقول ابن عمر: كان النبيّ ﷺ يقرأ علينا السورة فيها السجدة، فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد أحدنا موضعاً لجبهته. رواه الشيخان[١].

وقال عمر[٢]: إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء. رواه البخاري وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ عامٌ في جهاد الكفار والظلمة والنفس. و(حق) منصوب على المصدرية. والأصل (جهاداً فيه حقاً) فعكس، وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة، ليدل على أن المطلوب القيام بمواجبه وشرائطه على وجه التمام والكمال بقدر الطاقة. وعن الرضيّ: إن (كلّ) و (جدّ) و (حقّ) إذا وقعت تابعة لاسم جنس، مضافة لمثل متبوعها لفظاً ومعنى، نحو (أنت عالم كلّ عالم) أو (جدّ عالم) أو (حق عالم) أفادت أنه تجمع فيه من الخلال ما تفرّق في الكل. وأن ما سواه باطل أو هزل. وقوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي اختاركم لدينه ولنصرته. وفيه تنبيه

---

(١) أخرجه البخاري في: سجود القرآن، ٨- باب من سجد لسجود القارئ، حديث رقم ٥٩٢.
وأخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ١٠٣.

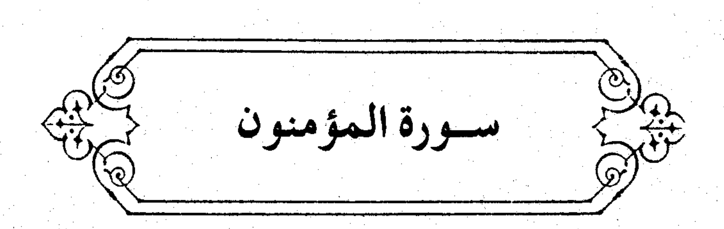
(٢) أخرجه البخاري في: سجود القرآن، ١٠- باب من رأى أن الله عز وجل لم يوجب السجود، حديث رقم ٥٩٣ ونصه: «يا أيها الناس إنا نمرّ بالسجود، فمن سجد فقد أصاب. ومن لم يسجد فلا إثم عليه».

على المقتضى للجهاد والداعي إليه. لأن المختار إنما يختار من يقوم بخدمته. وهي بما ذكر. ولأن من قرّ به العظيمُ، يلزمه دفع أعدائه ومجاهدة نفسه، بترك ما لا يرضاه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي في جميع أمور الدين من ضيق، بتكليف ما يشق القيام به. كما كان على من قبلنا، فالتعريف في (الدين) للاستغراق. قال في (الإكليل): هذا أصل القاعدة (المشقة تجلب التيسير) ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ منصوب على المصدرية، بفعل دل عليه ما قبله من نفي الحرج. بعد حذف مضاف أي وسع دينكم توسيع ملة أبيكم إبراهيم. أو على الإغراء بتقدير (اتبعوا أو الزموا) أو الاختصاص بتقدير (أعني) ونحوه. أو هو بدل أو عطف بيان مما قبله. فيكون مجروراً بالفتح، أفاده الشهاب. قال القاضي؛ وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله ﷺ، وهو كالأب لأمته، من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية. أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته. فغلبوا على غيرهم.

وقال القاشاني: معنى أبوّته كونه مقدماً في التوحيد، مفيضاً على كل موحد، فكلهم من أولاده. وقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة. والجملة مستأنفة. وقيل: إنها كالبدل من قوله ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ ولذا لم يعطف ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي القرآن. أي فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم وقيل: الضمير لـ (إبراهيم) عليه السلام.

قال القاضي: وتسميتهم بـ (مسلمين) في القرآن، وإن لم يكن منه، كان بسبب تسميته من قبل، في قوله ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، أي لدخول أكثرهم في الذرية. فجعل مسمياً لهم مجازاً. ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ أي بأنه قد بلغكم رسالات ربكم ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي: وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة، فاعبدوه وأنفقوا مما آتاكم بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، وثقوا به، ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا منه، فهو خير مولى وناصر.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة المؤمنون

سميت بهم لاشتمالها على جلائل أوصافهم ونتائجها، في أولها وفي قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٧]، إلى قوله: ﴿ سَابِقُونَ ﴾ أفاده المهايميّ. وهي مكية. واستثنى بعضهم منها آية ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ ﴾ [المؤمنون: ٦٤]، إلى قوله: ﴿ مُبْلِسُونَ ﴾ وآيها مائة وثماني عشرة. وقد روى الإمام أحمد ومسلم[1] وغيرهما عن عبد الله بن السائب قال: صلّى النبيّ ﷺ بمكة الصبح. فاستفتح سورة المؤمنون. حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر عيسى، أخذته سعلة فركع.

---

(١) أخرجه في المسند ٣/٤١١.
وأخرجه البخاري تعليقاً في: الأذان، ١٠٦- باب الجمع بين السورتين في الركعة.
وأخرجه مسلم في: الصلاة، حديث رقم ١٦٣.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) ﴾

﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ أي دخلوا في الفوز الأعظم ﴿ **الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾ أي متذللون مع خوف وسكون للجوارح، لاستيلاء الخشية والهيبة على قلوبهم ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** ﴾. أي عن الفضول وما لا يعني من الأقوال والأفعال، معرضون في عامة أوقاتهم، لاستغراقهم بالجد ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ** ﴾ أي للتجرد عن رذيلة البخل.

قيل: السورة مكية، والزكاة إنما فرضت بالمدينة؟ وجوابه: إن الذي فرض بالمدينة إنما هو النصب والمقادير الخاصة. وإلا فأصل التفضل بالعفو مشروع في أوائل البعثة، فلا حاجة إلى دعوى إرادة زكاة النفوس من الشرك والعصيان، لعدم التبادر إليه ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** ﴾ لأنه الحق المأذون فيه ﴿ **فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ** ﴾ أي الكاملون في العدوان المرتكبون على أنفسهم.

تنبيهات:

الأول – دلت الآية على تعليق فلاح العبد على حفظ فرجه، وأنه لا سبيل له إلى الفلاح بدونه، وتضمنت هذه الآية ثلاثة أمور: من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين. وأنه من الملومين. ومن العادين. ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع في اللوم. فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها، أيسر من بعض ذلك. وقد أمر اللّه تعالى نبيّه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم. وأن يعلمهم أنه مشاهد

لأعمالهم، مطلع عليها، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ولما كان مبدأ ذلك من قِبل البصر، جعل الأمر بغضّه مقدماً على حفظ الفرج. فإن الحوادث مبدؤها من النظر. كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر. ثم تكون نظرة، ثم تكون خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة. ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات. فينبغي للعبد أن يكون بوّاب نفسه على هذه الأبواب الأربعة. ويلازم الرباط على ثغورها. فمنها يدخل عليه العدوّ، فيجوس خلال الديار ويتبروا ما علوا تبيراً.

الثاني – روي عن الإمام أحمد أنه قال: لا أعلم بعد القتل ذنباً أعظم من الزنى. واحتج بحديث عبد اللّه[١] بن مسعود أنه قال: يارسول اللّه أيّ الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل للّه نِداً وهو خلقك قال قلت: ثم أيّ؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك. قال قلت: ثم أيّ؟ قال: أن تزاني حليلة جارك. والنبيّ ﷺ ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل. فإنه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعه وما هو أعظم كل نوع، فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد للّه نداً. وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه. وأعظم أنواع الزنى أن يزني بحليلة جاره. فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق. فالزنى بالمرأة التي لها زوج، أعظم إثماً وعقوبة من الزنى بالتي لازوج لها إذا فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه، وتعليق نسب عليه، لم يكن منه، وغير ذلك من أنواع أذاه. فهو أعظم إثماً وجرماً من الزنى بغير ذات الزوج فإذا كان زوجها جاراً له، انضاف إلى ذلك سوء الجوار، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى. وذلك من أعظم البوائق. وقد ثبت عن النبيّ[٢] ﷺ أنه قال: لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه. ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأته. فالزنى بمائة امرأة لازوج لها أيسر عند اللّه من الزنى بامرأة الجار. فإن كان الجار أخاً له، أو قريباً من أقاربه، انضم إلى ذلك قطيعة الرحم، فيتضاعف الإثم. فإن كان الجار غائباً في طاعة اللّه، كالصلاة وطلب العلم والجهاد، تضاعف الإثم. فإن اتفق أن تكون المرأة رحماً منه، انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها.

---

(١) أخرجه البخاري في: تفسير القرآن، ٢– سورة البقرة، ٣– باب قوله تعالى: ﴿لا تجعلوا للّه انداداً وأنتم تعلمون﴾، حديث ١٩٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في: الأدب، ٣٩– باب إثم من لا يامن جاره بوائقه، حديث قم ٢٣٢٦، عن أبي شُرَيح.

فإن اتفق أن يكون الزاني محصناً، كان الإثم أعظم. فإن كان شيخاً كان أعظم إثماً وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عند الله، كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة، تضاعف الإثم.

وعلى هذا، فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة والله المستعان.

الثالث - أجمع المسلمون على أن حكم التلوّط مع المملوك كحكمه مع غيره، ومن ظن أن تلوط الإنسان مع مملوكه جائز، واحتجّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ وقاس ذلك على أمته المملوكة، فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد. فإن تاب وإلا قتل وضربت عنقه. وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره. في الإثم والحكم. أفاد هذا وما قبله بتمامه الإمام ابن القيم في (الجواب الكافي). وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي قائمون عليها بحفظها وإصلاحها. والآية تحتمل العموم في كل ما اؤتمنوا عليه وعوهدوا، من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم. ولذا عدت الخيانة في الأمانة من آيات النفاق في الحديث المشهور[1] ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يحافظون عليها. وذلك أن لا يسهوا عنها ويؤدّوها في أوقاتها، ويقيموا أركانها، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتم به أوصافها. وليس هذا تكريراً لما وصفهم به أولاً. فإن الخشوع في الصلاة، غير المحافظة عليها. وتقديم الخشوع اهتماماً به. حتى كأن الصلاة، لا يعتد بها بدونه، أو لعموم هذا له. وفي تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة، تعظيم لشأنها ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الجامعون لهذه الأوصاف ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ أي الجنة ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي لا يخرجون منها أبداً.

---

(١) أخرجه البخاري في: الإيمان، ٢٤- باب علامة المنافق، حديث رقم ٣١، عن أبي هريرة.

ثم أشار تعالى إلى مبدأ خلقه الإنسان وتقليبه في أطوار شتى، حتى نما كاملاً، وإلى ما خلقه من عالم السماء والأرض، وسخره لمنافعه، ليشكر مولاه ويعبده، كما أمره وهداه، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾

﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ**﴾ أي ابتدأنا خلقه ﴿**مِنْ سُلاَلَةٍ**﴾ أي خلاصة ﴿**مِنْ طِينٍ**﴾ أي تراب خلط بماء فصار نباتاً فأكله إنسان فصار دماً ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً**﴾ أي بأن خلقناه منها، أو ثم جعلنا السلالة نطفة بالتصفية ﴿**فِي قَرَارٍ**﴾ أي مستقر، وهو رحم المرأة الذي نقل إليه ﴿**مَكِينٍ**﴾ أي متمكن لا يمجّ ما فيه.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾

﴿**ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً**﴾ أي بالاستحالة من بياض إلى حمرة كالدم الجامد ﴿**فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً**﴾ أي قطعة لحم بقدر ما يمضغ ﴿**فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً**﴾ أي بأن صلبناها وجعلناها عموداً للبدن، على هيئات وأوضاع مخصوصة، تقتضيها الحكمة ﴿**فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً**﴾ أي جعلناه محيطاً بها ساتراً لها كاللباس ﴿**ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً ءاخَرَ**﴾ أي بتمييز أعضائه وتصويره، وجعله في أحسن تقويم ﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ**﴾ أي تعاظم قدرة وحكمة وتصرفاً ﴿**أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ أي المقدّرين. فـ (الخلق) بمعنى التقدير كقوله:

وَلأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلقتَ وَبَعْـ ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِي

لا بمعنى الإيجاد. إذ لا خالق غيره، إلا أن يكون على الفرض.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾

﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ**﴾ أي بعد ما ذكر من الأمور العجيبة وتحصيل هذه الكمالات ﴿**لَمَيِّتُونَ**﴾ أي لصائرون إلى الموت.

قال المهايميّ: والحكيم لا يتلف ما استكمله بأنواع التكميل، ولذلك سيبعثه كما قال ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ أي من قبوركم للحساب والمجازاة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ إي سبع سموات هي طرق للملائكة والكواكب فيها مسيرها.

قال بعض علماء الفلك (في تفسير هذه الآية): أي سبعة أفلاك، للسبع سموات، لكل سماء طريق تجري بما معها من الأقمار. قال: فبذلك دلنا اللّه سبحانه بأن العالم الشمسيّ ينقسم إلى سبع طرائق، خلاف طريق الأرض الذي يعيّنه قوله تعالى ﴿فَوْقَكُمْ﴾ فالمسافة ابتداء من منتصف البعد بين الشمس وعطارد تقريباً، إلى منتهى فلك نبتون، تنقسم إلى سبعة أقسام بحسب بعد كل سيار. كل قسم تجري فيه سماء بما معها. ويسمى هذا الطريق فلكاً. ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أي عن ذلك المخلوق، الذي هو السموات، أو جميع المخلوقات. فالتعريف على الأول، عهديّ. وعلى الثاني استغراقيّ. أي ما كنا مهملين أمر الخلق، بل نحفظه وندبر أمره حتى يبلغ منتهى ما قدر له من الكمال، حسبما اقتضته الحكمة، وتعلقت به المشيئة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي بتقدير يصلون معه إلى منفعتهم. أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي جعلناه قاراً فيها، يتفجر من الأماكن التي أراد سبحانه إحياءها كقوله ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أي إزالته بالتغوير وبغيره، كما قدرنا على إنزاله. ففي تنكير (ذهاب) إيماء إلى كثرة طرقه، ومبالغة في الإبعاد به.

قال الزمخشري: فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء، ويقيّدوها بالشكر الدائم، ويخافوا نفارها، إذا لم تشكر.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾

﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿فَوَاكِهُ

كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَشَجَرَةً﴾ بالنصب عطف على (جنات) وقرئت مرفوعة على الابتداء. أي ومما أنشئ لكم شجرة **﴿تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾** وهو جبل بفلسطين، أو بين مصر وأيلة (بفتح الهمزة) محل معروف يسمى اليوم (العقبة) وهو على مراحل من مصر. قاله الشهاب و (الشجرة) شجرة الزيتون، نسبت إلى الطور لأنه مبدؤها. أو لكثرتها فيه **﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾** أي ملتبسة بالدهن المستصبح به **﴿وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ﴾** أي وبإدام يغمس فيه الخبز فـ (الصبغ) كالصباغ ما يصطبغ به من الإدام. ويختص بكل إدام مائع، يقال (صبغ اللقمة: دهنها وغمسها) وكل ما غمس فقد صبغ. كذا في (المصباح) و (التاج).

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ أي تعتبرون بحالها وتستدلون بها **﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾** أي من الألبان **﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾** أي في ظهورها وأصوافها وشعورها ونتاجها **﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾** أي بخلقه وتسخيره وإلهامه. فله الحمد.

قال الزمخشري: والقصد بالأنعام أي الإبل، لأنها هي المحمول عليها في العادة. وقرنها بالفلك التي هي السفائن، لأنها سفائن البر.

قال ذو الرمة:

* سفينةُ بَرٍّ تحت خَدِّي زِمامُهَا *

قال الشهاب: وجعلُ الإبل سفائن البر معروف مشهور. وهي استعارة لطيفة وقد تصرفوا فيها تصرفات بديعة. كقول بعض المتأخرين:

لِمَنْ شجرٌ قد أثقلَتْهَا ثمارُها   سفائنُ بَرٍّ والسَّرَابُ بحارُها

ولما بيّن تعالى دلائل التوحيد، تاثره بقصص بعثة الرسل لعلوّ كلمته، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، أَفَلاَ تَتَّقُونَ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا** ﴾ أي الداعي إلى عبادة اللّه وحده. بدعوى الرسالة منه ﴿ **إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ** ﴾ أي أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم، كقوله تعالى: ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ ﴾ [يونس: ٧٨]، ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ** ﴾ أي إرسال رسول ﴿ **لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً** ﴾ أي من السماء ﴿ **مَا سَمِعْنَا بِهَذَا** ﴾ أي بمثل ما يدعو إليه ﴿ **فِي ءَابَائِنَا الأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ** ﴾ أي لعله يرجع أو يفيق من جنته أو يتمادى فنكيد له. قال الرازيّ: واعلم أنه سبحانه ما ذكر الجواب عن شبههم هذه الخمسة، لركاكتها ووضوح فسادها. وذلك لأن كل عاقل يعلم أن الرسول لا يصير رسولاً إلا لأنه من جنس الملك. وإنما يصير كذلك بأن يتميز من غيره بالمعجزات. فسواء كان من جنس الملك أو جنس البشر، فعند ظهور المعجز عليه يجب أن يكون رسولاً. بل جعلُ الرسول من جملة البشر أولى. لما مرّ بيانه في السور المتقدمة. وهو أن الجنسية مظنة الألفة والمؤانسة. وأما قولهم ﴿ **يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ** ﴾ فإن أرادوا به إرادته لإظهار فضله، حتى يلزمهم الانقياد لطاعته، فهذا واجب على الرسول. وإن أرادوا به أن يرتفع عليهم على سبيل التجبر والتكبر والانقياد، فالأنبياء منزّهون عن ذلك. وأما قولهم ﴿ **مَا سَمِعْنَا بِهَذَا** ﴾ فهو استدلال بعدم التقليد، على عدم وجود الشيء. وهو في غاية السقوط. لأن وجود التقليد لا يدل على وجود الشيء. فعدمه من أن يدل على عدمه؟ وأما قولهم ﴿ **بِهِ جِنَّةٌ** ﴾ فقد كذبوا. لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله. وأما قولهم ﴿ **فَتَرَبَّصُوا بِهِ** ﴾ فضعيف. لأنه إن ظهرت الدلالة على نبوّته وهي المعجزة، وجب عليهم قبول قوله في الحال، ولا يجوز توقيف ذلك إلى ظهور دولته. لأن الدولة لا تدل على الحقيقة. وإن لم يظهر المعجز لم يجز قبول قوله، سواء ظهرت الدولة أو لم تظهر. ولما كانت هذه الأجوبة في نهاية الظهور، لا جرم تركها اللّه سبحانه، انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ﴿٣٠﴾

﴿ **قَالَ** ﴾ أي بعد ما أيس من إيمانهم ﴿ **رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا** ﴾ أي ملتبساً بحفظنا وكلاءتنا، لا تلحقها آفة ولا يعترضها نقص. عبر بكثرة آلة الحس التي بها يحفظ الشيء، ويراعى من الاختلال والزيغ، عن المبالغة في الحفظ والرعاية، على طريق التمثيل، وقيل: المعنى بمرأى منا ومشهد في حفظنا وكلاءتنا. بناء على أن المراد بالعين البصر، وأنه يسمى البصر عيناً لأجل أنه مما يتعلق به ويقوم به. من باب تسمية الشيء باسم محله. وباسم ما هو قائم به.

قال الإمام ابن فورك في (متشابه الحديث) - بعد حكاية نحو ما تقدم -: وقد اختلف أصحابنا فيما يثبت للّه عزّ وجلّ من الوصف له بالعين. فمنهم من قال: إن المراد به البصر والرؤية. ومنهم من قال: إن طريق إثباتها صفة للّه تعالى بالسمع. وسبيل القول فيها كسبيل القول في اليد والوجه. انتهى.

ومذهب السلف؛ أن الصفات يحتذى فيها حذو الذات، فكما أنها منزهة عن التشبيه والتمثيل والتكييف، فكذلك الصفات إثباتها منزه عن ذلك وعن التحريف والتأويل. وقوله تعالى ﴿ **وَوَحْيِنَا** ﴾ أي أمرنا وتعليمنا كيف تصنع ﴿ **فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا** ﴾ أي عذابنا ﴿ **وَفَارَ التَّنُّورُ** ﴾ كناية عن الشدة. كقولهم (حمي الوطيس). و(التنور) كانون الخبز حقيقة. وأطلقه بعضهم على وجه الأرض ومنبع الماء، للآية مجازاً ﴿ **فَاسْلُكْ فِيهَا** ﴾ أي فادخل في الفلك ﴿ **مِنْ كُلٍّ** ﴾ أي من كل أمة ﴿ **زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾ أي في الدعاء لهم بالنجاة، عند مشاهدة هلاكهم ﴿ **إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ** ﴾ أي في بحر الهلاك، كما غرقوا في بحر الضلال وظلمهم أنفسهم، بعد أن أملى لهم الدهر المتطاول ﴿ **فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للّه الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي** ﴾ أي في السفينة أو منها ﴿ **مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ** ﴾ أي لمن أنزلته منزل قربك ﴿ **إِنَّ**

﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما فعل بنوح وقومه ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي يستدل بها ويعتبر أولو الأبصار ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد. أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا، لننظر من يعتبر ويدكر. كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٥]، و(إن) مخففة على الأصح - وقيل نافية. واللام بمعنى (إلا) والجملة حالية.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ هم عاد أو ثمود. قال الشهاب: ليس في الآية تعيين لهؤلاء. لكن الأول مأثور عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأيده في (الكشف) بمجيء قصتهم بعد قصة نوح في سورة الأعراف وهود وغيرهما. وعليه أكثر المفسرين. ومن ذهب إلى أنهم ثمود قوم صالح عليه السلام، استدل بذكر الصيحة لأنهم المهلكون بها. كما صرح به في هذه السورة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ أي نعّمناهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ أي لعزة أنفسكم، بالتذلل لمثلكم ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ

﴿تُرَاباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ أي من الأجداث أحياء كما كنتم ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ تكرير لتأكيد البعد. أي بَعُدَ الوقوعُ أو الصحةُ لما توعدون من البعث ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يموت بعض ويولد بعض. لينقرض قرن ويأتي قرن آخر. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أي العقوبة الهائلة، أو صيحة ملك ﴿بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي كغثاء السيل ﴿فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي هلاكاً لهم. إخبار أو دعاء.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً ءَاخَرِينَ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي وقتها الذي عين لهلاكها ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ أي متواترين، واحداً بعد واحد ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً﴾ أي في الإهلاك ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي أخباراً يُسمر بها ويُتعجب منها. يعني أنهم فنوا ولم يبق إلا خبرهم، إن خيراً وإن شراً.

وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثاً حسناً لمن وعى

﴿فَبُعْداً لِقَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي حجة واضحة ملزمة للخصم. والمراد به الآيات نفسها. عبر عنها بذلك على طريقة العطف، تنبيهاً على جمعها لعنوانين جليلين.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي عن الانقياد وإرسال بني إسرائيل مع موسى لأرض كنعان، وتحريرهم من تلك العبودية لهم ﴿وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾ أي متمردين

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ أي المغرقين في البحر.

فائدة:

قال الزمخشريّ البشر يكون واحداً وجمعاً ﴿بَشَراً سَوِيّاً﴾ [مريم: ١٧]، ﴿لِبَشَرَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ﴾ [مريم: ٢٦]، و (مثل) و (غير) يوصف بهما الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث ﴿إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، ﴿وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، ويقال أيضاً: هما مثلاه وهم أمثاله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي قومه ﴿يَهْتَدُونَ﴾ أي إلى طريق الحق، بما فيها من الشرائع والأحكام ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً﴾ أي دلالة على قدرتنا الباهرة. لأنها ولدته من دون مسيس. فالآية أمر واحد نسب إليهما. أو المعنى: وجعلنا ابن مريم آية بما ظهر منه من الخوارق، وأمه آية بانها ولدته من غير مسيس فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها ﴿وَءَاوَيْنَاهُمَا﴾ أي جعلنا مأواهما أي منزلهما ﴿إِلَى رَبْوَةٍ﴾ أي أرض مرتفعة، ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي مستقر من أرض منبسطة مستوية. وعن قتادة: ذات ثمار وماء. يعني أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي وماء معين ظاهر جارٍ. من (معن الماء إذا جرى) أو مدرك بالعين (من عانه) إذا إدركه بعينه.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ نداء وخطاب لجميع الأنبياء باعتبار زمان كلٍّ وعهده. فدخل فيه عيسى دخولاً أوليّاً. أو يكون ابتداء كلام ذكر تنبيهاً على أن تهيئة أسباب التنعم لم تكن له خاصة. وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرع قديم. واحتجاجاً على الرهابنة في رفض الطيبات. وقوله

﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ أي عملاً صالحاً. فإنه الذي به سعادة الدارين. وقوله ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ أي ذو علم لا يخفى عليّ منها شيء. فأنا مجازيكم بجميعها، وموفيكم أجوركم وثوابكم عليها، فخذوا في صالحات الأعمال واجتهدوا.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ ﴾ أي واعلموا أن هذه ملتكم وشريعتكم التي أنتم عليها ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي ملة واحدة، وهي شريعة الإسلام. إسلام الوجه للّه تعالى بعبادته وحده. كقوله: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، (فالأمة) هنا بمعنى الملة والدين ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾ أي من غير شريك ﴿ فَاتَّقُونِ ﴾ أي فخافوا عقابي، في مفارقة الدين والجماعة. قيل: إنه اختير على قوله: ﴿ فَاعْبُدُونِ ﴾ الواقع في سورة الأنبياء، لأنه أبلغ في التخويف، لذكره بعد إهلاك الأمم، بخلاف ماثمة وهذا بناء على أنه تذييل للقصص السابقة، أو لقصة عيسى عليه الصلاة والسلام، لا ابتداء كلام. فإنه حينئذ لا يفيده. إلا أن يراد أنه وقع في الحكاية لهذه المناسبة. كذا في (العناية).

ثم قص ما وقع من أمم الرسل بعدهم من مخالفة الأمر، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً ﴾ أي جعلوا دينهم بينهم قطعاً وفرقاً منوعة ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم، فرح بباطله، مطمئن النفس، معتقد أنه على الحق ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ ﴾ أي في جهالتهم، ومشيهم مع هواهم، ونبذهم كتاب اللّه ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أي إلى وقت يستفيقون فيه من سباتهم، بظهور دين اللّه وعلو كلمته وهزم عدوه. وشبه جهالتهم بالماء الذي يغمر القامة، لأنهم مغمورون فيها.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ ﴾ أي نعطيهم إياه، ونجعله مدداً لهم ﴿ مِنْ مَالٍ وَبَنِين

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أي كلاّ. لا نفعل ذلك. بل هم لا يشعرون أصلاً. كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعور، ليتأمّلوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراج لهم واستجرار إلى زيادة الإثم. وهم يحسبونه معاجلة فيما لهم فيه إكرام. ثم بين سبحانه من له المسارعة في الخيرات من أوليائه وعباده، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

﴿إنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي من خوف عذابه حذرون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾ أي شركا جليّاً، ولا خفيّاً ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا﴾ أي يعطون ما أعطوه من الصدقات ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي خائفة ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي من رجوعهم إليه تعالى، فتخشى أن تحاسب على ما قصرت من الحقوق، أو غفلت عنه من الآداب ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي في نيل الخيرات التي من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة. كما في قوله تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧]، فقد أثبت لهم ما نفى عن أضدادهم، خلا أنه غيّر الأسلوب، حيث لم يقل ﴿أُولَئِكَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ بل أسند المسارعة إليهم، إيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم. وإيثار كلمة (في) على كلمة (إلى) للإيذان بأنهم متقلبون في فنون الخيرات. لا أنهم خارجون عنها، متوجهون إليها، بطريق المسارعة كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣] الآية أفاده أبو السعود.

﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أي إياها سابقون. أي ينالونها قبل الآخرة، حيث عجلت لهم في الدنيا، فتكون اللام لتقوية العمل. كما في قوله تعالى ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، وقيل: المراد ﴿بالْخَيْرَاتِ﴾ الطاعات. والمعنى: يرغبون في الطاعات والعبادات أشد الرغبة. وهم لأجلها فاعلون السبق، أو لأجلها سابقون الناس، والله أعلم، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾

﴿ **وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ جملة مستأنفة، سيقت للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدي إلى نيل الخيرات، ببيان سهولته، وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة. أي سنتنا جارية على ألا نكلف نفساً من النفوس إلا ما في وسعها. أو للترخيص فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين، ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده إلا ما في وسعهم. فإن لم يبلغوا في فعل الطاعات مراتب السابقين، فلا عليهم، بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم، أفاده أبو السعود،

﴿ **وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ** ﴾ وهو كتاب الأعمال. كقوله تعالى: ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩]، ﴿ **وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ بَلْ قُلُوبُهُم فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا** ﴾ أي مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين ﴿ **وَلَهُمْ أَعْمَالٌ** ﴾ أي سيئة كثيرة ﴿ **مِنْ دُونِ ذَلِكَ** ﴾ أي الذي ذكر من كون قلوبهم في غفلة، وهي فنون كفرهم ومعاصيهم ﴿ **هُمْ لَهَا عَامِلُونَ** ﴾ أي معتادون لا يزايلونها.

تنبيه:

أغرب الإمام أبو مسلم الأصفهانيّ فيما نقله عنه الرازيّ، فذهب إلى أن قوله تعالى ﴿ **بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا...** ﴾ إلى آخر الآية، من تتمة صفات المؤمنين المشفقين. كأنه سبحانه قال بعد وصفهم ﴿ **وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ ونهايته ما أتى به هؤلاء المشفقون، ولدينا كتاب يحفظ أعمالهم ينطق بالحق وهم لا يظلمون. بل نوفر عليهم ثواب كل أعمالهم، ﴿ **بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا** ﴾ هو أيضاً وصف لهم بالحيرة كأنه قال: وهم مع ذلك الوجل والخوف كالمتحيرين في جعل أعمالهم مقبولة أو مردودة، ﴿ **وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ** ﴾. أي لهم أيضاً من النوافل ووجوه البر سوى ما هم عليه. إما أعمالاً قد عملوها في الماضي أو سيعملونها في المستقبل. ثم إنه تعالى رجع.

قال الرازيّ: وقول أبي مسلم أولى لأنه إذا أمكن ردّ الكلام إلى ما يتصل به من ذكر المشفقين، كان أولى من ردّه إلى ما بعد منه، وقد يوصف المرء لشدة فكره في أمر آخرته، بأن قلبه في غمرة، ويراد أنه قد استولى عليه الفكر في قبول عمله أو ردّه، وفي أنه هل أداه كما يجب أو قصر. انتهى.

وبعدُ فإن نظم الآية الكريمة يحتمل لذلك. ولكن لم يرد وصف الغمرة في حق المؤمنين أصلاً بل لم يوصف بها إلا قلوب المجرمين، كما تراه في الآيات أولاً. فالذوق الصحيح ورعاية نظائر الآيات، يأبى ما أغرب به أبو مسلم أشد الإباء. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾

﴿**حتَّى إذَا أَخذْنَا مُتْرفِيهِمْ**﴾ أي متنعميهم ﴿**بالْعَذَاب**﴾ أي بالانتقام، مثل أخذهم يوم بدر ﴿**إذَا هُمْ يَجْأَرُونَ**﴾ أي يصرخون باستغاثة أو الآية. كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبينَ أُولِي النَّعْمَة وَمَهِّلْهُمْ قَليلاً إنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحيماً وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَليماً﴾ [المزمل: ١١-١٣]. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾

﴿**لاَ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ**﴾ أي يقال لهم تبكيتاً لهم: لا تجأروا، فإن الجؤار غير نافع لكم ﴿**إنَّكُمْ منَّا لاَ تُنصَرُونَ قَدْ كَانَتْ ءايَاتي تُتْلَى علَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابكُمْ تَنْكصُونَ**﴾ أي تعرضون عن سماعها أشد الإعراض ﴿**مُسْتَكْبرينَ به**﴾ أي بالبيت الحرام والذي سوغ الإضمار، شهرتهم بالاستكبار به، وأن لا مفخر لهم إلا أنهم قوّامه. وجوز تضمين (مستكبرين) معنى (مكذبين) والضمير للتنزيل الكريم. أي مكذبين تكذيب استكبار. ولم يذكروا احتمال إرجاع الضمير (للنكوص) إشارة إلى زيادة عتوهم، وأنهم يفتخرون بهذا الإعراض ولا يرهبون مما ينذرون به، كقوله: ﴿وَلَّى مُسْتَكْبراً﴾ [لقمان: ٧]، وليس ببعيد. فتأمل. ﴿**سَامِراً تَهْجُرُونَ**﴾ يعني أنهم يسمرون ليلاً بذكر القرآن وبالطعن فيه، وتسميته سحراً وشعراً ونحو ذلك. وهو معنى (تهجرون) من (الهجر) بالضم، وهو الفحش في القول. أو معناه تعرضون. من (الهجر) بالفتح.

تنبيه:

قال أبو البقاء: (سامراً) حال أيضاً وهو مصدر. كقولهم (قم قائماً) وقد جاء من المصادر على لفظ اسم الفاعل نحو العاقبة والعافية. وقيل: هو واحد في موضع الجميع. انتهى.

فيكون واحداً أقيم مقام الجمع. وقيل هو اسم جمع كحاج وحاضر وراكب وغائب. قال الشهاب: وعلى كونه مصدراً فيشمل القليل والكثير أيضاً، باعتبار أصله. و لكن مجيء المصدر على وزن (فاعل) نادر. وقرئ (سُمَّراً) بضم وتشديد. (سُمَّار) بزيادة ألف.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ** ﴾ أي القرآن، ليعلموا أنه الحق المبين، فيصدقوا به وبمن جاء به ﴿ **أَمْ جَاءَهُمْ مَّالَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ** ﴾ أي من الهدى والحق، فاستبدعوه واستبعدوه، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال. مع أن المجيء بما لم يعهد، لا يوجب النفرة. لأن المألوف قد يكون باطلاً، فتقتضي به الحكمة التحذير منه.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾

﴿ **أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** ﴾ أي جاحدون بما أرسل به. وهذا توبيخ آخر يشير إلى عظيم جهالتهم، بأنهم ما عرفوا شأنه ولا دروا سر ما بعث به مما يؤسف له. كما قال: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِنْ رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [يس: ٣٠]، ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ** ﴾ أي جنون، أو جن يخبلونه. وهذا توبيخ آخر، فيه تعجيب من تلونهم في الجحود، وتفننهم في العناد، ثم أشار إلى أنه لم يحملهم على ذلك إلا أنفتهم للحق كبراً وعتواً بقوله ﴿ **بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلحَقِّ كَارِهُون** ﴾ أي لما فيهم من الزيغ والانحراف.

قال القاشانيّ: ولما أبطلوا استعداداتهم وأطفأوا نورها بالرين والطبع، على مقتضى قوى النفس والطبع، واشتد احتجابهم بالغواشي الظلمانية عن نور الهدى والعقل، لم يمكنهم تدبر القول ولم يفهموا حقائق التوحيد، والعدل فنسبوه إلى الجنة ولم يعرفوه، للتقابل بين النور والظلمة، والتضادّ بين الباطل والحق، وأنكروه وكرهوا الحق الذي جاء به.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمواتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ أي ولو كان ما كرهوه من الحق الذي هو التوحيد والعدل المبعوث بهما الرسول صلوات الله عليه، موافقاً لأهوائهم المتفرقة في الباطل، الناشئة من نفوسهم الظالمة المظلمة، لفسد نظام الكون لانعدام العدل الذي قامت به السماوات والأرض، والتوحيد الذي به قوامهما فلزم فساد الكون لأن مناط النظام ليس إلا ذلك، وفيه من تنويه شأن الحق، والتنبيه على سموّ مكانه، ما لا يخفى ﴿ بلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ ﴾ إضراب عن توبيخهم بكراهته، وانتقال إلى لومهم بالنفور عما ترغب فيه كل نفس من خيرها. أي ليس هو مكروهاً بل هو عظة لهم لو اتعظوا. أو فخرهم أو متمناهم لأنهم كانوا يقولون ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات: ١٦٨-١٦٩]، ﴿ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أي بالنكوص عنه. وأعاد الذكر تفخيماً. وأضافه لهم لسبقه. وفي سورة الأنبياء ﴿ ذِكْرِ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، لاقتضاء ما قبله له ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً ﴾ أي جعلا على أداء الرسالة، فلأجل ذلك لا يؤمنون ﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾ أي عطاؤه ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّ الَّذِين لاَيُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ أي منحرفون. قال القاشانيّ: الصراط المستقيم الذي يدعوهم إليه، هو طريق التوحيد المستلزم لحصول العدالة في النفس، ووجود المحبة في القلب. وشهود الوحدة. والذين يحتجبون عن عالم النور بالظلمات، وعن القدس بالرجس، إنما هم منهمكون في الظلم والبغضاء والعداوة، والركون إلى الكثرة. فلا جرم أنهم عن الصراط ناكبون منحرفون إلى ضده. فهو في واد وهم في واد. وقال الزمخشريّ: قد ألزمهم الحجة في هذه الآيات، وقطع معاذيرهم وعللهم، بأن الذي أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله، مخبور سره وعلنه، خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم، وأنه لم يعرض له حتى يدعي بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل، ولم يجعل ذلك سلماً إلى النيل من دنياهم، واستعطاء أموالهم، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام، الذي هو الصراط المستقيم. مع إبراز المكنون من

أدوائهم، وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل، واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان، وتعللهم بأنه مجنون، بعد ظهورالحق، وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة، وكراهتهم للحق وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

قال ابن جرير: أي ولو رحمنا هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، ورفعنا عنهم ما بهم من القحط والجدب، وضر الجوع والهزال ﴿ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ يعني في عتوهم وجرأتهم على ربهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يعني يترددون. وأشار ابن كثير إلى معنى آخر فقال: يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم، بأنه لو أزاح عنهم الضر، وأفهمهم القرآن، لما انقادوا له، ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨] الآية. فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون، لو كان كيف يكون. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾.

قال ابن جرير: أي ولقد أخذنا هؤلاء المشركين بعذابنا، وأنزلنا بهم بأسنا وسخطنا، وضيقنا عليهم معايشهم، وأجدبنا بلادهم، وقتلنا سراتهم بالسيف فما استكانوا لربهم. أي فما خضعوا لربهم؛ فينقادوا لأمره ونهيه، وينيبوا إلى طاعته. وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حين أخذ الله قريشاً بسني الجدب، إذ دعا عليهم رسول الله ﷺ. وعن الحسن قال: إذا أصاب الناسَ من قبل الشيطان بلاء، فإنما هي نقمة. فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية. ولكن استقبلوها بالاستغفار، وتضرعوا إلى الله. وقرأ هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾

﴿حتَّى إذَا فتحْنَا عليْهِمْ باباً ذا عذَابٍ شدِيدٍ﴾ يعني ما نزل بهم من القتال والقتل يوم بدر، أو باب المجاعة والضر، وهو ما روي عن مجاهد واختاره ابن جرير ﴿إذَا هُمْ فيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي حزنى نادمون على ما سلف منهم، في تكذيبهم بآيات اللّه، في حين لا ينفعهم الندم والحزن. ثم أشار تعالى إلى قدرته على البعث بآياته المبصرة في الأنفس والآفاق، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾

﴿وَهُوَ الَّذي أنْشأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفئدَةَ﴾ أي لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي نعمة اللّه في ذلك، بصرفها لما خلقت له. وهو أن يدرك.

وفي كل شيءٍ لَهُ آيةٌ تَدلُّ عَلَى أَنَّهُ الواحِدُ

والقلة في الآية هذه ونظائرها، بمعنى النفي، في أسلوب التنزيل الكريم. لأن الخطاب للمشركين.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٠ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١﴾

﴿وَهُوَ الَّذي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي خلقكم وبثكم بالتناسل فيها ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي تجمعون يوم القيامة، بعد تفرقكم إلى موقف الحساب ﴿وَهُوَ الَّذي يُحْيي﴾ أي خلقه، أي يجعلهم أحياء، بعد أن كانوا نطفاً أمواتاً، ينفخ الروح فيها، بعد الأطوار التي تأتي عليها ﴿وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي بالطول والقصر. فهو متوليه ولا يقدر على تصريفهما غيره ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إن من أنشأ ذلك ابتداء من غير أصل، لا يمتنع عليه إحياء الأموات بعد فنائهم. ثم بين تعالى أنهم لم يعتبروا بآياته، ولا تدبروا ما احتج عليهم من الحجج الدالة على قدرته على فعل كل ما يشاء، بقوله: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ﴾ أي من الأمم المكذبة رسلها.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

﴿ قَالُوا أئذا متْنَا وكُنَّا تُراباً وعظاماً أئنَّا لَمبْعُوثونَ ﴾ أي أحياء، كهيئتنا قبل الممات ﴿ ولَقدْ وُعدْنَا نَحنُ وءَابَاؤُنَا هَذَا من قَبْلُ إنْ هَذا إلاَّ أساطيرُ الأوَّلين ﴾ أي ما سطروه في كتبهم، مما لا حقيقة له:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ قُلْ لمَنِ الأرْضُ ومَنْ فيهَا إنْ كُنْتُمْ تعلَمُونَ سَيقُولُونَ للَّه قُلْ أفَلاَ تذكَّرُونَ ﴾ أي فتعلمون أن من ابتدأ ذلك، قدر على إعادته.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾

﴿ قُلْ مَنْ ربُّ السَّموَاتِ السَّبْعِ وربُّ الْعرْشِ الْعظِيم سيقُولُونَ للَّه، قُلْ أفَلاَ تتَّقُونَ ﴾ أي عقابه على شرككم به، وتكذيبكم خبره وخبر رسوله.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾

﴿ قُلْ مَنْ بيَده ملَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وهُوَ يُجيرُ ﴾ أي يغيث من أراد، ممن قصد بسوء ﴿ ولاَ يُجارُ علَيْه ﴾ أي ولا أحد يمتنع ممن أراده هو بسوء، فيدفع عنه عذابه وعقابه ﴿ إن كُنْتُم تعْلَمُونَ سيَقُولُونَ للَّه قُلْ فأنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ أي تخدعون عن توحيده وطاعته، مع ظهور الأمر وتظاهر الأدلة فـ (السحر) مستعار للخديعة. وتكرير ﴿ إنْ كُنْتُمْ تعْلَمُونَ ﴾ لاستهانتهم، وتجهيلهم، لكمال ظهور الأمر.

قال في (الإكليل): قال مكيّ: في هذه الآيات دلالة على جواز محاجة الكفار والمبطلين، وإقامة الحجة وإظهار الباطل من قولهم ومذهبهم، ووجوب النظر في الحجج على من خالف في دين الله.

القول في تأويل قوله تعالى:

بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾

﴿**بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ أي في دعواهم أن له ولداً ومعه شريكاً ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ، إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ، وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾ لأنه يجب أن يتخالفا بالذات، وإلا لما تُصوِّر العدد - والمتخالفان بالذات يجب أن يتخالفا في الأفعال فيذهب كل بما خلقه، ويستبد به، ويظهر بينهم التحارب والتغالب، فيفسد نظام الكون، كما تقدم بيانه في آية ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ**﴾ أي من العذاب. أي إن كان لا بد من أن تريني. لأن (ما) و (النون) للتأكيد ﴿**رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ أي نجني من عذابهم. وفيه إيذان بكمال فظاعة ما وعدوه من العذاب، وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه من لا يمكن أن يحيق به. وردّ لإنكارهم إياه واستعجالهم به، استهزاء. وتكريرُ النداء، لإظهار زيادة الابتهال.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿**وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ**﴾ أي من العذاب ﴿**لَقَادِرُونَ**﴾ أي: وإنما نؤخره لحكمة بلوغ الكتاب أجله ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ أي بالخلة التي هي أحسن

الخلال. وهو العفو والصفح ﴿السَّيِّئَةَ﴾ يعني أذى المشركين ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي فسيرون جزاءه ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ أي وساوسهم المغْرية على الباطل والشرور والفساد، والصدّ عن الحق ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي يحضروني في حال من الأحوال ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي حتى إذا احتضر وشاهد أمارات العذاب، وعاين وحشة هيئات السيئات، تمنى الرجوع، وأظهر الندامة، ونذر العمل الصالح في الإيمان الذي ترك. وقوله تعالى ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ يعني قوله (رَبِّ ارْجِعُونِ) الخ ﴿هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي لا يجاب إليها ولا تسمع منه، يعني أنه لم يحصل إلا على الحسرة والندامة، والتلفظ بالفاظ التحسر والندم، والدعوة دون المنفعة والفائدة والإجابة. والآية نظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]، ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي حائل يحول بينهم وبين الرجعة، يلبثون فيه إلى يوم القيامة.

لطيفة:

الواو في (ارجعون) قيل لتعظيم المخاطب وهو الله تعالى، وردّه ابن مالك بأنه لا يعرف أحداً يقول (رب ارحموني، ونحوه) لما فيه من إيهام التعدد. مدفوع بأنه لايلزم من عدم صدوره عنا كذلك، ألا يطلقه الله تعالى على نفسه. كما في ضمير المتكلم. وقيل إنه لتكرير قوله (ارجعني) كما قيل في (قفا) و (أطرقا) إن أصله (قف قف) على التأكيد، وبه فسر قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤]، قال الشهاب: فيكون من باب استعارة لفظ مكان لفظ آخر لنكتة، بقطع النظر عن معناه، وهو كثير في الضمائر. كاستعمال الضمير المجرور الظاهر مكان المرفوع المستتر في (كفى به) حتى لزم انتقاله عن صفة إلى صفة أخرى، ومن لفظ إلى آخر. وما نحن فيه من هذا القبيل. فإنه غيِّر الضميران المستتران إلى ضمير مثنى ظاهر. فلزم الاكتفاء بأحد لفظي الفعل، وجعل دلالة الضمير على المثنى على تكرير الفعل، قائماً مقامه في التأكيد، من غير تجوز فيه ولابن جني في (الخصائص) كلام يدل على ماذكرناه. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي لشدة الهول من هجوم ما شغل

البال حتى زال به التعاطف والتآلف، إذ ﴿يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، ونفيُ نفع النسب، إذا دهم مثل ذلك معروف.

كما قال:

لانَسَبَ اليومَ ولاَ خُلَّةٌ اتَّسعَ الخرقُ عَلَى الراقِعِ

﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً، لعظم الفزَع وشدة مابهم من الأهوال، وذهولهم عما كان بينهم من الأحوال، فتنقطع العلائق والوُصَل التي كانت بينهم، وجليّ أن نفي التساؤل إنما هو وقت النفخ، كما دل عليه قوله ﴿فَإِذَا﴾ أي فوقت القيام من القبور وهول المطلع يشتغل كل بنفسه. وأما ما بعده فقد يقع التساؤل، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] و[الطور: ٢٥]، لأن يوم القيامة يوم ممتد. ففيه مشاهد ومواقف. فيقع في بعضها تساؤل وفي بعضها دهشة تمنع منه.

تنبيه:

روى هنا بعض المفسرين أخباراً في نفع النسب النبويّ. وحبذا لو روي شيء منها في الصحيحين، أو في مسانيد من التزم الصحة.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي رجحت حسناته **﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾** أي بتضييع ما منحت من الاستعداد لأن تربح في تجارة الكمال، بفطرة الإيمان وصالح الأعمال، ولله در القائل:

إذا كان رأسَ المال عمرُكَ، فاحترس عليه مِنَ الإنفاق في غَيْرِ واجبِ

﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي تحرقها. وتخصيص الوجوه لأنها أشرف الأعضاء. فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار **﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾** أي مشوهون، قبيحو المنظر. ويقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾

﴿**أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا**﴾ أي ملكتنا ﴿**شِقْوَتُنَا**﴾ أي التي اقترفناها بسوء اختيارنا ﴿**وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ**﴾ أي عن الحق، ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب، قال أبو السعود: وهذا، كما ترى، اعتراف منهم، بأن ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم، وأما ما قيل من أنه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الأزلية، فمع أنه باطل في نفسه، لما أنه لا يكتب عليهم من السعادة والشقاوة إلا ما علم الله تعالى أنهم يفعلونه باختيارهم، ضرورة أن العلم تابع للمعلوم – يردّه قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾

﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ**﴾ أي أخرجنا من النار، وارجعنا إلى الدنيا. فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصي، فإنا متجاوزون الحدّ في الظلم. ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورون على ما صدر عنهم، لما سألوا الرجعة إلى الدنيا، ولما وعدوا الإيمان والطاعة ﴿**قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا**﴾ أي ذلوا فيها كخسء الكلاب ﴿**وَلاَ تُكَلِّمُونِ**﴾ أي في رفع العذاب، فإنه لا يرفع ولا يخفف. ثم أشار إلى علة ذلك بقوله تعالى ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي**﴾ وهم المؤمنون ﴿**يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ**﴾ أي بتشاغلكم بهم على تلك الصفة ﴿**ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ**﴾.

ثم أشار تعالى لبيان حسن حالهم، وأنهم انتفعوا بما آذوهم، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾

﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون قال﴾ أي الله أو الملَك المأمور بسؤالهم ﴿كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسئل العادين قال إن لبثتم إلا قليلاً، لو أنكم كنتم تعلمون﴾ أي شيئاً ما. أو لو كنتم من أهل العلم. والجواب محذوف، ثقة بدلالة ما سبق عليه. أي لعلمتم يومئذ قلة لبثكم فيها، كما علمتم اليوم. ولعملتم بموجبه ولم تخلدوا إليها.

قال الرازيّ: الغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ، فقد كانوا ينكرون اللبث في الآخرة أصلاً، ولا يعدون اللبث إلا في دار الدنيا. ويظنون أن بعد الموت يدوم الفناء، ولا إعادة. فلما حصلوا في النار وأيقنوا أنها دائمة وهم فيها مخلدون، سألهم: كم لبثتم في الإرض؟ تنبيهاً لهم على أن ما ظنوه دائماً طويلاً، فهو يسير، بالإضافة إلى ما أنكروه. فحينئذ تحصل لهم الحسرة على ما كانوا يعتقدونه في الدنيا. من حيث أيقنوا خلافه. فليس الغرض مجرد السؤال، بل ما ذكر.

قال الزمخشريّ: استقصروا مدة لبثهم في الدنيا، بالإضافة إلى خلودهم، ولما هم فيه من عذابها. لأن الممتحَن يستطيل أيام محنته، ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة إليها. أو لأنهم كانوا في سرور. وأيام السرور قصار، أو لأن المنقضي في حكم ما لم يكن، وصدّقهم الله في تقالِّهم لسني لبثهم في الدنيا، و وبخهم على غفلتهم التي كانوا عليها. وقرئ ﴿فسَلِ العادِّين﴾ والمعنى: لا نعرف من عدد تلك السنين، إلا أنا نستقله ونحسبه يوماً أو بعض يوم. لما نحن فيه من العذاب، وما فينا أن نعدها، فسل من فيه أن يعدّ، ويقدر أن يلقى إليه فكره. وقيل: فسل الملائكة الذين يعدون اعمار العباد ويحصون أعمالهم. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ أي بغير حكمة، حتى أنكرتم البعث ﴿وأنكم إلينا لاترجعون﴾ أي للجزاء ﴿فتعالى الله﴾ أي تعاظم عما تصفون، لأنه ﴿الملك الحقّ﴾ أي المتصرف وحده، الذي قصد بالخلق معرفته وعبادته. والذي لا يترك الجزاء بل يحق الحق ﴿لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ أي العظيم المجيد. وقرئ

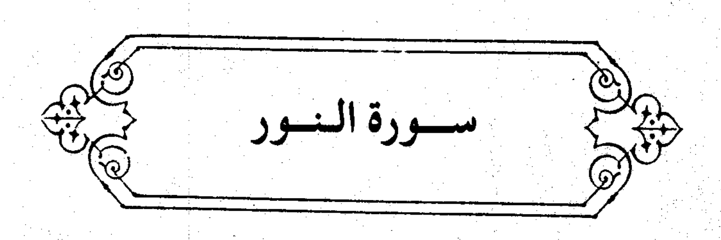
بالرفع ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ قال ابن جرير: أي: ومن يدع مع المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، معبوداً آخر لاحجة له بما يقول ولا بينة. فإنما حساب عمله السيِّء عند ربه. وهو موفيه جزاءه إذا قدم عليه. فإنه لا ينجح أهل الكفر بالله، عنده، ولا يدركون الخلود والبقاء في النعيم، قال الزمخشريّ: وقوله ﴿لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ كقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ [آل عمران: ١٥١]، وهي صفة لازمة، نحو قوله ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، جيء بها للتوكيد، لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان. ويجوز أن يكون اعتراضاً بين الشرط والجزاء. كقولك (من أحسن إلى زيد – لا أحق بالإحسان منه – فالله مثيبه).

قال في (الانتصاف): إن كان صفة، فالمقصود بها التهكم بمدعي إله مع الله، كقوله ﴿بَلْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ [آل عمران: ١٥١]، فنفى إنزال السلطان به، وإن لم يكن في نفس الأمر سلطان، لا منزل ولا غير منزل.

وقال الرازيّ: نبه تعالى بالآية، على أن كل ما لا برهان فيه، لا يجوز إثباته، وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد. انتهى.

ثم أمر تعالى نبيّه بالابتهال إليه واستغفاره والثناء عليه، بقوله ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي خير من رحم ذا ذنب، فقبل توبته.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة النور

سميت به لاشتمالها على ما أمكن من بيان النور الإلهيّ، بالتمثيل المفيد كمال المعرفة الممكنة لنوع الإنسان، مع مقدماتها، وهي أعظم مقاصد القرآن – قاله المهايميّ، وهي مدنية. وقال القرطبيّ: إن آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ﴾ [النور: ٥٨]، الخ مكية وهي أربع وستون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾

﴿**سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا**﴾ خبر محذوف. أي هذه السورة. والتنكير للتفخيم ﴿**وَفَرَضْنَاهَا**﴾ أي أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً ﴿**وَأَنْزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ أي تتذكرونها فتعملون بموجبها. قال الإمام ابن تيمية رحمه الله، في تفسير هذه الآيات: هذه السورة فرضها تعالى بالبينات والتقدير والحدود، التي من يتعد حلالها إلى الحرام فقد ظلم نفسه. ومن قرب من حرامها فقد اعتدى وتعدى الحدود. وبيّن فيها فرض العقوبة وآية الجلد وفريضة الشهادة على الزنى وفريضة شهادة المتلاعنيْن. كل منهما يشهد أربع شهادات بالله. ونهى فيها عن تعدي حدود الله في الفروج والأعراض والعورات وطاعة ذي السلطان. سواء كان في منزله أو ولايته. ولا يخرج ولا يدخل إلا بإذنه. إذ الحقوق نوعان: نوع لله فلا يتعدى حدوده، ونوع للعبادة فيه أمر فلا يفعل إلا بإذن المالك، فليس لأحد أن يفعل شيئاً في حق غيره إلا بإذن الله. وإن لم يأذن المالك، فإذن الله هو الأصل، وإذن المالك حيث أذن الله وجعل له الإذن فيه. ولهذا ضمنها الاستئذان في المساكن والمطاعم وفي الأمور الجامعة. كالصلاة والجهاد ونحوهما. ووسطها بذكر النور الذي هو مادة كل خير وصلاح كل شيء. وهو ينشأ عن امتثال أمر الله واجتناب نهيه، وعن الصبر على ذلك، فإنه ضياء. فإن حفظ الحدود بتقوى الله، يجعل لصاحبه نوراً. كما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نوراً تَمْشُونَ بِهِ...﴾ [الحديد: ٢٨] الآية. فضدّ النور الظلمة، ولهذا عقب ذكر النور وأعمال لمؤمنين بأعمال الكفار. وأهل البدع والضلال. فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ [النور:٣٩] الآية، إلى قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ...﴾ [النور: ٤٠] الآية، وكذلك الظلم ظلمات يوم القيامة. وظلم العبد نفسه ن الظلم. فإن للسيئة ظلمة في القلب، وسواداً في الوجه، ووهناً في البدن، ونقصاً

في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق. كما روي ذلك عن ابن عباس، يوضحه أن الله ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور، وأعمال الكفار بالظلمة. والإيمان اسم جامع لكل ما يحبه الله. والكفر اسم جامع لكل ما يبغضه، وإن كان لا يكفر العبد إذا كان معه أصل الإيمان وبعض فروع الكفر من المعاصي. كما لا يصير مؤمناً إذا كان معه بعض فروع الإيمان. ولغضّ البصر اختصاص بالنور كما في حديث أبي هريرة الذي صححه الترمذيّ[١]: إن العبد إذا أذنب.. الحديث. وفيه: فذلك الرّان الذي ذكر الله. وفي الصحيح[٢]: إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة. والغين حجاب رقيق أرقّ من الغيم، فأخبر أنه يستغفر ليزيل الغين، فلا يكون نكتة سوداء. كما أنها إذا أزيلت لا تصير ريناً. وقال حذيفة: إن الإيمان يبدو في القلب لمظة بيضاء. فكلما ازداد العبد إيماناً، ازداد قلبه بياضاً، وفي خطبة الإمام أحمد، في الرد على الزنادقة: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى. يُحيون بكتاب الله الموتى، ويبصّرون بنور الله أهل العمى.. الخ. وقد قرن الله سبحانه بين الهدى والضلال بما يشبه هذا. كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٠]، وقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤]، وقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ [البقرة: ١٧] الآيات، وهذا النور الذي يكون للمؤمن في الدنيا على حسن عمله واعتقاده، يظهر في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ..﴾ [الحديد: ١٢-١٥] الآية، فذكر النور هنا عقيب أمره بالتوبة، كما في سورة النور عقيب أمره بغض البصر والتوبة. وذكر ذلك بعد أمره بحقوق الأهلين والأزواج وما يتعلق بالنساء. وقال في سورة الحديد ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرِ﴾ [الحديد: ١٢-١٥]، فأخبر سبحانه أن المنافقين يفقدون النور الذي كان المؤمنون يمشون به، ويطلبون الاقتباس من نورهم، فيحجبون عن ذلك بحجاب يضرب بينهم. كما أنهم في الدنيا لما فقدوا النور ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ [البقرة: ١٧] الآية. وقوله تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٨٣- سورة المطففين، حدثنا قتيبة، حدثنا الليث.
(٢) أخرجه مسلم في: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٤١.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ شروع في تفصيل ما ذكر من الآيات البينات وبيان أحكامها. أي كل من زنى من الرجال والنساء، فأقيموا عليه هذا الحد. وهو أن يجلد، أي يضرب على جلده مائة جلدة، عقوبة لما صنع ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي رقة ورحمة في طاعته فيما أمركم به، من إقامة الحد عليهما، على ما ألزمكم به ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي تصدقون بالله ربكم وباليوم الآخر، وأنكم مبعوثون لحشر القيامة وللثواب والعقاب. فإن من كان بذلك مصدقاً، فإنه لا يخالف الله في أمره ونهيه، خوف عقابه على معاصيه ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وليحضر جلدهما طائفة من أهل الإيمان بالله ورسوله، قال ابن جرير: العرب تسمي الواحد فما زاد طائفة.

قال ابن تيمية عليه الرحمة: فأمر تعالى بعقوبتهما بحضور طائفة من المؤمنين. وذلك بشهادته على نفسه أو شهادة المؤمنين عليه. لأن المعصية إذا ظهرت كانت عقوبتها ظاهرة. كما في الأثر: (من أذنب سراً فليتب سراً. ومن أذنب علانية فليتب علانية) وليس من الستر الذي يحبه الله، كما في الحديث (إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها. فإذا أعلنت ولم تنكر، ضرت العامة) فإذا أعلنت أعلنت عقوبتها بحسب العدل الممكن. ولهذا لم يكن للمعلن بالبدع والفجور غيبة. كما روي عن الحسن وغيره، لأنه لما أعلن استحق العقوبة. وأدناها أن يذم عليها لينزجر ويكف الناس عنه وعن مخالطته. ولو لم يذكر إلا بما فيه لا غتر به الناس. فإذا ذكر انكف وانكف غيره عن ذلك وعن صحبته. قال الحسن: أترغبون عن ذكر الفاجر؟ اذكروا بما فيه كي يحذره الناس. و(الفجور) اسم جامع لكل متجاهر بمعصية أو كلام قبيح، يدل السامع له على فجور قلب قائله. ولهذا استحق الهجرة، إذا أعلن ببدعة أو معصية، أو فجور أو تهتك أو مخالطة لمن هذا حاله. بهذا لا يبالي بطعن الناس عليه. فإن هجره نوع تعزير له. فإذا أعلن السيئات، أُعْلِنَ هجره، وإذا أسر أُسرَّ هجره، إذ الهجرة هي الهجرة على السيئات وهجرة السيئات، كقوله ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]، وقوله: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جميلاً﴾ [المزمل: ١٠]، وقوله: ﴿فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء:

٤٠]، وقد روي عن عمر؛ أن ابنه عبد الرحمن لما شرب الخمر بمصر وذهب به أخوه إلى أميرها عمرو بن العاص ليحده، جلده سراً، فبعث إليه عمر ينكر عليه. ولم يعتدّ بذلك حتى أرسل إلى ابنه، فأقدمه المدينة وجلده علانية، وعاش ابنه مدة ثم مرض ثم مات ولم يمت من الجلد، ولا ضربه بعد الموت، كما يزعمه الكذابون.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ نهى تعالى عما يأمر به الشيطان في العقوبات عموماً وفي الفواحش خصوصاً. فإن هذا الباب مبناه على المحبة والشهوة، والرأفة التي يزينها الشيطان بانعطاف القلوب على أهل الفواحش، حتى يدخل كثير من الناس بسبب هذه الآفة في الدياثة، إذا رأى من يهوى بعض المتصلين به، أو يعاشره عشرة منكرة ولو كان ولده، رقّ به وظن أن هذا من رحمة الخلق. وإنما ذلك دياثة ومهانة وعدم دين وإعانة على الإثم والعدوان. وترك للتناهي عن المنكر. وتدخل النفس به في القيادة التي هي أعظم من الدياثة كما دخلت عجوز السوء مع قومها، في استحسان ما كانوا يتعاطونه من إتيان الذكران والمعاونة لهم على ذلك، وكانت في الظاهر مسلمة على دين زوجها لوط، وفي الباطن منافقة على دين قومها. لا تقلي عملهم كما قلاه لوط. وكما فعل النسوة بيوسف. فإنهن أعنّ امرأة العزيز على ما دعته إلى من فعل الفاحشة معها ولهذا قال ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وذلك بعد قولهن ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ ولا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب. فإن الشهوة توجب السكر كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وفي الصحيحين[١] ومن حديث أبي هريرة (العينان تزنيان) الخ فكثير من الناس يكون مقصوده بعض هذه الأنواع كالنظر والاستمتاع والمخاطبة. ومنهم من يرتقي إلى المس والمباشرة. ومنهم من يقبل وينظر. وكل ذلك حرام. وقد نهانا الله سبحانه أن تأخذنا بالزناة رأفة، بل نقيم عليهم الحد، فكيف بما دونه من هجر؟ ونهي وتوبيخ وغير ذلك؟ بل ينبغي شنآن الفاسقين وقِلاَهم على ما يتمتع به الإنسان من أنواع الزنى المذكورة في الحديث. والمحب، وإن كان يحب النظر والاستمتاع بصورة المحبوب وكلامه، فليس دواؤه في ذلك، لأنه مريض. والمريض إذا اشتهى ما يضره أو جزع من تناول الدواء الكريه، فأخذتنا به رأفة، فقد أعناه على ما يهلكه ويضره وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، أي فيها الشفاء والبرء

---

(١) أخرجه أبو هريرة في: الاستئذان، ١٢- باب زنى الجوارح دون الفرج، حديث ٢٣٧٢.

من ذلك. بل الرأفة به أن يعان على شرب الدواء وإن كان كريهاً، مثل الصلاة وما فيها من الأذكار والدعوات وأن يحمى عما يزيد علته. ولا يظن أنه إذا استمتع بمحرم يسكن بلاؤه. بل ذلك يوجب له زيادة في البلاء. فإنه وإن سكن ما به عقيب استمتاعه، أعقبه ذلك مرضاً عظيماً لا يتخلص منه، بل الواجب دفع أعظم الضررين باحتمال أدناهما قبل استحكام الداء. ومن المعلوم أن ألم العلاج النافع أيسر من ألم المرض الباقي. وبهذا يتبين أن العقوبات الشرعية أدوية نافعة. وهي من رأفة الله بعباده، الداخلة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فمن ترك هذه الرحمة النافعة، لرأفة بالمريض، فهو الذي أعان على عذابه، وإن كان لا يريد إلا الخير، إذ هو في ذلك جاهل أحمق، كما يفعله بعض النساء بمرضاهن وبمن يربينهن من أولادهن في ترك تأديبهم على ما يأتونه من الشر ويتركونه من الخير. ومن الناس من تأخذه الرأفة بهم لمشاركته لهم في ذلك المرض وبرودة القلب والدياثة. وهو في ذلك من أظلم الناس وأديثهم في حق نفسه ونظرائه. وهو بمنزلة جماعة مرضى قد وصف لهم الطبيب ما ينفعهم، فوجد كبيرهم مرارته، فترك شربه. ونهى عن سقيه للباقين. ومنهم من تأخذه الرأفة لكون أحد الزانيين محبوباً له. إما لقرابة أو مودة أو إحسان، أو لما يرجوه منه، أو لما في العذاب من الألم الذي يوجب رقة القلب. ويتأوّل[١] (إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ) وليس كما قال. بل ذلك وضع الشيء في غير موضعه. بل قد ورد[٢] (لاَ يدخل الجنة ديوث) فمن لم يكن مبغضاً للفواحش كارهاً لها ولأهلها، ولا يغضب عند رؤيتها وسماعها، لم يكن مريداً للعقوبة عليها. فيبقى العذاب عليها يوجب ألم قلبه، قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ**﴾ الآية. في دين الله هو طاعته وطاعة رسوله. المبنيّ على محبته ومحبة رسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. فإن الرأفة والرحمة يحبهما الله ما لم تكن مضيعة لدين الله. فالرحمة مأمور بها بخلاف الرأفة في دين الله. والشيطان يريد من الإنسان الإسراف في أموره كلها. فإنه إن رآه مائلاً إلى الرحمة، زيّن له الرحمة حتى لا يبغض ما أبغضه الله، ولا يغار. وإن رآه مائلاً إلى الشدة، زيّن له الشدة في غير ذات الله، فيزيد في الذم والبغض والعقاب على ما

---

(١) أخرجه البخاري في: الجنائز، ٣٣- باب قول النبي ﷺ: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه»، حديث رقم ٦٨٢، عن أسامة بن زيد.

(٢) أخرجه النسائي في: الزكاة، ٦٩- باب المنان بما أعطى، عن ابن عمر، ونصه: ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة، والديوث.. الخ.

يحبه. ويترك من اللين والصلة والإحسان والبر ما يأمر اللّه به. فالأول مذنب والثاني مسرف. فليقولا جميعاً ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ [آل عمران:١٤٧]، الآية. وقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ فالمؤمن بذلك يفعل ما يحبه اللّه، وينهى عما يبغضه اللّه. ومن لم يؤمن باللّه واليوم الآخر فإنه يتبع هواه.، فتارة تغلب عليه الشدة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللّهِ﴾ [القصص:٥٠]، والنظر والمباشرة، وإن كان بعضه من اللمم، فإن دوام ذلك وما يتصل به، من المعاشرة والمباشرة قد تكون أعظم بكثير من فساد زنى لاإصرار فيه. بل قد ينتهي النظر والمباشرة بالرجل إلى الشرك. كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية. ولهذا لا يكون عشق الصور إلا من ضعف محبة اللّه وضعف الإيمان. واللّه تعالى إنما ذكره عن امرأة العزيز المشركة وعن قوم لوط. وقد جمع النبيّ ﷺ الحدود فيما رواه أبو داود من حديث ابن عمر[1](من حالت شفاعته دون حد من حدود اللّه، فقد ضادّ اللّه في أمره. ومن خاصم في باطل، وهو يعلم، لم يزل في سخط للّه حتى ينزع ومن قال في مسلم ما ليس فيه، حبس في ردعة الخبال حتى يخرج مما قال). فالشافع في الحدود مضادٌّ للّه في أمره. فلا يجوز أن يأخذ المؤمن رأفة بأهل البدع والفجور والمعاصي، وجماع ذلك كله قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، وقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، فإن هذه الكبائر كلها من شعب الكفر كما في الصحاح[2](لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) الخ. ففيهم من نقص الإيمان ما يوجب زوال الرأفة بهم. ولا منافاة بين كون الواحد يحب من وجه ويبغض من وجه، ويثاب من وجه ويعاقب من وجه. خلافاً للخوارج والمعتزلة. ولهذا جاء في السنة أن من أقيم عليه الحد، يرحم من وجه آخر، فيحسن إليه ويدعى له. وهذا الجانب أغلب في الشريعة، كما في صفة الرب سبحانه وتعالى. ففي الصحيح[3] (إن رحمتي تغلب غضبي) وقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

---

(١) أخرجه أبو داود في: ٢٣- الأقضية، ١٤- باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها، حديث رقم ٣٥٩٧.

(٢) أخرجه البخاري في: المظالم والغصب، ٣٠- باب النهي بغير إذن صاحبه، حديث رقم ١٢٢٠، عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري في: التوحيد، ٥٥- باب قول اللّه تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾، حديث ١٥٠٩، عن أبي هريرة.

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، وقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨]، فجعل الرحمة صفة مذكورة في أسمائه. وأما العذاب والعقاب فجعلهما من مفعولاته. ومن هذا ما أمر اللّه تعالى به من الغلظة على الكفار والمنافقين. وقال تعالى: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَمِنْ نِسَائِكُمْ﴾[النساء:١٥] الآية، وفي الحديث[١] بيان السبيل الذي جعله اللّه لهن وهو جلد مائة وتغريب عام في البكر، وفي الثيب الرجم لكن الذي في الحديث الجلد والنفي للبكر من الرجال وأما الآية ففيها ذكر الإمساك في البيوت للنساء إلى الموت، والسبيل للنساء خاصة. ومن الفقهاء من لا يوجب مع الحد تغريباً،ومنهم من يفرق بين الرجل والمرأة. كما أن أكثرهم لا يوجبون الجلد مع الرجم. ومنهم من يوجبهما جميعاً. كما[٢] فعل بشراحة الهمْدَانية، حيث جلدها ثم رجمها. وقال: جلدتها بكتاب اللّه ورجمتها بسنة نبيّه. رواه البخاريّ. واللّه سبحانه ذكر في سورة النساء ما يختص بهن من العقوبة. ثم ذكر ما يعم الصنفين فقال: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ [النساء: ١٦]، فإن الأذى يتناول الصنفين. وأما الإمساك فيختص بالنساء، لأن المرأة يجب أن تصان بما لا يجب مثله في الرجل ولهذا خصت بالاحتجاب وترك الزينة وترك التبرج، لأن ظهورها يسبب الفتنة، والرجال قوامون عليهن، وقوله: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ [النساء:١٥]، دل على شيئين: على نصاب الشهادة وعلى أن الشهداء على نسائنا منا. وهذا لا نزاع فيه. وأما شهادة الكفار بعضهم على بعض ففيها روايتان عن أحمد. الثانية أنها تقبل. اختارها أبو الخطاب. وهو قول أبي حنيفة. وهو أشبه بالكتاب والسنة. وقوله ﷺ: (لا تجوز شهادة أهل ملة على ملة، إلا أمتي) فمفهومه جواز شهادة أهل الملة الواحدة بعضهم على بعض. ولكن فيه: أن المؤمنين تقبل شهادتهم على من سواهم، لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]، وفي آخر الحج مثلها وفي البخاريّ[٣] من حديث أبي سعيد (يدعى نوح) الحديث. وكذلك فيهما[٤] من حديث أنس، شهادتهم على

---

(١) أخرجه مسلم في: الحدود، حديث ١٢.

(٢) أخرجه البخاري في: الحدود، ٢١- باب رجم المحصن، حديث رقم ٢٥١٣.

(٣) أخرجه البخاري في: الأنبياء، ٣- باب قول اللّه عز وجل: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ حديث رقم ١٥٧٨ .

(٤) أخرجه البخاري في: الجنائز، ٨٦- باب ثناء الناس على الميت، حديث رقم ٧٢٣.
وأخرجه مسلم في: الجنائز، حديث ٦٠.

الجنازتين خيراً وشراً، فقال (أنتم شهداء اللّه في أرضه) الحديث. ولهذا، لما كان أهل السنة والجماعة لم يشوبوا الإسلام بغيره، كانت شهادتهم مقبولة على سائر فرق الأمة، بخلاف أهل البدع والأهواء، كالخوارج والروافض، فإن بينهم من العداوة والظلم ما يخرجهم عن هذه الحقية التي جعلها اللّه لأهل السنة، قال فيهم (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) واستدل من جوّز شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض بهذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٦] الآية، قالوا: دلت على قبول شهادتهم على المسلمين. ففيه تنبيه على قبول شهادة بعضهم على بعض بطريق الأولْى. ثم نسخُ الظاهر لا يوجب نسخ الفحوى، والتنبيه على الأقوى. كما نص عليه أحمد وغيره من أئمة الحديث الموافقين للسلف. ولهذا يجوز في الشهادة للضرورة ما لا يجوز في غيرها. كما تقبل شهادة النساء فيما لا يطلع عليه الرجال. حتى نص أحمد على قبول شهادتين في الحدود التي تكون في مجامعهن الخاصة. فالكفار الذي لا يختلط بهم المسلمون أولى، واللّه أمرنا أن نحكم بينهم، والنبيّ ﷺ[1] رجم الزانيْين من اليهود، ومن غير سماع إقرار منهم ولا شهادة مسلم. ولولا قبول شهادة بعضهم على بعض لم يجز ذلك. وفي تولي بعضهم مال بعضٍ، نزاع، فهل يتولى الكافر العدل في دينه، مالَ ولده الكافر؟ على قولين والصواب المقطوع به أن بعضهم أولى ببعض وقد مضت السنة بذلك وسنة خلفائه. وقوله تعالى: ﴿ فَآذُوهُمَا ﴾ أمر بالأذى مطلقاً، ولم يذكر صفته ولا قدره. ولفظ (الأذى) يستعمل في الأقوال كثيراً. كقوله ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى ﴾ [آل عمران: ١١١]، والإعراض هو الإمساك عن الإيذاء. فالمذنب لا يزال يؤذي وينهى ويوبخ إلا أن يتوب. وأدنى ذلك هجره. فلا يكلم بالكلام الطيب. وهذه محكمة فمن أتى الفاحشة وجب إيذاؤه بالكلام الزاجر إلى أن يتوب. وليس ذلك محدوداً بقدر ولا صفة. إلا ما يكون زاجراً له داعياً إلى حصول المقصود، وهو توبته وصلاحه. وعلّقه تعالى على التوبة والإصلاح، فإذا لم يوجدا، فلا يجوز أن يكون الأمر بالإعراض موجوداً. فأما من تاب بترك الفاحشة ولم يصلح، فتنازعوا: هل من شرط التوبة صلاح العمل؟ على قولين. وهذه تشبه قوله ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٥]، فعلق تخلية سبيلهم على التوبة والعمل الصالح. مع أنهم إذا تكلموا بالشهادتين وجب الكفّ

---

(١) أخرجه البخاري في: الحدود، ٢٤- باب الرجم في البلاط، حديث رقم ٧٠٤، عن ابن عمر.

عنهم. ثم إن صلوا وزكوا، وإلا عوقبوا على ترك الفعل. لأن الشارع في التوبة شرع الكف عن أذاه. ويكون الأمر فيه موقوفاً على التمام. وكذلك التائب من الفاحشة. وهذه الآية مما يستدل به على التعزير بالأذى. والأذى، وإن كان كثيراً يستعمل في الكلام، فليس مختصاً به. كقوله لمن بصق في القبلة[١] (إنك قد آذيت الله ورسوله) وكذا قوله في حق فاطمة[٢] (ويؤذيني ما آذاها) وقوله[٣] لمن أكل البصل (إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم) وهل يكون من توبته اعترافه بالذنب؟ فإذا ثبت الذنب بإقراره فجحد وكذب الشهود أو ثبت بشهادة شهود. فيه نزاع. فذكر أحمد أنه لا توبة لمن جحد. واستدل بقصة عليّ بن أبي طالب: أنه أتى بجماعة ممن شهد عليهم بالزندقة، فاعترف منهم ناس فتابوا. فقبل توبتهم. وجحد جماعة فقتلهم. وقال ﷺ لعائشة[٤] (فإن العبد إذا اعترف ثم تاب، تاب الله عليه) فمن أذنب سراً فليتب سراً، كما في الحديث[٥] (ومن ابتلي بشيء من هذه القاذروات فليستتر) الخ، وفي الصحيح[٦] (كل أمتي معافى إلا المجاهرون) الحديث. فإذا ظهر من العبد الذنب فلا بد من ظهور التوبة. ومع الجحود لا تظهر التوبة. فإن الجاحد يزعم أنه غير مذنب. ولهذا كان السلف يستعملون ذلك فيمن أظهر بدعة أو فجوراً، فإن هذا أظهر حال الضالين، وهذا أظهر حال المغضوب عليهم. ومن أذاه منعه، مع القدرة، من الإمامة والحكم والفتيا والرواية والشهادة. وأما بدون القدرة، فليفعل المقدور عليه. ولم يعلق الأذية على استشهاد أربعة، وليس هذا من حمل المطلق على المقيد. لأن ذلك لا بد أن يكون فيه الحكم واحداً، مثل الإعتاق. فإذا كان متفقاً في الجنس دون النوع كإطلاق الأيدي في التيمم، وتقييدها إلى المرافق في الوضوء، فلا يحمل. ولم يحمل الصحابة والتابعون المطلق على المقيد في قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ

---

(١) أخرجه أبو داود في: الصلاة، ٢٢- باب في كراهية البزاق في المسجد، حديث رقم ٤٨١ عن أبي سهلة الشائب بن خلاّد.

(٢) أخرجه البخاري في: النكاح، ١٠٩- باب ذب الرجل عن ابنته في الغيرة والإنصاف، حديث رقم ٥٣٨ عن المسور بن مخرمة.

(٣) أخرجه مسلم في: المساجد، حديث رقم ٧٤.

(٤) أخرجه البخاري في: المغازي، ٣٤- باب حديث الإفك، حديث ١٢٦٦، عن عائشة.

(٥) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في: الحدود، رقم١٢، عن زيد بن أسلم.

(٦) أخرجه البخاري في، الأدب، ٦٠- باب ستر المؤمن على نفسه، حديث قم ٢٣٣٥، عن أبي هريرة.

نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، قالوا: الشرط في الربائب خاصة. قالوا: أبهموا ما أبهم الله. والمبهم هو المطلق. والمشروط فيه هو المقيد. لكن تنازعوا: هل الموت كالدخول؟ على قولين. وذلك لأن الحكم مختلف، والقيد ليس متساوياً في الأعيان. فإن تحريم جنس، ليس مثل تحريم جنس يخالفه. كما أن تحريم الدم والميتة ولحم الخنزير، لما كان أجناساً، فليس تقييد الدم بالمسفوح موجباً تقييد الميتة والخنزير أن يكون مسفوحاً. وهنا القيد قيد الربيبة بدخول أمها. والدخول بالأم لا يوجد مثله في حليلة الأب وأم المرأة. إذ بالدخول في الحليلة، بها نفسها. وفي أم المرأة ببنتها. وكذلك المسلمون لم يحملوا المطلق على المقيد في نصاب الشهادة. بل لما ذكر الله في آية الدّين ﴿رَجُلاً وَامْرَأَتَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وفي الرجعة ﴿رَجُلَيْنِ﴾ [الطلاق: ٢]، أقروا كلاً منهما على حاله. لأن سبب الحكم مختلف وهو المال والبضع. كما أن إقامة الحد في الفاحشة والقذف بها اعتبر فيه أربعة، فلا يقاس بذلك عقود الأثمان والأبضاع، وذكر في حد القذف ثلاثة أحكام: جلد ثمانين، وترك قبول شهادتهم أبداً، ﴿وأنهم فاسقون، إلا الذين تابوا﴾ [النور: ٤ – ٥] الآية. والتوبة لا ترفع الجلد إذا طلبه المقذوف، وترفع الفسق بلا تردد. والأكثر قالوا: ترفع المنع من قبول الشهادة. وإذا اشتهر عن شخص الفاحشة لم يرجم، كما في الصحيح[1] (إن جاءت به يشبه الزوج فقد كذب عليها وإن جاءت به يشبه الرجل الذي رماها به، فقد صدق عليها) فجاءت به على النعت المكروه. فقال النبيّ ﷺ (لولا الأيمان لكان لي ولها شأن) فقيل لابن عباس: هذه التي قال فيها (لوكنت راجماً أحداً بغير بينة لرجمتها) فقال: لا. تلك امرأة كانت تعلن السوء في الإسلام فقد أخبر أنه لا يرجم أحداً إلا ببينة، ولو ظهر على الشخص السوء. ودل الحديث على أن الشبه له تأثير في ذلك، ولم تكن بينة. وكذلك ثبت عنه في الجنازة لما أثنوا عليها شرّاً، والأخرى خيراً. فقال (أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللّهِ فِي أَرْضِه) وفي المسند عنه[2] أنه قال (يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ) قالوا يارسول الله! وبم ذاك؟ قال بالثناء الحسن وبالثناء السيّء فقد جعل الاستفاضة حجة وبينة في هذه الأحكام. ولم يجعلها حجة في الرجم. وكذلك تقبل شهادة أهل الكتاب على المسلمين في

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٢٤- سورة النور، ٣- باب ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، حديث رقم ١٢٩٦، عن ابن عباس.

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣/٤١٦.

الوصية في السفر. وكذلك تقبل شهادة الصبيان في الجراح إذا أدّوها قبل التفرق، في إحدى الروايتين. وإذا شهد شاهد أنه رأى الرجل والمرأة أو الصبي في لحاف، أو بيت مرحاض، أو محلولي السراويل، ويوجد مع ذلك ما يدل على ذلك، من وجود اللحاف فقد خرج عن العادة إلى مكانهما أو يكون مع أحدهما أو معهما ضوء قد أظهره، فرآه فاطفأه فإن إطفاءه دليل على استخفائه بما يفعل. فإن لم يكن ما يستخفي به إلا ما شهد به الشاهد، كان ذلك من أعظم البيان على ما شهد به فهذا باب عظيم النفع في الدين. وهو مما جاءت الشريعة التي أهملها كثير من القضاة والمتفقهة، زاعمين أنه لا يعاقب أحد إلا بشهود عاينوا، أو إقرار مسموع. وهذا خلاف ما تواترات به السنّة وسنة الخلفاء الراشدين. وما فطرت عليه القلوب التي تعرف المعروف وتنكر المنكر. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية. ففيها دلالات: إحداها أنه لم يأمر بالتبين عند مجيء كل فاسق بكل نبأ؛ إذ من الأنباء ما ينهى فيه عن التبين. ومنه ما يباح فيه ترك التبين. ومن الأنباء ما يتضمن العقوبة لبعض الناس، لأنه علل بخشية الإصابة، بجهالة. فلو كان كل ما أصيب بنبأ كذلك، لم تحصل التفرقة بين العدل والفاسق. بل هذه دلالة واحدة على أن الإصابة بنبأ كذلك لم تحصل التفرقة بين العدل والفاسق، بل هذه دلالة واحدة على أن الإصابة بنبأ العدل الواحد لا ينهى عنه مطلقاً. وذلك يدل على قبول شهادة العدل الواحد في جنس العقوبات. فإن سبب نزول الآية يدل على ذلك. فإنها نزلت بإخبار واحد. أن قوماً قد حاربوا بالردة أو نقض العهد. وفيه أيضاً أنه متى اقترن بخبر الفاسق دليل آخر يدل على صدقه فقد استبان الأمر وزال الأمر بالتثبت. فيجوز إصابة القوم إذاً. فكيف خبر العدل مع دلالة أخرى؟ ولهذا كان أصح القولين، أن مثل هذا لَوْثٌ في القسامة فإذا انضاف أيمان المقسمين صار ذلك بينة تبيح دم المقسم عليه. وقوله ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ جعل المحذور هوالإصابة لقوم بلا علم. فمتى أصيبوا بعلم زال المحذور. وهذا هو المناط الذي دل عليه القرآن كما قال: ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وقال: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وأيضاً علل بخوف الندم وهو إنما يحصل على عقوبة البريء من الذنب كما في السنن[1] (ادرأوا الحدود بالشبهات. فإن الإمام، أن

---

(١) أخرجه الترمذي في: الحدود، ٢- باب ما جاء في درء الحدود، عن عائشة ونصه: «ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم» الخ.

يخطئ في العفو خير من أن يخطيء في العقوبة) فإذا حصل عنده علم أنه لم يعاقب إلا مذنباً، فإنه لا يندم ولا يكون فيه خطأ. وقد ذكر الشافعيّ وأحمد أن التغريب جاء في السنة في موضعين: أحدهما الزنى، والثاني المخنّث[١]، فيما روت أم سلمة أن النبيّ ﷺ دخل عليها وعندها مخنث وهو يقول لعبد اللّه أخيها: إن فتح اللّه لكم الطائف غداً، أدلك على ابنة غيلان. فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان. فقال رسول اللّه ﷺ: (أخرجوهم من بيوتكم). أخرجاه، وفي لفظ (لا يدخل هؤلاء عليكم) وفي رواية (أرى هذا يعرف مثل هذا. لا يدخلن عليكم بعد اليوم) وقال ابن جريج: هو هيت. وقال غيره: هنب. وقيل: ماتع. وذكر بعضهم أنهم ثلاثة: نهم وهيت وماتع. ولم يكونوا يرمون بالفاحشة الكبرى. إنما كان تخنيثهم ليناً في القول، وخضاباً في الأيدي والأرجل، ولعباً كلعب النساء. وفي السنن: أنه أمر بمخنث فنفي إلى النقيع. فإذا كان اللّه أمر بإخراج هؤلاء من البيوت، فمعلوم أن الذي يمكن الرجال من نفسه، شر من هؤلاء: وهو أحق بالنفي. فإن المخنث فيه فساد للرجال والنساء. لأنه إذا تشبه بالنساء، فقد يعاشرنه وهو رجل، فيفسدهن. ولأنها إذا رأت الرجل يتخنث فقد تترجل وتعاشر الصنفين. وقد تختار مجامعة النساء كما يختار هو مجامعة الرجال. وأما إفساده للرجال فهو أن يمكنهم من الفعل به، بمشاهدته وعشقه فإذا خرج إلى بلد ووجد هناك من يفعل به، فهنا يكون نفيه بحبسه في مكان ليس معه غيره فيه. وإن خيف خروجه، قيد؛ إذ هذا هو معنى نفيه. ولهذا تنازع العلماء في نفي المحارب: هل هو طرده بحيث لا يأوي إلى بلد، أو حبسه، أو بحسب ما يراه الإمام من هذا وهذا؟ فعن أحمد ثلاث روايات: الثالثة أعدل وأحسن. فإن نفيه بحيث لا يأوي إلى بلد لا يمكن، لتفرق الرعية واختلافهم واختلاف هممهم. وحبسه قد لا يمكن لأنه يحتاج إلى مؤونة. وروي أن هنباً لما اشتكى الجوع أمره النبيّ ﷺ أن يدخل المدينة من الجمعة إلى الجمعة يسأل ما يقيته، والذي جاءت به الشريعة من النفي هو نوع من الهجرة وليس كنفي الثلاثة[٢] الذين خلفوا، ولا هجرهم. فإنه لم يمنعهم من مشاهد الناس وحضور مجامعهم في الصلاة وغيرها. وذلك أن اللّه خلق الآدميين محتاجين إلى معاونة بعضهم بعضاً. فمن كانت مخالطته تضر، استحق

---

(١) أخرجه البخاري في: اللباس، ٦٢– باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت، حديث رقم ١٩٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في: التفسير، ٩– سورة التوبة، ١٨– باب: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾، حديث ١٣٢.

الإخراج من بينهم، لأنه مضرة بلا مصلحة. فإن الصبيّ إذا رأى صبياً يفعل شيئاً تشبه به. والاجتماع بالزناة واللوطية: فيه أعظم الفساد والضرر على الرجال والنساء والصبيان. فيجب أن يعقب اللوطيّ والزاني بما فيه تقريبه وإبعاده. وجماع الهجرة هي هجرة السيئات وأهلها. وكذلك هجران الدعاء إلى البدع وهجران الفساق وهجران من يخالط هؤلاء كلهم ويعاونهم. وكذلك من يترك الجهاد الذي لا مصلحة لهم بدونه فإنه يعاقَب بهجرهم له، لما لم يخالطهم في البر. فمن لم يهجر هؤلاء كان تاركاً للمأمور فاعلاً للمحذور. فهذا ترك المأمور من الاجتماع. وهذا فعل المحذور منه. فعوقب كل منهما بما يناسب جرمه. وما جاءت به الشريعة من المأمورات والعقوبات والكفارات وغير ذلك، يفعل بحسب الاستطاعة. فإن لم يقدر المسلم على جهاد جميع المشركين، جاهد من يقدر على جهاده. وإذا لم يقدر على عقوبة جميع المعتدين، عاقب من يقدر على عقوبته. فإذا لم يكن النفي والحبس عن جميع الناس، كان النفي والحبس على حسب القدرة. ويكون هو المأمور به، فالقليل من الخير، خير من تركه. ودفع بعض الشر خير من تركه كله. وكذلك المتشبهة بالرجال تحبس، كحالها إذا زنت فإن جنس الحبس مما شرع في جنس الفاحشة. وممّا يدخل في هذا: أن عمر نفى نصر ابن حجاج من المدينة إلى البصرة، لما شبب به النساء. وكان أولاً قد أمر بأخذ شعره ليزيل جماله الفاتن، فلما رآه من أحسن الناس وجنتين، غمه ذلك فنفاه إلى البصرة. فهذا لم يصدر منه ذنب يعاقب عليه، لكن كان في النساء من يفتتن به، فامر بإزالة جماله الفاتن. فإن انتقاله من وطنه مما يضعف همته وبدنه ويعلم أنه معاقب. وهذا من باب التفريق بين الذين يخاف عليهم الفاحشة والعشق قبل وقوعه. وليس من باب المعاقبة. وقد كان عمر ينفي في الخمر إلى خيبر، زيادة في عقوبة شاربها. ومن أقوى ما يهيج الفاحشة. إنشاد أشعار الذين في قلوبهم مرض من العشق ومحبة الفواحش، وإن كان القلب في عافية، جعل فيه مرضاً، كما قال بعض السلف: الغناء رقية الزنى. ورقية الحية هي التي تستخرج بها الحية من جحرها. وقية العين والحمة ورقية الزنى. أي تدعو إليه وتخرج من الرجل الأمر الخبيث. كما أن الخمر أم الخبائث. قال ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب، كما ينبت الماء البقل. وقال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، واستفزازه إياهم بصوته يكون بالغناء، كما قاله من قاله من السلف، وبغيره من الأصوات كالنياحة وغير ذلك. فإن هذه الأصوات توجب انزعاج القلوب والنفوس الخبيثة إلى ذلك، وتوجب حركتها

السريعة واضطرابها. حتى يبقى الشيطان يلعب بهؤلاء أعظم من لعب الصبيان بالكرة. والنفس متحركة. فإن سكنت فبإذن الله، وإلا فهي لا تزال متحركة. وشبهها بعضهم بكرة على مستوى أملس، لا تزال تتحرك عليه. وفي الحديث المرفوع (القلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً) وفي الحديث الآخر[١] (مثل القلب مثل ريشة بفلاة من الأرض، تحركها الريح) وفي البخاريّ عن ابن عمر[٢]: كانت يمين رسول الله ﷺ (لا، ومقلب القلوب) ولمسلم[٣] عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا إلى طاعتك) وفي الترمذي[٤]: كان ﷺ يكثر أن يقول (يامقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك) قيل: يارسول الله! آمنا بك وبما جئت به. فهل تخاف علينا؟ فقال (نعم. القلوب بين أصبعين من أصابع الله عزّ وجلّ يقلبها كيف يشاء) انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله.

تنبيه:

قال السيوطيّ في (الإكليل): في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾ الآية، وجوب الحد على الزاني والزانية، وأنه مائة جلدة. أي في البكر كما بينته السنة. واستدل بعمومه من أوجب المائة على العبد والذميّ وعلى المحصن، ثم يرجم. فأخرج أحمد عن عليّ أنه أتى بمحصنة فجلدها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة، ثم قال: جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ. واستدل الخوارج بالآية على أن حد المحصن الجلد دون الرجم. قالوا: لأنه ليس في كتاب الله. واستدل أبو حنيفة بها على أنه لا تغريب، إذ لم يذكره. وفي الآية رد على من قال: إن العبد إذا زنى بحرة يرجم. وبأمة يجلد. وعلى من قال: لا تحد العاقلة إذا زنى بها مجنون، والكبيرة إذا زنى بها صبيّ، أو عكسه، لا يحدّ. وعلى من قال: لا حد على الزاني بحربية أو بمسلمة في بلاد الحرب أو في عسكر أهل البغي. أو بنصرانية مطلقاً. أو بأمة امرأته. أو محرم. أو من استدخلت ذكر نائم. واستدل بعمومها من أوجبه على المكره والزاني بأمة ولده والميتة.

قال ابن الفرس: ويستدل بقوله ﴿فَاجْلِدُوا﴾ على أنه يجرد عن ثيابه. لأن الجلد

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤ /٤٠٨.
(٢) أخرجه البخاري في: الأيمان والنذور، ٣- باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، حديث رقم ٢٤٨٧.
(٣) أخرجه مسلم في: القدر، حديث ١٧. عن عبد الله بن عمرو بن العاص.
(٤) أخرجه الترمذي في: القدر، ٧- باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، عن أنس.

يقتضي مباشرة البدن. وبقوله ﴿مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ على أنه لا يكتفي بالضرب بها مجموعة ضربة واحدة، صحيحاً كان أو مريضاً. وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ الحث على إقامة الحدود والنهي عن تعطيلها. وأنه لا يجوز العفو عنها للإمام ولا لغيره، وفيه ردّ على من أجاز للسيد العفو. فاستدل بالآية من قال: إن ضرب الزنى أشد من ضرب القذف والشرب. وفي قوله تعالى ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ الخ، استحباب حضور جمع، عند جلدهما. وأقله أربعة عدد شهود الزنى. وقيل: عشرة، وقيل ثلاثة وقيل: اثنان. انتهى.

وتقدم عن ابن جرير أن الطائفة تصدق بالواحد، لغة. فتذكر. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

﴿الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لما أمر اللّه بعقوبة الزانييْن، حرم مناكحتهما على المؤمنين، هجراً لهما ولما معهما من الذنوب كقوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر:٥]، وجعل مُجالس فاعل ذلك المنكر، مثلَه بقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾ [النساء:١٤٠]، وهو زوج له قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢]، اي عشراءهم وأشباههم. ولهذا يقال: (المستمع شريك المغتاب) ورفع إلى عمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر. وكان فيهم جليس لهم صائم، فقال ابدءوا به في الجلد الم يسمع قول اللّه تعالى ﴿فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، فإذا كان هذا في المجالسة والعشرة العارضة حين فعلهم المنكر، يكون مجالسهم مثلاً لهم، فيكف بالعشرة الدائمة: (والزوج) يقال له: العشير. كما في الحديث(١) (ويكفرن العشير) وأخبر أنه لا يفعل ذلك إلا زان أو مشرك. أما المشرك فلا إيمان له يزجره عن الفواحش ومجامعة أهلها. وأما الزاني ففجوره يدعوه إلى ذلك، وإن لم يكن مشركاً. وفيها دليل على أن الزاني ليس بمؤمن مطلق الإيمان. وإن لم يكن مشركاً كما في الصحيح (لايزني

(١) أخرجه البخاري في: الحيض، ٦- باب ترك الحائض الصوم، حديث ٢١٥، عن أبي سعيد الخدري.

الزاني حين يزني وهو مؤمن) وذلك أنه أخبر أنه لا ينكح الزانية إلا زان أو مشرك. ثم قال تعالى ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فعلم أن الإيمان يمنع منه. وأن فاعله إما مشرك وإما زان، ليس من المؤمنين الذين يمنعهم إيمانهم من ذلك. وذلك أن المزاناة فيها فساد فراش الرجل وفي مناكحتها معاشرة الفاجرة دائماً. والله قد أمر بهجر السوء وأهله ما داموا عليه. وهذا موجود في الزاني. فإنه إن لم يفسد فراش امرأته كان قرين سوء لها، كما قال الشعبيّ: من زوج كريمته من فاسق، فقد قطع رحمها. وهذا مما يدخل على المرأة ضراراً في دينها ودنياها. فنكاح الزانية أشد من جهة الفراش. ونكاح الزاني أشد من جهة أنه السيد المالك الحاكم. فتبقى المرأة الحرة العفيفة في أسر الفاجر الزاني الذي يقصّر في حقوقها، ويعتدي عليها، ولهذا اتفقوا على اعتبار الكفاءة في الدين، وعلى ثبوت الفسخ بفوات هذه الكفاءة. واختلفوا في صحة النكاح بدون ذلك. فإن من نكح زانية فقد رضي لنفسه بالقيادة والدياثة. ومن نكحت زانياً فهو لا يحصن ماءه، بل يضعه فيها وفي غيرها من البغايا. فهي بمنزلة المتخذة خدناً. فإن مقصود النكاح حفظ الماء في المرأة. وهذا لا يحفظ ماءه. والله سبحانه شرط في الرجال أن يكونوا محصنين غير مسافحين، فقال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤]، وهذا مما لا ينبغي إغفاله. فإن القرآن قد قصّه وبينه بياناً مفروضاً. كما قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ فأما تحريم نكاح الزانية فقد تكلم فيه الفقهاء. وفيه آثار عن السلف. وليس مع من أباحه ما يعتمد عليه، وقد ادعى بعضهم أنها منسوخة بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، وزعموا أن البغيّ من المحصنات. وتلك حجة عليهم، فإن أقل ما في الإحصان العفة. وإذا اشترط فيه الحرية، فذاك تكميل للعفة والإحصان. ومن حرم نكاح الأمة لئلا يرقّ ولده، فكيف يبيح البغيّ الذي يلحق به من ليس بولده؟ وأين فساد فراشه من رقّ ولده؟ وكذلك من زعم أن النكاح هنا هو الوطء وهذا حجة عليهم. فمن وطئ زانية أو مشركة بنكاح، فهو زان. وكذلك من وطئها زان. فإن ذم الزاني بفعله الذي هو الزنى. حتى لو استكرهها أو استدخلت ذكره وهو نائم كانت العقوبة للزاني دون قرينه. والمقصود أن الآية تدل على أن الزاني لا يتزوج إلا زانية أو مشركة. وأن ذلك حرام على المؤمنين. وليس هذا مجرد كونه فاجراً، بل لخصوصية كونه زانياً. وكذلك في المرأة. ليس بمجرد فجورها، بل لخصوص زناها، بدليل أنه جعل المرأة زانية إذا تزوجت زانياً كما جعله زانياً إذا تزوج زانية. وهذا إذا كانا مسلمين يعتقدان تحريم

الزنى. وإلا إن كانا مشركين، فينبغي أن يعلم ذلك. ومضمونه أن الزاني لايجوز إنكاحه حتى يتوب. وذلك يوافق اشتراطه الإحصان، والمرأة الزانية لا تحصن فرجها. ولهذا يجب عليه نفي الولد الذي ليس منه. فمن نكح زانية فهو زان، أي تزوجها. ومن نكحت زانياً فهي زانية، أي تزوجته. فإن كثيراً من الزناة قصروا أنفسهم على الزواني، فتكون خدناً له لايأتي غيرها، فإن الرجل إذا كان زانياً لا يعف امرأته فتتشوق إلى غيره فتزني كما هو الغالب على نساء الزاني ومن يلوط بالصبيان. فإن نساءهم يزنين ليقضين أربهن وليراغمن أزواجهن. ولهذا يقال: عفوا تعف نساؤكم. وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم. فكما تدين تدان، والجزاء من جنس العمل، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها. فإن الرجل إذا رضي أن ينكح زانية، رضي بأن تزني امرأته. والله سبحانه قد جعل بين الزوجين مودة ورحمة. فأحدهما يحب لنفسه ما يحب للآخر. فإذا رضيت المرأة أن تنكح زانياً فقد رضيت عمله، وكذلك الرجل. ومن رضي بالزنى فهو بمنزلة الزاني، فإن أصل الفعل هو الإرادة. ولهذا في الأثر[١] من غاب عن معصية فرضيها كان كمن شهدها. وفي الحديث[٢] «المرء على دين خليله» وأعظم الخلة خلة الزوجين. وأيضاً، فإن الله تعالى جعل في نفوس بني آدم من الغيرة ما هو معروف فيستعظم الرجل أن يطأ الرجل امرأته، أعظم من غيرته على نفسه أن يزني. فإذا لم يكره أن تكون زوجته بغياً وهو ديوثاً، كيف يكره أن يكون هو زانياً؟ ولهذا لم يوجد من هو ديوث أو قواد يعفّ عن الزنى، فإن الزنى له شهوة في نفسه. والديوث له شهوة في زنى غيره. فإذا لم يكن معه إيمان يكره من زوجته ذلك، كيف يكون معه إيمان يمنعه من الزنى؟ فمن استحل أن يترك امرأته تزني، استحل أعظم الزنى. ومن أعان على ذلك فهو كالزاني. ومن أقر عليه، مع إمكان تغييره، فقد رضيه. ومن تزوج غير تائبة فقد رضي أن تزني. إذ لا يمكنه منعها. فإن كيدهن عظيم. ولهذا جاز له، إذا أتت بفاحشة مبينة، أن يعضلها لتفتدي. لأنها بزناها طلبت الاختلاع منه وتعرضت لإفساد نكاحه. فإنه لا يمكنه المقام معها حتى تتوب. ولا يسقط المهر بمجرد زناها. كما دل عليه قوله[٣] ﷺ للملاعن «لما قال مالي» قال: لامال لك عندها إن كنت صادقاً فهو بما استحللت من فرجها، وإن كنت

---

(١) أخرجه أبو داود في: الملاحم، ١٧- باب الامر والنهي، حديث ٤٣٤٥، عن العرس بن عميرة الكندي.

(٢) أخرجه الترمذي في: الزهد، ٤٥- باب حدثنا محمد بن بشار عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري في: الطلاق، ٥٣- باب المتعة التي لم يفرض لها، عن ابن عمر، حديث ٢١٦٤.

كاذباً عليها فذاك أبعد وأبعد لك منها؛ لأنها إذا زنت قد تتوب. لكن زناها يبيح إعضالها حتى تفتدي إن اختارت فراقه، أو تتوب. وفي الغالب أن الرجل لا يزني بغير امرأته، إلا إذا أعجبه ذلك الغير. فلا يزال يزني بما يعجبه، فتبقى امرأته بمنزلة المعلقة. لا هي أيّم ولا ذات زوج. فيدعوها ذلك إلى الزنى، ويكون الباعث لها مقابلة زوجها على وجه القصاص. فإذا كان من العادين لم يكن قد أحصن نفسه. وأيضاً فإن داعية الزاني تشتغل بما يختاره من البغايا، فلا تبقى داعيته إلى الحلال تامة، ولا غيرته كافية في إحصانه المرأة، فتكون عنده كالزانية المتخذة خدناً، وهذه معان شريفة لا ينبغي إهمالها. وعلى هذا، فالمساحقة زانية، كما في الحديث: (زنى النساء سحاقهن) والذي يعمل عمل قوم لوط زان، فلا ينكح إلا زانية أو مشركة. ولهذا يكثر في نساء اللوطية من تزني، وربما زنت بمن يتلوط به مراغمة له وقضاء لوطرها. وكذلك المتزوجة بمخنث ينكح كما تنكح، هي متزوجة بزان، بل هو أسوأ الشخصين حالاً. فإنه مع الزنى صار ملعوناً على نفسه للتخنيث، غير اللعنة التي تصيبه بعمل قوم لوط. فإن النبيّ ﷺ لعن من يعمل عمل قوم لوط. وفي الصحيح[1] أنه لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء. وكيف يجوز لها أن تتزوج بمخنث قد انتقلت شهوته إلى دبره؟ فهو يؤتى كما تؤتى المرأة. وتضعف داعيته من أمامه كما تضعف داعية الزاني بغير امرأته عنها. فإذا لم يكن له غيرة على نفسه، ضعفت غيرته على امرأته وغيرها. ولهذا يوجد من كان مخنثاً ليس له كبير غيرة على ولده ومملوكه ومن يكفله، والمرأة إذا رضيت بالمخنث واللوطيّ، كانت على دينه، فتكون زانية، وأبلغ. فإن تمكين المرأة من نفسها أسهل من تمكين الرجل من نفسه. فإذا رضيت ذلك من زوجها رضيته من نفسها.

ولفظ الآية ﴿الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً والزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ يتناول هذا كله بطريق عموم اللفظ، أو بطريق التنبيه. وفحوى الخطاب الذي هو أقوى من مدلول اللفظ. وأدنى من ذلك أن يكون بطريق القياس، كما بيناه في حد اللوطيّ وغيره. انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله. وكله تأييد لما ذهب إليه الإمام أحمد من أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغيّ، ما دامت كذلك، فإن تابت صح العقد عليها، وإلا فلا. وكذلك لايصح تزويج المرأة الحرة

---

(١) أخرجه البخاري في: الحدود، ٣٣- باب نفي أهل المعاصي والمخنثين، حديث ٢٢٨٩، عن ابن عباس.

العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة. لقوله تعالى ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ كما فضّله تقيّ الدين.

وقد روى هنا الحافظ ابن كثير آثاراً مرفوعة وموقوفة، كلها مؤكدة لهذا. ثم قال بعدها: فأما الحديث الذي رواه النسائي[1] عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن عندي امرأة من أحب الناس إليّ، وهي لا تمنع يد لامس. قال. (طلقها) قال: لاصبر لي عنها. قال (استمتع بها). فقال النسائي: هذا الحديث غير ثابت. وعبد الكريم أحد رواته ضعيف الحديث ليس بالقويّ. وقال الإمام أحمد: هو حديث منكر. وقال ابن قتيبة: إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلاً. وحكاه النسائي في سننه عن بعضهم. فقال: وقيل: سخية تعطي. وردّ هذا بأنه لو كان المراد لقال: لا ترد يد ملتمس. وقيل: المراد أن سجيتها لا ترد يد لامس، لا أن المراد أن هذا واقع منها، وأنها تفعل الفاحشة. فإن رسول الله ﷺ لا يأذن في مصاحبة من هذه صفتها، فإن زوجها والحالة هذه يكون ديوثاً، وقد تقدم الوعيد على ذلك. ولكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها ممانعة ولا مخالفة لمَن أرادها لو خلا بها أحد، أمر رسول الله ﷺ بفراقها. فلما ذكر أنه يحبها أباح البقاء معها. لأن محبته لها محققة. ووقوع الفاحشة منها متوهم، فلا يصار إلى الضرر العاجل للتوهم الآجل. والله أعلم. انتهى.

لطيفة:

سر تقديم (الزانية) في الآية الأولى و (الزاني) في الثانية: أن الأولى في حكم الزنى والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والإطماع. والثانية في نكاح الزناة إذا وقع ذلك على الصحة. والأصل في النكاح الذكور، وهم المبتدئون بالخطبة، فلم يسند إلا لهم، لهذا وإن كان الغرض من الآية تنفير الأعفّاء من الذكور والإناث، من مناكحة الزناة ذكوراً وإناثاً، زجراً لهم عن الفاحشة، ولذلك قرن الزنى والشرك. ومن ثم كره مالك رحمه الله مناكحة المشهورين بالفاحشة، وقد نقل أصحابه الإجماع في المذهب على أن للمرأة أو لمن قام من أوليائها فسخ نكاح الفاسق. ومالكٌ أبعد الناس من اعتبار الكفاءة إلا في الدين. وأما في النسب فقد بلغه أنهم فرقوا بين عربية ومولى، فاستعظمه وتلا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، انتهى كلام الناصر في (الانتصاف) ومراد السلف بالكراهة، ما تعرف بالكراهة التحريمية. فيقرب بذلك مذهب المالكية.

---

(١) أخرجه النسائي في: النكاح، ١٢- باب تزويج الزانية.

ثم بيّن تعالى حكم جَلد القاذف للمحصنة،وهي الحرة البالغة العفيفة، بقوله سبحانه وتعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

﴿**والَّذِينَ يَرْمُونَ**﴾ أي يقذفون بالزنى ﴿**الْمُحْصَنَاتِ**﴾ أي المسلمات الحرائر العاقلات البالغات العفيفات عن الزنى ﴿**ثُمَّ لَمْ يأْتُوا بأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ**﴾ أي يشهدون على ما رموهن به ﴿**فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً**﴾ أي كل واحد من الرامين. وتخصيص النساء لخصوص الواقعة، ولأن قذفهن أغلب وأشنع. وإلا فرق فيه بين الذكر والأنثى ﴿**ولاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً**﴾ أي في أي واقعة كانت، لظهور كذبهم ﴿**وأُولئكَ هُمُ الْفاسِقُونَ**﴾ أي لخروجهم عما وجب عليهم من رعاية حقوق المحصنات ﴿**إلاَّ الَّذِين تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلكَ**﴾ أي القذف ﴿**وأَصْلَحُوا**﴾ أي أعمالهم ﴿**فَإنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ أي بقبول توبتهم وعفوه عنهم.

تنبيهات:

الأول: قال ابن تيمية: ذكر تعالى عدد الشهداء وأطلق صفتهم ولم يقيدهم بكونهم (منا) ولا (ممن نرضى) ولا (من ذوي العدل) ولهذا تنازعوا: هل شهادة الأربعة التي لا توجب الحد مثل شهادة أهل الفسوق؟ هل تدرأ الحد عن القاذف؟ على قولين: أحدهما تدرأ كشهادة الزوج على امرأته أربعاً. فإنها تدرأ حد القذف ولا توجب الحد على المرأة. ولو لم تشهد المرأة، فهل تحد أو تحبس حتى تقر أو تلاعن، أو يخلى سبيلها؟ فيه نزاع. فلا يلزم من درء الحد عن القاذف، وجوب حد الزنى فإن كلاهما حد. والحدود تدرأ بالشبهات. وأربع شهادات للقاذف شبهة قوية، ولو اعترف المقذوف مرة أو مرتين أو ثلاثاً درئ الحد عن القاذف ولم يجب الحد عليه عند أكثر العلماء ولو كان المقذوف غير محصن، مثل أن يكون مشهوراً بالفاحشة، لم يحد قاذفه حد القذف. ولم يحد هو حد الزنى بمجرد الاستفاضة. وإن كان يعاقب كل منهما دون الحد. ولا يقام حد الزنى على مسلم إلا بشهادة مسلمين. لكن يقال لم يقيّدهم بالعدالة،وقد أمرنا اللّه أن نحمل الشهادة المحتاج

إليها لأهل العدل والرضا وهم الممتثلون ما أمر الله به بقوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء:١٣٥] الآية، وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله: ﴿وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقوله: ﴿وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة:٢٨٢]، وقوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣]، فهم يقومون بها بالقسط لله، فيحصل مقصود الذي استشهدوه.

والوجه الثاني – كون شهادتهم مقبولةلأنهم أهل العدل والرضا. فدل على وجوب ذلك في القبول والأداء. وقد نهى الله سبحانه عن قبول شهادة الفاسق بقوله: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] الآية. لكن هذا نص في أن الفاسق الواحد يجب التبين في خبره. وأما الفاسقان فصاعداً. فالدلالة عليه تحتاج إلى مقدمة أخرى، وما ذكره من عدد الشهود لا يتعين في الحكم باتفاق العلماء في مواضع. وعند الجمهور يحكم بلاشهود في مواضع عند النكول والرد ونحو ذلك. ويحكم بشاهد ويمين كما مضت بذلك السنة. ويدل على هذا أن الله لم يعتبر عند الأداء هذا القيد، لا في آية الزنى، ولا في آية القذف. بل قال: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ﴾ وإنما أمر بالتثبت عند خبر الفاسق الواحد، ولم يأمر به عند خبر الفاسقيْن. فإن خبر الاثنين يوجب من الاعتقاد ما لا يوجبه خبر الواحد. ولهذا قال العلماء: إذا استراب الحاكم في الشهود، فرّقهم وسألهم عما تبين به اتفاقهم واختلافهم. انتهى.

الثاني: قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): ذهب الجمهور إلى أن شهادة القاذف بعد التوبة تقبل. ويزول عنه اسم الفسق. سواء كان بعد إقامة الحد أو قبله، لقوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ روى البيهقيّ عن ابن عباس في هذه الآية: فمن تاب فشهادته في كتاب الله تقبل. وتأولوا قوله تعالى ﴿أَبَداً﴾ على أن المراد ما دام مصراً على قذفه. لأن (أبد كل شيء) على ما يليق به. كما لو قيل: لا تقبل شهادة الكافر أبداً، فإن المراد ما دام مصراً على الكفر. وبالغ الشعبيّ فقال: إن تاب القاذف قبل إقامة الحد عليه، سقط عنه. وذهبت الحنفية إلى أن الاستثناء يتعلق بالفسق خاصة. فإذا تاب سقط عنه اسم الفسق، وأما شهادته فلا تقبل أبداً. وقال بذلك بعض التابعين. انتهى.

قال الزمخشريّ: والذي يقتضيه ظاهر الآية ونظمها، أن تكون الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط. كأنه قيل: ومن قذف المحصنات فاجلدوهم، وردّوا

شهادتهم وفسّقوهم. أي فاجمعوا لهم الجلد والرد والتفسيق، إلا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا، فإن الله يغفر لهم، فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسَّقين. انتهى.

وأخرج البخاريّ في صحيحه في (كتاب الشهادات) في باب شهادة القاذف والسارق والزاني، عن عمر رضي الله عنه؛ أنه جلد أبا بكرة وشبل بن معبد ونافعاً، بقذف المغيرة بالزنى، لما شهدوا بأنهم رأوه متبطن المرأة. ولم يبتّ زيادٌ الشهادة. ثم استتابهم وقال: من تاب قبلتُ شهادته. وفي رواية قال لهم: من أكذب نفسه قبلتُ شهادته فيما يستقبل. ومن لم يفعل، لم أجز شهادته. فأكذب شبل نفسه ونافع. وأبى أبو بكرة أن يرجع.

قال المهلب: يستنبط من هذا؛ أن إكذاب القاذف نفسه ليس شرطاً في قبول توبته. لأن أبا بكرة لم يكذب نفسه، ومع ذلك فقد قبل المسلمون روايته وعملوا بها.

الثالث: قال الرازيّ: اختلفوا في أن التوبة عن القذف كيف تكون؟

قال الشافعي رحمه الله: التوبة منه إكذابه نفسه، واختلف أصحابه في معناه. فقال الإصطخريّ: يقول كذبت فيما قلت فلا أعود لمثله. وقال أبو إسحاق: لا يقول كذبت لأنه ربما يكون صادقاً فيكون قوله (كذبت) كذباً، والكذب معصية، والإتيان بالمعصية لا يكون توبة عن معصية أخرى، بل يقول: القذف باطل. ندمت على ما قلت، ورجعت عنه، ولا أعود إليه.

الرابع: قال الرازيّ في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ قال أصحابنا: إنه بعد التوبة، لا بدّ من مضيّ مدة عليه في حسن الحل، حتى تقبل شهادته وتعود ولايته. ثم قدَّروا تلك المدة بسَنة حتى تمر عليه الفصول الأربعة، التي تتغير فيها الأحوال والطباع. كما يضرب للعنّين أجل سنة. وقد علق الشرع أحكاماً بالسنة من الزكاة والجزية وغيرهما. انتهى.

وقال الغزاليّ في (الوجيز): يكفيه أن يقول: تبت ولا أعود. إلا إذا أقر على نفسه بالكذب، فهو فاسق، يجب استبراؤه ككل فاسق يقول: تبت. فإنه لا يصدق حتى يستبرأ مدة فيعلم بقرائن الأحوال صلاح سريرته. انتهى.

وبه يعلم أن التقدير بسنة لا دليل عليه، بل المدار على علم صلاحه وظهور استقامته، ولو على أثر الحدّ.

قال الحافظ ابن حجر: روى سعيد بن منصور من طريق حصين بن عبد الرحمن قال: رأيت رجلاً جُلد حداً في قذف بالزنى. فلما فرغ من ضربه أحدث توبة. فلقيت أبا الزناد فقال لي: الأمر عندنا بالمدينة؛ إذا رجع القاذف عن قوله، فاستغفر ربه، قبلت شهادته وعلّقه البخاريّ.

الخامس: ننقل هنا ما أجمله السيوطيّ في (الإكليل) مما يتعلق بأحكام الآية. قال رحمه الله: في هذه الآية تحريم القذف، وأنه فسق، وأن القاذف لا تقبل شهادته، وأنه يجلد ثمانين إذا قذف محصنة أي عفيفة. ومفهومه أنه إذا قذف من عرفت بالزنى لا يحد للقذف. ويصرح بذلك قوله ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ وفيها أن الزنى لا يقبل فيه إلا أربعة رجال، لا أقل. ولا نساء. وسواء شهدوا مجتمعين أو متفرقين. واستدل بعموم الآية من قال: يحدّ العبد أيضاً ثمانين. ومن قال: يحد قاذف الكافر والرقيق وغير البالغ والمجنون وولده. واحتج بها على أن من قذف نفسه ثم رجع لا يحدّ لنفسه. لأنه لم يرم أحداً واستدل بها من قال: إن حد القذف من حقوق الله، فلا يجوز العفو عنه. انتهى.

ثم رأيت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، تحقيقاً في بحث قبول الشهادة بعد التوبة، جديراً بأن يؤثر. قال رحمه الله: وقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ نصٌّ في أن هؤلاء القذفة لا تقبل شهادتهم أبداً. واحداً كانوا أو عدداً. بل لفظ الآية ينتظم العدد على سبيل الجمع والبدل، لأنها نزلت في أهل الإفك باتفاق أهل العلم والحديث والفقه والتفسير. وكان الذين قذفوا عائشة عدداً، ولم يكونوا واحداً لما رأوها قدمت صحبة صفوان بن المعطل، بعد قفول العسكر، وكانت قد ذهبت تطلب قلادة لها فُقدت، فرفعوا هودجها معتقدين أنها فيه لخفتها، ولم تكن فيه. فلما رجعت لم تجد أحداً فمكثت مكانها. وكان صفوان قد تخلف وراء الجيش. فلما رآها أعرض بوجهه عنها وأناخ راحلته حتى ركبتها. ثم ذهب إلى العسكر فكانت خلوته بها للضرورة. كما يجوز للمرأة أن تسافر بلا محرم للضرورة كسفر الهجرة مثل ما قدمت أم كلثوم بنت عقبة مهاجرة، وقصة عائشة.

ودلت الآية على أن القاذفين لا تقبل شهادتهم مجتمعين ولا متفرقين. ودلت الآية على أن شهادتهم بعد التوبة مقبولة كما هو مذهب الجمهور. فإنه كان من جملتهم مسطح وحسان وحمنة. ومعلوم أنه ﷺ لم يردّ شهادة أحد منهم، ولا المسلمون بعده لأنهم كلهم تابوا لما نزل القرآن ببراءتها. ومن لم يتب حينئذ، فإنه

كافر مكذبٌ بالقرآن. وهؤلاء ما زالوا مسلمين. وقد نهى اللّه عن قطع صلتهم. ولو ردت شهادتهم بعد التوبة لاستفاض ذلك كما استفاض رد عمر شهادة أبي بكرة. وقصة عائشة أعظم من قصة المغيرة. لكن من رد شهادة القاذف بعد التوبة يقول: أرد شهادة من حُدّ في القذف. وهؤلاء لم يحدوا. والأولون يجيبون بأجوبة: أحدها — أنه قد روي في السنن أنهم حدوا. الثاني أن هذا الشرط غير معتبر في ظاهر القرآن، وهم لا يقولون به. الثالث — أن الذين اعتبروا الحد واعتبروه وقالوا: قد يكون القاذف صادقاً وقد يكون كاذباً. فإعراض المقذوف عن طلب الحد قد يكون لصدق القاذف. فإذا طلبه ولم يأت القاذف بأربعة شهداء ظهر كذبه. ومعلوم أن الذين قذفوا عائشة ظهر كذبهم أعظم من ظهور كذب كل أحد. فإن اللّه عزّ وجلّ هو الذي برأها بكلامه الذي أنزله من فوق سبع سموات يتلى، فإذا كانت شهادتهم مقبولة، فغيرهم أولى. وقصة عمر التي حكم فيها بين المهاجرين والأنصار، في شأن المغيرة، دليل على الفصلين جميعاً. لما توقف الرابع فجلد الثلاثة دونه وردّ شهادتهم لأن اثنين من الثلاثة تابا فقبل شهادتهما. والثالث، وهو أبو بكرة، مع كونه من أفضلهم، لم يتب فلم يقبل المسلمون شهادته. وقد قال عمر: تب أقبل شهادتك. لكن إذا كان القرآن قد بين أنهم إن لم يأتوا بأربعة شهداء لم تقبل شهادتهم أبداً، ثم قال بعد ذلك ﴿ **وأولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا** ﴾ فمعلوم أن قوله ﴿ **هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ وصف ذم لهم زائد على رد الشهادة.

وأما تفسير العدالة فإنها الصلاح في الدين والمروءة. وإذا وجد هذا في شخص كان عدلاً في شهادته وكان من الصالحين، وأما أنه لا يستشهد أحد في وصية ولا رجعة في جميع الأمكنة والأزمنة حتى يكون بهذه الصفة، فليس في كتاب اللّه وسنة رسوله ما يدل على ذلك، بل هذا صفة المؤمن الذي أكمل إيمانه بأداء الواجبات وإن كان المستحبات لم يكملها. ومن كان كذلك كان من أولياء اللّه المتقين.

ثم إن القائلين بهذا قد يفسرون الواجبات بالصلوات الخمس ونحوها، بل قد يجب على الإنسان من حقوق اللّه وحقوق عباده ما لا يحصيه إلا اللّه، مما يكون تركه أعظم إثماً من شرب الخمر والزنى ومع ذلك لم يجعلوه قادحاً في عدالته، إما لعدم استشعار كثرة الواجبات، وإما لالتفاتهم إلى ترك السيئات دون فعل الواجبات، وليس الأمر كذلك في الشريعة. وبالجملة، فهذا معتبر في باب الثواب والعقاب والمدح والذم والموالاة والمعاداة، وهذا أمر عظيم. وباب الشهادة مداره على أن يكون الشهيد مرضيّاً، أو يكون ذا عدل بتحري القسط والعدل في أقواله وأفعاله. والصدق

في شهادته وخبره. وكثيراً ما يوجد هذا مع الإخلال بكثير من تلك الصفات. كما أن الصفات التي اعتبروها كثيراً ماتوجد بدون هذا كما قد رأينا كل واحد من الصنفين كثيراً. لكن يقال: إن ذلك مظنة الصدق والعدل والمقصود من الشهادة ودليل عليها وعلامة لها. فإن النبيّ ﷺ قال في الحديث[1] المتفق على صحته «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة..» الحديث. فالصدق مستلزم للبر، كما أن الكذب مستلزم للفجور. فإذا وجد الملزوم، وهو تحري الصدق، وجد اللازم وهو البر. وإذا انتفى اللازم وهو البر انتفى الملزوم وهو الصدق. وإذا وجد الكذب وهو الملزوم وجد الفجور وهو اللازم. وإذا انتفى اللازم وهو الفجور انتفى الملزوم وهو الكذب، ولهذا يستدل بعدم بر الرجل على كذبه. وبعدم فجوره على صدقه. فالعدل الذي ذكروه؛ من انتفى فجوره. وهو إتيان الكبيرة والإصرار على الصغيرة. وإذا انتفى ذلك فيه، انتفى كذبه الذي يدعوه إلى الفجور. والفاسق هو من عدم بره، وإذا عدم بره عدم صدقه. ودلالة هذا الحديث مبنية على أن الداعي إلى البر يستلزم البر، والداعي إلى الفجور يستلزم الفجور. فالخطأ كالنسيان والعمد كالكذب. انتهى.

ثم بين تعالى حكم الرامين لأزواجهم خاصة، بعد بيان حكم الرامين بغيرهن، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي بالزنى **﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾** أي فيما رماها به من الزنى **﴿وَالْخَامِسَةُ﴾** أي والشهادة الخامسة للأربع المتقدمة **﴿أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾** أي فيما رماها به من الزنى. فيسقط عنه حد القذف، ويجب عليها الحد وهو الرجم. إلا إن لاعنت أيضاً. كما قال سبحانه:

---

(١) أخرجه البخاري في: الأدب، ٦٩- باب قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾، حديث ٢٣٤٠، عن عبد الله بن مسعود.
وأخرجه مسلم في: البر والصلة والآداب، حديث رقم ١٠٥.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَيَدْرأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ أي الدنيويّ وهو الرجم **﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللّه إِنَّه لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾** أي فيما رماها به من الزنى **﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللّه عَلَيْهَا إِنْ كَانَ﴾** أي الزوج **﴿مِنَ الصَّادِقِينَ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّه عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾** أي لحرجتم وشق عليكم كثير من أموركم، ولكن لرحمته ولطفه، شرع لكم من الفرج والمخرج، ما أنزله وأحكمه.

تنبيهات:

الأول – قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة، أن يلاعنها كما أمر اللّه عزَّ وجلَّ. وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدعي عليها بما رماها به. فيحلفه الحاكم أربع شهادات باللّه في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين. أي فيما رماها به من الزنى. والخامسة أنّ لعنة اللّه عليه إن كان من الكاذبين. فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء. وحرمت عليه أبداً. ويعطيها مهرها. ويتوجه عليها حد الزنى. ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات باللّه إنه لمن الكاذبين. أي فيما رماها به. والخامسة أن غضب اللّه عليها إن كان من الصادقين.

الثاني – روي في الصحيح[1] أن ذلك وقع في عهد النبيّ ﷺ. وأن رجلاً قال للنبيّ ﷺ: أرأيت رجلاً رأى مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه، أم كيف يفعل؟ فقال له رسول اللّه ﷺ: قد قضى اللّه فيك وفي امرأتك. وتلا عليه ما نزل من هذه الآية. فتلاعنا عند رسول اللّه ﷺ.

وصح أيضاً أنها قد وقعت لرجلين سمّيا. وقد اختلف شراح الصحيح في معنى ما روي من أنها نزلت فيهما معاً.

---

(١) أخرجه البخاري في: الطلاق، ٣٠- باب التلاعن في المساجد، حديث ٢٧٩، عن سهل بن سعد.

وإذا راجعتَ ما كتبناه في (المقدمة) في معنى سبب النزول، زال الإشكال فارجع إليه.

الثالث - قال السيوطي في (الإكليل): هذه الآية أصل في اللعان. ففيها أن شرطه سبق قذف. وأنه إنما يكون بين الزوجين لا بين الرجل وأجنبية ولا السيد وأمته. واستدل بعمومها من قال بلعان الكفار والعبيد والخصيّ والمجبوب والمحدود في القذف والأعمى والأخرس، ومن الصغيرة التي لا تحمل والآيسة. واستدل بقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ ﴾ من قال لا لعان إذا أقام البينة على زناها وبقوله ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ ﴾ من قال: إن اللعان شهادة لا يمين. وقوله ﴿ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ﴾ الخ فيه أن صيغته أن يقول: أشهد باللّه إني لمن الصادقين، أربعاً والخامسة أن لعنة اللّه عليه إن كان من الكاذبين فاستدل به من لم يجز إبدال أشهد (بأحلف أو أقسم ونحوه) أو اللّه (بالرحمن ونحوه) أو زاد (بعلم اللّه ونحوه) ومن لم يوجب زيادة (الذي لاإله إلاّ هو) ومن لم يجز إسقاط (إني لمن الصادقين) ولا إبدلها (بما كذبت عليها ونحوه) ولا الاكتفاء بدون أربع، خلافاً لأبي حنيفة، في اكتفائه بثلاث شهادات. ولا تقديم اللعنة على الشهادة، أو توسطها، أو إبدالها بالغضب. وقوله تعالى: ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ الآية، فيه أن لعانه يوجب على المرأة حد الزنى وأن لها دفعه بأن تقول أربع مرات. أشهد باللّه إنه لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب اللّه عليها الخ. وفيه أيضاً أنه لا يجوز لها أن تبدل أشهد (بأحلف) أو الغضب (باللعنة) إلى آخر ما تقدم. واستدل به على أنه لا يجوز تقديم لعانها على لعانه. انتهى.

الرابع: اعلم أن الحد الواجب بالزنى نوعان: جلد ورجم. فالجلد حد البكرين الحرّين إذا زنيا. فيجلد كل واحد منهما مائة جلدة. وفي تغريبهما سَنة، وتغريب الزاني وحده كذلك، خلاف. نعم، إذا رآه الإمام مصلحة فلا خلاف في إمضائه. والرجم حد الزانيين المحصنين. والإحصان عبارة عن البلوغ والعقل والحرية والدخول في النكاح الصحيح. فلا يقتل بالسيف، بل ينكل بالرجم، لا بصخرة تدففه، ولا بحصيات تعذب، بل بحجارة معتدلة، كما في (الوجيز) وقد اعترض جماعة الخوارج على تشريع الرجم في الإسلام وقالوا: إن اللّه لم يأمر به في كتابه العزيز. فالذي ورد في عقاب الزنى في القرآن حكمان. أحدهما قوله تعالى: ﴿ واللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً. وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُم

فَآذُوهُمَا، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ [النساء:١٥- ١٦]، وهذا الحكم قد نسخ - أي بيّن - بالحكم الثاني وهو قوله تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ، وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢]، هذه حجة الخوارج. أما حجة الإجماع فهي ورود الآثار الصحيحة الدالة على أن النبي ﷺ أمر برجم المحصن، وفعلَه. وروي لذلك جملة أحاديث وأحكام عن الصحابة رضي اللّه تعالى عنهم، كذا في كتاب (المقابلات) وسبقه الرازيّ في (تفسيره) فطوَّل النفس في سوق شبهة الخوارج، وأجاب عنها بما ملخصه: أن الآية المذكورة مخصوصة بالبكر، خصصها الخبر المتواتر بالرجم، وتخصيص القرآن الكريم بخبر الواحد جائز. فأولى بالمتواتر. وثانياً - قال - إنه لا يستبعد تجدد الأحكام الشرعية بحسب تجدد المصالح. فلعل المصلحة التي تقتضي وجوب الرجم، حدثت بعد نزول تلك الآيات. انتهى.

قال صاحب (المقابلات): إن الشريعة الإسلامية متفقة مع الشرع العبري في أغلب أحكام الزنى، ولم يرد في الديانة المسيحية نص صريح ينسخ حكم اليهودية في الزنى. ولكن يروى عن عيسى عليه السلام، ما يؤخذ منه ضمناً، عدم إمكان إقامة حد الرجم. لأنه اشترط براءة الراجمين من كل عيب، وأمر الزانية، التي اعترفت بين يديه، بالتوبة والاستغفار. أما حكم الزنى في القوانين الحديثة فيخالف مخالفة كلية لحكم الشريعة الغراء، وحكم التوراة والإنجيل انتهى كلامه.

وفقنا اللّه لحفظ حدوده، وجنبنا محارمه بمنه وكرمه.

التنبيه الرابع: من مباحث اللفظ في الآية أن يقال: قد وردت الفاصلة في غير هذا الموضع بـ (تواب رحيم) فعلام فصلت هنا بـ (تواب حكيم) مع أن التوبة مع الرحمة، فيما يظهر؟ (والجواب) أن اللّه عزَّ وجلَّ حكم بالتلاعن على الصورة التي أمر بها. وأراد بذلك ستر هذه الفاحشة على عباده. وذلك حكمة منه. ففصلت هذه الآية بـ (تواب حكيم) إثر بيان الحكم. جمعاً بين التوبة المرجوة من صاحب المعصية، وبين الحكمة في سترها على تلك الصورة. فافهم ذلك. أشار له ابن الأثير في (المثل السائر).

ثم أشار تعالى إلى نبأ الإفك، وتبرئة عائشة رضي اللّه عنها، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذينَ جَاءُوا بالإفْكِ﴾ أي بأبلغ ما يكون من الكذب، وقيل هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك. والمراد به ما أفك به الصديقة، أم المؤمنين رضي الله عنها؟ فاللام للعهد ويجوز حمله على الجنس. قيل: فيفيد القصر، كأنه لا إفك إلا هو. وفي لفظ (المجيء) إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل ﴿عُصْبَةٌ مِنكُمْ﴾ أي جماعة منكم، خبر (إن) و (منكم) نعت لها. وبه أفاد الخبر. وقوله تعالى: ﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ﴾ مستأنف، والهاء ضمير الإفك أو القذف. والخطاب لرسول الله صلوات الله عليه، ولآل الصديق رضي الله عنهم، ولمن ساءه ذلك من المؤمنين. تسلية لهم من أول الأمر. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ زيادة في التسلية والتكريم. أي لا تظنوه يلحق تهمة بكم أو يوقع نقيصة فيكم، بل قد جرّ لكم خيراً عظيماً.

قال الزمخشريّ: ومعنى كونه خيراً لهم، أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم. لأنه كان بلاءً مبيناً ومحنة ظاهرة. وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية، كل واحدة منها مستقلة، بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له، وتنزيهٌ لأم المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه. وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة. وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متامليها. ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإثْمِ﴾ أي جزاؤه، وذلك الذم في الدنيا إلى يوم القيامة، والجلد ثمانين. ولعذاب الآخرة أشد ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي قام بعظمه وإشاعته، بعد ابتدائه بالخوض فيه، وهو رأس المنافقين عبد الله بن أُبَيّ، لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ، وانتهازه الفرص، وطلبه سبيلاً إلى الغميزة.

روى الطبري عن ابن زيد قال: أما الذي تولى كبره فعبد الله بن أُبيّ ابن سلول الخبيث. هو الذي ابتدأ هذا الكلام وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقود بها. والعذاب العظيم يعم عذابي الدارين، كما قلنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

﴿ **لَوْلاَ إِذْ سمعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بأَنْفُسِهِمْ خَيْراً** ﴾ أي بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات، كقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات: ١١]، قال الشهاب: وهذا من بديع الكلام. وقد وقع في القرآن كثيراً. وهو بحسب الظاهر يقتضي أن كل واحد يظن بنفسه خيراً، وليس بمراد. بل أن يظن بغيره ذلك. وتوجيهه أنه مجاز لجعله اتحاد الجنس كاتحاد الذات ولذا فسر قوله ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]، بـ (لا تقتلوا من كان من جنسكم) أو يجعلهم كنفس واحدة، فمن عاب مؤمناً فكأنما عاب نفسه، ويجوز أن يقدر فيه مضاف. أي: ظن بعض المؤمنين والمؤمنات بأنفس بعضهم الآخر. وقال الكرماني في حديث (أموالكم عليكم حرام) إنه كقولهم (بنو فلان قتلوا أنفسهم) أي قتل بعضهم بعضاً، مجازاً أو إضماراً للقرينة الصارفة عن ظاهره. و(لولا) تحضيضية بمعنى (هلا) ﴿ **وَقَالُوا هذَا إِفْكٌ مُبِينٌ** ﴾ أي هذا الذي سمعناه، من رمي أم المؤمنين، إفك مبين جلّي لمن عقل وفكر فيه. قال العلامة الزمخشري: فإن قلت: هلا قيل (لولا إذ سمعتموه ظننتم بانفسكم خيراً وقلتم)؟ ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة؟ وعن الضمير إلى الظاهر؟ قلت: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات. وليصرح بلفظ (الإيمان) دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضٍ ألا يصدق مؤمن على أخيه، ولا مؤمنة على أختها، قولَ عائب ولا طاعن. وفيه تنبيه على أن حق المؤمن، إذا سمع قالةً في أخيه، أن يبني الأمر فيها على الظن، لا على الشك. وأن يقول بملء فيه – بناء على ظنه بالمؤمن الخير –: ﴿ **هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ** ﴾. هكذا باللفظ المصرح ببراءة ساحته. كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال. وهذا يدل من الأدب الحسن الذي قلّ القائم به والحافظ له. وليتك تجد من يسمع فيسكت، ولا يشيع ما سمعه بأخوات! انتهى. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾

﴿ **لَوْلاَ جاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ، فَإِذْ لَمْ يَأْتوا بالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عنْدَ اللّهِ** ﴾ أي في حكمه وشريعته المؤسسة على الدلائل الظاهرة المستيقنة ﴿ **هُمُ الْكَاذِبُونَ** ﴾ أي

الكاملون في الكذب، المشهود عليهم بذلك. قال الزمخشري: وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك فلم يجدّوا في دفعه وإنكاره. واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع، من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة والتنكيل به، إذا قذف امرأة محصنة من عُرْضِ نساء المؤمنين. فكيف بأم المؤمنين الصديقة بنت الصديق، حرمة رسول الله ﷺ، وحبيبة حبيب الله؟

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾

﴿**وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ أي لعوجلتم بالعقاب، بسبب ما خضتم فيه من الإفك. ولكنه واسع الفضل والرحمة. يمهل المذنب للتوبة، ويحلم عنه للأوبة.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

﴿**إِذْ تَلَقَّوْنَهُ**﴾ أي وقت تلقّي بعضكم من بعض ﴿**بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً**﴾ أي لا تبعة له ولا عقوبة على مشيعه ﴿**وَهُوَ عِنْدَ اللّهِ عَظِيمٌ**﴾ أي والحال إنه عظيم في الوزر واستجرار العذاب. قال المهايمي: لأن الجراءة على رسول الله وعلى أوليائه، تشبه الجراءة على الله تعالى. قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿**بِأَفْوَاهِكُمْ**﴾ والقول لا يكون إلا بالفم؟ قلت: معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب، فيترجم عنه اللسان. وهذا الإفك ليس إلا قولاً يجري على ألسنتكم، ويدور في أفواهكم، من غير ترجمة عن علمٍ به في القلب. كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. انتهى. أي فالقيد ليس تأكيداً صرفاً، (كنظر بعينه) بل ليفيد نفيَه عما عداه. وقيل إنه توبيخ، كما تقول (قاله بملء فيه) فإن القائل ربما رمز، وربما صرّح وتشدّق. وقد قيل هذا في قوله: ﴿بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾[آل عمران :١١٨] وقيل: فائدته ألا يظن أنه كلام نفسي. فهو تأكيد لدفع المجاز. والسياق يقتضي الأول. كذا في (العناية).

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿**وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ**﴾ أي تكذيباً لمشيعيه ﴿**مَا يَكُونُ لَنَا**﴾ أي ما يصح لنا بوجهٍ ما ﴿**أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**﴾ أي تنزيهاً لك، وبراءة إليك مما جاء به هؤلاء. فإنه بهتان عظيم يستحيل صدقه. قال الزمخشري: كلمة (سبحانك) للتعجب من عظم الأمر. فإن قلت: ما معنى التعجب في كلمة التسبيح؟ قلت: الأصل في ذلك، أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه. ثم كثر حتى استعمل في كل متعجَّب منه. أو لتنزيه الله تعالى من أن تكون حرمة نبيّه عليه السلام فاجرة. انتهى.

فعلى الأول، هو من المجاز المتفرع على الكناية، وهو كثير. وقد ذكره النووي في (الأذكار) وكذا (لاإله إلا الله) تستعمل للتعجب أيضاً. وأما الصلاة على النبيّ ﷺ في مقام التعجب فلم ترد ولم تسمع في لسان الشرع. وقد صرح الفقهاء بالمنع. وإنما وقع من العوامّ وبعض المحدثين كقوله:

فمن رأى حُسْنَهُ المفدَّى في الحالِ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدْ

وعلى الثاني، هو حقيقة. كذا في (العناية).

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿**يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ فإن الاتّصاف بالإيمان يصدّ عن كل مقبح ﴿**وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ**﴾ أي الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب، دلالة واضحة لتتعظوا وتتأدبوا بها. أي ينزلها كذلك مبينة، ظاهرة الدلالة على معانيها ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾.

ثم أشار تعالى إلى تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيّء، فعلق بذهنه منه شيء، ألا يتكلم به ولا يذيعه، بقوله سبحانه متوعداً:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿ **إنَّ الَّذين يُحِبُّونَ أنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ** ﴾ أي تنتشر الخصلة المفرطة في القبح، وهي الفرية والرمي بالزنى ونحوه، كاللواط وما عظم فحشه ﴿ **في الَّذينَ ءامَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ في الدُّنْيا** ﴾ أي من الحدّ وغيره، مما يتفق من البلايا الدنيوية ﴿ **والآخِرَةِ** ﴾ أي من عذاب النار ﴿ **واللَّهُ يَعْلَمُ** ﴾ أي ما في القلوب من الأسرار والضمائر ﴿ **وأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ يعني أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة، وهو معاقِبُهُ عليها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

﴿ **ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ وأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ تكرير للمنّة، بترك المعاجلة بالعقاب، للدلالة على عظم الجريمة. وحذف الجواب وهو مستغني عنه بذكره مرة. وهو (لمسّكم).

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

﴿ **يا أَيُّها الَّذينَ ءامَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ** ﴾ أي بإشاعة الفاحشة ﴿ **وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإنَّهُ يَأْمُرُ بالْفَحْشاءِ والْمُنْكَرِ، ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ ما زَكى** ﴾ أي ما طهر من دنسها ﴿ **مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبداً ولَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ** ﴾ من عباده بإلهامه التوبة والإنابة ﴿ **واللَّهُ سَميعٌ عَليمٌ ولا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُم والسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولي الْقُرْبى والْمَساكينَ والْمُهاجِرينَ في سَبيلِ اللهِ، ولْيَعْفُوا ولْيَصْفَحُوا. ألا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾.

قال الزمخشري: (يأتل) من (ائتلى) إذا حلف، افتعال من الألِيّة وهو القَسَم وقيل من قولهم (ما ألوت جهداً) إذا لم تدخر منه شيئاً. ويشهد للأول قراءة الحسن (ولايتألّ) والمعنى: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان. أو لا يقصّروا في أن يحسنوا إليهم،وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها،

فليعودوا عليهم بالعفو والصفح. وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم، مع كثرة خطاياهم وذنوبهم وسيأتي سبب نزولها فيمن عُني بها.

ثم بيّن تعالى وعيد القاذفين للبريئات، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾

﴿**إِنَّ الذين يَرْمُونَ الْمُحْصَنَات الْغَافِلاَت**﴾ أي العفائف عن الفاحشة، النقيات القلوب عنها ﴿**الْمُؤْمِنَات لُعِنُوا في الدُّنْيَا**﴾ بالذم والحد وردّ الشهادة إلا إذا تابوا ﴿**وَالآخِرَة**﴾ أي حيث يلعنهم ثمة الملائكة ومن شاء الله ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ عظيمٌ يوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ أي يعترفون بها بإنطاق الله تعالى إياها أو بظهور آثار ما عملوه عليها. بحيث يعلم من يشاهدهم ما عملوه. وذلك بكيفية يعلمها الله. فهو استعارة. ورجع الأول لقوله: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللّهُ الَّذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، فظاهره الحقيقة، وحمله على الثاني بعيد. قيل: سيأتي في (يس) ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، والختم على الأفواه ينافي شهادة الألسنة. والجواب أن الختم على الأفواه معناه المنع عن التكلم بما يريده وينفعه، بحسب زعمه، اختياراً. كالإنكار والاعتذار، أو أن هذا في حال، وذلك في حال، أو كل منهما في حق قوم غير الآخرين، أو هذا في حق القَذَفَة، وذاك في حق الكفرة – وليس بشيء – إذ لا منافاة فالسر في التصريح بالألسنة هنا، وعدم ذكرها هناك، أن الآية لما كانت في حق القاذف بلسانه، وهو مطالب معه بأربعة شهداء، ذكر هنا خمسة أيضاً، وصرح باللسان الذي به عمله ليفضحه، جزاءً له من جنس فعله. كذا في (العناية).

القول في تأويل قوله تعالى:

يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

﴿**يوْمَئذٍ**﴾ أي يوم إذ تشهد عليهم بما ذكر ﴿**يُوفِّيهمُ اللّهُ دِينَهُمُ**﴾ أي جزاءهم ﴿**الْحَقَّ**﴾ أي الواجب الثابت ﴿**وَيعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ**﴾ أي المظهر للأمور كما هي في أنفسها. ثم أشار تعالى إلى ما يؤكد التبرئة من شاهد العرف والعادة، في أنه لا يضم الشكل إلا إلى شكله، ولا يساق الأهل إلا إلى أهله، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

﴿**الْخَبِيثَاتُ**﴾ أي من النساء ﴿**لِلْخَبِيثِينَ**﴾ أي من الرجال ﴿**وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ**﴾ أي بحيث لا يكاد يتجاوز كلٌّ واحد إلى غيره. و (الطيب) ضد الخبيث وهو الأفضل من كل شيء والأحسن والأجود. قال أبو السعود: وحيث كان رسول الله ﷺ أطيب الأطيبين، وخيرة الأولين والآخرين، تبين كون الصدّيقة رضي الله عنها من أطيب الطيبات بالضرورة. وإتضح بطلان ما قيل في حقها من الخرافات، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ وهو الجنة. وبهذه الآية تم نبأ أهل الإفك.

واعلم أن ما اشتملت عليه الآيات من الأحكام والفوائد والمطالب والآداب، لا تفي بها مجلدات. إلا أنا نشير إلى شيء من ذلك، نقتبسه من أهم المراجع، تتميماً لما أجملناه في تأويلها.

فالأول: أن نبأ الإفك كان في غزوة المريسيع (تصغير مرسوع، بئر أو ماء لخزاعة) وكانت في شعبان سنة خمس. وسببها أنه ﷺ بلغه أن الحارث بن أبي ضرار، سيد بني المصطلق سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريد حرب رسول الله ﷺ. فخرج رسول الله ﷺ بمن معه من أصحابه. وخرج معهم جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها، فأغار عليهم، فسبى ذراريّهم وأموالهم. وكانت عائشة رضي الله عنها قد خرجت معه، عليه الصلاة والسلام، في هذه الغزوة، بقرعة أصابتها وكانت تلك عادته مع نسائه. فلما رجعوا من الغزوة، نزلوا في بعض المنازل. فخرجت عائشة لحاجتها ففقدت عقداً لأختها كانت أعارتها إياه. فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه في وقتها. فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها، فظنوها فيه، فحملوا الهودج، ولا ينكرون خفته، لأنها رضي الله عنها كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها. وأيضاً، فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج، لم ينكروا خفته. ولو كان الذي حمله واحداً أو اثنين لم يخف عليهما الحال. فرجعت عائشة إلى منزلهم وقد أصابت العقد، فإذا ليس لها داع ولا مجيب. فقعدت في المنزل، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها والله غالب على أمره، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء فغلبتها عيناها فنامت فلم تستيقظ إلا بقول

صفوان بن المعطل (بفتح الطاء المشددة سلمى ذكواني صحابي فاضل متقدم الإسلام): إنا للّه وإنا إليه راجعون. زوجة رسول اللّه ﷺ وكان صفوان قد عرس في أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم كما جاء عنه في صحيح أبي حاتم وفي السنن. فلما رآها عرفها. وكان يراها قبل نزول الحجاب. فاسترجع وأناخ راحلته، فقربها إليها، فركبتها. وما كلمها كلمة واحدة. ولم تسمع منه إلا استرجاعه. ثم سار بها يقودها حتى قدم بها، وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته وما يليق به. ووجد الخبيث عدو اللّه ابن أبيّ متنفساً. فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه. فجعل يستحكي الإفك ويستوشيه ويشيعه ويذيعه ويجمعه ويفرقه. وكان أصحابه يتقربون إليه. فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث، ورسول اللّه ﷺ ساكت لا يتكلم. ثم استشار أصحابه في فراقها، فأشار عليه عليّ رضي اللّه عنه أن يفارقها ويأخذ غيرها، تلويحاً لا تصريحاً. وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها، وألا يلتفت إلى كلام الأعداء. فعلي، لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه، أشار بترك الشك والريبة إلى اليقين، ليتخلص رسول اللّه ﷺ من الهم والغم الذي لحقه من كلام الناس فأشار بحسم الداء. وأسامة لما علم حب رسول اللّه ﷺ لها ولأبيها، وعلم من عفتها وبراءتها وحصانتها وديانتها، ما هي فوق ذلك وأعظم منه، وعرف من كرامة رسول اللّه ﷺ على ربه ومنزلته عنده ودفاعه عنه؛ أنه لا يجعل ربة بيته وحبيبته، من النساء وبنت صديقه بالمنزل الذي أنزلها به أرباب الإفك. وأن رسول اللّه ﷺ أكرم على ربه وأعز عليه من أن يجعل تحته امرأة بغياً. وعلم أن الصديقة حبيبة رسول اللّه ﷺ أكرم على ربها من أن يبتليها بالفاحشة وهي تحت رسوله. ومن قويت معرفة اللّه ومعرفة رسوله وقدره عند اللّه في قلبه – قال كما قال أبو أيوب وغيره من سادات الصحابة، لما سمعوا ذلك: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ وتأمل ما في تسبيحهم للّه وتنزيههم له في ذلك المقام، من المعرفة به وتنزيهه عما لا يليق به أن يجعل لرسوله وخليله وأكرم الخلق عليه، امرأة خبيثة بغياً. فمن ظن به سبحانه هذا الظن، فقد ظن به السوء. وعرف أهل المعرفة باللّه ورسوله، أن المرأة الخبيثة لا تليق إلا بمثلها. كما قال تعالى: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ**﴾ فقطعوا قطعاً لا يشكون فيه، أن هذا بهتان عظيم وفرية ظاهرة.

فإن قيل: فما بال رسول اللّه ﷺ توقف في أمرها وسأل عنها وبحث واستشار وهو أعرف باللّه وبمنزلته عنده فيما يليق به. وهلا قال: سبحانك هذا بهتان عظيم، كما قاله فضلاء الصحابة؟ فالجواب: أن هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل اللّه

هذه القصة سبباً لها، وامتحاناً وابتلاء لرسوله ﷺ ولجميع الأمة إلى يوم القيامة. ليرفع بهذه القصة أقواماً ويضع بها آخرين. ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيماناً، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً. واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس عن رسول الله ﷺ الوحي شهراً في شأنها. لا يوحي إليه في ذلك بشيء ليتم حكمته التي قدّرها وقضاها، ويظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصديقين من عباده. ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً. ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبودية المرادة من الصدّيقة وأبيها. وتتم نعمة الله عليهم، ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبيها، والافتقار إلى الله، والذل له، وحسن الظن به، والرجاء له. ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأس من حصول النصرة والفرج على يد أحد من الخلق. ولهذا وفّت لهذا المقام حقه، لما قال لها أبوها: قومي إليه، وقد أنزل الله عليه براءتها، فقالت: والله! لاأقوم إليه ولا أحمد إلا الله الذي أنزل براءتي.

وأيضاً، فكان من حكمة حبس الوحي شهراً، أن القضية نضجت وتمخضت واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف، إلى ما يوحيه الله إلى رسوله فيها. وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع. فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ وأهل بيته، والصديق، وأهله وأصحابه، والمؤمنون. فورد عليهم ورود الغيث على الأرض، أحوج ما كانت إليه. فوقع منهم أعظم موقع وألطفه. وسروا به أتم السرور، وحصل لهم به غاية الهناء. فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحي على الفور بذلك، لفاتت هذه الحكم وأضعافها، بل أضعاف أضعافها.

وأيضاً، فإن الله سبحانه أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عندهم، وكرامتهم عليه. وأن يخرج رسوله عن هذه القضية ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه، والرد على أعدائه، وذمهم وعيبهم بأمر لايكون له فيه عمل ولا ينسب إليه، بل يكون هو وحده المتولي لذلك، الثائر لرسوله وأهل بيته.

وأيضاً، فإن رسول الله ﷺ كان هو المقصود بالأذى. والتي رميت زوجته فلم يكن يليق أن يشهد ببراءتها. مع علمه، أو ظنه الظن المقارب للعلم ببراءتها، ولم يظن بها سوءاً قط، وحاشاه وحاشاها. ولذلك لما استعذر من أهل الإفك، قال: من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي؟ والله! ما علمت على أهلي إلا خيراً. ولقد ذكروا رجلاً ماعلمت عليه إلا خيراً. وما كان يدخل على أهلي إلا معي. فكان عنده

من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين. ولكن لكمال صبره وثباته ورفقه وحسن ظنه بربه، وثقته به، وفّى مقام الصبر والثبات وحسن الظن بالله حقه. حتى جاءه الوحي بما أقرّ عينه وسر قلبه وعظم قدره وظهر لأمته احتفال ربه به واعتناؤه بشأنه.

ولما جاء الوحي ببراءتها أمر رسول الله ﷺ بمن صرح بالإفك، فحدوا ثمانين ثمانين. ولم يحد الخبيث عبد الله بن أُبيّ، مع أنه رأس الإفك. فقيل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة. والخبيث ليس أهلاً لذلك. وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة، فيكفيه ذلك عن الحد. وقيل: بل كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه، ويخرجه في قوالب من لاينسب إليه وقيل: الحد لا يثبت إلا بالإقرار أو بينة. وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد فإنه إنما كان يذكر من أصحابه ولم يشهدوا عليه. ولم يكن يذكره بين المؤمنين. وقيل: حد القذف حق الآدميّ، لا يستوفي إلا بمطالبته: وإن قيل إنه حق لله فلا بدّ من مطالبة المقذوف وعائشة لم تطالب به ابن أبيّ. وقيل: بل ترك حدّه لمصلحة هي أعظم من إقامته. كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مراراً. وهي تاليف قومه وعدم تنفيرهم عن الإسلام. فإنه كان مطاعاً فيهم رئيساً عليهم. فلم يؤمن إثارة فتنة في حده، ولعله ترك لهذه الوجوه كلها. فجلد مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش. وهؤلاء من المؤمنين الصادقين، تطهيراً لهم وتكفيراً. وترك عدو الله ابن أبيّ إذاً فليس هو من أهل ذاك – هذا ما أفاده الإمام ابن القيم رحمه الله في (زاد المعاد) وهو خلاصة الروايات في هذا الباب.

ثم قال رحمه الله: ومن تأمل قول الصديقة، وقد نزلت براءتها، فقال لها أبوها: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقالت: والله! لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله – علم معرفتها وقوة إيمانها وتوليتها النعمة لربها. وإفراده بالحمد في ذلك المقام، وتجديدها التوحيد، وقوة جاشها وإدلالها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يوجب قيامها في مقام الراغب في الصلح الطالب له. ولثقتها بمحبة رسول الله ﷺ لها، قالت ما قالت. إدلالاً للحبيب على حبيبه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسن مقامات الإدلال، فوضعته موضعه. ولله! ما كان أحبها إليه حين قالت: لا أحمد إلا الله فإنه هو الذي أنزل براءتي.ولله! ذلك الثبات والرزانة منها، وهو أحب شيء إليها، ولا صبر لها عنه، وقد تنكر قلب حبيبها لها شهراً. ثم صادفت الرضاء منه والإقبال، فلم تبادر إلى القيام إليه، والسرور برضاه وقربه، مع شدة محبتها له. وهذا غاية الثبات والقوة. انتهى.

وطرق حديث الإفك متعددة عن أم المؤمنين عائشة وعن ابن الزبير وأم رومان وابن عباس وأبي هريرة وأبي اليسر. ورواه من التابعين عشرة كما في (فتح الباري) وذلك في المسانيد والصحاح والسنن وغيرها. ما بين مطول وموجز. ومن الثاني ما أخرجه الإمام[١] أحمد عن أم رومان قالت: بينا أنا عند عائشة، إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت: فعل الله بابنها وفعل. فقالت عائشة: ولم؟ قالت: إنه كان فيمن حدث الحديث قالت: وأيّ حديث؟ قالت: كذا كذا. قالت: وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، قالت وبلغ أبا بكر؟ قالت: نعم. فخرت عائشة رضي الله عنها مغشياً عليها. فما أفاقت وإلا وعليها حمى بنافض. قالت: فقمت فدثرتها. قالت: فجاء النبيّ ﷺ قال: فما شأن هذه؟ فقلت: يارسول الله أخذتها حمى بنافض. قال: فلعله في حديث تحدث به؟ قالت: فاستوت عائشة قاعدة، فقالت: والله لئن حلفت لكم لا تصدقوني، ولئن اعتذرت إليكم لا تعذروني. فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

قالت: فخرج رسول الله ﷺ، وأنزل الله عذرها. فرجع رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر. فدخل فقال: ياعائشة! إن الله تعالى قد أنزل عذرك. فقالت: بحمد الله لا بحمدك. فقال لها أبو بكر: تقولين هذا لرسول الله ﷺ؟ قالت: نعم.

قالت: وكان فيمن حدث هذا الحديث رجل يعوله أبو بكر. فحلف ألاّ يصله. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ [النور: ٢٢]، إلى آخر الآية. فقال أبو بكر: بلى، فوصله. تفرد به البخاري[٢].

المطلب الثاني: قال في (الإكليل) في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ [النور: ١١]، نزلت في براءة عائشة مما قذفت به. فاستدل بها الفقهاء على أن قاذفها يقتل لتكذيبه لنص القرآن قال العلماء: قذف عائشة كفر. لأن الله سبح نفسه عند ذكره. فقال: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، كما سبح نفسه عند ذكر ما وصفه به المشركون من الزوجة والولد. وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، تحريم ظن السوء، وأنه لا يحكم بالظن. وإن من عرف بالصلاح لا يعدل به عنه لخبر مخبر. وأن القاذف مكذب

---

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٦ / ٣٦٧.

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٢٤– سورة النور: حديث ١٢٦٦، عن عائشة.
وأخرجه مسلم في: التوبة، حديث رقم ٥٦.

شرعاً، ما لم يأت بالشهداء. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ [النور:١٩] الآية، الحث على ستر المؤمن وعدم هتكه. أخرج ابن أبي حاتم عن خالد بن معدان، قال من حدث بما أبصرت عيناه وسمعت أذناه فهو من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين ءامنوا، وأخرج عن عطاء قال: من أشاع الفاحشة فعليه النكال وإن كان صادقاً.

وأخرج عن عبد اللّه بن أبي زكريا، أنه سئل عن هذه الآية فقال: هو الرجل يُتكلم عنده في الرجل، فيشتهي ذلك ولا ينكر عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ [النور:٢٢] الآية. النهي عن الحلف ألا يفعل خيراً، وأن عن حلف من يمين فرأى غيرها خيراً منها، يستحب له الحنث. وفيه الأمر بالعفو والصفح.

واستدل من ذهب إلى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النور:٢٣] الآية، نزلت في أزواج النبيّ ﷺ خاصة، يقتل قاذفهن، إذا لم يذكر له توبة، كما ذكرت في قاذف غيرهن في أول السورة انتهى.

وقال ابن كثير: ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رضي اللّه عنها، والصحيح أن الآية عامة لكل المؤمنات، ويدخل فيهن أمهات المؤمنين دخولاً أوليّاً، لاسيما من كانت سبب نزولها، وهي عائشة.

قال ابن كثير: وقد أجمع العلماء رحمهم اللّه قاطبة، على أن من سبها بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن. وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي. واللّه أعلم.

الثالث – قال الإمام ابن تيمية في قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ الآية أخبر تعالى أن النساء الخبيثات للرجال الخبيثين. فلا تكون خبيثة لطيّب. فإنه خلاف الحصر. وأخبر أن الطيبين للطيبات فلا يكون طيّب لخبيثة، فإنه خلاف الحصر. إذ قد ذكر أن جميع الخبيثات للخبيثين. فلا يبقى خبيثة لطيّب ولا طيّب لخبيثة. وأخبر أن جميع الطيبات للطيبين. فلا يبقى طيّبة لخبيث. فجاء الحصر من الجانبين، موافقاً لقوله: ﴿الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور:٣] الآية. ولهذا قال من قال من السلف (ما بغت امرأة نبيّ قط) فإن السورة نزل صدرها بسبب أهل الإفك.

ولهذا لما صارت شبهة، استشار النبيّ ﷺ في طلاقها. إذ لا يصلح له أن تكون امرأته غير طيبة، وقد روي [١] أنه (لا يدخل الجنة ديوث) وهو الذي يقر السوء في أهله، ولهذا كانت الغيرة على الزنى مما يحبها اللّه وأمر بها. حتى قال النبيّ ﷺ [٢]: أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، واللّه أغير مني، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها ومابطن،. ولهذا أذن اللّه للقاذف إذا كان زوجاً، أن يلاعن، لأجل ما أمر به من الغيرة، ولأنها أفسدت فراشه، وإن حبلت من الزني، فعليه اللعان، لئلا يلحق به من ليس منه. ومضت السنّة بالتفريق بينهما، سواء حصلت الفرقة بالتلاعن أو بحاكم أو عند انقضاء لعان الزوج. لأن أحدهما ملعون أو خبيث. فاقترانهما يقتضي مقارنة الخبيث للطّيب. وفي صحيح مسلم[٣] من حديث عمران في الناقة التي لعنتها المرأة، أنه أمر فأخذ ما عليها وأُرسِلَتْ. وقال: لا تصحبنا ناقة ملعونة. ولما اجتاز بديار ثمود قال[٤]: لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين. لئلا يصيبكم ما أصابهم. فنهى عن عبور ديارهم إلا على وجه الخوف المانع من العذاب. وهكذا السنة في مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصي. لا ينبغي لأحد أن يقارنهم ويخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب اللّه عزّ وجلّ، وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم، ماقتاً لهم شانئاً ما هم فيه بحسب الإمكان. كما في قوله [٥]: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده الخ. وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم:١١] الآية، وكذلك ما ذكره عن يوسف وعمله لصاحب مصر لقوم كفار. وذلك أن مقارنة الكفار إنما يفعلها المؤمن في موضعين: أحدهما: أن يكون مكرهاً عليها. والثاني: أن يكون في ذلك مصلحة دينية، راجحة على مفسدة المقارنة، أو أن يكون في تركها مفسدة راجحة في دينه فيدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصل المصلحة الراجحة باحتمال المفسدة المرجوحة. وفي الحقيقة: المكره هو من يدفع الفساد باحتمال أدناهما. وهو الأمر الذي أكره عليه قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾

---

(١) أخرجه النسائي في: الزكاة، ٦٩– باب المنان بما أعطى.

(٢) أخرجه البخاري في: النكاح، ١٠٧– باب الغيرة.

(٣) أخرجه مسلم في: البر والصلة والآداب، حديث رقم ٨٠.

(٤) أخرجه البخاري في: الصلاة، ٥٣– باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، حديث ٢٨٤، عن ابن عمر.

(٥) أخرجه مسلم في: الإيمان. حديث ٧٨، عن أبي سعيد.

[النحل:١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ [النور:٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]، إلى قوله: ﴿غَفُوراً﴾ وقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء:٧٥]، فقد دلت الآية على النهي عن مناكحة الزاني، والمناكحة نوع خاص من المصاحبة. والمناكحة في أصل اللغة المجامعة. فقلوبهما تجتمع إذا عقد النكاح بينهما، ويصير بينهما من التعاطف ما لم يكن قبل ذلك. حتى يثبت ذلك حرمة المصاهرة في غير الربيبة، بمجرد ذلك في التوارث وعدة الوفاة وغير ذلك. وأوسط ذلك اجتماعهما خاليين في مكان واحد، وهو المعاشرة المقررة للصداق، كما أفتى به الخلفاء. وآخر ذلك اجتماع المباضعة. وهذا، وإن اجتمع دون عقد نكاح، فهو اجتماع ضعيف، بل اجتماع القلوب أعظم من مجرد اجتماع البدنين بالسفاح ودل قوله تعالى: ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ على ذلك من جهة المعنى ومن جهة اللفظ ودل أيضاً على النهي عن مقارنة الفجار ومزاوجتهم، كما دل على هذا غير ذلك من النصوص. مثل قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]. أي نظراءهم وأشباههم. والزواج أعمّ من النكاح المعروف. قال تعالى: ﴿أَوْيُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً﴾ [الشورى،:٥٠]، وقال ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، وقال ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، وقال ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقال ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً﴾ [النبأ:٨]. وقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وإن كان في الآية نصّ في الزوجة التي هي الصاحبة وفي الولد منها. فمعنى ذلك: في كل مشابه ومقارن في كل نوع وتابع ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١] الآية. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١]، الآيتين. فالمصاحبة والمصاهرة والمؤاخاة لا تجوز إلا مع طاعة الله على مراد الله. ويدل عليه الحديث الذي في السنن (لا تصاحب إلا مؤمناً. ولا يأكل طعامك إلا تقيٌّ)[1] وفيها (المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل)[2] وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة (إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد)[3] إلى قوله

(١) أخرجه الترمذي في: الزهد، ٥٦- باب ما جاء في صحبة المؤمن، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه الترمذي في: الزهد، ٤٥- باب حدثنا محمد بن بشار عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري في: العتق، ١٧- باب كراهية التطاول على الرقيق، حديث رقم ١٠٨٨ و ١٠٨٩، عن أبي هريرة وزيد بن خالد.
وأخرجه مسلم في: الحدود، حديث رقم ٣٢و٣٣.

(ثم إن زنت فليبعها ولو بضفير) والضفير الحبل وهذا أمر ببيعها ولو بأدنى ما يقابله. قال أحمد: إن لم يبعها كان تاركاً لأمر النبيّ ﷺ. والإماء اللاتي يفعلن هذا، يكون عامتهن للخدمة. فكيف بأمة التمتع؟ وإذا وجب إخراج الأمة الزانية عن ملكه، فكيف بالزوجة الزانية؟ والعبد نظير الأمة، بدليل قوله[1] ﷺ (لعن اللّه من آوى محدثاً) فهذا يوجب لعنة كل من آوى محدثاً. سواء كان إحداثه بالزنى أو السرقة، أو غير ذلك، وسواء كان الإيواء بملك اليمين، أو نكاح، أو غير ذلك ، لأن أقل ما فيه ترك إنكار المنكر. والمؤمن يحتاج إلى امتحان من يريد أن يصاحبه ويقارنه، بالنكاح وغيره. قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وكذلك المرأة التي زنى بها الرجل، فإنه لا يتزوجها إلا بعد التوبة في الأصح. كما دل عليه الكتاب والسنة والآثار. لكن إذا أراد أن يمتحنها. هل هي صحيحة التوبة؟ فقال ابن عمر: يراودها. فإن أجابته لم تصح توبتها. وإن لم تجبه فقد تابت . ونص عليه أحمد. وقيل: هذا فيه طلب الفاحشة. وقد تنقض التوبة. وقد تأمره نفسه بتحقيق ذلك. ويزين لهما الشيطان، لا سيما إن كان يحبها وتحبه، وقد ذاقته وذاقها. ومن قال بالأول قال: الأمر الذي يقصد به امتحانها، لا يكون أمراً بما نهى اللّه عنه. ويمكنه أن لا يطلب الفاحشة بل يعرّض. والتعريض للحاجة جائز بل واجب في مواضع كثيرة. وأما نقضها، فإذا جاز أن تنقض التوبة معه، جاز أن تنقضها مع غيره والمقصود أن تكون ممتنعة ممن يراودها. وأما تزيين الشيطان له الفعل. فهذا داخل في كل أمر يفعله الإنسان من الخير يجد فيه محنة. فإذا أراد المؤمن أن يصاحب أحداً، وقد ذكر عنه الفجور، وقيل إنه تاب، أو كان ذلك مقولاً صدقاً أو كذباً، فإنه يمتحنه بما يظهر به بره وفجوره، وكذلك إذا أراد أن يولّيَ أحداً ولاية، امتحنه، كما أمر عمر بن عبد العزيز غلامه أن يمتحن ابن أبي موسى، لما أعجبه سمته. فقال له: قد علمتَ مكاني عند أمير المؤمنين. فكم تعطيني إذا أشرت عليه بولايتك؟ فبذل له مالاً عظيماً. فعلم أنه ليس ممن يصلح للولاية. وكذلك في المعاملات. وكذلك الصبيان والمماليك الذين عرفوا، أو قيل عنهم الفجور، وأراد الرجل أن يشتريه فإنه يمتحنه. ومعرفة أحوال الناس تارة تكون بشهادات الناس، وتارة بالجرح والتعديل، وتارة بالاختبار والامتحان.

---

(١) أخرجه البخاري في: فضائل المدينة، ١- باب حرم المدينة، حديث رقم ٩٥، عن علي بن أبي طالب.

ثم قال ابن تيمية رحمه الله وكما عظّم الله الفاحشة، عظم ذكرها بالباطل - وهو القذف. فقال بعد ذلك ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤] الآية. ثم ذكر رمي الرجل امرأته وما أمر فيه من التلاعن. ثم ذكر قصة أهل الإفك وبيّن ما في ذلك من الخير للمقذوف، وما فيه من الإثم للقاذف، وما يجب على المؤمنين إذا سمعوا ذلك أن يظنوا بإخوانهم من المؤمنين الخير، ويقولون: هذا إفك مبين. لأن دليله كذب ظاهر. ثم أخبر أنه قول بلا حجة فقال: ﴿لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ. فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]، ثم أخبر أنه لولا فضله عليهم ورحمته لعذبهم بما تكلموا به. وقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور: ١٥]. فهذا بيان لسبب العذاب. وهو تلقي الباطل بالألسنة، والقول بالأفواه. وهما نوعان محرمان: القول بالباطل والقول بلا علم. ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]. فالأول تحضيض على الظن الحسن، وهذا نهي لهم عن التكلم بالقذف. ففي الأول قوله: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقوله ﷺ[1] (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث) وقوله: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً﴾ [النور: ١٢]، دليل على حسن مثل هذا الظن الذي أمر الله به. وفي الصحيح قوله[2] لعائشة (ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً)؟ فهذا يقتضي جواز بعض الظن، كما احتج البخاري بذلك، لكن مع العلم بما عليه المرء المسلم من الإيمان الرادع له عن فعل الفاحشة، يجب أن يظن به الخير دون الشر. وفي الآية نهي عن تلقي مثل هذا باللسان، ونهي عن قول الإنسان ما ليس له به علم، لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، والله جعل في فعل الفاحشة والقذف من العقوبة، ما لم يجعله في شيء من المعاصي. لأنه جعل فيه الرجم وقد رجم قوم لوط إذ كانوا هم أول من فعل فاحشة اللواط. وجعل العقوبة على القاذف بها ثماني جلدة، والرمي بغيرها فيه الاجتهاد. ويجوز عند بعض العلماء أن يبلغ الثمانين، كما قال عليّ: لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري. وكما قال عبد الرحمن بن عوف: إذا شرب هذى، وإذا هذى افترى.

---

(١) أخرجه البخاري في: الوصايا، ٨- باب قول الله تعالى: ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾.
(٢) أخرجه البخاري في: الأدب، ٥٩- باب ما يكون من الظن، حديث رقم ٢٣٣٤، عن عائشة.

وحد الشرب ثمانون، وحد المفتري ثمانون. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ ءامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]. وهذا ذم لمن يحب ذلك. وذلك يكون بالقلب فقط، ويكون مع ذلك باللسان والجوارح. وهو ذم لمن يتكلم بها أو يخبر بها. محبة لوقوعها في المؤمنين، إما حسداً أو بغضاً، أو محبة للفاحشة. فكل من أحب فعلها، ذكرها. وكره العلماء الغزل من الشعر الذي يرغب فيها. وكذلك ذكرها غيبة محرم، سواء كان بنظم أو نثر. وكذلك التشبه بمن يفعلها، منهي عنه مثل الأمر بها. فإن الفعل يطلب بالأمر تارة وبالإخبار تارة. فهذان الأمران للفجرة الزناة واللوطية، مثل ذكر قصص الأنبياء والصالحين للمؤمنين. أولئك يعتبرون من الغيرة بهم، وهؤلاء من الاغترار يعتبرون. فإن أهل الكفر والفسوق والعصيان يذكرون من قصص أشباههم ما يكون به لهم فيه قدوة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦] الآية. قيل: أراد الغناء. وقيل: أراد قصص ملوك الكفار. وبالجملة كل ما رغب النفوس في الطاعة ونهاها عن المعصية، فهو من الطاعة. وما رغب في المعصية ونهى عن الطاعة، فهو من المعصية، فأما ذكر الفاحشة وأهلها بما يجب أو يستحب في الشريعة، مثل النهي عنها وعنهم، والذم لها ولهم وذكر أهلها مطلقاً حيث يسوغ ذلك في وجوههم ومغيبهم – فهذا حسن يجب تارة ويستحب أخرى. كما قص اللّه قصص المؤمنين والفجار ليعتبروا بالأمرين. وقد ذكر اللّه عن أنبيائه وعباده الصالحين، من ذكر الفاحشة وعلائقها على وجه الذم ما فيه عبرة. فقال تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [النمل: ٥٤]، الخ. في مواضع، وهذا فيه من التوبيخ ما فيه، وليس من باب القذف واللمز. ثم توعدوه بإخراجه من القرية. وهذا حال أهل الفجور، إذا كان بينهم من ينهاهم طلبوا إخراجه. وقد عاقب اللّه على الفاحشة اللوطية بما أرادوا أن يقصدوا به أهل التقوى. حيث أمر بنفي الزاني والمخنث. فمضت السنة، بنفي هذا وهذا. وهو سبحانه وتعالى أخرج المتقين من بينهم عند نزول العذاب. وكذلك ما ذكره تعالى في قصة يوسف في قوله: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٢٣]، إلى قوله: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤]، وما ذكره بعده من قول يوسف: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]، وهذا من باب الاعتبار الذي يوجب النفور عن المعصية والتمسك بالتقوى. وكذلك ما بينه في آخرها بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] الآية، ومع هذا، فمن

الناس من يحب سماعها لما فيه من ذكر العشق وما يتعلق به، لمحبته لذلك ولرغبته في الفاحشة، حتى إن منهم من يسمعها النساء لمحبتهم للسوء، ولا يختارون أن يسمعوا ما في سورة النور من العقوبة والنهي عن ذلك. حتى قال بعض السلف: كل ما حصلته في سورة يوسف أنفقته في سورة النور. وقد قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً﴾ [التوبة: ١٢٤] الآيات. فكل أحد يحب سماع ذلك لتحريك المحبة المذمومة، ويبغض سماع ذلك إعراضاً عن دفع هذه المحبة، فهو مذموم ومن هذا ذكر أحوال الكفار والفجار وغير ذلك مما فيه ترغيب في المعصية وصدّ عن سبيل اللّه، ومنه سماع كلام أهل البدع، والنظر في كتبهم لمن يضره ذلك، فهذا الباب تجتمع فيه الشبهات والشهوات. واللّه تعالى ذم هؤلاء في مثل قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ [الأنعام:١١٢]، وقوله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]. وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء:٢٢١]، وما بعدها، وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان:٦]، وقوله ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]، وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف:١٤٦]، وقوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ومثل هذا كثير في القرآن، فأهل المعاصي كثير في العالم، بل هم أكثر، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٦٧] الآية، وفي النفوس من الشبهات المذمومة والشهوات قولاً وعملاً ما يعلمه إلا اللّه، وأهلها يدعون الناس إليها ويقهرون من يعصيهم، ويزينونها لمن يطيعهم. فهم أعداء الرسل وأندادهم. فالرسل يدعون إلى الطاعة بالرغبة والرهبة. ويجاهدونهم عليها. وينهون عن المعاصي ويحذرون منها بالرغبة والرهبة. ويجاهدون من يفعلها. قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة:٦٧] الآية. ثم قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] الآية، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦]، ومثل هذا في القرآن كثير واللّه سبحانه قد أمرنا بالأمر والنهي عن المنكر. والأمر بالشيء مسبوق بمعرفته، فمن لا يعلم المعروف لا يمكنه الأمر بالمعروف. والنهي

عن المنكر مسبوق بمعرفته، فمن لا يعلمه لا يمكنه النهي عنه. وقد أوجب اللَّه علينا فعل المعروف وترك المنكر. فإن حب الشيء وفعله، وبغض ذلك وتركه لا يكون إلا بعد العلم بهما، حتى يصح القصد إلى فعل المعروف وترك المنكر. فإن ذلك مسبوق بعلمه، فمن لم يعلم الشيء لم يتصور منه حب له ولا بغض، ولا فعل ولا ترك. لكن فعل الشيء والأمر به يقتضي أن يعلمه علماً مفصلاً يمكن معه فعله والأمر به إذا أمر به مفصّلاً. ولهذا أوجب اللَّه على الإنسان معرفة ما أمر به من الواجبات مثل صفة الصلاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا أمر بأوصاف فلا بد من العلم بثبوتها. فكما أنّا لا نكون مطيعين إذا علمنا عدم الطاعة، فلا نكون مطيعين إذا لم نعلم وجودها. بل الجهل بوجودها كالعلم بعدمها. وكل منهما معصية. فإن الجهل بالتساوي كالعلم بالتفاضل في بيع الأموال الربوية. وأما معرفة ما يتركه وينهى عنه فقد يكتفي بمعرفته في بعض المواضع مجملاً. فإن الإنسان يحتاج إلى معرفة المنكر وإنكاره. وقد يحتاج إلى الحجج المبينة لذلك. وإلى الجواب عما يعارض به أصحابها، وإلى دفع أهوائهم. وذلك يحتاج إلى إرادة جازمة وقدرة على ذلك. ولا يكون ذلك إلا بالصبر، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣]، وأول ذلك أن تذكر الأقوال والأفعال على وجه الذم لها والنهي عنها. وبيان ما فيها من الفساد. فإن الإنكار بالقلب واللسان، قبل الإنكار باليد، وهذه طريقة القرآن فيما يذكره تعالى عن الكفار والعصاة، كما أن فيما يذكره عن أهل العلم والإيمان على وجه المدح والحب وبيان منفعته والترغيب فيه، نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾ [مريم: ٨٨ - ٨٩] الآيات. وهذا كثير جداً. فالذي يحب أقوالهم وأفعالهم هو منهم. إما كافر وإما فاجر. وليس منهم من هو بعكسه. ولكن لا يثاب على مجرد عدم ذلك. وإنما يثاب على قصده لترك ذلك وإرادته، وذلك مسبوق بالعلم بقبح ذلك وبغضه للَّه. وهذا العلم والقصد والبغض هو من الإيمان الذي يثاب عليه، وهو أدنى الإيمان، كما قال ﷺ[1] (من رأى منكم منكراً) إلى قوله: (وذلك أضعف الإيمان) وتغيير القلب يكون بالبغض لذلك وكراهته، وذلك لا يكون إلا بعد العلم به وبقبحه. ثم بعد ذلك يكون الإنكار باللسان ثم يكون باليد. والنبيّ ﷺ قال: (وذلك أضعف الإيمان)

---

(١) أخرجه مسلم في: الإيمان، حديث ٧٨، عن أبي سعيد الخدري.

فيمن رأى المنكر. فأما إذا رآه ولم يعلم أنه منكر، ولم يكرهه، لم يكن هذا الإيمان موجوداً في القلب في حال وجوده ورؤيته، بحيث يجب بغضه وكراهته، والعلم بقبحه يوجب جهاد الكفار والمنافقين إذا وجدوا. وإذا لم يكن المنكر موجوداً لم يجب ذلك ويثاب من أنكره عند وجوده، ولا يثاب من لم يوجد عنده حتى ينكره وكذلك ما يدخل في ذلك من الأقوال والأفعال والمنكرات، قد يعرض عنها كثير من الناس، إعراضهم عن جهاد الكفار والمنافقين. وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهؤلاء وإن كانوا من المهاجرين الذين هجروا السيئات، فليسوا من المجاهدين الذين يجاهدون في إزالتها. حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فتدبر هذا فإنه كثيراً ما يجتمع في كثير من الناس هذان الأمران: بغض الكفر وأهله، وبغض الفجور وأهله، وبغض نهيهم وجهادهم، كما يحب المعروف وأهله، ولا يحب أن يأمر به، ولا يجاهد عليه بالنفس والمال. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] الآية. قال: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية. وكثير من الناس، بل أكثرهم، كراهتهم للجهاد على المنكرات أعظم من كراهتهم للمنكرات، ولا سيما إذا كثرت المنكرات وقويت فيها الشبهات والشهوات. فربما مالوا إليها تارة، وعنها أخرى. فتكون نفس أحدهم لوامة بعد أن كانت أمارة. ثم إذا ارتقى إلى الحال الأعلى في هجر السيئات، وصارت نفسه مطمئنة، تاركاً للمنكرات والمكروهات، لا تحب الجهاد ومصابرة العدوّ على ذلك، واحتمال ما يؤذيه من الأقوال والأفعال فإن هذا شيء آخر داخل في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٧٧]، إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً﴾ [النساء: ٨٥]، والشفاعة: الإعانة. إذ المعين قد صار شفيعاً للمعان. فكل من أعان على برّ أو تقوى كان له نصيب منه. ومن أعان على الإثم والعدوان كان له كفل منه. وهذا حال الناس فيما يفعلونه بقلوبهم وألسنتهم وأيديهم، من الإعانة على البر والتقوى والإعانة على الإثم والعدوان، ومن ذلك الجهاد بالنفس والمال على ذلك من الجانبين. كما قال تعالى قبل ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:٧١]، إلى

قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٧٦]، ومن هاهنا يظهر الفرق في السمع والبصر من الإيمان وآثاره والكفر وآثاره. والفرق بين المؤمن البر وبين الكافر الفاجر. فإن المؤمنين يسمعون إقبال أهل الإيمان فيشهدون رؤيتهم على وجه العلم والمعرفة والمحبة والتعظيم لهم ولأخبارهم وآثارهم، كرؤية الصحابة النبيّ ﷺ وسمعهم لما بلغهم عن الله. والكافر والمنافق يسمع ويرى على وجه البغض والجهل كما قال تعالى: ﴿وإِنْ يَكَادُ الَّذينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بأَبْصَارِهِم لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١] الآية. وقال: ﴿فإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشيِّ عَلَيْهِ منَ الْمَوتِ﴾ [محمد: ٢٠]، وقال: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطيعونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقال: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثيرٌ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١]، وقال تعالى في حق المؤمنين ﴿وَالَّذينَ إِذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ [الفرقان: ٧٣]، وقال في حق الكفار ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩]، والآيات في هذا كثيرة جداً. وكذلك النظر إلى زينة الدنيا فتنة. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِه أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فيه﴾ [طه: ١٣١]، وفي آخر الحجر. وقوله ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٥] الآية، وقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنينَ يَغُضُّوا منْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] الآية، وقال: ﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨] الآية، وقال ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] الآيات، وقال ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا في السَّمواتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] الآية، وقال ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [سبأ: ٩] الآية. وكذلك قال الشيطان: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وقال ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ [الشعراء: ٦١] الآيات. وقال: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَليلاً﴾ [الأنفال: ٤٣]، الآيات. فالنظر إلى متاع الدنيا على وجه المحبة والتعظيم لها ولأهلها، منهي عنه. والنظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه الاعتبار مأمور به. وأما رؤية ذلك عند الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدفع شر أولئك، فمأمور به. وكذلك رؤية الاعتبار شرعاً في الجملة. فالعين الواحدة ينظر إليها تارة نظراً مأموراً به. إما للاعتبار وإما لبغض ذلك. والنظر إليه لبغض الجهاد منهي عنه. وكذلك المولاة والمعاداة. وقد يحصل للعبد فتنة بنظر منهي عنه، وهو يظن أنه نظر عبرة. وقد يؤمر بالجهاد فيظن أن ذلك نظر فتنة، كالذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي﴾

[التوبة: ٤٩]، فإنها نزلت في الجدّ بن قيس لما أمره النبيّ ﷺ أن يتجهز لغزو الروم فقال: إني مغرم بالنساء وأخاف الفتنة بنساء الروم. فهذا ونحوه مما يكون باللسان من القول. وأما ما يكون من الفعل بالجوارح، فكل عمل يتضمن محبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، داخل في هذا . بل يكون عذابه أشد. فإن اللّه قد توعد بالعذاب على مجرد المحبة. وهذه قد لا يقترن بها قول ولا فعل . فكيف إذا اقترن؟ بل على الإنسان أن يبغض ما أبغضه اللّه تعالى من فعل الفاحشة والقذف بها وإشاعتها في الذين آمنوا. ومن رضي عمل قوم حشرمعهم. كما حشرت امرأة لوط معهم. ولم تكن تفعل فاحشة اللواط. فإنه لا يقع من المرأة. ولكن لما رضيت فعلهم ، عَمَّها معهم العذاب. فمن هذا الباب قيل: من أعان على الفاحشة وإشاعتها، مثل القواد. لما يحصل له من رياسة أو سؤدد أو سحت يأكله. وكذلك أهل الصناعات التي تنفق، مثل المغنين وشرَبَهةالخمر وضمان الجهات السلطانية وغيرها، فإنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا. فإنها إذا شاعت تمكنوا من أغراضهم من الرياسة والمال وفعل الفاحشة وتمكنوا من دفع من ينكرها، بخلاف ما إذا كانت قليلة. ولا خلاف بين المسلمين أن ما يدعو إلى معصية اللّه وينهى عن طاعته، منهيّ عنه محرّم. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، أي ما فيها من ذكر اللّه وطاعته وامتثال أمره أكبر من ذلك. وقال في الخمر والميسر: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة:٩١]، أي يوقعهم ذلك في معصيته التي هي العداوة والبغضاء، وهذا من أعظم المنكرات التي تنهى عنه الصلاة، والخمر تدعو إلى الفحشاء والمنكر، كما هو الواقع. فإن شاربِ الخمر تدعوه نفسه إلى الجماع حلالاً كان أو حراماً. فإن اللّه سبحانه لم يذكر الجماع، لأن الخمر لا يدعو إلى الحرام بعينه من الجماع. والسكر يزيل العقل الذي يميز به بين الحلال والحرام. والعقل الصحيح ينهى عن مواقعة الحرام. ولهذا يكثر شارب الخمر من مواقعة الفواحش. ما لا يكثر من غيرها، حتى ربما يقع على ابنته وابنه ومحارمه. وقد يستغني بالحلال إذا أمكنه. ويدعو شرب الخمر. إلى أكل أموال الناس بالسرقة والمحاربة وغير ذلك. لأنه يحتاج إلى الخمر وما يستتبعه من مأكول وغير ذلك من فواحش وغناء. وشرب الخمر يظهر أسرار الرجال، حتى يتكلم شاربه بما في باطنه وكثير من الناس إذا أرادوا استفهام ما في قلوب الرجال من الأسرار ، سقوهم الخمر، وربما يشربون معهم ما لا يسكرون به. وأيضاً فالخمر تصدّ الإنسان عن علمه وتدبيره. فجميع الأمور التي تصد عنها وتوقعها من

المفاسد داخل في قوله تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ﴾ [المائدة: ٩١]، وكذلك إيقاع العداوة والبغضاء هو منتهى قصد الشيطان ولهذا قال النبيّ ﷺ[1] (ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) قالوا: بلى يا رسول اللَّه؛ قال: (إصلاح ذات البين. فإن فساد ذات البين هي الحالقة. لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين) وقد ذكرنا في غير هذا أن الفواحش والظلم وغير ذلك من الذنوب يوقع العداوة والبغضاء وأن كل عدواة أو بغضاء فأصلها من المعصية والشيطان يأمر بالمعصية ليوقع فيما هو أعظم منها ولايرضى إلا بغاية ما قدر على ذلك. وأيضاً فالعدواة والبغضاء شر محض، لا يحبهما عاقل. بخلاف المعاصي فإن فيها لذة. والنفوس تريدها، والشيطان يدعو إليها، ليوقعها في شرّ لا تهواه. واللَّه سبحانه قد بيّن ما يريد الشيطان بالخمر والميسر، ولم يذكر ما يريده الإنسان. ثم قال في سورة النور ﴿لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّه يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١]، وكذلك في البقرة، نهى عن اتباع خطواته، وهو اتباع أمره بالاقتداء والاتباع. وأخبر أنه يأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والقول على اللَّه لا علم. وقال فيها: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فذكر أن الشيطان يأمر بذلك وبعد هذا ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال عن نبيّه ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] الآية، وقال عن أمته ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وذكر مثل ذلك في مواضع كثيرة فتارة يخص اسم المنكر بالنهي، وتارة يقرنه بالفحشاء، وتارة يقرن معهما البغي. وكذلك المعروف، تارة يخصه بالأمر، وتارة يقرن به غيره. كقوله تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] الآية، وذلك أن الأسماء قد يكون عمومها وخصوصها بحسب الإفراد والتركيب. كلفظ (الفقير والمسكين). إذا عرف هذا فاسم المنكر يعمّ كل ما كرهه اللَّه ونهى عنه. واسم المعروف يعم كل ما يحبه اللَّه ويرضاه. وإذا قرن المنكر بالفحشاء، فالفحشاء مبناها على المحبة. والمنكر هو الذي تنكره القلوب . فقد يظن أن ما في الفاحشة من المحبة يخرجها عن الدخول فيه. فإن

---

(١) أخرجه الترمذي في: القيامة، ٥٦- باب حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الرحيم البنداري، عن أبي الدرداء.

الفاحشة وإن كانت مما تنكره القلوب فإنها تشتهيها النفوس. وكذلك البغي، قرن بها لأنه أبعد عن محبة النفوس. ولهذا كان جنس عذاب صاحبه أعظم من جنس عذاب صاحب الفحشاء. ومنشؤه من قوة الغضب. ولكل من النفوس لذة بحصول مطلوبها. فالفواحش والبغي مقرونان بالمنكر. وأما الإشراك والقول على اللّه بلا علم، فإنه منكر محض. ليس في النفوس ميل إليهما. بل إنما يكونان عن عناد وظلم. فهما منكر محض بالفطرة ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١]، سواء كان الضمير عائداً إلى الشيطان أو إلى المتَّبِع. فإن من أتى ذلك، فإن كان الشيطان أمره فهو متبعه عابد له. وإن كان الآتي هو الآمر. فالأمر بالفعل أبلغ من فعله. فمن أمر بها غيره رضيها لنفسه.

ومن الفحشاء والمنكر استماع العبد مزامير الشيطان. والمغنّي هو مؤذنه الذي يدعو إلى طاعته فإن الغناء رقية الزنى. وكذلك من اتباع خطوات الشيطان، القول على اللّه بلا علم. كحال أهل البدع والفجور وكثير ممن يستحل مؤاخاة النساء والمرْد وإحضارهم في سماع الغناء ودعوى محبة صورهم للّه وغير ذلك، مما فتن به كثير من الناس فصاروا ضالين مضلين. ثم إنه سبحانه نهى المظلوم بالقذف، أن يمنع ما ينبغي فعله من الإحسان إلى القرابة والمساكين وأهل التوبة. وأمره بالعفو. فإنه كما يحب أن يُغفر له فليغفر، ولا ريب أن صلة الأرحام واجبة، وإيتاء المساكين واجب، ومعونة المهاجرين واجبة، فلا يجوز ترك ما يجب من الإحسان للإنسان بمجرد ظلمه: كما لا يمنع ميراثه وحقه من الصدقات والفيء، بمجرد ذنب من الذنوب وقد يمنع من ذلك لبعض الذنوب.

وفي الآية دليل على وجوب الصلة والنفقة وغيرها لذوي الأرحام الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب.

فإنه قد ثبت في الصحيح[1] عن عائشة في قصة الإفك، أن أبا بكر الصديق حلف ألا ينفق على مسطح بن أثاثة، وكان أحد الخائضين في الإفك في شأن عائشة. وكانت أم مسطح بنت خالة أبي بكر. وقد جعله اللّه من ذوي القربى الذين نهى عن ترك إيتائهم. والنهي يقتضي التحريم. فإذا لم يجز الحلف على ترك الفعل، كان الفعل واجباً، لأن الحلف على ترك الجائز جائز. انتهى كلام ابن تيمية رحمه اللّه تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في: الشهادات، ١٥- باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، حديث ١٢٦٦، من حديث الإفك الطويل.

الرابع – قال الزمخشري: لو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة، لم تر اللّه تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة، رضوان اللّه عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما رُكب من ذلك واستفظاع ما أُقدم عليه – ما أنزل فيه، على طرق مختلفة وأساليب مفتنّة. كل واحد منها كان في بابه ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ [النور:٢٣]، إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ الحَقُّ الْمُبِينُ﴾ لكفى بها. حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً. وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة. وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا. وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله، حتى يعلموا عند ذلك، أن اللّه هو الحق المبين. فأوجز في ذلك وأشبع وفصّل وأجمل وأكد وكرر، بما لم يقع في وعيد المشركين، عبدة الأوثان، إلا ما هو دونه في الفظاعة. وما ذاك إلا لأمر. وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه كان بالبصرة يوم عرفة. وكان يسأل عن تفسير القرآن. حتى سئل عن هذه الآيات فقال: من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته، إلا من خاض في أمر عائشة، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك. ولقد برأ اللّه تعالى أربعة بأربعة: برأ يوسف بلسان الشاهد ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦]، وبرأ موسى[١] من قول اليهود فيه، بالحجر الذي ذهب بثوبه. وبرأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى في حجرها ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم:٣٠]، وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلوّ على وجه الدهر، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات. فانظركم بينها وبين تبرئة أولئك؟ وما ذاك إلا لإظهار علوّ منزلة رسول اللّه ﷺ، والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم وخيرة الأولين والآخرين وحجة اللّه على العالمين.

ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ وتقدم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق فَلْيَتَلَقَّ ذلك من آيات الإفك. وليتأمل كيف غضب اللّه له في حرمته، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه.

(فإن قلت) إن كانت عائشة هي المرادة، فكيف قيل: المحصنات؟ (قلت): فيه وجهان: أحدهما – أن يراد بالمحصنات أزواج رسول اللّه ﷺ وأن يخصصن بأن من قذفهن، فهذا الوعيد لاحق به. وإذا أردن وعائشة كبراهن منزلة وقربة عند رسول

---

(١) أخرجه البخاري في: الغسل، ٢٠- باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة، حديث رقم ٢٠١، عن أبي هريرة.

اللَّه ﷺ، كانت المرادة أولاً والثاني - أنها أم المؤمنين، فَجُمِعَتْ. إرادة لها ولبناتها من نساء الأمة الموصوفات بالإحصان والغفلة والإيمان انتهى.

قال الناصر: والأظهر أن المراد عموم المحصنات والمقصود بذكرهن على العموم، وعيد من وقع في عائشة، على أبلغ الوجوه، لأنه إذا كان هذا وعيد قاذف آحاد المؤمنات، فما الظن بوعيد من قذف سيدتهن وزوج سيد البشر ﷺ؟ على أن تعميم الوعيد أبلغ وأفظع من تخصيصه. وهذا معنى قول زليخا ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، فعمّمت وأرادت يوسف، تهويلاً عليه وإرجافاً. والمعصوم من عصمه اللّه تعالى. انتهى.

الخامس: قال الإمام ابن تيمية في (منهاج السنة) ذهب كثير من أهل السنة إلى أن عائشة رضي اللّه عنها أفضل نسائه عليه الصلاة والسلام واحتجوا بمافي الصحيحين[(١)] عن أبي موسى وعن أنس رضي اللّه عنهما، أن النبيّ ﷺ قال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». والثريد هو أفضل الأطعمة، لأنه خبز ولحم. كما قال الشاعر:

إذا ما الخبزُ تادِمُهُ بلحمٍ فذاكَ أمانة اللّه الثَّريدُ

وذلك أن البُر أفضل الأقوات. واللحم أفضل الإدام، كما في الحديث الذي رواه ابن قتيبة وغيره. عن النبيّ ﷺ أنه قال: (سيد إدام أهل الدنيا والآخرة اللحم) فإذا كان اللحم سيد الإدام، والبر سيد الأقوات، ومجموعهما الثريد، كان الثريد أفضل الطعام.

وقد صح من غير وجه عن الصادق المصدوق أنه قال (فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[(٢)] وفي الصحيح[(٣)] عن عمرو بن العاص قال: قلت: «يا رسول اللّه أي النساء أحب إليك؟ قال (عائشة) قلت: ومن الرجال؟ قال (أبوها)

---

(١) أخرجه البخاري في: فضائل أصحاب النبيﷺ: ٣٠- باب فضل عائشة رضي اللّه عنها، حديث ١٦٠٦، عن أبي موسى الأشعري، حديث ١٧٦٨، عن أنس بن مالك.
وأخرجه مسلم في: فضائل الصحابة، حديث ٧٠، عن أبي موسى. وحديث ٧٩، عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه البخاري في: الأطعمة، ٢٥- باب الثريد، حديث ١٦٠٦، عن أبي موسى الأشعري.

(٣) أخرجه البخاري في: فضائل أصحاب النبي ﷺ، ٥- باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» حديث رقم ١٧٢٢.

قلت: ثم من؟ قال: (عمر) وسمى رجالاً». وهؤلاء يقولون: قوله ﷺ لخديجة: ما أبدلني اللّه خيراً منها: إن صح معناه ما أبدلني خيراً لي منها: فإن خديجة نفعته في أول الإسلام نفعاً لم يقم غيرها فيه مقامها. فكانت خيراً له من هذا الوجه لكونها نفعته وقت الحاجة، وعائشة صحبته في آخر النبوة وكمال الدين. فحصل لها من العلم والإيمان ما لم يحصل لمن لم يدرك إلا أول النبوة. فكانت أفضل لهذه الزيادة فإن الأمة انتفعت بها أكثر مما انتفعت بغيرها، وبلغت من العلم والسن ما لم يبلغه غيرها فخديجة كان خيرها مقصوراً على نفس النبيّ ﷺ لم تبلغ عنه شيئاً، ولم تنتفع بها الأمة كما انتفعوا بعائشة، ولأن الدين لم يكن قد كمل حتى تعلمه، ويحصل لها من كمالاته ما حصل لمن علم وآمن به بعد كماله، ومعلوم أن من اجتمع همه على شيء واحد، كان أبلغ فيه ممن تفرق همه في أعمال متنوعة. فخديجة رضي اللّه تعالى عنها خير له من هذا الوجه. لكن أنواع البر لم تحصر في ذلك. ألا ترى أن من كان من الصحابة أعظم إيماناً، وأكثر جهاداً بنفسه وماله. كحمزة وعليّ وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وغيرهم، هم أفضل ممن كان يخدم النبيّ ﷺ وينفعه في نفسه أكثر منهم. كأبي رافع وأنس بن مالك وغيرهما. وفي الجملة، الكلام في تفضيل عائشة وخديجة ليس هذا موضع استقصائه. لكن المقصود هنا أن أهل السنة مجمعون على تعظيم عائشة ومحبتها، وإن نساءه ﷺ أمهات المؤمنين اللواتي مات عنهن، كانت عائشة أحبهن إليه وأعظمهن حرمة عند المسلمين. وقد ثبت في الصحيح[(١)] أن الناس كانوا يتحرّون بهداياهم يوم عائشة، لما يعلمون من محبته إياها. حتى أن نساءه غرن من ذلك. وأرسلن إليه فاطمة رضي اللّه عنها تقول له[(٢)]: نساؤك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة: فقال لفاطمة: أي بنية أما تحبين ما أحب؟ قالت: بلى. قال: فأحبي هذه، الحديث في الصحيحين[(٣)] وفي الصحيحين

---

(١) أخرجه البخاري في: فضائل أصحاب النبي ﷺ، ٣٠- باب فضائل عائشة رضي اللّه عنها، حديث ١٢٥٨، عن عائشة.
وأخرجه مسلم في: فضائل الصحابة، حديث رقم ٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في: الهبة، ٨- باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه دون بعض، حديث ١٢٥٨، عن عائشة.
وأخرجه مسلم في: فضائل أصحاب النبي ﷺ، حديث رقم ٨٣.

(٣) أخرجه البخاري في: فضائل أصحاب النبي ﷺ، ٣٠- باب فضل عائشة رضي اللّه عنها، حديث ١٥١٩، عن عائشة.
وأخرجه مسلم في: فضائل الصحابة، حديث رقم ٩٠.

أيضاً أن النبيّ ﷺ قال: يا عائشة! هذا جبريل يقرأ عليك السلام قالت: وعليه السلام ورحمة اللّه. ترى ما لا نرى. ووهبت[١] سودة بنت زمعة يومها لعائشة رضي اللّه عنهما، بإذنه ﷺ. وكان في مرضه[٢] الذي مات فيه يقول: أين أنا اليوم؟ استبطاء ليوم عائشة. ثم[٣] استأذن نساءه أن يمرّض في بيت عائشة رضي اللّه عنها، فمرض فيه. وفي[٤] بيتها توفي بين سحرها ونحرها وفي حجرها. وكانت[٥] رضي اللّه عنها مباركة على أمته. حتى قال أسيد بن حضير، لما أنزل اللّه آية التيمم بسببها: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. ما نزل بك أمر قط تكرهينه إلا جعل اللّه فيه للمسلمين بركة. وقد كانت[٦] نزلت آية براءتها قبل ذلك، لما رماها أهل الإفك. فبرأها اللّه من فوق سبع سموات، وجعلها من الصيّنات. وباللّه التوفيق. انتهى.

وأغرب الإمام ابن حزم، فذهب إلى أن أفضل الناس بعد الأنبياء، نساؤه ﷺ. معلوم أن عائشة فضلاهن، وقد أسهب في ذلك في كتابه (الملل) فارجع إليه.

السادس - قال القاشاني رحمه اللّه تعالى: إنما عظم تعالى أمر الإفك وغلظ في الوعيد عليه، بما لم يغلظ في غيره من المعاصي، وبالغ في العقاب عليه بما لم يبالغ به في باب الزنى وقتل النفس المحرمة، لأن عظم الرذيلة وكبر المعصية، إنما يكون على حسب القوة التي هي مصدرها. وتتفاوت حال الرذائل في حجب صاحبها عن الحضرة الإلهية والأنوار القدسية، وتوريطه في المهالك الهيولانية، والمهاوي الظلمانية، على حسب تفاوت مبادئها، فكلما كانت القوة التي هي مصدرها ومبدؤها أشرف. كانت الرذيلة الصادرة منها أردأ. وبالعكس لأن الرذيلة ما قابل الفضيلة. فلما كانت الفضيلة أشرف ، كان ما يقابلها من الرذيلة أخسّ، والإفك رذيلة القوة الغضبية. فبحسب شرف الأولى على الباقيتين، تزداد رداءة رذيلتها.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦ /٦٨، عن عائشة.

(٢) أخرجه البخاري في: فضائل أصحاب النبي ﷺ، ٣٠- باب فضائل عائشة رضي اللّه عنها، حديث ٥٢١، عن عائشة.

(٣) أخرجه البخاري في: فرض الخمس، ٤- باب ما جاء في بيوت أزواج النبي ﷺ، حديث ١٥٢، عن عائشة.

(٤) أخرجه البخاري في: فرض الخمس، ٤- باب ما جاء في بيوت أزواج النبي ﷺ، حديث ٥٢١، عن عائشة.

(٥) أخرجه البخاري في: التيمم، ١- باب قول اللّه تعالى: ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾، حديث ٢٣٠، عن عائشة.

(٦) أخرجه البخاري في: ٦٤- كتاب المغازي، ٣٤- حديث الإفك، حديث رقم ١٢٦٦، عن عائشة.

وذلك أن الإنسان إنما يكون بالأولى إنساناً، وترقيه إلى العالم العلويّ، وتوجهه إلى الجناب الإلهي وتحصيله للمعارف والكمالات، واكتسابه للخيرات والسعادات - إنما يكون بها. فإذا فسدت بغلبة الشيطنة عليها ، واحتجبت عن النور باستيلاء الظلمة، حصلت الشقاوة العظمى، وحقت العقوبة بالنار. وهو الرين والحجاب الكلي.

ألا ترى أن الشيطنة المغوية للآدمي أبعد عن الحضرة الآلهية، من السبعية والبهيمية؟ وأبعد بما لا يقدر قدره، فالإنسان برسوخ رذيلته النطقية يصير شيطاناً، وبرسوخ الرذيلتين الأخريين ، يصير حيواناً كالبهيمة أو السبع، وكل حيوان أرجى صلاحاً، وأقرب فلاحاً من الشيطان. ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١- ٢٢٢]، ونهى ها هنا عن اتباع خطوات الشيطان . فإن ارتكاب مثل هذه الفواحش لا يكون إلا بمتابعته ومطاوعته، وصاحبه يكون من جنوده وأتباعه. فيكون أخس منه وأذل، محروماً من فضل اللّه الذي هو نور هدايته، محجوباً من رحمته التي هي إفاضة كمال وسعادة، ملعوناً في الدنيا والآخرة، ممقوتاً من اللّه والملائكة. تشهد عليه جوارحه بتبدّل صورها وتشوّه منظرها. خبيث الذات والنفس. متورطاً في الرجس. فإن مثل هذه الخبائث لا تصدر إلا من الخبيثين. كما قال تعالى: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ**﴾ وأما الطيبون المنزهون عن الرذائل، فإنما تصدرعنهم الطيبات والفضائل. انتهى.

السابع - في سر قَرْن الزنى بالشرك في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور:٣]، وتحقيق القول في الآية. قال الإمام ابن القيم رحمه اللّه في (إغاثة اللهفان) : نجاسة الزنى واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات. من جهة أنها تفسد القلب وتضعف توحيده جداً. ولهذا أحظى الناس بهذه النجاسة، أكثرهم شركاً. فكلما كان الشرك في العبد أغلب. كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر، وكلما كان أعظم إخلاصاً ، كان منها أبعد، كما قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فإن عشق الصور المحرمة نوع تعبدّ لها. بل هو من أعلى أنواع التعبّد. ولا سيما إذ استولى على القلب وتمكن منه، صار تتيّماً. والتتيّم التعبد. فيصير العاشق عابداً لمعشوقه. وكثيراً ما يغلب حبه وذكره والشوق إليه والسعي في مرضاته وإيثار محابّه، على حب اللّه وذكره والسعي في مرضاته، بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية ويصير متعلقاً بمعشوقه من الصور. كما هو مشاهد فيصير المعشوق هو إلهه من دون اللّه عزَّ وجلَّ. يقدم رضاه وحبه على رضا اللّه وحبه. ويتقرب إليه ما

لا يتقرب إلى اللّه. وينفق في مرضاته ما لا ينفقه في مرضاة اللّه. ويتجنب سخطه ما لا يتجنب من سخط اللّه تعالى. فيصير آثر عنده من ربه حبّاً وخضوعاً وذلاً وسمعاً وطاعةً ، ولهذا كان العشق والشرك متلازمين، وإنما حكى اللّه سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط، وعن امرأة العزيز، وكانت إذ ذاك مشركة، فكلما قوي شرك العبد بُلي بعشق الصور وكلما قوي توحيده صرف ذلك عنه. والزنى واللواطة كمال لذته، إما يكون من العشق. ولا يخلو صاحبهما منه. وإنما لتنقله من محل إلى محل، لا يبقى عشقه مقصوراً على محل واحد. بل ينقسم على سهام كثيرة لكل محبوب نصيب من تألهه وتعبده. فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين . ولهما خاصية في تبعيد القلب من اللّه، فإنهما من أعظم الخبائث فإذا انصبغ القلب بهما بعد ممن هو طيب لا يصعد إليه إلا طيب. وكلما ازداد خبثاً ازداد من اللّه بعداً. ولهذا قال المسيح، فيما رواه الإمام أحمد في (كتاب الزهد) لا يكون البطالون من الحكماء. ولا يلج الزناة ملكوت السماء. ولما كانت هذه حال الزنى كان قريباً للشرك في كتاب اللّه تعالى. قال اللّه تعالى: ﴿الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُها إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]. والصواب القول بأن هذه الآية محكمة. يعمل بها لم ينسخها شيء. وهي مشتملة على خبر وتحريم . ولم يأت من ادعى نسخها بحجة البتة. والذي أشكل منها على كثير من الناس، واضحٌ بحمد اللّه تعالى. فإنهم أشكل عليهم قوله: ﴿الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور:٣]، هل هو خبر أو نهي أو إباحة؟ فإن كان خبراً فقد رأينا كثيراً من الزناة ينكح عفيفة. وإن كان نهياً فيكون قد نهى الزاني أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة، فيكون نهياً له عن نكاح المؤمنات العفائف. وإباحة له نكاح المشركات والزواني، واللّه سبحانه لم يرد ذلك قطعاً. فلما أشكل عليهم ذلك. طلبوا للآية وجهاً يصح حملها عليه. فقال بعضهم: المراد من النكاح الوطء والزنى. فكأنه قال: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة. وهذا فاسد. فإنه لا فائدة فيه. ويصان كلام اللّه تعالى عن حمله على مثل ذلك. فإنه من المعلوم أن الزاني لا يزني إلا بزانية. فأي فائدة في الإخبار بذلك. ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه.، ثم قالت طائفة: هذا عام اللفظ خاص المعنى. والمراد به رجل واحد[١] وامرأة واحدة. وهي عناق وصاحبها، فإنه أسلم واستأذن رسول اللّه ﷺ في نكاحها فنزلت هذه الآية.

---

(١) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٢٤– سورة النور، ١– حدثنا عبد بن حميد، عن عبد اللّه بن عمرو.

وهذا أيضاً فاسد . فإن هذه الصورة المعينة، وإن كانت سبب النزول ، فالقرآن لا يقتصر به على محالّ أسبابه. ولو كان كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها. وقالت طائفة: بل الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، وهذا أفسد من الكل. فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين. ولا تناقض إحداهما الأخرى. بل أمر سبحانه بإنكاح الأيامى، وحرم نكاح الزانية، كما حرم نكاح المعتدة والمحرمة وذوات المحارم. فأين الناسخ والمنسوخ في هذا ؟ (فإن قيل): فما وجه الآية؟ قيل: وجهها، والله أعلم. أن المتزوج أمر أن يتزوج المحصنة العفيفة، وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط. كما ذكر ذلك سبحانه في سورتي النساء والمائدة. والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه. والإباحة قد علقت على شرط الإحصان، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به. فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرعه على لسان رسوله، أو لا يلتزمه. فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله، وإن التزمه وخالفه، ونكح ما حرم عليه، لم يصح إنكاح. فيكون زانياً، فظهر معنى قوله ﴿لا يَنْكِحُ إلاَّ زانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً﴾ وتبين غاية البيان. وكذلك حكم المرأة. وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه، فهو موجب الفطرة ومقتضى العقل. فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قرناناً ديوثاً زوج بغي. فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه. ولهذا إذا بالغوا في سبّ الرجل قالوا (زوج قحبة) فحرم الله على المسلم أن يكون كذلك. فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية. والله الموفق.

ومما يوضح التحريم.، وأنه هو الذي يليق بهذه الشريعة الكاملة، أن هذه الجناية من المرأة تعود بفساد فراش الزوج، وفساد النسب الذي جعله الله تعالى بين الناس لتمام مصالحهم. وعدّوه من جملة نعمه عليهم، فالزني يفضي إلى اختلاط المياه واشتباه الأنساب. فمن محاسن الشريعة تحريم نكاح الزانية حتى تتوب وتستبرأ. وأيضاً، فإن الزانية خبيثة، كما تقدم بيانه والله سبحانه جعل النكاح سبباً للمودة والرحمة، والمودة خالص الحب، فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيب، زوجاً له؟ والزوج سمي زوجاً من الازدواج فالزوجان، الاثنان المتشابهان والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعاً وقدراً. فلا يحصل معها الازدواج والتراحم والتوادّ. فلقد أحسن كل الإحسان من ذهب إلى هذا المذهب، ومنع الرجل أن يكون زوج قحبة. فأين هذا من قول من جوز أن يتزوجها ويطأها الليلة، وقد وطئها الزاني البارحة؟ وقال: ماء الزاني لا حرمة له. فهب أن الأمركذلك، فماء الزوج له حرمة

فكيف يجوز اجتماعه مع ماء الزاني في رحم واحد، والمقصود أن اللّه سبحانه سمى الزواني والزناة خبيثين وخبيثات. وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة، وإن كان حلالاً. وسمي فاعله جنباً لبعده عن قراءة القرآن وعن الصلاة وعن المساجد. فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء. فكذلك إذا كان حراماً يبعد القلب عن اللّه تعالى وعن الدار الآخرة. بل يحول بينه وبين الإيمان، حتى يحدث طهراً. كاملاً بالتوبة. وطهراً لبدنه بالماء. وقولُ اللوطية ﴿أَخْرِجُوهُم مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]، من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [المائدة: ٥٩]، وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد، وأنه لا يشوبه بالإشراك، وهكذا المبتدع إنما ينقم على السنّي تجريده متابعة الرسول وأنه لم يَشُبْها بآراء الرجال ولا بشيء مما خالفها، فصبر الموحد المتبع للرسول، على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة، خير له وأنفع، وأسهل عليه، من صبره على ما ينقمه اللّه ورسوله، عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة.

إذا لَمْ يَكُنْ بدٌّ من الصبرِ، فاصْطَبِرْ على الحقِّ. ذاكَ الصبرُ تُحْمَدُ عُقْبَاهُ

لطيفة:

كتب ابن القاضي شرف الدين ابن المقري، صاحب (الروض) إلى أبيه، وقد قطع نفقته:

لا تقطعنْ عادةَ بَرٍّ، ولا تجعلْ عتابَ المرءِ في رزقِهِ
فإن أمرَ الإفكِ مِنْ مِسطحٍ يحط قدر النَّجْم من أُفْقِه
وقد جَرى منه الذي قد جَرى وعُوتِبَ الصدّيق في حقِّه

فأجابه أبوه شرف الدين بقوله:

قَدْ يُمْنَعُ الْمُضْطَرُّ مِنْ مَيْتَةٍ إذا عَصَى بالسَّيرِ في طُرْقِهِ
لأنه يَقْوَى عَلَى تَوْبَةٍ تُوجِبُ إيصالاً إلى رزقِهِ
لَوْلَمْ يَتُبْ مِنْ ذَنبه مِسْطَحٌ ما عُوتِبَ الصِّدِّيقُ في حقِّهِ

ولما فصّل تعالى الزواجر عن الزنى، وعن رمي العفائف عنه. بيّن من الزواجر ما عسى

يؤدي إلى أحدهما. وذلك في مخالطة الرجال بالنساء، ودخولهم عليهن، وفي أوقات الخلوات، وفي تعليم الآداب الجميلة، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا**﴾ أي تستعلموا وتستكشفوا الحال. هل يراد دخولكم أم لا؟ من (الاستئناس) وهو الاستعلام. من (آنس الشي) إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً . أو المعنى: حتى يؤذن لكم فتستانسوا. من (الاستئناس) الذي هو خلاف الاستيحاش. لما أن المستأذن مستوحش من خفاء الحال عليه، فيكون عبر بالشيء عما هو لازم له ، مجازاً أو استعارة. وجوّز أن يكون من (الإنس) والمعنى: حتى تعلموا هل فيها إنسان؟. ﴿**وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا**﴾ أي ليؤمنهم عما يوحشهم ﴿**ذَلِكُمْ**﴾ أي الاستئذان والتسليم ﴿**خَيْرٌ لَكُمْ**﴾ أي من الدخول بغتة ﴿**لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ أي فتتعظوا وتعملوا بموجبه ﴿**فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً**﴾ أي من الآذنين ﴿**فَلاَ تَدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ**﴾ أي واصبروا حتى تجدوا من يأذن لكم. ويحتمل: فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها، ولكم فيها حاجة، فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها.

قال الزمخشري: وذلك لأن الاستئذان لم يشرع لئلا يطلع الداخل على عورة، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط، وإنما شرع لئلا يوقف على الأحوال التي يطويها الناس في العادة عن غيرهم، ويتحفظون من اطلاع أحد عليها، ولأنه تصرف في ملك غيرك. فلا بد من أن يكون برضاه، وإلا أشبه الغصب والتغلب. انتهى.

﴿**وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا**﴾ أي إن أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع، سواء كان الأمر ممن يملك الإذن أو لا ، كالنساء والولدان، فارجعوا ولا تلحوا بتكرير الاستئذان، لأن هذا مما يجلب الكراهة في قلوب الناس، ولذا قال تعالى: ﴿**هُوَ**﴾ أي الرجوع ﴿**أَزْكَى لَكُمْ**﴾ أي أطهر مما لا يخلو عنه الإلحاح والوقوف على الأبواب، من دنس الدناءة. وأنمى لمحبتكم.

قال الزمخشري: وإذا نهي عن ذلك لأدائه إلى الكراهة، وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها من قرع الباب بعنف، والتصييح بصاحب الدار، وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من أكثر الناس.

لطيفة:

قال ابن كثير : قال قتادة: قال بعض المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها: أن أستأذن على بعض إخواني، فيقول لي : ارجع. فأرجع وأنا مغتبط. انتهى. ﴿واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي فيجزيكم على نيتكم الحسنة، في الزيارة، أو المكر والخيانة بأهل المزور أو ماله.

تنبيه:

قال السيوطي في (الإكليل): في هذه الآية وجوب الاستئذان عند دخول بيت الغير، ووجوب الرجوع إذا لم يؤذن له، وتحريم الدخول إذا لم يكن فيها أحد. ويستفاد من هذا تحريم دخول ملك الغير ، والكَوْن فيه، وشغله بغير إذن صاحبه فيدخل تحته من المسائل والفروع ما لا يحصى. واستدل بالآية الأكثر على الجمع بين الاستئذان والسلام. والأقلُّ على تقديم الاستئذان على السلام بتقديمه في الآية. وأجاب الأكثرون ، بأن الواو لا تفيد ترتيباً، واستدل بها من قال: له الزيادة في الاستئذان على ثلاث، حتى يؤذن له أو يصرح بالمنع، وفهم من الآية أن الرجل لا يستأذن عند دخول بيته على امرأته. انتهى.

وقال ابن كثير: ليعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره، وفي الصحيحين[1] عن رسول اللّه ﷺ أنه قال (لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذن، فحذفته بحصاة، ففقأت عينه، ما كان عليك من جناح) وأخرج[2] الجماعة عن جابر قال: أتيت النبيّ ﷺ في دين كان على أبي. فدققت الباب، فقال (من ذا) فقلت: أنا قال (أنا، أنا) كأنه كرهه. وإنما كرهه، لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها، حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها. وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بـ (أنا) فلا يحصل به المقصود الاستئذان، الذي هو الاستئناس المأمور به في الآية. وعن ابن مسعود قال: عليكم

---

(١) أخرجه البخاري في: الديات، ٢٣- باب من اطلع في بيت قوم ففقأوا عينه، فلا دية له، حديث ٢٥٢٦، عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري في: الاستئذان، ١٧- باب إذا قال من ذا؟ فقال أنا، حديث ١٠٧٦.

الإذن على أمهاتكم. وعن طاوس قال: ما من امرأة أكره إليّ أن أرى عورتها من ذات محرم. وكان يشدد النكير في ذلك. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أيستأذن الرجل على امرأته؟ قال: لا. قال ابن كثير: وهذا محمول على عدم الوجوب، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله، ولا يفاجئها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها. وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة، فانتهى إلى الباب، تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه. ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ؛ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً.

ثم بيّن تعالى ما رخص فيه عدم الاستئذان، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا**﴾ أي بغير استئذان ﴿**بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ**﴾ أي غير معدة لسكنى طائفة مخصوصة، بل ليتمتع بها كائناً من كان، كالخانات والحمامات وبيوت الضيافات ﴿**فِيهَا مَتاعٌ لَكُمْ**﴾ أي منفعة وحاجة ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ**﴾ وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل، لفسادٍ أو اطلاع على عورات. أفاده أبو السعود.

ثم أرشد سبحانه إلى آداب عظيمة تتناول المستأذنين عند دخولهم وغيرهم، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾ أي مقتضى إيمانكم الغض عما حرم الله تعالى النظر إليه ﴿**وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**﴾ أى عن الإفضاء بها إلى محرم، أو عن الإبداء والكشف ﴿**ذَلِكَ**﴾ أي الغض والحفظ ﴿**أَزْكَى لَهُمْ**﴾ أي أطهر للنفس وأتقى للدين ﴿**إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ أي بأفعالهم وأحوالهم. وكيف يجيلون أبصارهم، وكيف يصنعون بسائرحواسهم وجوارحهم. فعليهم، إذ عرفوا ذلك، أن يكونوا منه

على تقوى وحذر، في كل حركة وسكون. أفاده الزمخشري.

تنبيهات:

الأول – قال السيوطي في (الإكليل): في الآية تحريم النظر إلى النساء وعورات الرجال وتحريم كشفها. أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية: كل شيء في القرآن من (حفظ الفرج) فهو من الزنى، إلا هذه الآية والتي بعدها، فهو أن لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة. انتهى.

وليس بمتعيّن. وعليه فيكون النهي عن الزنى يعلم منه بطريق الأولى. أو الحفظ عن الإبداء يستلزم الحفظ عن الإفضاء.

الثاني – إن قيل: لِمَ أتى بـ (من) التبعيضية في غض الأبصار وقيدها به دون حفظ الفروج؟ مع أنه غير مطلق ومقيد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٥]، لأن المستثنى في الحفظ هو الأزواج والسراري، وهو قليل بالنسبة لما عداه. فجعل كالعدم ولم يقيد به. مع أنه معلوم من الآية الأخرى. بخلاف ما يطلق فيه البصر، فإنه يباح في أكثر الأشياء، إلا نظر ما حرم عن قصد. فقيّد (الغض به) ومدخول (من) التبعيضية ينبغي أن يكون أقل من الباقي. وقيل: إن الغض والحفظ عن الأجانب. وبعض الغض ممنوع بالنسبة إليهم، وبعضه جائز. بخلاف الحفظ فلا وجه لدخول (من) فيه. كذا في (العناية).

الثالث – سر تقديم غض الأبصار على حفظ الفروج، هو أن النظر بريد الزنى ورائد الفجور، كما قال الحماسي:

وكنتَ، إذا أرسلت طَرْفَكَ رَائِداً لقلبك يوماً، أتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ

ولأن البلوى فيه أشد وأكثر. ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه. فبودر إلى منعه. ولأنه يتقدم الفجور في الواقع، فجعل النظم على وفقه.

الرابع – غض البصر من أجل الأدوية لعلاج أمراض القلوب. وفيه حسم لمادتها قبل حصولها. فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس. ومن أطلق لحظاته، دامت حسراته.

كلّ الحوادث مبداها من النظرِ ومعظمُ النّارِ من مستصغَرِ الشّرَرِ

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في (الجواب الشافي): في غض البصر عدة منافع:

أحدها – امتثال أمر اللّه الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده. وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى. وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة، إلا بامتثال أوامر ربه. وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره.

الثاني – أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم الذي لعل فيه هلاكه، إلى قلبه.

الثالث – أنه يورث القلب أنساً باللّه وجمعيّة على اللّه، فإن إطلاق البصر يفرّق القلب ويشتته ويبعده من اللّه، وليس على العبد شيء أضر من إطلاق البصر. فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه.

الرابع – أنه يقوي القلب ويفرّحه. كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

الخامس –أنه يكسب القلب نوراً. كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة، ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر. فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ثم قال إثر ذلك: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]. أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن، الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه. وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب ، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان. فما شئت من بدعة وضلالة، واتباع هوى واجتناب هدى، وإعراض عن أسباب السعادة، واشتغال بأسباب الشقاوة. فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب. فإذا فقد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس الظلام.

السادس – أنه يورث الفراسة الصادقة التي يميز بها بين المحق والمبطل والصادق والكاذب. وكان شاه بن شجاع الكرماني يقول: من عمر ظاهره باتّباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، واعتاد أكل الحلال – لم تخطئ له فراسة.

وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة، واللّه سبحانه يجزي العبد على عمله بماهو من جنس عمله. ومن ترك شيئاً للّه عوضه خيراً منه، فإذا غض بصره عن محارم اللّه، عوضه اللّه بأن يطلق نور بصيرته عوضاً عن حبسه بصره للّه. ويفتح له باب العلم والإيمان والمعرفة، والفراسة الصادقة المصيبة التي، إنما تنال ببصيرة القلب. وضد هذا مما وصف اللّه به اللوطية من العمه الذي هو ضد البصيرة. فقال تعالى:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل، والعمه الذي هو فساد البصيرة، فالتعلق بالصور يوجب إفساد العقل، وعمه البصيرة يسكر القلب، كما قال القائل:

سُكرانِ: سكر هوىً وسُكرُ مُدامةٍ ومتى إفَاقَةُ مَنْ بِه سُكْرَانِ؟

وقال الآخر:

قالوا: جُننتَ بمن تهوى فقلتُ لهم: العشق أعظمُ مما بالمجانينِ

العشق لا يستفيقُ الدهرَ صاحبُه وإنما يُصْرَعَ المجنونُ في الحينِ

السابع – أنه يورث القلب ثباتاً وشجاعة وقوة. ويجمع اللّه له بين سلطان البصيرة والحجة، وسلطان القدرة والقوة، كما في الأثر (الذي يخالف هواه يَفْرق الشيطان من ظله). وضد هذا تجده في المتبع هواه، من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها. وما جعل اللّه سبحانه فيمن عصاه. كما قال الحسن: إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، فإن المعصية لا تفارق رقابهم، أبى اللّه إلا أن يذل من عصاه. وقد جعل اللّه سبحانه العز قرين طاعته. والذل قرين معصيته، فقال تعالى: ﴿وللّه الْعزَّة ولرسُوله ولِلْمُؤْمنينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمنينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، والإيمان قول وعمل ظاهر وباطن. وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّه الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، أي من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة اللّه وذكره، من الكلم الطيب، والعلم الصالح. وفي دعاء القنوت (إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت)[1]. ومن أطاع اللّه فقد والاه فيما أطاعه فيه. وله من العز بحسب طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه. وله من الذل بحسب معصيته.

الثامن – أنه يسدّ على الشيطان مدخله من القلب. فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهوى في المكان الخالي، فيمثل له صورة المنظور إليه، يزينها ويجعلها صنماً يعكف عليه القلب، ثم يعده ويمنيه. ويوقد على القلب نار الشهوة، ويلقي عليه حطب المعاصي، التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة. فيصير القلب في اللهب. فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التي

(١) أخرجه أبو داود في: الوتر، ٥– باب القنوت في الوتر، حديث رقم ١٤٢٥.

يجد فيها وهج النار، وتلك الزفرات والحرقات. فإن القلب قد أحاطت به نيران بكل جانب. فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة، أن جعل لهم في البرزخ تنور من نار، وأودعت أرواحهم فيه، إلى حشر أجسادهم ، كما أراها الله نبيّه ﷺ في المنام في[1] الحديث المتفق على صحته .

التاسع – أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها. وإطلاقُ البصر يشتت عليه ذلك ويحول عليه بينه وبينها. فتنفرط عليه أموره ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن أمر ربه، قال تعالى: ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ [الكهف: ٢٨]، وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه.

العاشر – أن بين العين والقلب منفذاً وطريقاً يوجب انفعال أحدهما عن الآخر. وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده. فإذا فسد القلب فسد النظر. وإذا فسد النظر فسد القلب. وكذلك في جانب الصلاح. فإذا خربت العين وفسدت، خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ. فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والأنس به والسرور بقربه فيه. وإنما يسكن فيه أضداد ذلك. فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر، تطلعك على ما وراءها. انتهى.

ثم أمر الله تعالى النساء بما أمر به الرجال. وزاد في أمرهن، ما فرضه من رفض حالة الجاهلية المألوفة قبلُ لهن، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

---

(١) أخرجه البخاري في: التعبير، ٤٨- باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، عن سمرة بن جندب، حديث رقم ٥٠١.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أي بالتستر والتصون عن الزنى كما تقدم. قال الزمخشريّ: النساء مأمورات أيضاً بغض الأبصار. ولا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبيّ إلى ما تحت سرته إلى ركبته. وإن اشتهت غضت بصرها رأساً. ولا تنظر من المرأة إلا إلى مثل ذلك. وغض بصرها من الأجانب أصلاً، أولى بها وأحسن. ومنه حديث ابن أم مكتوم عن أم سلمة[1] رضي الله عنها قالت: «كنت عند النبيّ ﷺ وعنده ميمونة. فأقبل ابن أم مكتوم. وذلك بعد أن أُمرنا بالحجاب. فدخل علينا. فقال: احتجبا. فقلنا: يارسول الله! أليس أعمى لا يبصرنا! قال: أفعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه؟» وهذا الحديث رواه أبو داود والترمذيّ وصححه ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال الزمخشري: الزينة ما تزينت به المرأة من حليّ أو كحل أو خضاب. فما كان ظاهراً منها، كالخاتم والفتخة والكحل والخضاب، فلا بأس بإبدائه للأجانب. وما خفي منها كالسوار والخلخال، والدملج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط، فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين. وذكر الزينة دون مواقعها، للمبالغة في الأمر بالتصون والتستر. لأن هذه الزِّيَن واقعة على مواضع من الجسد، لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء. وهي الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن. فنهى عن إبداء الزِّيَن نفسها ليعلم أن النظر إذا لم يحل إليها لملابستها تلك المواقع، بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها، لا مقال في حله – كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكناً في الحظْر ثابت القدم في الحرمة، شاهداً على أن النساء حقهنّ أن يحتطن في سترها ويتَّقِينَ الله في الكشف عنها.

(فإن قلت): لم سومح مطلقاً في الزينة الظاهرة؟ قلت: لأن سترها فيه حرج. فإن المرأة لا تجد بدّاً من مزاولة الأشياء بيديها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها، خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والنكاح. وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها. وخاصةً الفقيرات منهن. وهذا معنى قوله ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ يعني: إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره، والأصل فيه الظهور. انتهى.

وقال السيوطي في (الإكليل): فسر ابن عباس قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بالوجه والكفين، كما أخرجه ابن أبي حاتم. فاستدل به مَن أباح النظر إلى وجه المرأة

---

(١) أخرجه أبو داود في: اللباس، ٣٤- باب ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾، حديث رقم ٤١١٢.

وأخرجه الترمذي في: الأدب، ٢٩- باب ما جاء في احتجاب النساء من الرجال.

وكفيها، حيث لا فتنة. ومن قال: إن عورتها ما عداهما. وفسره ابن مسعود بالثياب، وفسر الزينة بالخاتم والسوار والقرط والقلادة والخلخال. أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً. فهو دليل لمن لم يجز النظر إلى شيء من بدنها، وجعلها كلها عورة ﴿ **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ** ﴾ أي وليسترن بمقانعهن، شعورَهن وأعناقهن وقرطهن وصدورهن، بإلقائها على جيوبهن أي مواضعها، وهي النحر والصدر.

قال الزمخشري: كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها. وكنّ يسدلن الخمر من ورائهن، فتبقى مكشوفة فأمرن بأن يسدلنها من قدامهن حتى يغطينها. ويجوز أن يراد بالجيوب الصدور، تسمية بما يليها ويلابسها، ومنه قولهم (ناصح الجيب)

لطيفة:

قال أبو حيان: عدّي (يضربن) بـ (على) لتضمنه معنى الوضع. وجعله الراغب مما يتعدى بها دون تضمين. و(الخمر) جمع خمار يقال (لغة) لما يستر به. وخصصه العرف بما تغطي به المرأة رأسها. ومنه (اختمرت) المرأة و (تخمرت). و(الجيب) ما جيب، أي قطع من أعلى القميص. وهو ما يسميه العامة طوقاً. وأما إطلاقه على ما يكون في الجنب لوضع الدراهم ونحوها، فليس من كلام العرب. كما ذكره ابن تيمية. كذا في (العناية) ثم كرر النهي عن إبداء الزينة لاستثناء بعض مواد الرخصة عنه، باعتبار الناظر بعد ما استثنى عنه بعض مواد الضرورة باعتبار المنظور، بقوله تعالى: ﴿ **وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ** ﴾ أي فإنهم المقصودون بالزينة. ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج. لكن بكراهة على المشهور.

وقال الإمام أبو الحسن بن القطان في كتاب (إحكام النظر): عن أصبغ، لا بأس به، وليس بمكروه. وروي عن مالك لابأس أن ينظر إلى الفرج في الجماع. ثم ذكرنا أن ما روي من أن ذلك يورث العمى، فحديث لايصح. لأن فيه (بقية) وقد قالوا (بقية أحاديثه غير نقية) ولم يؤثر عن العرب كراهة ذلك. وللنابغة والأعشى وأبي عبيدة وابن ميادة وعبد بني الحساس والفرزدق، في ذلك ما هو معروف.

وقوله تعالى: ﴿ **أَوْ ءَابَائِهِنَّ أَوْ ءَابَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ** ﴾ أي لأن هؤلاء محارمهن الذين تؤمن الفتنة من قبلهم. فإن آباءهن أولياؤهن الذين يحفظونهن عما يسوءهن. وآباء بعولتهن يحفظون على أبناءهم ما يسوءهم. وأبناؤهن شأنهم خدمة الأمهات، وهم منهن. وأبناء

بعولتهن شأنهم خدمة الآباء وخدمة أحبابهم. وإخوانهن هم الأولياء بعد الآباء. وبنوهم أولياء بعدهم. وكذا بنوا أخواتهن، هم كبني إخوانهن في القرابة فيتعيرون بنسبة السوء إلى الخالة. تعيرهم بنسبته إلى العمة. هذا ما أشار له المهايمي.

وأجمل ذلك الزمخشري بقوله: وإنما سومح في الزينة الخفية أولئك المذكورون، لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلتهم ومخالفتهم. ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم ولما في الطباع من النفرة عن ممارسة القرائب. وتحتاج المرأة إلى صحبتهم في الأسفار للنزول والركوب وغير ذلك. وقوله تعالى ﴿**أَوْ نِسَائِهِنَّ**﴾ قيل: هن المؤمنات. أخذاً من الإضافة. فليس للمؤمنة أن تتجرد بين يدي مشركة أو كتابية. وقيل: النساء كلهن. فإنهن سواء في حل نظر بعضهن إلى بعض.

قال في (الإكليل): فيه إباحة نظر المرأة إلى المرأة كمحرم. وروى ابن أبي حاتم عن عطاء؛ أن أصحاب النبيّ ﷺ لما قدموا بيت المقدس، كان قوابل نسائهن اليهوديات والنصرانيات.

وقال الرازيّ: القول الثاني هو المذهب وقول السلف الأول محمول على الاستحباب والأولى.

وقوله تعالى: ﴿**أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ**﴾ أي لاحتياجهن إليهم. فلو منع دخولهم عليهن اضطررن. قاله المهايميّ. وظاهر الآية يشمل العبيد والإماء. وإليه ذهب قوم. قالوا: لا بأس عليهن في أن يظهرن لعبيدهن من زينتهن ما يظهرن لذوي محارمهن. واحتجوا أيضاً بما رواه أبو داود[١] عن أنس أن النبيّ ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها. قال: «وعلى فاطمة ثوب، إذا قنعت به رأسها، لم يبلغ رجليها، وإذا غطت به رجليها، لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبىّ ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس. إنما هو أبوك وغلامك».

وجاء في (تاريخ ابن عساكر) أن عبد اللّه بن مسعدة كان أسود شديد الأدمة. وقد كان وهبه النبيّ صلوات اللّه عليه لابنته فاطمة. فربّته ثم أعتقته، ثم كان، بعدُ مع معاوية على عليّ. نقله ابن كثير، فاحتمل أن يكون هو هو. واللّه أعلم.

وذهب قوم إلى أنه عنى بذلك الإماء المشركات، وأنه يجوزلها أن تظهر زينتها إليهن وإن كن مشركات. قالوا: وسرّ إفراد الإماء مع شموله قوله ﴿**أَوْ نِسَائِهِنَّ**﴾ لهن

---

(١) أخرجه أبو داود في: في العبد ينظر إلى شعر مولاته، حديث ٤١٠٦.

الإعلام بأن المراد مَنْ في صحبتهن من الحرائر والإمام لظهور الإضافة في (نسائهن) بالحرائر. كقوله: ﴿شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فعطفن عليهن ليشاركنهن في إباحة النظر عليهن، والقول الأول أقوى. لأن الأصل هو العمل بالعامّ حتى يقوم دليل على تخصيصه. لا سيما والحكمة ظاهرة فيه وهي رفع الحرج. وهذا الذي قطع به الشافعيّ وجمهور أصحابه.

قال في (الإكليل): وعلى الأول استدل بإضافة اليمين على أنه ليس لعبد الزوج النظر. واستدل من أباحه بقراءة ﴿**أو ما مَلَكَتْ أيْمَانُكُم**﴾.

وقوله: ﴿**أوِ التَّابِعِينَ**﴾ أي الخدام لأنهن في معنى العبيد ﴿**غَيْرِ أُولِي الإرْبَةِ**﴾ أي الحاجة إلى النساء ﴿**مِنَ الرِّجَالِ**﴾ كالشيخ الهرم والبله واستدل بهذا من أباح نظر الخصيّ. وقوله تعالى: ﴿**أوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ**﴾ أي لم يفهموا أحوالهن، لصغرهم. فيستدل به على تحريم نظر المراهق الذي فهم ذلك كالبالغ. كما في (الإكليل).

قال الزمخشريّ: (يظهروا) إما من (ظهر على الشيء) إذا اطلع عليه، أي لا يعرفون ما العورة، ولا يميزون بينها وبين غيرها. وإما من (ظهر على فلان) إذا قوي عليه و (ظهر على القرآن) أخذه وأطاقه أي لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء. و(الطفل) مفرد وضع موضع الجمع بقرينة وصفه بالجمع. ومثله (الحاج) بمعنى الحجاج. وقال الراغب: إنه يقع على الجمع.

تنبيه:

قال السيوطيّ في (الإكليل): استدل بعضهم بقوله تعالى ﴿**وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ**﴾ الخ على أنه لا يباح النظر للعم والخال، لعدم ذكرهما في الآية. أخرج ابن المنذر عن الشعبيّ وعكرمة، قالا: لم يذكر العم والخال لأنهما ينعتان لأبنائهما، ولا تضع خمارها عند العم والخال.

وقال الرازيّ: القول الظاهر أنهما كسائر المحارم في جواز النظر. وهو قول الحسن البصريّ. قال: لأن الآية لم يذكر فيها الرضاع وهو كالنسب. وقال في سورة الأحزاب: ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَائِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٥] الآية، ولم يذكر فيها البعولة ولا أبناءهم. وقد ذكروا هاهنا. وقد يذكر البعض لينبه على الجملة.

ثم قال: في قول الشعبيّ من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن في التستر.

ثم أشار تعالى إلى أن الزينة، كما يجب إخفاؤها عن البصر، يجب عن السمع، إن كانت مما تؤثر فيه ميلاً، بقوله سبحانه:

﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي الأرض **﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ﴾** أي عن الأبصار **﴿مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾** كالخلخال. وهذا نهي عما كان يفعله بعضهن. وذلك من ضرب أرجلهن الأرض ليتحرك خلخالهن فيعلم أنهن متحلين به. فإن ذلك مما يورث الرجال ميلاً إليهن، ويوهم أن لهن ميلاً إليهم.

قال الزمخشريّ: وإذ نهين عن إظهار صوت الحليّ بعد ما نهين عن إظهار الحليّ، علم بذلك أن النهي عن إظهار مواضع الحليّ أبلغ وأبلغ. قيل: وإذا نُهي عن استماع صوت حليهن. فعن استماع صوتهن بالطريق الأوْلى. وهذا سدّ لباب المحرمات، وتعليم للأحوط الأحسن، لا سيما في مظانّ الريب وما يكون ذريعة إليها.

تنبيه:

قال ابن كثير: يدخل في هذا النهي كل شيء من زينتها كان مستوراً، فتحركت بحركة، لتظهر ما خفي منها. ومن ذلك ما ورد من نهيها عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشم الرجال طيبها. فروى الترمذيّ[1] عن أبي موسى عن النبيّ ﷺ أنه قال: «كل عين زانية. والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا». يعني زانية.

قال: ومن الباب عن أبي هريرة. وهذا حديث حسن صحيح. ورواه أبو داود والنسائي. وروى الترمذيّ[2] أيضاً عن ميمونة بنت سعد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الرافلة في الزينة في غير أهلها، كمثل ظلمة يوم القيامة، لا نور لها». ومن ذلك أيضاً، نهيهن عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج. فروى أبو داود[3] عن أبي أسيد الأنصاري أنه سمع النبيّ ﷺ وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق. فقال رسول الله ﷺ للنساء: استأخرن، فإنه ليس لكن أن تَحْقُقْنَ الطريق. عليكن بحافات الطريق. فكانت المرأة تلصق بالجدار، حتى أن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به. وقوله تعالى: **﴿وَتُوبُوا إِلَى اللّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾** أي ارجعوا إليه بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه، فإن مقتضى إيمانكم ذلك

---

(١) أخرجه الترمذي في: الأدب، ٣٥- باب ما جاء في كراهية خروج المرأة متعطرة.

(٢) أخرجه الترمذي في: الرضاع، ١٣- باب ما جاء في كراهية خروج النساء في الزينة.

(٣) أخرجه أبو داود في: الأدب، ١٦٨- باب في مشي النساء مع الرجال في الطريق، حديث ٥٢٧٢.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي تفوزوا بسعادة الدارين. ولما زجر تعالى عن السفاح ومباديه القريبة والبعيدة، أمر بالنكاح. فإنه، مع كونه مقصوداً بالذات من حيث كونه مناطاً لبقاء النوع، خير مزجرة عن ذلك. فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾

﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ أي زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر، ومن كان فيه صلاح غلمانكم وجواريكم، والخطاب للأولياء والسادات و(الأيامى) جمع أيّم. من لا زوجه له أو لا زوج لها. يكون للرجل والمرأة. يقال: آم وآمَتْ وَتَأَيّمَا، إذا لم يتزوجا، بكرين كانا أو ثيبين.

قال أبو السعود: واعتبار الصلاح في الأرقاء، لأن من لاصلاح له منهم، بمعزل من أن يكون خليقاً بأن يعتني مولاه بشأنه، ويشفق عليه، ويتكلف في نظم مصالحه بما لا بد منه شرعاً وعادة، من بذل المال والمنافع. بل حقه ألا يستبقيه عنده. وأما عدم اعتبار الصلاح في الأحرار والحرائر، فلأن الغالب فيهم الصلاح. على أنهم مستبدون في التصرفات المتعلقة بأنفسهم وأموالهم. فإذا عزموا النكاح، فلا بد من مساعدة الأولياء لهم؛ إذ ليس عليهم في ذلك غرامة، حتى يعتبر في مقابلتها غنيمة عائدة إليهم. عاجلة أو آجلة: وقيل: المراد هو الصلاح للنكاح والقيام بحقوقه. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِه﴾ إزاحة لما عسى يكون وازعاً من النكاح من فقر أحد الجانبين. أي لا يمنعن فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة. فإن في فضل الله عزّ وجلّ غنية عن المال. فإنه غاد ورائحٌ. يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب. أو وعد منه سبحانه بالإغناء. لكنه مشروط بالمشيئة. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِه إِنْ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨]، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي غنيّ ذو سعة، لا يرزؤه إغناء الخلائق، إذ لا نفاذ لنعمته ولا غاية لقدرته. ﴿عَلِيمٌ﴾ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة. انتهى كلام أبي مسعود.

تنبيهات:

الأول – الأمر في الآية للندب. لما علم من أن النكاح أمر مندوب إليه. وقد

يكون للوجوب في حق الأولياء عند طلب المرأة ذلك.

وفي (الإكليل): استدل الشافعيّ بالأمر على اعتبار الوليّ. لأن الخطاب له، وعدم استقلال المرأة بالنكاح. واستدل بعموم الآية مَنْ أباح نكاح الإماء بلا شرط، ونكاح العبد الحرة. واستدل بها من قال بإجبار السيد على نكاح عبده وأمته.

الثاني - قدمنا أن قوله تعالى: ﴿**يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ مشرط بالمشيئة. فلا يقال إنه تعالى لا يخلف الميعاد، وكم من متزوج فقير. والتقييد بالمشيئة بدليل سمعي، وهو الآية المتقدمة. أو إشارة قوله تعالى: ﴿**عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ لأن مآله إلى المشيئة. أو عقلي وهو أن الحكيم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

قال الناصر في (الانتصاف): ولقائل أن يقول: إذا كانت المشيئة هي المعتبرة في غنى المتزوج، فهي أيضاً المعتبرة في غنى الأعزب، فما وجه ربط وعد الغني بالنكاح، مع أن حال الناكح منقسم في الغنى على حسب المشيئة. فمن مستغن به، ومن فقير، كما أن حال غير الناكح كذلك منقسم؟.

فالجواب، وبالله التوفيق: إن فائدة ربط الغنى بالنكاح، أنه قد ركز في الطباع السكون إلى الأسباب والاعتماد عليها، والغفلة عن المسبِّب، جلَّ وعلا. حتى غلب الوهم على العقل فخيل أن كثرة العيال سبب يوجب الفقر حتماً، وعدمها سبب يوجب توفير المال جزماً. وأن كل واحد من هذين السببين غير مؤثر فيما ربطه الوهم به. فأريد قلع هذا الخيال المتمكن من الطبع، بالإيذان بأن الله تعالى قد يوفر المال وينميه، مع كثرة العيال التي هي سبب في الأوهام، لنفاد المال. وقد يقدر الإملاق مع عدمه، الذي هو سبب في الإكثارعند الأوهام. والواقع يشهد لذلك بلامراء. فدل ذلك قطعاً على أن الأسباب التي يتوهمها البشر، مرتبطات بمسبباتها، ارتباطاً لا ينفك - ليست على ما يزعمونه. وإنما يقدر الغنى والفقرَ مسببُ الأسباب. غير موقوف تقدير ذاك إلا على مشيئة خاصة. وحينئذ لا ينفر العاقل المتيقظ من النكاح. لأنه قد استقر عنده أن لا أثر له في الإقتار. وأن الله تعالى لا يمنعه ذلك من إغنائه، ولا يؤثر أيضاً الخلوّ عن النكاح لأجل التوفير، لأنه قد استقر أن لا أثر له فيه، وأن الله تعالى لا يمنعه مانع أن يقتّر عليه. وأن العبد إن تعاطى سبباً فلا يكن ناظراً إليه، ولكن إلى مشيئة الله تعالى وتقدس. فمعنى قوله حينئذ ﴿**إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ**﴾ الآية، أن النكاح لا يمنعهم الغنى من فضل الله. فعبر عن نفي كونه مانعاً، من الغنى،

بوجوده معه. ولا يبطل المانعية إلا وجود ما يتوهم ممنوعاً مع ما يتوهم مانعاً ولو في صورة من الصور على أثر ذلك. فمن هذا الوادي أمثال قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، فإن ظاهر الأمر طلب الانتشار عند انقضاء الصلاة، وليس ذلك بمراد حقيقة. ولكن الغرض تحقيق زوال المانع وهو الصلاة، وبيان أن الصلاة متى قضيت، فلا مانع. فعبّر عن نفي المانع بالانتشار، بما يفهم تقاضي الانتشار مبالغة في تحقيق المعنى عند السامع. واللّه أعلم.

فتأمل هذا الفصل واتخذه عضداً حيث الحاجة إليه. انتهى.

الثالثة – (في الإكليل): استدل بعضهم بهذه الآية على أنه لا يفسخ النكاح بالعجز عن النفقة، لأنه قال (يغنهم اللّه) ولم يفرق بينهم.

ثم أرشد تعالى العاجزين عن أسباب النكاح، إلى ما هو أولى لهم، بعد بيان جواز مناكحة الفقراء، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ أي وليجتهد في العفة الذين لا يجدون نكاحاً، أي أسبابه، أو استطاعة نكاح أي تزوج. فهو على المجاز، أو تقدير المضاف. أو المراد (بالنكاح) ما ينكح به.

قال الشهاب: فإن (فعالاً) يكون صفة بمعنى مفعول. ككتاب بمعنى مكتوب. واسم آلة كركاب لما يركب به. وهو كثير. كما نص عليه أهل اللغة. وقوله تعالى: ﴿**حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ ترجية للمستعفين وتقدمة وعد بالتفضل عليهم بالغنى، ليكون انتظار ذلك وتأميله، لطفاً لهم في استعفافهم، وربطاً على قلوبهم. وليظهر بذلك أن فضله أولى بالأعفاء. وأدنى من الصلحاء. وما أحسن ما رتب هذه الأوامر. حيث أمر أوّلاً بما يعصم من الفتنة، ويبعد عن مواقعة المعصية، وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين، وقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام. ثم

بالحمل على النفس الأمارة بالسوء، وعزفها عن الطموح الى الشهوة عند العجز عن النكاح، إلى أن يرزق القدرة عليه. أفاده الزمخشري.

تنبيه:

قال في (الإكليل): في الآية استحباب الصبر عن النكاح لمن لا يقدر على مؤنته. واستدل بعضهم بهذه الآية على بطلان نكاح المتعة.

ولما أمر تعالى للسادة بتزويج الصالحين من عبيدهم وإمائهم، مع الرق، رغّبهم في أن يكاتبوهم إذا طلبوا ذلك، ليصيروا أحراراً؛ فيتصرفوا في أنفسهم كالأحرار: فقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ**﴾ أي الكتابة ﴿**مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ**﴾ حرصاً على تحريرهم الذي هو الأصل فيهم، وحباً بتحقيق المساواة في الأخوة الجنسية. والمكاتبة أن يقول السيد: كاتبتك. أي جعلت عتقك مكتوباً على نفسي، بمال كذا تؤديه في نجوم كذا. ويقبل العبد ذلك، فيصير مالكاً لمكاسبه ولما يوهب له، وإنما وجب معه الإمهال، لأن الكسب لا يتصور بدونه. واشترط النجوم لئلا تخلو تلك المدة عن الخدمة وعوضها جميعاً. وقوله تعالى: ﴿**إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً**﴾ أي كالأمانة، لئلا يؤدوا النجوم من المال المسروق. والقدرة على الكسب والصلاح، فلا يؤذى أحداً بعد العتق. وقوله تعالى: ﴿**وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ**﴾ أمر للموالي ببذل شيء من أموالهم. وفي حكمه، حط شيء من مال الكتابة. ولغيرهم بإعطائهم من الزكاة إعانة لهم على تحريرهم.

تنبيه:

قال في (الإكليل): في الآية مشروعية الكتابة. وأنها مستحبة.وقال أهل الظاهر: واجبة لظاهر الآية. وأن لندبها أو وجوبها، شرطين: طلب العبد لها وعلم الخير فيه وفسره مجاهد وغيره بالمال والحرفة والوفاء والصدق والأمانة.

ثم نهى تعالى عن إكراه الجواري على الزنى كما اعتادوه في الجاهلية، بقوله سبحانه: ﴿**وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ**﴾ أي إماءكم، فإنه يكنى بالفتى والفتاة، عن العبد والأمة، وفي الحديث[1] (ليقل أحدكم: فتاي وفتاتي، ولا يقل. عبدي وأمتي) وقوله تعالى: ﴿**عَلَى الْبِغَاءِ**﴾ أي الزنى. يقال: بغت بغياً وبغاءً، إذا عهرت. وذلك

---

(١) أخرجه البخاري في: العتق، ١٧- باب كراهية التطاول على الرقيق، حديث ١٢٥١، عن أبي هريرة.

لتجاوزها إلى ما ليس لها. وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ ليس لتخصيص النهي بصورة إرادتهن التعفف عن الزنى، وإخراج ما عداها من حكمه، بل للمحافظة على عادتهم المستمرة، حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه، مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور، وقصورهن في معرفة الأمور، الداعية إلى المحاسن، الزاجرة عن تعاطي القبائح، انتهى كلام أبي السعود. أي وحينئذ فلا مفهوم للشرط، وهذا كجواب بعضهم: إن غالب الحال أن الإكراه لا يحصل إلا عند إرادة التحصن. والكلام الوارد على سبيل الغالب لا يكون له مفهوم الخطاب. كما أن الخُلع يجوز في غير حالة الشقاق. ولكن لما كان الغالب وقوع الخلع في حالة الشقاق، لا جرم لم يكن لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، مفهوم. ومن هذا القبيل قوله ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١]، والقصر لا يختص بحال الخوف. ولكنه سبحانه أجراه على سبيل الغالب. فكذا هاهنا انتهى.

قال أبو السعود: وفيه من زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا عليه من القبائح، ما لا يخفى. فإن من له أدنى مروءة لايكاد يرضى بفجور من يحويه حرمه من إمائه، وفضلاً عن أمرهن به، أو إكراههن عليه. لا سيما عند إرادتهن التعفف. وإيثار كلمة (إنْ) على (إذا) مع تحقق الإرادة في مورد النص حتماً، للإيذان بوجوب الإنتهاء عن الإكراه، عند كون إرادة التحصن في حيز التردد والشك. فكيف إذا كانت محققة الوقوع كما هو الواقع؟ وقوله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قيد للإكراه، لكن لا باعتبار أنه مدار للنهي عنه، بل باعتبار أنه المعتاد فيما بينهم، كما قبله.جيء به تشنيعاً لهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير، لأجل النزر الحقير. أي لا تفعلوا ما أنتم عليه من إكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال، الوشيك الاضمحلال. يعني من كسبهن وأولادهن.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتقرير النهي وتأكيد وجوب العمل به ببيان خلاص المكرهات عن عقوبة المكره عليه عبارة، ورجوع غائلة الإكراه إلى المكرهين إشارةً، أي ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ﴾ على ما ذكر من البغاء. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لهن. كما وقع في مصحف ابن مسعود. وعليه قراءة ابن عباس رضي الله عنهم. وكما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ﴾

أي كونهن مكرهات. على أن الإكراه مصدر من المبني للمفعول فإن توسيطه بين اسم (إن) وخبرها، للإيذان بأن ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة. وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى، إذا قرأ هذه الآية يقول: لهن، والله! لهن، والله! وفي تخصيصهما (بهن) وتعيين مدارهما، مع سبق ذكر المكرهين أيضاً في الشرطية، دلالة بينة على كونهم محرومين منهما بالكلية، كأنه قيل: لا للمكره. ولظهور هذا التقدير، اكتفى به عن العائد إلى اسم الشرط. فتجويز تعلقهما بهم بشرط التوبة استقلالاً، أو معهن، إخلالٌ بجزالة النظم الجليل، وتهوين لأمر النهي في مقام التهويل. وحاجتهن إلى المغفرة المنبئة عن سابقة الإثم، إما باعتبار أنهن وإن كن مكرهات، لا يخلون في تضاعيف الزنى عن شائبة مطاوعة ما بحكم الجبلة البشرية. و إما باعتبار أن الإكراه قد يكون قاصراً عن حد الإلجاء المزيل للاختيار بالمرة. وإما لغاية تهويل أمر الزنى، وحث المكرهات على التثبت في التجافي عنه، والتشديد في تحذير المكرهين، ببيان أنهن حيث كن عرضة للعقوبة، لولا أن تداركهن المغفرة والرحمة، مع قيام العذر في حقهن. فما حال من يكرههن في استحقاق العذاب؟ انتهى كلام أبي السعود وقد أجاد في تحقيق المرام رحمه الله تعالى:

تنبيه:

قال في (الإكليل): في الآية النهي عن إكراه الإماء على الزنى. وأن المكرَه غير مكلف ولا آثم. وأن الإكراه على الزنى يتصور. وإن مهر البغيّ حرام. وفيه رد على من أوجب الحد على المكره له.

ثم حذّر سبحانه من مخالفة ما نهى عنه، مما بينه أشد البيان، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ أي واضحات أو مفسرات لكل ما تهم حاجتكم إليه من عبادات ومعاملات وآداب. ومنه ما ذكر قبلُ، من النهي عن الإكراه. فلا يخفى المراد منها ﴿وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي خبراً عظيماً عن الأمم الماضية وما حل بهم، بظلمهم وتعدّيهم حدود الله ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي فيتعظون به وينزجرون عما لا ينبغي لهم. كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً

لِلآخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٦]، أي عبرة يعتبرون بها. وإيثار (المتقين) لحث المخاطبين على الانتظام في سلكهم، فإنهم الفائزون. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾

﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ أي منوّرهما بالكواكب وما يفيض عنها من الأنوار. فهو مجاز من إطلاق الأثر على مؤثرة. كما يطلق السبب على مسببه. أو مدبرهما، من قولهم للرئيس الفائق في التدبير (نور القوم) لأنهم يهتدون به في الأمور فيكون مجازاً. أو استعارة استعير (النور) بمعنى المنور، للمدبر، لعلاقة المشابهة في حصول الاهتداء. أو موجدهما فإن النور ظاهر بذاته مظهر لغيره – كما قاله الغزالي – فيكون أطلق عليه تعالى مجازاً مرسلاً باعتبار لازم معناه.

قال أبو السعود: وعبر عن المنوّر بالنور، تنبيهاً على قوة التنوير وشدة التأثير. وإيذاناً بأنه تعالى ظاهر بذاته، وكل ما سواه ظاهر بإظهاره. كما أن النور نيّر بذاته وما عداه مستنير به. وأضيف (النور) إلى ﴿**السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ للدلالة على سعة إشراقه. أو المراد بهما العالم كله ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**﴾ أي صفة نوره العجيبة الشأن. قال أبو السعود: أي نوره الفائض منه تعالى على الأشياء المستنيرة به وهو القرآن المبين. كما يعرب عنه ما قبله من وصف آياته بالإنزال والتبيين. وقد صرح بكونه نوراً أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ [النساء: ١٧٤]، وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، وزيد بن أسلم رحمهم الله تعالى: ﴿**كَمِشْكَاةٍ**﴾ أي كصفة كوّة – طاقة – غير نافذة في الجدار، في الإنارة والتنوير ﴿**فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾ أي سراج ضخم ثاقب – شديد الإضاءة – وقيل: المشكاة الأنبوبة في وسط القنديل. والمصباح الفتيلة المشتعلة ﴿**الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ**﴾ أي قنديل من الزجاج الصافي الأزهر ﴿**الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ**﴾ أي متلالئ وقّاد شبيه بالدر في صفائه وزهرته ﴿**يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ**﴾ أي كثيرة المنافع، بأن رويت فتيلته بزيتها ﴿**زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ**﴾.

أي لا شرقية تقع عليها الشمس وقت الشروق فقط، ولا غربية تقع عليها عند الغروب. ولا تصيبها في الغداة بل في مكان عليها الشمس مشرقة من أول طلوعها إلى آخر غروبها. كصحراء أو رأس جبل. فزيتها أضوأ ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يكاد يضيء بنفسه من غير نار لصفائه ولمعانه ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي ذلك النور الذي عبر به عن القرآن، ومثلت صفته العجيبة بما فضل عن صفة المشكاة. نور عظيم كائن على نور كذلك. فـ (نور) خبر مبتدأ محذوف، والجار متعلق بمحذوف صفة له مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة، والجملة فذلكة للتمثيل، وتصريح لما حصل منه، وتمهيد لما يعقبه. وليس معنى ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ نور واحد فوق آخر مثله، ولا مجموع نورين اثنين فقط، بل هو عبارة عن نور متضاعف كتضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكر. فإن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة، كان أضوأ له وأجمع لنوره. بخلاف المكان الواسع، فإن الضوء ينبث فيه وينتشر. والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة. وكذلك الزيت وصفاؤه. وليس وراء هذه المراتب مما يزيد نورها إشراقاً، مرتبة أخرى عادة. ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي لهذا النور الثاقب العظيم الشأن، بأن يوفقهم للإيمان به وفهم دلائل حقيّته.

قال أبو السعود: وإظهاره في مقام الإضمار. لزيادة تقريره، وتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية الناشئة من إضافته إلى ضميره عزَّ وجلَّ ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ أي ليدنو لهم المعقول من المحسوس، توضيحاً وبياناً. ولذلك مثل نوره المعبر عنه بالقرآن، بنور المشكاة ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء. وفيه وعد ووعيد. لأن علمه تعالى، عبارة عن مجازاته في أمثال هذه الآي.

تنبيه:

هذه الآية الكريمة – آية النور – من الآيات التي صنفت فيها مصنفات خاصة. منها (مشكاة الأنوار) للإمام الغزالي، وقد نقل عنه الرازي في (تفسيره) هنا جملة سابغة الذيل. ورأيت للإمام ابن القيم في كتابه (الجيوش الإسلامية) ما يجمل إيراده، تعزيزاً للمقام واستظهاراً بزيادة العلم.

قال رحمه الله: سمى الله سبحانه وتعالى نفسه نوراً وجعل كتابه نوراً ورسوله ﷺ نوراً ودينه نوراً. واحتجب عن خلقه بالنور وجعل دار أوليائه نوراً يتلألأ، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقد فسر بكونه منوّر السموات والأرض، وهادي

أهل السموات والأرض. فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض. وهذا إنما هو فعله. وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به. ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى. والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين. إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله. فالأول كقوله عزَّ وجلَّ ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر:٦٩]، فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى، إذا جاء لفصل القضاء. ومنه قول النبيّ صلى اللّه عليه وآله وسلم في الدعاء المشهور: «أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني لا إله إلا أنت». وفي الأثر الآخر: أعوذ بوجهك – أو بنور وجهك – الذي أشرقت له الظلمات. فأخبر النبيّ ﷺ. أن الظلمات أشرقت لنور وجه اللّه. كما أخبر تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.

وفي (معجم الطبرانيّ) و(السنة) له و(كتاب عثمان الدارمي) وغيرها، عن ابن مسعود رضي اللّه عنه. قال: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه. وهذا الذي قاله ابن مسعود رضي اللّه عنه أقرب إلى تفسير الآية، من قول من فسرها بأنه هادي أهل السموات والأرض. وأما من فسرها بأنه منوّر السموات والأرض، فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود. والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبارات كلها. وفي صحيح[١] مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه قال: «قام فينا رسول اللّه ﷺ بخمس كلمات فقال: إن اللّه لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل. حجابه النور. لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». وفي صحيح[٢] مسلم عن أبي ذر رضي اللّه عنه قال: سألت رسول اللّه ﷺ: «هل رأيت ربك؟ قال:نور، أنَّى أراه». فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه تعالى يقول: معناه كان ثمة نور، وحال دون رؤيته نور، فأنى أراه؟ قال: ويدل عليه أن في بعض الألفاظ الصحيحة: هل رأيت ربك؟ فقال: رأيت نوراً. وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صحفه بعضهم فقال: نورانيٌّ أراه. على أنها ياء النسب، والكلمة كلمة واحدة. وهذا خطأ لفظاً ومعنى. وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ أنهم لما اعتقدوا أن رسول اللّه ﷺ رأى ربه، وكان قوله (أنَّى أراه) كالإنكار للرؤية، حاروا في الحديث، ورده بعضهم باضطراب

(١) أخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ٢٩٣.
(٢) أخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ٢٩١.

لفظه، وكل هذا عدول عن موجب الدليل. وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب (الرؤية) له إجماع الصحابة على أنه لم يرَ ربّه ليلة المعراج. وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك. وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة. فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه، وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال: إنه ﷺ رآه عزَّ وجلَّ. ولم يقل بعيني رأسه. ولفظ أحمد لفظ ابن عباس رضي الله عنهما. ويدل على صحته ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر رضي الله عنه: قوله ﷺ في الحديث الآخر (حجابه النور) فهذا النور، والله أعلم. النور المذكور في حديث أبي ذرّ رضي الله عنه (رأيت نوراً).

ثم قال ابن القيم: وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ هذا مثل لنوره في قلب عبده المؤمن. كما قال أبيّ بن كعب وغيره: وقد اختلف في الضمير في (نوره) فقيل هو النبيّ ﷺ. أي مثل نور محمد ﷺ. وقيل: مفسره المؤمن. أي مثل نور المؤمن.

والصحيح أن يعود على الله تعالى. والمعنى: مثل نور الله سبحانه في قلب عبده. وأعظمُ عباده نصيباً من هذا النور رسول الله ﷺ. فهذا، مع ما تضمنه عود الضمير المذكور –وهو وجه الكلام– يتضمن التقادير الثلاثة، وهو أتم لفظاً ومعنى. وهذا النور يضاف إلى الله تعالى. إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه. ويضاف إلى العبد. إذ هو محله وقابله. فيضاف إلى الفاعل والقابل. ولهذا النور فاعل وقابل، ومحل وحامل، ومادة. وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل. فالفاعل وهو الله تعالى مفيض الأنوار. الهادي لنوره من يشاء. والقابل: العبد المؤمن. والمحل: قلبه. والحامل: همته وعزيمته وإرادته. والمادة: قوله وعمله. وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته الآية، فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن، بما أناله من نوره، ما تقرُّ به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم. وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان: إحداهما طريقة التشبيه المركب وهي أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف. وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن، من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه، ومقابلته بجزء من المشبه به. وعلى هذا عامة أمثال القرآن. فتأمل صفة المشكاة، وهي كوة تنفذ لتكون أجمع للضوء، قد وضع فيها مصباح، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدريّ في صفائها وحسنها. ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقوداً، من زيت شجرة في وسط القراح، لاشرقية ولا غربية، بحيث

تصيبها الشمس في إحدى طرفي النهار، بل هي في وسط القراح، محميّة بأطرافه تصيبها الشمس أعدل إصابة، والآفات إلى الأطراف دونها. فمن شدة إضاءة زيتها وصفائها وحسنها، يكاد يضيء من غير أن تمسه نار. فهذا المجموع المركب هو مثل نور اللّه تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصه به. والطريقة الثانية، طريقة التشبيه المفصل. فقيل: المشكاة صدر المؤمن، والزجاجة قلبه. شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها. وكذلك قلب المؤمن. فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة. فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته وبصفائه. تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه. ويتباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء. وبصلابته يشتد في أمر اللّه تعالى، ويتصلب في ذات اللّه تعالى، ويغلظ على أعداء اللّه تعالى. ويقوم بالحق للّه تعالى. وقد جعل اللّه تعالى القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف: القلوب آنية اللّه في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها. والمصباح هو نور الإيمان في قلبه. والشجرة المباركة هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق. وهي مادة المصباح التي يتّقد منها. والنور على النور، نور الفطرة الصحيحة، والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب. فينضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد العبد نوراً على نور. ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة، قبل أن يسمع ما فيه بالأثر. ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به. فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي. فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة. بل يتصادقان ويتوافقان. فهذا علامة النور على النور. انتهى. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**﴾ أي أمر أن تعظم عن اللغو، أو ترفع بالبناء قدراً. ويتلى فيها اسمه، ولا يعبد فيها غيره، لأنها شيدت على اسمه جل شأنه. والظرف صفة (لمشكاة) أو (لمصباح) أو (لزجاجة) أو متعلق بـ (توقد) أو

بمحذوف. أي سبحوه في بيوت. أو بـ(يسبح). ولفظ (فيها) تكرار للتوكيد.

قال أبو السعود: لما ذكر شأن القرآن الكريم في بيانه للشرائع والأحكام، ومبادئها وغاياتها المترتبة عليها من الثواب والعقاب، وأشير إلى كونه في غاية ما يكون من التوضيح، حيث مثل بنور المشكاة – عقب ذلك بذكر الفريقين وتصوير بعض أعمالهم المعربة عن كيفية حالهم في الاعتداء وعدمه، والمراد بالبيوت، المساجد كلها ﴿ **يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ** ﴾ يعني قبل طلوع الشمس ﴿ **وَالآصَالِ** ﴾ جمع أصيل وهو العشي قبل غروب الشمس ﴿ **رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّه** ﴾ أي بالتسبيح والتحميد ﴿ **وَإِقَامِ الصَّلاَةِ** ﴾ أي إقامتها لمواقيتها من غير تأخير ﴿ **وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ** ﴾ أي المال الذي يتزكى مُؤْتيه من دنس الشح ورذيلة البخل، وتطهر نفسه ويصفو سره ﴿ **يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ** ﴾ أي تضطرب وتتغير من الهول والفزع. كما في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب: ١٠]، ﴿ **لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ اللام متعلقة بـ (يسبح) أو (لاَ تلهيهم) أو بمحذوف يدل عليه السوق. أي يفعلون ما يفعلون مما ذكر، ليجزيهم. وفي آخر الآية تقرير وتنبيه على كمال القدرة، ونفاذ المشيئة، وسعة الإحسان، لأن (بغير حساب) كناية عن السعة. والمراد أنه لا يدخل تحت حساب الخلق وعدّهم.

تنبيه:

قال السيوطي في (الإكليل): في هذه الآية الأمر بتعظيم المساجد وتنزيهها عن اللغو والقاذورات. وفيها استحباب ذكر اللّه والصلاة في المساجد. وفي قوله ﴿ **رِجَالٌ** ﴾ إشارة إلى أن الأفضل للنساء الصلاة في قعر بيوتهن. كما صرح به الحديث، إلا في نحو العيدين لحديث[1]: ليشهدن الخير ودعوة المسلمين، وقوله ﴿ **لاَ تُلْهِيهِمْ** ﴾ الآية، فيه أن التجارة لا تنافي الصلاة. لأن مقصود الآية أنهم يتعاطونها، ومع ذلك لا تلهيهم عن الصلاة وحضور الجماعة. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه كان في السوق، فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد. فقال ابن عمر: فيكم نزلت ﴿ **رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ** ﴾ الآية. وأخرج عن الضحاك والحسن وسالم وعطاء ومطرف مثل ذلك. انتهى. وقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في: الحيض، ٢٣– باب شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين ويعتزلن المصلى، حديث ٢٢٣، عن أم عطية.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عطف على ما ينساق إليه ما قبله. كأنه قيل: الذين آمنوا أعمالهم حالاً ومآلاً كما وصف، والذين كفروا ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ أي التي يحسبونها تنفعهم وتأخذ بيدهم من العذاب ﴿كَسَرَابٍ﴾ وهو ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس، وقت الظهيرة، يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري ﴿بِقِيعَةٍ﴾ بمعنى القاع، وهو المنبسط من الأرض. أو جمع قاع (كجيرة) في (جار) ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ أي لا محققاً ولا متوهماً. كما كان يراه من قبل، فضلاً عن وجدانه ماء، وبه تم بيان أحوال الكفرة بطريق التمثيل. وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي وجد عقاب الله وجزاءه عند السراب، أو العمل. وفي التعبير بذلك زيادة تهويل. وقيل: المعنى وجده محاسباً إياه. فالعندية بمعنى الحساب، على طريق الكناية لذكر التوفية بعده. قيل: هذه الجملة معطوفة على ﴿لَمْ يَجِدْهُ﴾ ولا حاجة إلى عطفه على ما يفيده من نحو (لم يجد ما عمله نافعاً).

قال الشهاب: ويحتمل أن يكون بياناً لحال المشبه به، الكافر فيعطف بحسب المعنى على التمثيل بتمامه. ولو قيل على الأول إنه من تتمة وصف السراب. والمعنى: وجد مقدوره تعالى من الهلاك بالظمأ عند السراب، فوفاه ما كتب له، من لا يؤخر الحساب - كان الكلام متناسباً. واختار الثاني أبو السعود حيث قال: هو بيان لبقية أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة، لئلا يتوهم أن قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط فقط، كما هو شأن الظمآن. ويظهر أنه يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال ما لا قدر عنده للخيبة أصلاً. فليست الجملة معطوفة على ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل، من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم المذكورة عيناً ولا أثراً. كما في قوله تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ فإن قيل: لمَ خص (الظمآن) بالذكر، مع أنه يتراءى لكل أحد كذلك؟ فكان الظاهر (الرائي) بدله. وأجيب بأنه إنما قيده به ولم يطلقه لقوله: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ الخ، لأنه من تتمة أحوال المشبه به. وهو أبلغ. لأن خيبة الكافر أدخل وأعرق. ونحوه ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١١٧]، الخ،

فإن الكافرين هم الذين يذهب حرثهم بالكلية. يعني أنه شبه أعمال الكفار التي يظنونها نافعة، ومآلها الخيبة، برؤية الكافر الشديد العطش في المحشر، سراباً يحسبه شراباً، فينتظم عطف (وجد الله) أحسن انتظام كما نوَّروه. كذا في (الكشف)
الثالثة – قال الشهاب: وهذا تشبيه بليغ وقع مثله في قوله مالك بن نويرة:

لَعَمْرِيَ إني وابن جارود كالَّذي أَرَاقَ شُعَيْبَ الماءِ والآلُ يَبْرُقُ
فَلما أتاه، خَيَّبَ اللهُ سعيَهُ فأمسى يَغُضّ الطرفَ عيمانَ يَشْهَقُ

ثم أشار تعالى إلى تمثيلهم بنوع آخر، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

﴿**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ**﴾ أي عميق كثير الماء ﴿**يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ**﴾ أي متراكم بعضه على بعض ﴿**مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ**﴾ أي متكاثفة متراكمة. وهذا بيان لكمال شدة الظلمات ﴿**إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ**﴾ أي وجعلها بمرأى منه، قريبة من عينه لينظر إليها ﴿**لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**﴾ أي: ومن لم يشأ الله أن يهديه لنوره الذي هو القرآن، فما له هدايةٌ ما. وهذا في مقابلة قوله تعالى في مثل المؤمنين ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ والجملة تقرير للتمثيل قبلُ، وتحقيق أن ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم، إذ لم يجاهدوا لنيل ذلك، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

لطيفة:

قال ابن كثير: هذان المثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار. كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين: ناريّاً ومائياً. وكما ضرب لما يقرّ في القلوب من الهدى والعلم، في سورة الرعد، مثلين مائيّاً وناريّاً.

ثم قال: أما الأول فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم أصحاب الجهل المركب الذين يحسبون أنهم على شيء. فمثلهم كالسراب. والثاني لأصحاب الجهل البسيط وهم المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم، الذين لا يعقلون. فلا يعرف أحدهم حال من يقوده ولا يدري أين يذهب. بل كما يقال في المثل للجاهل (أين تذهب؟ قال:

معهم. قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال: لا أدري) انتهى.

وما ذكره مما يحتمله اللفظ الكريم، وليس بمتعين. ومستنده في ذلك ما ذكره شيخه الإمام ابن القيم؛ عليهما الرحمة والرضوان، في (الجيوش الإسلامية) ولا بأس بإيرادها لما اشتملت عليه من بدائع الفوائد. قال: انظر كيف انتظمت هذه الآيات طرائق بني آدم أتم انتظام، واشتملت عليه أكمل اشتمال. فإن الناس قسمان: أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول ﷺ عن الله سبحانه وتعالى، وأن كل ما عارضه فشبهات يشتبه على من قل نصيبه من العقل والسمع أمرها، فيظنها شيئاً له حاصل فينتفع به. وهي كسراب بقيعة الخ، وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق، أصحاب العلم النافع والعمل الصالح، الذين صدقوا الرسول ﷺ في أخباره، ولم يعارضوها بالشبهات. وأطاعوه في أوامره ولم يضيعوها بالشهوات. فلاهم في علمهم، من أهل الخوض الخراصين ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذريات:١١] ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم، الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون. أضاء لهم نور الوحي المبين، فرأوا في نوره أهل الظلمات في آرائهم يعمهون. وفي ضلالهم يتهوكون. وفي ريبهم يترددون. مغترين بظاهر السراب، ممحلين مجدبين مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ من الحكمة وفصل الخطاب ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، أوجبه لهم اتباع الهوى، وهم لأجله يجادلون في آيات الله بغير سلطان.

القسم الثاني – أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به والظلم باتباع أهوائهم. الذين قال الله تعالى فيهم ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم:٢٣]، وهؤلاء قسمان: أحدهما، الذين يحسبون أنهم على علم وهدى، وهم أهل الجهل والضلال. فهؤلاء أهل الجهل المركب، الذين يجهلون الحق ويعادونه، ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالون أهله. وهم يحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون. فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه، بمنزلة رائي السراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. وهكذا هؤلاء. أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يخون صاحبه أحوج ما هو إليه. ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان، كما هو حال مَنْ أَمَّ السراب فلم يجده ماء. بل انضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين وأعدل العادلين. سبحانه وتعالى. فحسب له ما عنده من العلمِ والعملِ، فوفاه إياه بمثاقيل الذر. وقدم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه فجعله هباءً منثوراً. إذ لم يكن خالصاً

لوجهه، ولا على سنة رسوله ﷺ. وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علوماً نافعة، كذلك هباءً منثوراً. فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه. و(السراب) ما يرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري و(القيعة) و(القاع) هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا فيه واد. فشبه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله، بسراب يراه المسافر في شدة الحر، فيؤمّه، فيخيب ظنه ويجده ناراً تلظى. فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس واشتد بهم العطش، بدت لهم كالسراب. فيحسبونه ماء. فإذا أتوه وجدوا اللّه عنده، فأخذتهم زبانية العذاب، فَعَتَلُوهم إلى نار الجحيم فَسُقُوا ماء حميماً، فقطع أمعاءهم. وذلك الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع، والأعمال التي كانت لغير اللّه تعالى صيرها اللّه تعالى حميماً سقاهم إياه. كما أن طعامهم من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع وهو تلك العلوم والأعمال الباطلة التي كانت في الدنيا كذلك لا تسمن ولا تغني من جوع وهؤلاء هم الذين قال اللّه فيهم ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [الكهف :١٠٣-١٠٤]، وهم الذين عنى بقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان :٢٣]، وهم الذين عنى بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة :١٦٧].

القسم الثاني من هذا الصنف، أصحاب الظلمات. وهم المنغمسون في الجهل. بحيث قد أحاط بهم من كل وجه، فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلاً. فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة، بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور من اللّه تعالى: ﴿**كَظُلُمَاتٍ**﴾ جمع ظلمة وهي ظلمة الجهل وظلمة الكفر وظلمة الظلم واتباع الهوى وظلمة الشك والريب وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث اللّه تعالى به رسله صلوات اللّه وسلامه عليهم. والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور. فإن المعرض عما بعث اللّه به تعالى محمداً ﷺ من الهدى ودين الحق، يتقلب في خمس ظلمات: قوله: ظلمة. وعمله ظلمة. ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره إلى ظلمة. وقلبه مظلم ووجهه مظلم وكلامه مظلم. وحاله مظلم. وإذا قابلت بصيرته الخفاشية ما بعث اللّه به محمداً ﷺ من النور، جدّ في الهرب منه، وكاد نوره يخطف بصره، فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى كما قيل:

خفافيش أعشاها النهارُ بضَوْئِه ... ووافقها قِطعٌ من الليل مُظْلِمُ

وقوله تعالى: ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ اللجيّ العميق. منسوب إلى لجة البحر وهو معظمه. وقوله تعالى: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ تصوير لحال المعرض عن وحيه. فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل في صدره، بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنهم أمواج بعضها فوق بعض. والضمير الأول قوله: ﴿يَغْشَاهُ﴾ راجع إلى البحر، والضمير الثاني في قوله: ﴿مِنْ فَوْقِهِ﴾ عائد إلى الموج. ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب. فها هنا ظلمات: ظلمة البحر اللّجي، وظلمة الموج الذي فوقه، وظلمة السحاب الذي فوق ذلك كله ﴿إِذَا أَخْرَجَ﴾ مَن في هذا البحر ﴿يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ واختلف في معنى ذلك. فقال كثير من النحاة: هو نفي لمقاربة رؤيتها. وهو أبلغ من نفيه الرؤية. وإنه قد ينفي وقوع الشيء ولا تنفى مقاربته. فكأنه قال لم يقارب رؤيتها بوجه.

قال هؤلاء: (كاد) من أفعال المقاربة. لها حكم سائر الأفعال في النفي والإثبات. فإذا قيل: كاد يفعل، فهو إثبات مقاربة الفعل. وإذا قيل: لم يكد يفعل، فهو نفي لمقاربة الفعل.

وقالت طائفة أخرى: بل هذا دالّ على أنه إنما يراها بعد جهد شديد. وفي ذلك إثبات رؤيتها بعد أعظم العسر، لأجل تلك الظلمات: قالوا: لأن (كاد) لها شأن ليس لغيرها من الأفعال. فإنها إذا أثبتت نفت. وإذا نفت أثبتت. فإذا قلت: (ما كدت أصل إليك) فمعناه: وصلت إليك بعد الجهد والشدة. فهذا إثبات للوصول. وإذا قلت (كاد زيد يقوم) فهي نفي لقيامه. كما قال تعالى ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ [الجن:١٩].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ [القلم:٥١]، وأنشد بعضهم في ذلك لغزاً:

أنحويَّ هذا العصر! ما هي لفظةٌ ... جرت في لسانيْ جرهم وثَمُود؟
إذا استعملت في صورة النفي أثبَتَتْ ... وإن أثْبَتَتْ قامت مقام جُحُودِ

وقالت فرقة ثالثة، منهم أبو عبد الله بن مالك وغيره: إن استعمالها مثبتة، يقتضي نفي خبرها. كقولك كاد زيد يقوم واستعمالها منفية يقتضي نفيه بطريق الأولى، فهي عنده تنفي الخبر. سواء كانت منفية أو مثبتة. (فلم يكد زيد يقوم) أبلغ عنده في النفي من (لم يقم) واحتج بأنها إذا نفيت – وهي من أفعال المقاربة – فقد نفيت مقاربة الفعل. وهو أبلغ من نفيه. وإذا استعملت مثبتة فهي تقتضي مقاربة

اسمها لخبرها. وذلك يدل على عدم وقوعه. واعتذر عن مثل قوله تعالى ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١]، وعن مثل قوله (وصلت إليك وما كدت أصل) و(سلمت وما كدت أسلم) بأن هذا وارد على كلامين متباينين. أي: فعلت كذا بعد أن لم أكن مقارباً له، فالأول يقتضي وجود العمل، والثاني يقتضي أنه لم يكن مقارباً له، بل كان آيساً منه. فهما كلامان مقصود بهما أمران متباينان.

وذهبت فرقة رابعة إلى الفرق بين ماضيها ومستقبلها. فإذا كانت في الإثبات فهي لمقاربة الفعل. سواء كانت بصيغة الماضي أو المستقبل. وإن كانت في طرف النفي، فإن كانت بصيغة المستقبل، كانت لنفي الفعل ومقاربته. نحو قوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ وإن كانت بصيغة الماضي فهي تقتضي الإثبات نحو قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١]، فهذه أربعة طرق للنحاة في هذه اللفظة.

والصحيح أنها فعل يقتضي المقاربة. ولها حكم سائر الأفعال. ونفي الخبر لم يستفد من لفظها ووضعها. فإنها لم توضع لنفيه. وإنما استفيد من لوازم معناها. فإنها إذا اقتضت مقاربة الفعل، لم يكن واقعاً، فيكون منفياً باللزوم. وأما إذا استعملت منفية، فإن كانت في كلام واحد، فهي لنفي المقاربة. كما إذا قلت (لا يكاد البطال يفلح) و(لا يكاد البخيل يسود) و(لا يكاد الجبان يفرح) ونحو ذلك. وإن كانت في كلامين، اقتضت وقوع الفعل، بعد أن لم يكن مقارباً. كما قال ابن مالك: فهذا التحقيق في أمرها.

والمقصود إن قوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ إما ان يدل على أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة، وهو الأظهر. فإذا كان لا يقارب رؤيتها، فكيف يراها؟ قال ذو الرمة:

إذا غَيَّرَ النأيُ المحبينَ لم يَكَدْ   رسيسُ الْهَوَى فِي حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

أي لم يقارب البراح. وهو الزوال، فكيف يزول؟ فشبه سبحانه أعمالهم أولاً، في فوات نفعها وحصول ضررها عليهم، بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد. فإذا جاءه وجد عنده عكس ما أمله ورجاه. شبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها، لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان، بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج: الذي قد غشيه السحاب من فوقه. فيا له تشبيهاً ما أبدعه! وأشد مطابقته بحال أهل البدع والضلال! وحال من عبد الله سبحانه وتعالى على خلاف ما بعث به رسول الله ﷺ وأنزل به كتابه! وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح،

ولعلومهم وعقائدهم الفاسدة باللزوم. وكل واحد من السراب والظلمات، مثل لمجموع علومهم وأعمالهم. فهي سراب لا حاصل لها، وظلمات لا نور فيها. وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه، التي تلقاها من مشكاة النبوة. فإنها مثل الغيث الذي به حياة البلاد والعباد. ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة. ولهذا يذكر سبحانه هذين المثلين في القرآن في غير موضع، لأوليائه وأعدائه. انتهى. كلام ابن القيم رحمه الله تعالى.

ثم أشار تعالى إلى تعديل الدلائل على ربوبيته ووحدانيته في ألوهيته، وظهور أمره وجلالته، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾

﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ أي ينزهه ويقدسه وحده، أهلوهما ﴿**وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ**﴾ أي يصففن أجنحتهن في الهواء ﴿**كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ**﴾ أي كل واحد مما ذكر، قد هدى وأرشد إلى طريقته ومسلكه، في عبادة الله عزَّ وجلَّ. فالضمير في (علم) لكل. أو للفظ الجلالة، كالضمير في صلاته وتسبيحه.

قال الزمخشري: ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه، كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها.

وتقدم في سورة الإسراء كلام في تسبيح الجمادات، فارجع إليه ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**﴾ أي هو الإله الحاكم المتصرف فيهما، الذي لا تنبغي العبادة فيهما إلاَّ له، وإليه يوم القيامة، مصير الخلائق، فيحكم بينهم، ويجزي الذين أساءوا بما عملوا.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾

﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً**﴾ أي يسوقها برفق. ومنه البضاعة المزجاة، يزجيها كل أحد. أي يدفعها لرغبته عنها، أو لقدرته على سوقها وإيصالها ﴿**ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ**﴾ بضم بعضه إلى بعض. فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة ﴿**ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً**﴾ أي متراكماً بعضه فوق بعض ﴿**فَتَرَى الْوَدْقَ**﴾ أي المطر ﴿**يَخْرُجُ مِنْ خلاَلِه**﴾ وهي فرجه ومخارج القطر منه ﴿**وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِه مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ**﴾ قال ابن كثير: يحتمل المعنى: فيصيب بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد رحمة بهم ويصرفه عن آخرين حكمة وابتلاء. ويحتمل المعنى: فيصيب بالبرد من يشاء نقمة لما فيه من نثر الثمار وإتلاف الزروع. ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم. انتهى.

وخلاصته أن الضمير إما للأقرب، على الثاني، أوله ولما قبله، على الأول.

لطيفة:

قد ذكرت (من) الجارّة في الآية ثلاث مرات. فالأولى ابتدائية اتفاقاً. والثانية زائدة أو تبعيضية أو ابتدائية، على جعل مدخولها بدلاً مما قبله بإعادة الجار. والثالثة فيها هذه الأقوال. وتزيد برابع، وهو أنها لبيان الجنس. والتقدير: ينزل من السماء بعض جبال، التي هي البرد.

﴿**يَكَادُ سَنَا بَرْقِه**﴾ أي لمعانه ﴿**يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ**﴾ أي يخطفها لشدته وقوته.

القول في تأويل قوله تعالى:

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾

﴿**يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَار**﴾ أي يأتي بكل منهما بدل الآخر خلفاً له. أو يأخذ من طول أحدهما فيجعله في الآخر رحمة بالعباد، لانتظام معايشهم ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦)

﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِنْ ماءٍ**﴾ كل حيوان يدب على الأرض من ماء، وهو جزء مادته. أو ماء مخصوص هو النطفة، فيكون تنزيلاً للغالب منزلة الكلّ لأن من الحيوانات ما لا يتولد من نطفة. وقيل: ﴿**مِنْ ماءٍ**﴾ متعلق بـ (دابة) وليست صلة (لخلق) ﴿**فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِه**﴾ كالحياة. وتسمية حركتها مشياً، مع كونها زحفاً، بطريق الاستعارة أو المشاكلة ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ**﴾ أي مما ذكر وغيره، على من يشاء من الصور والأعضاء والهيئات والحركات ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَقَد أَنْزَلْنا ءايات مُبَيِّنات، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ وهو صراط تلك الآيات، صراط الحق والهدى والنور. وهم المؤمنون الصادقون الذين استجابوا للّه والرسول، وإذا دعوا إلى حكمها استكانوا.

ثم أشار إلى ما كان يقع من المنافقين من أثر النفاق، تحذيراً من صنيعهم، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)

﴿**وَيَقُولُونَ ءامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ**﴾ أي دعوى الإيمان ﴿**وَما أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**﴾ أي في قلوبهم. ثم برهن عليه بقوله ﴿**وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ**﴾ أي كتابه ﴿**وَرَسُولِه**﴾ أي سنته وحكمه ﴿**لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ**﴾ أي عن المجيء إليه ﴿**وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾ أي الحكومة لهم، لا عليهم ﴿**يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ**﴾ أي مسرعين طائعين. وقوله تعالى: ﴿**أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا**

أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُه﴾ أي في الحكم فيظلموا فيه. قال أبو السعود: إنكار واستقباح لإعراضهم المذكور. وبيان لمنشئه بعد استقصاء عدة من القبائح المحققة فيهم، والمتوقعة منهم. وترديد المنشئية بينها. فمدار الاستفهام ليس نفس ما وليته الهمزة و(أم) من الأمور الثلاثة، بل هو منشئيتها له. كأنه قيل: أذلك، أي إعراضهم المذكور، لأنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم، أم لأنهم ارتابوا في أمر نبوته عليه السلام، مع ظهور حقيتها؟ أم لأنهم يخافون الحيف ممن يستحيل عليه ذلك؟ إشارة إلى استجماعهم تلك الأوصاف الذميمة، التي كل واحد منها كفر ونفاق.

ثم بيّن اتصافهم مع ذلك بالوصف الأسوأ وهو الظلم، بقوله تعالى: **﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** أي الذين رسخ فيهم خلق الظلم لأنفسهم ولغيرهم. فالإضراب انتقالي.

والمعنى: دع هذا كله، فإنهم هم الكاملون في الظلم، الجامعون لتلك الأوصاف.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّه ورسوله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

قال السيوطيّ في (الإكليل): فيها وجوب الحضور على من دعي لحكم الشرع، وتحريم الامتناع، واستحباب أن يقول: سمعنا وأطعنا. انتهى.

ثم أشير إلى حكاية شيء من أحوال أولئك المنافقين الممتنعين عن قبول حكمه، وذلك إقسامهم الكاذب، ليستدل به على إيمانهم الباطن، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ** ﴾ أي بالخروج من ديارهم وأموالهم وأهليهم ﴿ **لَيَخْرُجُنَّ** ﴾ أي مجاهدين. و(جهد) منصوب على الحالية. أو هو مصدر (لأقسموا) من معناه. وهو مستعار من (جهد نفسه) إذا بلغ وسعها. أي أكدوا الأيمان وشدّدوها ﴿ **قُلْ لاَ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ** ﴾ أي لا تقسموا على ذلك وتشددوا لترضونا. فإن الأمر المطلوب منكم طاعة معروفة، لا تنكرها النفس. إذ لا حرج فيها. فأطيعوا بالمعروف من غير حلف، كما يطيع المؤمنون. وقيل: معناه طاعتكم طاعة معروفة. أي أنها قول بلا عمل. إذ عرف كذبكم في أيمانكم. كما قال تعالى ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ [التوبة: ٩٦]، الآية وقال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ [المجادلة: ١٦]، الآية فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ ﴾ [الحشر: ١١-١٢]، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ أي من الأعمال الظاهرة والباطنة، التي منها الأيمان الكاذبة، وما تضمرونه من النفاق ومخادعة المؤمنين، التي لا تخفى على من يعلم السر وأخفى.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا** ﴾ أي تولوا عن الإطاعة ﴿ **فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ** ﴾ أي كلفه من أداء الرسالة. فإذا أدى فقد خرج من عهدة تكليفه.

﴿ **وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ** ﴾ أي ما أمرتم به من الطاعة والتلقي بالقبول والإذعان والقيام بمقتضاه ﴿ **وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾ أي لأنه يدعوكم إلى الصراط المستقيم. فإن أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى. وإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرّضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه ﴿ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ** ﴾ أي التبليغ البيّن بنفسه، أو الموضح لما أمرتم به.

ولما تضمن قوله تعالى: ﴿ **تَهْتَدُوا** ﴾ إشارة إلى وعد كريم ومستقبل فخيم، استأنف التصريح به تقريراً له، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ**﴾ أي يورثهم الأرض ويجعلهم فيها خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم. أو خلفاء من الذين لم يكونوا على حالهم من الإيمان والأعمال الصالحة ﴿**كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ أي من الأمم المؤمنة برسلها. التي أهلك اللّه عدوَّها، وأورثها أرضها وديارها. كما فعل ببني إسرائيل حين أورثهم فلسطين، بعد إهلاك الجبابرة ﴿**وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ**﴾ أي فليجعلن دينهم ثابتاً مقرراً، مرفوع اللواء، ظاهراً على غيره، قاهراً لمن ناوأه.

قال أبو السعود: وفي إضافة (الدين) إليهم. وهو دين الإسلام، ثم وصفه بارتضائه لهم، تأليف لقوبهم ومزيد ترغيب فيه، وفضل تثبيت عليه ﴿**وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ**﴾ أي بعد هذا الوعد الكريم الموجب لتحصيل ما تضمنه من السعادتين ﴿**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ أي الكاملون في فسقهم. حيث كفروا تلك النعمة العظيمة. وجسروا على غمطها.

تنبيه:

في هذه الآية من الدلالة على صحة النبوة للإخبار بالغيب على ما هو عليه قبل وقوعه - ما لا يخفى. فقد أنجز اللّه وعده، وأظهرهم على جزيرة العرب، وافتتحوا بعدُ بلادَ المشرق والمغرب. ومزقوا ملك الأكاسرة، وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا، وصاروا إلى حال يخافهم كل من عداهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ**﴾ معطوف على (أطيعوا اللّه) وما اعترض بينهما

كان تأكيداً، أو على مقدر يستدعيه السوق. أي: فآمنوا واعملوا صالحاً وأقيموا. أو فلا تكفروا وأقيموا. الخ. ثم كرر طاعة الرسول، تأكيداً لوجوبها، بقوله ﴿ **وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ** ﴾ أي معجزين لله تعالى، بل مدركون ﴿ **وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾.

ثم أشير إلى تتمة الأحكام السابقة، إثر تمهيد ما يجب امتثاله من الأحكام، ومن الترغيب والترهيب، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾ أي من العبيد والجواري ﴿ **وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَاءِ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ** ﴾ أي هي ثلاث عورات لكم. إشارة إلى علة وجوب الاستئذان بأنهن أوقات يختلّ فيها التستّر عادة، ويكون النوم فيها مع الأهل غالباً. فالهجوم على أهل البيت في هذه الأحوال، مما تأباه النفوس وتكرهه أشد الإباء والكراهة ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ** ﴾ أي ليس عليكم جناح في ترك نهيهم عن الدخول بلا إذن. ولا عليهم جناح من الدخول بدونه، بعد هذه الأوقات، وإن احتمل فيها الإخلال بالتستر لندرته. وذلك لأنهم طوافون عليكم، فيعسر عليهم الاستئذان في كل مرة ﴿ **بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ أي بعضكم طائف على بعض طوافاً كثيراً. أو بعضكم يطوف على بعض.

قال الزمخشري: يعني أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة، يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام. فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت لأدّى إلى الحرج. ﴿ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ يشرع ما فيه الحكمة وصلاح الحال وانتظام الشأن.

تنبيه:

في الآية إقرارُ ما جرت به العادة من أن النوم وقته بعد العشاء وقبل الفجر ووقت

الظهيرة. وقد يستدل بها على أن كشف العورة في الخلوة جائز. كذا في (الإكليل).

وقال الرازي: الآية دالة على أن الواجب اعتبار العلل في الأحكام إذا أمكن لأنه تعالى نبه على العلة في هذه الأوقات الثلاثة من وجهين: أحدهما بقوله تعالى: ﴿**ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ**﴾ والثاني بالتنبيه على الفرق بين هذه الأوقات الثلاثة، وبين ما عداها، بأنه ليس ذاك إلا لعلة التكشف في هذه الأوقات الثلاثة، وإنه لا يؤمن وقوع التكشف فيها وليس كذلك ما عدا هذه الأوقات.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

﴿**وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ**﴾ أي الذين رخص لهم في ترك الاستئذان في غير الأوقات المذكورة ﴿**مِنْكُمْ**﴾ أي من الأحرار، دون المماليك، فإنهم باقون على الرخصة ﴿**الْحُلُمَ**﴾ أي حدّ البلوغ بالاحتلام، أو بالسنّ الذي هو مظنة الاحتلام ﴿**فَلْيَسْتَأْذِنُوا**﴾ أي في سائر الأوقات أيضاً ﴿**كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ أي الذين بلغوا الحلم من قبلهم، وهم الرجال أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ [النور ٢٧].

والمعنى أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن، إلا في العورات الثلاثة. فإذا اعتاد الأطفال ذلك، ثم خرجوا عن حدّ الطفولة، بأن يحتلموا أو يبلغوا السنّ التي يحكم فيها عليهم بالبلوغ، وجب أن يفطموا عن تلك العادة، ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات، كما يستأذن الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن.

وهذا مما الناس منه في غفلة. وهو عندهم كالشريعة المنسوخة. وعن ابن عباس: آيةٌ لا يؤمن بها أكثرالناس: آية الإذن. وإني لآمر جارتي أن تستأذن عليّ.

وسأله عطاء: أستأذنُ على أختي؟ قال: نعم، وإن كانت في حجرك تمونها. وتلا هذه الآية.

وعنه: ثلاث آيات جحدهن الناس: الإذن كله. وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّه أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، فقال ناس: أعظمكم بيتاً. وقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ [النساء:٨]. كذا في (الكشاف).

تنبيه:

قال في (الإكليل): في الآية أن التكليف إنما يكون بالبلوغ. وأن البلوغ يكون بالاحتلام. وأن الأولاد البالغين لا يدخلون على والديهم إلا بالاستئذان، كالأجانب. انتهى.

وقال التقي السبكي في (إبراز الحكم، في شرح حديث رفع القلم): أجمع العلماء على أن الاحتلام يحصل به البلوغ في حق الرجل. ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا**﴾ وقوله ﷺ في هذا الحديث[١] (وعن الصبيّ حتى يحتلم) وهي رواية ابن أبي السرح عن ابن عباس. قال: والآية أصرح. فإنها ناطقة بالأمر بعد الحلم. وورد أيضاً عن علي رضي اللّه عنه، رفعه (لا يُتم بعد احتلام، ولا صمات يوم إلى الليل)[٢] رواه أبو داود. والمراد بالاحتلام خروج المني. سواء كان في اليقظة أم في المنام، بحلم أو غير حلم. ولما كان في الغالب لا يحصل إلا في النوم بحلم، أطلق عليه الحلم والاحتلام، ولو وجد الاحتلام من غير خروج مني، فلا حلم له.

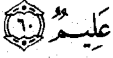
ثم قال: وقوله في الحديث (حتى يحتلم) دليل البلوغ بذلك. وهو إجماع. وهو حقيقة في خروج المني بالاحتلام، ومجاز في خروجه بغير احتلام يقظة أو مناماً. أو منقول فيما هو أعم من ذلك، ويخرج منه الاحتلام بغير خروج مني، إن أطلقناه عليه منقولاً عنه. ولكونه فرداً من أفراد الاحتلام. انتهى.

وفي (القاموس): الْحلُم (بالضم) والاحتلام: الجماع في النوم. والاسم الحلم كعنق. انتهى.

وقال الراغب: سمي البلوغ حلماً، لكون صاحبه جديراً بالحِلم: أي الأناة والعقل.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾



(١) أخرجه البخاري في: الحدود، ٢٢- باب لا يرجم المجنون. من قول علي لعمر.

(٢) أخرجه أبو داود في: الوصايا، ٩- باب ما جاء متى ينقطع اليتم، حديث رقم ٢٨٧٣.

﴿ **وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ** ﴾ أي اللاتي قعدن عن الحيض والولد، لكبرهن ﴿ **اللاَّتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً** ﴾ أي لا يطمعن فيه، لرغبة الأنفس عنهن ﴿ **فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ** ﴾ أي الظاهرة مما لا يكشف العورة، لدى الأجانب. أي يتركن التحفظ في التستر بهَا. فلا يلقين عليهن جلابيبهن ولا يحتجبن ﴿ **غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ** ﴾ أي مظهرات لزينة خفية. يعني الحليّ في مواضعه المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ أو المعنى غير قاصدات بالوضع، التبرج. ولكن التخفف إذا احتجبن إليه ﴿ **وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ** ﴾ أي من وضع تلك الثياب ﴿ **خَيْرٌ لَهُنَّ** ﴾ لأنه أبلغ في الحياء وأبعد من التهمة والمظنة. ولذا يلزمهن، عند المظنة، ألا يضعن ذلك. كما يلزم مثله في الشابة ﴿ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ أي فيسمع مقالهن مع الأجانب، ويعلم مقاصدهن من الاختلاط ووضع الثياب. وفيه من الترهيب ما لا يخفى. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

﴿ **لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ** ﴾ أي في القعود عن الغزو، لضعفهم وعجزهم. وهذه الآية كالتي في سورة الفتح وكآية براءة ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٩١]، وهذا ما ذهب إليه عطاء وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وزَعْمُ أنه لا يلائم ما قبله ولا ما بعده، مردود بأن المراد أن كلاً من الطائفتين منفيّ عنه الحرج. ومثال هذا - كما قال الزمخشري - أن يستفتيك مسافر عن الإفطار في رمضان. وحاجّ مفرِد عن تقديم الحلق على النحر. قلت له: ليس على المسافر حرج أن يفطر، ولا عليك، يا حاجّ أن تقدم الحلق عن النحر. يعني أنه إذا كان في العطف غرابة، لبعد الجامع في بادئ النظر، وكان الغرض بيان حكم حوادث

تقاربت في الوقوع، والسؤال عنها والاحتياج إلى البيان لكونها في معرض الاستفتاء، والإفتاء، كان ذلك جامعاً بينها، محسناً للعطف، وإن تباينت.

قال الشهاب: وبهذا يظهر الجواب عن زعم أنه لا يلائم ما قبله ولا ما بعده. لأن ملائمته لما بعده قد عرف وجهها. وأما ملائمته لما قبله فغير لازمة، إذ لم يعطف عليه. انتهى.

وقيل: كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوي العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم، وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم، فيطعمونهم منها. فخالج قلوبَ المطعمين والمطعَمين ريبة في ذلك. وخافوا أن يلحقهم فيه حرج. وكرهوا أن يكون أكلاً بغير حق، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، فقيل لهم: ليس على الضعفاء، ولا على أنفسكم، يعني عليكم، وعلى مَن في مثل حالكم من المؤمنين، حرج في ذلك.

وقيل: كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومواكلتهم، لما عسى يؤدي إلى الكراهة من قبلهم. ولأن الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت عين أكيله إليه وهو لا يشعر. والأعرج يتفسح في مجلسه ويأخذ أكثر من موضعه، فيضيق على جليسه. والمريض لا يخلو عن حالة تؤنف.

وقيل: كانوا يخرجون إلى الغزو، ويخلفون الضعفاء في بيوتهم، ويدفعون إليهم المفاتيح، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم. فكانوا يتحرجون. فقيل: ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تحرجوا عنه، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت.

هذا ما ذكروه. ولا يخفى صدق الآية على جميع ذلك، ونفي الحرج عنه كله. ولا يستلزم نفي الحرج عن مؤاكلة المريض على هذه الأوجه الأخر، أن يشرك أكيله الصحيح في غمس يده من إنائه مما حظر منه الطب، وغدت الأنفس تعافه. بل يراد به حضوره مع الصحيح على مائدة، واختصاصه بقصعة على حدة. وما أحسن عادة الانفراد بالقصاع، مما تطيب معه نفس المرضى والأصحاء في الاجتماع. وقوله تعالى: **﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾** اي بيوت أزواجكم وعيالكم. اضافه إليهم، لأن بيت المرأة كبيت الزوج وهذا قول الفرّاء.

وقال ابن قتيبة: أراد بيوت أولادهم. فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء، لأن الولد كسب والده، ماله كماله. قال ﷺ[1] «إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه».

---

(١) أخرجه النسائي في: البيوع، ١- باب الحث على الكسب، عن عائشة.

قال: والدليل على هذا، أنه تعالى عدّد الأقارب ولم يذكر الأولاد. لأنه إذا كان سبب الرخصة هو القرابة، كان الذي هو أقرب منهم أولى. انتهى.

وعليه، فلا يقال إنه ليس في أكل الإنسان من بيت نفسه حرج، فما فائدة ذكره بأن المراد بالأنفس من هو بمنزلتها من العيال والأولاد، كما في قوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

وفي (الكشف): فائدة إقحام النفس، أن المراد به ليس على الضعفاء المطعمين، ولاعلى الذاهبين إلى بيوت القرابات، أو مَن هو في مثل حالهم وهم الأصدقاء - حرج.

وقيل إنه على ظاهره. والمراد إظهار التسوية بينه وبين قرنائه.

قال الشهاب: وهو حسن. ولا يرد عليه أنه حينئذ لم يذكر فيه الأكل من بيوت الأزواج والأولاد، لأنه داخل في قوله: ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾. انتهى.

﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ يعني أموال المرء، إذا كان له عليها قيم ووكيل يحفظها له، أن يأكل من ثمر بستانه ويشرب من لبن ماشيته. وملك المفاتح كونها في يده وحفظه ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي أو بيوت أصدقائكم. والصديق يكون واحداً وجمعاً. وكذلك الخليط والقطين والعدو. كذا في (الكشاف).

قال الناصر: وقد قال الزمخشري: إن سرّ إفراده في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١]، دون الشافعين، والتنبيه على قلة الأصدقاء، ولا كذلك الشافعون فإن الإنسان قد يحمي له، ويشفع في حقه من لا يعرفه، فضلاً عن أن يكون صديقاً.

ويحتمل في الآيتين، أن يكون المراد به الجمع. فلا كلام. ويحتمل أن يراد الإفراد، فيكون سرّه ذلك. والله أعلم.

قال الزمخشري: يحكى عن الحسن أنه دخل داره. وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالاً من تحت سريره، فيها الخبيص وأطايب الأطعمة، وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجهه سروراً، وضحك وقال: هكذا وجدناهم، هكذا وجدناهم. يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين رضي الله عنهم.

وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب، فيسأل جاريته كيسه، فيأخذ منه ما شاء. فإذا حضر مولاها فأخبرته، أعتقها سروراً بذلك.

وعن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما: من عظم حرمة الصديق، أن جعله الله من الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة، بمنزلة النفس والأب والأخ والابن.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الصديق أكبر من الوالدين. إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات. فقالوا ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١]. وقالوا: إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك، قام ذلك مقام الإذن الصريح. وربما سمج الاستئذان وثقل. كمن قدم إليه طعام، فاستأذن صاحبه في الأكل منه. انتهى.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ أي مجتمعين أو متفرقين. روي أن قوماً من الأنصار إذا نزل بهم ضيف، لا يأكلون إلا مع ضيفهم. وإن قوماً كانوا تحرجوا من الاجتماع على الطعام، لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض. فأبيح لهم ذلك.

وقال قتادة: كان هذا الحيّ من بني كنانة، يرى أحدهم؛ أن مخزاة عليه، أن يأكل وحده في الجاهلية. حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحقل وهو جائع، حتى يجد من يؤاكله ويشاربه. واشتهر هذا عن حاتم لقوله:

إذا ما صَنعْتِ الزَّادَ فالْتَمِسي لَهُ　　　أكيلاً فإني لستُ آكِلَهُ وَحْدِي

قال الشهاب: وفي الحديث (شر الناس من أكل وحده، وضرب عبده، ومنع رفده) والنهي في الحديث لاعتياده بخلاً بالقرى، ونفي الحرج عن وقوعه أحياناً، بيانٌ لأنه لا إثم فيه، ولا يذم به شرعاً، كما ذمّت به الجاهلية.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي إذا دخلتم بيتاً من هذه البيوت لتأكلوا، فابدأوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم، قرابة وديناً. قاله الزمخشري.

أشار رحمه الله، إلى أن المراد بالأنفس من هم بمنزلتها، لشدة الاتصال كقوله ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] ويحتمل أن المسلم، إذا ردت تحيته عليه، فكأنه سلم على نفسه. كما أن القاتل لاستحقاقه القتل بفعله، كأنه قاتل نفسه. وأما إبقاؤه على ظاهره؛ لأنه إذا لم يكن في البيت أحد، يسره أن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله

الصالحين. كما روي عن ابن عباس – فبعيد غير مناسب لعموم الآية. كذا في (الشهاب).

وقال الناصر: في التعبير عنهم، بالأنفس، تنبيه على السر الذي اقتضى إباحة الأكل من هذه البيوت المعدودة، وأن ذلك إنما كان، لأنها بالنسبة إلى الداخل كبيت نفسه، لاتحاد القرابة.. فليطب نفساً بانبساطٍ فيها ﴿**تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ**﴾ أي ثابتة بأمر، مشروعة من لدنه ﴿**مُبارَكَةً**﴾ أي مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامها ﴿**طَيِّبَةً**﴾ أي تطيب بها نفس المستمع ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ أي ما فيها من الأحكام أو الآداب القائدة إلى سعادة الدارين.

ولما أمر تعالى بالاستئذان عند الدخول، أرشد إلى الاستئذان عند الانصراف من مجلسه صلوات الله عليه، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾.

قال الزمخشري: أراد عزَّ وجلَّ أن يريهم عظم الجناية ذهاب الذاهب من مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه. فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه، ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله. وجعلهما كالتشبيب له والبساط لذكره. وذلك مع تصدير الجملة (بإنما) وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول، أحاطت صلته بذكر الإيمانيْن. ثم عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً، حيث أعاده على أسلوب آخر، وهو قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**﴾ وضمنه شيئاً آخر. وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانَيْن، وعرّض بحال المؤمنين وتسلّلهم لواذاً. ومعنى قوله: ﴿**لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ**﴾ لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم، ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم بمشيئته وإذنه لمن استوصوب أن يأذن له.

والأمر الجامع: الذي يجمع له الناس. فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز. وذلك نحو مقاتلة عدوّ، أوتشاور في خطب مهم، أو تضامّ لإرهاب مخالف، أو تسامح في حلف وغير ذلك. أو الأمر الذي يعم بضرره أو بنفعه وقرئ (أمر جميع). وفي قوله: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أنه خطب جلل، لا بد لرسول اللّه ﷺ فيه من ذوي رأي وقوة، يظاهرونه عليه ويعاونونه، ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم، في كفايته. فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال، مما يشق على قلبه، ويشعّث عليه رأيه فمن ثم غلّظ عليهم وضيق عليهم الأمر في الاستئذان، مع العذر المبسوط، ومساس الحاجة إليه، واعتراض ما يهمهم ويعنيهم، وذلك قوله: ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ وذكرُ الاستغفار للمستأذنين، دليل على أن الأحسن الأفضل أن لا يحدّثوا أنفسهم بالذهاب، ولا يستأذنوا فيه.

وقيل: نزلت في حفر الخندق. وكان قوم يتسللون بغير إذن. وقالوا: كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدمهم في الدين والعلم، يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل، ولا يتفرقون عنهم، والأمر في الإذن مفوض إلى الإمام. إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن. على حسب ما اقتضاه رأيه.

تنبيه:

استدل بالآية على أن بعض الأحكام مفوّضة إلى رأيه ﷺ. وتسمى هذه المسألة مسألة التفويض. وهي مبسوطة في الأصول، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ أي إذا احتاج رسول اللّه ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر، فدعاكم، فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه. ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي، قال الزمخشري.

وكذا قال ابن الأثير في (المثل السائر) أي إذا حضرتم في مجلسه، فلا يكن

حضوركم كحضوركم في مجالسكم. أي لا تفارقوا مجلسه إلا بإذنه، والزموا معه الأدب.

وذهب قوم إلى أن المراد بالدعاء الأمر. منهم ابن أبي الحديد حيث قال في (الفلك الدائر): إن المعنى المتقدم، وإن دلت عليه قرينة متقدمة، كما قال ابن الأثير - ففي الآية قرينة أخرى متأخرة تقتضي حمله على محمل آخر غير هذا. ولعله الأصح. وهي أن يراد بالدعاء الأمر. يقال: دعا فلان قومه إلى كذا، أي أمرهم به وندبهم إليه وقال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، أي ندبكم. وقال سبحانه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [نوح:٧]، أي أمرتهم وندبتهم، والقرينة المتأخرة قوله: **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾** انتهى. وكذا قال المهايمي: أي لا تجعلوا أمره بينكم كأمركم بينكم يجاب تارة دون أخرى. لأنه واجب الطاعة. لا يسقط بالانسلال عن جملة المدعوّ.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً﴾ أي ينسلون قليلاً قليلاً. (واللواذ) الملاوذة، وهو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا. يعني ينسلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة، واستتار بعضهم ببعض. و (لواذاً) حال. أي ملاوذين.

هذا، وقيل معنى الآية: لا تجعلوا نداءه وتسميته، كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت به، والنداء وراء الحجرة. ولكن بلقبه المعظم. مثل: يا نبيّ اللّه! ويا رسول اللّه! مع التوقير والتواضع وخفض الصوت.

وضعف بأنه لا يلائم السياق واللحاق. وتكلف بعضهم لربطه بما قبله، بأن الاستئذان يكون بقولهم: يا رسول اللّه! إنا نستأذنك. ولأن من معه في أمر جامع يخاطبه ويناديه. والأول أظهر وأولى كما في (العناية).

نعم، في التنزيل عدة آيات، في إيجاب مشافهته صلوات اللّه عليه بالأدب ومخاطبته بالتوقير، وجعله من ضرورة الإيمان ومقتضاه. كآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ [البقرة:١٠٤] الآية، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢]، إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات:٤]، **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾** أي يعرضون عنه ولا يأتون به. فضمن (المخالفة) معنى الإعراض والصدّ. أو عن صلته. وقيل:

إذا تعدى (خالف) بـ (عن) ضمن الخروج. وأصل معنى المخالفة أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو فعله، كما قاله الراغب ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة في الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الآخرة أو فيهما.

تنبيه:

استدل به على وجوب وزن الأمور بميزان شريعته وسنته، وأصول دينه. فما وافق قبل، وما خالف رد على قائله وفاعله، كائناً من كان. كما ثبت في الصحيحين(١) عنه صلوات الله عليه وسلامه (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) واستدل بالآية أيضاً أن الأمر للوجوب. فإنه يدل على أن ترك مقتضى الأمر مقتض لأحد العذابين. قيل: هذا إنما يتم إذا أريد بالأمر الطلب لا الشأن كما في قوله: ﴿عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ وقد جوّزا فيه مع إرادتهما معاً. وتفصيل البحث في (الرازي).

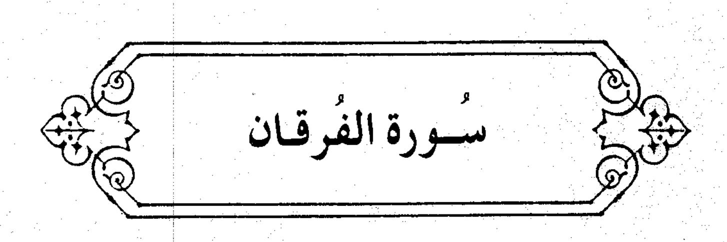
القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

﴿أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ، قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من المخالفة والموافقة، والنفاق والإخلاص. وإنما أكد علمه بـ (قد) لتأكيد الوعيد. ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي فلا يخفى عليه خافية. لأن الكل خلقه وملكه. فيحيط علمه به ضرورة. ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

(١) أخرجه البخاري في: الاعتصام، ٢٠- باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ.

بسم الله الرحمن الرحيم



الجمهور على أنها مكية. وعن الضحاك: مدنية. وعن بعضهم: مكية إلا ثلاث آيات ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ ﴾ إلى ﴿ رَحِيماً ﴾ [الفرقان:٦٨ - ٧٠].

قال المهايمي: سميت بالفرقان لاشتمالها على أنه ظهر كثرة خيرات الحق بالفرقان، الذي هو التمييز بين الحق والباطل. والأظهر أنه لذكره فيها بمعانيه الآتية المتسع لها اللفظ لا خصوص ما ذكره، وآياتها سبع وسبعون.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾

﴿ تبارَكَ الَّذي نزَّلَ الفُرْقَانَ على عبْدِهِ ليكُونَ للعَالَمين نَذيراً ﴾.

يحمد تعالى نفسه الكريمة ويثني عليها، لما أنزله من الفرقان، كما قال ﴿ الْحَمْدُ للّه الَّذي أَنْزَلَ عَلَى عَبْده الْكتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عوَجاً قَيِّماً ليُنْذرَ بَأساً شَديداً منْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمنينَ الَّذينَ يَعْمَلُونَ الصَّالحَات ﴾ [الكهف:١-٢] الآية.

قال الزمخشري: (البركة) كثرة الخير وزيادته. ومنها ﴿ تَبَارَكَ اللّهُ ﴾ وفيه معنيان: تَزَايَدَ خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه، في صفاته وأفعاله. و﴿ الْفُرْقَانَ ﴾ مصدر فرق بين الشيئين، إذا فصل بينهما. وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل. أو لأنه لم ينزل جملة واحدة، ولكن مفروقاً مفصلاً بعضه عن بعض في الإنزال.

الا ترى إلى قوله: ﴿ وَقُرْءَاناً فَرَقْنَاهُ لتَقْرَأَهُ عَلى النَّاس عَلَى مُكْث وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزيلاً ﴾ [الإسراء:١٠٦]، انتهى.

قال الناصر: والأظهر ها هنا هو المعنى الثاني. لأنه في أثناء السورة بعد آيات ﴿ وقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْه الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحدَةً ﴾ [الفرقان:٣٢]، قال اللّه تعالى ﴿ كَذَلكَ ﴾ أي أنزلناه مفرقاً كذلك ﴿ لنُثَبِّتَ به فُؤَادَكَ ﴾ فيكون وصفه بالفرقان في أول السورة - واللّه أعلم -. كالمقدمة والتوطئة لما يأتي بعد. انتهى.

قال أبو السعود: وإيراده ﷺ بذلك العنوان، لتشريفه والإيذان بكونه في أقصى مراتب العبودية، والتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبداً للمرسل؛ رداً على النصارى، والكناية في (ليكون) للعبد أو للفرقان. و (النذير) صفة بمعنى منذر، أو مصدر بمعنى الإنذار، كالنكر مبالغة.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

﴿الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ ولَمْ يَتَّخذْ وَلَداً ولَمْ يكُنْ لَهُ شَريكٌ في الْمُلْكِ وَخلَقَ كُلَّ شيْءٍ فَقدَّرَهُ تَقْديراً﴾ أي أحدثه إحداثاً مراعي فيه التقدير والتسوية لما أريد منه. كخلق الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المفيدة. وكذلك كل حيوان وجماد خلق على الصورة المقدرة. بأمثلة الحكمة والتدبير لأمر ما، ومصلحته مطابقاً لما قدر له، غير متجاف عنه.

ولما تضمن هذا إثبات التوحيد والنبوة، تأثره بالبرهنة عليهما، وتضليل المخالفين فيهما، بقوله سبحانه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

﴿واتَّخذُوا مِنْ دُونه آلهةً لا يَخْلُقونَ شيْئاً وَهُمْ يُخلَقونَ ولاَ يَمْلكُونَ لأنْفُسِهِمْ ضراً ولاَ نَفْعاً ولاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً ولاَ حَياةً ولاَ نُشُوراً﴾ أي لا يملكون دفع ضر ولا جلب نفع ولا إماتة أحد وإحياءه أولاً وبعثه ثانياً. ومن كان كذلك فبمعزل عن الألوهية، لعرائه عن لوازمها واتصافه بما ينافيها. وفيه تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء. أفاده القاضي.

قال الشهاب: قدم الموت لمناسبته للضر المتقدم وفسر الموت والحياة بالإماتة والإحياء والإنشار، إما بياناً لحاصل المعنى، لأن ملك الموت له القدرة على الإماتة، أو إشارة إلى أنه بمعنى الأفعال. كما في قوله ﴿أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾ [نوح: ١٧].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾

﴿وَقالَ الَّذينَ كَفَرُوا إنْ هَذَا إلاَّ إفْكٌ افْتَراهُ وأَعَانَه عَلَيْه قَوْمٌ ءاخَرُون فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً﴾ أي بجعل الصدق إفكاً، والبريء عن الإعانة معيناً ﴿وَزُوراً﴾ أي باطلاً لا مصداق له، يعلمون من أنفسهم أنه باطل وبهتان ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ أي ما سطروه، كتبها لنفسه وأخذها ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ أي تلقى عليه ليحفظها ﴿بُكْرَةً وأَصيلاً﴾ أي دائماً.

قال ابن كثير: وهذا الكلام، لسخافته وكذبه وبهته منهم، يعلم كل أحد بطلانه. فإنه قد علم بالضرورة: أن محمداً رسولَ اللّه ﷺ، لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره. وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده، إلى أن بعثه اللّه نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه وبره ونزاهته وأمانته. وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الردية، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره، وإلى أن بعث با (لأمين) لما يعلمون من صدقه وبره. فلما أكرمه اللّه بما أكرمه به، نصبوا له العداوة، ورموه بهذه الأقوال، التي يعلم كل عاقل براءته منها. وحاروا بما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر. وتارة يقولون: شاعر. وتارة يقولون: مجنون. وتارة يقولون: كذاب، قال اللّه تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٤٨] و[الفرقان:٩]، وقال تعالى في جواب ما افتروه هنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ﴾ أي الخفيّ فيهما. إشارة إلى علمه تعالى بحالهم بالأولى. ومن مقتضاه رحمته إياهم بإنزاله، لزيادة حاجتهم وافتقار أمثالهم إلى إخراجهم من الظلمات بأنواره. وفي طيّه ترهيب لهم بأن ما يسرونه من الكيد للنبيّ عليه الصلاة والسلام، مع ما يتقولونه ويفترونه، لا يعزب عن علمه. فسيجزيهم عليه بزهوق باطلهم ومحو أثرهم، وسموق حقه وظهور أمره ﴿إنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ تعليل لما هو مشاهد من تأخير عقوبتهم، مع استيجابهم إياها. أي فهو يمهل ولا يعاجل لمغفرته ورحمته. أو الوصفان كناية عن كمال قدرته على الانتقام منهم. لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر. هذا ما يستفاد من (الكشاف) ومن تابعه، لبيانه مطابقة ذلك لما قبله.

وقال ابن كثير: قوله تعالى ﴿إنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ دعاء لهم إلى التوبة والإنابة،

وإخبار لهم بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه. فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوهم سبحانه إلى التوبة، والإقلاع عما هم فيه، إلى الإسلام والهدى. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ. ومَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣-٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠]، قال الحسن البصريّ: انظروا إلى هذا الكرم والجود. قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة.

ثم أشار تعالى إلى تعنتهم بخصوص المنزل عليه، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾

﴿**وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ**﴾ أي كما نأكل ﴿**وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ**﴾ أي يتردد فيها لشؤونه كما نمشي. قال الزمخشري: يعنون أنه كان يجب أن يكون ملَكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش. أي فيخالف حالُه حالنا. قال أبو السعود: وهل هو إلا لعمههم وركاكة عقولهم، وقصور أنظارهم على المحسوسات. فإن تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية، وإنما هو بأمور نفسانية. كما أشير إليه بقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف:١١٠]، ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون مَلَكاً، إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملَك حتى يتساندا في الإنذار فقالوا ﴿**لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً**﴾ ثم نزلوا أيضاً إلى اقتراح أن يرفد بكنز، إن لم يرفد بملك، فقالوا:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾

﴿**أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ**﴾ أي من السماء يستظهر به، ولا يحتاج إلى طلب المعاش،

ويكون دليلاً على صدقه. ثم نزلوا فاقتنعوا باقتراح ما هو أيسر منه، فقالوا ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أي بستان يرتزق منه ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً ﴾ أي مغلوباً على عقله. وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾

﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالُ ﴾ استعظام للأباطيل التي اجترأوا على التفوه بها. والتعجب منها. أي انظر كيف قالوا في حقك تلك الأقوال الخارجة عن العقول ﴿ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ أي القدح في نبوّتك، بأن يجدوا قولاً يستقرّون عليه. أو فَضَلُّوا عن الحق فلا يجدون طريقاً إليه.

قال ابن كثير: كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال، حيثما توجه. لأن الحق واحد، ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً.

ثم نبه تعالى على انه إن شاء آتاه خيراً مما يقترحون، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً ﴾ أي إن شاء جعل لك خيراً مما قالوا. وهو أن يجعل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور. ولكن قضت حكمته ذلك ليكون الرضوخ للحق لاللمال. وليصدع بأن الأمر مبنيّ على النظر والاستدلال، لا ما يلهي المشاعر والخيال. مما يتطرق إلى الشغب فيه الجدال، فسبحان الحكيم المتعال. وقوله تعالى.

القول في تأويل قوله تعالى:

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ إضراب انتقاليّ عن توبيخهم بحكاية جنايتهم السابقة، وانتقال منه إلى توبيخهم بحكاية جنايتهم الأخرى، للتخلص إلى بيان ما لهم في

الآخرة بسببها، من فنون العذاب، بقوله ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً ﴾ أي ناراً شديدة الاستعار، أي التوقد والالتهاب.

وقيل: هذا الإضراب عطف على ما حكى عنهم وهو ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول ﴾ على معنى: بل أتوا بأعجب من ذلك كله، وهو تكذيبهم بالساعة. والحال أنا قد أعتدنا لكل من كذب بها سعيراً. فإن جراءتهم على التكذيب بها، وعدم خوفهم مما أعد لمن كذب بها، أعجب من القول السابق.

ويجوز أن يتصل بما يليه، كأنه قيل: بل كذبوا بالساعة، فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب؟ وكيف يصدقون بتعجيل ما وعدك الله في الآخرة وهم لايؤمنون بها؟.

ثم وصف تعالى السعير بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾

﴿ **إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً** ﴾ أي إذا كانت بمرأى منهم (أي قريبة منهم) ونسبة الرؤية إليها لا إليهم، للإيذان بأن التغيظ والزفير منها، لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إياهم، حقيقة أو تمثيلاً. و (من) في قوله ﴿ **مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾ إشعار بأن بعد ما بينها وبينهم من المسافة، حين رأتهم، خارج عن حدود البعد المعتاد في المسافات المعهودة. فيه مزيد تهويل لأمرها. أفاده أبو السعود. و (التغيّظ) إظهار الغيظ وهو أشد الغضب، وقد يكون مع صوت كما هنا. شبه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره، وهو صوت يسمع من جوفه، تصريحاً أو مكنياً أو تمثيلاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

﴿ **وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ** ﴾ أي قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿ **دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً** ﴾ أي هلاكاً. أي نادوه نداء المتمني الهلاك. ليسلموا مما هو أشد منه. كما قيل: أشد من الموت ما يُتمنى معه الموت. فيقال لهم ﴿ **لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً** ﴾ لكثرة أنواعه المتوالية. فإن عذاب جهنم ألوان وأفانين. أو كثرته باعتبار تجدد أفراده وإن كان متحداً. أو كثرته كناية عن دوامة. لأن

الكثير شأنه ذلك كما قيل في ضده ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَ مَقْطُوعَةٍ ولاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢-٣٣]، وقيل: وصف الثبور بالكثرة، لكثرة الدعاء أو المدعوّ به.

القول في تأويل قوله تعالى

قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾

﴿**قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ، كَانَتْ لَهُمْ جزاءً وَمَصِيراً لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خالِدِينَ، كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً**﴾ أي حقيقاً أن يسأل ويطلب ويتنافس فيه. وما في (على) من معنى الوجوب، لا متناع الخلف في وعده تعالى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾

﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ**﴾ أي الله تعالى للمعبودين، تقريعاً لعبدتهم ﴿**ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ**﴾ أي عن السبيل بأنفسهم، لإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن المرشد ﴿**قَالُوا سُبْحَانَكَ**﴾ تعجباً مما قيل لهم. لأنهم إما ملائكة معصومون أوجمادات لا قدرة لها على شيء. أو تنزيهاً له عن الأنداد ﴿**مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ**﴾ أي نعبدهم فأنى يتصور أن نحمل غيرنا على أن يتخذ وليّاً غيرك، أو (من أولياء) أي أتباعاً للعبادة ﴿**وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ**﴾ استدراك مسوق لبيان أنهم هم الضالون، بعد بيان تنزههم عن إضلالهم. وقد نعى عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسباباً للضلالة. أي ما أضللناهم. ولكن متعتهم وآباءهم بأنواع النعم، ليعرفوا حقها ويشكروها. فانهمكوا في الشهوات حتى نسوا الذكر، أي ذكرك. أو التذكر في آلائك، والتدبر في آياتك، فجعلوا أسباب الهداية، بسوء اختيارهم، ذريعة إلى الغواية - أفاده أبو السعود ﴿**وَكَانُوا قَوْماً بُوراً**﴾ أي هالكين. ثم أشار تعالى لاحتجاجه على عبدتهم وإلزامهم ما يبكتهم، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

﴿ **فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ** ﴾ أي المعبودون، أيها الكفرة ﴿ **بما تقولون** ﴾ أي في قولكم إنهم آلهة. أو في قولكم هؤلاء أضلونا ﴿ **فما تستطيعون** ﴾ أي ما تملكون ﴿ **صرْفاً** ﴾ أي دفعاً للعذاب عنكم بوجه ما ﴿ **ولا نصْراً** ﴾ أي لأنفسكم من البوار ﴿ **ومَنْ يظْلِمْ مِّنْكُمْ** ﴾ أيها المكلفون، كدأب هؤلاء ﴿ **نُذِقْهُ عذاباً كبِيراً** ﴾. ثم أجاب عن شبههم السابقة، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

﴿ **وما أرسَلْنا قبْلَكَ منَ الْمُرْسَلينَ إلاَّ إنَّهُمْ ليأكُلونَ الطَّعامَ ويَمْشُونَ في الأسْواقِ** ﴾ أي ليحتاجون إلى التغذي بالطعام ويتجولون في الأسواق للتكسب والتجارة. وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم. فإنه تعالى جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة القاهرة، ما يستدل به كل ذي لب سليم وبصيرة مستقيمة، على صدق ما جاءوا به من الله. ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ وَما أرْسَلْنا منْ قَبْلكَ إلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أهْلِ الْقُرى ﴾ [يوسف:١٠٩]، وقوله: ﴿ وما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يأْكُلُونَ الطَّعامَ ﴾ [الأنبياء:٨].

تنبيه:

قال السيوطيّ في (الإكليل): في الآية إباحة دخول الأسواق للعلماء وأهل الصلاح خلافاً لمن كرهها لهم.

وقوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لبعْضٍ فِتْنَةً أتَصْبِرُونَ، وكانَ ربُّك بَصِيراً** ﴾ قال الزمخشريّ: هذا تصبير لرسول الله ﷺ على ما قالوه واستبدعوه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق. بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل. يقول: وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم، أيها الناس، ببعض. والمعنى أنه ابتلى المرسلين

بالمرسل إليهم. وبمناصبتهم لهم العداوة. وأقاويلهم الخارجة عن حد الإنصاف، وأنواع أذاهم، وطلب منهم الصبر الجميل. ونحوه ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً، وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦]، وفي قوله تعالى: ﴿وكانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ زيادة تسلية وعدة جليلة. أي هو عالم فيما يبتلي به وغيره، فلا يضق صدرك. فإن في صبرك سعادة وفوزاً في الدارين.

ثم أشار إلى نوع آخر من أقاويلهم الباطلة، وإبطالها، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾

﴿**وَقالَ الَّذينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا**﴾ أي الرجوع إليه بالبعث والحشر ﴿**لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنا الْمَلائِكَةُ**﴾ أي للرسالة، أو لتخبرنا بصدق محمد ﷺ ﴿**أَوْ نَرى رَبَّنا**﴾ أي فيخبرنا بذلك ﴿**لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ**﴾ أي في شأنها حتى تفوّهوا بمثل هذه العظيمة ﴿**وَعَتَوْا**﴾ أي تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان ﴿**عُتُوّاً كَبيراً**﴾ أي بالغاً أقصى غايته حيث أملوا رتبة التكليم الربانيّ من غير توسط الرسول والملك. ولم يكتفوا بهذا الذكر الحكيم والخارق العظيم.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾

﴿**يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ**﴾ أي عند الموت أو في القيامة ﴿**لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً**﴾ أي كما كانوا يقولون عند لقاء العدوّ وشدة النازلة ﴿**حجراً**﴾ أي أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً و ﴿**محجوراً**﴾ تأكيد لـ ﴿**حجراً**﴾ وقيل هو من قول الملائكة ومعناه حراماً محرماً عليكم الغفران والجنة والبشرى، أي جعل الله ذلك حراماً عليكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾

﴿**وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ**﴾ أي مما كانوا يراءون به ابتغاء السمعة والشهرة،

ويرونه من مكارمهم ﴿فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ أي مثل الغبار المنثور في الجوّ، في حقارته وعدم نفعه.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَراً وأحْسَنُ مَقِيلاً وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بالْغَمام﴾ أي ينصدع نظامها فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ما يرى اليوم. فيخرب العالم بأسره. و(الباء) بمعنى (مع) أي مع السحب الجوية أو بمعنى (عن) أي تنفطر عن الغمام الذي يسوّد الجو ويظلمه، ويغم القلوبَ مرآه ﴿وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾ فيحيطون بالخلائق في المحشر.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي فلا يدعيه ثَمَّ غيره. ويكون له سبحانه السلطة القاهرة الشاملة ﴿وكانَ يَوْماً على الْكافِرِينَ عَسِيراً وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ على يَدَيْه﴾ أي تشتد حسراته وتتصاعد زفراته ﴿يَقُولُ يا لَيْتَني اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يا وَيْلَتا لَيْتَني لَمْ أتَّخذْ فُلاناً خليلاً﴾ يعني من أضلّه عن الذكر، وصده عن سبيل الله ﴿لَقَدْ أَضَلَّني عَنِ الذِّكْرِ﴾ أي القرآن، أو موعظة الرسول ﴿إِذْ جاءَني، وكانَ الشَّيْطانُ للإنْسانِ خَذُولاً﴾ أي مبالغاً في إضلاله، يعده ويمنيه في الدنيا، ما يحسّره عليه في العقبى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾

﴿وَقالَ الرَّسُولُ﴾ أي إثر ما شاهد من عتوهم وعنادهم ﴿يا رَبِّ إِنَّ قَوْمي اتَّخَذُوا هذا القُرْءانَ مَهْجُوراً﴾ أي متروكاً، معرضاً عنه. وجملة ﴿وقال الرسول﴾ عطف على

﴿وقال الذين لا يرجون﴾ وما بينهما اعتراض، سيقت لانتظام ما قالوه، وطلب النصر عليهم واستنزال الفرج الإلهيّ مما أضاقوا به الصدور، وجلبوه من الكدور، وللإشارة إلى ما يحيق بهم من شقاء الدارين.

تنبيه:

الآية، وإن كانت في المشركين، وإعراضُهم هو عدم إيمانهم، إلا أن نظمها الكريم مما يرهب عموم المعرضين عن العمل به، والأخذ بآدابه. الذي هو حقيقة الهجر. لأن الناس إنما تعبدوا منه بذلك. إذ لا تؤثر تلاوته إلا لمن تدبرها. ولا يتدبرها إلا من يقوم بها ويتمسك بأحكامها.

ومن (فوائد) الإمام ابن القيم رحمه الله. قوله في هذه الآية: هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها. فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به.

قال: وكل هذا داخل في هذه الآية، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض. انتهى.

وفي (الإكليل): إن في الآية إشارة إلى التحذير من هجر المصحف وعدم تعاهده بالقراءة فيه. وكذا قال أبو السعود: فيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن، كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم. ثم قال: وفيه من التحذير ما لا يخفى. فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم، عجل لهم العذاب ولم يُنظروا. ثم ذكر تعالى ما يكون أسوة لنبيه، وتسلية له، ووعداً بالنصرة، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنا لكُلِّ نَبيٍّ عدوّاً مِنَ الْمُجْرِمينَ وكَفَى بِرَبِّكَ هَادياً﴾ أي إلى ما يبلغك ما تتمناه **﴿ونَصِيراً﴾** أي لك على كل من يناوئك. ثم أشار تعالى إلى مقترح خاص بالتنزيل الكريم، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾

﴿ **وَقَالَ الَّذين كفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عليْه القُرْءانُ جُمْلَةً واحِدَةً** ﴾ أي دفعة واحدة في وقت واحد. وقد بين سبحانه بطلان هذه المماراة الحمقاء بقوله ﴿ **كَذلكَ لِنُثبِّتَ به فُؤادَكَ** ﴾ أي نقوّيه به على القيام بأعباء الرسالة، والنهوض لنشر الحق بين قادة الجهالة. فإن ما يتواتر إنزاله لذلك، أبعث للهمة وأثبت للعزيمة وأنهض للدعوة، من نزوله مرة واحدة ﴿ **ورتَّلْناهُ ترْتيلاً** ﴾ أي فصلناه تفصيلاً بديعاً، لا يلحق شأوه ولا يدرك أمده.

قال القاشانيّ: الترتيل هو أن يتخلل بين كل نجم وآخر، مدّة يمكن فيها ترسخه في قلبه، وأن يصير ملكة لا حالاً ﴿ **ولا يأْتُونَكَ بمثَلٍ** ﴾ أي بصفة عجيبة من باطلهم في قدح أو مقترح ﴿ **إلاَّ جئْناكَ بالْحَقِّ** ﴾ أي الذي يقمع تلك الصفة. كما قال ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ على البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿ **وأحْسَنَ تفْسيراً** ﴾ أي بياناً وهداية، عناية بك وبما أرسلت من أجله، وخذلاناً لأعداء الحق وخصوم الرشاد.

تنبيه:

يذكر المفسرون ها هنا أن الآية رد على الكفرة في طلبهم نزول القرآن جملة، كنزول بقية الكتب جملة. ويرون أن القول بنزول بقية الكتب دفعة، صحيح. فيأخذون لأجله في سرّ مفارقة التنزيل له. والحال أن القول بنزولها دفعة واحدة لا أصل له، وليس عليه أثارة من علم، ولا يصححه عقل. فإن تفريق الوحي وتمديد مدته بديهيّ الثبوت. لمقدار مكث النبيّ. إذ ما دام بين ظهراني قومه، فالوحي يتوارد تنزله ضرورة. ومن راجع التوراة والإنجيل الموجودين، يتجلى له ذلك واضحاً لا مرية فيه. وعذر القائل به ظنه أن الآية تعريض بنزول غيره كذلك. وما كل كلام معرّض به. وإنما الآية حكاية لاقتراح خاص، وتعنت متفنن فيه. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾

﴿ **الَّذِينَ يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِم إلى جهَنَّمَ أُولَئكَ شَرٌّ مَكاناً وأضَلُّ سَبيلاً ولَقَدْ ءاتَيْنا**

مُوسى الْكِتابَ وَجَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً فَقُلْنا اذْهَبا إِلى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا ﴾ وهم فرعون وقومه. والآيات الخوارق التسع. أي فذهبا إليهم. فأرياهموها فكذبوها ﴿ **فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً** ﴾ أي بالإغراق في البحر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾

﴿ **وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ** ﴾ يعني نوحاً. وجُمع تعظيماً لرسالته. أو هو ومن تقدمه عليهم السلام ﴿ **أَغْرَقْناهُمْ وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً وَعاداً** ﴾ يعني قوم هود ﴿ **وَثَمُودَ** ﴾ بالصرف وعدمه. قراءتان. على معنى الحي أو القبيلة ﴿ **وَأَصْحابَ الرَّسِّ** ﴾ اسم بئر. ونبيهم قيل: شعيب، وقيل: غيره. ويروي هنا بعضهم آثاراً منكرة لا تصح. كما نبه عليه الحافظ ابن كثير رحمه الله. فلا يحل الجراءة على روايتها، ولا تنزيل الآية عليها. لأنه من قَفْو ما ليس للمرء به علم. ومثله يحظر الخوض فيه. ﴿ **وَقُرُوناً** ﴾ أي أقواماً ﴿ **بَيْنَ ذلِكَ وَكُلاًّ ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ** ﴾ أي الأنباء التي تزجر عن الكفر والفساد ﴿ **وَكُلاًّ تَبَّرْنا تَتْبِيراً** ﴾ أي إهلاكاً عظيماً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

﴿ **وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ** ﴾ أي أهلكت بالحجارة وهي قرى قوم لوط ﴿ **أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها** ﴾ أي في مرورهم، ينظرون إلى آثار عذاب الله ونكاله؟ وفيه توبيخ لهم على تركهم الذكر، عند مشاهدة ما يوجبه ﴿ **بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً** ﴾ أي كفرة، لا يتوقعون عاقبة وجزاءً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

﴿وإذا رَأوْكَ إنْ يَتَّخِذُونَكَ إلاَّ هُزُواً أهذا الَّذي بعَثَ اللّهُ رَسُولاً﴾ أي يستهزئون قائلين ذلك. والإشارة للاستحقار. لأن كلمة (هذا) تستعمل له. وعائد الموصول محذوف. أي بعثه. و (رسولاً) حال منه ﴿إنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْلا أنْ صَبَرْنا عَلَيْها﴾ أي أنه كاد لَيصرفنا عن عبادتها صرفاً كليّاً، لولا أن ثبتنا عليها.

قال الزمخشريّ: فيه دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم، وبذل قصارى الوسع والطاعة في استعطافهم، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم، حتى شارفوا بزعمهم، أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أضَلُّ سَبِيلاً﴾ جواب منه تعالى لآخر كلامهم. وفيه وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدة الإمهال. ولا بد للوعيد أن يلحقهم، فلا يغرنهم التأخير.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

﴿أرَأيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلهَهُ هَواهُ أفأنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ تعجيب للنبيّ صلوات الله عليه من شناعة حالهم، بعد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال.

قال الزمخشريّ: من كان في طاعة الهوى في دينه، يتبعه في كل ما يأتي ويذر، ولا يتبصر دليلاً، ولا يصغي إلى برهان، فهو عابد هواه وجاعله إلهه. فيقول تعالى لرسوله: هذا الذي لا يرى معبوداً إلا هواه، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى؟ أفتتوكل عليه وتجبره على الإسلام؟ وتقول لا بد أن تسلم، شئت أو أبيت. ولا إكراه في الدين. وهكذا كقوله ﴿وما أنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبّارٍ﴾ [ق:٤٥]، ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢٢].

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

﴿أمْ تَحْسَبُ أن أكْثَرهُمْ يَسْمَعُونَ أوْ يَعْقِلُونَ، إنْ هُمْ إلاَّ كالأنْعامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبِيلاً﴾ أي منهم. لأن الأنعام تصرف قواها إلى طلب ما ينفعها، والنفرة مما يضرها. وهؤلاء عطّلوا قواهم وهي العقول التي يهتدى بها للحق، ويميز بها بين الخير والشر. ثم أشار

تعالى إلى بعض دلائل التوحيد، ومافيها من النعم العظمى الجديرة بأن تتلقى بالشكر لا بالكفر، كحال هؤلاء الكفرة بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾

﴿**أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ**﴾ أي عجيب صنعه أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس ﴿**وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكناً**﴾ أي ثابتاً على حاله، من الطول والامتداد. من (السكنى) أو غير متقلص من (السكون) بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد فلم ينتفع به أحد ﴿**ثُمَّ جَعَلْنا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَليلاً**﴾ أي علامة يستدل بأحوالها في مسيرها على أحوال الظل، من كونه ثابتاً في مكان، زائلاً ومتسعاً ومتقلصاً. فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه، على حسب ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

﴿**ثُمَّ قَبَضْناهُ إلَيْنا**﴾ أي أزلناه بعد ما أنشأناه ممتداً، ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا عند إيقاع شعاع الشمس موقعه ﴿**قَبْضاً يَسِيراً**﴾ أي على مهل، قليلاً قليلاً حسب ارتفاع دليله على وتيرة معينة مطردة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها. وفي هذا القبض اليسير، شيئاً بعد شيء، من المنافع ما لايعدّ ولا يحصر. ولو قبض دفعة واحدة، لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً، ﴿**وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً**﴾ أي ساتراً كاللباس ﴿**وَالنَوْمَ سُباتاً**﴾ أي راحة للأبدان تستعيض به ما خسرته من قواها ﴿**وَجعلَ النَّهارَ نُشُوراً**﴾ أي زمان انتشار لطلب المعاش.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾

﴿**وَهُوَ الَّذي أرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً**﴾ أي ناشرات للسحاب وفي قراءة (بشراً) بضم الموحدة بدل النون وسكون الشين، أي مبشرات ﴿**بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ**﴾ أي قدام المطر. وهي استعارة بديعة. استعيرت الرحمة للمطر ثم رشحت. كقوله: ﴿**يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ**

بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ [التوبة: ٢١]، وجعلها بين يديه تتمة لها. لأن البشير يتقدم المبشّر به. ويجوز أن تكون تمثيلية. و (بشراً) من تتمة الاستعارة، داخل في جملتها. ومن قرأ (نشراً) كان تجريداً لها. لأن النشر يناسب السحاب ﴿**وأنزلنا من السَّماء ماءً طَهُوراً**﴾ أي مطهراً، لقوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ [الأنفال: ١١]. وهذه الآية أصل في الطهارة بالماء.

قال القاضي: وتوصيف الماء به إشعار بالنعمة فيه، وتتميم للمنة فيما بعده. فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته. وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها، فبواطنهم بذلك أولى ﴿**لنحيي به بلدةً ميتاً**﴾ أي بإنبات النبات ﴿**وَنُسْقِيَهُ**﴾ أي ذلك الماء ﴿**ممَّا خلقنا أنعاماً وأناسيَّ كثيراً**﴾ قال الكرخيّ: خص الأنعام بالذكر، لأنها ذخيرتنا ومدار معاش أكثر أهل المدر. ولذلك قدم سقيها على سقيهم، كما قدم عليها إحياء الأرض. فإنها سبب لحياتها وتعيشها، فقدم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

﴿**ولَقَدْ صَرَّفْناهُ**﴾ أي كررنا هذا القول الذي هو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر ﴿**بَيْنَهُمْ ليذَّكَّرُوا**﴾ أي ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه ويشكروا ﴿**فأبى أكْثَرُ النَّاسِ إلاَّ كُفُوراً**﴾ أي كفران النعمة وجحودها ﴿**ولَوْ شئنا لَبَعَثْنا في كُلِّ قَرْيَةٍ نَذيراً**﴾ أي نبيّاً ينذر أهله فيخف عليك أعباء النبوة. لكن لم نشأ ذلك، فلم نفعله. بل قصرنا الأمر عليك حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١]، إجلالاً لك وتعظيماً، وتفضيلاً لك على سائر الرسل.

وقال المهايميّ: أي لكن لم نشأ. لأنه يقتضي تفرق الأمم، وتكثر الاختلافات. فجعلنا الواحد نذيراً للكل ليطيعوه أو يقاتلهم. والكفار يريدون أن يطيعهم الرسل أو يتركوهم على ما هم عليه ﴿**فلا تُطِعِ الْكافِرِينَ**﴾ أي فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق والتشدد والتصبر. ولا تطعهم فيما يريدونك عليه. وأراد بهذا النهي، تهييجه وتهييج المؤمنين، وتحريكهم. أي إثارة غيرته وغيرتهم. وإلا فإطاعته لهم غير متصوّرة.

وقال أبو السعود: كأنه نهي له، عليه الصلاة والسلام، عن المداراة معهم، والتلطف معهم. أي لأن في ذلك إضعافاً للحق وتغشية عليه. وطول أمد في سريانه. ولذا قال ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ أي بالقرآن وما نزل إليك من الحق ﴿جِهاداً كَبِيراً﴾ أي لا يخالطه فتور، بأن تلزمهم بالحجج والآيات، وتدعوهم إلى النظر في سائر الآنات، لتتزلزل عقائدهم، وتسمج في أعينهم عوائدهم. وهذه الآية من أصرح الأدلة في وجوب مجادلة المبطلين، ودعوتهم إلى الحق بقوة، والتفنن في محاجتهم بأفانين الأدلة. فإن الحق يتضح بالأدلة. كما أن الشهور تشتهر بالأهلّة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أرسلهما متجاورين متلاصقين، بحيث لا يتمازجان ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي شديد العذوبة قامع للظمأ ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي بليغ الملوحة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً﴾ أي حاجزاً لا يختلط أحدهما بالآخر ﴿وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ أي منعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر، وامتزاجه به، حتى بعد دخول أحدهما في الآخر مسافة.

لطيفة:

تلطف هنا المهايميّ في تأويل الآية، بمعنى يصلها بالآية قبلها، في أسلوب غريب. قال رحمه الله في قوله تعالى ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾: يؤثر في بواطنهم فيكون ﴿كَبِيراً﴾ يفوق ما يؤثر في الظواهر (و) إن زعموا أنه كيف يجاهد بالدلائل من يورد شبهات تجاورها؟ قيل: غاية أمرها أن يكونا كالبحرين المختلفين المتجاورين. وقد رفع الله الالتباس بينهما بعد ما جاور بينهما وهما محسوسان، فكيف لا يرفع الالتباس بين البحرين المعقولين إذ ﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ﴾ أي جاور ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾ اللذين بينهما غاية الخلاف إذ ﴿هَذا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي قاطع للعطش وهو مثل بحر الدلائل المفيدة للذوق، القاطعة عطش الطلب ﴿وَهذا مِلْحٌ أجَاجٌ﴾ أي مبالغ في الملوحة. وهو مثل بحر الشبهات الموجبة للنفرة جداً لأهل الذوق (و) أما لأهل النظر فقد ﴿جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً﴾ أي مانعاً من الخلط. وهو النظر في مواد المقدمات وصورها ليعلم بذلك صحة الدلائل (و) أما فساد الشبهات فيعلم بالاعتراضات التي

لا جواب عنها، كما أنه جعل بينهما ﴿ حِجْراً ﴾ أي منعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر ﴿ مَحْجُوراً ﴾ أي ممنوعاً أن يمنع. وإن زعموا أن كل فرقة ترى ممسكاته تفيده الذوق وتقطع عنه الطلب ويتنفر عن متمسكات صاحبه أشد من التنفر عن الملح الأجاج، قيل: ليس هذا بالنظر إلى نفس الدلائل، بل بواسطة التعصب من جهة الآباء والمشايخ والأصحاب. وقد أوجد الله لإزالة العذر عنه مثالاً، في قوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً ﴾ أي كما أخرج من المقدمات نتائج العلوم ﴿ فَجَعَلَهُ ﴾ أي البشر ﴿ نَسَباً ﴾ أي أصلاً أو فرعاً أو حاشية لقوم ﴿ وَصِهْراً ﴾ أي لآخرين يتعصب من أجل نسبه وصهره، فيعتقد باطلهم حقّاً. كذلك أهل الشغب يتعصبون لآبائهم ومشايخهم ﴿ وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ أي وهو وإن صعب إزالته، فإن ربك الذي أمرك بالجهاد الكبير، قدير على إزالته. كما قدر في النسب والصهر. فلا يبالي المؤمنون لهما. انتهى كلام المهايميّ رحمه الله.

وهو منزع في باب الإشارة غريب، أثرناه عنه للطافته. وأما معنى الآية في عظيم اقتداره سبحانه، حيث خلق البشر وقسمهم من نطفة واحدة قسمين ذوي نسب، أي ذكوراً ينسب إليهم، فيقال: فلان بن فلان وفلانة بنت فلان. وذوات صهر أي إناثاً يصاهر بهن، فظاهر. ونظيره قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثى ﴾ [القيامة:٣٩].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ ولا يَضُرُّهُمْ، وكانَ الْكافِرُ على رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ أي معيناً للشيطان على عصيان ربه. والمراد بالكافر الجنس، فهو إظهار في مقام الإضمار، لنفي كفرهم عليهم، ولرعاية الفواصل الكريمة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾

﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً قُلْ ما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على تبليغ الرسالة المفهوم من ﴿أَرْسَلْناكَ﴾ ﴿مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أي يتقرب إليه بالإيمان والطاعة. أي إلى رحمته أو جنابه. فاتخاذ السبيل، مراد به لازم معناه. لأن من سلك طريق شيء، قرب إليه، بل وصل.

قال الزمخشريّ: مثال ﴿إِلاَّ مَنْ شاءَ﴾ والمراد: إلاّ فعل من شاء. واستثنائه عن الأجر قولُ ذي شفقة عليك، قد سعى لك في تحصيل مالٍ: (ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت، إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه) فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب. ولكن صورّه هو بصورة الثواب وسماه باسمه، فأفاد فائدتين: إحداهما – قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله. كأنه يقول لك: إن كان حفظك لمالك ثواباً، فإني أطلب الثواب.

والثانية – إظهار الشفقة البالغة، وأنك إن حفظت مالك اعتدَّ بحفظك ثواباً ورضي به، كما يرضى المثاب بالثواب.

ولعمري إن رسول الله ﷺ كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه. انتهى. والاستثناء على هذا متصل ادعاء.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾

﴿وَتوكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ أي في دفع شرهم ومكرهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً﴾ أي عليماً لا يعزب عنه منها شيء، فيجزيهم عليها.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ وما بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي من أيامه تعالى، أو أيام الخلق، قولان للسلف ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي علا فوقه علواً يليق بجلاله المقدس. وتقدم تفسيره ﴿الرَّحْمَنُ﴾ مرفوع على المدح. أي هو الرحمن، وهو في الحقيقة وصف آخر للحيّ، كما قرئ بالجرّ. وقيل: الموصول مبتدأ والرحمن خبره.

وقيل: الرحمن بدل من المستكن في ﴿ اسْتَوَى ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ فيه أوجه: منها (الباء) في (به) صلة (اسأل) ومنها أنها صلة (خبيراً) و(خبيراً) مفعول (اسأل) أي فسل عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته. أو فسل رجلاً خبيراً به وبرحمته. وعليه ففائدة سؤاله هو تصديقه وتأييده.

قال الشهاب: ويصح تنازعهما - أي اسأل وخبيراً - في الباء. وفيه حينئذ نوع من البديع غريب يسمى المتجاذب. وهو كون لفظ واحد بين جملتين يصح جعله من الأولى والثانية. وقد ذكره السعد في أواخر (شرح المفتاح) وهذا مما غفل عنه أصحاب البديعيات. انتهى. ومنها أن الباء للتجريد. كقولك رأيت به أسداً. أي برؤيته. أي اسأل بسؤاله خبيراً والمعنى: إن سألته وجدته خبيراً.

قال في (الكشف): وهو أوجه، ليكون كالتتميم لقوله ﴿ الَّذي خَلَقَ ﴾، الخ فإنه لإثبات القدرة، مدمجاً فيه العلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ﴿٦٠﴾

﴿ وإذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قَالُوا وما الرَّحْمَنُ ﴾ أي من المسمى به؟ لأنهم ما كانوا يعرفونه تعالى بهذا الاسم ولا يطلقونه عليه. أو الاستفهام للتعجب والاستغراب، تفنناً في الإباء. أي وما هذه الأسماء والأعلام التي تصدعنا بها، وتقرع آذننا بالإذعان لها. ﴿ أنَسْجُد لما تأمُرنا وزادَهُمْ ﴾ أي الأمر بالسجود، المراد به الإذعان بالإيمان ﴿ نُفوراً ﴾ أي استكباراً عن الإيمان.

القول في تأويل قوله تعالى:

تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴿٦١﴾

﴿ تبارَكَ الَّذي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً ﴾ أي نجوماً أو هي البروج الاثنا عشر، التي ترى صورها في الأشكال الحاصلة من اجتماع بعض الكواكب على نسب خاصة، وتنتقل فيها الشمس في ظاهر الرؤية. ﴿ وجَعَلَ فِيها سِراجاً ﴾ وهي الشمس ﴿ وقَمراً مُنيراً ﴾ أي مضيئاً بالليل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾

﴿وَهُوَ الَّذي جَعلَ اللَّيْلَ والنَّهارَ خِلْفَةً﴾ أي ذوي عقبة يعقب كل منهما الآخر ﴿لِمَنْ أرادَ أنْ يَذَّكَّرَ﴾ أي يتفكر فيستدل بذلك على عظم قدرته ﴿أوْ أرادَ شُكُوراً﴾ أي يشكر على النعمة فيهما، من السكون بالليل والتصرف بالنهار. ويكون فيهما بما يقتضيه ما خلقا له.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾

﴿وَعِبادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرْضِ هَوْناً﴾ أي هينين. أو مشياً هيناً. أي بسكينة وتواضع. لا يضربون بأقدامهم، ولا يخفقون تبعاً لهم أشراً وبطراً. ﴿وإذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قَالُوا سلاماً﴾ أي إذا خاطبهم السفهاء بالقول السيء لم يقابلوهم بمثله، بل قالوا كلاماً فيه سلام من الإيذاء والإثم. سواء كان بصيغة السلام كقولهم (سلام عليكم)، أو غيرها مما فيه لطف في القول أو عفو أو صفح. وكظم للغيظ. دفعاً بالتي هي أحسن ﴿والَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً﴾ أي يكون لهم في الليل فضل صلاة وإنابة، كما قال تعالى: ﴿كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ وبالأسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧-١٨]، وقوله ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ﴾ [السجدة:١٦] الآية، وقوله ﴿أمَّنْ هُو قانتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجداً وقائماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّه، قُلْ هَلْ يَسْتوي الَّذينَ يَعْلَمُونَ والَّذينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، و(البيتوتة) لغةً، الدخول في الليل. يقال: بات يفعل كذا يبيت ويبات، إذا فعله ليلاً. وقد تستعار البيتوتة للكينونة مطلقاً. إلا أن الحقيقة أولى، لكثرة ما ورد في معناها مما تلونا. ولذلك قال السلف: في الآية مدح قيام الليل والثناء على أهله. وفي قوله ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى الإخلاص في أدائها وابتغاء وجهه الكريم. لما أن ذلك هو الذي يستتبع أثرها من العمل الصالح وفعل الخير وحفظ حدود الله ﴿وقياماً﴾ جمع قائم أو مصدر أجري مجراه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾

﴿والَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جهَنَّمَ إنَّ عَذابَها كانَ غَراماً﴾ أي هلاكاً

دائماً. والمراد من قولهم ذلك، فزعهم منها، ووجلهم الشديد المستتبع لتمسكهم بالتقوى، واعتصامهم بالسبب الأقوى. لا مجرد قلقلة اللسان، بلا تأثر من الجنان. فإنهم لم يبتهلوا إلى المولى، ويتعوذوا به من سعيرها، إلا لعلمهم بسوء حالها. ومقتضى العلم بالشيء إيفاؤه حقه والعمل بموجبه. ولذا قال تعالى ﴿**إِنَّها سَاءتْ مُسْتَقَراً وَمُقاماً**﴾ أي موضع استقرار وإقامة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَواماً**﴾ أي لم يجاوزوا الحدّ في الإنفاق، ولم يضيّقوا على أنفسهم وأهليهم وما يعروهم بخلاً ولُؤْماً. بل كانوا في ذلك متوسطين، وخير الأمور أوسطها.

قال الزمخشريّ: وصفهم الله بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير. وبمثله أمر رسول الله ﷺ ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء:٢٩]، وروى الإمام أحمد(١) عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال «من فقه الرجل رفقه في معيشته» وأخرج أيضاً عن ابن مسعود(٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد» وروى البزار عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ «ما أحسن القصد في الغنى، وما أحسن القصد في الفقر، وما أحسن القصد في العبادة».

وعن الحسن: ليس في النفقة في سبيل الله سرف. وسمع رجل رجلاً يقول: لا خير في الإسراف. فقال: لا إسراف في الخير.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

---

(١) أخرجه في المسند ٥/١٩٤.

(٢) أخرجه في المسند ١/٤٤٧، والحديث رقم ٤٢٦٩.

﴿ والَّذين لا يَدْعُونَ مَعَ اللّهِ إلهاً آخَرَ ﴾ أي لا يشركون بعبادة ربهم أحداً، فالدعاء بمعنى العبادة ﴿ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ ﴾ أي حرمها بمعنى حرّم قتلها. ومنه الوأد وغيره ﴿ إلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ أي المزيل لحرمتها وعصمتها ﴿ ولا يزْنُونَ، وَمَنْ يفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ أي ما ذكر من هذه القبائح العظام ﴿ يَلْقَ أثاماً ﴾ أي يجد في الآخرة جزاء إثمه ﴿ يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقيامَة وَيَخلُدْ فيه مُهاناً ﴾ أي ذليلاً محتقراً جامعاً لعذابي الجسم والروح ﴿ إلاَّ مَنْ تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً فأولَئكَ يُبَدِّلُ اللّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسناتٍ وكانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ أي لمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

قال الحافظ ابن كثير: وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل. ولا تعارض بين هذه وآية النساء ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً ﴾ [النساء:٩٣] الآية، فإن هذه، وإن كانت مدنية، إلا أنها مطلقة. فتحمل على من لم يتب. لأن هذه مقيدة بالتوبة. ثم قال تعالى: ﴿ إنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء:٤٨ و١١٦] الآية، وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل. كما ذكر مقرراً من قصة الذي[1] قتل مائة رجل ثم تاب فقبل الله توبته، وغير ذلك من الأحاديث. ثم قال: وفي معنى قوله تعالى: ﴿ يُبَدِّلُ اللّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ ﴾ قولان: أحدهما - أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات. قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس، في هذه الآية: هم المؤمنون. كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن السيئات. فحولهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات. وكذا قال سعيد بن جبير: أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين. وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات. وكذا قال الحسن: أبدلهم بالعمل السيء العمل الصالح. وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وبالفجور إحصاناً، وبالفكر إسلاماً.

القول الثاني: إن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح، حسنات. وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى، ندم واسترجع واستغفر. فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار. انتهى.

ولابن القيم رحمه الله تعالى في (طريق الهجرتين) في هذا المقام بسط حسن وتناظر متقن، لا بأس بإيراده، لعظم فائدته.

---

(١) أخرجه البخاري في: الأنبياء، ٥٤- باب حدثنا أبو اليمان، حديث رقم ١٦٢٩، عن أبي سعيد الخدري.
وأخرجه مسلم في: التوبة، حديث رقم ٤٦.

قال رحمه الله (بعد شرحه لحديث فرح الله بتوبة عبده ما مثاله): وها هنا مسألة، هذا الموضع أخص المواضع ببيانها. وهي أن التائب إذا تاب إلى الله توبة نصوحاً، فهل تمحى تلك السيئات وتذهب، لا له ولا عليه، أو إذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة؟ هذا مما اختلف الناس فيه، من المفسرين وغيرهم، قديماً وحديثاً. فقال الزجاج: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، لكن يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة قال ابن عطية: يجعل أعمالهم، بدل معاصيهم الأولى طاعة، فيكون ذلك سبباً لرحمة الله إياهم، قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن. ورد على من قال هو في يوم القيامة. قال: وقد ورد حديث في كتاب مسلم[1] من طريق أبي ذر يقتضي أن الله سبحانه يوم القيامة، يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين، بدل سيئاته حسنات. وذكره الترمذيّ والطبريّ. وهذا تأويل سعيد بن المسيب في هذه الآية.

قال ابن عطية: وهو معنى كرم العفو. انتهى.

وسيأتي ذكر الحديث والكلام عليه.

وقال الثعلبيّ: قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد: ﴿**يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾ يبدلهم الله تقبيح أعمالهم في الشرك، محاسن الأعمال في الإسلام. فيبدلهم بالشرك وبقتل المؤمنين، قتل المشركين. وبالزنى، عفة وإحصاناً.

وقال آخرون: يعني يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم، حسنات يوم القيامة وأصل القولين، أن هذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة؟ فمن قال إنه في الدنيا، قال هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها. وهي حسنات، وهذا تبديل حقيقة. والذين نصروا هذا القول احتجوا بأن السيئة تنقلب حسنة، بل غايتها أن تمحى وتكفر ويذهب أثرها، فأما أن تنقلب حسنة فلا. فإنها لم تكن طاعة، وإنما كانت بغيضة مكروهة للرب، فكيف تنقلب محبوبة مرضية؟

قالوا: وأيضاً فالذي دل عليه القرآن إنما هو تكفير السيئات ومغفرة الذنوب، كقوله ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران:١٩٣]، وقوله ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى:٢٥]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر:

---

(١) أخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ٣١٤.

٥٣]، والقرآن مملوء من ذلك وفي الصحيح[١] من حديث قتادة عن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول(يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف؟ فيقول: ربّ! أعرف قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. فيعطى صحيفة حسناته).

وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على الله عز وجل.

فهذا الحديث المتفق عليه، والذي تضمن العناية بهذا العبد، إنما فيه ستر ذنوبه عليه في الدنيا ومغفرتها له يوم القيامة. ولم يقل له: وأعطيتك بكل سيئة منها حسنة. فدل على أن غاية السيئات مغفرتها وتجاوز الله عنها.

وقد قال الله في حق الصادقين ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر:٣٥]، فهولاء خيار الخلق. وقد أخبر عنهم أنه يكفر عنهم سيئات أعمالهم ويجزيهم بأحسن ما يعملون. وأحسن ما عملوا إنما هو الحسنات لا السيئات، فدل على أن الجزاء بالحسنى إنما يكون على الحسنات وحدها. وأما السيئات، أن تلغى ويبطل أثرها. قالوا: وأيضاً، فلو انقلبت السيئات أنفسها حسنات في حق التائب، لكان أحسن حالاً من الذي لم يرتكب منها شيئاً. وأكثر حسنات منه، لأنه إذا أساء شاركه في حسناته التي فعلها وامتاز عنه بتلك السيئات، ثم انقلبت له حسنات ترجح عليه. وكيف يكون صاحب السيئات أرجح ممن لا سيئة له؟ قالوا: وأيضاً فكما أن العبد، إذا فعل حسنات ثم أتى بما يحبطها، فإنها لا تنقلب سيئات يعاقب عليها، بل يبطل أثرها ويكون لا له ولا عليه، وتكون عقوبته عدم ترتب ثوابه عليها. فهكذا من فعل سيئات ثم تاب منها، فإنها لا تنقلب حسنات فإن قلتم: وهكذا التائب يكون ثوابه عدم ترتب العقوبة على سيئاته، لم ننازعكم في هذا. وليس هذا معنى الحسنة فإن الحسنة تقتضي ثواباً وجودياً. واحتجت الطائفة الأخرى التي قالت: هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة، بأن قالت: حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة. وهذا إنما يكون في

---

(١) أخرجه البخاري في: المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: ﴿الا لعنة الله على الظالمين﴾، حديث رقم ١٢٠١.
وأخرجه مسلم في: التوبة، حديث رقم ٥٢.

السيئة المحققة. وهي التي قد فعلت ووقعت. فإذا بدلت حسنة كان معناه أنها محيت وأثبت مكانها حسنة. قالوا: ولهذا قال تعالى: ﴿**سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾ فأضاف السيئات إليهم، لكونهم باشروها واكتسبوها. ونكر الحسنات ولم يضفها إليهم، لأنها من غير صنعهم وكسبهم، بل هي مجرد فضل الله وكرمه قالوا: وأيضاً، فالتبديل في الآية إنما هو فعل الله لا فعلهم فإنه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات، ولو كان المراد ما ذكرتم لأضاف التبديل إليهم. فإنهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات والأعمال إنما تضاف إلى فاعلها وكاسبها، كما قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة:٥٩]، وأما ما كان من غير الفاعل، فإنه يجعله من تبديله هو، كما قال تعالى: ﴿فَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ:١٦]، فلما أخبر سبحانه أنه هو الذي يبدل سيئاتهم حسنات، دل على أنه شيء فعله هو سبحانه بسيئاتهم، لا أنهم فعلوه من تلقاء أنفسهم. وإن كان سببه منهم وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح.

قالوا: ويدل عليه ما رواه مسلم(١) في صحيحه عن أبي ذر: قال رسول الله ﷺ «إني لأعلم آخر أهل جنة دخولاً الجنة. وآخر أهل النار خروجاً منها. رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها. فتعرض عليه صغار ذنوبه. فيقال: عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا. وعملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا فيقول: نعم. لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة» قالوا: وهؤلاء هم الأبدال في الحقيقة. فإنهم إنما سموا أبدالاً لأنهم بدلوا أعمالهم السيئة، بالأعمال الحسنة، فبدل الله سيئاتهم التي عملوا حسنات.

قالوا: وأيضاً فالجزاء من جنس العمل. فكما بدلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة، بدلها الله من صحف الحفظة، حسنات جزاء وفاقاً.

قالت الطائفة الأولى: كيف يمكنكم الاحتجاج بحديث أبي ذر، على صحة قولكم، وهو صريح في أن هذا الذي قد بدلت سيئاته حسنات، قد عذب عليها في النار، حتى كان آخر أهلها خروجاً منها فهذا قد عوقب على سيئاته. فزال أثرها بالعقوبة. فبدل مكان كل سيئة منها حسنة. وهذا حكم غير ما نحن فيه. فإن الكلام في التائب من السيئات، لا فيمن مات مصراً عليها غير تائب. فأين أحدهما من الآخر؟

---

(١) أخرجه في: كتاب الإيمان، حديث رقم ٣١٤.

قالوا: وأما ما ذكرتم من أن التبديل هو إثبات الحسنة مكان السيئة، فحق. وكذلك نقول: إن الحسنة المفعولة صارت في مكان السيئة، التي لولا الحسنة لحلت محلها.

قالوا: وأما احتجاجكم بإضافة السيئات إليهم، وذلك يقتضي أن تكون هي السيئات الواقعة وتنكير الحسنات وهو يقتضي أن تكون حسنات من فضل الله، فهو حق بلا ريب. ولكن من أين يبقى أن يكون فضل الله بها، مقارناً لكسبهم إياها بفضله؟.

قالوا: وأما قولكم إن التبديل مضاف إلى الله لا إليهم، وذلك يقتضي أنه هو الذي بدلها من الصحف، لأنهم هم الذين بدلوا الأعمال بأضدادها، فهذا لا دليل لكم. فإن الله خالق أفعال العباد. فهو المبدل للسيئات حسنات خلقاً وتكويناً، وهم المبدلون لها فعلاً وكسباً.

قالوا: وأما احتجاجكم بأن الجزاء من جنس العمل، فكما بدلوا سيئات أعمالهم بحسناتهم أبدلها الله كذلك في صحف الأعمال. فهذا حق، وبه نقول، وإنه بدلت السيئات التي كانت مهيأة ومعدة أن تحل في الصحف، بحسنات جعلت موضعها. فهذا منتهى إقدام الطائفتين، ومحط نظر الفريقين. وإليك أيها المنصف الحكم بينهما. فقد أدلى كل منهما بحجته، وأقام بينته. والحق لا يعدوهما ولا يتجاوزهما. فأرشد الله من أعان على هدى، فنال به درجة الداعين إلى الله، القائمين ببيان حججه ودينه. أو عذر طالباً منفرداً في طريق مطلبه، قد انقطع رجاؤه من رفيق في الطريق. فغاية أمنيته أن يخلي بينه وبين سيره، وألا يقطع عليه طريقه. فمن رفع له مثل هذا العلم ولم يشمر إليه، فقد رضي بالدون. وحصل على صفقة المغبون. ومن شمر إليه ورام ألا يعارضه معارض، ولا يتصدى له ممانع، فقد منى نفسه المحال، وإن صبر على لأوائها وشدتها، فهو والله الفوز المبين، والحظ الجزيل وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

فالصواب، إن شاء الله في هذه المسألة، أن يقال: لا ريب أن الذنب نفسه لا ينقلب حسنة. والحسنة إنما هي أمر وجوديّ يقتضي ثواباً ولهذا كان تارك المنهيات إنما يثاب على كف نفسه وحبسها عن موافقة المنهيّ. وذلك الكف والحبس أمر وجوديّ وهو متعلق الثواب. وأما من لم يخطر بباله الذنب أصلاً، ولم يحدث به نفسه، فهذا كيف يثاب على تركه؟ ولو أثيب مثل هذا على ترك هذا الذنب، لكان

مثاباً على ترك ذنوب العالم التي لا تخطر بباله وذلك أضعاف حسناته بما لا يحصى فإن الترك مستصحب معه، والمتروك لا ينحصر ولا ينضبط، فهل يثاب على ذلك كله؟ وهذا مما لا يتوهم. وإذا كانت الحسنة لا بد أن تكون أمراً وجودياً، فالتائب من الذنوب التي عملها، قد قارن كل ذنب منها، ندماً عليه، وكف نفسه عنه، وعزم على ترك معاودته. وهذه حسنات بلا ريب. وقد محت التوبة أثر الذنب، وخلفه هذا الندم والعزم، وهو حسنة، قد بدلت تلك السيئة حسنة. وهذا معنى قول بعض المفسرين: يجعل مكان السيئة التوبة والحسنة مع التوبة. فإذا كانت كل سيئة من سيئاته قد تاب منها، فتوبته منها حسنة حلت مكانها. فهذا معنى التبديل. لا أن السيئة نفسها تنقلب حسنة.

وقال بعض المفسرين في هذه الآية: يعطيهم بالندم على كل سيئة أساءوها حسنة. وعلى هذا، فقد زال بحمد الله الإشكال. واتضح الصواب. وظهر أن كل واحدة من الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم والحجة.

وأما حديث أبي ذر، وإن كان التبديل فيه في حق المصرّ الذي عذب على سيئاته، فهو يدل بطريق الأولى على حصول التبديل للتائب المقلع النادم على سيئاته. فإن الذنوب التي عذب عليها المصرّ، لما أزال أثرها بالعقوبة، بقيت كأن لم تكن، فأعطاه الله مكان كل سيئة منها حسنة، لأن ما حصل له يوم القيامة من الندم المفرط عليها، مع العقوبة، لا يقتضي زوال أثره وتبديلها حسنات. فزوال أثرها بالتوبة النصوح، أعظم من زوال أثرها بالعقوبة. فإذا بدلت بعد زوالها بالعقوبة، حسنات، فلأنْ تبدل بعد زوالها بالتوبة حسنات، أولْى وأحرى. وتأثيرُ التوبة في هذا المحو والتبديل أقوى من تأثير العقوبة. لأن التوبة فعل اختياريّ أتى به العبد طوعاً ومحبة لله وفرَقاً منه، وأما العقوبة، فالتكفير بها من جنس التكفير بالمصائب التي تصيبه بغير اختياره، بل بفعل الله. ولا ريب أن تأثير الأفعال الاختيارية التي يحبها الله ويرضاها في محو الذنوب، أعظم من تأثير المصائب التي تناله بغير اختياره. انتهى كلامه رحمه الله. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾

﴿ وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فإِنَّهُ يَتُوبُ إلى اللَّهِ مَتاباً ﴾ أي ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح، فإنه بذلك تائب إلى الله متاباً مرضيّاً عنده، مكفراً

للخطايا، محصلاً للثواب. قرره الزمخشريّ.

والآية صريحة في أن العمل الصالح والمثابرة عليه قولاً وفعلاً، شرط في صحة التوبة وقبولها وأنه لا اعتداد بها بدون العمل الصالح. فليتفطن لمعنى هذه الآية من يتوهم أن التوبة استغفار بلسان، أو تخشع بأركان، ولا عمل صالح له يرضي الرحمن.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾

﴿**والَّذينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ**﴾ أي لا يحضرون الباطل. يقال (شهد كذا) أي حضره. فـ (الزور) مفعول به بتقدير مضاف أي محالّه. و (يشهدون) من الشهادة. فالزور منصوب على المصدر أو بنزع الخافض أي شهادة الزور أو بالزور. وقد أشار الزمخشريّ للوجهين بقوله: يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطّائين، فلا يحضرونها ولا يقربونها، تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يثلمه. لأن مشاهدة الباطل شركة فيه. ولذلك قيل في النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة (هم شركاء فاعلية في الإثم) لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا به، وسبب وجوده، والزيادة فيه لأن الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة، ورغبتهم في النظر إليه. ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور. انتهى وهي الكذب متعمداً على غيره.

قال المبرد في (الكامل): ويروى عن ابن عباس في هذه الآية ﴿**والَّذينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّور**﴾ قال: أعياد المشركين. وقال ابن مسعود: الزور الغناء. فقيل لابن عباس: أو ما هذا في الشهادة بالزور؟ فقال: لا، إنما آية شهادة الزور ﴿ولا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إنَّ السَّمْعَ والْبَصَرَ والْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٦]، ﴿**وإذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً**﴾ أي اتفق مرورهم بأهل اللغو، وهو كل ما ينبغي ويطرح، مرّوا معرضين عنهم، مكرمين أنفسهم عن الخوض معهم كقوله تعالى: ﴿وإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أعْمالُنا وَلَكُمْ أعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلينَ﴾ [القصص:٥٥]، ويدخل في ذلك الإغضاء عن الفواحش، والصفح عن الذنوب، والكناية عما يستهجن التصريح به وذلك لأن (كراماً) جمع كريم بمعنى مكرم لنفسه وغيره بالصفح ونحوه ﴿**والَّذينَ إذَا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ**﴾ أي

وعظوا بها وخوفوا ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمّاً وعُمْياناً﴾ أي بل أكبّوا عليها سامعين بآذان واعية، مجتلين لها بعيون راعية. وإنما عبر بنفي الضد، تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون من شدة الإعراض والإباء والنفرة، المستعار لها (الخرور) على تلك الحالة استعارة بديعة. لما فيها من إسقاطهم عن الإنسانية إلى البهيمية، بل إلى أدنى منها، لأنها تسمع وتبصر، وقد نفيا عنهم.

وفي التنزيل الكريم من توصيف المؤمنين بوجل قلوبهم لذكره تعالى، وزيادة إيمانهم إذا تلي عليهم الذكر الحكيم، آيات عديدة. ولذا قال قتادة فيهم: هم قوم عقلوا عن الله، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه ويرحم الله الحسن البصريّ، فقد قال: كم من رجل يقرؤها، ويخر عليها أصم أعمى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾

﴿والَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أزْواجِنا وذُرِّيَّاتنا قُرَّةَ أعْيُنٍ﴾ أي أولاداً وحفدة، تقر بهم العيون وتسر بمكانهم الأنفس، لحيازتهم الفضائل واتصافهم بأحسن الشمائل. و (قرة العين) إما من القر وهو البرد. لأن دمعة السرور باردة، ولذا قيل في ضده (أسخن الله عينه) أو من القرار لعدم النظر لغيره، وجوز في (من) أن تكون بيانية وعليه قول كثير من أن فيه الدعاء بصلاح الزوجات. وقوله تعالى: ﴿واجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إمَاماً﴾ أي أئمة. اكتفى بالواحد لدلالته على الجنس، مع رعاية الفواصل. أي يقتدى بنا في الخير. أو هداة دعاة إلى الخير. فإن ذلك أكثر ثواباً وأحسن مآباً. قال في (الإكليل): في الآية طلب الإمامة في الخير. وفي (العجائب) للكرمانيّ: قال القفال وغيره من المفسرين: في الآية دليل على أن طلب الرياسة في الدين واجب. انتهى.

وكذا قال الزمخشريّ، عن بعضهم: إن فيه ما يدل على أن الرياسة في الدين، يجب أن تطلب ويرغب فيها. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

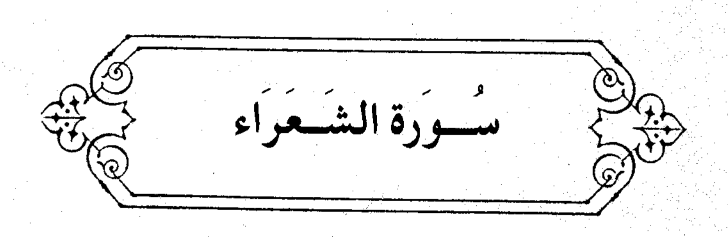
أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾

﴿**أولَئكَ**﴾ إشارة إلى المتصفين بما ذكر. خبر لـ (عباد الرحمن) أو مبتدأ خبره ﴿**يُجزَوْنَ الْغُرْفَةَ بما صَبَرُوا**﴾ أي على مشاق المجاهدات في الدعوة إلى الخيرات، والدأب على الخيرات، واجتناب المحظورات. و (الغرفة) الدرجة العالية من المنازل في الجنة ﴿**وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً**﴾ أي تحييهم الملائكة وتسلم عليهم. أو يحيّي بعضهم بعضاً ويسلم عليه. والقصد أنهم يلقون فيها التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام ﴿**خَالِدينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً**﴾ لسلامة أهلها عن الآفات، وخلودهم أبد الآباد.

﴿**قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤكُمْ**﴾ أي لا يبالي بكم ولا يبقيكم إلا إذا عبدتموه وآمنتم به وحده. فالدعاء بمعنى العبادة، كما مرّ.

ثم أشار إلى أنه كيف يمكن العبء بهم، أو يتصور، وقد وجد منهم ما ينافيه، بقوله تعالى: ﴿**فَقَدْ كَذَّبْتُمْ**﴾ أي بما جاءكم من الحق. أي وقد تلي عليكم سنة من كذب وأصرّ ﴿**فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً**﴾ (اللزام) مصدر مؤول باسم الفاعل أتى به للمبالغة. أي فسوف يكون هذا النبأ أو الذكر الحكيم، أو الأمر الجليل، أمر الرسالة، لازماً وثابتاً. يفتح من الحق رتاجاً. وتدخل الناس في دين الله أفوجاً. ولقد صدق الله وعده. ونصر عبده وأعز جنده. هزم الأحزاب وحده. نسأله تعالى خير ما عنده.

بسم الله الرحمن الرحيم



وهي مكية، إلا قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧]، إلى آخرها. وقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، فقد روي أنهما نزلتا بالمدينة، وكان شعراؤه صلّى اللّه عليه وسلم بالمدينة، حسان وكعب بن مالك وابن رواحة، رضي اللّه عنهم.

وقال الداني: رُوِيَ بسند صحيح أنها نزلت في شاعرين تهاجيا في الجاهلية، مع كل واحد منهم جماعة. فالسورة على هذا كلها مكية. انتهى.

وقال المهايميّ: سميت هذه السورة بها، لاختصاصها بتمييز الرسل عن الشعراء، لأن الشاعر، إن كان كاذباً فهو رئيس الغواة لا يتصور منه الهداية، وإن كان صادقاً لا يتصور منه الافتراء على اللّه تعالى، وهذا من أعظم مقاصد القرآن، انتهى.

يشير إلى أن ذكر الشعراء فيها، لبيان أنهم في معزل عن الرسالة وتبرئة مقام الرسول صلوات اللّه عليه. عما افتروا عليه من أنه شاعر؛ فالسورة على هذا كلها مكية، ردّاً لفريتهم.

ولما كان لفظ (الشعراء) عامّاً، جاز حمله على ما حكوه لشموله له، لأنه نزل فيه خاصة دون غيره. وسيأتي، إن شاء اللّه تعالى، إيضاح ذلك وهي مائتان وسبع وعشرون آية. قال ابن كثير: وقع في تفسير مالك المرويّ عنه، تسميتها (الجامعة).

بسم اللّه الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

طسٓمٓ ﴿١﴾

﴿طسم﴾ سبق في سورة البقرة الأقوال في هذه الفواتح، وأن الأكثر على أنها اسم للسورة، فمحله الرفع على أنه خبر لمحذوف، وهو أظهر من رفعه على الابتداء، أوالنصب بتقدير: اقرأ ونحوه.

القول في تأويل قوله تعالى:

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾

﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ الإشارة إلى السورة، وما فيها من معنى البعد للتفخيم، ومحله الرفع على الابتداء، خبره ما بعده أو بدل مما قبله. والمراد بـ(الكتاب) القرآن. وبـ (المبين) الظاهر إعجازه وآيته وبرهانه. ومن (أبان) بمعنى بان - أو المبين للحق من الباطل.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ﴾ أي قاتل ﴿نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لعدم إيمانهم. و(لعل) للإشفاق. أي أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على عدم إيمانهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً﴾ أي ملجئة لهم إلى الإيمان، قاسرة عليه ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ أي منقادين، والجملة مستانفة لتعليل ما يفهم من الكلام من النهي عن التحسر المذكور، ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة

اللّه تعالى حتماً، فلا وجه للطمع فيه، والتألم من فواته. قاله أبو السعود.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾

﴿ **وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ** ﴾ أي مكذبين، استهزاء وإصراراً على ما كانوا عليه من الكفر. وتقدم نظير الآية في أول سورة الأنبياء، وتحقيق معنى قوله تعالى (محدث) فتذكر.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾

﴿ **فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنباؤُا مَاكَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ أي أحواله الباهرة وشؤونه القاهرة، وظهور أعلامه، وبقاء أيامه، وفيه وعيد لهم بحلول الذل بهم، ونزول الصَّغار وقتئذ بدارهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾

﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** ﴾ أي صنف مرضيّ كثير المنافع.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

لك لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ ﴾ لصرفهم اختيارهم إلى جانب الكفر، م في هذه الآيات.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ أي فهو القادر على الانتقام منهم بلا ممانع، والرحيم بإمهاله وحلمه عنهم، فلينتبهوا قبل أن يحل بهم ما حلّ بفرعون وقومه، ولذا استأنف نبأ موسى عليه السلام معه، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾

﴿ وإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أن ائت الْقَوْمَ الظَّالمين قَوْمَ فِرْعَوْنَ، ألاَ يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنّي أخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونَ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ أي في أداء الرسالة، في بسطة من المقال ﴿ فأَرْسِلْ إلى هارُونَ ﴾ أي ليوازرني ويشدّ به عضدي. والمفعول محذوف، أي ملكاً أو جبريل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾

﴿ ولَهُمْ عَليَّ ذَنبٌ ﴾ وهو قتل القبطيّ، المبسوط في غير هذه السورة ﴿ فَأَخَافُ أن يَقْتُلُونِ قَالَ كَلاَّ ﴾ أي لا تخف إنك من الآمنين ﴿ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ مزيد تسلية لهما، بكمال الحفظ والنصرة.

قال أبو السعود: مثل حاله تعالى بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجري بينهم، ليمد أولياءه ويظهرهم على أعدائهم، مبالغة في الوعيد بالإعانة. انتهى.

ولو قيل هو كناية عن ذلك، كان أولى. لجواز بقاء المعنى الحقيقيّ معها، وهو هنا كذلك فهو تعالى مستمع لهما وحافظ وناصر.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إسرائيلَ ﴾ ليتحرروا من عبوديتك وعذابك المهين.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِيناَو لِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾

يعني قتل القبطي. ﴿وأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي بنعمتي.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي الجاهلين بكون الوكزة مفضية إلى القتل. أو الذاهبين عن صواب الحلم والعفو والدفع بالأحسن.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾

﴿فَفَرَرْتُ منكُمْ لَمَّا خفْتُكُمْ﴾ أي تقتلوني على القتل الخطأ، فنجاني الله منكم، وزادني إنعاماً ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ أي حكمة أو نبوة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِين﴾ أي لإبطال دعواك الربوبية، واستئصال شُبَه ما عليه قومك من الوثنية. وطلب إرسال قومي إلى مواطنهم الأصلية، وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾

﴿وتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إسْرائِيلَ﴾ إبطال لمنته عليه في التربية، ببيان أنها في الحقيقة نقمة. لأنه كان اتخذ بني إسرائيل؛ عبيداً مسخرين في شؤونه، مذللين لأموره، مقهورين لعسفه. وموسى عليه السلام، وإن لم ينله من ذلك ما نالهم، إلا أنه لما كان منهم، فكأنه وصل إليه، وحلَّ به، كما قيل (وظلم الجار إذلال المجير) أي لا يفي إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت إلى مجموعهم، وما أنا إلا عضو منهم. وفي فحواها تقريعه بالكبرياء المتناهية، والقسوة البالغة، والسلطة الغالية التي من ورائها الفرج القريب، والمخرج العجيب.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، إن كُنْتُم مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ﴾ أي لهذا النبأ العجيب، وهو توحيد المعبود.

وإنما عدّه جديراً بأن يتعجبوا منه، لأنهم، على ما حققه المؤرخون، غلوا في عبادة الأصنام وتعديد الآلهة غلُواً أربوا على كل من سواهم في الضلال. فكانوا يسجدون للشمس والقمر، والنجوم، والأشخاص البشرية، والحيوانات، حتى الهوامّ، وأدنى حشرات الأرض.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ **قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ** ﴾ أي لكونه يدعو إلى خلاف ما عقل عن الآباء.

﴿ **قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ أي شيئاً ما، أو إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته. وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر، بحيث لا يشتبه على من له عقل في الجملة، وتلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل، وإنهم المتصفون بما رموه عليه السلام به من الجنون.

تنبيه:

ذهب بعض المفسرين إلى أن فرعون كان من المعطلة، لا يقر بخالق، ولا يعترف بمعبود لظاهر قوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨]، وأن قومه كانوا لا يؤلهون سواه.

قال ابن كثير: ومن زعم من أهل المنطق أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط. فإنه لم يكن مقراً بالصانع، حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر. انتهى.

وقدمنا أنه حقق الاكتشاف الصحيح والتاريخ الوثيق، أنه كان من الوثنيين الغالين. وأن له ولقومه عدة معبودين علويين وسفليين.

وعليه فمعنى قوله (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) أي مطاع عظيم، وكانوا لا يتحاشون من إطلاق الإله على الجبار المسيطر. فبقي سؤاله بما يحتمل أن يكون على نهج القاعدة المنطقية، من طلب الاكتناه، وتعجبه من جوابه، ثم رميه بالجنون، ثانياً، لعدوله عن الكنه إلى الأثر. ويحتمل أن يكون لتعرفه من جهة وحدته في ربوبيته التي ادعاها موسى، وأن تعجبه لما شاهد من الجد في الدعوة والثبات عليها، والصدع بما يؤلم عظمته، ويغمز جبروته؛ وهذا هو الذي أذهب إليه، فإن القوم

بمعزل عن أن يعجبوا لكون الجواب كان بالرسم لا بالحد، إذ هو اصطلاح لفئة خاصة، ومع هذا فالنظم يحتمله ولا يأباه. وقد عول عليه كثير من أهل النظر، ولا بأس بأن نأثر شيئاً من لطائفهم فيه.

قال الرازيّ: السؤال بـ (ما) طلب لتعريف حقيقة الشيء. وتعريف حقيقة الشيء إما أن يكون بنفس تلك الحقيقة، أو بشيء من أجزائها، أو بأمر خارج عنها، أو بما يتركب من الداخل والخارج. أما تعريفها بنفسها فمحال؛ لأن المعرف معلوم قبل المعرف. فلو عرف الشيء بنفسه لزم أن يكون معلوماً قبل أن يكون معلوماً، وهو محال. وأما تعريفها بالأمور الداخلية فيها، فهاهنا في حق واجب الوجود محال، لأن التعريف بالأمور الداخلة، لا يمكن إلا إذا كان المعرف مركباً، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركباً؛ لأن كل مركب، فهو محتاج إلى كل واحد من أجزائه. وكل واحد من أجزائه فهو غيره؛ فكل مركب محتاج إلى غيره. وكل ما احتاج إلى غيره فهو ممكن لذاته. وكل مركب فهو ممكن، فما ليس بممكن يستحيل أن يكون مركباً. فواجب الوجود ليس بمركب، وإذا لم يكن مركباً استحال تعريفه بأجزائه. ولما بطل هذان القسمان، ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود، إلا بلوازمه وآثاره.

ثم إن اللوازم قد تكون خفية، وقد تكون جلية. ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية، بل لا بد من تعريفها باللوازم الجلية. وأظهر آثار ذات واجب الوجود، وهو هذا العالم المحسوس، وهو السموات والأرض وما بينهما.

فقد ثبت أنه لا جواب البتة لقول فرعون ﴿وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ﴾ إلا ما قاله موسى عليه السلام، وهو أنه رب السموات والأرض وما بينهما. فأما قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾. فمعناه إن كنتم موقنين باستناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود، فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته. لأنكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات إلى الواجب لذاته، وثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق، وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه إلا بآثاره. وثبت أن تلك الآثار لا بد وأن تكون أظهر آثاره وأبعدها عن الخفاء، وما ذاك إلا السموات والأرض وما بينهما. فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لاجواب عن ذلك السؤال، إلا هذا الجواب.

ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق، قال فرعون لمن حوله ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ وإنما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى، يعني أنا أطلب منه الماهية، وخصوصية الحقيقة، وهو يجيبني بالفاعلية والمؤثرية.

وتمام الإشكال أن تعريف الماهية بلوازمها، لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية، وذلك لأنا إذا قلنا في الشيء أنه الذي يلزمه اللازم الفلانيّ، فهذا المذكور، إما أن يكون معرّفاً لمجرد كونه أمراً ما يلزمه ذلك اللازم. أو لخصوصية تلك الماهية التي عرضت لها هذه الملزوميّة والأول محال. لأن كونه أمراً يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفاً. فلو كان المشكوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معرفاً لنفسه، وهو محال. والثاني محال، لأن العلم بأنه أمر ما، يلزمه اللازم الفلانيّ، لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزومة، لأنه لا يمتنع في العقل اشتراك الماهيات المختلفة في لوازم متساوية. فثبت أن التعريف بالوصف الخارجيّ، لا يفيد معرفة نفْس الحقيقة فلم يكن كونه ربّاً للسموات والأرض وما بينهما جواباً عن قوله ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فأجاب موسى عليه السلام بأن قال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والأرض، إلى التعريف بكونه تعالى خالقاً لنا ولآبائنا. وذلك لأنه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والأرضين، واجبة لذواتها، فهي غنية عن الخالق والمؤثر. ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل في نفسه وأبيه وأجداده، كونهم واجبين لذواتهم. لما أن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم، ثم عدموا بعد الوجود، وما كان كذلك استحال أن يكون واجباً لذاته. وما لم يكن واجباً لذاته، استحال وجوده إلا لمؤثر. فكان التعريف بهذا الأثر أظهر، فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول، إليه. فقال فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ يعني المقصود من سؤال (ما) طلب الماهية، وخصوصية الحقيقة. والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد البتة تلك الخصوصية، فهذا الذي يدعي الرسالة مجنون، لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب عنه.

فقال موسى عليه السلام ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فعدل إلى طريق ثالث أوضح من الثاني، وذلك لأنه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار، وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار، والأمر ظاهر في أن هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب، لايتم إلا بتدبير مدبر، وأما قوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فكأنه عليه السلام قال: إن كنت من العقلاء، عرفت أنه لا جواب عن سؤالك، إلا ما ذكرت، لأنك طلبت مني تعريف حقيقته بنفس حقيقته، وقد ثبت أنه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته. فلم يبق إلا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته. وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته، فقد ثبت أن كل من كان عاقلاً، يقطع بأنه لاجواب عن هذا السؤال إلا ما ذكرته.

ثم قال الرازيّ: وقد بينا في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ

فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٨]، أن حقيقة الإله سبحانه من حيث هي، هي غير معقولة للبشر، انتهى.

وقال الإمام ابن حزم في (المِلَل والنِّحَل) في الكلام في المائية: ذهب طوائف من المعتزلة إلى أن اللّه تعالى لا مائية له. وذهب أهل السنة وضرار بن عمرو، إلى أن للّه تعالى مائية. قال ضرار: لا يعلمها غيره. قال ابن حزم: والذي نقول به، وباللّه تعالى التوفيق، أن له مائية هي إنيّته نفسها، وإنه لا جواب لمن سأل: ما هو الباريء، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام؛ إذ سأله فرعون ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾؟ ونقول أنه لا جواب ههنا لا في علم اللّه تعالى ولا عندنا، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام. لأن اللّه تعالى حمد ذلك منه وصدق فيه. ولو لم يكن جواباً صحيحاً تامّاً لا نقص فيه، لما حمده اللّه تعالى.

ثم قال: ههنا نقف ولا نعلم أكثر. ولا ههنا أيضاً شيء غير هذا، إلا ما علمنا ربنا تعالى، من سائر أسمائه، كالعليم والقدير والمؤمن والمهيمن وسائر أسمائه.

قال تعالى: ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [طه: ١١٠]، إذ كل ما أحاط به العلم فهو متناه محدود وهذا منفيّ عن اللّه عزّ وجلّ، وواجب في غيره، لوقوع العدد المحاط به في أعراض كل ما دونه تعالى، ولا يحاط بما لا حدود له ولا عدد له. فصح يقيناً أننا نعلم اللّه عزّ وجلّ حقّاً، ولا نحيط به علماً. انتهى ملخصاً.

ولما سمع فرعون تلك المقالات المبينة على أساس الحكم البالغة، وشاهد شدة حزم موسى عليه السلام وقوة عزمه على دعوته، عدل عن خطة الإنصاف إلى الاعتساف، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ قرئ بهمز وبدونه، وهما لغتان. يقال أرجأته وأرجيته إذا أخرته. والمعنى أخرهما ومناظرتهما لوقت اجتماع السحرة ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ أي شُرَطاً يحشرون السحرة، أي يجمعونهم عندك ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ أي لرؤية ما يعارض معجزة موسى. وكان خامَرَ فؤادهم عجب منها واندهاش. والاستفهام مجاز عن الحث والاستعجال.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي تبتلع ما موّهوا به إفكاً وزوراً ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ أي على وجوههم منقادين له بالإيمان، لعلمهم بأن مثله لا يتأتى بالسحر. وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزويق يخيل شيئاً لا حقيقة له، التبحر في كل فن نافع وإن لم يكن من العلوم الشرعية، فإن هؤلاء السحرة. لتبحرهم في علم السحر، علموا حقيقة ما أتى به موسى عليه السلام، وأنه معجزة. فانتقلوا بزيادة علمهم الذي أداهم إلى الاعتراف بالحق والإيمان، لفرقهم بين المعجزة والسحر. قاله القاضي شهاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾

إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

﴿قَالُوا ءَامنَّا بربِّ الْعَالمين ربِّ مُوسَى وَهَارُون قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي فعلمكم شيئاً دون شيء، ولذلك غلبكم. أو فواعدكم ذلك وتواطأتم عليه. أراد به التلبيس على قومه؛ كي لا يعتقدوا أنهم آمنوا على بصيرة وظهور حقّ.

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ﴾ أي جانبيْن متخالفيْن. ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي لا ضرر علينا في ذلك، بل لنا فيه أعظم النفع، لأنا بفعلك هذا وصبرنا عليه، شهادة على حقيّته، إلى ثوابه ورحمته راجعون، فننقلب خير منقلب، شهداء سعداء ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ﴾ أي لأن ﴿كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من أظهر الإيمان كفاحاً، مجاهرة بالحق بلا تقية. ثم أشار تعالى إلى خروج موسى بقومه من مصر بإيحائه إليه. وكان إذن فرعون له بذلك بعد ما أراه الآيات البينات ثم ندم عليه، فأتاه الإذن الإلهيّ به، كما قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ﴾ أي سِرْ بهم ليلاً، فإنه إذا وصل خبر سيركم إلى فرعون، لا بد أن يتبعكم بجنوده لإرجاعكم، إلا أنكم تتقدمونه ولا يدرككم.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ أي حين أخبر بسراهم ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ أي جامعين لعسكره، قائلين ما يقلل به الأعداء في أعين الجنود:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾
فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ أي بني إسرائيل الخارجين ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ أي يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا من مخالفة أمرنا والخروج بغير إذن منا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ أي من مكرهم وسعيهم بالفساد في الأرض ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: المنازل الحسنة والمجالس البهية.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر، أي مثل ذلك الإخراج أخرجناهم، فهو في محل نصب صفة لمصدر مقدر، أو هو خبر لمحذوف، أي الأمر كذلك.

قال الشهاب: وإذا قدر (الأمر كذلك) فالمراد تقريره وتحقيقه، والجملة معترضة حينئذ كالتي بعدها. ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. قال الشهاب: هو استعارة؛ أي ملكناها لهم تمليك الإرث بعد زمان. وكأن العاقبة، لما كانت لهم، صاروا كأنهم ملكوها حين خروج أربابها منها.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ أي لحقوهم وقت شروق الشمس.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾

﴿فَلَمَّا تَرَآءَا الْجَمْعَانِ﴾ أي تقاربا رأى كل واحد منهما الآخر ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي لملحقون ﴿قَالَ كَلاَّ﴾ أي لن يدركوكم فإن الله وعدكم بالخلاص منهم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي لطريق النجاة منهم. ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ أي فضربه فانفلق ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي كل جزء متفرق منه كالجبل الكبير.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)﴾

﴿**وَأَزْلَفْنَا**﴾ أي قرّبنا ﴿**ثَمَّ**﴾ أي حيث انفلق البحر ﴿**الآخَرِينَ**﴾ يعني قوم فرعون، أي قدمناهم إلى البحر حتى دخلوا على أثر بني إسرائيل ﴿**وأَنْجَينا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أجْمَعِينَ**﴾ أي بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا. ﴿**ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِين**َ﴾ أي بإطباقه عليهم ﴿**إِنَّ فِي ذَلكَ لآيَةً**﴾ أي لعبرة ﴿**وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ أي مع مشاهدة هذه الآية العظمى التي توجب تصديقه بعدها في كل ما جاء به. منهم من بقي على كفره كبقية القبط. ومنهم من عصاه واقترح عليه ما اقترح كبعض بني إسرائيل. وفيه تسلية للنبيّ صلوات اللّه عليه. ووعد له ووعيد لمن عصاه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)﴾

﴿**واتْلُ عَلَيْهِمْ**﴾ أي على مشركي العرب ﴿**نَبأَ إبْراهيمَ إذْ قَالَ لأَبيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ**﴾ أي ما الذي تدعونه وتلجئون إليه. وكان عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام، ولكنه سألهم ليريهم، أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء ﴿**قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنظَلُّ لَهَا عَاكفين**َ﴾ أي مقيمين على عبادتها لا نتخطاها إلى غيرها. ﴿**قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءابَاءَنَا كَذَلكَ يَفْعَلُونَ**﴾ أي مثل عبادتنا يعبدون، فقلدناهم.

قال أبو السعود: اعترفوا بأنها بمعزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرّة بالمرة. واضطروا إلى إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)﴾

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ أي أفابصرتم، أو أتأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدونه أنتم وسلفكم. فإنهم بغضائي ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لكن رب العالمين ليس كذلك، فإنه وليٌّ في الدنيا والآخرة، لا أعبد غيره ثم برهن على موجب قصر عبادته عليه تعالى بقوله ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي إلى كل ما يهمني من أمور الدين والدنيا، فإنه تعالى وحده يهدي كلاً لما خلق له. والموصول صفة لـ (رب) وجعلُه مبتدأ وما بعده خبراً - غيرُ حقيق بجزالة التنزيل. قاله أبو السعود.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي يرزقني بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المزن، وأنزل الماء وأحيى به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زلالاً يسقيه مما خلق أنعاماً وأناسيّ كثيراً.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أي إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما قدره من الأسباب الموصلة إليه. وإنما نسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى اللّه تعالى، مع أنهما منه، لمراعاة حسن الأدب معه تعالى. بتخصيصه بنسبة الشفاء الذي هو نعمة ظاهرة إليه تعالى كما قال الخضر: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، وكقول الجن في آية: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ [الجن: ١٠]، ولأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك. ومن ثم قالت الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى: ماسبب آجالكم؟ لقالوا: التخم.

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ فإنه هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، لا يقدر على ذلك أحد سواه. فإن قيل إن الموت قد يكون بتفريط الإنسان، وقد أضافه تعالى إلى نفسه، فما الفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب؟ أجيب كما في (الانتصاف): بأن الموت قد علم به بأنه قضاء محتوم من اللّه تعالى على سائر البشر، وحكم عامٌّ لا يخص، ولا كذلك المرض فكم من معافى منه قد بغته الموت؛ فالتأسي بعموم الموت لعله يُسقط أثر كونه بلاء، فيسوغ في الأدب نسبته إلى اللّه تعالى. وأما المرض، فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض، كان بلاء محققاً. فاقتضى العلوّ في الأدب مع اللّه تعالى، أن ينسبه الإنسان إلى نفسه، باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه. ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض، أخبر عن وقوعه بتاً وجزماً، لأنه أمر لا بد منه. وأما المرض، فلما كان قد يتفق وقد لا، أورده مقروناً

بشرط إذا فقال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ وكان ممكناً أن يقول والذي يمرضني فيشفيني، كما في غيره فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة، إلا لذلك. انتهى.

قال أبو السعود: وأما الإماتة، فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالإحياء، بدءاً وإعادة، وقد نيطت أمور الآخرة جميعاً بها وبما بعدها من البعث نظمهما في سمط واحد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ على أن الموت، لكونه ذريعة إلى نيله عليه الصلاة والسلام للحياة الأبدية، بمعزل من أن يكون غير مطموع عنده عليه الصلاة والسلام.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي الجزاء. وخطيئته ما كان يراها هو صلوات الله عليه ويعدّها بالنسبة لمقامه الكريم.

قال أبو السعود: ذكره عليه الصلاة والسلام هضماً لنفسه وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافياً لما عسى يندر منه عليه السلام من الصغائر، وتنبيهاً لأبيه وقومه على أن يتأملوا في أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء الحال في درجة لا يقادر قدرها، فإن حاله عليه السلام، مع كونه في طاعة الله تعالى وعبادته، في الغاية القاصية، حيث كانت بتلك المثابة. فما ظنك بحال أولئك المغمورين في الكفر، وفنون المعاصي والخطايا؟.

وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، مع أنها إنما تغفر في الدنيا، لأن أثرها يومئذٍ يتبيّن، ولأن في ذلك تهويلاً له وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه، إن لم تغفر، وبعد أن ذكر عنايته تعالى به من مبدأ خلقه إلى بعثه، حمله ذلك على مناجاته، فقال:

القول في تأويل قوله تعالى:

رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً﴾ أي حكمة، أو حكماً بين الناس بالحق، أو نبوة، لأن النبيّ ذو حكم وحكمة. ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي وفقني لأنتظم في سلكهم، لأكون من الذين جعلتهم سبباً لصلاح العالم وكمال الخلق. ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ

﴿في الآخرين﴾ أي ذكراً جميلاً بعدي، أذكر به ويُقْتدى بي في الخير كما قال تعالى: ﴿وتركْنا علَيْهِ في الآخِرينَ سلامٌ علَى إبْراهِيمَ كذَلكَ نَجْزي الْمُحْسِنينَ﴾ [الصافات: ١٠٨-١١٠].

قال القتيبيّ: وضع اللسان موضع القول على الاستعارة، لأن القول يكون به، وقد تكني العرب به عن الكلمة. وعليها حمل قول الأعشى:

إنِّي أتتْني لسانٌ لا أُسَرُّ بها   من عُلْوَ، لا عَجَبٌ منها ولا سَخَرُ

وجوّز أن يكون المعنى: واجعل لي صادقاً من ذريتي، يجدّد أصل ديني ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه من التوحيد. وهو النبيّ ﷺ. ولذا قال ﷺ[1]: «أنا دعوة أبي إبراهيم»، فالكلام بتقدير مضاف. أي صاحب لسان صدق. أو مجاز بإطلاق الجزء على الكل، لأن الدعوة باللسان.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿**واجْعَلْني من ورَثَة جنَّة النَّعيم واغْفرْ لأبي**﴾ أي بهدايته وتوفيقه للإيمان. كما يلوح به تعليله بقوله ﴿**إنَّهُ كَانَ من الضَّالِّين**﴾ أي طريق الحق.

قال الحافظ ابن كثير. قوله ﴿**واغْفر لأبي**﴾ الخ.. كقوله: ﴿ربَّنا اغْفِر لي ولوالديَّ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ومَا كانَ اسْتغْفارُ إبْراهيمَ لأبيه إلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وعَدَهَا إيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، إلى قوله: ﴿إنَّ إبْراهيمَ لأوَّاهٌ حليمٌ﴾ وقد قطع تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه، فقال تعالى: ﴿قدْ كانَتْ لكُمْ أُسْوَةٌ حسَنَةٌ في إبْراهِيمَ والَّذينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٥]، إلى قوله: ﴿ومَا أمْلكُ لَكَ منَ اللّه من شيْءٍ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

﴿**ولاَ تُخزِني يومَ يُبْعثُونَ**﴾ أي لا تلحق بي ذلاً وهواناً يومئذ ﴿**يوْمَ لاَ ينْفعُ مالٌ ولاَ**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤ /١٢٧، عن العرباض بن سارية، بهذا النص: قال رسول الله ﷺ: «إني عبد الله لخاتم النبيين، وإن آدم عليه السلام لمنجدل في طينته، وسانبئكم بأول ذلك. دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين».

بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي لا يقي المرء من عذاب اللّه ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً. ولا بنوه، وإن كانوا غاية في القوة. فإن الأمر ثمة ليس كما يعهدون في الدنيا، بل لا ينفع إلا الموافاة بقلب سليم من مرض الكفر والنفاق والخصال المذمومة والملكات المشؤومة.

قال الزمخشريّ:

وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم. ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع. وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة، فضلاً أن يكون حجة. ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر اللّه عزّ وعلا، فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه، إلى حين وفاته، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته. ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأوّابين. ثم وصله بذكر يوم القيامة، وثواب اللّه وعقابه، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال، وتمني الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا.

ثم بين سبحانه أن الجنة تكون قريبة من موقف السعداء، ينظرون إليها ويغتبطون بأنهم المحشورون إليها. والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم، يتحسرون على أنهم المسوقون إليها.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ**﴾ أي الضالّين عن طريق الحق الذي هو الإيمان والتقوى. وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره. ﴿**وَقِيلَ لَهُمْ**﴾ توبيخاً على شركهم ﴿**أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ**﴾ أي يدفعون العذاب عنكم، أو يدفعونه عن أنفسهم، لأنهم وآلهتهم وقود النار. وهو قوله تعالى: ﴿**فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ**﴾ أي الآلهة ﴿**وَالْغَاوُونَ**﴾ أي وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم.

قال الزمخشريّ: والكبكبة تكرير الكب – وهو الإلقاء على الوجه – جعل

التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ أي متبعوه من العصاة ﴿أَجْمَعُونَ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي في العبادة، مع أنكم أعجز مخلوقاته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي رؤساؤهم، كما في آية ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

القول في تأويل قوله تعالى:

فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾

﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء. لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله. وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس. فما أغنوا عنهم شيئاً. كما قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، قال الزمخشريّ: و (الحميم) من الاحتمام وهو الاهتمام، وهو الذي يهمه ما يهمك. أو من (الحامة) بمعنى الخاصة. وهو الصديق الخاص. وفيه معنى الحدة والسخونة. كأنه يحتدّ ويحمى، لحماية خليله ورعايته، والقيام بمهماته. وهذا هو الذي قيل (إنه أعز من بيض الأنوق) وإنه اسم بلا مسمى.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ فِي

ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكر من نبأ إبراهيم ﴿**لآيَةً**﴾ أي لحجة وعظة أراد أن يستبصر بها ويعتبر. وتقدم ما قاله الزمخشريّ في بديع سياقها ﴿**وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ**﴾ أي أكثر قوم إبراهيم ﴿**مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ أي بإنزال الكتب وإرسال الرسل، لدعوة خلقه إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ**﴾ لأن تكذيب واحد كتكذيب الكل، لاتفاقهم في أصول الشرائع. وهو نفي الشريك وإثبات البارئ وتوحيده. أو لأن المراد بالجمع الواحد ﴿**إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ**﴾ يعنون من كان وضيع النسب قليل النصيب من الدنيا. فإن الشرف لديهم بالمال والنشب. والحسب والنسب، لا بالأخلاق الفاضلة. والملكات الكاملة. التي تحمل على تعرف الحق والتوجه إليه. ثم اعتناقه والمحافظة عليه. وأكثر ما تكون الأخلاق في مثل المستضعفين. إذا قام عليهم ناصح أمين. إذ لا مال يطغيهم. ولا جاه يلهيهم. وذلك من العناية الربانية فيهم.

قال الزمخشريّ: وهكذا كانت قريش تقول في أصحاب رسول ﷺ. وما زالت أتباع الأنبياء كذلك، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم. الا ترى إلى هرقل حين سأل أبا سفيان عن أتباع رسول الله ﷺ فلما قال (ضعفاء الناس) قال (ما زالت أتباع الأنبياء كذلك) وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾

﴿**قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ جواب عما أشير إليه من قولهم إنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة. أي وما عليّ إلا الظاهر والله يتولى السرائر.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي﴾ أي ما حسابهم على أعمالهم، إلا على ربي المطلع على ضمائرهم ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أنا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِن أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي المشتومين أو المرميين بالحجارة ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً﴾ أي احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا.

قال الزمخشريّ: الفتاحة: الحكومة. والفتاح: الحاكم. لأنه يفتح المستغلق. كما سمي فيصلاً لأنه يفصل بين الخصومات. وفي (التهذيب): الفتح أن تحكم بين قوم يختصمون إليك. قال الأشعر الجُعْفِيّ:

ألا مَنْ مُبْلغٌ عمراً رسولاً ... فَإنِّي عن فُتَاحَتِكُمْ غَنِيُّ

﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بعدُ الْبَاقِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي فيما فعلنا بهم لعبرة وعظة لمن بعدهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ وهم قوم هود عليه السلام ﴿الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتَّقُواْ اللَّهَ وأَطِيعُونِ ومآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي مكان مرتفع، بكسر الراء وفتحها ﴿ءَايَةً﴾ أي علامة

﴿ **تَعْبَثُونَ** ﴾ أي ببنائها لا للحاجة إليها. بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة. ولهذا أنكر عليهم ذلك. لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة. واشتغال بما هم في غنى عنه. وبما في الشغف به انصراف عن الجد في العمل، وصرف للأموال في غير ما خلقت له، من النظر للنفس والأهل والدين.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾

﴿ **وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ** ﴾ أي منازل وقصوراً ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** ﴾ أي راجين الخلود في الدنيا إشارة إلى أن عملهم ذلك، لقصر نظرهم على الدنيا والإعجاب بالآثار، والتباهي بالمشيدات والغفلة عن أعمال المجدّين البصيرين بالعواقب، الصالحين المصلحين.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾

﴿ **وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ** ﴾ أي تأخذون بالعنف والشدة، كبراً وعتواً. يقال (بطش به) أي أخذه بالعنف والسطوة، وتناوله بشدة عند الصولة، يصفهم عليه السلام بالقسوة وعدم الرحمة والشفقة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾

وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾

﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ أي فيما آمركم به من التوبة والإيمان ﴿ **وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** ﴾ أي فاشكروا نعماءه وارعوا بتقواه آلاءه.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

﴿ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ** ﴾ أي إن لم تقوموا بواجب شكرها ﴿ **عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ أي في الدنيا والآخرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾

﴿ **قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَم لَمْ تكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِين** ﴾ أي: فإنا لن نرعوي عما نحن عليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾

﴿ **إِنْ هَذَا** ﴾ أي ما هذا الذي نحن عليه ﴿ **إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِين** ﴾ أي عادتهم. كانوا يدينون به ويعتقدونه. فنحن بهم مقتدون. أو ما هذا الذي جئتنا به إلا عادة الأولين. كانوا يلفقون مثله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾

﴿ **وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِين** ﴾ أي على ما نحن عليه من الأعمال ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ** ﴾ أي بريح صرصر ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِين إِذْ قَالَ لَهُم أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَهُنَا ءَامِنِين** ﴾ أي من الموت والزوال والعذاب.

قال الزمخشريّ: يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلدين في نعيمهم لا يُزالون عنه. وأن يكون تذكيراً بالنعمة في تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك، مع الأمن والدعة. وقوله تعالى ﴿ **فِي مَاهَهُنَا** ﴾ أي في الذي استقر في هذا المكان من النعيم. ثم فسره بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾

﴿ **فِي جنَّات وعُيُونٍ وزُرُوعٍ ونَخلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ** ﴾ أي لطيف لين ﴿ **وَتَنْحِتُونَ من الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ** ﴾ أي بطرين. وقرئ (فرهين) وهو أبلغ. وقيل: فاره من (فرُه) بالضم، بمعنى حذق. وفَرِه صفة من (فره) كفرح، بمعنى أشر وبطر ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وأَطِيعُونِ وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِين يُفْسِدُون فِي الأَرْضِ ولاَ يُصْلِحون قَالُوا إِنَّما أَنت مِنَ الْمُسَحَّرِين** ﴾ أي الذين سُحِروا حتى غلب على عقولهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾

﴿ **مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْت بآيَة إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ هذه نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ** ﴾ أي نصيب من الماء ﴿ **وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ** ﴾ أي فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموها على شربها ﴿ **وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ أي لعظم ما تسيئون.

قال الزمخشريّ: عظم اليوم لحلول العذاب فيه، ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب. لأن الوقت إذا عظم بسببه، كان موقعه من العظم أشد ﴿ **فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِين فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ** ﴾ أي الموعود، وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِين وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي مجاوزون حدّ الحكمة في ترك محل الحرث، الحافظ للنسل، الذي به حفظ النوع البشريّ، وإيثار ما لم يخلق لذلك، شرَهاً في الشهوة الحيوانية، ومكافحة لتغيير الأوضاع الربانية.

ونقل السيوطيّ في (الإكليل) عن محمد بن كعب القرظيّ، أن معنى الآية: تذرون مثله من المباح. فاستدل بذلك على إباحة وطء الزوجة من دبرها. انتهى.

وخالفه غيره. فاستدل بها على حظره. وبيانه كما في (الكشاف) و(حواشيه) أنّ (مِنْ) إمَّا تبيين لما خلق، أو للتبعيض. ويراد به العضو المباح منهن، تعريضاً بأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم. ومن الوجه الثاني يستدل على حظر إتيان المرأة في غير المأتى. وتقريره في (الانتصاف) أن (مِنْ) لو كانت بياناً لكان المعنى حينئذ على ذمهم بترك الأزواج. ولا شك أن ترك الأزواج مضموم إلى إتيان الذكران. وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران، لا أن ترك الأزواج وحده منكر. ولو كان الأمر كذلك، لكان النصب في الثاني متوجهاً على الجمع. وكان إما الأفصح أو المتعين. وقد اجتمعت العامة – عامة القراء – على القراءة به مرفوعاً ولا يتفقون على ترك الأفصح إلى ما لا مدخل له في الفصاحة، أو في الجواز أصلاً. فلما وضح ذلك تبين أن هذا المعنى غير مراد. فتعين حمل (مِنْ) على البعضية. فيكون المنكر عليهم أمرين. كل واحد منهما مستقل بالإنكار: أحدهما إتيان الذكران. والثاني مجانبة إتيان النساء في المأتى، رغبة في إتيانهن في غيره. وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأول، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير. انتهى.

ومثله من دَقيق الاستنباط الذي يوسع المدارك ويفتح للتفهم أبواباً، وإن أمكن أن يقال إن سياق الآية في الملام لهم، أعمّ مما ذكره ومن غيره. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ﴾ أي عن تقبيح أمرنا **﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾** أي من قريتنا عنفاً، إذ لا تجانسنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩)﴾

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ الْقَالِينَ﴾ أي المبغضين غاية البغض. أي فأنا أرغب في الخروج عن دياركم، والراحة من مجاورتكم، لبغضي لعملكم، الآيل بكم إلى الدمار وخراب الديار. ولذا أتبعه بقوله ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي من شؤمه وغائلته.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١)﴾

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً﴾ وهي امرأته. كما بينت في آيات ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ أي مقدّراً كونها من الباقين في العذاب. لأنها كانت راضية بعمل قومها.

لطيفة:

قال الناصر في (الانتصاف): كثيراً ما ورد في القرآن، خصوصاً في هذه السورة، العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة. ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع. كقول فرعون ﴿لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقولهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]، وقولهم: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، وقوله: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء:١٦٨]، وقوله تعالى في غيرها: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة:٨٧]، وكذلك ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦]، وأمثاله كثيرة والسر في ذلك، والله أعلم، أن التعبير بالفعل، إنما يفهم وقوعه خاصة. وأما التعبير بالصفة، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع، فإنه يُفهم أمراً زائداً على وقوعه. وهو أن الصفة المذكورة، كالسمة للموصوف ثابتة العلوق به. كأنها لقب. وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة. واعتبر ذلك لو قلت (رضوا بأن يتخلفوا) لما كان في ذلك مزيد على الإخبار بوقوع التخلف منهم لا غير. وانظر إلى المساق وهو قوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ كيف ألحقهم لقباً رديئاً، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمة التخلف، حتى صارت لقباً لاحقاً به. وهذا الجواب عام في جميع مايرد عليك من أمثال ذلك. فتأمله واقدره قدره ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ أي أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦)﴾

﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا**﴾ أي عظيماً غير معهود، هلكوا به ﴿**فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ**﴾ وهم أهل مدين. ووهِمَ من زعم أنهما أمتان أرسل إليهما شعيب عليه السلام: فإنهم أمة واحدة كانوا يقطنون (مدين) أضيفوا إليها تارة وأخرى إلى ما حوتها من الأيكة، وهي الأشجارالكثيرة الملتفة المجتمعة في مكان واحد.

قال الحافظ ابن كثير: والصحيح أنهم أمة واحدة. وصفوا في كل مقام بشيء. ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء. فدل ذلك على أنهما أمة واحدة.

تنبيه:

قال أبو عمرو: وكتب في جميع المصاحف (ليكة) في الشعراء و (ص)، بلام من غير ألف قبلها. وفي الحجر وق (الأيكة) ولذا قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بلام مفتوحة، من غير همز قبلها ولا بعدها. ونصب التاء غير منصرف. والباقون (الأيكة) بإسكان اللام وهمز وصل قبله، وهمزة قطع مفتوحة بعده، وجر التاء. وحمزة وصلاً ووقفاً على أصله. وقراءة الأولين استشكلها أبو علي الفارسيّ وغيره، بأنه لا وجه للفتح. لأن نقل حركة الهمزة لا يقتضي تغيير الإعراب من الكسر إلى الفتح. أي فإن العرب تقول في الأحمر (الحمر و لحمر)وإثبات الألف واللام في (الأيكة) في سائر القرآن يدل - كما قال الزجاج - على أن حذف الهمزة منها التي هي ألف الوصل، بمنزلة قولهم (لحمَر) وقرئ (ليكة) بالجر على الإضافة في غير السبع. لكن قال الزمخشريّ: هو الوجه. ومن قرأ بالنصب، وزعم أن ليكة، بوزن ليلة، اسم بلد، فتوهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة (ص) بغير ألف. وفي المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه. وإنما كتبت في هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ. كما يكتب أصحاب النحو - لأن ولولي - على هذه الصورة، لبيان لفظ المخفف. وقد كتبت في سائر القرآن على الأصل. والقصة واحدة. على أن (ليكة) اسم لا يعرف. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾

﴿ إذ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ألاَ تَتَّقُونَ إنّي لَكُمْ رَسُولٌ أمينٌ فاتَّقُوا اللَّهَ وأَطِيعُونِ ومَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ إنْ أجْرِيَ إلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ أوْفُوا الْكَيْلَ ﴾ أي أتموه ﴿ ولاَ تكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ أي حقوق الناس بإعطائهم ناقصاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

﴿ وزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أي بالميزان السويّ ﴿ ولاَ تبْخسُواْ النَّاسَ أشْيَاءَهُمْ ﴾ أي لا تنقصوهم حقوقهم. قال الزمخشريّ: وهو عام في كل حق ثبت لأحد، أن لا يهضم. وفي كل ملك أن لا يغصب عليه مالكه، ولا يتحيف منه، ولا يتصرف فيه، إلا بإذنه تصرفاً شرعياً. ﴿ ولاَ تعْثوْاْ في الأرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أي بالقتل والغارة وقطع الطريق والجور والظلم وأكل أموال الناس بالباطل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾

﴿ واتَّقُوا ﴾ اللّه ﴿ الّذي خَلَقكُمْ والجبلَّةَ الأوَّلين ﴾ أي: وذوي الجبلة الأولين، وهم من تقدمهم من الخلائق ﴿ قَالُوا إنّما أنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ومَا أنتَ إلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وإن نَّظُنُّكَ لِمنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أي فيما تدّعيه من النبوة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾

﴿ فأسْقِطْ علَيْنا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ قطعاً منها. قرئ (كسفاً) بسكون السين

وتحريكها. وكلاهما جمع (كسفة) ﴿**إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ أي من الكفر والمعاصي، وبما تستوجبون عليها من العذاب، بإسقاط كسف أو غيره مما يشاؤه إذا جاء أجلكم، فإليه الحكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾

﴿**فَكَذَّبُوهُ**﴾ أي فاستمروا على تكذيبه ولم يتوبوا ﴿**فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ أي لحلول العقاب فيهم، من جنس ماسألوه من إسقاط السماء قِطَعاً عليهم. فقد أظلتهم سحابة أطبقت عليهم، وأظلمت الجوّ فوقهم، وغشيهم العذاب وأحاط بهم. و (الظلة) بالضم لغةً، الغاشية، وما أطبق وستر من فوق.

قال الحافظ ابن كثير: ذكر تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن. كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق. ففي (الأعراف) ذكر أنهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:٩١]، وذلك لأنهم قالوا ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨]، فأرجفوا نبي اللّه ومن اتبعه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وفي سورة هود قال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود:٩٤]، ذلك لأنهم استهزؤوا بنبي اللّه في قولهم: ﴿أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧]، قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء. فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ وههنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية، على وجه التعنت والعناد. فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه ﴿**فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ**﴾ . انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً**﴾ أي على أخذه العصاة بمقتضى أعمالهم ﴿**وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِين وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ أي الغالب على تعذيب من شاء بما شاء، الرحيم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب، لئلا يكون للناس على اللّه حجة.

قال الزمخشريّ: فإن قلت: كيف كرر في هذه السورة، في أول كل قصة وآخرها، ما كرر؟ قلت: كل قصة منها كتنزيل برأسه. وفيها من الاعتبار مثل مافي غيرها. فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها، وأن تختتم بما اختتمت به. ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور. ألا ترى أنه لاطريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها؟ وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب، وأرسخ في الفهم، وأثبت للذكر، وأبعد من النسيان. ولأن هذه القصص طرقت بها أذان وُقْرٌ عن الإنصات للحق، وقلوب غُلْفٌ عن تدبره، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير. لعل ذلك يفتح أذناً، أو يفتق ذهناً، أو يصقل عقلاً طال عهده بالصقل أو يجلو فهماً قد غطى عليه تراكم الصدأ. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي ما ذكر من الآيات الناطقة بالقصص المحكية، أو القرآن المتضمن لها ﴿لَتنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي منزل منه حقاً ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ أي جبريل عليه السلام ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي منتظماً في سلك أولئك المشهورين بتلك المزية الجليلة، والمنقبة الفاضلة. وهي الرسالة الإلهية بالإنذار، إزالة للأعذار ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أي واضح المعنى جليّ المفهوم، ليكون قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحجة. والجار متعلق بـ (نزل).

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ أي في كتبهم. مع أنه صلوات الله عليه لم يصحب أهلها ولم يدرسها. فكفى بذلك شهيداً على صدقه ﴿أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةً﴾ أي علامة على تنزيله الحق ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماء بَنِي إِسْرائيلَ﴾ أي فيجدون مصداقه في زبرهم التي يدرسونها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِه مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

﴿ **وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ** ﴾ أي ولو نزلناه بنظمه البديع على بعض الأعاجم الذي لا يحسن العربية، فقرأه عليهم قراءة فصيحة، انقتق لسانه بها، خرقاً للعادة، لكفروا به كما كفروا. ولتمحّلوا لجحودهم عذراً. ولسموه سحراً، لفرط عنادهم ﴿ **كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ أي مكّنا هذا العناد والإباء عن الإيمان به، في قلوبهم وأنفسهم. وقررناه فيها ﴿ **لاَ يُؤْمِنُونَ به حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُون فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُون أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ** ﴾ أي وهو ماهو، عياذاً به منه ﴿ **أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ما أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُون** ﴾ أي من طوال الأعمار وطيب المعايش ﴿ **وَمَا أَهْلَكْنَا من قَرْيَةٍ إلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ ذِكْرَى** ﴾ أي رسل ينذرونهم لأجل الموعظة والتذكرة ﴿ **وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾ أي فنبغتهم بالعذاب قبل الإنذار، فإن ذلك محال في حكمة الحكم العدل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

﴿ **وَمَا تَنزَّلَتْ به الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ** ﴾ ردّ لما زعمه المشركون من أن التنزيل الكريم من قبيل ما تلقيه الشياطين على الكهنة، بعد تحقيق الحق ببيان أنه نزل به الروح الأمين. وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ** ﴾ أي الاستماع عن الملائكة ﴿ **لَمَعْزُولُونَ** ﴾ لانتفاء الاستعداد لقبول فيضان أنوار الحق عليهم، لخباثة نفوسهم بالذات، فهم مرجومون مبعدون عن الأنوار القدسية والبراهين السبوحية

﴿**فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ**﴾ في الدارين، عذاب تعديد الوجهة، واضطراب الفكر، وضعف الشبهة، وتوهين العقل في الدنيا. ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾

﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾ أي الأدنين. وإنه لا يخلص أحداً منه إلا إيمانه بربه عزّ وجلّ. وقد قال عليه الصلاة والسلام[1] لما نزلت عليه: «يا فاطمة ابنة محمد! ياصفية ابنة عبد المطلب! يابني عبد المطلب! لا أملك لكم من اللهّ شيئاً. أنقذوا أنفسكم من النار». وقد بسط الأحاديث الواردة في ذلك، ابن كثير. فراجعه. وقوله تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أي ليّن جانبك لهم. مستعار من حال الطائر. فإنه إذا أراد أن ينحط خفض جناحه ﴿**فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ**﴾ أي من النوم إلى التهجد ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ أي المصلين. أي تصرفك فيما بينهم بالقيام والركوع والسجود، إذا أممتهم. يعني: يراك وحدك ويراك في الجمع. والتوصيف بذلك للتذكير بالعناية بالصلاة ليلاً وجمعاً وفرادى. أو معنى الآية: لا يخفى عليه حالك، كلما قمت وتقلبت مع الساجدين، في كفاية أمور الدين. أو هي كناية عن رعايته صلوات الله عليه، والعناية به. كقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾

﴿**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ أي لما تقوله وبما تنويه ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ**

---

(١) اخرجه البخاري في: التفسير، ٢٦- سورة الشعراء، باب عشيرتك الأقربين، حديث رقم ١٣٢٠، عن أبي هريرة.

الشَّيَاطِينُ﴾ أي (تتنزل) وهو استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول اللّه بعد امتناع تنزلهم بالقرآن **﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾** أي كذاب في قوله، في الكلام من وجه إلى آخر، ولا يبالي بذلك. لأنه أثيم كثير الإثم والفجور في فعله. وحيث كان المقام النبويّ منزهاً عن ذلك، اتضح استحالة تنزلهم عليه.

قال القاشانيّ: لأن تنزلهم لا يكون إلا عند استعداد قبول النفوس لنزولها، بالمناسبة في الخبث والكيد والمكر والغدر والخيانة وسائر الرذائل. فمن تجرد عن صفات النفس، وترقى إلى جناب القدس، وتنورت نفسه بالأنوار الروحية ومصابيح الشهب السبوحية، وأشرق عقله بالاتصال بالعالم الأعلى، فلا يمكن للشياطين أن يتنزلوا عليه، ولا أن يتلقفوا المعارف والحقائق والشرائع. فإنهم معزولون عن استماع كلام الملكوت الأعلى، مرجومون بشهب الأنوار القدسية. وقوله تعالى: **﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾** تقرير لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لأن الإفك والإثم من لوازم النفوس الكدرة الخبيثة المظلمة السفلية، المستمدة من الشياطين بالمناسبة، المستدعية لإلقائهم وتنزلهم بحسب الجنسية. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾

﴿يُلْقُونَ﴾ أي الأفّاكون **﴿السَّمْعَ﴾** أي إلى الشياطين وأوهامهم ووساوسهم **﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾** أي فيما يتكهنون به، وفيما يحكونه عن الشياطين. وقوله تعالى **﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾** استئناف مسوق لإبطال ما قالوا في حق القرآن الكريم، من أنه من قبيل الشعر، وأن رسول اللّه ﷺ من الشعراء، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام. بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يلقى الشياطين على الكهنة من الأباطيل، بما مرّ من بيان أحوالهم المضادّة لأحواله عليه الصلاة والسلام. والمعنى أن الشعراء الذين يركبون المخيلات والمزخرفات من القياسات الشعرية والأكاذيب الباطلة، سواء كانت موزونة أم لا، فإنه يتبعهم (أي يجاريهم ويسلك مسلكهم، ويكون من جملتهم) الغاوون الضالون عن السنن، لاغيرهم من أهل الرشد، المهتدين إلى طريق الحق، الداعين إليه. قاله أبو السعود.

وقوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾** استشهاد على أن الشعراء إنما

يتبعهم الغاوون، وتقرير له. أي ألم تر أنهم في كل وادٍ من أودية الخيال يهيمون على وجوههم، لا يقفون عند حدّ معيّن، بل يركبون للباطل والكذب وفضول القول كل مركب. ديدنهم الهجاء، وتمزيق الأعراض، والقدح في الأنساب، والنسيب بالحرم والغزل والابتهار. ومدح من لا يستحق المدح، والغلوّ في الثناء والهجاء.

لطيفة:

في ذكر الوادي والهيام، تمثيل لذهابهم في شعب القول وفنونه وطرقه وشجونه. قال ابن الأثير: استعار الأودية للفنون والأغراض من المعاني الشعرية التي يقصدونها. وإنما خص الأودية بالاستعارة، ولم يستعر الطرق والمسالك، أو ماجرى مجراها – لأن معاني الشعر تستخرج بالفكرة والروية، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض. فكان استعارة الأودية لها أشبه وأليق.

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي مما يتبجحون به من أقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم، كناية عن أنهم يكذبون غير مبالين بمايستتبعه من اللوائم. أي فكيف يتوهم أن يتبعهم في مسلكهم ذلك، ويلتحق بهم وينتظم في سلكهم، من تنزّهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشيء من الأمور المذكورة، واتصف بمحاسن الصفات الجليلة، وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة، وحاز جميع الكمالات القدسية، وفاز بجملة الملكات الأنْسية، مستقراً على المنهاج القويم، مستمرّاً على الصراط المستقيم، ناطقاً بكل أمر رشيد، داعياً إلى صراط العزيز الحميد، مؤيداً بمعجزات قاهرة، وآيات ظاهرة، مشحونة بفنون الحكم الباهرة، وصنوف المعارف الزاهرة، مستقلة بنظم رائق، أعجز كل منطيق ماهر، وبكّت كل مفلق ساحر! قاله أبو السعود.

تنبيه:

قال الحافظ ابن كثير: اختلف العلماء فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حدّاً. هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون – على قولين: وقد ذكر محمد بن إسحاق ومحمد بن سعد[1] في (الطبقات) والزبير بن بكار في كتاب (الفكاهة) أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل النعمان بن عَدِيّ بن نَضْلة على مَيْسَان، من أرض البصرة. وكان يقول الشعر، فقال:

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات، ٤ / ١٤٠، في ترجمة عدي بن نضلة.

أَلاَ هَلْ أَتَى الْحَسْنَاءَ أَنَّ خَلِيلَهَا ... بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ
إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دَهَاقِينُ قَرْيَةٍ ... وَرَقَّاصَةٌ تَحْثُو عَلَى كُلِّ مَبْسِمِ
فَإِنْ كُنْتَ نَدْمَانِي فَبِالأَكْبَرِ اسْقِنِي ... وَلا تَسْقِنِي بِالأَصْغَرِ الْمُتَثَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ ... تَنَادُمُنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

فلما بلغ ذلك أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: إي والله! إنه ليسوؤني ذلك. ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته، وكتب إليه عمر (﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾. أما بعد فقد بلغني قولك:

لعلَّ أميرَ المؤمنين يَسُوؤُهُ ... تَنَادُمُنَا بِالْجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ

وأيم الله! إنه ليسوؤني ذلك. وقد عزلتك).

فلما قدم على عمر. بكّته بهذا الشعر. وقال: والله! ياأمير المؤمنين! ما شربتها قط وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني. فقال عمر: أظن ذلك. ولكن، والله! لاتعمل لي عملاً أبداً، وقد قلتَ ما قلتَ.

فلم يذكر أنه حدّه على الشراب، وقد ضمنه شعره. لأنهم يقولون ما لا يفعلون. ولكن ذمّه عمر ولامه على ذلك وعزله به.

وحكى الزمخشريّ عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ ... وَبِتُّ أُفُضُّ أَغْلاقَ الْخِتَامِ

فقال: وقد وجب عليك الحدّ. فقال: ياأمير المؤمنين! قد درأ الله عني الحدّ بقوله ﴿**وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ**﴾.

ثم استثنى تعالى الشعراء المؤمنين الصالحين، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

﴿**إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً**﴾ أي في شعرهم، بأن كان غالبه في توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والآداب الحسنة ﴿**وَانتَصَرُوا**﴾ أي بشعرهم على عدوّهم بأن هجوه ﴿**مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا**﴾ أي فكان هجاؤهم على

سبيل الانتصار ممن يهجوهم، جزاءً وفاقاً. قال الله: ﴿ لاَّ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، قال ابن كثير: وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان[1]: «اهجهم، أو قال هاجهم، وجبريل معك» ويروي الإمام أحمد[2] عن كعب بن مالك أنه قال للنبيّ ﷺ: إن الله عزّ وجلّ قد أنزل في الشعر ما قد علمت، وكيف ترى فيه؟ فقال النبيّ ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه. والذي نفسي بيده! لكأن ما ترمونهم به نضح النبل».

تنبيهات:

الأول – قال في (الإكليل): في قوله تعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ الآية، ذم الشعر، والمبالغة في المدح والهجو وغيرهما من فنونه، وجوازه في الزهد والأدب ومكارم الأخلاق وجواز الهجو لمن ظلم، انتصاراً. انتهى.

وحكى الزمخشريّ عن عمرو بن عبيد، أن رجلاً من العلوية قال له: إن صدري ليجيش بالشعر. فقال: فما يمنعك منه فيما لا بأس به؟ والقول فيه: أن الشعر باب من الكلام، محسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام.

الثاني – ذكر ابن إسحاق أنه لما نزلت ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ يبكون. قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء. فتلا النبيّ ﷺ ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ قال: أنتم.

قال ابن كثير: لكن هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات في شعراء الأنصار؟ وفي ذلك نظر. ولم يرو فيه إلا مرسلات لا يعتمد عليها. والله أعلم. ولكن الاستثناء دخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله، ثم تاب وأناب ورجع وأقلع، وعمل صالحاً، وذكر الله كثيراً، في مقابلة ما تقدم من الكلام السيِّء. فإن الحسنات يذهبن السيئات. وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه. كما قال: عبد الله بن الزِّبَعْرَى، لما أسلم:

---

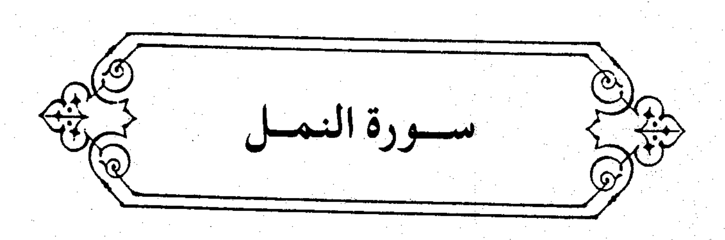
(١) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، ٦– باب ذكر الملائكة، حديث رقم ١٥١٧، عن البراء.
وأخرجه مسلم في: فضائل الصحابة، حديث رقم ١٥٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/٤٥٦.

يا رسولَ المليكِ إنّ لساني رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ، إذْ أنَا بُورُ
إِذْ أُجاري الشيطانَ في سَنَنِ الغَيّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، كان من أشد الناس عداوة للنبيّ ﷺ فهو ابن عمّه وأكثرهم له هجواً. فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول اللّه ﷺ. وكان يمدح رسول اللّه ﷺ. انتهى. وقوله تعالى ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَيَّ مُنقلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد، لما في (سيعلم) من تهويل متعلقه. وفي (الذين ظلموا) من إطلاقه وتعميمه. وفي (أي منقلب ينقلبون) من إبهامه وتهويله. كأنه لا يمكن معرفته، وقد رأوا ما حاق بهم في الدنيا. ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة النمل

قال المهايميّ: سميت بها، لاشتمالها على مقالتها، الدالة على علم الحيوان بنزاهة الأنبياء وأتباعهم، عن ارتكاب المكاره عمداً، وهو مما يوجب الثقة بهم. وهو من أعظم مقاصد القرآن. وهي مكية وآياتها ثلاث وتسعون.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾

﴿ **طسٓ، تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ** ﴾ الإشارة إلى نفس السورة. والقرآن عبارة عن الكل أو عن الجميع المنزل. أي تلك السورة آيات القرآن الذي عرف بعلوّ الشأن. وآيات كتاب عظيم المقدار، مبين لما تضمنه من الحكم والأحكام والمواعظ والاعتبار. ﴿ **هُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ أي هو هدى من الضلالة، وبشرى برحمة الله ورضوانه، لمن آمن وعمل صالحاً من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأيقن بالآخرة، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها.

لطيفة:

تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص على ما في (الكشاف).

ولصاحب (الانتصاف) وجه آخر قال: لما كان أصل الكلام (وهم يوقنون بالآخرة) ثم قدم المجرور على عامله، عناية به، فوقع فاصلاً بين المبتدأ والخبر، فأريد أن يلي المبتدأ خبره، وقد حال المجرور بينهما، فطرّى ذكره ليليه الخبر، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور حيث بقي على حاله مقدماً: ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها، بعد ما يوجب التطرية. فأقرب منها أن الشاعر قال:

سَلْ ذُو وَعَجِّلْ ذَا وَأَلْحِقْنَا بِذَا الشَّحْمِ، إِنَّا قَدْ مَلَلْنَاهُ بِخَلّ

والأصل (وألحقنا بذا الشحم) فوقع منتصف الرجز أو منتهاه (على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل) عند اللام. وبنى الشاعر على أنه لا بد، عند المنتصف أو المنتهى، من وقيفة ما. فقدر بتلك الوقفة بُعْداً بين المعرّف وآلة التعريف. فطرّاها ثانية. فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المكرّر ولا كلمة واحدة، سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير.

ثم قال: فتأمل هذا الفصل فإنه جدير بالتأمل. والله أعلم.

ثم تأثر أحوال المؤمنين بأحوال الكفرة، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾

﴿ **إنَّ الَّذينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة زَيَّنَّا لَهُم أعْمَالَهُمْ فَهُم يعْمَهُونَ** ﴾ أي مددنا لهم في غيّهم، فهم يتيهون في ضلالهم. وكان هذا جزاءً على ما كذّبوه به من الدار الآخرة والجزاء على الأعمال كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا به أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام:١١٠]، ﴿ **أُولَئكَ الَّذينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَاب وَهُمْ في الآخرة هُمُ الأَخْسَرُونَ** ﴾ أي أشد الناس خسراناً للنجاة وثواب الله. ﴿ **وإنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ** ﴾ أي لتؤتاه وتلقنه من عند حكيم في أمره ونهيه، عليم بالأمور جليّها وخفيها. فخبره هو الصدق المحض والحكمة البالغة، كما قال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام:١١٥]، والجملة مستأنفة، سقيت بعد بيان بعض شؤون القرآن الكريم، تمهيداً لما يعقبه من الأنباء الجليلة. وقد بدأ منها بما كان من أمر موسى عليه السلام واصطفائه وإيتائه من الآيات الباهرة ما أذلّ معانديه، وجعلهم مثل السوء. فقال سبحانه ﴿ **إذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِه** ﴾ أي حين قفل من مدين إلى مصر، واضلَّ الطريق ﴿ **إنِّي ءَانَسْتُ نَاراً** ﴾ أي رأيتها ﴿ **سَآتيكُمْ مِنْهَا بخَبَرٍ** ﴾ أي عن الطريق ﴿ **أَوْ ءَاتيكُمْ بشِهَابٍ قَبَسٍ** ﴾ أي بشعلة مقتبسة ﴿ **لَعَلَّكُم تَصْطَلُونَ** ﴾ أي تتدفئون به ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهَا نُودي أَن بُوركَ مَن في النَّار وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ اي بورك من في مكان النار ومَن حول مكانها. ومكانها البقعة التي حصلت فيها. وتدل عليه قراءة أُبيّ (تباركت الأرض ومن حولها) وعنه: بوركت النار. والذي بوركت له البقعة، وبورك من فيها وحواليها، حدوث أمر دينيّ فيها، وهو تكليم الله موسى، واستنباؤه له، وإظهار المعجزات عليه. ورب خير يتجدد في بعض البقاع، فينشر الله بركة ذلك الخير في أقاصيها

ويبث آثار يمنه في أباعدها. فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذي جرى في تلك البقعة المباركة؟ كذا في (الكشاف).

وقال السمين: (بارك) يتعدى بنفسه. فلذلك بني للمفعول: باركك الله، وبارك عليك، وبارك فيك وبارك لك. والمراد بـ (من) إما الباري تعالى وهو على حذف مضاف، أي من قدرته وسلطانه في النار. وقيل: المراد به موسى والملائكة. وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وقيل المراد بـ (من) غير العقلاء. وهوالنور والأمكنة التي حولها. انتهى.

ولذا قال الزمخشريّ: والظاهر أنه عامّ في كل من كان في تلك الأرض وفي ذلك الوادي وحواليهما من أرض الشام. قال: ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، وحقت أن تكون كذلك. فهي مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم، ومهبط الوحي إليهم، وكفاتهم أحياء وأمواتاً.

ثم قال: ومعنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه، هي بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة. انتهى.

وقال القرطبيّ: هذا تحية من الله تعالى لموسى، وتكرمة له. كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا ﴿رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣].

وعن ابن عباس: لم تكن تلك النار ناراً، وإنما كانت نوراً يتوهج.

وعنه: هي نور رب العالمين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عبيدة عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام. يخفض القسط ويرفعه. يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل. حجابه النور أو النار. لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره) ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾.

قال ابن كثير: وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم[١] من حديث عمرو بن مرّة ﴿وَسُبْحَانَ اللّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبهه شيء من

---

(١) أخرجه في: الإيمان، حديث رقم ٢٩٥ .

مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العليّ العظيم المباين لجميع المخلوقات، ولا يكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات. قاله ابن كثير.

وقد أفاد أن المقام اقتضى التنزيه، دفعاً لإيهام ما لا يليق من التشبيه. ثم إن موسى عليه السلام، أعلمه تعالى بأنه هو الذي يكلمه ويناجيه، لاملك ولا خلق آخر، بل ذاته العلية المستحقة للألوهية والنعوت القدسية، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾

﴿**يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ وفي إيثار هذه الأسماء الجليلة سرّ بديع. وهو الإشارة الجُمْلية إلى روح إرساله عليه السلام. أي: أنا اللّه لا تلك المعبودات التي عكف عليها قوم فرعون، العزيز الغالب القاهر لكل عات متمرد، الحكيم في البعثة والإرسال، والتفضل والإفضال. ثم أمره تعالى أن يلقي عصاه من يده ليريه دليلاً واضحاً على أنه القادر على كل شيء، بقوله ﴿**وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ**﴾ هو ضرب من الحيات، أسرعه حركة وأكثره اضطراباً ﴿**وَلَّى**﴾ أي من الخوف ﴿**مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ**﴾ أي لم يرجع على عقبه من شدة خوفه ﴿**يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ**﴾ أي لحفظي لهم وعنايتي بهم وعصمتي إياهم مما يؤذيهم. وفيه تبشير له باصطفائه بالرسالة والنبوة. وتشجيع له بنزع الخوف. إذ لا يتمكن من أداء الرسالة، ما لم يزل خوفه من المرسل إليه. وقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ استثناء منقطع. استدرك به ما عسى يختلج في الخلد من نفي الخوف عن كلهم. مع أن منهم من فرطت منه صغيرة ما، مما يجوز صدوره عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فإنهم وإن صدر عنهم شيء من ذلك، فقد فعلوا عقيبه ما يبطله، ويستحقون به من اللّه تعالى مغفرة ورحمة. وقد قصد به التعريض بما وقع من موسى عليه الصلاة والسلام، من وكزه القبطيّ والاستغفار. قاله أبو السعود. وسبقه الزمخشريّ حيث قال: يوشك أن يقصد بهذا، التعريض بما وجد من موسى. وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها، وسماه ظلماً كما قال موسى ﴿رَبِّ

إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ ثم أشار تعالى إلى آية خارقة غير العصا، آتاه إياها، بقوله ﴿وأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تخرُجْ بيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي آفة كبرص ﴿فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ﴾ أي غيرها تؤتاها، إذا جحد فرعون رسالتك. وهي ضرب ماء النهر بالعصا فينقلب دماً. وإصعاد الضفادع على أرض مصر. وضرب التراب فتمتلئ الأرض قملاً. وإرسال الجراد عليهم. والوباء الشديد. وإصابة أجسادهم بالقروح والدمامل والبثور. وإهلاك حصادهم بالبرد الشديد. وتغشيتهم بظلام كثيف، على ماروي، وفي ﴿تسع﴾ أوجه: أحدها أنها حال ثالثة. أي تخرج آية في تسع آيات. والثاني أنها متعلقة بمحذوف، أي اذهب في تسع. والثالث أن يتعلق بقوله: ﴿وأَلْقِ عَصَاكَ﴾ ﴿وأَدْخِلْ يدَكَ﴾ أي في جملة تسع آيات. و(في) بمعنى (مع) ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ أي مرسلاً بها إلى فرعون ﴿وقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن الحدود، في الكفر والعدوان. وهذا تعليل للإرسال.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦﴾

﴿فَلَمَّا جاءَتْهُمْ ءايَاتُنا مُبْصِرَةً﴾ أي ظاهرة بينة ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وجَحَدُوا بِهَا﴾ أي كذبوا بها بالسنتهم ﴿واسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي عرفت انفسهم أنها آيات يقيناً، لا سيما عند إلقاء السحرة ساجدين ﴿ظُلْماً﴾ أي للآيات، بتسميتها سحراً كقوله: ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩]، ولقد (ظلموا بها) ﴿وعُلُوّاً﴾ أي تكبراً عن الانقياد لموسى ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسدِينَ﴾ أي من إهلاكهم بالإغراق، لغرقهم في بحر الفساد والإفساد ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنا داوُدَ وسُلَيْمانَ علماً﴾ أي بالقضاء بين الناس، وحكمة باهرة ﴿وقَالا الْحَمْدُ للّه الَّذي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عباده الْمُؤْمِنِين ووَرِثَ سُلَيْمَانُ داوُد﴾ أي العلم والحكمة والنبوة أو الملك ﴿وقَالَ﴾ أي تحدثا بنعمة الله وتنويهاً بمنته ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ أي فهم صوته ﴿وأُوتِينا مِن كُلِّ شَيْءٍ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي البين الظاهر. وهو قول وارد على

سبيل الشكر والمحمدة. كما قال رسول الله ﷺ(١): «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» أي أقول هذا القول شكراً، ولا أقوله فخراً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾

﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ**﴾ أي جمع له عساكره ﴿**مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ﴿**حَتَّى إِذا أَتَواْ عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ**﴾ أي رأتهم متوجهين إلى واديها ﴿**يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ أي بمكانكم ﴿**فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا**﴾ أي تعجباً من حذرها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح بني نوعها. وسروراً بشهرة حاله وحال جنوده في باب التقوى والشفقة، فيما بين أصناف المخلوقات، التي هي أبعدها من إدراك أمثال هذه الأمور، وابتهاجاً بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم مرادها. قاله أبو السعود ﴿**وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ**

---

(١) أخرجه أبو داود في: السنة، ١٣- باب في التخيير بين الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، حديث رقم ٤٦٧٣ .

وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ أي ألهمني شكرها **﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾** أي بحجة تبين عذره **﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾** أي فلبث في الغيبة أمداً غير طويل **﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾** وهي مدينة **﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾** أي سرير تجلس عليه، هائل مزخرف بأنواع الجواهر **﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ أَلاَّ يَسْجُدُواْ﴾** أي هلاّ يسجدوا. كما قرئ بذلك. وجوّز بعضهم أن يكون معمولاً لما قبله. أي فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا، فحذف الجار مع (أن) أو أن تكون (لا) مزيدة، والمعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا **﴿لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمٰوَتِ وَالأَرْضِ﴾** أي يظهر ما هو مخبوء فيهما من نبات ومعادن وغيرهما **﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾** قرئ بالتاء والياء على صيغة الغيبة. والجملة التحضيضية إما مستأنفة من كلامه تعالى، أو محكية عن قول الهدهد. واستظهر الزمخشريّ الثاني. قال: لأن في إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد، لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض. وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض، جلت قدرته ولطف علمه. ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة النّظّار بنور الله، مخايل كل مختص بصناعة أو فن من العلم، في روائه ومنطقه وشمائله.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾

﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي المحيط بالشمس وسائر الكواكب وكل شيء. فما أصغر عرشها في جنب عظمته! وما أضعف معبودها – الشمس – في جانب قدرته!.

تنبيه:

هذه السجدة من عزائم السجدات. قال الزمخشريّ: لأن مواضع السجدة إما أمر بها، أو مدح لمن أتى بها، أو ذم لمن تركها. وإحدى القراءتين أمر بالسجود، والأخرى ذم للتارك.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾

﴿قَالَ﴾ أي سليمان ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَب بكتَابِي هَذَا فَأَلْقِه إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّها الْمَلَؤاْ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ أي حسن مضمونه وما فيه ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي لا تتكبروا عليّ، وأتوني منقادين لأمري ﴿قَالَتْ يَا أَيُّها الْمَلَؤاْ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ أي لا أبتّ أمراً إلا بمحضركم ومشورتكم. ولا أستبدّ بقضاء إلا باستطلاع آرائكم والرجوع إلى استشارتكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ﴾ أي في العَددَ والعُدد ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي نجدة وبلاء في الحرب ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي وأمر القتال أو الصلح مفوض إلى رأيك. فانظري ما هو أبقى لشرفك وملكك ﴿قَالَتْ﴾ أي مشيرة إلى اختيار خطة المسالمة وإيثارها، بالنظر لحالتها ومركزها وضعفها أمام عدوّها، بأن القتال إنما يؤثر إذا لم يغلب على الظن دخول العدوّ في قرية العدوّ. وإلا تعيّن الانقياد. وذلك معنى قولها ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ أي عنوة وقهراً ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ أي أخربوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أي بالقهر والغلبة والقتل والأسر ونهب الأموال ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيد لما وصفت من حالهم، وتقرير له بأن ذلك عادتهم المستمرة. وقيل تصديق لها منه تعالى ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي وإني سأرسل إلى سليمان وملئه رسلاً بهدية توجب المحبة وتشبه الانقياد. من غير اختلال لشرفنا. ثم انتظر بأي أمر يرجع المرسلون منه، حتى أعمل على حسب ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)

﴿**فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ**﴾ أي المرسلون منها ﴿**قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءاتَانَ اللَّهُ**﴾ أي من الملك والحكمة والنبوة ﴿**خَيْرٌ مِمَّا ءاتَاكُمْ**﴾ أي فلا أبالي بجميع ما عندكم فضلاً عن الهدية ﴿**بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ**﴾ أي إذا أهدي إليكم مثلها، أو أهديتم مثلها، تفرحون استكثاراً أو افتخاراً ﴿**ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ أي مهانون ﴿**قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ، فَلَمَّا رءاهُ مُسْتَقِراً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**﴾ أي ليختبرني أأشكر بالطاعة والعمل بالشريعة، أم أكفر بالمعصية والمخالفة. وقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ كقوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] و[الجاثية: ١٥]، وكقوله ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)

﴿**قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا**﴾ أي اجعلوا متنكراً متغيراً عن هيئته وشكله كما يتنكر الرجل للناس ﴿**نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ**﴾ أي لمعرفته ﴿**فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ**﴾ قال المهايمي: لم تقل (هو هو) خوفاً من

التكذيب، مع نوع من التغيير. ولا (لا) خوفاً من التجهيل.

وقال الزمخشريّ: لم تقل (هو هو) ولا (ليس به) وذلك من رجاحة عقلها. حيث لم تقطع في المحتم. أي: فَأتت بـ (كأن) الدالة على غلبة الظن.

قال الشهاب: وهذا إشارة إلى أن (كأن) ليس المراد بها هنا التشبيه بل الشك. وهو مشهور فيها.

وقد أبدى صاحب (الانتصاف) فرقاً بين (كأن) و (هكذا) في التشبيه. وعبارته: وفي قولها (كأنه هو) وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال بأن تقول (هكذا هو) - نكتة حسنة. ولعل قائلاً يقول: كلتا العبارتين تشبيه. إذ كان التشبيه فيهما جميعاً، وإن كانت في إحداهما داخلة على إسم الإشارة، وفي الأخرى داخلة على المضمر، وكلاهما (أعني اسم الإشارة والمضمر) واقع على الذات المشبهة. وحينئذ تستوي العبارتان في المعنى. ويفضل قولها (هكذا هو) بمطابقته للسؤال. فلا بد في اختيار ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ من حكمة. فنقول: حكمته، والله أعلم، أن ﴿كأنه هو﴾ عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين. فكاد يقول (هو هو) وتلك حال بلقيس. وأما (هكذا هو) فعبارة جازم بتغاير الأمرين، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير. فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة، لمطابقتها لحالها، والله أعلم. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام، شكراً لله على فضلهم عليها، وسبقهم إلى العلم بالله وبالإسلام. أي: وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته، وبصحة ما جاء من عنده، قبل علمها الذي أوما إليه قولها ﴿كأنه هو﴾ والجملة عطف على مقدر اقتضاه المقام المقتضى، للإفاضة في وصفها برجاحة الرأي في الهداية للإسلام. والتقدير: أصابت في جوابها وقد رزقت الإسلام، وعلمت قدرة الله. وأوتينا العلم الخ. وقيل: إنه من كلام بلقيس، موصولاً بقولها ﴿كأنه هو﴾، لا من كلام سليمان، كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها، فقالت: أوتينا العلم الخ. أي لا حاجة إلى الاختبار لأني آمنت قبل. وهذا يدل على كمال عقلها.

أو المعنى: علمنا إتيانك بالعرش قبل الرؤية، أو هذه الحالة بالقرائن أو الأخبار.

قال ابن كثير: ويؤيد الأول، أي أنه من كلام سليمان، أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح، كما سيأتي، والله أعلم. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

﴿**وَصَدَّهَا**﴾ أي وكان صدها عن الهداية ﴿**مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ**﴾ أي القصر، أو صحن الدار وكان سليمان عليه السلام اتخذ قصراً بديعاً من زجاج، فأراد أن يريها منه عظمة ملكه وسلطانه، ومقدار ماآثره اللّه به ﴿**فَلَمَّا رَأَتْهُ**﴾ أي صحنه ﴿**حَسِبَتْهُ لُجَّةً**﴾ أي ماء عظيماً ﴿**وَكَشَفَتْ**﴾ أي للخوض فيه ﴿**عَن سَاقَيْهَا، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ**﴾ أي مملّس ﴿**مِّن قَوَارِيرَ**﴾ أي من الزجاج ﴿**قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي**﴾ أي بكفرها السالف وعبادتها وقومها الشمس ﴿**وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ أي متابعة له في دينه وعبادته للّه وحده لا شريك له.

تنبيهات:

الأول – روى كثير من المفسرين ههنا أقاصيص لم تصحّ سنداً ولا مخبراً. وما هذا سبيله، فلا يسوغ نقله وروايته.

قال الحافظ ابن كثير، بعد أن ساق ما رواه ابن أبي شيبة عن عطاء مستحسناً له، مامثاله: قلت: بل هو منكر غريب جداً. ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، واللّه أعلم.

ثم قال: والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب، مما وجد في صحفهم. كروايات كعب ووهب، سامحهما اللّه تعالى، فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد والغرائب والعجائب. مما كان ومما لم يكن. ومما حرف وبدل ونسخ. وقد أغنانا اللّه سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، وللّه الحمد والمنة.

الثاني – أشير في (التوراة) في الفصل الرابع من سفر الملوك الثالث إلى تفصيل نبأ سليمان عليه السلام وعظمة ملكه وسلطانه. ومما جاء فيه أن سليمان كان متسلطاً على جميع الممالك من نهر الفرات إلى أرض فلسطين وإلى تخم مصر. وإن ملوك الأطراف كانوا يحملون له الهدايا خاضعين له كل أيام حياته أي أنها تؤدّي له

الجزية، وإن كان ملكه محصوراً في فلسطين. وأن اللّه تعالى آتاه حكمة وفهماً ذكياً جداً، وسعة صدر. ففاقت حكمته حكمة جميع أهل المشرق وأهل مصر. وقال ثلاثة آلاف مثل. وتكلم. في الشجر، من الأرز الذي على لبنان إلى الزوفى التي تخرج في الحائط. وتكلم في البهائم والطير والزحافات والسمك. وأما صرحه وبيته عليه السلام، فقد جاء وصفه في الفصل الخامس من السفر المتقدم. وأنه أكمل بناءه في ثلاث عشرة سنة. وأنه بنى جازَرَ وبيت حورون السفلى وبعلت وتدمر في أرض البرية. وجاء في الفصل العاشر من هذا السفر أيضاً قصة ملكة سبأ ومقدمها من اليمن على سليمان لتخبر حكمته وعظمة ملكه، ودهشتها مما رأته وتحققته، وإيمانها بربه تعالى. ثم إعطاؤه إياها بغيتها. ثم انصرافها إلى أرضها.

وقد ذكرنا غير مرة أن القرآن الكريم لا يسوق أنباء ما تقدم سوق مؤرخ، بل يقصها موجزة ليتحقق أنه مصداق ما بين يديه، ومهيمن عليه، ولينبه على أن القصد منها موضع العبرة والحكمة. ومثار التبصر والفطنة.

الثالث – مما استنبط من آيات هذه القصة الجليلة، أن في قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا﴾ أنه لا بأس بالتبسم والضحك عن التعجب وغيره. وفي قوله تعالى ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ استحباب تفقد الملك أحوال رعيته. وأخذ منه بعضهم تفقد الإخوان، فأنشد:

تفقد الإخوان مُسْتَحْسَنُ … فمَن بَدَاهُ نِعْمَ مَا قَدْ بَدَا
سَنَّ سليمانُ لنا سُنَّةً … وكَانَ فيما سنّه مُقْتَدَى
تفقَّدَ الطير على مُلْكه … فقال: مَالِي لاَ أَرَ الْهُدْهُدَا

وأن في قوله تعالى: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً﴾ الآية، دليلاً على أن العذاب على قدر الذنب، لا على قدر الجسد. وعلى جواز تأديب الحيوانات والبهائم بالضرب عند تقصيرها في المشي وإسراعها ونحو ذلك. وأن في قوله تعالى ﴿قَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أن الصغير يقول للكبير والتابع للمتبوع: عندي من العلم ما ليس عندك، إذا تحقق ذلك. وأن في قوله تعالى ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ قبول الوالي عذر رعيته، ودرءه العقوبة عنهم، وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به. وأن في قوله تعالى ﴿اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِه إِلَيْهِمْ﴾ إرسال الطير بالكتب. وأن في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ استحباب ختم الكتب، لقول السّدّي: كريم بمعنى مختوم. وأن في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي

أَمْرِي ﴾ المشاورة والاستعانة بالآراء في الأمور المهمة. وأن في قوله تعالى ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ الآية، استحباب رد هدايا المشركين. كذا في (الإكليل) بزيادة.

ثم أخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيّها صالح عليه السلام، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

﴿ و لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي فريق مؤمن وفريق كافر. يختصمون خصومة لا يرجع فيها المبطل إلى الحق بعد ما تبين له. كقوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا من قَوْمه للَّذينَ اسْتُضْعفُواْ لمَنْ ءَامَنَ منْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَبِّه، قَالُوا إِنَّا بمَا أُرْسلَ به مُؤْمنونَ قَالَ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بالَّذي ءَامَنْتُم به كَافرُونَ ﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦]، **﴿قَالَ يَا قَوم لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾** أي بالعقوبة السيئة قبل التوبة الحسنة. أي لم تدعون بحضور العقوبة ولا تطلبون من اللّه رحمته بالإيمان **﴿لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُوا اطَّيَّرْنَا ﴾** أي تطيرنا أي تشاءمنا **﴿ بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾** أي من المؤمنين. وقد كانوا، لشقائهم، إذا أصيبوا بسوء قالوا: هذا من قبل صالح وصحبه **﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ عندَ اللّهِ ﴾** أي سبيلكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند اللّه. وهو قدره وقسمته، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم. قاله الزمخشريّ.

قال الشهاب: لما كان المسافر من العرب إذا خرج مرّ به طائر سانحاً، وهو ما وليه بميسرته، أو بارحاً وهو ما وليه بميمنته - تيمنوا بالأول وتشاءموا بالثاني. ونسبوا الخير والشر إلى الطائر. ثم استعير لما كان سببهما من قدر اللّه وقسمته. أو من عمل العبد الذي هو سبب الرحمة والنقمة. ومنه (طائر اللّه، لا طائرك) **﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾** أي مفتونون بضلالكم وكفركم. لا ترون حسناً إلا ما يوافق هواكم، ولا شؤماً إلا يخالفه. ثم أخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤسائهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر، وتكذيب صالح عليه السلام، وما آل بهم الأمر، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾

﴿ **وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ** ﴾ أي شأنهم وعادتهم الإفساد، كما يفيده المضارع وتأكيده بقوله ﴿ **فِي الأَرْضِ** ﴾ الدال على عموم فسادهم. وهو صفة (رهط) أو (تسعة) ﴿ **قَالُوا تَقَاسَمُواْ بِاللَّهِ** ﴾ أي ليحلف كل واحد منكم على موافقة الآخرين، باللّه الذي هو أعظم المعبودين ﴿ **لَنُبَيِّتَنَّهُ** ﴾ أي لنقتلنّه ليلاً. قرئ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض ﴿ **وأَهْلَهُ** ﴾ أي من آمن معه. ﴿ **ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ** ﴾ أي الطالب ثأره علينا ﴿ **مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِه** ﴾ أي ما حضرنا مكان هلاك الأهل، مع تفرقهم في الأماكن الكثيرة، فضلاً عن مكانه، فضلاً عن مباشرته ﴿ **وإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾ أي ونحلف إنا لصادقون. أو: والحال إنا لصادقونُ فيما ذكرنا ﴿ **وَمَكَرُوا مَكْراً** ﴾ أي بهذه الحيلة ﴿ **وَمَكَرْنَا مَكْراً** ﴾ أي بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم ﴿ **وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً** ﴾ أي خالية ساقطة. لم تعمر بعدهم لأنهم استؤصلوا ﴿ **بِمَا ظَلَمُوا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ أي بأنهم ما أخذوا إلا لظلمهم. وإن عاقبة الظلم الدمار والبوار.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني صالحاً عليه السلام ومن معه ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي قبحها ومضادّتها لحكمه تعالى وحكمته ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي متجاوزين النساء اللاتي هن محالّ الشهوة ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي تفعلون فعل الجاهلين سفهاً وعمى عن العاقبة ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي يتنزهون عن أفعالنا ويرونها رجساً. قالوه استهزاء ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي الباقين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي هائلاً غير معهود ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال الزمخشريّ: أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته. وأن يستفتح بتحميده، والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين، والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما، على قبول ما يلقى إلى السامعين، وإصغائهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المُسْمِع. ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب. فحمدوا الله عزّ وجلّ، وصلّوا على رسول الله ﷺ، أمام كل علم مفاد، وقبل كل عظة وتذكرة، وفي مفتتح كل خطبة. وتبعهم المترسلون. فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن. وقيل: هو متصل بما قبله، وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم. والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين.

ثم قال: معلوم أن لا خير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه. وإنما هو إلزام لهم وتبكيت وتهكم بحالهم. وذلك أنه آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله. ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء، إلا لداع يدعوه إلى إيثاره، من زيادة خير ومنفعة. فقيل لهم، مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير، ولكن هوى وعبثاً، لينبهوا على الخطأ المفرط، والجهل المورّط. وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول. وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد. ونحوه ماحكاه عن فرعون ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ [الزخرف: ٥٢]، مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجري تحته.

ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله، كما عددها في موضع آخر. ثم قال: ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾.

لطيفة:

قال ابن القيم في (طريق الهجرتين) في هذه الآية: كلمة (السلام) هنا تحتمل أن تكون داخلة في حيز القول فتكون معطوفة على الجملة الخبرية، وهي (الحمد لله) ويكون الأمر بالقول متناولاً للجملتين معاً. وعلى هذا، فيكون الوقف على الجملة الأخيرة، ويكون محلها النصب محكيّة بالقول.

ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة مستقلة معطوفة على جملة الطلب. وعلى هذا فلا محل لها من الإعراب.

وهذا التقدير أرجح، وعليه يكون السلام من الله عليهم. وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه على رسله صلّى الله عليهم وسلم.

وعلى التقدير الأول يكون أمر بالسلام عليهم.

ولكن يقال على هذا: كيف يعطف الخبر على الطلب مع تنافر ما بينهما. فلا يحسن أن يقول: قم وذهب زيد، ولا اخرجْ وقعد عمرو.

ويجاب على هذا بأن جملة الطلب، قد حكيت بجملة خبرية، ومع هذا لايمتنع العطف فيه بالخبر على الجملة الطلبية لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه.

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

فقوله: ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ ﴾ ليس معطوفاً بالقول وهو (انظروا) بل معطوف على الجملة الكبرى.

على أن عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وقوله: ﴿ وَقُلْ رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

والمقصود أنه على هذا القول، يكون الله سبحانه قد سلّم على المصطفين من عباده، والرسلُ أفضلهم. انتهى. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

﴿**أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ إضراب وانتقال، من التبكيت تعريضاً، إلى التصريح به خطاباً على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد. أي: بل من خلق السماوات والأرض، وأودع فيهما من المنافع ما لا يحصى ﴿**وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ**﴾ أي بساتين ذات حسن ورونق يبهج النظار ﴿**مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ**﴾ أي: أءله آخر كائن مع اللّه، الذي ذكر بعض أفعاله، التي لا يكاد يقدر عليها غيره، حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى في العبادة؟ وهذا تبكيت لهم بنفي الألوهية عما يشركون به تعالى، في ضمن النفي الكليّ على الطريقة البرهانية، بعد تبكيتهم بنفي الخيرية عنه بما ذكر من الترديد. قال أبو السعود: ﴿**بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**﴾ أي عن طريق الحق. أو به تعالى غيره. ﴿**أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً**﴾ أي قارة لا تنكفئ بمن عليها. أو مستقراً لمن عليها، يتمتعون بمنافعها ﴿**وَجَعَلَ خلالها أنهاراً وَجَعَلَ لَهَا رواسيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً**﴾ اي برزخاً مانعاً من الممازجة ﴿**أءلهٌ مَّعَ اللَّهِ**﴾ أي في الوجود، أو في إبداع هذه البدائع ﴿**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ اي شيئاً من الأشياء. ولذلك لايفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك، مع كمال ظهوره ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**﴾ وهو الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر، إلى اللجأ والتضرع إلى اللّه تعالى، اسم مفعول من (الاضطرار) الذي هو افتعال من (الضرورة) وهي الحالة المحوجة إلى اللجأ أي الالتجاء والاستناد.

قال ابن كثير: ينبّه تعالى أنه المدعوّ عند الشدائد، الموجود عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]،

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣]، وهكذا قال ههنا ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه؟.

وقال ابن القيم في (الجواب الكافي): إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف انكساراً بين يدي الرب وذلاً له وتضرعاً ورقة، ثم توسل إليه تعالى بأسمائه وصفاته وتوحيده، فإن هذا الدعاء لا يكاد يردّ أبداً. ولا سيما إن صادف الأدعية المأثورة عن النبيّ ﷺ، أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم.

ثم ساقها ابن القيم مسندة.

ثم قال: وكثيراً ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم، فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله. أو حسنة تقدمت منه، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته. أو صادف الدعاء وقت إجابة، ونحو ذلك، فأجيبت دعوته. فيظن الظانّ أن السر في لفظ ذلك الدعاء، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي. وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعاً، في الوقت الذي ينبغي، على الوجه الذي ينبغي. فانتفع به. فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده، كاف في حصول المطلوب، كان غالطاً. وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس. ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب. فيظن الجاهل أن السر للقبر ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله. فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله، كان أفضل وأحب إلى الله. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أي كل ما يسوءه مما يضطر فيه وغيره ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ أي خلفاء فيها. وذلك توارثهم سكناها، والتصرف فيها قرناً بعد قرن أو أراد بالخلافة الملك والتسلط. قاله الزمخشريّ: ﴿أَءِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي بالنجوم في السماء، والعلامات في الأرض، إذا جن الليل عليكم مسافرين في البر والبحر ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وهي المطر ﴿أَءِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي بعد الموت بالبعث. فإن قيل: هم منكرون للإعادة، فكيف خوطبوا بها خطاب المعترف؟ أجيب بأنها لظهورها ووضوح براهينها، جعلوا كأنهم معترفون بها، لتمكنهم من معرفتها – فلم يبق لهم عذر في الإنكار. فلا حاجة إلى القول بأن منهم من اعترف بها، فالكلام بالنسبة إليه ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أي مما ينزله من مائها وما يخرجه من نباتها ﴿أَءِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أمرٌ له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيت. أي هاتوا برهاناً عقلياً أونقلياً، يدل على أن معه تعالى إلَهاً. لا على أن غيره تعالى يقدر على شيء مما ذكر من أفعاله تعالى، فإنهم لا يدعونه صريحاً. وفي إضافة (البرهان) إلى ضميرهم، تهكم بهم. لما فيها من إيهام أن لهم برهاناً. وأنَّى لهم ذلك؟ قاله أبو السعود ﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ أي فإنه المتفرد بذلك وحده، كما قال: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، في آيات لا تحصى. والاستثناء منقطع، لا ستحالة أن يكون تعالى ممن في السماء والأرض، أو متصل، على أن المراد ممن في السموات والأرض، من تعلق علمه بها واطلع عليها اطلاع الحاضر فيها مجازاً مرسلاً أو استعارة. فإنه يعمّ اللّه تعالى وأولي العلم من خلقه ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي متى ينشرون.

القول في تأويل قوله تعالى:

بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ قال السمين: فيه وجهان: أحدهما – أن (في) على بابها، و (ادّارك) وإن كان ماضياً لفظاً، فهو مستقبل معنى، لأنه كائن قطعاً. كقوله ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١].

وعلى هذا فـ (في) متعلق بـ (ادّارك).

والثاني – أن (في) بمعنى الباء. أي بالآخرة.

وعلى هذا فيتعلق بنفس علمهم. كقولك (علمي بزيد كذا) انتهى.

والوجه الثاني على الاستفهام. أي بل هل ادّارك علمهم فيها، أي بلغ وانتهى؟ كلا. وقد قرئ (بل أءدرك) بهمزتين، (بل آءدرك) بألف بينهما، (أم أدرك) و (أم تدارك).

قال الرازيّ: وهي (أم) التي بمعنى (بل) والهمزة. فالمعنى على الاستفهام

على وجه الإنكار لإدراك علمهم بها، وأنهم لم يبرحوا في حضيض الجهالة بحقيتها، مع ما يتلى عليهم من أدلة ثبوتها.

وقد جنح إلى الكلام على تقدير الاستفهام، السيوطيّ والمهايميّ. وذهب غيرهما إلى إبقاء (بل) على أصلها من الإضراب الانتقاليّ. وقرروه بما فيه خفاء ودقة. ويبعده ما ذكرنا من القراءات الصريحة في الاستفهام. وهي مما يرجع إليها إذا اشتبه المقام. كما تقرر في قواعد التفسير ﴿**بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا**﴾ أي مرية، مع تقرير ما يزيله ويكشف غشاوته ﴿**بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ**﴾ أي في عماية وجهل كبير.

قال الزمخشريّ: فإن قلت: هذه الإضرابات الثلاثة ما معناها؟ قلت: ما هي إلا تنزيل لأحوالهم: وَصَفَهُمْ أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث. ثم بأنهم لا يعملون أن القيامة كائنة. ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية، فلا يزيلونه. والإزالة مستطاعة. ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض، كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم، لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل؟ ثم بما هو أسوأ حالاً، وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه، وفرجه، لا يُخْطِر بباله حقاً ولا باطلاً ولا يفكر في عاقبة. وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشاه. فلذلك عداه بـ (من) دون (عن) لأن الكفر بالعاقبة والجزاء، هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ أي بوعد الله وآياته وعلمه وقدرته وحكمته ﴿**أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ**﴾ أي من القبور ﴿**لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**﴾ أي أحاديثهم وأكاذيبهم التي سطروها بعبارة مموّهة ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ**﴾ أي لتبصروا آثار القائلين هذا القول قبلكم ﴿**فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**﴾ بإنكاره. وهي دمارهم وهلاكهم بالاستئصال ﴿**وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾ أي على قولهم وتكذيبهم. فإنه سيكون لك من المصدقين من لا يبالي معهم بهؤلاء،

كقوله تعالى ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِم إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ [الكهف: ٦]، ﴿ وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي في حرج من مكرهم وكيدهم لك. ولا تبال بذلك، فإن الله يعصمك من الناس.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ** ﴾ أي بالعذاب ﴿ **إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ** ﴾ أي لحقكم أو دنا لكم ﴿ **بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ** ﴾ أي من العذاب، فحصل لهم القتل ببدر. ولعذاب الآخرة أمرّ. قال الزمخشريّ: و(عسى) و(لعلّ) و(سوف) في وعد الملوك ووعيدهم، يدل على صدق الأمر وجدّه، وما لا مجال للشك بعده. وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم، وأنهم لا يعجلون بالانتقام، لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم، ووثوقهم أن عدوّهم لا يفوتهم، وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم. فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده. انتهى. أي لأن حقيقة الترجّي محال في حقه تعالى. فهو على هذا استعارة تمثيلية. قاله الشهاب ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ** ﴾ أي لذو إفضال وإنعام عليهم، بتأخير العقوبة وعدم معاجلتهم بها. ولكن أكثرهم لايعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه، بل بجهلهم يستعجلونها ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴾ أي من عداوة رسوله ونصب المكايد له. وهو معاقبهم على ذلك ﴿ **وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** ﴾ أي وما من خافية فيهما، إلا وقد علمها الله وأحاط بها وأثبتها في اللوح البيّن، المثبت فيه مقدوراته تعالى. أو المراد بالكتاب القضاء العدل، على طريق الاستعارة، بتشبيهه بالكتاب الجامع للوقائع، كالسجل ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ أي فهو مصدق لما بين يديه، ومهيمن عليه. يقص القصص الحق، ويفصل بين ما اختلفوا فيه بالصدق. فالمعوّل من أنبائهم عليه، ومردّ ما اختلفوا فيه إليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

﴿ **وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي بما فيه من إقامة الدلائل ورفع الشبه التي يعقلها المؤمنون المنصفون المصدقون بالحق، المذعنون له ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ** ﴾ أي بين مَنْ آمن بالقرآن ومن كفر به، بعدله وحكمته ﴿ **وَهُوَ الْعَزِيزُ** ﴾ أي فلا يردّ قضاؤه الغالب في انتقامه من المبطلين ﴿ **الْعَلِيمُ** ﴾ أي بالفصل بينهم وبين المحقّين. ثم أمره تعالى بقلة المبالاة بأعدائه، وبالمضيّ في دعوته وانتظار الوعد الحق، بقوله: ﴿ **فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ** ﴾ أي الأبلج الذي لا ريب فيه. قال الزمخشريّ: وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته، وأن مثله لا يخذل. ثم أشار تعالى إلى كفاية نفع دعوته للمؤمنين، الذين هم أولياؤه وحزبه، وإلى أن الكل لا يرجى منهم الهداية، كآيه ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣]، تسلية عما كان يهمه من إيمانهم، بقوله سبحانه ﴿ **إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ قال الزمخشريّ: شبِّهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس، لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله فكانوا أقماع القول، لا تعيه آذانهم. وكان سماعهم كلا سماع. كانت حالهم، لانتفاء جدوى السماع، كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع، وكذلك تشبيههم بالصم الذين ينعق بهم فلايسمعون. وشبهوا بالعمي حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم، وأن يجعلهم هداة بصراء، إلا الله عزّ وجلّ. فإن قلت: ما معنى قوله ﴿ **إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ** ﴾؟ قلت: هو تأكيد لحال الأصمّ. لأنه إذا تباعد عن الداعي، بأن يولّي عنه مدبراً، كان أبعد عن إدراك صوته. انتهى.

وإيراد قوله ﴿ **وما أنتَ بهَادي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ** ﴾ إثر ما تقدم، للمبالغة في نفي الهداية. وقوله تعالى ﴿ **وَمَا أَنتَ تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا** ﴾ أي ما تسمع سماعاً يجدي السامع نفعاً، إلاّ من شأنه الإيمان بها. وقوله ﴿ **فَهُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ تعليل لإيمانهم بها.

كأنه قيل: فإنهم منقادون للحق. وقيل: معناه مخلصون، من قوله ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، يعني جعله سالماً للّه خالصاً له.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

﴿ وإذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أخْرَجْنا لَهُمْ دآبَّةً مِّنَ الأرْضِ تُكَلِمُهُمْ أنَّ النَّاسَ كانُواْ بآياتِنا لا يُوقِنُونَ﴾ اعلم أن في هذا الوعيد وجوهاً من التأويل:

الأول – أنه دينويّ، عنى به نصر الرسول صلوات اللّه عليه، عليهم. والمعنى أنّ أولئك الصم عن سماع الآيات، العمي عن النظر فيها، الجاحدين لها، سيأتيهم أنباء حقيقة ما كانوا يدعون إليه من نصر الداعي وهو الرسول وأتباعه، وتكثير سوادهم حتى يظفروا بمناوئيهم. ويظهروا على عدوّهم. وذلك بأن تدبّ إليهم من المؤمنين دابة عظمى تملأ السهل والربى، تزلزل أركانهم وتهدم بنيانهم وتقوض خيامهم وتدكّ أعلامهم. فتكلمهم حينئذ بلسان الحال أو المقال، بأنهم إنما أخذوا بالعقاب، وحل بهم شديد العذاب لضلالهم وإضلالهم العباد. وسعيهم في الأرض الفساد. فإن الإيمان دعامة الصلاح والإصلاح. وقائد الفلاح والنجاح، وقد سبقت كلمته لعباده المرسلين إنهم لهم المنصورون، وإن جنده لهم الغالبون. وقد صدق اللّه وعده. وأعز جنده.

والوجه الثاني – أن الدابة حيوان بخلاف ما نعرفه. يختص خروجها بحين القيامة، قال بعضهم: والمعنى إذا قامت القيامة بعث اللّه نوعاً مخصوصاً من دواب هذه الأرض، كما يبعث غيره من أنواع الدواب الأخرى. وينطقه فيوبخ الإنسان على كفره، كما ينطق أعضاءه في ذلك اليوم أيضاً. قال: فليس المراد من قوله ﴿**دَابَّةً**﴾ الفرد، بل النوع. كما في قولك (أرسل اللّه عليهم دودة أتلفت زرعهم) أي ديداناً كثيرة، من نوع واحد مخصوص.

وقد روي فيها أحاديث وآثار كثيرة، لم يصحح البخاريّ منها شيئاً، لاضطراب متونها وضعف رجالها. وأمثل مأثورها ما أخرجه مسلم[1] عن عبد اللّه بن عمرو مرفوعاً (إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس

---

(١) أخرجه مسلم في: الفتن وأشراط الساعة، حديث رقم ١١٨ .

ضحى. وأيهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريباً).

ومعلوم أن أمور الآخرة من عالم الغيب. ولا يؤخذ فيها إلا بما كان قطعيّ الثبوت.

الوجه الثالث – نقله الراغب في مفرداته قال: وقيل عنى بالدابة الأشرار الذين هم في الجهل بمنزلة الدواب. فتكون الدابة جمعاً، اسماً لكلّ مايدبّ. نحو (خائنة) جمع خائن. انتهى.

ولعل الآية كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧]، فإن يأجوج ومأجوج كالدابة، لما يغطي بدبيبه وجه الأرض – فهو مثل في الكثرة. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ اي يحبس أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار. وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه. كما وصفت جنود سليمان بذلك. وكذلك قوله **﴿فَوْجاً﴾**، فإن الفوج الجماعة الكثيرة. أفاده الزمخشريّ **﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا﴾** أي إلى المحشر **﴿قَالَ﴾** أي ليفضحهم في هذا اليوم المشهود **﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾** أي الناطقة بلقاء يومكم هذا وقوله: **﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً﴾** جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه. ومؤكدة للإنكار والتوبيخ. أي أكذبتم بها بادئ الرأي، غير ناظرين فيها نظراً يؤدي إلى العلم بكنهها، وأنها حقيقة بالتصديق حتماً؟ وهذا نص في أن المراد بالآيات، فيما سلف في الموضعين، هي الآيات القرآنية. لأنها هي المنطوية على دلائل الصحة، وشواهد الصدق التي لم يحيطوا بها علماً، مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها. لا نفس الساعة وما فيها. أفاده أبو السعود **﴿أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** اي بها. أو ماذا كان عملكم؟ هل هو إلا الفساد والإفساد؟ وصد السبيل عن العباد؟ ولذا حقت كلمة العذاب عليهم. كما قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾

﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ ﴾ أي مدلوله وهو العقاب الموعودون به ﴿ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ أَلَمْ يروْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فيه وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ أي ليبصروا، بما فيه من الإضاءة، طرق التقلب في أمور المعاش ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْمٍ يُؤْمنونَ ويَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمٰوَات وَمَن فِي الأَرْضِ إلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ ﴾ أي حضروا الموقف بين يديه ﴿ داخِرِينَ ﴾ أي صاغرين ﴿ وتَرى الْجِبَالَ ﴾ عطف على (ينفخ) داخل في حكم التذكير ﴿ تَحْسَبُهَا جامدَةً ﴾ أي ثابتة في أماكنها ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ أي في تخلل أجزائها وانتفاشها. كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة:٥]، ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي فيجازيهم عليه.

تنبيه:

ما ذكرناه في تفسير هذه الآية هو ما ذهب إليه كثير. قالوا: المراد بهذه الآية تسيير الجبال الذي يحصل يوم القيامة، حينما يبيد الله تعالى العوالم، كما قال: ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ [النبأ: ٢٠]، وكما قال: ﴿ وَإِذَا الجبَالُ نُسِفَتْ ﴾ [المرسلات: ١٠]، وقال: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كالعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ٥].

وقال بعض علماء الفلك: لا يمكن أن يكون المراد بهذه الآية ما قالوه، لعدة وجوه:

الأول - أن قوله تعالى: ﴿ وَترى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جامدَةً ﴾ لا يناسب مقام التهويل والتخويف إذا أريد بها ما يحصل يوم القيامة. وكذلك قوله: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾، لا يناسب مقام الإهلاك والإبادة، على أن محل هذه الآية على المستقبل، مع أنها صريحة في إرادة الحال، شيء لا موجب له. وهو خلاف الظاهر منها.

الثاني – أن سير الجبال للفناء يوم القيامة، يحصل عند خراب العالم وإهلاك جميع الخلائق وهذا شيء لا يراه أحد من البشر كما قال: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨]، أي من الملائكة. فما معنى قوله إذن ﴿ **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً** ﴾ ؟.

الثالث – أن تسيير الجبال الذي يحصل يوم القيامة، إذا رآه أحد شعر به. لأنه ما دام وضعها يتغير بالنسبة للإنسان، فيحسّ بحركتها. وهذا ينافي قوله تعالى ﴿ **تَحْسَبُهَا جَامِدَةً** ﴾ أي ثابتة. أما في الدنيا فلا نشعر بحركتها، لأننا نتحرك معها ولا يتغير وضعنا بالنسبة لها. وهذا بخلاف ما يحصل يوم القيامة. فإن الجبال تنفصل عن الأرض وتنسف نسفاً. وهذا شيء يراه كل واقف عندها.

الرابع – ورود هذه الآية في سياق الكلام على يوم القيامة، لورود آية ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً** ﴾ المذكورة قبلها في نفس هذا السياق، والمراد بهما ذكر شيء من دلائل قدرة الله تعالى، المشاهدة آثارها في هذا العالم الآن من حركة الأرض وحدوث الليل والنهار، ليكون ذلك دليلاً على قدرته على البعث والنشور يوم القيامة فإن القادر على ضبط حركات هذه الأجرام العظيمة، لا يصعب عليه أن يعيد الإنسان، وأن يضبط حركاته وأعماله ويحصيها عليه. ولذلك ختم هذه الآية بقوله ﴿ **إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** ﴾ فذكر هذه الأشياء في هذا السياق، هو كذكر الدليل مع المدلول، أو الحجة مع الدعوى. وهي سنة القرآن الكريم. فإنك تجد الدلائل منبثة بين دعاويه دائماً، حتى لا يحتاج الإنسان لدليل آخر خارج عنها. وذلك شيء مشاهد في القرآن من أوله إلى آخره. كلامه.

وقال العلامة المرجانيّ في مقدمة كتابه (وفيّة الأسلاف، وتحيّة الأخلاف) في بحث علم الهيئة، ما مثاله:

ويدل على حركة الأرض قوله تعالى: ﴿ **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ** ﴾ الآية .فإنه خطاب لجناب الرسول ﷺ، وإيذان الأمر له بالأصالة مع اشتراك غيره في هذه الرؤية. وحسبان جمود الجبال وثباتها على مكانها، مع كونها متحركة في الواقع بحركة الأرض، ودوام مرورها مرّ السحاب في سرعة السير والحركة. قال: وقوله ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ** ﴾ من المصادر المؤكدة لنفسها. وهو مضمون الجملة السابقة. يعني أن هذا المرور هو صنع الله. كقوله تعالى: ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٣٨]، ثم (الصنع) هو عمل الإنسان، بعد تدرّب فيه وتروٍّ

وتحري إجادة. ولا يسمى كل عمل صناعة، ولا كل عامل صانعاً حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه. وقوله ﴿الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كالبرهان على إتقانه، والدليل على إحكام خلقته، وتسوية مروره على ما ينبغي. لأن إتقان كل شيء، يتناول إتقانه. فهو تثنية للمراد وتكرير له، كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، قال: وقد اشتملت هذه الآية على وجوه من التأكيد، وأنحاء من المبالغة. فمن ذلك تعبيره (بالصنع) الذي هو الفعل الجميل المتقن المشتمل على الحكمة. وإضافته إليه تعالى تعظيماً له وتحقيقاً لإتقانه وحسنْ أعماله. ثم توصيفه سبحانه بإتقان كل شيء، ومن جملته هذا المرور. ثم إيراده بالجملة الاسمية الدالة على دوام هذه الحالة واستمرارها مدى الدهور. ثم التقييد بالحال، لتدل على أنها لا تنفك عنها دائماً. فإن قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ حال من المفعول به، وهو الجبال. ومعمول لفعله الذي هو رؤيتها على تلك الحال.

فهذه الآية صريحة في دلالتها على حركة الأرض ومرور الجبال معها في هذه النشأة. وليس يمكن حملها على أن ذلك يقع في النشأة الآخرة، أو عند قيام الساعة وفساد العالم وخروجه عن متعاهد النظام. وأن حسبانها جامدة لعدم تبين حركة كبار الإجرام إذا كانت في سمت واحد. فإن ذلك لا يلائم المقصود من التهويل على ذلك التقدير. على أن ذلك نقض وإهدام، وليس من صنع وإحكام. قال: والعجب من حذاق العلماء المفسرين، عدم تعرضهم لهذا المعنى، مع ظهوره واشتمال الكتب الحكمية على قول بعض القدماء. مع أنه أولى وأحق من تنزيل محتملات كتاب اللّه على القصص الواهية الإسرائيلية، على ما شحنوا بها كتبهم. وليس هذا بخارج عن قدرة اللّه تعالى، ولا بعيد عن حكمته، ولا القول به بمصادم للشريعة والعقيدة الحقة، بعد أن تعتقد أن كل شيء حادث بقدرة اللّه تعالى وإرادته وخلقه بالاختيار، كائناً ما كان، وهو العليّ الكبير، وعلى ما يشاء قدير.

واعلم أن هذه الآية وما قبلها من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ﴾ الآية. اعتراض في تضاعيف ما ساقه من الآيات الدالة على أحوال الحشر وأهوال القيامة، كاعتراض توصية الإنسان بوالديه في تضاعيف قصة لقمان. ومثل ذلك ليس بعزيز في القرآن.

وفائدته هنا، التنبيه على سرعة تقضّي الآجال ومضيّ الآماد. والتهويل من هجوم ساعة الموت وقرب ورود وقت المعاد. فإن انقضاء الأزمان، وتقضي الأوان، إنما هو بالحركة اليومية المارّة على هذه السرعة المنطبقة على أحوال الإنسان. وهذا

المرور. وإن لم يكن مبصراً محسوساً، لكن ما ينبعث منه تبدل الأحوال، بما يطرأ من تعاقب الليل والنهار وغيره، بمنزلة المحسوس المبصَر ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، فيكون هذا معجزة للنبيّ ﷺ، مخصوصة به، إذ لم يخبر به غيره من الأنبياء.

فليس بممكن حمل الآية على تسيير الجبال الواقع عند قيام الساعة ووفاء النشأة الآخرة. إذ ليس هو من (الصنع) في شيء. بل هو إفساد أحوال الكائنات، وإخلال نظام العالم، وإهلاك بني آدم. كلام المرجانيّ.

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ أي لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل. وقرئ ﴿فَزَعِ يَوْمِئذٍ﴾ بالإضافة وكسر الميم وفتحها. وفزع منوناً وفتح الميم، على أنه ظرف (لآمنون) أو المحذوف هو صفة للفزع. والتنوين في (يومئذ) عوض عن جملة محذوفة، أي يوم إذا جاءوا بالحسنة.

القول في تأويل قوله تعالى:

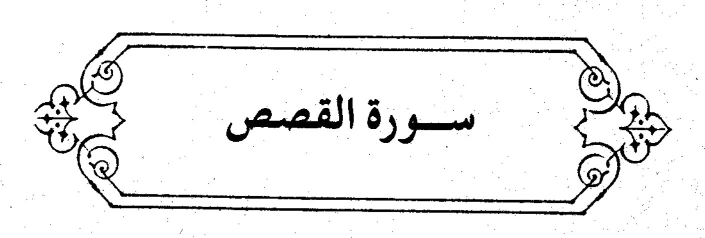
وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

﴿وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئة فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ في النَّارِ هَلْ تُجزوْنَ إلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي من الشرك والمعاصي ﴿إنّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذه الْبَلْدَةِ﴾ أي مكة ﴿الّذي حَرَّمَهَا﴾ أي جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها. وفيه تعريض بجحدهم نعمته تعالى في ذلك، حيث آمنهم من خوف، وأجلّهم في أعين القبائل، ووقاهم من الفتن المنتشرة عند غيرهم، إجلالاً لهذا البيت. وهم لم يرعوا هذه النعمة بالقيام بواجب شكرها، من عبادته تعالى وحده، وسعيهم بالإصلاح ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي خلقاً وملكاً. فهو خالق كل شيء ومليكه ﴿وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِين﴾ أي ممن أسلم وجهه لله، لا لغيره.

﴿وأَنْ أَتْلُوا الْقُرْءَانَ﴾ أي عليكم، تلاوة الدعوة إلى الإيمان به، لما اشتمل عليه من سعادة الدارين ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فإنّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي فمن اتبع ما فيه من توحيد

الله، ونفي الأنداد عنه، والدخول في الملة الحنيفية، واتباع ما أنزل عليّ من الوحي، فمنفعة اهتدائه راجعة إليه، لا إليّ ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي ومن ضل عن الإيمان وأخطأ بزَيْغه طريق الهدى، ولم يتبعني، فَلاَ عَلَيَّ. وما أنا إلا رسول منذر، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للّه﴾ أي على ما هدانا لهذا الدين، ومنّ علينا بصراطه المستقيم ﴿سَيُرِيكُمْ آياته فَتَعْرِفُونَهَا﴾ كقوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقوله ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي من الشرك والتكذيب ونصب المكايد. بل هو شهيد رقيب، جل جلاله وعظم نواله، ولا إله غيره.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة القصص

سميت به لاشتمالها على قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، الدالة على أن من هرب من مكان الأعداء، إلى مكان الأنبياء اعتباراً بقصصهم الدالةعلى نجاة الهاربين، وهلاك الباقين بمكان الأعداء – أمن من الهلاك. وهذا أيضاً من أعظم مقاصد القرآن، مع اشتمالها على ما لا يشتمل عليه غيرها من أنباء موسى، أفاده المهايميّ.

والسورة مكية كلها. وقيل إلاّ من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله ﴿الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢–٥٥]، فقد أخرج الطبرانيّ عن ابن عباس أنها نزلت هي وآخر الحديد في أصحاب النجاشيّ الذين قدموا وشهدوا وقعة أُحُد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ﴾ [القصص: ٨٥] الآية، لما روي من نزولها بالجُحْفة حين الهجرة إلى المدينة. واللّه أعلم. وهي ثمان وثمانون آية، بالاتفاق.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾

﴿ **طسم** ﴾ تقدم الكلام على هذه الحروف غير ما مرة ﴿ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ أي نقرأ عليك، بواسطة الروح الأمين، تلاوة ملتبسة بالحق. كما قال تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣]، ثم استأنف ما يجري مجرى التفسير للمجمل الموعود، بقوله ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ** ﴾ أي تكبر وتجاوز الحد في الطغيان، في أرض مصر ﴿ **وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً** ﴾ أي فرقاً وأصنافاً في استخدامه وطاعته ﴿ **يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ** ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿ **يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ** ﴾ وذلك إماتة لرجالهم، وتقليلاً لعددهم، كيلا يكثروا فينازعوه الملك ﴿ **إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ أي المتمكنين في الإفساد وقهر العباد.

ثم أشار تعالى إلى فرجه الذي جعله لتلك الطائفة، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾

﴿ونُريدُ أَن نَّمُنَّ﴾ أي نتفضل ﴿عَلَى الَّذينَ اسْتُضْعِفُواْ في الأَرْضِ وَنجعَلَهُمْ أئمَّةً﴾ أي يقتدى بهم في الدين بعد أن كانوا أتباعاً مسخرين ﴿وَنجعَلَهُمُ الْوارِثينَ﴾ أي: لملك عدوّهم. كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ إلى قوله ﴿يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ﴿ونُمكِّنَ لَهُمْ في الأَرْضِ﴾ أي بالتصرف فيها تصرف الملوك ﴿ونُرِيَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ﴾ أي من أولئك المستضعفين ﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ أي من هلاكهم وذهاب ملكهم، جزاء إفسادهم وعدم إصلاحهم وطغيانهم ﴿وأَوْحَيْنَا إلَى أُمِّ مُوسَى﴾ أي إثر ولادته في تلك الشدّة ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ أي من أولئك الدباحين الذين بأيديهم الشفار المرهفة العاملة في تلك الأنفس الزكية ﴿فَأَلْقِيهِ في الْيَمِّ﴾ أي في البحر، وهو النيل ﴿ولاَ تَخَافِي ولاَ تَحْزَنِي إنَّا رَادُّوهُ إلَيكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ أي في هلاكهم على يديه.

قال أبو السعود: واللام لام العاقبة. أبرز مدخولها في معرض العلة، لالتقاطهم. تشبيهاً له في الترتب عليه، بالغرض الحامل عليه ﴿إنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أي مجرمين فعاقبهم الله بأن ربّى عدوّهم، ومَنْ هو سبب هلاكهم، على أيديهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾

﴿وَقَالَت امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ أي لفرعون، حين أخرجته من التابوت ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لّي وَلَكَ، لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي بما سيكون ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾ أي خالياً من العقل. لما دهمها من فرط الجزع، وأطار عقلها من الدهش، لما بلغها وقوعه في يد فرعون ﴿إنْ كَادَتْ لَتُبْدي بِهِ﴾ أي بأمره وقصته، وأنه ولدها ﴿لَوْلاَ أَنْ رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ﴾ أي لولا أن ألهمناها الصبر. شبه بربط الشيء المنفلت ليقرّ ويطمئن. ومعنى ﴿من المؤمنين﴾ أي المصدقين بوعد الله. وهو قوله ﴿إنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧].

قال الزمخشريّ: ويجوز، وأصبح فؤادها فارغاً من الهم، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبنّاه. إن كادت لتبدي بأنه ولدها، لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت. لولا أنّا طامنا قلبها وسكنا قلقه الذي حدث به من شدة الفرح والابتهاج، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد اللّه، لا بتبنّي فرعون وتعطفه ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أي اتّبعي أثره لتنالي خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ بضم النون وسكونها. أي: عن بعد ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي أنها تتعرف حاله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل قَصّها أثره. و(المراضع) جمع مرضع بضم الميم وكسر الضاد. وهي المرأة التي ترضع. وترك (التاء) لاختصاصه بالنساء. أو جمع (مرضع) بفتح الميم مصدر ميميّ، جمع لتعدد موادّه. أو اسم موضع الرضاع، وهو الثدي ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ أي في رضاعه وتربيته ﴿فرددناه إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي برؤيته ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي بفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي كمال قوته، ﴿وَاسْتَوَى﴾ أي اعتدل مزاجه ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي في أعمالهم. ثم بين تعالى من نبئه عليه السلام، ما تدرج به إلى ما قدّر له من الرسالة، بقوله سبحانه ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ أي مصر آتياً من قصر فرعون ﴿عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل وقت القيلولة. وقيل بين العشائين ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي يتنازعان ﴿هَذَا﴾ أي الواحد ﴿مِن شِيعَتِهِ﴾ أي ممن يشايعه على دينه وهم بنو إسرائيل ﴿وَهَذَا﴾ أي الآخر ﴿مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي ممن خالفه في دينه وهم

القبط ﴿ **فَاسْتَغَاثَهُ** ﴾ أي سأله الإغاثة ﴿ **الَّذِي مِن شِيعَتِهِ** ﴾ لكونه مظلوماً ﴿ **عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾ لكونه ظالماً. وإغاثة المظلوم واجبة فوجبت إغاثته من جهتين ﴿ **فَوَكَزَهُ مُوسَى** ﴾ أي ضربه بجُمع كفِّه ﴿ **فَقَضَى عَلَيْهِ** ﴾ أي فقتله ﴿ **قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ** ﴾ يشير إلى تأسفه على ما أفضى وكزه، من قتله. وسماه ظلماً واستغفر منه بالنسبة إلى مقامه ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي** ﴾ أي بقتله ﴿ **فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ** ﴾ يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف. أي أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة، لأتوبنّ ولا أظاهر المجرمين. وأن يكون استعطافاً كأنه قال: رب! اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة. فلن أكون، إن عصمتني، ظهيراً للمجرمين. وأراد بمظاهرتهم، إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثير سواده، وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيليّ المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له. قاله الزمخشريّ.

قال الناصر: لقد تبرأ عليه السلام من عظيم. لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما هم بصدده. يروى أنه يقال يوم القيامة: أين الظلمة وأعوان الظلمة؟ فيؤتى بهم حتى بمن لاق لهم ليقة، أو برى لهم قلماً، فيجعلون في تابوت من حديد ويلقى بهم في النار.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾

﴿ **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ** ﴾ أي الاستقادة أو الأجناد. ﴿ **فَإِذَا الَّذِي**

استنصره بالأمس ﴾ أي استعانه فقتل من أجله منازعه القبطيّ ﴿ **يستصرخه** ﴾ أي يستغيثه من قبطيّ آخر ﴿ **قال له موسى إنك لغوي مبين** ﴾ أي بمخاصمتك الناس مع عجزك، وجرّك إليهم مالا تحمد عقباه ﴿ **فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما** ﴾ أي لموسى وللإسرائيليّ، وهو القبطيّ ﴿ **قال** ﴾ أي ذلك العدوّ وهو القبطيّ، لا الإسرائيليّ كما وهم ﴿ **يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين** ﴾ أي بين الناس بالقول والفعل.

قال الزمخشريّ: الجبار الذي يفعل مايريد من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن. ﴿ **وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى** ﴾ أي يسرع لفرط حبه لموسى ﴿ **قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك** ﴾ أي يتشاورون بسببك ﴿ **ليقتلوك فاخرج** ﴾ أي من حدّ مملكتهم ﴿ **إني لك من الناصحين فخرج منها خائفاً يترقب** ﴾ أي لحوق الطالبين ﴿ **قال رب نجني من القوم الظالمين ولما توجه** ﴾ أي جعل وجهه ﴿ **تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل** ﴾ أي فلا يلحقني فيه الطالبون ﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة** ﴾ أي جماعة كثيفة ﴿ **من الناس يسقون** ﴾ أي مواشيهم ﴿ **ووجد من دونهم امرأتين تذودان** ﴾ أي تمنعان مواشيهما عن الماء، لوجود من هو أقوى منهما عنده، فلا تتمكنان من السقي ﴿ **قال ما خطبكما** ﴾ أي ما شأنكما في الذود ﴿ **قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء** ﴾ أي عادتنا أن لا نسقي حتى يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء، عجزاً عن مساجلتهم، وحذراً من مخالطة الرجال ﴿ **وأبونا شيخ كبير** ﴾ أي فيعجز عن الخروج والسقي. أي ما لنا رجل يقوم بذلك إلا هو، وقد أضعفه الكبر، فاضطرنا الحال إلى ما ترى.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾

﴿ **فسقى لهما** ﴾ أي فسقى غنمهما، لأجلهما من غير أجر ﴿ **ثم تولى إلى الظل** ﴾ أي الذي كان هناك، من شدة الحرّ ﴿ **فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير** ﴾ أي محتاج. والخير أعم من المال أو القوة أو الطعام. وعلى الأخير حمله الأكثرون

بمعونة المقام ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي أخبره بجميع ما جرى عليه إلى خروجه لما تآمروا بقتله ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي بالخروج عن حدّ ولايتهم، إذ لا سلطان لهم بأرضنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَئْجِرْهُ﴾ أي اجعله أجيرك ليرعى غنمك، فإنه حقيق بذلك ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَئْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ أي خير من أردت جعله أجيراً، القويّ على العمل المؤتمن فيه.

قال الزمخشريّ: وقولها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَئْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ كلام حكيم جامع لا يزاد عليه. لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان، أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك وتم مرادك. وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة، أن تقول: استأجره لقوّته وأمانته. انتهى.

قال الناصر: وهو أيضاً أجمل في مدح النساء للرجال، من المدح الخاص. وأبقى للحشمة. وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجها منه. وما أحسن ما أخذ الفاروق رضي الله عنه هذا المعنى فقال: أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القويّ. ففي مضمون الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين، فكان قوياً أميناً: يستعين به على ما كان بصدده رضي الله عنه. انتهى. ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ﴾ أي لقوتك وأمانتك، ما يقوّي المودة ويجذب القلوب ﴿أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ أي على أن تكون أجيري لرعي المواشي بأجرة على ابنتي، هي مهرها عليك، ثماني سنين ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي فهو من عندك بطريق التفضل ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ أي بإلزام أتم الأجلين وإيجابه ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي في حسن المعاملة ولين

الجانب والوفاء بالعهد ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي ذاك الذي عاهدتني عليه، لا نخرج عنه جميعاً ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ أي أتممت ﴿فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي بطلب الزيادة على ثمان، أو الخروج بالأهل قبل عشر ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي شاهد وحفيظ.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾

﴿فَلَمَّا قَضَى﴾ أي أتم ﴿مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُواْ إِنِّي ءَانسْتُ نَاراً لَعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي من الطريق، من ضوئها، أو ممن عندها ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ مثلثة الجيم، وقد قرئ بها كلها، أي عود فيه شيء ﴿مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي تستدفئون ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي قرب منها ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ﴾ أي جانب ﴿الْوَادِ الأَيْمَنِ﴾ أي المبارك. يقال: يمن فهو ميمون وأيمن. وتفسيره بخلاف الأيسر بعيد، لأن ألفاظ التنزيل وآية يفسر بعضها بعضاً. وقد جاء في غير آية توصيف الوادي بالمقدس، وبقعته بالمباركة، والمعنى واحد. وإن أدهش التفنن في التعبير عنه ببديع تلك المباني ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ أي التي بورك مكانها بالتجلي الإلهيّ ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ أي تتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أي حية صغيرة، في سرعة الحركة ﴿وَلَّى مُدْبِراً﴾ أي أعرض بوجهه عنها. جاعلاً ظهره إليها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يرجع ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الأَمِنِينَ﴾ أي من المخاوف.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟

قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ **اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ** ﴾ أي أدخلها فيه ﴿ **تَخرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ** ﴾ أي عيب ﴿ **وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ** ﴾ أي يدك ﴿ **مِنَ الرَّهْبِ** ﴾ أي الخوف. قرئ بفتحتين، وضمتين، وفتح وسكون، وضم وسكون. قال ابن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية قال ابن كثير: والظاهر أن المراد أعم من هذا. وهو أنه أمر عليه السلام، إذا خاف من شيء، أن يضم إليه يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف. وربما استعمل أحد ذلك، على سبيل الاقتداء، فوضع يده على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجد أو يخفّ إن شاء اللّه تعالى. وبه الثقة. ﴿ **فَذَانِكَ** ﴾ إشارة إلى العصا واليد ﴿ **بُرْهَانَانِ من رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ قَالَ رَبِّ إِنّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً** ﴾ أي فيكون أحسن بياناً. ولا يتحمل ذلك ما لم يكلف بمثل ما كلفت به ﴿ **فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً** ﴾ أي معيناً ﴿ **يُصَدِّقُنِي** ﴾ أي لنشاط قلبي ﴿ **إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ** ﴾ أي يتفقوا على تكذيبي المؤدي إلى أنواع الأذيات.

قال الزمخشريّ: فإن قلت: تصديق أخيه، ما الفائدة فيه؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل به الكفار، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة. فذلك جار مجرى التصديق المفيد، كما يصدق القول بالبرهان. الا ترى إلى قوله ﴿ **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ** ﴾ وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك. لا لقوله صدقت. فإن سحبان وباقلاً يستويان فيه. أو يصل جناح كلامه بالبيان حتى يصدقه الذي يخاف تكذيبه. فأسند التصديق إلى هارون لأنه السبب فيه، إسناداً مجازياً. انتهى. ﴿ **قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ** ﴾ أي سنقويك به ونعينك.

قال الشهاب: والشد التقوية، والعضد من اليد معروف. فهو إما كناية تلويحية عن تقويته، لأن اليد تشد بشدة العضد، والجملة تشتد بشدة اليد، ولا مانع من الحقيقة كما توهم. أو استعارة تمثيلية. شبّه حال موسى في تقويته بأخيه عليهما السلام، بحال اليد في تقويتها بيد شديدة. ﴿ **وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً** ﴾ أي غلبة ومهابة

في قلوبهم أو حجة ﴿**فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا**﴾ أي بإيذاء، فضلاً عن القتل ﴿**بِآيَاتِنَا**﴾ متعلق بمحذوف أي اذهبا بآياتنا. أو بـ (نجعل) أي نسلطكما بها أو بمعنى (لا يصلون) أي تمتنعون منهم بها. أو قسم، جوابه (لا يصلون) مقدر. أو صلة لـ (الغالبون) في قوله ﴿**أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ**﴾ وتقدمه، إما للفاصلة أو للحصر. أي الغالبون عليهم، وإن غلبوكم وغلبوا العالمين قبلكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾

﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُواْ مَاهَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً**﴾ أي مبتدع لم يسبق له نظير. أو تفتريه على الله بنسبته له، وأنت تعلمته من غيرك، فالافتراء بمعنى الاختلاق أو الكذب ﴿**وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا**﴾ أي السحر أو ادعاء النبوة، أو بأن للعالم إلهاً يرسل الرسل بالآيات ﴿**فِي ءَابَائِنَا الأَوَّلِينَ**﴾ أي كائناً في أيامهم. قال الشهاب: وهذا إما تعمد للكذب وعناد بإنكار النبوات، وإن كان عهد يوسف قريباً منهم. أو لأنهم لم يؤمنوا به أيضاً ﴿**وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ**﴾ قال المهايميّ: معناه: كفى دليلاً على كونها آيات، أنها خوارق ولم يسبق لها نظير. مع أن ما جئت به هدى. والساحر لا يدعو في العموم إلى هدى. فإن لم تعترفوا بكونه هدى، فربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده، ويعلم ذلك بالعاقبة، فإن الله يحسن عاقبة أهل الهدى لامحالة. لأنه يعلم من تكون له عاقبة الدار. وهي العاقبة المحمودة. والمراد بـ (الدار) الدنيا. وعاقبتها وعقباها: أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان. وتلقي الملائكة بالبشرى عند الموت. وهذه لا تكون للساحر إذا ادعى النبوة، لأنه ظالم، فلا يفلح بالعاقبة الحميدة كما قال ﴿**إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ أي بالدار وإن وجدوا بعض مقاصدهم أولاً استدراجاً، فلا يفوزون بالعقبى الحميدة. وإنما غاية أمرهم انقطاع أثرهم وسوء ذكرهم. وقد حقق الله هذا الوعد فجعل عاقبة قوم موسى رفيعة. ونهاية أعدائه وضيعة ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ**

غَيْرِي﴾ هذا حكاية لتمرده وعتوّه وطغيانه في تفوهه بتلك العظيمة. كما واجه موسى عليه السلام بها في قوله ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وكما قال تعالى عنه ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٣-٢٦]، يعني أنه جمع قومه ونادى فيهم معلناً بذلك. فانتقم منه بما جعله عبرة لمن اعتبر ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ أي ناراً، فاتخذ منه آجراً.

قال الزمخشريّ: ولم يقل (اطبخ لي الآجرّ وأتخذه) لأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلوّ طبقته، وأشبه بكلام الجبابرة. وهامان وزيره ومدبّر رعيته ﴿فَاجْعَلْ لِّي﴾ أي من الآجرّ ﴿صَرْحاً﴾ أي قصراً رفيعاً إلى السماء ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ يعني العليّ الأعلى، تبارك وتعالى ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي في دعواه الألوهية، والعلوّ لباري الأرض والسموات.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ﴾ أي بدعوى الألوهية لنفسه، ونفيها عن اللّه تعالى، وقصد الاطلاع إلى اللّه سبحانه، وادعاء العلم الكليّ لنفسه مع جهله بربه ﴿وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بل بالفساد وردّ الحق، والصدّ عن سبيل اللّه ﴿وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ﴾ بضم الياء وفتحها قراءتان ﴿فَأَخَذنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي يلعنهم كل مؤمن يسمعهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي من المطرودين، المبعدين ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي أنواراً للقلوب ﴿وَهُدًى﴾ أي إلى الاعتقادات الصحيحة ودلائلها

﴿وَرَحْمَةً﴾ أي بالإرشاد إلى العمل الصالح ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي فيتعظون به ويهتدون بسببه.

ثم أشار تعالى إلى كون التنزيل وحياً من علاّم الغيوب، ببيان أنه ما فصّل من هذه الأنبياء لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم، وكلاهما معلوم الانتفاء، فتحقق صدق الإيحاء. وذلك قوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ أي الوادي الغربي الذي كوشف فيه موسى عن المناجاة ﴿إِذْ قَضَيْنَا﴾ أي قدرنا وأنهينا ﴿إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ أي أمر الإرسال والإنباء ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً﴾ أي بين زمانك وزمان موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي أمد انقطاع الوحي، واندرست معالم الهدى، وعم الضلال والبغي والردى، فاقتضت رحمتنا إرسالك لنخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِياً﴾ أي مقيماً ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي لك، وموحين إليك تلك الآيات. أي ما كان الإنباء بها إلا وحياً مصدره الرسالة ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي وقت ندائنا موسى ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وبغيره، لرحمةٍ عظيمة كائنة منّا لك وللناس ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي من نذير في زمان الفترة، بينك وبين عيسى ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يتعظون بإنذارك.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾

﴿وَلَوْلاَ أنْ تُصيبَهُمْ مُصيبَةٌ﴾ أي عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ﴾ أي من الكفر والفساد ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أرْسَلْتَ إلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بها. وجواب ﴿لولا﴾ الأولى محذوف، ثقة بدلالة الحال عليه. أي ما أرسلناك. لكن قولهم هذا عند عقوبتهم محقق. ولذا أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم.

قال الزمخشري: ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي، جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي، وتقديم الأيدي، وإن كان من أعمال القلوب. وهذا من الاتساع في الكلام، وتصيير الأقل تابعاً للأكثر، وتغليب الأكثر على الأقل ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ أي من قلب العصا حية، وفلق البحر، وغيرهما من الآيات. تعنتاً وعناداً، كما قالوا ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]، وما أشبه ذلك. وقوله: ﴿أوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾ رد عليهم، وإظهار لكون ما قالوه تعنتاً محضاً، لا طلباً لما يرشدهم إلى الحق. أي أو لم يكفر أبناء جنسهم، ومَنْ مذهبهم مذهبهم، وعنادهم عنادهم وهم القبط، بما أوتي موسى من الكتاب ﴿قَالُوا﴾ أي في موسى وهارون عليهما السلام (ساحران) ﴿تَظَاهَرَا﴾ أي تعاونا. وقرئ ﴿سِحْرَانِ﴾ أي ذوا سحرين؛ أوجعلوهما سحرين مبالغة ﴿وَقَالُوا إنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ ثم أشار تعالى إلى أن الآية العظمى للنبيّ صلوات الله عليه، هي الآيات النفسية العلمية، لا الكونية الآفاقية التي كانت لغيره، جرياً على سنة الارتقاء. فإن النوع الإنساني كان، لما جاء الإسلام قد استعد إلى معرفة الحق من الباطل بالبرهان، والتمييز بين الخير والشر بالدليل والحجة. وكان لا بد له في هذا الطور من معلّم ومرشد، كما في الأطوار الأخرى، أرسل الله إليه رسولاً يهديه إلى طرق النظر والاستدلال، ويأمره بأن يرفض التقليد البحت والتسليم الأعمى. وأن لا يأخذ شيئاً إلا بدليل وبرهان، يوصل إلى العلم. فكانت عمدته ﷺ في الاستدلال على نبوّته ورسالته نفسه الكريمة، وما جاء به من النور والهدى، كالطبيب الذي يستدل على إتقانه صناعة الطب، بما يبديه من العلم والعمل الناجح فيها. وقد بسط هذا في مواضعه. وهذا معنى قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ

يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

﴿ **قُلْ** ﴾ أي لهؤلاء الجاحدين: قد مضى دور الخوارق التي تقترحونها، ونسخ تعالى من تلك الآيات بما أتى بخير منها، وهو آية الهداية التي تصلح بها قلوب العالمين. والذكرى التي تزع النفوس عن الشر، وتحملها على الخير. بحيث يظهر أثرها الحسن في المؤمنين، ويحق الشقاء على الجاحدين المعاندين. فإن يك هذا سحراً، ولديكم ما هو أهدى ﴿ **فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِنْ عِندِ اللّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا** ﴾ أي من التوراة والقرآن ﴿ **أَتَّبِعْهُ** ﴾ أي ولا أعاندكم مثل ما تعاندونني ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ أي في أنهما سحران مختلقان. أو في أنه يمكن الإتيان بما هو أهدى منهما.

قال أبو السعود: ومثل هذا الشرط مما يأتي به من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته. لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين، أمر بيّن الاستحالة. فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإفحام. انتهى.

أي لا للشك والتردد.

قال الشهاب: وهذا جواب عما يقال أن عدم إتيانهم به معلوم. وهذا كما يقول المدّل: إن كنت صديقك القديم، فعاملني بالجهل. وكذا في إيراد كلمة (إن) مع امتناع صدقهم، نوع تهكم بهم ﴿ **فَإِن لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ** ﴾ أي فلم يأتوا بذلك الكتاب، ولم يتابعوا الكتابين ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ أي الزائغة من غير برهان ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللّهِ** ﴾ الاستفهام إنكاري للنفي. أي لا أحد أضل منه. كيف لا؟ وهو أظلم الظلمة. بتقديم هواه على هدى الله. كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى، والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين.

قال الرازيّ: وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد، وأنه لا بد من الحجة والاستدلال. انتهى. ﴿ **وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ أي أنزلنا عليهم القرآن متواصلاً، بعضه إثر بعض، وعداً ووعيداً، وقصصاً وعبراً، ومواعظ، حسبما تقتضيه

الحكمة والمصلحة إرادة أن يتذكروا فيفلحوا. وقرئ (وصّلنا) بالتشديد والتخفيف ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي القرآن ﴿هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب وأولياؤهم ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي القرآن ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أي منقادين له، لما عندنا من المبشّرات به. أو على دين الإسلام، وهو إخلاص الوجه له تعالى بدون شرك ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي الموصوفون بما ذكر من النعوت ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ يعني مرة على إيمانهم بكتابهم، ومرة على إيمانهم بالقرآن ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بصبرهم وثباتهم على الإيمانيْن. أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده. أو على أذى من نابذهم ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ أي يدفعون ﴿بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي بالحكمة الطيبة، ما يسوؤهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي للبؤساء والفقراء، وفي سبيل البرّ والخير، فراراً عن وصمة الشحّ، وتنبهاً لآفاته. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ أي من الجهال. وهو كل ما حقه أن يلغى ويترك، من العبث وغيره ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي تكريماً للنفس عن ملابسة الأدنياء، وتشريفاً للسمع عن سقط باطلهم ﴿وَقَالُوا﴾ أي لهم ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي بطريق التوديع والمتاركة؛ وعن الحسن رضي الله عنه: كلمة حلم من المؤمنين ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي لا نريد مخالطتهم وصحبتهم، ولا نريد مجازاتهم بالباطل على باطلهم. قال الرازي: قال قوم: نسخ ذلك بالأمر بالقتال. وهو بعيد. لأن ترك المسافهة مندوب. وإن كان القتال واجباً.

تنبيه:

قال ابن كثير عن سعيد بن جبير: إنها نزلت في سبعين من القسيسين. بعثهم النجاشي. فلما قدموا النبيّ ﷺ قرأ عليهم ﴿يس وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١-٢]، حتى ختمها. فجعلوا يبكون وأسلموا.

وقال محمد بن إسحاق في (السيرة): ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة، عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة. فوجدوه في المسجد. فجلسوا إليه وكلّموه وسالوه. ورجال من قريش في أنديتهم. حول الكعبة. فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع. ثم استجابوا لله وآمنوا به، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره. فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش. فقالوا لهم: خيّبكم الله من ركب.

بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم، لتأتوهم بخبر الرجل. فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال. ما نعلم ركباً أحمق منكم. أو كما قالوا لهم. فقالوا لهم: سلام عليكم. لا نجاهلكم. لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً.

قال: ويقال إن النفر النصارى من أهل نجران. فاللّه أعلم أيّ ذلك كان.

قال: ويقال، واللّه أعلم، إن فيهم نزلت هذه الآيات ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ** ﴾.

قال: وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه رضي اللّه عنهم. والآيات اللاتي في سورة المائدة ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً ﴾ [المائدة: ٨٢]، إلى قوله ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣].

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾

﴿ **إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ أي لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ أي أن يهديه فيدخله في الإسلام بعنايته ﴿ **وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ أي القابلين للهداية. لاطلاعه على استعدادهم وكونهم غير مطبوع على قلوبهم.

تنبيه:

روى البخاري[١] في (صحيحه) في تفسير هذه الآية عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول اللّه ﷺ فوجد عنده أبا جهل

---

(١) أخرجه في: التفسير، ٢٨- سورة القصص، ١- باب قوله ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، حديث ٧١٧.

وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة. فقال: أي عم! قل لا إله إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب. وأبى أن يقول لا إله إلا الله.

قال فقال رسول الله ﷺ: والله! لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك. فأنزل الله ﴿مَاكَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّه يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

قال ابن كثير: وهكذا رواه مسلم[١] في صحيحه والترمذي[٢] أيضاً من حديث يزيد بن كيسان عن أبي حازم، عن أبي هريرة. والإمام أحمد من حديثه أيضاً، وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبيّ وقتادة: إنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه الإسلام. انتهى.

وقال ابن حجر في (فتح الباري): لم تختلف النقلة في أنها نزلت في أبي طالب. انتهى. وقدمنا مراراً معنى قولهم نزلت الآية في كذا. فانظر المقدمة، وغير موضع بعدها.

ثم ذكر تعالى من تعنتهم، شبهة استروح بها الحارث بن عامر بن نوفل، فيما رواه النسائي، قوله سبحانه: **﴿وَقَالُواْ إن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ﴾** أي ونخالف العرب **﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾** أي مكة. فرد عليهم تعالى بقوله: **﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءَامِناً﴾** أي: ألم نعصمهم من عدوّهم ونجعل مكانهم حرماً ذا أمَن، لحرمة البيت الحرام، الذي تتناجز العرب حوله وهم آمنون **﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** أي جهلة لا يتفكرون. ولو علموا أن ذلك رزق من عند الله، لعلموا أن الخوف والأمن من عنده، ولما خافوا التخطف إذ آمنوا به وخلعوا أنداده. **﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾** أي كفرت بها فلم تحفظ حق الله فيها فدمرت **﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾** أي منهم. إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم. وموصوف (قليلاً) المستثنى، إما (زمان) أي إلا

---

(١) أخرجه في: الإيمان، حديث ٣٩.
(٢) أخرجه في: التفسير، ٢٨- سورة القصص.

زماناً قليلاً، إذ لا يسكنها إلا المارّة يوماً أو بعض يوم. وإما (مكان) أي إلا مكاناً قليلاً يصح لسكنى البعض، واندثر الباقي. أو (مصدر) أي سكناً قليلاً من شؤم معاصيهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾

﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءايَاتِنَا**﴾ أي الناطقة بالحق. ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب. وذلك لإلزام الحجة وقطع المعذرة ﴿**وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**﴾ أي بالكفر بالآيات وتكذيب الرسل سعياً بالفساد، وإباء عن سبيل الصلاح والرشاد ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا**﴾ أي فهو مما يتمتع ويتزين به أياماً قلائل. وهي مدة الحياة المقتضية ﴿**وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ**﴾ أي متاعاً وزينة في نفسه، لخلوّه عن شوائب الألم ﴿**وَأَبْقَى**﴾ لأنه أبدي لا يزول ﴿**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً**﴾ أي بإيمانه وعمله الصالح ﴿**فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**﴾ أي من الذين أحضروا للحساب أو للنار أو العذاب.

قال الشهاب: وقد غلب لفظ (المحضر) في القرآن في المعذَّب. وإليه أشار الزمخشريّ، وصرح به في البحر ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ

صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾

﴿ **قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ** ﴾ أي وجب وثبت مقتضاه. وهو لحوق الوعيد بهم. والمراد بهم، رؤساء الضلال، وقادة الكفر والفساد ﴿ **رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا** ﴾ أي أضللناهم. قال أبو السعود: ومرادهم بالإشارة، بيان أنهم يقولون ما يقولون بمحضر منهم. وأنهم غير قادرين على إنكاره وردّه ﴿ **أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا** ﴾ أي أضللناهم بالوسوسة والتسويل، كما ضللنا باختيارنا، وإيثار ما يفنى على ما يبقى ﴿ **تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ** ﴾ أي من الكفر والشرك والمعاصي. أو منهم ومما اختاروه ﴿ **مَا كَانُواْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ** ﴾ أي بل كانوا يعبدون أهواءهم وشهواتهم ﴿ **وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ** ﴾ ليشفعوا لكم ﴿ **فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ** ﴾ أي تمنوا ذلك لينقذوا من العذاب العظيم ﴿ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ أي الداعين إلى الهداية وإصلاح الأعمال والأخلاق ﴿ **فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ** ﴾ أي فصارت الأنباء كالعُمي عليهم لا تهتدي إليهم. وأصله (فعموا عن الأنباء) لكنه عكس مبالغة. قال الشهاب: ففيه استعارة تصريحية تبعية. استعير العمى لعدم الاهتداء. فهم لا يهتدون للأنباء. ثم قلب للمبالغة. فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم. وضمن معنى الخفاء. فعدّى بـ(على). ففيه أنواع من البلاغة: الاستعارة والقلب والتضمين. والمراد بالأنباء ما أجابوا به الرسل. أو ما يعمها وغيرها من كل ما يمكن الجواب به ﴿ **فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ** ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب، لفرط الدهشة. أو لعلمه بأنه مثله في العجز عن الجواب. أو لعجزهم عن النطق وكونهم مختوماً على أفواههم. ثم إن هذا العيد لاحقٌ للمصرّ ﴿ **فَأَمَّا مَن تَابَ** ﴾ أي من الشرك ﴿ **وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ** ﴾ أي أن يفلح عند الله. و (عسى) من الكرام تحقيق. ويجوز أن يراد ترجي التائب وطمعه. كأنه قال: فليطمع أن يفلح. قاله الزمخشري ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ** ﴾ أي بمقتضى مشيئته وعنايته، ما يريد ﴿ **مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ** ﴾ أي في ذلك. بل الخيرة له في أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه.

قال الزمخشري: الخيرة من التخير، كالطيرة من التطير، تستعمل بمعنى المصدر وهو التخير، وبمعنى المتخير. كقولهم (محمد خيرة الله من خلقه) والقصد تقرير انفراده بالألوهية وحده. ولذا قال: ﴿ **سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ من الأصنام والأنداد التي لا تخلق شيئاً ولا تختار.

تنبيه:

للإمام ابن القيّم في مقدمة (زاد المعاد) مقالة في هذه الآية الكريمة، جديرة بأن تؤثر عنه. قال رحمه الله: وبعد. فإن الله سبحانه وتعالى هو المتفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات. قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ وليس المراد ههنا بالاختيار، الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار، وهو سبحانه كذلك. وليس المراد بالاختيار هنا هذا المعنى. وهذا الاختيار داخل في قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فإنه لا يخلق إلا باختياره. وداخل في قوله تعالى: ﴿مَا يَشَاءُ﴾ فإن المشيئة هي الاختيار. وإنما المراد بالاختيار هنا الاجتباء والاصطفاء. فهو اختيار بعد الخلق. والاختيار العام اختيار قبل الخلق. فهو أعم وأسبق. وهذا أخص وهو متأخر. فهو اختيار من الخلق والأول اختيار للخلق. وأصح القولين أن الوقف التام على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ويكون ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ نفياً. اي ليس هذا الاختيار إليهم، بل هو إلى الخالق وحده. فكما أنه هو المتفرد بالخلق، فهو المتفرد بالاختيار منه. فليس لأحد أن يخلق ولا يختار سواه. فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره ومحالّ رضاه، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له. وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه. وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل، إلى أن (ما) في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ موصولة وهي مفعول (يختار) أي ويختار الذي لهم الخيرة. وهذا باطل من وجوه:

أحدها - أن الصلة حينئذ تخلو من العائد. لأن الخيرة مرفوع بأنه اسم (كان) و (لهم) خبره. فيصير المعنى: ويختار الذي كان الخيرة لهم. وهذا التركيب محال من القول. فإن قيل: يمكن تصحيحه بأن يكون العائد محذوفاً، ويكون التقدير: ويختار الذي كان لهم الخيرة فيه. أي ويختار الأمر الذي كان لهم الخيرة في اختياره. قيل: هذا يفسد من وجه آخر. وهو أن هذا ليس من المواضع التي يجوز فيها حذف العائد. فإنه إنما يحذف مجروراً إذا جر بحرف جر الموصول بمثله، مع اتحاد المعنى نحوه قوله تعالى: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ ونظائره. ولا يجوز أن يقال جاءني الذي مررت، ورأيت الذي رغبت، ونحوه.

الثاني - أنه لو أريد هذا المعنى لنصب (الخيرة) وشغل فعل الصلة بضمير يعود على الموصول. فكأنه يقول: ويختار ما كان لهم الخيرة. أي الذي كان هو عين الخيرة لهم. وهذا لم يقرأ به أحد البتة. مع أنه كان وجه الكلام على هذا التقدير.

الثالث - أن الله سبحانه يحكي عن الكفار اقتراحهم في الاختيار وإرادتهم أن

يكون الخيرة لهم. ثم ينفي هذا سبحانه عنهم، ويبيِّن تفرده بالاختيار، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً، وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢]، فأنكر عليهم سبحانه تخيرهم عليه. وأخبر أن ذلك ليس إليهم. بل إلى الذي قسم بينهم معايشهم المتضمنة لأرزاقهم ومدد آجالهم. وكذلك هو الذي يقسم فضله بين أهل الفضل، على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلح له ممن لا يصلح. وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات. وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل. فهو القاسم ذلك وحده لا غيره. وهكذا هذه الآية. بيّن فيها انفراده بالخلق والاختيار. فاللّه سبحانه أعلم بمواقع اختياره كما قال: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّه. اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤]، أي اللّه أعلم بالمحل الذي يصلح لاصطفائه وكرامته وتخصيصه بالرسالة والنبوة، دون غيره.

الرابع – أنه نزه نفسه سبحانه عما اقتضاه شركهم من اقتراحهم واختيارهم فقال ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللّه وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولم يكن شركهم مقتضياً لإثبات خالق سواه، حتى نزه نفسه عنه. فتأمله فإنه في غاية اللطف.

الخامس – إن هذا نظير قوله في الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّه لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِنَّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٧٣-٧٤]، ثم قال: ﴿اللّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ، إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَإِلَى اللّه تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [الحج:٧٥-٧٦]، وهذا نظير قوله في القصص ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص:٦٩]، ونظير قوله في الأنعام ﴿اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فأخبر في ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محالّ اختياره، بما خصصها به بعلمه، بأنه يصلح له دون غيرها فتقدير السياق في هذه الآيات تجده متضمناً لهذا المعنى دائراً عليه. واللّه أعلم.

السادس – إن هذه الآية مذكورة عقيب قوله: ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً**

﴿فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ فكما خلقهم وحده سبحانه، اختار منهم من تاب وآمن وعمل صالحاً، فكانوا صفوته من عباده، وخيرته من خلقه، وكان هذا الاختيار راجعاً إلى حكمته وعلمه سبحانه، لمن هو أهل له. لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم. فسبحان الله وتعالى عما يشركون.

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (فصل) فإذا تأملت أحوال هذا الخلق رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه، دالاً على ربوبيته تعالى ووحدانيته وكمال حكمته وعلمه وقدرته. وأنه اللهّ الذي لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلق كخلقه، ويختار كاختياره، ويدبر كتدبيره. فهذا الاختيار والتدبير والتخصيص، المشهور أثره في هذا العالم، من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وصفات كماله وصدق رسوله. فنشير منه إلى شيء يسير يكون منبهاً على ما وراءه، دالاً على ما سواه. فخلق الله السموات سبعاً. فاختار العليا منها فجعلها مستقرَّ المقربين من ملائكته واختصها بالقرب من كرسيّه ومن عرشه. وأسكنها من شاء من خلقه. فلها مزية وفضل على سائر السموات. ولو لم يكن إلا قربها منه تبارك وتعالى. وهذا التفضيل والتخصيص، مع تساوي مادة السموات، من أبين الأدلة على كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء ويختار. ومن هذا تفضيله سبحانه جنة الفردوس على سائر الجنان، وتخصيصها بأن جعل عرشه سقفها. وفي بعض الآثار: إن الله سبحانه غرسها بيده واختارها لخيرته من خلقه. ومن هذا اختياره من الملائكة، المصطفين منهم على سائرهم. كجبريل وميكائيل وإسرافيل. وكذلك اختياره سبحانه للأنبياء من ولد آدم. واختيار الرسل منهم واختياره أولي العزم منهم. واختياره منهم الخليلين إبراهيم ومحمدا صلى الله عليهم وسلم. ومن هذا اختياره سبحانه ولد إسماعيل من أجناس أنواع بني آدم. ثم اختار منهم بني كنانة بن خزيمة. ثم اختار من ولد كنانة قريشاً. ثم اختار من قريش بني هاشم. ثم اختار من بني هاشم، سيد ولد آدم محمداً ﷺ. وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين. واختار منهم السابقين الأولين. واختار منهم أهل بدر وأهل بيعة الرضوان. واختار لهم من الدين أكمله، ومن الشرائع أفضلها، ومن الأخلاق أزكاها وأطيبها وأطهرها. واختار أمته ﷺ على سائر الأمم. ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها. وهي البلد الحرام. فإنه سبحانه اختاره لنبيّه، وجعله مناسك لعباده. وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق. فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين،

كاشفي رؤوسهم، متجردين عن لباس أهل الدنيا. وجعله حرماً آمناً لا يسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة، ولا ينفر له صيد ولا يختلى خلاه، ولا يلتقط لُقَطته للتملك. بل للتعريف ليس إلا. ومن هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض. فخير الأيام عند الله يوم النحر. وهو يوم الحج الأكبر كما في (السنن). وأفضل الشهور شهر رمضان. وعشره الأخير أفضل الليالي. وليلة القدر أفضل من ألف شهر. ويوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع. ويوم عرفة ويوم النحر أفضل أيام العام. انتهى ملخصاً.

وقد أوسع المقال وجوّد الاستدلال. فرحمه الله ورضي عنه وأرضاه. وقوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ اللَّهِ** ﴾ أي تنزيهاً لله الذي لا يزاحم اختياره اختيارٌ ﴿ **وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾

﴿ **وربُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ** ﴾ أي تخفي ﴿ **صُدُورُهُمْ** ﴾ أي من الكيد المكر ﴿ **وما يُعْلِنُونَ** ﴾ أي من الأقوال والأفعال ﴿ **وهُوَ اللَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ** ﴾ أي وهو المستحق للألوهية والعبادة وحده ﴿ **لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالآخِرَةِ** ﴾ أي لأنه المولى للنعم كلها في الدارين ﴿ **وَلَهُ الْحُكْمُ** ﴾ أي القضاء النافذ في كل شيء. يقهر كل شيء على مقتضى مشيئته. ويحكم عليه بموجب إرادته ﴿ **وإلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ أي بالبعث للجزاء ﴿ **قُلْ أَرءَيْتُم إن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يأْتيكُم بضِياءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ** ﴾ أي هذا الكلام الحق، سماع تدبر.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ

جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٧٥﴾ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾

﴿ قُلْ أَرَءيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ أي هذه المنفعة فتقوموا بشكرها ﴿ وَمِن رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ أي في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي في النهار ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي نعمه الظاهرة والباطنة، والجسمانية والروحانية، باستعمالها فيما وجب من طاعته. وذلك فيما خلقت له ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ وَنَزَعْنَا ﴾ أي وأخرجنا ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ أي نبياً يشهد عليهم بما كانوا عليه. كقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ [النساء: ٤١]، ﴿ فَقُلْنَا ﴾ أي لكل أمة من تلك الأمم ﴿ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ أي على ما أنتم عليه. أحق هو أم لا؟ فعجزوا عن آخرهم. وظهر برهان النبيّ، كما قال تعالى: ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أي في الألوهية، لا يشاركه فيها أحد ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي غاب عنهم غيبة الضائع ﴿ مَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي من الباطل والمذاهب المختلفة، والطرق المتشعبة المتفرقة ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى ﴾ أي من شاكلتهم في الكفر والطغيان. وقوم موسى، جماعته الذين أرسل إليهم، وهم القبط وطاغيتهم فرعون ﴿ فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ أي بالكبر والاستطالة عليهم لما غلب عليه الحرص ومحبة الدنيا، لغرور وتعززه برؤية زينة نفسه ﴿ وَءاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ أي من الأموال المدخرة ﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ أي مفاتيح صناديقه. على حذف مضاف. أو الإضافة لأدنى ملابسة. وقيل خزائنه ﴿ لَتَنُوءُ ﴾ أي تثقيل ﴿ بِالْعُصْبَةِ ﴾ أي الجماعة الكثيرة من الرجال أو البغال ﴿ أُوْلِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ ﴾ أي بزخارف الدنيا فرحاً يشغلك عن الشكر فيها والقيام بحقها ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ أي هذا الفرح، لما فيه من إيثارها عن الآخرة، والرضا بها عنها، والإخلاد إليها. وذلك أصل كل شر ومبعث كل فساد.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)﴾

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ أي اطلب من الغني الذي تفضل الله به عليك، بعد الفاقة ﴿الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ أي بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب. وتجعله زادك إلى الآخرة ﴿وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو أن تأخذ منه ما يصلحك ويرفهك ﴿وَأَحْسِن﴾ أي إلى الناس. أو افعل الإحسان من وجوهه المعروفة ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ أي بهذا المال الذي جعله سبب صلاحها ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ أي بطرق التجارة أو المكاسب ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ﴾ أي مما سمع بالتواتر ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي الكثيرة، بحيث صارت سنة له ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ أي بالأموال والأتباع ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤال، ليعتذروا عنها. بل متى حق عليها القول بفسقهم، أهلكهم بغتة بلا معاتبة وطلب عذر. ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بذلك، ولا بنصيحة قومه، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)﴾

﴿فَخَرَجَ﴾ أي قارون باغياً ﴿عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ أي مُغْتَرّاً بالنظر فيها ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي جرياً على سنن الجبلة البشرية، من الرغبة في السعة واليسار ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي مما تتمنونه ﴿لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا﴾ أي هذه الكلمة التي فاه بها الذين أوتوا العلم. أو الجنة. أو السيرة والطريقة، وهي الإيمان والعمل الصالح ﴿إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ أي على الطاعات عن الشهوات، وعلى زمام النفس أن تجري في أعقاب المزخرفات. و (ويلك) في الأصل دعاء بالهلاك. والمراد به هنا الزجر عن هذا التمني، مجازاً. وهو منصوب على المصدرية ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ﴾ أي المشتملة على أمواله ﴿الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي بدفع العذاب عنه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ أي بقوة نفسه وما له ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي من شقيّ وسعيد ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يقبض. فلا دلالة في البسط على السعادة. ولا في القبض على الشقاوة. بل يفعل سبحانه كل واحد من البسط والقَدْر بمحض مشيئته، لا لكرامة توجب البسط، ولا لهوان يقتضي القبض ﴿لَوْلاَ أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي بعدم إيتائه متمنانا ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي كما خسف به ﴿وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي لنعمة اللّه، في صرفها في غير سبيلها. أو المكذبون برسله اغتراراً بزخارفهم.

فائدة:

في (ويكأن) مذاهب:

الأول – أن (وي) كلمة برأسها. وهي اسم فعل، معناها أعجب. أي أنا. والكاف للتعليل. و (أن) وما في حيزها مجرورة بها. أي أعجب لأن اللّه يبسط الرزق الخ. وقياس هذا القول أن يوقف على (وي) وحدها، وقد فعل ذلك الكسائيّ.

الثاني – أنه مركب من (وي) للتعجب (وكأن) للتشبيه. والمعنى: ما أشبه الأمر أن اللّه يبسط. أي ما أشبه أمر الدنيا والناس مطلقاً إلى آخرٍ، أمرَ قارون وما شوهد من قصته. والأمر مأخوذ من الضمير. فإنه للشأن. والمراد من تشبيه الحال بهذه الحال، أنه لتحققه وشهرته، يصلح أن يشبه به كل شيء. كما أشار إليه في الكشف.

الثالث – قال بعضهم: (كأن) هنا للتشبيه. إلا أنه ذهب منها معناه. وصارت للخبر واليقين. وهذا أيضاً يناسبه الوقف على (وي).

الرابع – زعم الهمداني في (الفرائد) أن مذهب سيبويه والخليل أن (وي)

للتندم. و(كأنّ) للتعجب. والمعنى: ندموا متعجبين في أن اللّه يبسط الخ.

قال الشهاب: وكون (كأن) للتعجب، لم يعهد.

الخامس – ذهب الكوفيون إلى أنه مركب من (ويك) بمعنى (ويلك) فخفف بحذف اللام. والعامل في (أن) اعلم، المقدر. والكاف على هذا ضمير في محل جرّ. وهذا يناسب الوقف على الكاف. وقد فعله أبو عمرو.

السادس – أن (ويك) كلمة برأسها. والكاف حرف خطاب. ويقرب هذا مما قبله. قال أبو البقاء: وهو ضعيف لوجهين: أحدهما أن معنى الخطاب هنا بعيد. والثاني – أن تقدير (وي) اعلم، لا نظير له، وهو غير سائغ في كل موضع. انتهى.

السابع – أن (ويكأن) كلها كلمة مستقلة بسيطة. ومعناها ألم تر. وربما نقل ذلك عن ابن عباس. ونقل الفرّاء والكسائيّ أنها بمعنى (أما ترى إلى صنع اللّه) وحكى ابن قتيبة أنها بمعنى (رحمة لك) في لغة حمير. ولم يرسم في القرآن إلا (ويكأن) و(ويكأنه) متصلة في الموضعين. فعامة القراء اتبعوا الرسم. والكسائيّ وقف على (وي) وأبو عمرو على (ويك).

وهذا ما يستفاد من حواشي القاضي والسمين. وعندي أنها مركبة من (وي) للتعجب و (كأن) التي للتحقيق وهي أحد معانيها المعروفة. والوقف على (وي). ولا يشكل على ذلك كتابتها في المصاحف متصلة، لأن الكتابة – كما قال ابن كثير – أمر وضعيّ اصطلاحيّ، والمرجع إلى اللفظ العربي.

وقد اتفق اللغوين على أن (وي) كلمة تعجب. يقال (ويك) و(وي لزيد) وتدخل على (كأن) المخففة والمشددة، ومن شواهد الأولى قول الشاعر:

سَألَتَاني الطلاقَ. أَنْ رأَتَاني ... قَلَّ مَالي. قد جئتماني بنُكْرِ
ويْ كأنْ من يكُنْ له نَشَبٌ يُحْـ ... ـبَبْ ومن يَفْتَقِرْ يَعِشْ عيشَ ضُرِّ

وهذا البيت مما يدل على ما استظهرته، بلهَ الاستعمال إلى هذه الأجيال.

قال ابن كثير: وقد ذكر ههنا إسرائيليات، أضربنا عنها صفحاً. ونحن تأسينا به، بل فقناه في الإضراب عن كثير من مرويّه، الموقوف والضعيف الذي سوّدت به الصحف.

ثم أشار تعالى إلى مقابل حال قارون، من حال خلص عباده، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ**﴾ أي غلبة وتسلطاً بسوء وتكبّر ﴿**وَلاَ فَسَاداً**﴾ أي بظلم وعدوان وصدّ عن سبيل اللّه تعالى ﴿**وَالْعَاقِبَةُ**﴾ أي النهاية الحميدة ﴿**لِلْمُتَّقِينَ**﴾ أي الذين يتقون ما لا يرضاه تعالى من الأقوال والأفعال.

قال الزمخشري، قدس اللّه روحه: لم يعلق الموعد بترك العلوّ والفساد. ولكن بترك إرادتهما، وميل القلوب إليهما. كما قال: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هود:١١٣]، فعلق الوعيد بالركون. وعن عليّ رضي اللّه عنه: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه. فيدخل تحتها.

وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال: ذهبت الأماني ها هنا. وعن عمر بن عبد العزيز، أنه كان يرددها حتى قبض. ومن الطُّمَّاع من يجعل العلوّ لفرعون، والفساد لقارون، متعلقاً بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:٤]، ﴿وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:٧٧]، ويقول: من لم يكن مثل فرعون وقارون، فله تلك الدار الآخرة. ولا يتدبر قوله: ﴿**وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ كما تدبره عليّ والفضيل وعمر رضي اللّه عنهم. ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا، وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ معناه: فلا يجزون إلا.. الخ. فوضع فيه الموصول والظاهر، موضع الضمير، لتهجين حالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم، ولزيادة تبغيض السيئة إلى قولب السامين. ومعنى قوله: ﴿**إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ أي مثله. وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع، أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها. ويجزي الحسنة بعشر أمثالها وسبعمائة. وهو معنى قوله: ﴿**فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا**﴾ كذا في الكشاف.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا

رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ﴾ أي أوجب عليك تلاوته على الناس، وتبليغه إليهم، وصدعهم به ﴿لَرَآدُّكَ﴾ أي بعد الموت ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي مرجع عظيم. وهو المقام المحمود الذي وعدك أن يبعثك فيه. فتنوينه للتعظيم. ووجهه – كما في (العناية) – أن المعاد صار كالحقيقة في المحشر. لأنه ابتداء العود إلى الحياة، ورده إلى ما كان عليه فجعل معاده عظيماً لعظمة مقامه فيه.

وقال ابن كثير: المعاد هو يوم القيامة. يسأله عما استرعاه من أعباء النبوّة. كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩]، وقال ﴿وَجِاْيٓءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر:٦٩] وعن ابن عباس روايات: إلى يوم القيامة. إلى الموت. إلى الجنة أخرجت عنه من طرق. كما أسنده ابن كثير.

والذي رواه البخاري والنسائي وابن جرير عن ابن عباس قال: (لرادك) إلى مكة كما أخرجك منها. وعن الضحاك قال: لما خرج النبيّ ﷺ من مكة فبلغ الجحفة، اشتاق إلى مكة. فنزلت الآية.

قال ابن كثير: وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية، وإن كان مجموع السورة مكيّاً، والله أعلم.

ثم قال: ووجه الجمع بين هذه الأقوال، أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة، وهو الفتح، الذي هو عند بن عباس أمارة على اقتراب أجل النبيّ ﷺ. كما فسر ابن عباس سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) أنه أجل رسول الله ﷺ نعي إليه، وكان ذلك بحضرة عمر ابن الخطاب ووافقه عمر على ذلك، وقال: لا أعلم منها غير الذي تعلم. ولهذاا فسر بن عباس تارة أخرى قوله تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ بالموت. وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت. وتارة بالجنة التي هي جزاؤه على أدائه رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين الجن والإنس. ولأنه أكمل خلق الله على الإطلاق. انتهى. ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾ يعني نفسه الكريمة. أي بما يستحقه من المثوبة ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يعني المشركين. أي بما يستحقونه من العذاب. والجملة تقرير للوعيد السابق ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُواْ أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي ما كنت تظن، قبل

إنزال الوحي إليك، أن الوحي ينزل عليك ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِن رَبِّكَ﴾ أي ولكن لرحمة من ربك ألقي إليك ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ أي معيناً لهم. ولكن نابذهم وخالفهم. وحكى الكرماني في (الغرائب) أن معناه: فلا تكن بين ظهرانيهم، وأنه أمر بالهجرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

﴿وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي عن تبليغها بعد إنزالها، والأمر بالصدع بها لضيق صدرك من مكرهم. فإن اللّه معك، ومُعْلٍ كلمتك ومؤيد دينك. ولذا قال: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي إلى عبادته وحده لا شريك له ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ﴾.

قال القاضي: هذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشركين من مساعدته لهم. أي لأنه لا يتصور منه ذلك حتى ينهى عنه. فكأنه لما نهاه عن مظاهرتهم ومداراتهم، قال إن ذلك مبغوض لي كالشرك. فلا تكن ممن يفعله. أو المراد نهي أمته، وإن كان الخطاب له ﷺ. كذا في (العناية).

﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ أي إياه و (الوجه) يعبر به عن الذات كما قال ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، وفي قوله تعالى: ﴿هَالِكٌ﴾ وجوه: حمله على المستقبل، أو هو عرضة للهلاك والعدم، أو هالك في حد ذاته، لأن وجوده ليس ذاتياً بل لاستناده إلى واجب الوجود، فهو بالقوة وبالذات معدوم حالاً. والمراد بالمعدوم ما ليس له وجود ذاتي. لأن وجود غيره كلا وجود. إذ هو في كل آن قابل للعدم. وعن مجاهد والثوريّ (إلا وجهه) أي ما أريد به وجهه. حكاه[1] البخاري في (صحيحه).

قال ابن جرير: ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر:

أستغفرُ اللّه ذنباً، لست مُحْصِيَهُ   رَبُّ العبادِ، إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

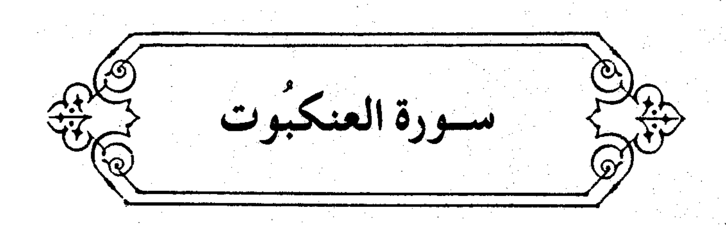
---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٢٨- سورة القصص.

قال ابن كثير: وهذا القول لا ينافي القول الأول. فإن هذا إخبار عن كل الأعمال، بأنها باطلة، إلا ما أريد به وجه اللّه تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة. انتهى.

وفيه بُعد وتكلف يذهب رونق النظم، وماء الفصاحة. لا سيما وآي التنزيل يفسر بعضها بعضاً. والآية الثانية التي ذكرناها بمعنى هذه. وتلك لا تحتمل ذاك المعنى، فكذا هذه ﴿**لَهُ الْحُكْمُ**﴾ أي القضاء النافذ في الخلق ﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ أي يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة العنكبوت

سميت بها لاسشتمالها على آية ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، الآية، المشير إن من اعتمد على قوة الأصنام وحفظها عن العذاب كالعنكبوت، اعتمدت على قوة بيتها التي لا تحتمل مسّ أدنى الحشرات والرياح، وحفظها عن الحر والبرد. وهذا أتمّ في الدعوة إلى التوحيد الذي هو أعظم مقاصد القرآن. أفاده المهايمي.

وهي مكيّة. واستثني من أولها إلى قوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]، وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، الآية ويقال إنها آخر ما نزل بمكة. وآيها تسع وستون. قال الداني: متفق عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾

﴿**آلم أَحسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ**﴾ أي أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم، وأظهروا القول بالإيمان، أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين، بل يمحنهم الله بضروب المحن، حتى يبلو صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم. لتمييز المخلص من غير المخلص. كما قال ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً، وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦]، وكقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ، أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤]، وكل هذه الآيات وأمثالها مما نزل بمكة في تثبيت قلوب المؤمنين، وتصبيرهم على ما كان ينالهم. من أذى المشركين ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ أي من أتباع الأنبياء عليهم السلام، بضروب من الفتن من أعدائهم، كما دوّن التاريخ اضطهادهم. أي فصبروا وما وهنوا لما أصابهم حتى علت كلمة الله ﴿**فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ**﴾ أي في قولهم ﴿**ءامَنَّا**﴾ ﴿**وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ أي فيه: وذلك بالامتحان.

فإن قيل: يتوهم من صيغة الفعل أن علمه حدث، مع أنه قديم. إذ علمه بالشيء قبل وجوده وبعده، لا يتغير. يجاب بأن الحادث هو تعلق علمه بالمعلوم بعد حدوثه.

وقال الناصر: فائدة. ذكر العلم ها هنا، وإن كان سابقاً على وجود المعلوم هو التنبيه بالسبب على المسبب. وهو الجزاء كأنه قال تعالى: (ليعلمنهم فليجازينهم بحسب علمه فيهم).

وقال المهايمي: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ أي يظهر علمه عند خلقه بصدق إيمان ﴿الَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ فيه، بدلالة ثباتهم عليه عند المصائب ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ أي وليظهر علمه بكذب دعوى ﴿الْكَاذِبِينَ﴾ لئلا يشهدوا عنده بإيمان الكاذبين، فينسب في تعذيبهم إلى الظلم. وليثق المؤمنون بمحبة الصادقين، ويستظهروا بها، ويحذروا عن مكر الكاذبين. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَات أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي يفوتونا، فلا نقدر على مجازاتهم بمساوئ أعمالهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس الذي يحكمونه حكمهم ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي في الجنة من رؤيته، والفوز بكرامته ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ وَهُو الموت ﴿لآتٍ﴾ أي فليبادر ما يصدق رجاءه ويحقق أمله من الثبات والتواصي بالحق والصبر والرغبة فيما عنده تعالى. أو المعنى: من كان يرجو لقاء الله، من كل من صدق في إيمانه، وأخلص في يقينه، فاعلم أن أجل الله لآت. وهو الوقت الذي جعله أجلاً وغاية لظهور النصر والفتح وعلوّ الحق وزهوق الباطل. أي فلا يستبطئنّه. فإنه آت بوعد الله الحق وقوله الصدق. ولم أر من ذكره ولعله أنسب بقرينة السياق والسباق. والله أعلم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالهم العليم بضمائرهم وأحوالهم ﴿وَمَن جَاهَدَ﴾ أي في الصبر على البلاء والثبات على الحق مع ضروب الإيذاء ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِه﴾ أي لأنه يمهد لنفسه، ما يجني به ثمرة غرسه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ أي أمرناه أمراً مؤكداً بإيلاء والديه فعلاً ذا حسن عظيم ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾ أي في الشرك، إذا حملاك عليه. ومعنى ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي لا علم لك بإلهيته. قال القاضي: عبر عن نفيها بنفي العلم بها، للإيذان بأن ما لم يعلم صحته، لا يجوز اتباعه، وإن لم يعلم بطلانه. فكيف بما علم بطلانه؟ ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إليّ مرجع من آمن منكم ومن أشرك. فأجازيكم حق جزائكم. فيه التحذير من متابعتهما على الشرك والحث على الثبات والاستقامة في الدين، بذكر المرجع والوعيد. وقد روي أن سعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله عنه حين أسلم، قالت أمه: يا سعد! بلغني أنك قد صبأت. فوالله! لا يظلني سقف بيت من الضحّ والريح. وإن الطعام والشراب عليّ حرام، حتى تكفر بمحمد وكان أحب ولدها إليها. فأبى سعد. وبقيت ثلاثة أيام كذلك. فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه. فنزلت هذه الآية، والتي في لقمان، والتي في الأحقاف. فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها ويترضاها بالإحسان. وروى الترمذي عن سعد[1] قال: نزلت فيّ أربع آيات. فذكر قصته وقال: قالت أم سعد: أليس الله قد أمرك بالبر؟ والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت، أو تكفر. فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها. فنزلت هذه الآية.

قال ابن كثير: وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي أيضاً.

وقال الترمذي: حسن صحيح ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي في زمرة الراسخين في الصلاح والكمال.

قال الزمخشري: والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين، وهو متمنى أنبياء الله.

---

(١) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٢٩– سورة العنكبوت، حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى.

قال اللّه تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:١٩]، وقال في إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أو المعنى: في مدخل الصالحين وهي الجنة. وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء:٦٩]، الآية.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ**﴾ أي جعل ما يصيبه في الصرف عن الإيمان من ضروب الإيذاء، بسببه، مثل عذاب اللّه في الشدة والهول، فيرتد عن الدين. مع أن مقتضى إيمانه أن يصبر ويتشجع ويتلقى ما يناله في اللّه بالرضا، يرى العذاب فيه عذوبة والمحنة منحة. فإن العاقبة للتقوى وسعادة الدارين لأهلها ﴿**وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِن رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ**﴾ أي من التلبيس والإخلاص. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الحج:٢٢]، إلى قوله ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [الحج:١٢]، وكقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤١]، وقال تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة:٥٢].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

﴿**وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ أي بإخلاصهم ﴿**وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ**﴾ ثم بين

تعالى حمل كفار قريش لمن آمن على الكفر بالاستمالة، بعد بيان حملهم لهم عليهم بالأذية، بقوله: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ** ﴾ أي إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث، فتبعتها علينا وفي رقابنا.

قال ابن كثير: كما يقول القائل افعل كذا وخطيئتك في رقبتي. قال الله تعالى تكذيباً لهم ﴿ **وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ** ﴾ وهي أوزار أنفسهم ﴿ **وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ** ﴾ أي وأوزاراً أخر مع أوزار أنفسهم. يعني أوزار الإضلال والحمل على الكفر والصدّ عن سبيل الله. كما قال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥]، وفي الصحيح[1] (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً) ﴿ **وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ** ﴾ أي من الأكاذيب والأباطيل. ثم بين تعالى افتتان الأنبياء بأذية أممهم، إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار، تأكيداً الإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء، وحثاً لهم على الصبر تأسياً بالأنبياء، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً** ﴾ أي هذه الحادثة الهائلة موعظة

---

(١) أخرجه مسلم في: العلم، حديث ١٦. عن أبي هريرة.

﴿لِّلْعَالَمِينَ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾ أي كذباً، في تسميتها آلهة وشركاء لله، وشفعاء إليه ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُواْ عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُواْ لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَإِنْ تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِن قَبْلِكُمْ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينَ﴾ أي التبليغ الذي يزيل كل لبس وما عليه أن يصدقه قومه ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إرشاد إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه مع وضوح دليله، وذلك بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين. فالذي بدأ هذا، قادر على إعادته. فإنه سهل عليه، يسير لديه. فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ عطف على (أو لم يروا) لا على (يبدئ) لعدم وقوع الرؤية عليه. فهو إخبار بأنه تعالى يعيد الخلق قياساً على الابتداء. وقد جوز العطف على (يبدئ) بتأويل (الإبداء) بإبداء ما يشاهده، كالنبات وأوراق الأشجار وغيرهما. والإعادة بإنشائه تعالى كل سنة، مثل ما أنشأه في السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما. فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير ريب. فيصحّ حينئذ العطف.

قال الشهاب: لكنه غير ملاق لما وقع في غير هذه الآية.

قال: وبهذا التقرير سقط ما قيل: إن أريد بالرؤية العلم فكلاهما معلوم. وإن أريد الإبصار فهما غير مرئيين. مع أنه يجوز أن يجعل ما أخبر به الله تعالى لتحققه، كأنه مشاهد ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي ما ذكره، وهو الإعادة ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ أي كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتّى. فإن ترتيب النظر على السير في الأرض، مؤذن يتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ أي الخلق الآخر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي بعد النشأة الثانية، وهم المنكرون لها ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ وهم المؤمنون بها ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي بالتواري في الأرض، ولا بالتحصن في السماء التي هي أفسح منها، لو استطعتم الرقيّ فيها. أو القلاع الذاهبة فيها. فيكون المراد بالسماء ما ارتفع. وقيل: المعنى (ولا من في السماء) فحذف اسم الموصول وهو مبتدأ محذوف الخبر. والتقدير (ولا من في السماء بمعجزه) والجملة معطوفة على جملة (أنتم بمعجزين) وفيه تكلف وضعف صناعي ﴿وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ أي يدافع عنكم ما يراد بكم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم أشار تعالى إلى ما أجاب به قوم إبراهيم، بعد دعوته إياهم وعظاته البالغة، بقوله ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لتتوادّوا بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتها ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ

وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً﴾ أي تتجاحدون ما كان بينكم، ويلعن الأتباعُ المتبوعين، والمتبوعون الأتباعَ. كما قال تعالى: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنتْ أُخْتَهَا**﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿**الأَخلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾ [الزخرف: ٦٧]، ﴿**وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِن نَاصِرِينَ**﴾.

تنبيه:

قال السمين: في (ما) من قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا اتَّخَذْتُم**﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها – أنها موصولة بمعنى (الذي) والعائد محذوف، وهو المفعول الأول و ﴿**أَوْثَاناً**﴾ مفعول ثان. والخبر (مودة) في قراءة من رفع. والتقدير: إن الذي اتخذتموه أوثاناً مودة، أي ذو مودة، أو جعل نفس المودة مبالغة. ومحذوف على قراءة من نصب (مودة) أي: الذي اتخذتموه أوثاناً لأجل المودة لا ينفعكم، أو يكون عليكم، لدلالة قوله: ﴿**ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ**﴾.

والثاني – أن تجعل (ما) كافة، و(أوثاناً) مفعول به. و (الاتخاذ) ها هنا متعد لواحد. أو لاثنين، والثاني هو (من دون الله) فمن رفع (مودة) كانت خبر مبتدأ مضمر، أي هي مودة أي ذات مودة. أو جعلت نفس المودة مبالغة. والجملة حينئذ صفة لـ (أوثاناً) أو مستأنفة. ومن نصب كان مفعولاً له، أو بإضمار (أعني).

الثالث – أن تجعل (ما) مصدرية، وحينئذ يجوز أن يقدر مضاف من الأول. أي: أن سبب اتخاذكم أوثاناً مودة، فيمن رفع (مودة) ويجوز أن لا يقدر، بل يجعل نفس الاتخاذ هو المودة مبالغة. ومن القراء من رفع (مودة) غير منونة وجرّ (بينكم) ومنهم من نصب (مودة) منوّنة ونصب (بينكم) ومنهم من نصب (مودة) منونة وجرّ (بينكم). فالرفع تقدم. والنصب تقدم أيضاً فيه وجهان. وجوّز ثالث، وهو أن يجعل مفعولاً ثانياً عن المبالغة والإضافة، للاتساع في الظرف.

ونقل عن عاصم أنه رفع (مودة) غير منونة ونصب (بينكم) وخرجت على إضافة (مودة) للظرف. وإنما بني لإضافته إلى غير متمكن.

وأشار العلامة القاشاني إلى جواز أن يكون قوله تعالى: ﴿**فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ خبراً لـ (ما) إن كانت اسمية. وهو وجه لم يتعرض له المعرِبُون هنا، ولا مانع منه. وعبارته:

إنما اتخذتم من دون الله، شيئاً عبدتموه مودوداً فيما بينكم (في الحياة الدنيا) أو: إن كل ما اتخذتم من دون الله، شيئاً مودوداً فيما بينكم في الحياة الدنيا، أو: إن كل ما اتخذتم أوثاناً مودود في هذه الحياة الدنيا. أو لمودة بينكم في هذه، على القراءتين.

ثم قال: والمعنى أن المودة قسمان: مودة دنيوية، ومودة أخروية. والدنيوية منشؤها النفس، والأخروية منشؤها الروح. فكل ما يحب ويودّ من دون اللّه، لا للّه ولا بمحبة اللّه، فهو محبوب بالمودة النفسية. وهو هوى زائل، كلما انقطعت الوصلة البدنية زالت ولم تصل إلى إحدى القيامات، فإنها نشأت من تركيب البدن واعتدال المزاج. فإذا انحلّ التركيب وانحرف المزاج، تلاشت وبقي التضادّ والتعاند، بمقتضى الطبائع، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية. ولهذا شبهها ببيت العنكبوت في الوهن.

وأما الأخروية فمنشؤها المحبة الإلهية. وتلك المودة هي التي تكون بين الأصفياء والأولياء، لتناسب الصفات، وتجانس الذوات، لا تتصفى غاية الصفاء إلا عند زوال التركيب. فيصير يوم القيامة محبة صرفة الهيئة، بخلاف تلك. انتهى.

﴿فَآمَنَ لَهُ﴾ أي صدق إبراهيم فيما دعاه إليه ﴿لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ أي من أرض قومي ﴿إِلَى رَبِّي﴾ أي لا إلى غيره بل إلى عبادته وإقامة شعائر دينه والقيام بدعوة الخلق إلى الحق من شرعه وتوحيده ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ أي لإبراهيم ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي ولداً ونافلة، بمباركة الذرية ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي بإيتاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملك إليه والثناء إلى آخر الدهر والصلاة عليه ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي الفعلة المتناهية في القبح ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي لتحاشي الطباع عنها. ثم فصّلها بعد الإجمال، لزيادة تنفير النفوس منها ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ أي سبيل النسل بإتيان ما ليس بحرث. أو بعمل قطاع الطريق من قتل الأنفس وأخذ الأموال ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ أي ما لا يليق من الأقوال والأفعال ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا

ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾

﴿**قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ**﴾ أي الذين يفسدون كل برهان عقليّ ونقليّ، وكل حكمة إلهية ﴿**وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى**﴾ أي بالبشارة بالولد والنافلة، وهم الملائكة. بعثوا لنصر لوط وتبشيره بهلاك قومه ﴿**قَالُواْ**﴾ أي لإبراهيم عليه السلام ﴿**إِنَّا مُهْلِكُواْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ**﴾ أي قرية سدوم ﴿**إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَالِمِينَ**﴾ أي بتنزيلهم الرجال منزلة النساء، وقطع السبل، وفعل المنكر وترك المعروف ﴿**قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**﴾ أي الباقين في العذاب أو القرية ﴿**وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا**﴾ أي المذكورون بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه السلام ﴿**لُوطاً سِيءَ بِهِمْ**﴾ أي اعترته المساءة بسببهم مخافة أن يقصدوهم ﴿**وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً**﴾ أي ضاق بشأنهم ذرعه، أي طاقته ﴿**وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ**﴾ أي مما يصيبهم من العذاب ﴿**إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾

﴿**إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ**﴾ أي عذاباً عظيماً من جهتها ﴿**بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ يعني قصتها العجيبة، أو آثارها الخربة ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَارْجُواْ الْيَوْمَ الآخِرَ**﴾ أي توقعوه، وما سيقع فيه من فنون الأهوال ﴿**وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ أي بالبغي على أهلها، كنقص المكيال والميزان، وقطع الطريق على الناس، فإن عاقبة ذلك الدمار ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ**﴾ أي الصيحة التي هي منشأ الزلزلة الشديدة ﴿**فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ**﴾ أي بلدهم أو منازلهم ﴿**جَاثِمِينَ**﴾ أي هلكى ميتين ﴿**وَعَاداً وَثَمُوداْ وَقَد تَبَيَّنَ لَكُم مِن مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ**﴾ أي عقلاء متمكنين من النظر والافتكار بواسطة الرسل عليهم السلام،

فإنهم أوضحوا السبل، فلم يكن لهم في ذلك عذر، ولكنهم لم يفعلوا، عناداً وكبراً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

﴿ **وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَات فَاسْتَكْبَرُواْ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ** ﴾ أي فائتين الله سبحانه. بل لحقهم عذابه فدمرهم تدميراً. ولذا قال ﴿ **فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنبِه فَمِنهُم مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْه حَاصِباً** ﴾ أي ريحاً عاصفاً، فيها حصاء، وهم قوم لوط ﴿ **وَمِنْهُم مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ** ﴾ كمدين وثمود ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِه الأَرْضَ** ﴾ كقارون ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا** ﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه ﴿ **وَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ أي يفعل ما يوجب ذلك، من البغي والفساد.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّه أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوت اتَّخَذَتْ بَيْتاً** ﴾ أي تعتمد على قوته وتظنه محيطاً بها، دافعاً عنها الحرّ والبرد ﴿ **وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوت** ﴾ أي أضعفها ﴿ **لَبَيْتُ الْعَنكَبُوت** ﴾ أي لأنه لا يحتمل مسّ أدنى الحيوانات وأضعف الرياح. ولا يدفع شيئاً من الحرّ والبرد. وهذا مثلهم ﴿ **لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ** ﴾ أي شيئاً ما. أو إن أولياءهم أوهي من ذلك ثم الغرض من التشبيه هو تقرير وهن دينهم، وإنه بلغ الغاية فيه، وهو إما تشبيه مركب من الهيئة المنتزعة، فمدار قطب التمثيل على أن أولياءهم بمنزلة نسج العنكبوت في ضعف الحال وعدم الصلاحية للاعتماد. وعلى هذا فقوله: ﴿ **وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوت** ﴾ تذييل يعرّف الغرض من التشبيه. وقوله ﴿ **لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ** ﴾ إيغال في تجهيلهم. لأنهم لا يعلمونه مع وضوحه لدى من له أدنى مسكة. وإما أن يكون من

تشبيه المفرد، لأن المقصود بيان حال العابد والمعبود. وفي الآية لطائف بيانية ذكرت في المطولات. وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ**﴾ بالياء والتاء في (تدعون) قراءتان. و (ما) إما استفهامية منصوبة بـ (يدعون) و (من) الثانية للتبيين. أو نافية و (من) مزيدة. و (شيء) مفعول (تدعون) أو مصدرية بمعنى الدعوة و (شيء) مصدر بمعناه أيضاً. أو موصولة مفعول لـ (يعلم) ومفعول (يدعون) عائده المحذوف. والكلام على الأولين تجهيل لهم وتوكيد للمثل. وعلى الآخرين وعيد لهم. أفاده القاضي ﴿**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ**﴾ يعني هذا المثل ونظائره في التنزيل ﴿**نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ**﴾ أي ليقرب ما بعد من أفهامهم. فإن الأمثال والتشبيهات طرق تبرز فيها المعاني المحتجبة للأفهام ﴿**وَمَا يَعْقِلُهَا**﴾ أي يدرك حسنها وفوائدها ﴿**إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾ أي الراسخون في العلم الكاملون فيه. وعن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب اللّه لا أعرفها، إلا أحزنني. لأني سمعت اللّه تعالى يقول: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾ ﴿**خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾ أي محقّاً مراعياً للحكم والمصالح، مقدساً عن أن يقصد به باطلاً. فالباء للملابسة، والجار والمجرور حال. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]، ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾

﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ**﴾ أي تقرباً إلى اللّه تعالى بقراءته، وتحفظاً لألفاظه، واستكشافاً لما في تضاعيفه من المعاني. فإن القارئ المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه. وتذكيراً للناس، وحملاً لهم على العمل بما فيه، من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**﴾ أي تكون سبباً للانتهاء عن ذلك. ففيه تجوز في الإسناد. فإن قلت: كم من مصلّ يرتكب ولا تنهاه صلاته! قلت: الصلاة التي هي الصلاة عند اللّه، المستحق بها الثواب، أن يدخل فيها مقدماً للتوبة النصوح متقياً، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ ويصليها خاشعاً بالقلب والجوارح. ثم يحوطها بعد

أن يصليها، فلا يحبطها، فهي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر. وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما: من لم تأمره صلاته بالمعروف، وتنهه عن المنكر، لم يزدد بصلاته من اللّه إلا بعداً.

عن الحسن رحمه اللّه: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، فليست صلاته بصلاة، وهي وبال عليه. أفاده الزمخشريّ. وقوله تعالى: ﴿**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾ قال الزمخشري: أي: ولَلصلاةُ أكبر من غيرها من الطاعات، وسماها بذكر اللّه، كما قال ﴿فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]، وإنما قال (ولذكر اللّه) ليستقل بالتعليل. كأنه قال: وللصلاةُ أكبر، لأنها ذكر اللّه. أو: ولذكر اللّه عند الفحشاء والمنكر، وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما، أكبر. فكان أولى بأن يَنْهَى من اللطف الذي في الصلاة. وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما، ولذكر اللّه إياكم برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته. انتهى. فـ (ذكر) على الأولين مصدر مضاف للمفعول. وعلى ما بعدهما مضاف للفاعل، والمفعول محذوف. والمفضل عليه في الأولين غيره من الطاعات. وفي الأخير قوله (من ذكركم).

وقال الرازي: لما ذكر تعالى أمرين، وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة، بيّن ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم، فقال ﴿**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ وأنتم إذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة، تنبشّون لذلك وتذكرونهم بملء أفواهكم وقلوبكم. لكن ذكر اللّه أكبر، فينبغي أن يكون على أبلغ وجه التعظيم. وأما الصلاة فكذلك. لأن اللّه يعلم ما تصنعون. وهذا أحسن صنعكم. فينبغي أن يكون على وجه التعظيم. وفي قوله ﴿**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ مع حذف بيان ما هو أكبر منه، لطيفة. وهي أن اللّه لم يقل: أكبر من ذكر فلان، لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة. إذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة وإنما يقال: هذا الجبل أكبر من هذا الجبل. فأسقط المنسوب كأنه قال (ولذكر اللّه له الكبر لا لغيره) وهذا كما يقال في الصلاة (اللّه أكبر) أي له الكبر لا لغيره. انتهى.

ولما بيّن تعالى طريقة إرشاد المشركين، ونفع من انتفع، وحصول اليأس ممن امتنع، بيّن طريقة إرشاد أهل الكتاب بقوله: ﴿**وَلاَ تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ أي بالخصلة التي هي أحسن. وهي اللين والأناة ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ**﴾ أي بالاعتداء، بأن أفحشوا في المقال وأقذعوا في الجدال، فلا حرج في مقابلتهم بالعنف، لتنكبهم عن جادة اللطف. وهذا كما قال تعالى ﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ

بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨]، وهذه الآية أصل في آداب المناظرة والجدل ﴿وَقُولُواْ ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي مطيعون له خاصة. وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللّه.

قال ابن كثير: يعني إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا يقدم على تكذيبه، لأنه قد يكون حقاً. ولا على تصديقه، فلعله أن يكون باطلاً. ولكن يؤمن به إيماناً مجملاً معلقاً على شرط. وهو أن يكون منزلاً، لا مبدلاً مؤوّلاً. وروى البخاري[1] عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام. فقال رسول اللّه ﷺ: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم. وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون. وهذا الحديث تفرد به البخاري.

وروى الإمام أحمد[2] عن أبي نملة الأنصاري مرفوعاً:إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم. وقولوا آمنا باللّه وكتبه ورسله. فإن كان حقّاً لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم. ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان. لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل. وما أقل الصدق فيه. ثم ما أقل فائدة كثير منه، لو كان صحيحاً.

روى البخاري[3] عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول اللّه ﷺ أحدث. تقرؤونه محضاً لم يُشَبْ. وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيّروا، وكتبوا بأيدهم الكتاب، وقالوا: هذا من عند اللّه ليشتروا به ثمناً قليلاً. ألا ينهاكم ماجاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا، واللّه! ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم.

وقال البخاري[4]: وقال أبو اليمان: أخبرنا شعيب عن الزهري. أخبرني حميد

---

(١) أخرجه البخاري في: الاعتصام، ٢٥- باب قول النبي ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء»، حديث١٩٦٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٤ /١٣٦.

(٣) أخرجه في: الشهادات، ٢٩- باب لا يُسأل أهل الشرك عن الشهادة عبرها، حديث رقم ١٣٠٠.

(٤) أخرجه البخاري في: الاعتصام، ٢٥- باب قول النبي ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء»، حديث ٢٥٩٥.

ابن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة. وذكر كعب الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب. وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب. معناه أنه يقع منه الكذب من غير قصد. لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة. لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة. ومع ذلك، وقرب العهد، وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة، لا يعلمها إلا الله عز وجل. ومن منحه الله علماً علم بذلك كل بحسبه. ولله الحمد والمنة. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ **وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ** ﴾ أي: مثل ذلك الإنزال، أنزلنا إليك الكتاب. أي أنزلناه مصدقاً لسائر الكتب السماوية ﴿ **فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ** ﴾ أي العرب ﴿ **مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ** ﴾ أي فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لما يكفل سعادة الدارين في شرائعه وقضاياه، على أميّ لم يعرف بالقراءة والتعلم، خارق للعادة. وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفي، ونفي للتجوز في الإسناد ﴿ **إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ أي لو كنت ممن يخط ويقرأ، لقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده، من كتبٍ مأثورة عن الأنبياء.

تنبيه:

قال السيوطي في (الإكليل): في هذه الآية دليل على أنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب. وفيها ردّ على من زعم أنه كتب. انتهى.

وقال ابن كثير: وهذه صفته في الكتب المتقدمة. كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، الآية. وهكذا كان رسول الله ﷺ دائما لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده. بل كان له كتّابٌ يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم. ومن زعم، من متأخري الفقهاء، كالقاضي ابن الوليد الباجي ومن تابعه، أنه

عليه السلام كتب يوم الحديبية: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. فإنما حمله على ذلك رواية[١] في صحيح البخاري (ثم أخذ فكتب) وهذه محمولة على الرواية الأخرى (ثم أمر فكتب) ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي، وتبرأوا منه وأنشدوا في ذلك أقوالاً وخطبوا به في محافلهم. وإنما أراد الرجل أعني الباجي فيما يظهر عنه. أنه كتب ذلك على وجه المعجزة. لا أنه كان يحسن الكتابة. وما أورده بعضهم من الحديث؛ أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل له. انتهى.

وقال الشهاب: وممن ذهب إلى أنه كان يحسن الكتابة، أبو ذرّ الهروي وأبو الفتح النيسابوري وأبو الوليد الباجي من المغاربة. وصنف فيه كتاباً، وسبقه إليه ابن منبه. ولما قال أبو الوليد ذلك، طعن فيه ورمي بالزندقة وسب على المنابر، ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مدعاه وكتب به إلى علماء الأطراف. فأجابوا بما يوافقه. وأن معرفة الكتابة بعد أميّته لا تنافي المعجزة. بل هي معجزة أخرى، لكونها من غير تعليم. ورد الإمام محمد بن مفوز كتاب الباجي لما في الحديث الصحيح[٢] (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) وقال: كل ما ورد في الحديث من قوله (كتب) فمعناه أمر بالكتابة. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي العلماء به وحفاظه. وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز، وكونه محفوظاً في الصدور، يتلوه أكثر الأمة ظاهراً. بخلاف سائر الكتب. فإنها لم تكن معجزات، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف. ومنه ما جاء في صفة هذه الأمة (صدورهم

(١) أخرجه في: الشروط، ١٥- باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط، حديث ٨٨١ و ٨٨٢ عن المسوّر بن مخرمة ومروان.

(٢) أخرجه البخاري في: الصوم، ١٣- باب قول النبي ﷺ: «لا نكتب ولا نحسب»، حديث ٩٦٨، عن ابن عمر.

أناجيلهم). كذا في الكشاف. ﴿**وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِن رَبِّهِ**﴾ يعنون ما كانوا يقترحونه في تعنتهم ﴿**قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ**﴾ أي هو يملك إنزالها، ولو شاء لفعل ﴿**وَإِنَّمَا أَنَاْ نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ أي ليس من شأني إلا الإنذار وإبانته، لا الإتيان بما تقترحونه. ثم أشار إلى أن في آية تنزيل الكتاب، غنية عن كل آية مقترحة. لما أن الدور انقلب من الآيات الآفاقية، إلى الآيات العلمية، وفاقاً لسنة الترقي، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ**﴾ أي آية مغنية عما اقترحوه ﴿**أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ**﴾ أي وفيه نفسه من الآيات والمعجزات ما لا يرتاب معه إلا من سفه نفسه، وكابر حسه ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ**﴾ أي الكتاب الذي هو آية مستمرة وحجة بالغة ظاهرة ﴿**لَرَحْمَةً**﴾ أي لنعمة عظيمة في هدايته إلى الحق وإلى صراط مستقيم ﴿**وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ أي تذكرة لقوم، همهم الإيمان دون التعنت ﴿**قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً**﴾ أي إني قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم، وإنكم قابلتموني بالجحد والتكذيب. يعني. كفى علمه بذلك. وجوز أن يكون المعنى شهيداً بصدقي بالتأييد والحفظ، أي هو شاهد على ما جئت به، مصدق له تصديق الشاهد لدعوى المدعي.

قال ابن كثير: أي فلو كنت غير محقّ، لانتقم مني، كما قال تعالى ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ

حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به. ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات. انتهى ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي فلا يخفى عليه حالي وحالكم ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُواْ بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أي استهزاء ﴿وَلَوْ لاَ أَجَلٌ مُسمّىً﴾ أي لكل عذاب أو قوم، وهو وقته المعين له فيهما ﴿لجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي عاجلاً ﴿وَلَيأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ أي فجأة في الدنيا. كوقعه بدر. فقد كانوا لغرورهم لا يتوقعون غلبة المسلمين. أو في الآخرة عند نزول الموت بهم ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي ستحيط بهم. أي يستعجلونك بالعذاب وهو واقع بهم لا محالة. أو هي كالمحيطة بهم. لأن كل آت قريب.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاءه ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ وهذا خطاب لمن لم تمكنه عبادته تعالى وحده في أرضه، لإيذائه في الله واضطهاده في جانبه، أن يهاجر عنها إلى بلد ما، يقدّر أنه فيه أسلم قلباً، وأصح ديناً، وآمن نفساً. وأن يتجنب المقام في بلده على تلك الحالة، كيلا يفتنه الكافرون. أو يعرض نفسه للتهلكة، وقد جعل له منها مخرج. وكون أرض الله واسعة، مذكور للدلالة على المقدر. وهو كالتوطئة لما بعده. لأنها مع سعتها، وإمكان التفسح فيها، لا ينبغي الإقامة بأرض لا يتيسر بها للمرء ما يريده. كما قيل:

* وكل مكان ينبت العز طيب *

وقال آخر:

إذا كان أصلي من تراب فكلُّها بلادي، وكلُّ العالمين أقاربي

وقد روى الإمام[1] أحمد عن الزبير: قال: قال رسول الله ﷺ: البلاد بلاد الله والعباد عباد الله. فحيثما أصبت خيراً فأقم. ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير نزل بها، عند ملكها النجاشيّ رحمه الله. ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه

(١) أخرجه في مسنده ١/١٦٦. حديث رقم ١٤٢٠.

الباقون إلى المدينة المنورة، عملاً بالآية الكريمة. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾

﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾ تحريض على العبادة وإخلاص الدين بتذكير الموت والرجعى. أو تسلية للمهاجر إلى الله، وتشجيع له، بأن لا يثبطه عن هجرته خوف الموت بسببها. فلا المقام بأرضه يدفعه، ولا هجرته عنه تمنعه. وفيه استعارة بديعة لتشبيه الموت بأمر كريه الطعم، مُرّه ﴿ **والَّذِينَ ءامَنُواْ وعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّة غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا** ﴾ أي على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين. وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب ﴿ **وَعَلى رَبِّهِمْ يَتوكَّلُونَ** ﴾ ثم أشار تعالى إلى كفالته لمن هاجر إليه، من الفقر والضيعة، بقوله سبحانه ﴿ **وَكَأَيِّن** ﴾ أي: وكم ﴿ **مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا** ﴾ أي لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ﴿ **اللَّهُ يَرْزُقُهَا وإِيَّاكُمْ** ﴾ أي يقيّض لها رزقها على ضعفها، ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم. فهو الميسّر والمسهّل لكل مخلوق من رزقه ما يصلحه. فلا يختص رزقه ببقعة دون أخرى، بل خيره عامّ وفضله شامل لخلقه، حيث كانوا وأنّى وجدوا. وقد ظهر مصداق كفالته تعالى لأولئك المهاجرين، بما وسع عليهم وبسط لهم من طيب الرزق ورغد العيش وسيادة البلاد في سائر الأمصار. وهذا معنى ما ورد مرفوعاً (سافروا تصحوا وتغنموا) رواه البيهقيّ ﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ** ﴾ يعني هؤلاء المشركين الذين يعبدون معه غيره ﴿ **مَّنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ أي اعترافاً بأنه المنفرد بخلقها ﴿ **فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ أي فكيف مع هذا الاعتراف يصرفون عن عبادته وحدَه، ويشركون بها ما لا يضر ولا ينفع. وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي فيفعل بعلمه، ما تقتضيه حكمته. **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾** أي على أن جعل الحق بحيث لا يجترئ المبطلون على جحوده. وأنه أظهر حجتك عليهم. والمعنى: احمد الله عند جوابهم المذكور على إلزامهم وظهور نِعَمٍ لا تحصى **﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾** أي فلذلك يتناقضون حيث ينسبون النعمة إليه، ويعبدون غيره. وقوله: **﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾** إشارة إلى ازدراء الدنيا وتحقير شأنها، وكونها في سرعة زوالها، وتقضّي أمرها، كما يلهّى ويلعب به الصبيان، ثم يتفرقون عنه. ولا ثمرة إلا التعب. ففي الحصر تشبيه بليغ **﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾** أي دار الحياة الخالدة. ففيه مضاف مقدر. و (الحيوان) مصدر سمّي به ذو الحياة، في غير هذا المحل. وإيثاره على (الحياة) لما فيه من المبالغة. لأن (فعلان) بالفتح في المصادر الدالة على الحركة **﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾** أي لم يؤثروا عليها الدنيا التي حياتها عارضة. وهذا جواب الشرط المقدر، لعلمه من السياق. وكونُها للتمني بعيد.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي الدعاء. لعلمهم أنه لا ينجيهم من الغرق سواه **﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءاتَيْنَاهُمْ﴾** أي من نعمة النجاة وربح التجارة **﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾** أي عاقبة ذلك حين يعاقبون **﴿أَوَ**

لَمْ يَرَوْا﴾ أي أهل مكة ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءَامِناً﴾ أي لا يُغْزى أهله، ولا يغار عليهم، مع قلتهم وكثرة العرب ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي يختلسون قتلاً ونهباً وسبياً ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: افبعد هذه النعمة الظاهرة وغيرها من النعم، التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى، يكفرون خيره، ويشركون معه غيره.

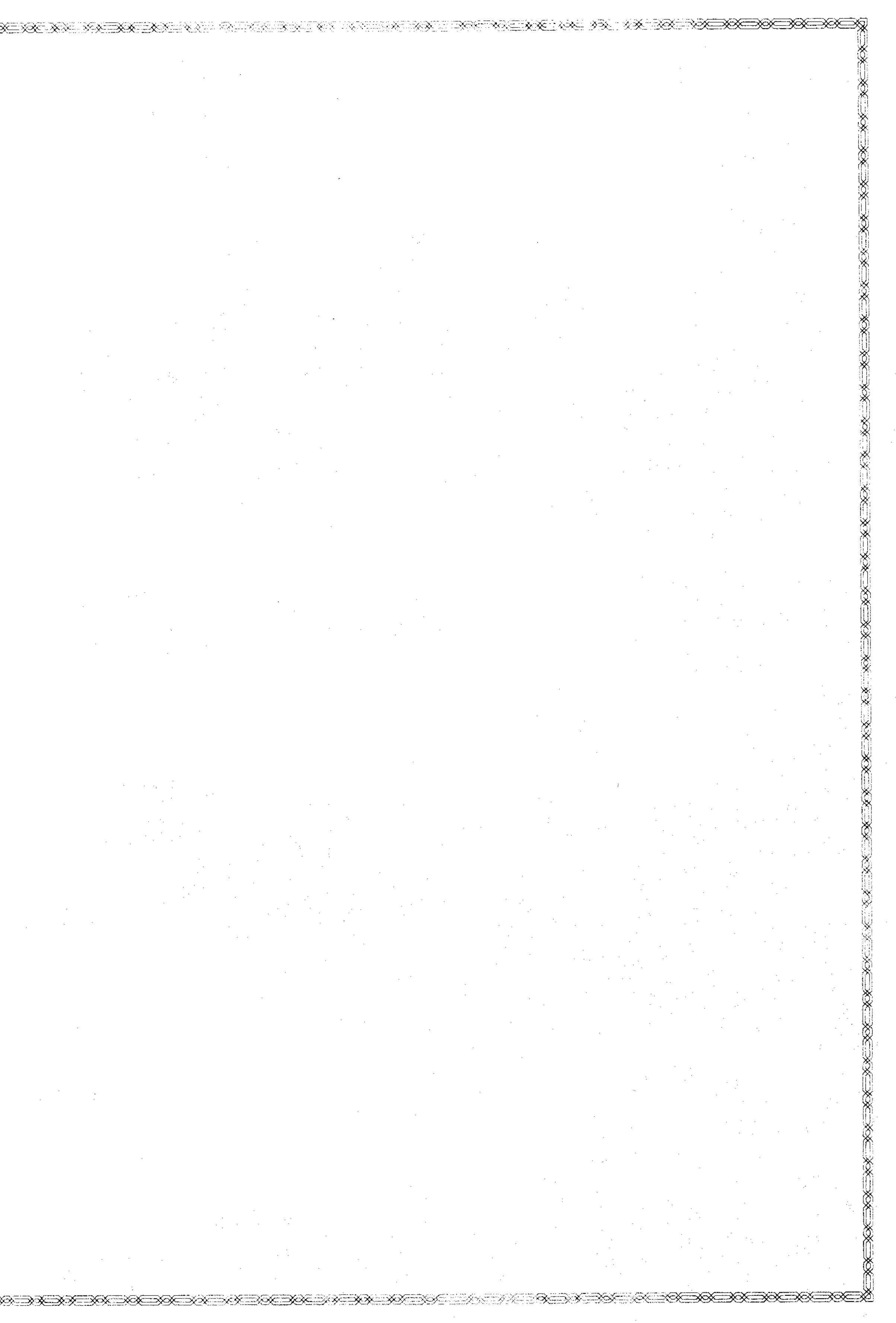
القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ بأن زعم أن له شريكاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ يعني الرسول أو الكتاب ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ﴾ أي موضع إقامة، جزاء افترائهم وكفرهم. بلى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي جاهدوا النفس والشيطان والهوى وأعداء الدين، من أجلنا ولوجهنا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا. وذلك بالطاعات والمجاهدات ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أعمالهم بالنصر والمعونة.

تم الجزء السابع ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن وفيه:

(٣٠- سورة الروم، ٣١- سورة لقمان، ٣٢- سورة السجدة، ٣٣- سورة الأحزاب، ٣٤- سورة سبأ، ٣٥- سورة فاطر، ٣٦- سورة ياسين، ٣٧- سورة الصافات، ٣٨- سورة ص، ٣٩- سورة الزمر، ٤٠- سورة غافر، ٤١- سورة فصلت، ٤٢- سورة الشورى، ٤٣- سورة الزخرف، ٤٤- سورة الدخان، ٤٥- الجاثية، ٤٦- سورة الأحقاف، ٤٧- سورة محمد ﷺ، ٤٨- سورة الفتح، ٤٩- سورة الحجرات).



فهرس الجزء السابع

سورة الكهف

الآيات ١ – ٣	٤
الآية ٤	٥
الآيتان ٥ و ٦	٦
الآيات ٧ – ١٠	٧
الآيات ١١ – ١٣	٨
الآية ١٤	٩
الآيتان ١٥ و ١٦	١٠
الآية ١٧	١١
الآية ١٨	١٢
الآية ١٩	١٣
الآية ٢٠	١٤
الآية ٢١	١٥
الآية ٢٢	١٨
الآيتان ٢٣ و ٢٤	٢٢
الآيتان ٢٥ و ٢٦	٢٤
الآية ٢٧	٢٦
الآية ٢٨	٢٩
الآية ٢٩	٣٠
الآيات ٣٠ – ٣٤	٣٢
الآيتان ٣٥ و ٣٦	٣٣
الآيتان ٣٧ و ٣٨	٣٤
الآيات ٣٩ – ٤١	٣٥
الآيتان ٤٢ و ٤٣	٣٦
الآية ٤٤	٣٧
الآية ٤٥	٣٨
الآية ٤٦	٣٩
الآيتان ٤٧ و ٤٨	٤٠
الآية ٤٩	٤١
الآيتان ٥٠ و ٥١	٤٢
الآيتان ٥٢ و ٥٣	٤٣
الآيات ٥٤ – ٥٦	٤٤
الآيتان ٥٧ و ٥٨	٤٥
الآيتان ٥٩ و ٦٠	٤٦
الآيات ٦١ – ٦٣	٤٧
الآيات ٦٤ – ٦٨	٤٨
الآيات ٦٩ – ٧٢	٤٩

الآيات ٧٣ – ٧٦	٥٠
الآيتان ٧٧ و ٧٨	٥١
الآيات ٧٩ – ٨٢	٥٢
الآيات ٨٣ – ٨٦	٦٤
الآيات ٨٧ – ٩٠	٦٥
الآيات ٩١ – ٩٥	٦٦
الآيات ٩٦ – ٩٨	٦٧
الآيات ٩٩ – ١٠١	٧٨
الآية ١٠٢	٧٩
الآيات ١٠٣ – ١٠٩	٨٠
الآية ١١٠	٨٢
سورة مريم	
الآيات ١ – ٤	٨٤
الآيتان ٥ و ٦	٨٥
الآيات ٧ – ٩	٨٦
الآيتان ١٠ – ١١	٨٧
الآيات ١٢ – ١٦	٨٨
الآيات ١٧ – ٢٠	٨٩
الآيتان ٢١ و ٢٢	٩٠
الآيات ٢٣ – ٢٥	٩١
الآيات ٢٦ – ٢٨	٩٢
الآيات ٢٩ – ٣٦	٩٣
الآيتان ٣٧ و ٣٨	٩٧
الآيات ٣٩ – ٤٢	٩٩
الآيات ٤٣ – ٤٥	١٠٠
الآيتان ٤٦ و ٤٧	١٠١
الآيتان ٤٨ و ٤٩	١٠٢
الآيات ٥٠– ٥٥	١٠٣
الآيات ٥٦ – ٥٨	١٠٤
الآية ٥٩	١٠٥
الآيات ٦٠ – ٦٣	١٠٦
الآيات ٦٤ – ٦٦	١٠٧
الآيات ٦٧ – ٧٠	١٠٨
الآيات ٧١ – ٧٣	١٠٩
الآيات ٧٤ – ٧٦	١١٠
الآيات ٧٧ – ٨٠	١١١
الآيات ٨١ – ٨٣	١١٢
الآيات ٨٤ – ٨٧	١١٣
الآيات ٨٨ – ٩٣	١١٤
الآيات ٩٤ – ٩٧	١١٥
الآية ٩٨	١١٦
سورة طه	
الآيات ١ – ٣	١١٨
الآيات ٤ – ٧	١١٩

الآيات ٨ – ١٢ ١٢٠
الآيات ١٣ – ١٥ ١٢١
الآيات ١٦ – ١٨ ١٢٢
الآيات ١٩ – ٢٤ ١٢٣
الآيات ٢٥ – ٣٧ ١٢٤
الآيات ٣٨ – ٤٠ ١٢٥
الآيتان ٤١ و ٤٢ ١٢٦
الآيات ٤٣ – ٤٦ ١٢٧
الآيات ٤٧ – ٥٢ ١٢٨
الآية ٥٣ ١٢٩
الآيات ٥٤ – ٦٠ ١٣٠
الآيات ٦١ – ٦٣ ١٣١
الآية ٦٤ ١٣٣
الآيات ٦٥ – ٧١ ١٣٤
الآيتان ٧٢ و ٧٣ ١٣٥
الآيات ٧٤ – ٧٦ ١٣٦
الآيات ٧٧ – ٧٩ ١٣٨
الآيات ٨٠ – ٨٢ ١٣٩
الآيات ٨٣ – ٨٥ ١٤٠
الآيات ٨٦ – ٨٨ ١٤١
الآيات ٨٩ – ٩٣ ١٤٢
الآيات ٩٤ – ٩٧ ١٤٣
الآية ٩٧ ١٤٤
الآية ٩٨ ١٤٥
الآيات ٩٩ – ١٠٣ ١٤٦
الآية ١٠٤ ١٤٧
الآيات ١٠٥ – ١٠٩ ١٤٨
الآيات ١١٠ – ١١٤ ١٤٩
الآيات ١١٥ – ١١٧ ١٥٠
الآيتان ١١٨ و ١١٩ ١٥١
الآيات ١٢٠ – ١٢٣ ١٥٢
الآيات ١٢٤ – ١٢٧ ١٥٣
الآيتان ١٢٨ و ١٢٩ ١٦٤
الآية ١٣٠ ١٦٥
الآية ١٣١ ١٦٦
الآية ١٣٢ ١٦٧
الآية ١٣٣ ١٦٨
الآيتان ١٣٤ و ١٣٥ ١٧١

سورة الأنبياء

الآيتان ١ و ٢ ١٧٣
الآية ٣ ١٧٦
الآيات ٤ – ٦ ١٧٧
الآيتان ٧ و ٨ ١٧٨
الآيتان ٩ و ١٠ ١٧٩

الآيات ١١ – ١٦	١٨٠
الآيتان ١٧ و ١٨	١٨١
الآيات ١٩ – ٢١	١٨٢
الآية ٢٢	١٨٣
الآيتان ٢٣ و ٢٤	١٨٧
الآيات ٢٥ – ٢٧	١٨٨
الآيتان ٢٨ و ٢٩	١٨٩
الآية ٣٠	١٩٠
الآية ٣١	١٩١
الآيتان ٣٢ و ٣٣	١٩٢
الآيتان ٣٤ و ٣٥	١٩٣
الآيتان ٣٦ و ٣٧	١٩٤
الآيات ٣٨ – ٤١	١٩٥
الآيتان ٤٢ و ٤٣	١٩٦
الآيات ٤٤ – ٤٥	١٩٧
الآيات ٤٦ – ٤٩	١٩٨
الآيات ٥٠ – ٥٢	١٩٩
الآيات ٥٣ – ٥٧	٢٠٠
الآيات ٥٨ – ٦٣	٢٠١
الآية ٦٤	٢٠٢
الآيات ٦٥ – ٦٧	٢٠٣
الآيتان ٦٨ و ٦٩	٢٠٤
الآيات ٧٠ – ٧٣	٢٠٥
الآيات ٧٤ – ٧٧	٢٠٦
الآيتان ٧٨ و ٧٩	٢٠٧
الآية ٨٠	٢١١
الآيتان ٨١ و ٨٢	٢١٢
الآيتان ٨٣ و ٨٤	٢١٣
الآيتان ٨٥ و ٨٦	٢١٤
الآيتان ٨٧ و ٨٨	٢١٥
الآيتان ٨٩ و ٩٠	٢١٩
الآية ٩١	٢٢٠
الآيتان ٩٢ و ٩٣	٢٢١
الآيتان ٩٤ و ٩٥	٢٢٢
الآيتان ٩٦ و ٩٧	٢٢٣
الآيات ٩٨ – ١٠٣	٢٢٤
الآيات ١٠٤ – ١٠٧	٢٢٥
الآيات ١٠٨ – ١١٢	٢٢٧
سورة الحج	
الآية ١	٢٣٠
الآيتان ٢ و ٣	٢٣١
الآيتان ٤ و ٥	٢٣٢
الآيتان ٦ و ٧	٢٣٣
الآيات ٨ – ١٠	٢٣٤

الآيتان ١١ و ١٢ ٢٣٥
الآيتان ١٣ و ١٤ ٢٣٦
الآيات ١٥ – ١٧ ٢٣٧
الآيتان ١٨ و ١٩ ٢٣٨
الآيات ٢٠ – ٢٥ ٢٣٩
الآيات ٢٦ – ٢٨ ٢٤٠
الآيات ٢٩ – ٣١ ٢٤٢
الآية ٣٢ ٢٤٥
الآيتان ٣٣ و ٣٤ ٢٤٦
الآيتان ٣٥ و ٣٦ ٢٤٧
الآيتان ٣٧ و ٣٨ ٢٤٨
الآيتان ٣٩ و ٤٠ ٢٤٩
الآيات ٤١ – ٤٤ ٢٥٠
الآيتان ٤٥ و ٤٦ ٢٥١
الآيتان ٤٧ و ٤٨ ٢٥٢
الآيات ٤٩ – ٥١ ٢٥٣
الآيات ٥٢ – ٥٤ ٢٥٤
الآيتان ٥٥ و ٥٦ ٢٧٠
الآيات ٥٧ – ٦٠ ٢٧١
الآيات ٦١ – ٦٥ ٢٧٢
الآيتان ٦٦ و ٦٧ ٢٧٣
الآيات ٦٨ – ٧٤ ٢٧٤
الآيتان ٧٥ و ٧٦ ٢٧٥
الآية ٧٧ ٢٧٦
الآية ٧٨ ٢٧٨

سورة المؤمنون

الآيات ١ – ٧ ٢٨١
الآيات ٨ – ١١ ٢٨٣
الآيات ١٢ – ١٧ ٢٨٤
الآيات ١٨ – ٢٠ ٢٨٥
الآيتان ٢١ و ٢٢ ٢٨٦
الآيات ٢٣ – ٢٥ ٢٨٧
الآيات ٢٦ – ٣٠ ٢٨٨
الآيات ٣١ – ٤١ ٢٨٩
الآيات ٤٢ – ٤٨ ٢٩٠
الآيات ٤٩ – ٥١ ٢٩١
الآيات ٥٢ – ٥٦ ٢٩٢
الآيات ٥٧ – ٦١ ٢٩٣
الآيتان ٦٢ و ٦٣ ٢٩٤
الآيات ٦٤ – ٦٧ ٢٩٥
الآيات ٦٨ – ٧٠ ٢٩٦
الآيات ٧١ – ٧٤ ٢٩٧
الآيتان ٧٥ و ٧٦ ٢٩٨
الآيات ٧٧ – ٨١ ٢٩٩

الآيات ٨٢ – ٨٩	٣٠٠
الآيات ٩٠ – ١٠٠	٣٠١
الآية ١٠١	٣٠٢
الآيات ١٠٢ – ١٠٤	٣٠٣
الآيات ١٠٥ – ١١٤	٣٠٤
الآيات ١١٥ – ١١٨	٣٠٥
سورة النور	
الآية ١	٣٠٨
الآية ٢	٣١٠
الآية ٣	٣٢٢
الآيتان ٤ و ٥	٣٢٧
الآيتان ٦ و ٧	٣٣٢
الآيات ٨ – ١٠	٣٣٣
الآية ١١	٣٣٦
الآيتان ١٢ و ١٣	٣٣٧
الآيتان ١٤ و ١٥	٣٣٨
الآيات ١٦ – ١٩	٣٣٩
الآيات ٢٠ – ٢٢	٢٤٠
الآيات ٢٣ – ٢٥	٢٤١
الآية ٢٦	٣٤٢
الآيتان ٢٧ و ٢٨	٣٦٨
الآيتان ٢٩ و ٣٠	٣٧٠
الآية ٣١	٣٧٤
الآية ٣٢	٣٨٠
الآية ٣٣	٣٨٢
الآية ٣٤	٣٨٥
الآية ٣٥	٣٨٦
الآيات ٣٦ – ٣٨	٣٩٠
الآية ٣٩	٣٩٢
الآية ٤٠	٣٩٣
الآيتان ٤١ و ٤٢	٣٩٨
الآيتان ٤٣ و ٤٤	٣٩٩
الآيات ٤٥ – ٥٠	٤٠٠
الآيات ٥١ – ٥٣	٤٠١
الآية ٥٤	٤٠٢
الآيات ٥٥ – ٥٧	٤٠٣
الآية ٥٨	٤٠٤
الآية ٥٩	٤٠٥
الآية ٦٠	٤٠٦
الآية ٦١	٤٠٧
الآية ٦٢	٤١١
الآية ٦٣	٤١٢
الآية ٦٤	٤١٤

سورة الفرقان

الآية ١	٤١٦
الآيات ٢ ـ ٥	٤١٧
الآية ٦	٤١٨
الآيتان ٧ و ٨	٤١٩
الآيات ٩ ـ ١١	٤٢٠
الآيات ١٢ ـ ١٤	٤٢١
الآيات ١٥ ـ ١٨	٤٢٢
الآيتان ١٩ و ٢٠	٤٢٣
الآيات ٢١ ـ ٢٣	٤٢٤
الآيات ٢٤ ـ ٣٠	٤٢٥
الآية ٣١	٤٢٦
الآيات ٣٢ ـ ٣٦	٤٢٧
الآيات ٣٧ ـ ٤٢	٤٢٨
الآيتان ٤٣ و ٤٤	٤٢٩
الآيات ٤٥ ـ ٤٩	٤٣٠
الآيات ٥٠ ـ ٥٢	٤٣١
الآية ٥٣	٤٣٢
الآيات ٥٤ ـ ٥٧	٤٣٣
الآيتان ٥٨ و ٥٩	٤٣٤
الآيات ٦٠ ـ ٦٢	٤٣٥
الآيات ٦٣ ـ ٦٦	٤٣٦
الآيات ٦٧ ـ ٧٠	٤٣٧
الآية ٧١	٤٤٣
الآيتان ٧٢ و ٧٣	٤٤٤
الآيات ٧٤ ـ ٧٧	٤٤٥

سورة الشعراء

الآيات ١ ـ ٤	٤٤٨
الآيات ٥ ـ ٩	٤٤٩
الآيات ١٠ ـ ١٩	٤٥٠
الآيات ٢٠ ـ ٢٥	٤٥١
الآيات ٢٦ ـ ٢٨	٤٥٢
الآيات ٢٩ ـ ٣٩	٤٥٥
الآيات ٤٠ ـ ٥٠	٤٥٦
الآيات ٥١ ـ ٥٨	٤٥٧
الآيات ٥٩ ـ ٦٣	٤٥٨
الآيات ٦٤ ـ ٨١	٤٥٩
الآيات ٨٢ ـ ٨٤	٤٦١
الآيات ٨٥ ـ ٨٩	٤٦٢
الآيات ٩٠ ـ ٩٤	٤٦٣
الآيات ٩٥ ـ ١٠٤	٤٦٤
الآيات ١٠٥ ـ ١١٢	٤٦٥
الآيات ١١٣ ـ ١٢٨	٤٦٦
الآيات ١٢٩ ـ ١٣٥	٤٦٧

الآيات ١٣٦ – ١٤٦ ٤٦٨
الآيات ١٤٧ – ١٦٦ ٤٦٩
الآية ١٦٧ ٤٧٠
الآيات ١٦٨ – ١٧٢ ٤٧١
الآيات ١٧٣ – ١٧٦ ٤٧٢
الآيات ١٧٧ – ١٨٨ ٤٧٣
الآيات ١٨٩ – ١٩١ ٤٧٤
الآيات ١٩٢ – ١٩٧ ٤٧٥
الآيات ١٩٨ – ٢١٣ ٤٧٦
الآيات ٢١٤ – ٢٢٢ ٤٧٧
الآيات ٢٢٣ – ٢٢٦ ٤٧٨
الآية ٢٢٦ ٤٧٩
الآية ٢٢٧ ٤٨٠

سورة النمل

الآيات ١ – ٣ ٤٨٤
الآيات ٤ – ٨ ٤٨٥
الآيات ٩ – ١٢ ٤٨٧
الآيات ١٣ – ١٦ ٤٨٨
الآيات ١٧ – ٢٥ ٤٨٩
الآية ٢٦ ٤٩٠
الآيات ٢٧ – ٣٥ ٤٩١
الآيات ٣٦ – ٤٢ ٤٩٢
الآيتان ٤٣ و ٤٤ ٤٩٤
الآيات ٤٥ – ٤٧ ٤٩٦
الآيات ٤٨ – ٥٩ ٤٩٧
الآيات ٦٠ – ٦٣ ٥٠٠
الآيتان ٦٤ و ٦٥ ٥٠١
الآية ٦٦ ٥٠٢
الآيات ٦٧ – ٧٠ ٥٠٣
الآيات ٧١ – ٧٦ ٥٠٤
الآيات ٧٧ – ٨١ ٥٠٥
الآية ٨٢ ٥٠٦
الآيتان ٨٣ و ٨٤ ٥٠٧
الآيات ٨٥ – ٨٩ ٥٠٨
الآيات ٩٠ – ٩٣ ٥١١

سورة القصص

الآيات ١ – ٨ ٥١٤
الآيات ٩ – ١١ ٥١٥
الآيات ١٢ – ١٧ ٥١٦
الآيات ١٨ – ٢٣ ٥١٧
الآيتان ٢٤ و ٢٥ ٥١٨
الآيات ٢٦ – ٢٨ ٥١٩
الآيات ٢٩ – ٣٢ ٥٢٠
الآيات ٣٢ – ٣٥ ٥٢١

الآيات ٣٦ – ٣٨	٥٢٢
الآيات ٣٩ – ٤٣	٥٢٣
الآيات ٤٤ – ٤٨	٥٢٤
الآيتان ٤٩ و ٥٠	٥٢٥
الآيات ٥١ – ٥٥	٥٢٦
الآيات ٥٦ – ٥٨	٥٢٨
الآيات ٥٩ – ٦٦	٥٣٠
الآيات ٦٦ – ٦٨	٥٣١
الآيات ٦٩ – ٧٢	٥٣٥
الآيات ٧٢ – ٧٦	٥٣٦
الآيات ٧٧ – ٨٢	٥٣٧
الآيات ٨٣ – ٨٥	٥٤٠
الآيتان ٨٥ و ٨٦	٥٤١
الآيتان ٨٧ و ٨٨	٥٤٢
سورة العنكبوت	
الآيات ١ – ٣	٥٤٥
الآيات ٤ – ٧	٥٤٦
الآيتان ٨ و ٩	٥٤٧
الآيات ١٠ – ١٣	٥٤٨
الآيات ١٤ – ١٩	٥٤٩
الآيات ٢٠ – ٢٤	٥٥٠
الآيات ٢٥ – ٢٩	٥٥١
الآيات ٣٠ – ٣٣	٥٥٣
الآيات ٣٤ – ٣٨	٥٥٤
الآيات ٣٩ – ٤٤	٥٥٥
الآيتان ٤٥ و ٤٦	٥٥٦
الآيتان ٤٧ و ٤٨	٥٥٩
الآيتان ٤٩ و ٥٠	٥٦٠
الآيات ٥١ – ٥٦	٥٦١
الآيات ٥٧ – ٦١	٥٦٣
الآيات ٦٢ – ٦٧	٥٦٤
الآيتان ٦٨ و ٦٩	٥٦٥

